

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ١٥

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

محرقة ٢



Bibliotheca Alexandrina

0098645





الأعمال الأدبية الكاملة
المجلد الخامس عشر

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر

بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شيارو

ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٢٥٢٨٢٣

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

● المراهق - ٢ -

● قصص

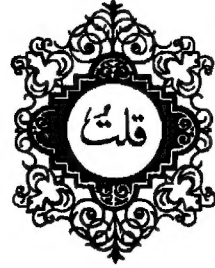
- بوبوك
- الطفل عند سدع
- الفلاح ماري
- عجوز تجاوز عمرها مائة سنة
- العذب
- حلم رجل مضحك
- خطاب عن بوشكين

جميع الحقوق محفوظة

المدرسة
٢

الفصل السادس

١



عازما أمري وأنا أعود الى البيت مسرعا :
« واضح • يجب أن أذهب اليها • يجب أن
أذهب اليها فوراً • ومن الجائز جداً أن أجدها
وحدها ، وحدها أو مع غيرها ، سيان : ففى

وسعى أن أدعوها ، وسوف تستقبلنى ، ستدهش لكنها ستستقبلنى ، وإذا لم
تستقبلنى ألححت عليها أن تستقبلنى مرسلًا من يقول لها ان على أن أراها •
حتمًا فتعتقد أن لمجيئى صلة بالوثيقة ، فتستقبلنى ، فأعلم كل شىء عن
أمر تاتيانا ••• ثم ••• ماذا ؟ إذا ثبت أننى على خطأ ، كفرت لها عن
خطئى ، وإذا ثبت أننى على حق وأنها على خطأ ، انتهى كل شىء • وقد
انتهى كل شىء على كل حال • ماذا الذى أخسره ؟ لا شىء ! هلم •••
هلم ! •••

ولكننى لم أذهب • لن أنسى هذا أبداً ، وسأظل أتذكره بفخر
واعتراز • لن أعلم بذلك أحد ، سيظل مجهولاً ، ولكن يكفى
أن أعرفه أنا ، يكفى أن أعرف اننى فى تلك اللحظة استطعت أن أكون
نيلاً نبلاً لا نهاية له ! قلت لنفسى بعد تفكير : « هى محاولة اغواء •
لكننى سأغض النظر عنها • وقد أريد لى أن أرتاع ، ولكننى لم أصدق ،
ولم أفقد ايمانى بطهارتها ! علام أذهب اليها ؟ وعم أسألها ؟ لماذا يكون
عليها أن تثق بى كما أثق بها ، أن تؤمن بطهارتى ، ألا تخشى
« حرارة اندفاعى ، ولا تحتمى بتاتيانا بافلوفنا ؟ اننى لم استحق بعد شيئاً

من ذلك كله فى نظرها • فلتجهل أنتى أستحق ذلك ، وأنتى لا انقاد
للاغواءات ، واننى لا أصدق ألسنة السوء ! لتجهل هى ذلك كله •
ولكننى سأعلمه أنا ، فازداد احتراماً لنفسى • سأحترم عاطفتى • صحيح
أنها جعلتنى أتكلم على مسمع من تاتيانا، لقد قبلت تاتيانا ، كانت تعلم أن
تاتيانا هناك وأنها تنصت (لا يمكن الا أن تنصت) ، وكانت تعلم أن
تاتيانا تسخر منى ... آه ... شئ فظيع ! شئ فظيع ! .. ولكن لعلها
كان يستجبل عليها أن تتجنب ذلك ! ماذا كان فى وسعها أن تعمل اذا
استحال عليها أن تتجنب ذلك ؟ كيف يمكننى أن أتهمها ؟ أفلم أكذب
عليها أنا نفسى بصدد كرافت ؟ ألم أخدعها أنا أيضاً لأنتى استحال على
أن أتجنب ذلك ؟ أنا أيضاً كذبت هذا الكذب البريء على غير
ارادة منى •

وهتفت أقول فجأة وأنا أحمر وأشعر بألم شديد : رباه ! رباه !
ما هذا الذى فعلته أنا ؟ ألم أستدرجها على مسمع من تاتيانا هذه نفسها ؟
ألم أقصص كل شئ على فرسيلوف ؟ ولكن لماذا أتكلم عن نفسى ؟ ان
هناك فرقاً ضخماً • لقد كان الأمر أمر الوثيقة فحسب • والحق أنتى لم
أحدث فرسيلوف الا عن الوثيقة ، اذ لم يكن ثمة شئ آخر أحدثه عنه ،
ولا يمكن أن يكون ثمة شئ آخر أحدثه عنه • ألسنت أنا الذى بادرت
الى ابلاغه ، وصحت أقول • انه لا يمكن أن يكون ثمة شئ آخر • ؟
هذا رجل يدرك الأمور • هم • ولكن ما هذا الكره الشديد لا يزال
يحمله قلبه لهذه المرأة حتى الآن ! ما عسى تكون القصة التى جرت بينهما
فى الماضى ؟ لا شك أن حبه لنفسه هو سبب كل شئ • • هذا رجل
لا يقدر أن يحس الا عاطفة واحدة هى حبه لذاته حباً لا حدود له ،
(بالفرنسية) •

نعم ، أفلت منى هذه الفكرة حتى اننى لم أتنبه اليها • تلكم هى

الخواطر الى تلاحقت فى ذهنى سريعة ، وكنت عندئذ صادقاً مع نفسى :
لم أكن أخادع ، ولم أكن أحاول أن أغشّ نفسى . وإذا كان ثمة شئ
لم أستطع أن أدركه فى تلك اللحظة ، فانما مرد ذلك الى فقدان الفهم
لا الى مخادعة النفس .

وعدت الى البيت مهتاجاً احتياجاً شديداً ، وكنت مريح المزاج برغم
الاضطراب القوى ، لا أدري لماذا ! ولكننى كنت أخشى أن أحلل نفسى ،
وكنت أبذل كل ما أملك من قوة فى سبيل أن أسلو . فسرعان ما ذهبت
الى المؤجرة . فرأيت أن شجاراً عنيفاً قد نشب بينها وبين زوجها فعلاً .
انها امرأة موظف مصابة بداء السل اصابة قوية ، وهى طيبة القلب ،
لكنها كسائر المصدورين صاحبة نزوات جامحة . فأسرعت أصلح بينهما .
ثم ذهبت الى المستأجر الثرس ، وهو موظف فى بنك ، غليظ القلب ،
فظ الطبع ، أنانى ، مجرور الوجه ، اسمه تشرفياكوف ، كنت لا أحبه
كثيراً ولكن العلاقات بينى وبينه كانت حسنة ، لأننى كنت أستعذب أن
أستهزئ معه ببطرس هيبوليتوفتش . فسرعان ما أقنعته ألا يترك
المنزل الى مسكن آخر ، ولم يكن عازماً على ذلك على كل حال . وأفلحت
فى تهدئة المؤجرة تهدئة حاسمة ، واستطعت عدا هذا أن أسوى لها
مخدتها . فقالت فى مكر : « ذلك ما لا يستطيع بطرس هيبوليتوفتش
أن يفعله أبداً » . ثم عكفت فى المطبخ على الاهتمام بكمداتها ، فصنعت
لها يدي كمادتين رائعتين . فكان المسكين بطرس هيبوليتوفتش ينظر الى
حامداً ، ولكننى لم أسمح له حتى يلمس الكمادات ! وقد كوفت على
صنعي بامتنان عبّر عن نفسه بدموع صادقة . ثم لم ألبث أن شعرت
بضجر من هذا كله على حين فجأة - لا أزال أتذكر هذا - وأدركت
أننى لم أعن بالمریضة بدافع الشهامة والأريحية قط ، وانما عنيت بها
هكذا ، لا أدري لأى سبب ، أو لسبب آخر لا علاقة له بالشهامة
ولا الأريحية !

وأخذت أنتظر ما تنفى نافذ الصبر : كنت قد قررت فى ذلك المساء أن أجرب حظى مرة أخيرة • وعدا الحظ ، كنت أشعر بحاجة شديدة الى المقامرة • والا لم يكن فى وسعى أن أصبر • فلو استحال على أن أسفل نفسى بالقمار ، لكان من الجائز جدا ألا أستطيع مقاومة الرغبة فى الذهاب إليها • وكان على ماتفى أن يصل بعد قليل • ولكن الباب فتح فجأة ، ودخلت على زائرة لم أكن أتوقع أن تنجى الى ، وهى داريا أوسيموفنا • فقطبت حاجبى وبانت دهشتى • كانت داريا أوسيموفنا تعرف أين أسكن ، لأنها جاءتني برسالة من أمى فى أحد الأيام • وأجلستها ، ونظرت إليها مستفهما • فلم تقل شيئا ، ولم تزد على أن أخذت تنظر الى محدقة وتبتسم بخضوع ومذلة • فخطر ببالي فجأة أن ليزا هى التى أوفدتها ، فسألتها :

— أليست ليزا هى التى أرسلتك ؟

فقلت :

— بل جئت هكذا ••• من تلقاء نفسى •••

فأبأتها بأبنى خارج بعد قليل ، فعادت تقول مرة أخرى انها جاءت « هكذا » ، من تلقاء نفسها ، وانها منصرفه حالا • فأحسست فجأة بنوع من الشفقة • يجب أن أذكر هنا أن أمى ، وتاتيانا بافلوفنا خاصة ، هما اللتان ، من بيننا جميعا ، عطفنا عليها ، ولكن جميع ذويننا قد نسوها تقريبا بعد أن وضعت عند ستوليافا ، ربما باستثناء ليزا التى كانت تزورها فى أحيان كثيرة • ويرجع ذلك ، فيما أظن ، الى داريا نفسها ، لأنها كانت تنصف بالليل الى الابتعاد والغياب ، رغم كل مدلتها وكل ابتساماتها المستجدية المستعطفة • أما أنا فكانت هذه الابتسامات لا تعجنى كثيرا ، اذ كنت أرى أن هذه المرأة تصطنع تعابير

وجھها اصطناعاً زائفاً ، حتى لقد خطر ببالي ذات يوم أنها لم تبتك عزيزتها
أولياً مدّة طويله • ولكنني في هذه المرة شعرت بشفقة عليها ، لا ادرى
لماذا !

وهاهي ذى تنحنى فجأة دون أن تقول كلمه ، وتخفض عينيها ،
وترمى دراعها الى أمام ، فتمسك بخاصرتي ، وتميل بوجهها على
ركبتي ، ثم تتناول يدي ، فأظن أنها تريد أن تقبلها ، ولكنها رفعتها
الى عينيها ، فاذا بسيل من الدموع يسيل عليها • وأخذت تنسج نسيجاً
قوياً يهز جسمها كله ، دون أن يسمع لبكائها صوت • فانقبض صدري
ألماً ، رغم أنني أحسست ببداية حنق • ولكنها أخذت تقبلني بثقة كاملة ،
لا تخشى أن أغضب ، على حين أنها كانت منذ قليل تبسم ابتسامات فيها كثير
من الوجل وكثير من المذلة • فرجوتها أن تهدى نفسها • فأخذت تتكلم
فقالت :

- سيدى الطيب ، لقد أصبحت لا أعرف ماذا أصنع بنفسى •
فما ان يهبط الظلام ، حتى تنفد طاقتى على الاحتمال • اننى أفقد قدرتي
على الصمود متى حل المساء ، فأراني مدفوعة الى الخروج الى الشارع فى
العتمة • والحلم هو الذى يجذبني خاصة • لقد نبت فى رأسى حلم هو أنني
متى خرجت فسألقاها فى الشارع • فأسير ، وأظن أنني أراها • أقصد
أن الناس بسيرة ، فأسير وراءهم عامدة وأنا أقول لنفسى : أليست هذه
هى ؟ نعم ، ها هي ذى ، انها ابنتى أولياً • وأفكر ، وأفكر • وأصبحت
فى النهاية مجنونة من كثرة الجرى بين الجمهور • وصرت أشعر من ذلك
بغثيان • اننى أصدم الناس كسكرى ويقذفنى بعضهم بثائم • لكنني
أحتفظ بهذا كله لنفسى ، ولا أذهب الى أحد • ثم اننى لا أذهب الى مكان
الا أجد حالتي أسوأ مما كانت • وقد مررت منذ قليل أمام بيتك ،

فقلت لنفسي : • ماذا لو دخلت ؟ انه خير من الاخرين ، ثم انه رأى
الأمر بعينه ، • سيدى الطيب ، اغفر لى ازعاجك ، أنا منصرفه حالاً • •
ونهضت بحركة مباغتة ، وهمت أن تسارع الى الانصراف •
ووصل مائتفى فى تلك اللحظة • فأركبتها الى جانبى فى العربة ، وأوصلتها
الى منزل ستوليافا •

أصبحت فى الآونة الأخيرة أنتردد الى صالة الروليت التى يملكها زرشتسيكوف . وكنت أذهب قبل ذلك الى ثلاثة بيوت ، فى صحبة الأمير الذى كان « يدخلنى » الى تلك الأماكن . ففى أحد تلك البيوت كان المقامرون يتعاطون البكاراه خاصةً وكانوا يراهنون على مبالغ ضخمة . فكنت لا أحس هنالك بارتيساح ، اذ كنت أرى أن المرء يحتاج فيها الى مال كثير ، عدا أن ذلك البيت كان يرتاده عدد كبير من الوقحين ، وعدد كبير من الشبان الذين ينتمون الى أسر عالية ، وتمتلىء جيوبهم بأسواق طائلة . وذلك بعينه ما كان يحبه الأمير . كان الأمير يحب أن يقامر ، ولكنه كان يحب أيضاً أن يحتك بهؤلاء الطائشين . وقد لاحظت أنه اذا دخل معى فى بعض الأحيان جنباً الى جنب ، ابتعد عنى طوال السهرة ، ولم يقدمنى الى أحد من « صحبه » . وكانت هيتى هيتى اسان متوحش تماماً ، حتى لقد كان ذلك يلفت الى الانتباه أحياناً . وكان يتفق لى أن أتحدث على مائدة القمار الى هذا أو ذاك من اللاعبين ، ولكن وقع لى ذات مرة أن حاولت التكلم فى ذلك البيت نفسه مع سيد قصير تحدثت اليه بالأمس ، ضحككت معه جالساً الى جانبه (حتى لقد حذرت له ورقتين من أوراق اللعب) ، فاذا هو لا يتعرفنى ، واذا هو يزيد على ذلك سوءاً فيلقى على نظرة دهشة مصنوعة ، ثم يمضى مبتسماً ابتساماً ساخرة . لذلك لم ألبث أن تركت ذلك البيت ، وأخذت ارتداد محلاً للقمار لا أستطيع أن أسميه الا ماخوراً قذراً . انه صالة روليت حقيرة ،

صغيرة ، نديرها امرأة « مومس » كانت لا تظهر فى الصاله مع ذلك ابدا .
الناس هنالك يتعاملون بدون كلفه ولا حرج ، فكانهم اسرة واحدة ،
رغم ان بينهم ضباطا وجارا ، فكان هذا يجذب كثيرا من الرواد .
ولكننى انقطعت عن ارتياد ذلك المكان فى اعتقاب قصه قذرة حدثت ذات
يوم انشاء اللعب ، وانتهت بتضارب بين اثنين من المقامرين . وبعد ذلك
انما أخذت اجدى الى صالة زرشتشيكوف التى قادنى اليها الأمير أيضاً .
ان زرشتشيكوف ضابط من سلاح الفرسان محال على التقاعد ، وان جو
سهراته جو محتمل جداً . وهو رجل عسكرى قليلاً فى سلوكه ،
حريص على التفيد بالأصول ، سريع وعمل . من ذلك مثلاً أنه كان
لا يقبل فى صالته أناساً يسيئون المزاح أو يسرفون فى القصف واللهو .
ثم ان اللعب نفسه لم يكن فيه عنده مزاح . وكان المقامرون يتعاطون
البكارة والروليت . وكنت فى ذلك المساء ، مساء ١٥ تشرين الثانى
(نوفمبر) ، قد جئت الى هذا المكان قبلتد مرتين لا أكثر . وكان
زرشتشيكوف يعرف وجهى فيما أظن ، ولكن لم يكن قد قام ببنى وبينه
أى تعارف . وشاءت المصادفة التى تشبه العمد أن جاء الأمير فى ذلك المساء
نفسه مع دارزان عند منتصف الليل عائداً من لعب البكارة مع أولئك
الشبان الطائشين أبناء المجتمع الراقى الذين هجرتهم : هكذا كنت فى
ذلك المساء رجلاً مجهولاً بين أناس غرباء .

لو كان لى قارىء فقرأ كل ما سبق أن رويته من أحداث حياتى
لا كان علىّ حتماً أن أشرح له أننى أمرؤ لم أخلق حقاً لحياة المجتمع
أياً كان هذا المجتمع . أنا أولاً لا أعرف كيف أمكث بين الناس . فإذا
ذهبت الى مكان فيه ناس كثير ، بدا لى أن جميع الأنظار تنصب علىّ فتلسننى
كاسح الكهرباء ، فأجد نفسى متوتر الأعصاب ، منهكاً انهاكاً جسياً ، حتى
فى مكان كالسرح ، فاهيك عن البيوت الخاصة . وفى جميع صالات

الروليت هذه وفى جميع تلك المحافل اشعر بعجز عن السيطرة على سلوكى : فتارة أجلس حتى لألوم نفسى على فرط الرقة والأدب والتهذيب ، وتارة أنهض فأرتكب فظاظة من الفظاظات . وأنظر حولى فأرى أى وغد من الأوغاد الحقيرين أقدر منى على التصرف فى المجتمع بيسر عجيب وسهولة مدهشة ، فيزيدنى هذا حقاً ، فإذا أنا أفقد هدوئى مزيداً من فقدان . ويجب أن أقول بصراحة اننى ، لا اليوم فعسب ، بل حتى فى ذلك الحين ، كانت تلك السهرة كلها ، وكانت أرباح القمار نفسها (اذا وجب أن أقول كل شئ) قد أمت فى النهاية تبدو لى باعة على الاشتمزاز ، مثيرة للألم . نعم ، حتماً : مثيرة للألم . صحيح أننى كنت أشعر بمتعة قصوى ، ولكن تلك المتعة كانت تضىء من خلال الألم . كان ذلك كله ، أقصده الناس والقمار وأنا خاصة معهم ، كان ذلك كله يبدو لى قدراً قذاراً فظيعة . « ألا فلأربح مرة واحدة » ، ثم أركل ذلك كله برجلي الى الأبد ! .. كذلك كنت أقول لنفسي دائماً حين أستيقظ فى الصباح بعد لعب الليل . الربح مثلاً : اننى لم أكن أحب المال البتة . لا أريد أن أردد تلك الجملة المعادة المكرورة المبدولة وهى أننى كنت أقامر من أجل القمار نفسه ، من أجل الاحساسات القوية ، من أجل لذة المجازفة ، من أجل متعة المصادفة ، وما الى ذلك ، وليس من أجل الربح . لقد كنت فى حاجة ملحة الى المال . ولاشك أن هذه الطريق لم تكن طريقي ، لاشك أن هذا لم يكن فكرتى ، ولكن ذلك لا يمنع أننى كنت قد قررت حينذاك أن أسلك هذه الطريق أيضاً من باب التجربة . هناك فكرة قوية كانت تحاصرني ، كنت أقول لنفسي : « لقد خلصت الى هذه النتيجة : وهى أنك تستطيع أن تصبح من أصحاب الملايين بشرط أن تملك ارادة قوية ! وقد برهنت على قوة ارادتك . فهلم برهن هنا أيضاً على أنك قوى الارادة : ان الروليت تقتضى من قوة الارادة أكثر مما تقتضيه فكرتك ! .. »

ذلك ما كنت اردده لنفسى • ولما كنت مقتنعا حتى هذه الساعه بأن المرء فى ألعاب المصادفة يستطيع بالهدوء الكامل الذى يتيح له أن يحتفظ بذقة تفكيره ، أن يتغلب على المصادفة العمياء ، وأن يربح حتماً ، فقد كان لابد لى فى ذلك الأوان من أن يزداد حنقى ويشدد حين كنت أرانى أفقد هدوئى واندفع اندفاع صبى صغير • « أنا الذى استطعت أن أتحمّل الجوع ، كيف أعجز عن تحمل نفسى فى أمر تافه هذه التفاهة ؟ » ذلك ما كان يغيظنى • أضف الى ذلك أن شعورى بأننى أملك فى قرارة نفسى ، مهما أبدى للناس مضحكاً وحقيراً ، كنزاً من قوة سيجبرهم على أن يغيروا حكمهم علىّ فى ذات يوم ، أقول ان هذا الشعور - الذى لازمنى منذ سنى طفولتى الذليلة - كان فى ذلك الحين هو النبع الوحيد الذى يروى حياتى ، وكان ضيائى ، وكان ترانى وكان سلاحى وكان عزائى ، ولولا ذلك لالتجرت منذ أن كنت طفلاً • فهل كان فى وسعى ألا أغضب من نفسى حين أرى المخلوق التافه الذى كنت أصير اليه أمام مائدة القمار ؟ ذلك هو السبب فى أننى أرى اليوم هذا رؤية واضحة • وعدا هذا السبب الرئيسى ، كان الغرور التافه يتأذى أيضاً : كانت الخسارة فى القمار تخفض قدرى فى نظر الأمير ، وتخفض قدرى فى نظر فرسيلوف ، (وان يكن فرسيلوف لم يتنازل يوماً فيقول شيئاً عن هذا) وتخفض قدرى فى نظر الجميع ، حتى فى نظر تاتيانا بافلوفنا - ذلك ما كان يترأى لى على الأقل ، ذلك ما كنت أحسه • وهناك أخيراً اعتراف يجب أن أدلى به : كنت قد فسدت • أصبح صعباً علىّ أن أتخلى عن عثمائى المؤلف من سبعة أطباق فى المطعم ، وأن أتخلى عن ماتفى ، وعن المتجر الانجليزى ، وعن رأى بائع المطور الذى أشتري منه عطورى ، أصبح صعباً علىّ أن أتخلى عن هذا كله • ولقد وعيت هذا حينذاك ، لكننى أغمضت عيني • والآن حين أدوّن هذه الحقائق انما احمر منها خجلاً •

دخلت وحيداً ووجدتني في جمهور غريب ، فجلست أول الأمر الى ركن من المائدة وأخذت أقامر بمبالغ صغيرة . ولبثت على هذه الحال ساعتين لا أتحرك . ساعتين راكنتين ركوداً رهيباً : فلا حظاً ولا سوء حظ . وأفلتت مني فرص رائحة ، فحاولت ألا أغضب ، وأن أنتصر بهدوئي وثقتي . وكان حاصل الحساب خلال هاتين الساعتين أنني لم أربح ولم أخسر . فالثلاثمائة روبل التي كانت معي قد نقصت عشرة روبلات او خمسة عشر روبلا . واحنقتني هذه النتيجة التافهة ، وحدثت لي عدا ذلك حادثة زادتني حنقاً . انني أعلم أن المرء يلقي حول موائد الروليت هذه لصوصاً ، لصوصاً لم يجيئوا من الشارع ليسرقوا ، ولكنهم من بين المقامرين المعروفين . فأنا مقتنع مثلاً بأن المقامر الشهير آفردوف سارق . وهو يظهر في المدينة شامخ الأنف . وقد رأيت منذ مدة قصيرة مع فرسين . ولكن هذا لا ينفي انه سارق ، وأنه سرقني . على أن لهذه الحادثة حديثاً سيجيء حينه فيما بعد . أما ذلك المساء فلم يكن الا مقدمة : لقد ظللت طوال تينك الساعتين جالساً الى ركن من المائدة ، وكان الى يساري مفزور صغير ، أتيق الهندام ، أظن أنه يهودي ، هو عضو في جماعة لا أدرى ما هي ، كما أنه يكتب وُينشر له ما يكتب . كنت قد ربحت في آخر لحظة عشرين روبلا على حين فجأة : فكانت أمامي ورقتان حمران ، فإذا أنا أرى اليهودي الصغير يمد يده ويجذب اليه إحدى الورقتين بأكبر هدوء ممكن . فهممت أن أوقفه ، ولكن ها هو ذا يعلن لي بلهجة وقحة وبدون

أن يرفع صوته أن هذا ربحه هو ، فقد حظ و ربح . حتى أنه لم يشأ أن يتابع الحديث معي ، بل أدار لي ظهره . وشامت المصادفة التي تشبه العمد أن أكون عندئذ في أحد حالاتي النفسية حماقة ، إذ كنت قد تصورت فكرة كبيرة . فلم أزد على أن بصقت ، ثم نهضت بسرعة وانصرفت ، دون أن أنافس ، مهدياً اليه ورقتي النقدية الحمراء . وكان من الصعب على كل حال أن أسرى الأمر مع وغد حقير مثله ، فقد فعل فعلته وانقضى وقت ، واستمر اللعب . لكن سكوتي كان غلطة كبيرة نجمت عنها نتائج وبيلة : فإن ثلاثة أو أربعة من المقامرين حولنا قد لاحظوا هذه المناقشة ، ورأوا تراجعى السريع فلا بد أنهم اعتقدوا أنني غشاش . وكان الليل قد انتصف . مضيت إلى الغرفة المجاورة ، ووضعت خطة جديدة ، ثم رجعت فبدلت أوراقى النقدية من البنك قطعاً ذهبية . فأصبح بين يديّ أكثر من أربعين قطعة جعلتها عشرة أقسام وقررت أن أحط عشر مرات متتالية على « الصفر » ، أى أربعة أنصاف من الليرات الامبراطورية فى كل مرة ، حطة بعد أخرى ، قائلاً لنفسى : « ان ربحت كان هذا حظى وان خسرت فهذا أفضل : فلن ألعب بعد اليوم أبداً » . يجب أن أذكر أن الصفر لم يخرج خلال هاتين الساعتين مرة واحدة ، حتى أصبح لا يحط أحد عليه . كنت ألعب واقفاً ، صامتاً ، مقطباً حاجبى كازاً أسناني . ومذا زرشتشيكوف يعلن فى المرة الثالثة بصوت عال عن خروج « الصفر » بعد أن لم يخرج مرة واحدة طوال السهرة . فنقدت مائة وأربعين نصفاً من أنصاف الليرات الامبراطورية الذهبية . بقيت لى سبع حطات . واستمررت ، وكان كل شيء فى أثناء ذلك يضطرب من حولى ويتراقص .

— تعال الى هنا ، تعال الى هنا ، فهنا هنا الحظ !

كذلك صحت منادياً من فوق الطاولة مقامراً كنت بقربه قبل لحظة ، وهو رجل ذو شارب أبيض ووجه أحمر كان يرتدى رداء رسمياً ، وكان

يقامر منذ عدة ساعات بمبالغ زهيدة فيخسر فى كل مرة ، فيصبر صبراً
لا يمكن وصفه • فصاح ذو الشارب من أقصى الطاولة يسألنى بدهشة
فيها تهديد :

- أ اياى تنادى ؟

فقلت :

- نعم ، اياك أنادى ، فهناك ستخسر كل شىء !

فقال :

- هذا ليس شأنك ، فدعنى ولا تزعجنى !

ولكننى كنت قد فقدت سيطرتى على نفسى • وكان يجلس أمامى
فى الجهة الأخرى من المائدة ضابط مسن ، فلما رأى حطتى على الصفر ،
دمدم يقول لجاره :

- غريب : الصفر • لا ، لا ، لن أحط على الصفر أبداً •

فصحت أقول له وأنا أحط مرةً أخرى :

- بل تجرأ يا كولونيل !

فانبرى يقول لى بعنف :

- أرجوك ألا تزعجنى أيضاً • لست فى حاجة الى نصائحك •

انك تحدث صخباً كثيراً هنا •

- اننى أسدى نصيحة حسنة • هل تريد أن تراهن على أن
الصفر الذى سيطلع فى هذه المرة أيضاً ؟ أتراهن على عشر قطع
ذهبية ؟

قلت ذلك وأنا أمد عشرة أنصاف ليرات امبراطورية ذهبية • فقال لى

بلهجة خشنه قاسية :

- عشر قطع ذهبية ؟ أراهن ؟ مستعد ! أراهن على ان الصفر لن
يطلع هذه المرة !

- عشرة دنانير لويس يا كولونيل !

- ما عشرة دنانير لويس ؟

- أى عشرة أنصاف ليرات ذهبية ، وهى تسمى فى اللغة النبيلة
عشرة دنانير لويس •

- قل اذن عشرة أنصاف ليرات امبراطورية ، ولا تمزح معى !

ولم أكن آمل أن أربح الرهان طبعاً : فان حظ الصفر فى الطلوع
لا يعدو أن يكون واحداً من سبعة وثلاثين حظاً • ولكننى انما عرضت هذا
الرهان أولاً من أجل أن « أثير الدهشة » وثانياً من أجل أن اجتذب الى
مودة الآخرين • كنت قد رأيت أن أحداً هنا لا يحبنى وأنهم يجدون لذة
فى اشعارى بذلك • وأخذت الروليت تدور ، فما كان أشد ذهول الجميع
حين طلع « الصفر » مرة أخرى ! حتى لقد انطلقت صرخة عامة شاملة •
وذهبت نشوة الانتصار بصوابى ! ونفدت مائة وأربعين نصفاً من أنصاف
الليرات الامبراطورية الذهبية • وسألنى زرشتشيكوف ألا أريد أن أقبض
جزءاً من المبلغ أوراقاً نقدية ، فأجبت بهمهمة غير مفهومة ، لأننى أصبحت
عاجزاً بالفعل عن التعبير بهدوء ووضوح • كان رأسى يدور ، وكانت ساقاى
تصطكان • وأحسست فجأة بأننى سأعرض الآن لخطر رهيب • وكنت
أرغب فى أن أقوم بعمل آخر ، أن أعرض رهاناً جديداً ، أن أنقد أحداً
آلاف الروبلات • لممت كدسة القطع الذهبية والأوراق النقدية براحة يدي
دون وعى ، ولم أستطع أن أعدّها • وفى تلك اللحظة لاحظت الأمير
ودارزان ورائى فجأة ، وكانا آتئين من لعب البكاراه بعد أن خسرا
هنالك كل شيء كما علمت ذلك فيما بعد •

صحت أقول لدارزان :

- هيه دارزان ! هنا حظك ! حطّ على الصفر •
فأجأبني قائلاً بخشونة :

- خسرت كل شيء فليس معي مال •

وتظاهر الأمير بأنه لم يلاحظ شيئاً ، وبأنه لم يعرفني • فصحت
أقول لدارزان وأنا أريه كدسة الذهب التي أمامي :

- إليك المال ، فخذ ما شئت • كم تريد ؟

فصرخ دارزان يقول وقد احمر احمراراً شديداً :

- غريب أمرك • أنا لم أطلب منك شيئاً فيما أظن !

وقال لي زرشتشيكوف وهو يشدني من كمي :

- هناك من يناديك •

كان الكولونيل قد ناداني عدة مرات ، وكاد يشفع نداءاته بشتائم ،
منذ خسر رهاني معه على عشرة أنصاف الليرات الامبراطورية • وها هو ذا
يقول لي وقد تخضب وجهه بحمرة شديدة من فرط الغضب :

- خذ ! لست مضطراً أن أنتظرك ! سوف تقول عني انني لم أدفع

الرهان • اعدد •

- أصدّقك يا كولونيل ، أصدّقك ، أصدّقك بدون أن أعد •

لكنني أرجوك ألا تصرخ غاضباً مني ، أرجوك ألا تزعل •

ولممت كدسة ذهبية بيدي • فصرخ الكولونيل يقول لي بعنف :

- أيها السيد العزيز ، أرجو أن تتجه بحماستك هذه الى غيري ،

فنحن لم نحرس الخنازير معاً في يوم من الأيام ، وليس بيني وبينك سابق
علاقة •

وهتف بعضهم متعجباً بصوت خافت :

- انه لأمر غريب أن يُسمح بالدخول لأشخاص من هذا الطراز !
من هذا ؟ فتى صغير ؟

ولكننى لم أكن أصغى ، وطفقت أحط بغير روية ، ولكننى لا أحط
على الصفر ، وجعلت خطائى أعداداً من أوراق مالية •

قال الأمير ورائى :

- هيا بنا ننصرف يا دارزان !

فقلت وأنا التفت إليهما :

- الى البيت ؟ انتظرانى فننصرف معاً • انتهيت •

لقد ربحت • فكان ربحى ضخماً • فصرخت أقول :

- كفى !

وبدين مرتعتين لمت الذهب وسكبته فى جيوبى دون أن أعده ،
وأخذت أدعك الأوراق النقدية بحركات خرقاء بين أصابعى أريد أن أدسها
جميعاً فى جيب جانبى من سترتى ، فإذا بيد سمينة يزيناها خاتم ، هى يد
آفردوف الذى كان الى يمينى وكان قد حطَّ مبالغ ضخمة ، اذا بيده تطبق
على ثلاث من أوراقى وتنطىها براحتها • وقال يخاطبنى بخشونه مقطماً
كلماته مرقفاً صوته :

- اسمح لى ، هذه ليست لك !

كانت هذه هى المقدمة التى تحملت نتائجها الرهيبة بعد بضعة أيام •
انى لأقسم اليوم بشرفى أن تلك الأوراق الثلاث (وهى من فئة المائة روبل)
كانت لى ، ولكن شاء سوء حظى أن ظلاً من شك قد ساورنى حينئذ رغم
اقتناعى الكامل ، وذلك شىء له خطورته عند من يحرص على أن يكون

انسانا شريفا ، وأنا انسان شريف ، ولا سيما أنتى كنت لا أعلم فى ذلك
الحين علم اليقين ان افردوف لص ، بل كنت أجهل حتى اسمه ، فلم يكن
فى وسعى أن أصدق حقا أنتى لست مخطئا وأن هذه الأوراق الثلاث
ليست من الاوراق التى عدت لى • ولقد كنت طوال السهرة لا أعد
كدسة اموالى ، بل اقتصر على لمها بيدى ، اما افردوف فكان يرتب ماله
أمامه معدودا محسوبيا بجانب مالى • وكان افردوف عدا ذلك معروفا فى
هذا البيت ، وكانوا يعدونه هنالك رجلا واسع الثراء ، وكانوا يعاملونه
باحترام : فكان من شأن ذلك كله أن فرض مهابته على ، فاذا أنا أسلّم
مرة أخرى بغير اعتراض • يا للغلظة الفظيعة ! وأنتكى ما فى الأمر كله
أنتى كنت فى حماسة شديدة • فلم أزد على أن قلت مرتشئ الشفتين من
الاستياء :

— يؤسفنى أنتى لا أتذكر تذكراً دقيقاً ، ولكن يخيّل الى أن هذه
الأوراق لى أنا •
فسرعان ما أثارت كلمائى هذه دمدمات تدمر • وقال آفردوف بلهجة
فيها استعلاء لا يطاق :

— لكى يقول المرء مثل هذا الكلام يجب أن يكون « واثقا » ، وأنت
تعترف بأنك لا تتذكر تذكراً دقيقاً •

وهتفت أصوات عدة تقول متعجبة :

— من هذا الفتى ؟ كيف 'يسمح بمثل هذه الأمور ؟

وارتفع صوت وبش يقول بجانبى :

— ما هذه أول مرة • فمنذ قليل اراد هذا الفتى أن يسطو على ورقة

عشر روبلات من مال رخبريج •

فصاحت أقول :

- طيب ، كفى ، كفى ! لست أعترض . خذ ما تشاء ! يا امير .
ولكن أين الامير و دارزان ؟ انصرفا ؟ يا سادة ، ألم تروا من أى جهة
خرج الأمير و دارزان ؟

ولممت أخيراً مالى كله . وبدون أن أثرىث لأدس فى أحد جيوبه
عدداً من أنصاف الليرات الامبراطورية كان يبدى ، اندفعت ألاحق الأمير
و دارزان . ان القارى يرى الآن رؤية واضحة أننى لا أستر عيوى
وأنتى أتذكر تذكراً كاملاً كيف كانت حالى فى تلك اللحظة ، وكيف كنت
أحمق غاية الحماقة ، فيستطيع أن يفهم ما حدث بعد ذلك .

كان الأمير و دارزان قد بلغا أسفل السلم ، ولم يوليا ندائى وصيحاتى
أىّ انتباه . وقد وصلت اليهما ، لكننى تلبثت لحظة أمام البواب السويسرى
فدسست فى يده ثلاثة أنصاف من الليرات الامبراطورية ، لا أدري لماذا
فنظر الى البواب منحجراً ، حتى أنه لم يشكرنى ، ولكننى لم أكترو
بذلك ؟ ولو كان ماتفئ هناك ، اذن لناولته قبضة من القطع الذهبية حتماً .
فأننى كنت قد عقدت النية على ذلك جازماً ، ولكن ما ان وضعت قدمى على
درج الباب حتى تذكرت فجأة أننى صرفت ماتفئ . وفى تلك اللحظة
كانت عربة الأمير تتقدم نحو الباب ، فركبها الأمير ، فصحت أقول وأ:
أمسك وقاء العربة وأرفعه لأجلس بجانبه :

- أنا آت معك يا أمير !

ولكن دارزان مرّ أمامى فجأة ، فوثب يركب العربة ؟ وانتزع منى
الحوذى الوفاء فغطى به سيديه ، فصحت أقول خارجاً عن طورى :

- يا للشيطان !

لكننى ما رفعت الوفاء الا ليركب دارزان ، مثلما بفعل خادم . وصاح
الأمير يهيب بالحوذى قائلاً :

- الى البيت !

فصرخت معولاً وأنا أتشبث بالعربة :

- قف !

ولكن الحصان جرّ العربة ، فتدحرجت على الأرض . ثم لم ألبث أن نهضت ، ووثبت أركب أول عربة رأيته ، وطرقت الى منزل الأمير وأنا أستحث الخوذي في كل لحظة ، فأنهك الحصان المسكين .

الحصان يجرى بطيئاً كأنما ليزيد حنقى ، والحوذى لا يبرح يضربه بسوطه لأننى وعدته بروبل مكافأة • وقلبى يخفق خفقاناً شديداً • أخذت أكلم الحوذى ، ولكن الكلمات لا تخرج من فمى ، فكنت أئتمم تمتمةً بسخافات لا أدرى ما هى • تلك كانت حالى حين هربت الى الأمير • وقد أوصل الأمير صاحبه دارزان الى بيته • فهو الآن وحيد ، يذرع حجرة مكتبه شاحب اللون منقلب السحنة • يجب أن أذكر مرة أخرى أنه كان قد خسر فى القمار كثيراً • وما هو ذا ينظر الى فى حيرة وذهول ، ثم يقول مقطباً حاجبيه :

- أ أنت أيضاً ؟

فقلت وأنا أحتق :

- جئت لأنهى صلتى بك • كيف تجرأت أن تعاملنى هذه المعاملة ؟ فرشقنى بنظرة مستفهمه • قلت :

- اذا كنت قد أردت أن تصطحب دارزان ، فما كان عليك الا أن تقول لى انك ستصطحب دارزان ، ولكنك أجريت الحصان ، فاذا بى ••• - آ ••• نعم ••• أظن أنك وقعت أنت فى الثلج •

قال ذلك وطفق يضحك • قلت :

— هذه أمور يكون الرد عليها بدعوة الى مبارزة ، ولذلك سنصنفى
أولاً حساباتنا ...

واستللت أموالى بيد مرتعشة ، فوضعت بعضها على الديوان ، وبعضها
على المنضدة الرخامية ، بل وضعت بعضها الآخر على كتاب مفتوح ، وكنت
أتناولها بقبضة يدي ملأى ، وألقيها حزمًا وأكداسًا ، حتى لقد تدرجرت
قطع ذهبية كثيرة على السجادة • قال :
— ها ... نعم ... أظن أنك ربحت كثيراً ؟ يدرك المرء ذلك من
لهجة كلامك •

انه لم يكلمنى بمثل هذه الوقاحة فى يوم من الأيام وكان وجهى
شاحباً شحوباً شديداً •

— يوجد هنا ... لا أدرى كم يوجد ... يجب أن نعد ... اننى
مدين لك بثلاثة آلاف ... أم ماذا ؟ أكثر أم أقل ؟
— أظن أننى لا أجبرك على أن تدفع لى شيئاً •
— بل أنا الذى أريد ذلك • ولا بد أنك تعرف لماذا • خذ !
وطفقت أعد المال بيد مرتعجة ، ولكننى ما لبثت أن عدلت عن العد ،
قائلاً له :

— لا يهمنى أن أعرف المجموع معرفة دقيقة • أنا أعرف أن ههنا
ألف روبل • فسأخذ هذه الألف لنفسى ، وأخذت الباقي كله ، خذ هذه
الأكداس جميعها ، سداداً لديك على " أو لبعض دينك على " : أظن أن
الباقي يبلغ نحو ألفى روبل وقد يزيد •
قال الأمير مبتسماً :

— وتلك الألف الأولى تحتفظ بها لنفسك مع ذلك ؟

- أأنت في حاجة إليها ؟ اذن ... أعطيك إياها ... كنت أظن أنك قد لا تريد أن ... ولكن خذها اذا وجب أن تأخذها ...
- لا ، لا أريد .

قال ذلك وأشاح عنى باحتقار ، وعاد يذرع الفرفة ذاهباً آيماً . ثم التفت الى فجأة وقد لاحت في وجهه معاني التحدى والاستفزاز :

- ولكن ما الذى جعلك تفكر فى سداد ديونك ؟
فأرت أقول أنا أيضاً :
- انما أرد اليك مالك لأستطيع أن أحاسبك على ما فعلت !
- اذهب الى الشيطان أنت وألفاظك الضخمة وإشاراتك الأبدية !
وقرع برجليه الأرض كأنما هو خرج عن طوره ، وأضاف يقول :
- انتى أريد منذ مدة طويلة أن أطردكما كليكما أنت وصاحبك
فرسيلوف .

صرخت أقول :

- هل 'جنتت ؟

وكان كمن 'جنّ فعلاً . وتابع كلامه قائلاً :

- لقد عذبتنا تعذيباً رهيباً بجملكما المتفخمة . دائماً جمل ، جمل ، جمل ! فيما يتعلق بالشرف مثلاً ! أف ! انتى أريد منذ مدة طويلة أن أقطع صلتي بكما . ويسرنى ، يسرنى أنه آن الأوان . كتب أظن أنتى مرتبط ، وكنت أحمر خجلًا من أنتى مضطر أن أستقبلكما ... كليكما ! أما الآن فأرى أنتى غير مرتبط بشئ ، غير مرتبط بشئ ، ألا فاعلم ذلك ! لطالما حضنى صاحبك فرسيلوف على أن أهاجم آخما كوفاً ، وأن أطلع شرفها بالمار ... لا تتكلما عن الشرف بعد اليوم

عندى أبداً ! كلاكما غير شريف ، كلاكما غير شريف ! وأنت ، ألم تستح أن تأخذ مالى ؟

زاغ بصرى • وقلت متمتماً برفق :

- أنا اقترضت منك كما يقترض رفيق من رفيقه • وأنت الذى عرضت علىّ أن تقرضنى فصددت حسن نيّتك ...

- ما أنا رفيقك ! لقد أعطيتك مالا ، ولكن لغير هذا الغرض • أنت تعلم لماذا أعطيتك •

- أعطيتنى من حساب فرسيلوف • وذلك غباء طبعاً ، ولكن ...

- لم يكن فى امكانك أن تأخذ من حساب فرسيلوف بدون اذنه ، ولا كان فى امكانى أن أعطيك ماله بغير اذنه ... فانا انما أعطيتك من مالى ، وكنت أنت تعرف ذلك • كنت تعرفه وكنت ترضاه • ولشدهما قاسيت أنا فى بيتى من تمثيل هذه المسرحية الكريهة •

- ما الذى كنت أعرفه ؟ عن أية مسرحية تتكلم ؟ ولماذا كنت تعطينى اذن ؟

- لجمال عينيك يا ابن عمى ! •

قال هذه الجملة الساخرة بالفرنسية • وطفق يضحك أمامى • فصرخت معولاً أقول :

- اذهب الى الشيطان ! خذ كل شئ • اليك هذه الألف أيضاً ! هاقد سددت دينى كله الآن ، وغداً ...

ورميت له كدسة الأوراق المالية التى كنت قد احتفظت بها لنفسى ، فسقطت على صديرتيه ، وتدحرجت الى الأرض • فاذا هو يتقدم منى

ثلاث خطوات سريعة واسعة ، ويقول لى بغتة بلهجة وحشية وكلمات مقطعة :

- هل تجرؤ أن تدعى أنك حين كنت تأخذ منى المال طوال هذا الشهر ، كنت تجهل أن أختك حبلى منى ؟
- ماذا ؟ كيف ؟

كذلك هتفت أسأله • وارتخت ساقى فأصبحت لا تستطيعان حملى
فتهاويت على الديوان خائر القوى •

لقد ذكر لى هو نفسه فيما بعد أن وجهى اصفر اصفراراً شديداً
يشبه أن يكون بياضاً كيباض منديل •

اضطرب ذهنى • وأذكر أن كلاً منا قد حدّق الى عيني صاحبه صامتاً • وألمّ بوجهه هو نوع من دعر • ومال على فجأة ، فأمسكنى من كنفى يسندنى • انى أتذكر ابسامته المتجمدة تذكراً واضحاً كل الوضوح • لقد قرأت فيها معانى الشك والدهشة • نعم ! لم يكن يتوقع لكلماته أن تحدث فى نفسى هذا الأثر ، لأنه كان موقناً بأننى على علم بالأمر ، وبأننى كنت آثماً •

وأغنى على اخيراً ، غير أن الاغماء لم يدم الا دقيقة واحدة • فلما أفتت وقفت على قدمى ونظرت اليه وفهمت • لقد انكشفت الحقيقة فجأة لفكرى الذى طال نومه ! لو قد حكى لى الأمر من قبل وسئلت ما عسانى صانعا بالرجل ، اذن لأجبت حتماً بأننى سأمزقه تمزيقاً • ولكن ما حدث كان غير هذا تماماً ، وقد حدث بغير ارادتى أبداً : فأننى لم ألبث أن دفنت وجهى بىدى فجأة ، وأخذت أذرف دموعاً حارة مرة • ذلكم ما حدث • لقد انبعث الطفل الصغير فى الرجل الشاب • معنى ذلك أن الطفل

الصغير كان لا يزال حياً فى نفسى ، وتهاكت على الديوان وطفقت انشج
منتحياً : « ليزا ! ليزا ! ليزا المسكينة ! » ♦

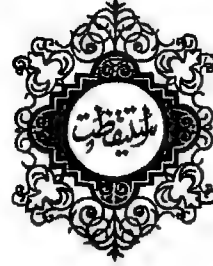
وعندئذ صدقنى الأمير تصديقاً تاماً ♦ فهتف يقول بحزن عميق :
- آه ! ما أكبر الذنب الذى ارتكبته فى حقك ! ما أبشع الأشياء
التي صورتها عنك ! سامحنى يا آرКАДى ماكاروفتش !

فانتفضت ، وأردت أن أقول له شيئاً ، وتسمرت أمامه ، ولكن دون
أن أنطق بكلمة ، ثم لم ألبث أن ولّيت هارباً من الغرفة ومن البيت ♦

رجعت الى مسكنى سائراً على القدمين ، ولا أكاد أتذكر كيف
وصلت ♦ ارتيميت على سريرى ، مكباً بوجهى على الوسادة فى الظلام ،
ورحت أفكر وأفكر ♦ ان الأفكار فى مثل هذه اللحظات لا تتسلسل متسقة
منسجمة أبداً ، ويكون الفكر والخيال كأنهما معلقان بخيط يترجح
ويتراقص ♦ أذكر أنني أخذت أحلم بأشياء غريبة كل الغرابة عما أنا فيه ،
بل بأشياء لا يعلم الا الله ما الذى جعلها تخطر ببالى ! ولكن حزنى وشقائى
ما يلبثان أن يدركانى مؤلمين موجعين ، فأعقف يديّ كمدأ ، وأصيح قائلاً :
« ليزا ! ليزا ! » ، وأعود أسكب دموعاً سخينة غزيرة ♦ لا أدري كيف
نمت ولكننى نمت نوماً عميقاً هادئاً ♦

الفصل السابع

١



فى نحو الساعة الثامنة من الصباح ، فسارعت
أقفل بابى بالمفتاح فوراً ، وجلست أمام النافذة ،
وعدت أحلم من جديد • وبقيت على هذه الحال
حتى الساعة العاشرة • وقد قرعت الخادمة الباب
مرتين ، لكننى طردتها • وبعد الساعة العاشرة 'قرع الباب مرة أخرى ،
فأوشكت أن أصرخ أيضاً ، لولا أن عرفت أنها ليزا • وقد دخلت الخادمة
معهما : جاءتني بقهوتي ، واستعدت لاشعال المدفأة • فكان يستحيل أن
أطردھا • فكنت طوال الوقت الذى قضته فى وضع الحطب واشعال النار
أذرع غرفتي الصغيرة بخطي واسمة ، دون أن أشرع فى الحديث ،
متحاشياً أن أنظر الى ليزا • وكانت الخادمة تعمل ببطء شديد ، وتعتمد هذا
البطء تعمداً ، كما تفعل جميع الخادومات فى مثل هذه الحالة ، حين يلاحظن
أن أسيادهم متخرجون من الكلام بحضورهن • وكانت ليزا جالسة على
المائدة أمام النافذة تنابنى بنظرھا • فقالت فجأة :

— توشك قهوتك أن تبرد •

فنظرت إليها • لم أر فى وجهها أثراً لاضطراب ، فوجهها هادئ
هدوء تاماً ، حتى أن ابتسامة كانت تلم بشفتيها •

قلت محدثاً نفسى وأنا أرفع كنفى : هذه هى النساء !

واتهمت الخادمة أخيراً من اشعال المدفأة ، وشرعت فى تنظيف الغرفة

وترتيبها • ولكننى طردتها طرداً صارماً ، وأفلت الباب بالمفتاح من جديد •

سألتنى ليزا :

— قل لى ، من فضلك ، لماذا أغلقت الباب ثانية ؟

فتسمرت أمامها ، وهتفت أقول فجأة دون أن يكون قد خطر
ببالى أن تكون هذه بداية كلامى :

— ليزا ، كيف أمكن أن تظنى أنك ستظلين تخدعيني ؟

لم أذرف فى هذه المرة دموعاً ، وانما اجتاحت قلبى عاطفة تشبه
أن تكون شراً ، حتى اننى لم أكن أتوقع ذلك أنا نفسى • فاحمرت ليزا
ولكنها لم تجب ، وانما ظلت تحديق الى عيني •

— انتظرى يا ليزا ، انتظرى ! آه ... ما أغبسانى ! ولكن هل كنت
غيباً الى هذا الحد من الغباوة حقاً ؟ ان التلميحات كلها لم تتجمع حزمة
واحدة الا بالأمس ، أما قبل ذلك فكيف كان يمكننى أن أحزر ؟ أكان
يمكننى أن أحزر الحقيقة لأنك كنت تذهبين الى ستوليبافا أو الى ... داريا
أويسيموفنا هذه ؟ لقد كنت أعدك شمساً يا ليزا ، فكيف كان يمكن أن
يخطر ببالى ... ؟ انك تذكرين كيف استقبلتك منذ شهرين عنده ،
وكيف مضينا نتنزه فى الشمس معاً ، وكيف سررنا أعظم السرور • هل
كانت الأمور بينكما جارية منذ ذلك الحين ؟

فأومأت ليزا برأسها لتقول نعم •

— اذن كنت تخدعيني منذ ذلك الحين يا ليزا ! لا ، يا ليزا ، لم يكن
ذلك منى غباءً ، بل كان أنانية • ليس الغباء هو المسئول ، وانما أعمتى
الأنانية ، وأعمتتى ثقتى الكبيرة بقداستك • كنت لا أنظر الا فى نفسى •
وعلام أنظر فيكم أنتم ؟ لقد كنت واثقاً بكم جميعاً ، وكنت أعدكم أعلى

منى كثيراً ! وأمس ، فى البيت ، لم يستطع سلوككم الغريب أن يزيل
الغشاوة عن بصرى ، وكنت عدا ذلك مشغول البال بأمور أخرى ، فلم
أستطع أن أدرك شيئاً ، رغم جميع الاشارات والتلميحات •

وتذكرت فى تلك اللحظة كاترين نيقولايفنا فجأة • فأحسست مرة
أخرى بألم يشبه أن يكون وخز ابرة فى القلب ، واحمر وجهى احمراراً
شديداً • فكان طبيعياً ألا أستطيع أن أكون عندئذ طيباً •

قالت ليزا بصوت رقيق لكنه جازم :

— ولكن عمّ تعتذر يا أركادى ؟ يبدو لى أنك تحاول أن تعتذر عن
شيء ، أن تبرئ نفسك من شيء ، ولكن عمّ تعتذر ؟ مم تبرئ نفسك ؟

— ما الذى يجب علىّ أن أفعله الآن ؟ لو لم يكن ثمة الا هذا السؤال
لكفى • فكيف تقولين ممّ تبرئ نفسك ؟ لقد أصبحت لا أعرف كيف
أتصرف ! لست أعلم ماذا يفعل الاخوة فى مثل هذه الحالة • • أعلم أن
منهم من يجبر الجانى على الزواج مشهراً عليه المسدس • • • • • ولسوف
أتصرف كما يجب أن يتصرف رجل شريف • لكننى أجهل كيف ينبغي
أن يتصرف رجل شريف ! لماذا ؟ لأننا لسنا من طبقة النبلاء • انه أمير •
وهو يصنع حياته ويهيئ مستقبله ، فلن يرضى حتى أن يصفى إلينا نحن
الشرفاء • وأنا وأنت لسنا أخاً وأختاً ، وانما نحن ولدا زنا بغير اسم ،
نحن من أولاد الأفتان • هل يتزوج الأمراء بنات أفتان ؟ آه • • • • • يا للعار !
وتظلمين تنظرين الىّ وتمدھشين ؟ • • • • •

فاحمرت ليزا من جديد ، وقالت :

— أظن أنك معذب ، ولكنك تتسرع كثيراً وتؤذى نفسك • •

— أتسرع ؟ أفى رأيك اذن أننى لم أتأخر ؟ أأنت تقولين هذا الكلام
يا ليزا ؟ (أخيراً نشط خيالى) • ما أكثر ما تكدس علىّ من عار مع ذلك ،

وما اسد الاحتقار الذى لابد ان هذا الأمير قد حملة لى ! اه . . . الان أصبح كل شىء واضحاً . الان أصبحت اللوحه كلها ماله امامى : لقد تصور اننى عرفت صلته بك منذ مدة طويلة ، ولكننى سكنت عليها ، أو حتى شملت بأنفى تباهياً « بالشرف » العظيم - ذلك ما تصوره عنى . وتصور اننى كنت آخذ ماله فى سبيل أختى ، تصور اننى كنت آخذ ماله ثمناً لعرض أختى . وذلك ما كان يشمئز منه . وانى لأعذره ، أعذره كل العذر : فليس غريباً أن يضيق ذرعاً بمخلوق دنىء ' يضطر أن يلقاه مرة بعد مرة كل يوم لا شىء الا أنه « أخوها » ، وأن يسمعه - فوق ذلك - متحدثاً عن الشرف . . . ذلك خلى بأن يقسى قلب المرء ، أن يقسى حتى قلب رجل مثله ! وقد ارتضيت أنت هذا كله ، ولم تنبهينى ! لقد بلغ من شدة احتقاره لى أنه كان يحدث عنى ستييلكوف ، حتى لقد قال هو نفسه بالأمس انه يريد منذ مدة طويلة أن يطردنا كلينا أنا وفرسيلوف . وهذا اذن ما جعل ستييلكوف يقول : « ان أنا آندريفنا أختك مثل اليزابت ما كاروفنا سواء بسواء » ، حتى لقد صرخ يقول ورائى : « مالى أنا أفضل » . وكنت أنا استلقى فى بيت الأمير على دواوينه مسترخياً ، وكنت ألتصق بأصدقائه ندا لهم ونظيراً ! وسمحت أنت بهذا كله ! ولا شك أن دارزان نفسه على علم بالأمر الآن ، كما تدل على ذلك لهجته فى مساء أمس . . . جميع الناس عارفون بالأمر ، جميعهم عارفون به ، الا أنا ! . . .

قاطعتنى ليزا تقول :

- لا أحد يعرف . انه لم يتحدث الى أحد من أصدقائه ، انه لم يستطع أن يتحدث الى أحد منهم . أما ستييلكوف هذا ، فأنا أعرف أنه يعذبه ، وأن ستييلكوف قد استطاع أن يشبهه اشتبهاً فى أكثر تقدير . . . أما أنت فقد كلمته عنك مراراً ، وصدق ما قلته له تصديقاً كاملاً . . .

لقد قلت له انك تجهل كل شيء ، ولكننى لا أدرى لماذا وكيف حدثت هذه القصة بينكما أمس .

— الحمد لله على أننى دفعت له دينه أمس ، فتخففت على الأقل من هذا الحمل الذى يجهنم على قلبى ! ليزا ، هل ماما على علم بالأمر ؟ ولكن كيف لا تكون على علم به . انها بالأمس تارت على آه يا ليزا ! ولكن هل يمكن أن تعتقدى بأنك على حق ؟ ألا تتهمين نفسك بشيء ؟ اننى لا أدرى كيف 'يحكم على هذه الأمور اليوم ، ولا أدرى ما هى آراؤك ، أقصد ما هى آراؤك فى' ، فى أمك ، فى أخيك ، فى أبيك ! هل فرسيلوف على علم ؟

— لم تقل له ماما شيئاً . وهو لا يسأل عن شيء . لاشك أنه لا يريد أن يسأل .

— يعلم ولكنه لا يريد أن يعلم . هذا هو الأمر . ذلك فى طبيعته . طيب ، وفى وسعتك أن تسخرى من أخيك ، من أخيك الغبى ، اذا هو تكلم عن مسدسات ، ولكن هلا فكرت فى أمك ؟ ألم تحدثك نفسك أبداً يا ليزا بأن ما فعلته هو ملامة لأمك ؟ لقد عذبتنى هذه الفكرة طوال الليل . ان الفكرة الأولى عند ماما اليوم هى هذه : « لقد أثمت ابنتى لأننى أثمت أنا أيضاً . هل تلد الحية الا الحية ؟ » .

ما ان سمعت ليزا هذا الكلام حتى طفرت الدموع من عينيها ، وهتفت تقول :

— آه ما أقسى هذا الذى تقوله وما أسوأه !

ثم نهضت وسارت مسرعة نحو الباب ، فقلت لها :

— ققى ققى !

وأمسكتها ، وأجلسنها من جديد ، وجلست بقربها دون أن أسحب
يدي . قالت :

— كنت أقدر ، وأنا آتية الى هنا ، أن هذا كله سيحدث ، وأنت
ستكون فى حاجة الى أن أنهم نفسى حتماً . فاعتبط : هأنا ذى أنهم نفسى .
انى لم اصمت حتى الآن ولم أمتنع عن الكلام الا كبرياءً ولكننى أشفق
عليك وعلى ماما أكثر مما أشفق على نفسى . . .

ولم تكمل ليزا جملتها ، وانما انفجرت تبكى . فقلت لها :
— كفى يا ليزا ! لا ، لست فى حاجة الى شىء . ما أنا لك بالقاضى
يا ليزا . ولكن قولى لى : هل علمت ماما بالأمر منذ مدة طويلة ؟
فأجابت ليزا برقة وهى تخفض عينيها :

— أظن . ولكننى لم أذكر لها أنا متى وقع « الأمر » الا منذ
زمن قصير .

— فماذا كان منها ؟

— قالت : « احتفظى به » .

نطقت ليزا هذه الكلمات بلهجة فيها مزيد من الرقة . فقلت لها :
— نعم يا ليزا ، « احتفظى به » . لا تحاولى أن تصنعى بنفسك
شيئاً . حماك الله من مثل ذلك !

قالت بشات :

— لن أفعل شيئاً .

ورفعت بصرها الى من جديد . ثم أضافت تقول :

— اطمئن . ليس الأمر هذا !

— ليزا ، عزيزتى ! كل ما أراه هو أننى لا اعلم شيئاً . لكننى علمت

الان أننى احبك • هناك نىء واحد لا افهمه يا ليزا : لقد اصبح كل شىء واضحا لى يا ليزا ، ولكننى لن افهم فى يوم من الأيام ، فهماً كاملاً ، لماذا افتنت به يا ليزا ؟ كيف أمكن أن تحبى رجلاً مثله ؟ ذلك هو السؤال .

فأجابت ليزا وهى تبسم ابتسامة رقيقة عذبة :

ـ ولا شك أن هذه الفكرة أيضاً قد عذبتك فى الليل ، أليس

كذلك ؟

ـ انتظرى يا ليزا ، هذا سؤال سخيف ، وأنت تستهزئين بى • استهزئى بى ، ولكن من المستحيل على المرء مع ذلك ألا يدهش : أنت و « هو » نقيضان ! لقد درست طبعه : انه رجل قاتم المزاج ، كثير الشك ، قد يكون طيباً ، ولكنه ميال كثيراً الى رؤية الشر فى كل مكان • (هنا على الأقل يشبهنى تماماً) • وهو يحترم النبيل احتراماً شديداً ، أعترف بهذا أيضاً وأراه ، ولكننى أعتقد أن هذا الاحترام لا يتعدى نطاق المثل الأعلى • وهو ميّال الى الندم طول حياته بغير انقطاع ، وهو ينحى على نفسه باللائمة دائماً ، ولكنه لا يصلح حاله أبداً (وهو هنا أيضاً يشبهنى على كل حال) • فى رأسه ألف وهم من الأوهام الاجتماعية ، وألف معنى من المعانى الزائفة ، ولكن ليس له فكرة واحدة ! يسعى الى المآثر الكبرى ، لكنه لا يزيد على أن يُراكم دناءات فوق دناءات • معذرة يا ليزا ، اننى أسمى الى شعورك • والحق أننى غبى : فحين أقول هذا الكلام أجرح عاطفتك ، وأعلم أننى أفعل ذلك ؟ اننى أفهم هذا •••

قالت ليزا مبتسمة :

ـ الصورة التى رسمتها كان يمكن أن تكون صحيحة ، ولكنك مسرف فى السخط عليه ، لذلك لم يبق فيها شىء من صحة • لقد ارتاب فيك منذ البداية ، ولم تستطع أن تراه كاملاً ، أما معنى أنا فانه منذ أن كنا فى لوجا ••• انه لم ير أحداً غيرى منذ أن كنا فى لوجا ••• نعم انه

كثير الشك مهياً للمرض ، ولولاى لفقد عقله • ولسوف يفقده اذا هو
تركى أو سوف ينتحر •

وأضافت ليزا تقول لنفسها واجبة مفكرة :

- أظن أنه يدرك ذلك وأنه يعرفه •

وتابعت كلامها فقالت :

- صحيح أنه ضعيف ، ولكن أمثال هؤلاء الضعفاء قادرين أحياناً
على أشياء قوية قوة هائلة • ما كان أسخف كلامك عن المسدس يا أركادى :
لا حاجة الى شيء من هذا البتة ، وأنا أعرف ما سوف يحدث • لست أنا التى
ألاحقه وأطارده ، بل هو الذى يجبرى ورائى • ان ماما تبكى وتقول :
« اذا تزوجته فسوف تشقى ، لأنه سيكف عن حبك » • أما أنا فلا أصدق
هذا الكلام • قد أشقى ، ولكنه لن ينقطع عن حبنى • ليس هذا هو السبب
الذى حملنى على تأخير موافقتى ، وانما هنالك سبب آخر • لبثت شهرين
لا أوافق على الزواج • ولكننى أجبته اليوم قائلة : « نعم ، أتزوجك » •
هل تعلم يا أركادى (هنا سطعت عيناها وطوقت عنقى بذراعيها فجأة) انه
ذهب أمس الى آنا آندريفنا ، وأبلغها بكلام صريح قاطع أنه لا يستطيع
أن يتزوجها ؟ نعم ، لقد أفصح عن نفسه ، وانتهى أمر تلك الفكرة الآن !
وهو لم يشارك فيها أبداً على كل حال ، وانما كان ذلك حلم الأمير يقولوا
ايفانوفتش ، وكان ذاك الجلادان ، ستيبلكوف وشخص آخر ، يضغطان
عليه ضغطاً شديداً • فكان أن كافأته اليوم بجوابى : « نعم ، أتزوجك » •
لا تجرحك قصة الأمس يا عزيزى أركادى • انه يدعوك اليه ، وهو اليوم
مريض ، وسيبقى طول النهار فى البيت • حقاً انه مريض يا أركادى •
لا تظنن أن هذا تملل • لقد أوفدنى اليك خصيصاً ورجائى أن أقول لك
انه « محتاج » اليك ، وان فى نفسه أشياء كثيرة يريد أن يقولها لك ،
وان هذه الأشياء لو قالها لك هنا فى مسكنك هذا لكأنت فى غير محلها •

هيناً ، الى اللقاء ! آه يا أركادى ، اننى استحي أن أقول لك هذه الحقيقة ،
وهى أننى فى طريقى اليك كنت أشعر بخوف رهيب من أن يكون حبك
لى قد زال • فكنت أرسم اشارة الصليب طوال الطريق • ولكننى أحمد
الله على أنك طيب جداً ، ولطيف جداً ! لن أنسى هذا فى حياتى • أنا ذاهبة
الى ماما • حاول أن تحبه قليلاً ، هه ؟

فقبلتها بحرارة وقلت لها :

- أعتقد يا ليزا أنك قوية الارادة • نعم ، أصدق أنك لست أنت
التي تجبرين وراه ، بل هو الذى يجبرى ورائك • ولكن ، رغم
كل شيء •••

فقالت ليزا تكمل جملتى :

- ولكن رغم كل شيء ، « لماذا افتتنت به ؟ هذا هو السؤال » •
قالت هذه الجملة وهى تضحك ضحكة مأكرة كما فعلت من قبل ،
ونطقت بعبارة « هذا هو السؤال » مقلدةً لهجنى تقليداً تاماً ، رافعةً ايهامها
الى مستوى عينيها مثلما فعلت أنا •

وتعانقنا ، ولكن قلبى انقبض ثانية بعد انصرافها •

أريد أن أسجل هذا لنفسي : بعد انصراف ليزا تلاحقت في خاطري أفكار غريبة كثيرة أورتتني ارتياحاً كبيراً • فكنت أقول لنفسي مثلاً : « لماذا أقحم نفسي في هذه الشؤون ؟ فيم يعني هذا الأمر ؟ ان هذه الأشياء تحدث لجميع الناس أو لجميعهم تقريباً • وقد حدثت لليزا • فماذا ؟ هل عليّ أن أنقذ شرف الأسرة ؟ هل عليّ أن أمحو عار الأسرة ؟ » • انني أسجل هذه الحطرات الحقة لأبين مدى ما كنت عليه في ذلك الأوان من ترجيح في فهم الخير والشر • وال عاطفة وحدها هي التي أنقذتني : كنت أعرف أن ليزا شقية ، وأن ماما شقية ؛ كنت أعرف ذلك بالعاطفة حين أفكر فيهما ، فأحس أن كل ما حدث كان شراً ولم يكن خيراً •

والآن يجب أن أذكر أن الأحداث ، منذ هذا اليوم الى يوم كارثة مرضي ، قد تلاحقت بسرعة تبلغ من الشدة أنني أدهش أنا نفسي - حين أفكر فيها اليوم - من أنني استطعت أن أصمد ، ومن أن القدر لم يسحقني • لقد تعرض عقلي وتعرضت عاطفتي للمخاطر أثناء تلك الأحداث ، فلو قد نفذت طاقتي في آخر الأمر فارتكبت جريمة (جريمة أوشكت أن ارتكبها) ، لكان من الممكن جداً أن يبرئني المحلفون • ولكنني سأحاول أن أقص كل شيء بترتيب محكم ، رغم أن فكري أثناء تلك الأحداث لم يكن فيه شيء من ترتيب • اني لأبته الى هذا • لقد هاجمتني الأحداث كعاصفة ، فدارت الأفكار في رأسي كأوراق الأشجار اليابسة في أعاصير

الحُرِيف • لقد كنت متشبها حينذاك بأفكار الآخرين ، فأين أجد فكرة نابعة من نفسى فاتخذ قراراً حراً ! ولم يكن نمة من يرشدنى •

قررت أن أذهب فى المساء الى الأمير ، لأكلمه عن كل شىء بحرية تامة ، والى أن يعين المساء بقيت فى البيت • ولكننى حين حل الفسق تلقيت بالبريد رسالةً جديدة من ستيلكوف ، مؤلفة من ثلاثة أسطر ، يطلب الىّ فيها بالحاح وبلهجة « مفنعة » الى أبعد حد أن أزوره غداً فى الساعة الحادية عشرة من الصباح • لأعمال ذات شأن هام ، وسترى بنفسك ما هى • • فقررت ، بعد تفكير ، أن أتصرف وفقاً للظروف ، فالغد لا يزال بعيداً •

كانت الساعة قد بلغت الثامنة • وكان يمكن أن أمضى الى الأمير منذ مدة طويلة ، غير أننى كنت لا أزال أنتظر فرسيلوف : فإن هناك أشياء كثيرة يجب أن أعبرََّ له عنها ، وكان قلبى يحترق احتراقاً • ولكن فرسيلوف لم يجرى • • وقد أصبحت لا أستطيع فى تلك اللحظة أن أظهر عند أمى وليزا ، وكنت أحس من جهة أخرى أن فرسيلوف قد غاب عن البيت طول النهار • فخرجت سيراً على القدمين ، وفيما أنا فى الطريق خطر ببالى أن ألقى نظرة على حانة الأمس التى تقع تحت مستوى الأرض • فوجدت فرسيلوف هناك ، فى المكان الذى كان فيه البارحة •

قال وهو يتشمس ابتسامة غريبة ، ويحدجنى بنظرة عجيبة :

— كنت أعرف أنك ستأتى •

كانت ابتسامته خالية من الطيبة ، لم أر مثلها فى وجهه منذ مدة طويلة •

جلست الى المائدة ، ورويت له من البداية الى النهاية جميع الوقائع التى تتصل بالأمير وليزا ، وقصصت عليه المشهد الذى وقع لى أمس مع الأمير بعد الروليت ، ولم أمس أن أذكر له أننى أصبت فى القمار ربحاً

كثيراً • فأصغى الىّ باتتياه شديد ، وسألنى عن القرار الذى اتخذه الأمير
فى تزوج ليزا • وقال :

- « يا للطفلة المسكينة ! لعلها لن تجنى من هذا ربحاً • ولكن
أغلب الظن أن الأمر لن يتم ••• رغم أن الشاب قادر على أن •••

- قل لى كما يقول صديق لصديقه : هل كنت تعلم ؟ هل كانت
نفسك تحدثك بشيء ؟

- يا صديقى ، ماذا كان فى وسعنى أن أعمل ؟ ذلك أمر من أمور
العاطفة والوجدان ، ولو من جانب هذه البنت المسكينة على الأقل • أكرر
لك ما سبق أن قلته : لقد طالما تدخلت فى شئون غيرى فى الماضى ، ثم
أقلعت عن هذه الدعوى الخرقاء وصرت ألتزم بجانب التحفظ ! هذا لا ينفى
طبعاً اننى لا أرفض أبداً أن أساعد أحداً اذا ألم به شقاء ، أن أساعده
فى حدود طاقتى ، بشرط أن أفهم شيئاً مما يحدث • ولكن قل لى :
ألم تساورك أنت أية شبهة طوال هذه المدة ؟

فقلت وقد اشتعلت نفسى غضباً :

- ولكن كيف أمكنك وقد اشتبهت فى أننى أعرف علاقة ليزا
بالأمير - ولو أقلّ اشتباه - ورأيت فى الوقت نفسه أنى أقبل أن آخذ من
الأمير مالاً ، كيف أمكنك أن تتحدث معى ، وأن تجالسنى ، وأن
تصافحنى ، أنا الذى لا بد أنك كنت تعدنى شخصاً حقيراً ؟ أراهن على
أنك كنت تشبه حتماً فى أننى أعرف كل شيء ، واننى كنت آخذ المال من
الأمير ثمناً لأختى وأنا عالم بالأمر كل العلم !

قال وهو يبتسم :

- أقول لك مرةً أخرى ان هذا شأن من شئون الوجدان والضمير •

ثم أضاف يقول وقد لاح فى وجهه تعبير عن عاطفة ملتبسة ملغزة :

- ومن ادراك أنتى كنت لا أخشى - كما خشيت أنت ، فى حالة أخرى - أن أفقد مثلى الأعلى ، وأن أكتشف فى ابنى النزق الشريف وغدا حقيرا ؟ لقد كنت أخشى هذا ، فكنت أؤجل لحظة المعرفة الاليمة • لماذا لا تفترض فى " ، بدلا من الكسل والدناءة ، شيئا أقرب الى البراءة ، بل شيئا من الغباء أيضا ، والغباء أنبل على كل حال • على أنتى كثيرا ما أكون غيبا بغير نبل • بأى حق يمكن أن أكون متشددآ فى محاسبة ابنى ؟ هذا عدا أن اصلاحك بالاكراه لا قيمة له فى نظرى •

- وليزا ؟ ألا تشفق عليها ؟ ألا ترثى لحالها ؟

- أشفق عليها كثيرا يا عزيزى • من قال لك اننى خال من الاحساس ؟ ... بالعكس ، اننى أحاول بجميع الوسائل ... وأنت ؟ كيف تسير أمورك ، أنت ، ؟

- دعنا من أمورى • لم يبق لى " أنا " أمور • اسمع ! لماذا تشك فى أنه سيتزوجها ؟ لقد ذهب أمس الى آنا آندرييفنا ، وأعرب لها عن عدوله اعرابا واضحا • أفصد عن هذه الفكرة السخيفة ... التى قامت فى ذهن الأمير يقولوا ايفانوفتش ... فكرة أن يزوجهما • لقد عدل عن هذه الفكرة عدولا صريحا •

- صحيح ؟ متى حدث هذا ؟ ممن علمته ؟

ألقى على " هذه الأسئلة مستطلعا باهتمام • فحكيت له كل ما كنت أعرفه • فقال واجما كمن يفكر بينه وبين نفسه :

- هم • ... اذن حدث الأمر قبل مصارحة أخرى بساعة واحدة • هم • ... نعم • ... جائز جدا أن تكون هذه المصارحة قد تمت بينهما • • رغم أن شيئا لم " يقل ولم يعمل هناك أبدا حتى ذلك اليوم ، لا من هذا

الجانب ولا من ذاك •• أنا أعرف هذا • نعم ••••• حتماً ••••• تكفى كلمتان
اثنتان للمرض • ولكن •••

هنا ضحك ضحكة غريبة على حين فجأة ، وتابع كلامه فقال :

- ولكن اسمع ••• سأذكر لك نبأً خارقاً لا شك أنه سيهمك :
لو أن صاحبك الأمير طلب من آنا أندريفنا أن يتزوجها (وذلك عرض
كنت سأبذل كل ما أملك من قوة لأحول دون تنفيذه ، لما فى ذهنى من
شبهات عن العلاقة التى بين الأمير وبين ليزا ، أقول لك هذا سرّاً بينى
وبينك) لرفضت آنا أندريفنا طلبه فوراً • على كل حال أظن أنك تحب
آنا أندريفنا كثيراً ، وتحترمها ، وتقدرها ، أليس كذلك ؟ هذا لطف كبير
منك ، ولسوف تبتهج لها اذن : فاعلم يا عزيزى أن آنا أندريفنا مقبلة
على زواج ، وإذا صدق ما أعرفه عن طبعها ، فإنها ستزوج حتماً ،
وسأبارك أنا زواجها طبعاً •

هتفت أقول مدهوشاً :

- ستزوج ؟ من الذى ستزوجه ؟

- أحزر • هيسا ، لا أريد أن أعذبك • مستزوج الأمير يقول
ايفانوفتش ، شيخك العزيز •

حملت • وتابع كلامه بقول بتراخ ووضوح :

- من الجائز جداً أن تكون هذه الفكرة قد نبئت فى ذهنها منذ مدة
طويلة : ولأشك أنها صقلتها صقلافنيا على جميع وجوهها ، وفى تقديرى
أن الأمر قد تم بعد زيارة « الأمير سرجويا » بساعة تماماً (هذا مثال على
غزواته التى تجىء فى غير الأوان) • لقد جاءت الى الأمير يقول ايفانوفتش
بساطة وعرضت عليه أن يتزوجها •

- كيف ؟ هي عرضت عليه أن يتزوجها ؟ تقصد : عرض عليها أن يتزوجها ؟

- هو ؟ دعك من هذا ! هي التي عرضت عليه ، هي ! وواقع الأمر الآن أنه متلىء حماسة • ويبدو أنه مدهوش من أن هذه الفكرة لم تخطر بباله • ولقد سمعت أنه أصبح مريضاً ، من فرط الحماسة أيضاً ••• فى أغلب الظن •

- اسمع ••• انك تتكلم بسخرية شديدة • فلا أكاد أصدقك • كيف تعرض عليه أن يتزوجها ؟ ماذا قالت له ؟

أجاب وهو يصطنع هيئة فيها جد مدهش على حين فجأة :

- ثق يا صديقى اننى مبتهيج ابتهاجاً صادقاً • صحيح أنه شيخ ، ولكن جميع القوانين والعادات تجيز له أن يتزوج • أما عنها هي ، فالأمر هنا أيضاً أمر وجدان الغير ، كما سبق أن كررت لك ذلك يا صديقى • ثم انها أهل لأن يكون لها رأيها وأن تتخذ قرارها الخاص بها • وأما عن التفاصيل ، وعن الكلمات التى استعملتها فى مخاطبته ، فهذه أمور لا أعرف عنها شيئاً يا صديقى • ولكنها دبّرت أمرها على كل حال ، كما لا نستطيع أن نفعل نحن ، لا أنا ولا أنت يا صديقى • وخير ما فى المسألة أن هذا كله لا يشتمل على أية فضيحة ، فهو فى نظر جميع الناس سليم كل السلامة ، هو • كما يجب • جداً • واضح أنها أرادت أن تنشئ لنفسها مركزاً فى المجتمع ، ولكنها تستحق أن يكون لها هذا المركز فى المجتمع • تلك كلها أمور رائجة فى المجتمع • ولا بد أن العرض الذى تقدمت به قد صاغته بعبارات رائعة فائقة • ان لها طبعاً قاسياً يا صديقى ؟ هي راهبة شديدة المراس كما ألقبها بذلك منذ مدة طويلة • لاحظ أنها ربيته تقريباً ، وأنها خبرت طبيته كثيراً • وطالما أكدت لى أنها تحمل له • كثيراً من الاحترام وكثيراً من التقدير والمودة ! ، الخ ، لذلك كنت شبه متهىء

لتلقى النبأ • هذا كله قد نقله الى اليوم باسمها وتلبية لرجائها ابني آندره
آندريفتش ، أخوها ، الذى لا تعرفه ، والذى أراه مرة واحدة كل ستة
أشهر تماماً • وهو يؤيد خطوتها باحترام عظيم •

– اذن أذيع النبأ ؟ ما أشد دهشتى !

– لا ، لم 'يدع بعد ... ولن يذاع الا بعد مدة • متى ؟ لا أدري •
على كل حال ، أنا لا دخل لى أبداً • ولكن كل ما قلته لك صحيح •

– ولكن ما عسى أن يكون موقف كاترين ايفانوفنا الآن ؟ لاشك
أن هذا الأمر لن يسر بيورنيج !

– ذلك ما أجهله • ولكن ممّ يمكن ألا يسر ؟ صدقتى على كل
حال ان آنا آندريفنا سوف تعرف كيف تحسن التصرف فى هذا المجال
أيضاً • يا لآنا آندريفنا هذه ! لقد سألتنى فى صباح أمس هل أحب السيدة
آخماكوفا • هل تتذكر ؟ لقد رويت لك هذا بالأمس مدهوشاً : ألا يمكنها
أن تتزوج الأب اذا تزوجت أما البنت ؟ هل تفهم الآن ؟

هتفت أقول :

– آآ... فعلاً • ولكن هل يخطر ببال آنا آندريفنا حقاً أنك يمكن
أن تريد تزوج كاترين نيقولايفنا ؟

– طبعاً يا صديقى • على كل حال ، على كل حال ، آن الأوان
لأن تذهب الى حيث كنت تريد أن تذهب • اننى أشعر بألم فى رأسى •
سوف أطلب أن 'تعزف 'لوسيا ، • أحب عظمة الضجر والسأم • أظن
أننى قلت لك هذا قبل الآن • ما أكثر ما أكرر تكراراً لا يغتفر ! قد
أنصرف من هنا مع ذلك • أحبك يا صديقى ، ولكن استودعك الله ! حين
أحس بألم فى الرأس أو فى الأسنان فاننى أشتاق دائماً الى الوحدة •

وارتسم على وجهه غضب يعبر عن ألم • اننى أصدقك الآن • لقد كان
يشعر بألم فى رأسه ، فى رأسه خاصة •••

قلت :

— الى الغد •

— ما تعنى بقولك الى الغد ؟ وما الذى سيحدث غداً ؟

وابتسم ابتسامة شذراء •

— أجيء اليك أو تجيء الىّ •

— لا لن أجيء اليك ، بل أنت الذى ستهرع الىّ • كان فى وجهه

سوء وشر ، ولكننى لم أتبه الى هذا • ياله من حادث !

كان الأمير مريضاً بالفعل : فهو ملازمٌ بيته ، معصوب الرأس بخرفة مبللة • وكان ينتظرني نافذ الصبر • ولكن لم يكن رأسه وحده مريضاً ، بل كان شخصه كله يعاني من ألم نفسي • تنبيه آخر : اننى فى هذه الآونة الأخيرة ، وحتى وقوع الكارثة ، لم ألقى الا أناساً مهتاجين احتياجاً شديداً ، فكان لابد أن تسرى عدواهم الىّ رغم ارادتى •

يجب أن أعترف بأننى حين وصلت اليه كانت نفسى زاخرة بعواطف سيئة ، وكنت عدا ذلك أشعر بعار كبير من أننى بكيت عنده أمس • لقد بلغا من خداعى ، هو وليزا ، أننى كنت أقدرّ أنهما يعدانى غيباً ولاشك • الخلاصة أن قلبى كان مترعاً بمشاعر رديئة حين دخلت عليه • ولكن هذا كله كان سطحيّاً ، فسرعان ما تبددت تلك المشاعر • يجب أن أنصف الأمير فأقول : انه متى خفت حدة تأذيه أو زالت ، فتح نفسه لك صادقاً ، فاذا أنت تكتشف فيه صفات تكاد تكون صفات طفل ، من حنان وثقة ومحبة • لقد قبلنى والدموع تترقرق فى عينيه ، ثم سرعان ما شرع يتحدث فى الأمر ••• نعم ، لقد كان فى حاجة الىّ حقاً • وكان فى أقواله وفى تتابع أفكاره اضطراب كبير •

أعلن لى جازماً أنه عاقد عزمه على أن يتزوج ليزا ، وعلى أن يتزوجها فى أقرب وقت • وقال لى : « ألا تكون ليزا من طبقة النبلاء ، فذلك أمر لم يهمنى لحظة واحدة • لقد تزوج جدى فتاة من الأتقان كانت

مغنية فى مسرح خاص للملاك مجاور • صحيح ان اسرمنى تعقد على امالاً
من نوع خاص ، ولكنها ستنزع الان مضطرة ، وسيتم هذا بغير
صراع • اريد أن اقطع صلتى بكل مجتمع هذا الزمان ! اريد شيئاً اخر ،
شيئاً جديداً ! لا أدري لماذا أحببتى أخذك ، ولكن لعل السبب هو اننى
لولاها لكنت قد بارحت هذا العالم • أحلف لك صادقاً كل الصدق أننى أعد
لقائى لها فى لوجا رحمة الهية • أعتقد أنها أحببتى بسبب « فداحة
سقوطى ، ... ولكن هل تفهم هذا يا أركادى ما كاروفتش ؟

فأجبت بصوت يعبر تعبيراً واضحاً عن الاقتناع :

- كلّ الفهم •

كنت جالساً على المقعد الذى يواجه المائدة ، وكان هو يسير فى
الغرفة طويلاً وعرضاً •

- يجب أن أروى لك قصة لقائنا كلها دون أن أخفى شيئاً • لقد بدأ
كل شئ بسري خاص عرفته وحدها ، لأننى لم أبيع به الا لها ، ولا يعرفه
أحد حتى الآن • لقد وصلت لوجا مكروب النفس يائساً ، وأقمت عند
سنولييفا ، لا أدري الآن لماذا ! لعلنى أردت أن أنشد أكمل عزلة •
لقد تركت الجيش منذ قليل • وكنت قد دخلت الجيش عند عودتى من
الخارج بعد ذلك اللقاء فى الخارج مع آندره بتروفتش • وكنت أملك فى
ذلك الحين ثروة ، وكنت أبدأ المال تبديداً ، وأعيش حياة بذخ ولهو •
ولكن رفائى كانوا لا يحبوننى • ومع ذلك كنت أحاول ألا أسئ اليهم •
يجب أن أعترف لك بأن أحداً لم يحببى فى يوم من الأيام • وكان هناك
حامل علم اسمه ستينانوف ، وهو فى الواقع رجل فارغ تافه بل يكاد
يكون أبله • الخلاصه أنه ليس له ميزة من الميزات • ولكنه كان رجلاً
شريفاً لا يمكن أن يجحد أحد شرفه • وقد تشبث هذا الرجل بى • فكنت

لا أضيق بوجوده ولا أشعر بحرج منه • كان يأتي الى ، فيجلس في ركن من الاركان اياما كاملة دون أن يفتح فمه بكلمة ، ولكن بوقار وكرامة ، فلا يزعجني أى ازعاج • وقد قصص عليه فى ذات يوم حكاية من حكايات الساعة زخرفتها بسخافات كثيرة : وهى أن ابنة الكولونيل تحمل لى عاطفة حب ، وأن الكولونيل يقول على فاستطيع أن أحركه كيف أشاء • ولا حاجة الى ذكر التفاصيل ، فانما المهم أنه قد نشأت عن كلامى هذا شائعات وأفوايل معقدة غاية التعقيد ، قدرة الى أبعد حدود القذارة • وهذه الشائعات والأفوايل لم يكن مصدرها ستيبانوف ، وانما كان مصدرها خادمى الذى سمع كل شيء وحفظ كل شيء ، لأن الكلام كان حكاية سيئة تفسد سمعة فتاة • فلما سأل الضباط هذا الخادم عن مصدر القصة حين شاعت فى الناس سَمى ستيبانوف بل ذكر أننى الذى رويتها لستيبانوف • وكان يستحيل على ستيبانوف أن ينكر أنه سمعها • فهذه مسألة شرف • ولما كنت قد اخترعت أكثر من ثلثي الحكاية اختراعاً لزخرفتها فقد استاء الضباط واضطر الكولونيل أن يجمعنا فى بيته لتوضيح الأمور ووضعها فى نصابها • وهناك ألقى هذا السؤال على ستيبانوف بحضور الجميع : أسمعتم أم لم تسمع ؟ فقال ستيبانوف الحقيقة • فكيف كان تصرفى أنا الأمير الذى أنسب الى سلالة أمراء عمرها ألف سنة ؟ لقد أنكرت ، وقلت أمام ستيبانوف انه كذب ، أو بتعبير مهذب : « لم يحسن فهم ما قلت » ، الخ • هنا أيضاً لا داعى الى ذكر التفاصيل • وانما المهم أن أشير الى أن موقفى ممتاز على موقف ستيبانوف بأننى كنت أستطيع بسبب مواظبة ستيبانوف على المعجى الى بيتى ، أن أعرض الأمر عرضاً يوهم بأن نمة تواطأ قد تم بين ستيبانوف وبين خادمى لتحقيق بعض المنافع ، وذلك شيء يمكن أن يُصدق • وذلك ما كان • فلم يزد ستيبانوف على أن نظر الى وهز منكبيه دون أن ينطق بكلمة واحدة • اننى أنذكر

نظرت له ولن انساها ما حيت • ولم يلبث ستيانوف ان قدم استقالته فوراً • ولكنك لن تحزر أبداً ما حدث • ان جميع الضباط • من أولهم الى آخرهم • قد زاروه وتانسدوه ألا يرحل • حتى اذا مضى اسبوعان كنت أنا الذي أترك الجيش : لم يطردي أحد • ولم يدعني أحد الى الرحيل • وانما انتحلت عذراً عائلياً لتقديم استقالتي • هكذا انتهت القضية • وقد بقيت في أول الأمر غير مكترث • حتى لقد كنت غاضباً منهم • وأقمت في لوجا • وتعرفت الى اليزابت ماكاروفنا • ولكنني أخذت بعد انقضاء شهر واحد • أنظر الى مسدسي وأفكر في الموت • انني أرى الأمور سوداء دائماً يا أركادي ماكاروفتش • وأعددت رسالة الى الكولونيل والى رفاقي في الجيش لأعترف بكذبي ولأردّ الى ستيانوف اعتباره • وحين انتهيت من كتابة الرسالة ألقيت على نفسي هذا السؤال : « أرسلها وأعش أم أرسلها وأموت ؟ » • وكان يمكن أن أعجز عن الاهتمام الى اجابة • لكن مصادفة من المصادفات • مصادفة عمياء • قرّبتني فجأة من اليزابت ماكاروفنا بعد حديث سريع خاص جرى بيني وبينها • كانت حتى ذلك الحين تختلف الى ستوليباف • فكنا نلتقي أحياناً • وتتبادل التحية • ولا تتخاطب الا في القليل النادر • فاذا أنا أكشف لها فجأة عن كل شيء • وعندئذ انما مدت لي يدها •

— وكيف حلت المشكلة ؟

— لم أبعث الرسالة • هي التي قررت ذلك • وسوّغت قرارها على هذا النحو : اذا بعثت الرسالة فلا شك أن عملي يكون نبيلاً يفسل عاري ولكن هل أطيق أنا نفسي احتمال هذه الخطوة ؟ وكان رأيها أن أحداً لا يستطيع احتمال مثل هذه الخطوة • لأن كل مستقبل يكون قد ضاع • وكل انبعاث من أجل حياة جديدة يصبح مستحيلاً • ثم ان ارسال الرسالة يكون له ما يوجبه لو أن ستيانوف قد أودى وتالم • ولكن

ستييانوف قد ردّ اليه الضباط اعتباره ، وهو معهم على أحسن حال •
الخلاصة أن كلامها كان مفارقة غريبة • ولكنها صدقتى عن بعث الرسالة ،
وانقدت لها انقياداً تاماً •

هتفت أقول :

- ولقد اخذت قراراً على غراز ما يفعل يسوعى ، ولكن على غرار
ما تفعل امرأة أيضا • كانت تحبك منذ ذلك الحين •
- وهذا بعينه هو ما بعثنى الى حياة جديدة • حلفت لأغيرن نفسى
ولا بدلن حياتى ، ولا كسبن جدارة فى نظرى وفى نظرها • فانظر الى أى
شئ انتهى ذلك كله ! ركضنا أنا وأنت الى بيوت القمار ، لعبنا الباكراه ،
أطاش الميراث صوابى ، لم أفطن الا الى اللذة ، لم أنتبه الى ضمان
مستقبلى وعملى ، وعاشرت الأوغاد من الناس ، وحفلت بمظاهر الأبهة
والفخامة واندفعت فى ترهات المجتمع الراقى • وعذبت ليزا • آه •
يا للعار !

قال ذلك وفرك جبينه بيده ، وراح يذرع الغرفة ، ثم أردد يقول:
- نحن كلانا مصابان بالداء الروسى المألوف يا أركادى ماكاروفتش :
فلا أنت تعرف ماذا يجب أن تعمل ، ولا أنا أعرف ماذا يجب أن أعمل •
ان الروسى متى خرج عن الطريق الذى رسمته له العادة أصبح لا يعرف
ماذا يجب أن يعمل • فى الطريق المرسوم كل شئ واضح : دخل ،
ورتبة ، ومركز فى المجتمع ، ومركبة ، وزيارات ، ومصعب ، وامرأة •
ماذا يبقى منى عند أول انحراف عن الطريق الممهد ؟ ورقة تذروها
الريح ! أصبحت لا أعرف ماذا أعمل ! لقد حاولت فى هذين الشهرين
أن أبقى فى الطريق المرسوم ، وأردت أن أحب الطريق المرسوم ، وغصت
فى هذا الطريق المرسوم • انك لا تعرف حتى الآن الهاوية الجديدة
التي سقطت فيها : لقد كنت أحب ليزا ، كنت أحبها حباً صادقاً ، وكان
فكرى فى الوقت نفسه ينصرف الى السدة أخمأكوفا !

هتفت أقول مثالما :

- أهذا ممكن ؟ قل لى بالنسبة يا امير : ماذا ذكرت لى أمس عن
فرسيلوف ؟ هل قلت لى انه كان يحضك على ارتكاب دماء فى حق
كاترين ايفانوفنا ؟

- لعلنى بالفت • ولعلنى بسبب ما أتصف به من سرعة التأذى فد
أذبت فى حقه مثلما أذبت فى حقلك • ولكن دعنا من هذا الآن • هل
تتصور أنتى طوال هذه المدة ، وربما منذ أيام لوجا ، لم أكن وفيًا لأى
مثل أعلى فى الحياة ؟ أقسم لك أن المثل الأعلى لم يفارقنى قط ، بل كان
دائمًا أمامى ، ولم يفقد شيئًا من جماله فى نظرى • كنت أتذكر العهد الذى
قطعته على نفسى لاليزابت ماكاروفنا وهو أن أبعث بشئًا جديدًا • وحين
حدثنى أندره بتروفتش بالأمس هنا عن النبيل فانه لم يقل لى شيئًا جديدًا ،
ثق بذلك • ان مثلى الأعلى ثابت راسخ : بضع عشرات من الهكتارات
(بضع عشرات لا أكثر ، اذ لم يبق من الميراث شئ تقريبًا) ؛ وقطعة
تامة ، تامة اطلاقًا ، مع المجتمع الرافى وعالم المناصب ؛ ومسكن ريفى ،
وأسرتى ، وأنا • • • أحرث الأرض أو أقوم بعمل من هذا القليل • وليس
هذا فى سلاتنا شيئًا جديدًا : ان عمى كان يدفع سكة المحراث ، وكذلك
كان جدى • نحن أمراء منذ ألف سنة ، ونبلاء مثل آل روهان ، ولكننا
فقراء • واليك ما كنت سأقوله لأولادى : « تذكر طول عمرك يابنى أنك
نبيل ، وأن الدم المقدس ، دمُ الأمراء الروس ، يجرى فى عروقك ،
ولكن لا تحمرّ خجلًا من أن أبالك دفع سكة المحراث : فهو اما فعل ذلك
كما يفعله أمير • • • ولن أترك لأولادى ثروة عدا تلك الرقعة من الأرض ،
ولكننى فى مقابل ذلك سوف أعلمهم تعليمًا عاليًا ، سوف أجعل ذلك
واجبًا يقع على عاتقى ولا أخفى عنه أبدًا • وستساعدنى ليزا فى ذلك •
ليزا ، الأولاد ، العمل ! آه • • لكم حملنا بهذا كله ، أنا وهى ، فى

هذا البيت نفسه ! وفى الوقت نفسه كان فكرى ينصرف الى آخماكوف ، دون أن أحبها أبداً ، وكنت أفكر فى زواج ترى رافى ! ولم أقرر أن أذهب الى آنا أندريفنا الا بعد ذلك النبأ الذى حمله ناشتوشوكين بالأس من بيورنيج ذاك •

- ولكنك ذهبت اليها لتسحب • هذه خطوة شريفة فيما أرى •
- أنظن ذلك ؟

ألقى هذا السؤال ، ووقف أمامى متسمرأ ، ثم استأنف كلامه قائلاً :

- بل انك لا تعرف طبيعتى بعد • أو قل ... أو قل ان هاهنا شيئاً لا أعرفه أنا نفسى ، لأن الأمر لا يمكن أن يكون أمر طبيعة فحسب • اننى أحبك صادقاً يا أركادى ماكاروفتش ، وعدا هذا فقد أثمت فى حقك اثماً عميقاً خلال هذين الشهرين ، لذلك أريد أن تعرف كل شئ • من حيث أنك أخو ليزا : أنا انما ذهبت الى آنا أندريفنا لأخطبها ، لا لأسحب •
- أهذا معقول ؟
- لقد خدعت ليزا •

- اسمح لى : أخطبت آنا أندريفنا خطبة رسمية ورفضت ؟ نعم ؟
أهذا ما حدث ؟ ان التفاصيل تهمنى كثيراً يا أمير •

- لا ، لم أتقدم بخطبتها ، ولكن السبب هو أننى لم يتح لى ذلك • وهى التى أفهمتنى ، لا بالفاظ الرفض طبعاً ، ولكن بكلمات واضحة شفافة مع ذلك • أفهمتنى • برقة ، أن هذه الفكرة أصبحت بعد الآن مستحيلة •

- فكأنك اذن لم تخطبها ، وبقيت كرامتك سليمة لم يمسسها أذى •

- كيف تستطيع أن تفكر هذا التفكير ؟ وحكم ضميري ، وليزا التي خدعتها ... والتي أردت اذن أن أهجرها ؟ والعهد الذي قطعته على نفسي وعلى سلالة أسلافي جميعاً ، وهو أن أبعث بعثاً جديداً وأن أكفّر عن دناءاتي الماضية ؟ أتوسل اليك : لا تحدثها في هذا الأمر . فلعل هذا هو الشيء الوحيد الذي لا تستطيع أن تغفري لي ! انني من ذلك مريض منذ الأمس . ويخيل اليّ خاصّةً أن كل شيء قد انتهى وأن آخر أمير من أمراء سوكولسكي سيودع في السجن ! مسكينه ليزا ! لقد انتظرتك نافذ الصبر ، يا آرКАДي ما كاروفتش ، لاكشف لك ، بصفتك أخا ليزا ، ما لا تعرفه ليزا حتى الآن . انني مجرم من مجرمي الحق العام ، أشارك في صنع أسهم مزيفة باسم شركة من شركات السكك الحديدية .

- ما هذا أيضاً ؟ ماذا تقول ؟ تودع في السجن ! ...

قلت له ذلك منتفضاً وتأمّلته مذعوراً . كان وجهه يعبر عن مرارة عميقة قائمة لا مخرج منها . قال :

- اجلس !

وجلس هو أيضاً على مقعد قبالي . وشرع يتكلم :

- اعلم أولاً هذا : منذ أكثر من سنة ، في ذلك الصيف ، صيف امس وليديا وكاترين ايفانوفنا وباديس بعد ذلك ، يوم أردت أن أذهب الى باديس لقضاء شهرين ، وفي باديس بطبيعة الحال ، كنت في عوز . وحينذاك انما جاءني ستيبلكوف ، وكنت أعرفه على كل حال ، فأعطاني مالا ووعدني بمزيد ، ولكنه سألتني أن أساعده : كان في حاجة الى أحد يكون فنانا رساما حفاراً طباعاً وهلم جرا . . . كيميائياً وتكنولوجياً ، وذلك لأغراض معينة . وقد جعلني أدرك تلك الأغراض منذ المرة الأولى

ادركا واضحا • لقد كان يعرف طبيعى • فلم يزد ذلك كله على ان
أضحكنى وسئلانى • وكنت أعرف منذ أن كنت تلميذاً على مقاعد المدرس ،
شخصاً هو الآن مهاجر روسى ، لا روسى الأصل على كل حال ، يقيم فى
مكان بمدينة هامبورج • كان هذا الرجل قد شارك ابان اقامته بروسيا
فى قصة تزيف أوراق • وعلى هذا الرجل انما كان يعوّل ستيلكوف ،
ولكنه كان فى حاجة الى من يوصى به لديه ، فاتجه الىّ يلتمس منى هذه
التوصية • فكُتبت له سطرين بخط يدى ثم لم أفكر فى هذا الموضوع •
وقد رأتى بعد ذلك مراراً ، وبلغ ما أعطانيه زهاء ثلاثة آلاف روبل • ولقد
نسيت تلك المسألة نسياناً تاماً • وصرت اقترض منه هنا من حين الى حين ،
على رهون أو بسندات ، وكان يتلوى أمامى ذليلاً كما يتلوى عبيد •
وعلمت منه أمس فجأة ، لأول مرة ، اننى مجرم من مجرمى الحق العام •

— أمس ؟ أية ساعة ؟

— ساعة كنا نتصارخ فى مكتبى قبيل وصول ناشتشوكين • لأول
مرة ، وبألفاظ صريحة فى هذه المرة ، تجرأ أن يكلمنى عن آنا أندريفنا •
وقد رفعت يدى لأضربه ، لكنه نهض فجأةً ليعلم أننى متضامن معه ، وأن
علىّ أن أتذكر أننى كنت شريكه فى الجرم ، وأننى وعده مثله • ذلك
ما قاله لى ، ان لم يكن بنصه فبمعناه •

— ما هذه السخافات ؟ أهذا حلم ؟

— لا ، ليس حلماً • ولقد جاءنى اليوم ، فزادنى ايضاحاً • ان هذه
الأسهم المزيفة هى الآن فى التداول ، وسينزل غيرها الى التداول • ويظهر
أن عدداً منها قد صودر هنا وهناك • وأنا ليس لى فى الأمر أى دخل
طبعاً • ولكن ستيلكوف قال لى : « أما تكرمت فأعطينى كتاب التوصية هذا
فى ذلك الحين ؟ » •

— ولكن أكنت تعلم لماذا التمس منك تلك التوصية به أم كنت لا تعرف ؟

أجاب الأمير وهو يخفض صوته ويخفض عينيه أيضاً :

— كنت أعرف. بل قل كنت أعرف دون أن أعرف . لقد ضحكت وولاتنى الأمر . ولم أفكر وقتئذ فى شيء ، لا سيما وأننى لم أكن أنا فى حاجة الى أسهم مزيفة ، ولم أكن أنهيأ أبداً لصنع أسهم مزيفة . ولكن الثلاثة آلاف روبل التى أعطانيها حينذاك لم يقيدها ديناً على ، وقبلت أنا ذلك . ثم ما أدراك ؟ ربما أكون مزيفاً أنا أيضاً ! لم يكن فى الامكان ألا أعلم ، ما أنا بطفل . ولكن الأمر سلاتنى وأضحكنى ، وساعدت مجرمين ... ساعدتهم طمعاً فى مال ! واذن فأنا أيضاً مزيف !

— لا ، لا ، انك تبالغ ! صحيح أنك مذنب ، ولكنك تبالغ !

— الخطير فى الأمر أن هناك شاباً اسمه جيلسكى يعمل كاتباً فى القضاء وتحوم حوله الشبهات ، قد شارك أيضاً فى حكاية الأسهم المزيفة هذه ، ثم جاءنى بعد ذلك عدة مرات موفداً من الرجل المقيم بهامبورج ، جاءنى لترهات وسفاسف طبعاً ، بل اننى لا أعرف لأى غرض من الأغراض على وجه التحديد قد جاءنى ، ولكنه يحتفظ برسالتين منى ، هما أيضاً رسالتان قصيرتان لا تعدو احدهما سطرين ، غير انهما تشهدان على . اليوم أدركت هذا . ويقول ستيلكوف ان جيلسكى هذا مزعج : فقد سرق لا أدري ماذا ، سرق مالا من الخزينة فيما أظن ، وهو ينتوى أن يسرق المزيد ثم يهاجر ؟ ومن أجل أن يهاجر يجب أن يتزود للسفر بثمانية آلاف روبل ، لا أقل من ذلك . ان نصيبى من الميراث يكفى ستيلكوف . ولكن ستيلكوف يقول ان علينا أن نرضى جيلسكى أيضاً . الخلاصة أن على أن أتنازل عن حصتى من الميراث وأن أدفع فوق

ذلك عشرة آلاف روبل • هذه كلمتهم الأخيرة • فإذا نفدت هذا الشرط
ردوا الى الرسالتين • وواضح أنهم متواطئون •

— يا للسخافة ! انهم اذا ونسوا بك كانوا يستلمون أنفسهم ! فلا يمكن
أن يشوا بك •

— أعرف هذا • ثم انهم لا يهدّدون بأن يشوا بي • بل يقولون :
« نحن لن نشي بك » ولكن افترض الأمر • • • • • ذلك ما يقولونه • ذلك
كل ما يقولونه • وأظن أنه كاف • ولكن ليس هذا هو الأمر : هبني
استرددت الرسائل • فهل ينجيني هذا من أن أظل مرتبطاً بهؤلاء الأوغاد
متضامناً معهم ؟ آه • • • كيف يمكنني أن أبقى الى الأبد رفيقهم ؟ أكذب
على روسييا ، أكذب على الأطفال ، أكذب على ليزا ، أكذب على
ضميري • • • • • ؟

— هل تعلم ليزا ؟

— لا ، لا تعلم كل شيء • لو علمت ، وهى على ما هى عليه من
حال ، لماتت من هول الصدمة • انتى أرتدى الآن بزة الجيش ، فكلما
صادفت جندياً من الجيش ، شعرت شعوراً كاوياً بأننى لا أستحق ارتداء
هذه البزة •

هتفت أقول فجأة :

— اسمع ! لا حاجة الى الاكثار من الكلام • ليس أمامك الا طريق
واحدة للخلاص • اذهب الى الأمير يقولوا ايضاً نوفتش ، وخذ منه
عشرة آلاف روبل ، اسأله ان يعطيك هذا المبلغ دون أن تكشف له عن
شيء ، ثم استدع هذين الوغدين ، وصّف حسابك معهما تصفية نهائية
بافتداء رسائلك • • • فينتهى كل شيء ! ينتهى كل شيء ، وتمضى تحرث
الأرض ! دع الأوهام وثق بالحياة !
قال مؤكداً :

ـ لقد فكرت فى هذا • فكرت فيه طول هذا اليوم ، واتخذت
أخيراً قرارى • وكنت لا أنتظر الا أن تجيء أنت • سوف أذهب اليه •
هل تعلم اننى لم يسبق لى أن اقترضت فى حياتى كلها قرناً واحداً من
الأمير يقولوا ايفانوفتش ؟ انه طيب فى معاملة أسرنا ، حتى انه ... أظهر
اهتماماً بنا ... ولكننى ... شخصياً ... لم أطلب منه أى مال فى يوم من
الأيام • وهأنذا الآن أرتضى لنفسى أن أطلب منه • لاحظ أن فرعنا أقدم
من فرع الأمير يقولوا ايفانوفتش : انهم هم الفرع الحديث ، الفرع الهجين ،
الفرع المشكوك فيه تقريباً ... ولقد تناصب أسلافنا العداة • وفى بداية
عهد الإصلاح ، أيام بطرس الأكبر ، كان أبو جدى ، واسمه بطرس
أيضاً ، كان راسكولنيكاً وظل كذلك وطَّوف فى غابات كوستروما •
فهذا الجدد تزوج زواجاً ثانياً بامرأة لم تكن من طبقة النبلاء هى أيضاً ،
وعندئذ انما تقدمنا آل سوكولسكى هؤلاء ... ولكن عمّ كنت أتكلّم ؟

كان متعباً كأن الكلام قد أنهكه •

قلت وأنا أنهض وأتناول قبعتى :

ـ هدىء نفسك • نمّ قبل كل شيء • أما الأمير يقولوا ايفانوفتش
فانه لن يرفض حتماً ، ولا سيما الآن ، فى غمرة فرجه • هل تعرف
القصة ؟ لا ! غير معقول ! لقد بلغنى نبأ عجيب : أنه سيتزوج • هذا سر ،
ولكن لا 'يكنتم عنك أنت طبعاً •

ورويت له كل شيء وأنا واقف ممسك قبعتى أهمّ بالانصراف • لم
يكن على علم بالأمر • فجعل يسألنى عن تفاصيل ، ويسألنى خاصة عن
الزمان والمكان وحظ النبأ من امكان التحقق • فلم أخف عنه طبعاً أن
الأمر حدث فيما يقولون بعد زيارته أنا أندريفنا بالأمس فوراً • لا أستطيع
أن أصوّر لكم الأثر الأليم الذى أحدثه هذا النبأ فى نفسه • فقد تشوّه
وجهه وتخدّد ، وتشنّجت شفتاه بابتسامة غضب ، واصفر أخيراً ، ثم

خفض عينيه وغاص فى تفكير حالم عميق • لقد رايت رؤيه واضحه ان
رفض أنا اندريفنا كان قد جرح كبرياءه جرحاً بالغاً عميقاً • ولعله وهو
فيما هو فيه من حالة مرضيه قد غلا وأسرف الآن فى تصور الدور المضحك
الذليل الذى قام به امس امام تلك الفتاة التى كان يتوقع موافقتها بثقه
تامة كما طهر ذلك واضحاً • ولعله اخيراً قد تصور الدناءة التى ارتكبها
فى حق ليزا ، وهى دناءة لم تمد عليه بطائل ! انه لأمر طريف سائق أن
يرى المرء ما هى آراء أبناء المجتمع الراقى بعضهم فى بعض ، وعلى أى
أساس يحترم بعضهم بعضاً : لقد كان فى امكان هذا الأمير مع ذلك أن
يفترض أن أنا اندريفنا على علم بالصلة التى بينه وبين ليزا ، اختها
مهما يكن من أمره ، وأنها ان كانت تجهل هذه الصلة الآن فستعرفها حتماً
فى يوم من الأيام • ولكنه رغم ذلك كان لا « يخالجه شك فى قراره » !

وحقق الى فجأة بعينين فيهما استعلاء ووقاحة وقال :

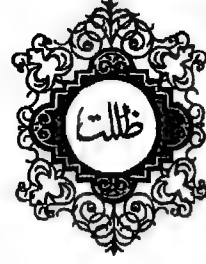
ـ فكيف أمكنك أن تظن أنني أرضى ، « أنا » أن أذهب الى الأمير
نقولاً ايغانوفشس أسأله ملاً بعد نبأ كهذا النبأ ؟ أذهب الى خطيب الخطيبة
التي رفضتني ؟ ان هذا يكون استجداء ، وذلًا ، وعبودية ! لا ، لا ، ضاع
الآن كل نبي • اذا كانت معونة هذا الشيخ هى آخر أمل ، فليهلك هذا
الأمل أيضاً !

كنت فى قرارة نفسى موافقاً على ما يقول • ولكن كان ينبغى على
المرء مع ذلك أن ينظر الى الأمور نظرة أوسع : هل الأمير المجوز رجل
حقاً ؟ هل هو خطيب حقاً ؟ وتحركت فى رأسى أفكار كثيرة • وكنت
قد قررت أن أزوره فى الغد • فحاولت ، بانتظار ذلك ، أن أخفف وقع
النبأ فى نفس الأمير المسكين ، وأن أحضه على النوم قائلاً له : « سوف

تقضى ليلة مريحة ، فتكون أفكارك غداً أوضح • لسوف ترى ذلك ! • •
فصافحني بحرارة ، ولكن دون أن يقبلني • وقطعت له على نفسي عهداً
لأجيبنيّ اليه مساء غد وقلت له : « سوف نتحدث ، سوف نتحدث ، هناك
كلام كثير سوف نقوله » • فحين سمع هذه الكلمات أملت بشفتيه ابتسامة
مشئومة •

الفصل الثامن

١



طوال تلك الليلة أحلم بالروليت والقمار والذهب
وسداد الديون • كنت كالجالس الى مائدة القمار
احسب مبالغ الخط واحتمالات الريح ، فقضيت
ليلتي كلها فريسة كابوس ساحق • سأقول
الحقيقة : اننى طوال النهار السابق ، رغم جميع تأثيراتى الحارقة ، كنت
أتذكر من حين الى حين ، الريح الذى جنينه بالقمار عند زرتشتيكوف •
صحيح اننى كنت أطرده الفكرة ، ولكننى لم أستطع أن أدفع عن نفسى
الشعور وال عاطفة ، فكنت أرتعش كلما وافتنى ذكرى • كان هذا الريح
قد ملك على نفسى • أترانى خلقت مقامراً ؟ لاشك على كل حال فى اننى
أملك صفات المقامر • فحتى فى هذا اليوم ، وأنا أكتب هذه الأسطر ،
أحب أحياناً أن أفكر فى القمار ! وربما اتفق لى أن أقضى ساعات كاملة
أجرب فى الصمت حسابات قمار ، وأتخيلنى فى الحلم لاعباً ورايحاً • نعم ،
اننى أنصف « بصفات » كثيرة التنوع ، وليست نفسى هادئة مطمئنة •

لقد كنت أتوى الذهاب الى ستييلكوف فى الساعة العاشرة سيراً على
القدمين • فصرفت مائتى منذ جاء • وفيما كنت أحسو نهوتى حاولت أن
أنعم النظر فى الأمور • فلاحظت اننى مسرور ، فلما انكفأت الى نفسى
لحظة أدركت أن سرورى انما يرجع خاصة الى « اننى سأكون هذا اليوم

فى منزل الامير نيقولا ايفانوفتش ، • ولكن ذلك اليوم من حياتى كان يوما مشؤماً ، ولم يكن فى الحسبان ، وقد ابتدأ بمفاجأة •

فى الساعة العاشرة تماماً ، رأيت بابى يفتح على مصراعيه ، ورأيت تاتيانا بافلوفنا تدخل على كنبوب الريح • كان يمكن أن أتوقع كل شيء • الا هذه الزيارة ، فوثبت مذعوراً • كان وجهها وحشياً ، وكانت حركاتها واثاراتها مشوشة ، وأغلب الظن أنها ما كانت لتستطيع أن تجيبني لو سألتها ما الذى جاء بها الى هذا المجرى • المبالغ • ويجب أن أشرح سلفاً فأقول : انها قد تلقت منذ هنيهة نبأ خارقاً ساحقاً ، وكانت لا تزال واقعة تحت تأثير الانفعال الأول ، وكان النبأ يمسنى أنا أيضاً • على أنها لم تقض عندى الا نصف دقيقة ، أو دقيقة ان شئت ، ولكن من المحقق أنها لم تزد على الدقيقة • وقد بادرتنى فوراً بقولها وهى تتسمر قدامى مائلة الى أمام :

— آ • • • هانت ذا اذن ! هانت ذا أيها الوغد ؟ ما هذا الذى فعلت ؟ ماذا ، ألا تدري ؟ انه يشرب قهوته ! آه ! يا لثائر ! يا طاحونة حكي ! يا ماضع ورق ! • • • يجب أن تجلد بالسوط ، أن تجلد ، أن تجلد ، أن تجلد • • •

— تاتيانا بافلوفنا ، ماذا حدث ؟ ماذا جرى ؟ ماذا ؟

فالت مهددة متوغدة وهى توتلى هاربة :

— ستعرف !

وغابت • وانطلقت ألاحقها طبعاً ، ولكن فكرة طارئة أوقفتنى ، بل قل ان ما أوقفنى ليس فكرة ، وانما هو قلق غامض : لقد أحسست أن الشيء الأساسى فى صراخها انما هو قولها « يا ماضع ورق » • وما كان لى أن أكتشف سبباً بنفسى طبعاً ، ولكننى خرجت مسرعاً لأفرغ من ستيلاكوف بأقصى سرعة ، ثم أذهب الى الأمير نيقولا ايفانوفتش ، قائلاً لنفسى بغريزتى : « هنالك مفتاح الأمور كلها » •

فسرعان ما عرفت أن ستيلاكوف كان عالماً بقصة آنا أندريفنا كلها ،
بل كان يعرف تفاصيلها . نىء غريب . لن أروى الآن حديثه ولن أصف
اشاراته وحرركاته ، وحسبى أن أذكر أننى رأيته يتدفق افتتاً وحماسة
« لما لهذه المأثرة من قيمة فنية » . قال صائحاً :

- يالها من امرأة شجاعة ! هذه امرأة شجاعة ! لا ، لا ، انها ليست
مثلاً . نحن نبقى فى مكاننا ساكنين ، أما هى فقد أرادت أن تشرب الماء من
منبعه الحق ، وقد شربته من منبعه الحق . هذه . . . هذه تمثال قديم
لمينرفا ، لكنه تمثال يتحرك ويسير ويرتدى فساتين حديثة !

ورجوته أن ينتقل الى الموضوع . فاذا الأمر كله ، كما أدركت
ذلك من قبل ، هو ضرورة اقناع الأمير بأن يذهب الى الأمير نيقولا
ايفانوفتش ليسأله المعونة والنجدة ، « والا فان العاقبة ستكون وخيمة عليه ،
وخيمة جداً ، وليس الذنب ذنبى . صحيح أم لا ؟ » .

كان يتحدث الى صينى ، ولكنه كان فى أغلب الظن لا يفترض أننى
أعرف شيئاً يزيد على ما عرفته البارحة . ولم يكن فى امكانه أن
يفترض ذلك : فأنا لم أدع له طعماً ، لا بالتصريح ولا بالتلميح ، أن يعرف
اننى على علم بأمر « الأسهم » . ولم يطل الحديث بيننا : فقد أسرع
بعدنى ، على الفور تقريباً ، بمبلغ من المال ، قائلاً انه « مبلغ كبير ، مبلغ
كبير ، وانما المهم أن أقنع الأمير بطلب المعونة ، وان الأمر مستعجل ،
مستعجل جداً ، وان كل شىء يتوقف على السرعة ، فالأمر مستعجل الى
حد رهيب ! » .

لم أثنأ أن أدخل فى مناقشات معه كما فعلت البارحة ، وهممت أن
أنصرف ، قائلاً له عرضاً « اننى سأحاول » . ولكنه أدهشنى على حين
فجأة ادهاشاً لا سبيل الى وصفه : كنت قد اتجهت الى الباب ، فاذا هو

يحضنتى بفتنه فى رقه وحنان ، ويأخذ يقول لى أشياء تستعصى على الفهم الى اقصى حد .

سوف أهمل التفاصيل ، فلا أذكر سلسلة كلامه كلها ، حتى لا أتمب القارىء . ولكن اليك فحوى ما قاله : لقد عرض على « أن أصله بالسيد درجاشيف ، ما دمت أتردد على ذلك المنزل » .

أصحت اليه بسمعى ، محاولاً بكل قواى ألا أفصح نفسى بأية اشارة . وأجبتة على الفور قائلاً اننى لا أعرف أحداً هناك ، واننى ان ذهبت الى ذلك المنزل مرة فقد حدث ذلك عرضاً ومصادفة . قال :

— ولكن ما دمت قد « قبلت » مرة ، ففى وسعك أن تذهب مرة أخرى ، أليس هذا صحيحاً ؟

فسألته صراحةً ، ولكن برودة شديدة ، ففهم يعنيه هذا . وحتى هذا اليوم لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن يلقى المرء هذه السذاجة كلها لدى أناس يلاحظ حين يراهم أنهم ليسوا أغنياء ، بل يلاحظ أيضاً أنهم « عمليون » ، كما وصفه بذلك فاسين . ولقد شرح لى بصراحة تامة أن شبهاته توحى اليه بأن شيئاً يحدث عند درجاشيف ، شيئاً لابد أنه محرم قطعاً ، محرم أقصى التحريم فيكفى أن يلاحظ وأن يدرس حتى يستطيع أن يجنى من ذلك نفعاً . قال لى ذلك وغمز بعينه اليسرى وهو يبتسم .

لم أجبه بشئ يؤكد أننى سألبى رغبته ، ولكننى تظاهرت بالتفكير ، ووعده بأن « أفكر فى الأمر » ، ثم سارعت الى الانصراف . ان الأمور تتعد . وطرث الى فاسين ، فوجدته فى بيته .

— ها ! ... أنت أيضاً !

انه منذ رآنى استقبلنى بهذه الجملة الملفزة . ولكننى لم أتلبث على

جملته ، بل انتقلت الى الموضوع رأساً ، وقصصت عليه القصة ، فكان واضحاً أنه دهش ولكنه لم يفقد هدوءه البتة ، وساءلني في جميع التفاصيل • وقال :

- يجوز جداً أنك لم تحسن الفهم !

- بل فهمت أحسن الفهم • لقد كان المعنى واضحاً وضوحاً مطلقاً •

فأضاف يقول بصدق :

- على كل حال ، أشكرك أجزل الشكر • نعم حقاً ، إذا كان كل شيء قد جرى على هذا النحو ، فمعنى ذلك أنه يفترض أنك لن تستطيع أن تصمد لانغراء مبلغ من المال •

- انه عدا ذلك يعرف حالي ، فلقد كنت أقامر كثيراً ، وكانت سيرتي سيئة يا فاسين •

- سمعت عن هذا •

قلت :

- وما يحيرني أكثر من أي شيء آخر هو أنه يعلم أنك أنت أيضاً تتردد الى ذلك المنزل •

فقال فاسين ببساطة كبيرة :

- هو يعلم علماً تاماً أنني لاصلة لي بالأمر • وهؤلاء الشبان جميعاً انما هم ثرثارون لا أكثر • وانك لتذكر هذا أكثر من أي انسان آخر على كل حال •

بدا لي انه يضممر نوعاً من سوء الظن بي ، أو نوعاً من الحذر مني • قال :

- انني أشكرك أجزل الشكر على كل حال •

وحاولت أن أسأله مزيداً من الاسئلة فقلت :

- سمعت أن أمور السيد ستيلاكوف لا تجري مجرى حسناً ، سمعت

على الأقل كلاماً عن اسهم ...

- أية أسهم تعنى ؟

لقد تعمدت أن أذكر الأسهم ، ولكننى لم أفعل ذلك من أجل أن
أكتشف له عن سر الأمير . كل ما أردته هو أن ألمح الى الأسهم لأتبين
من النظر الى وجهه والى عينيه هل يعلم عن هذا الامر شيئاً . وقد وصلت
الى هدفى : استطعت أن أدرك ، من حركة سريعة خفيفة فى وجهه ، أنه
ربما كان على علم بشئ . ولم أجب عن سؤاله : « أية أسهم ؟ » ، بل
صمت . ومن الغريب أنه لم يلع .

سألنى باهتمام :

- كيف حال اليزابت ماكاروفنا ؟

- هى بخير . ان أختى تكن لك الاحترام دائماً ...

فسطعت عيناه سروراً ورضا : كنت قد أدركت منذ مدة طويلة أنه
يحمل لأختى عاطفة ما ...

وقال لى فجأة :

- زارنى فى هذه الأيام الأخيرة ، الأمير مرجى بتروفتش .

فهمت أسأله :

- متى ؟

- منذ أربعة أيام .

- لا أمس ؟

— لا ، لا أس .

وألقى على نظرة مستفهمة . واردف يقول :

— قد أحدثك فى المستقبل عن هذه الزيارة حديثاً فيه مزيد من التفصيل ، أما الآن فأعتقد أن من الضرورى أن أنبئك (قال فاسين ذلك بلهجة يلفمها السر) الى أننى لاحظت أن حالته النفسية ... بل حالته العقلية ... غير طبيعية . وقد زارنى شخص آخر أيضاً ..

قال ذلك وهو يتسم فجأة ، ثم تابع كلامه :

— زارنى شخص آخر منذ هنية قصيرة ، قبل وصولك بلحظة ، وقد اضطرت أن استخلص أن حالة الزائر الآخر ليست طبيعية تماماً هى أيضاً .

— هل جاءك الأمير منذ قليل ؟

— لا ، لا الأمير ، لا أتكلم الآن عن الأمير . لقد زارنى ، منذ برهة ، آندره بتروفتش فرسيلوف ، و ... ألا تعرف شيئاً ؟ ألم يحدث له شئ ؟

أسرعت أسأله :

— ربما حدث له شئ ، ولكن ماذا جرى هنا ، عندك ؟

— يجب على أن أكم السر طبعاً ... ما أعجب هذا الحديث بيننا !
ان مداره كله على أسرار ...

قال فاسين ذلك وابتسم مرة أخرى . ثم أردف :

— على أن آندره بتروفتش لم يطلب منى كتمان السر . ثم انك ابنه ؟ ولعلمى بما تحمل له من عواطف ، يخيّل الى اننى أحسن صنعاً

إذا أنا نبهتكم فى هذه المرة • تصور أنه ألقى على هذا السؤال : « إذا اتفق لى فى يوم قريب ، قريب جداً ، أن وجدتني مضطراً الى مبارزة ، فهل تقبل أن تكون شاهدي ؟ » • ولقد رفضت ذلك رفضاً قاطعاً بطبيعة الحال •

دهشت دهشة شديدة • ان هذا النبأ هو أشد الأنباء إقلاقاً • لقد حدث شئ • لا يد أن حادثاً ما زلت أجهله قد وقع ! وتذكرت فجأة أن فرسيلوف قال لى أمس : « لست أنا الذى سأجىء اليك ، بل أنت الذى ستهرع الى » • وطرت الى الأمير يقولان ايفانوفتش وأنا أوجس بمزيد من القسوة أن مفتاح السر هناك • وقد شكرنى فاسين مرةً أخرى حين فارقه •

كان الأمير المعجوز جالساً أمام مدفأته ، مدثراً ساقيه بغطاء • وقد استقبلني بنظرة فيها شيء من الاستفهام ، كأنه دهش من زيارتي ، مع أنه كان يرسل من يدعوني إليه كل يوم تقريباً • على أنه قد حيّاني بلطف ، لكنه أجاب عن أسئلتى الأولى بنوع من الاحتقار وقد لاح في وجهه ذهول رهيب • وكان في بعض اللحظات يبدو مفكراً ، ويحدّق إلى نظرة ثابتة ، كأنه كان قد نسي شيئاً يتعلق بي ثم اذا هو يتذكره الآن • فقلت له بصراحة اننى أعرف كل شيء ، وانى سعيد بما حدث • فسرعان ما بانت على شفتيه ابتسامة فيها مودة وسرعان ما انتعش وزال تحفظه واختفى حذره ، حتى لكأنه نسيهما ، بل لا شك فى أنه نسيهما • قال :

- صديقى العزيز ، كنت أعلم حق العلم أنك ستكون أول من يأتى ، حتى لقد سألت نفسى أمس : « من ذا الذى سيبتهج ؟ » ثم أجبت على هذا السؤال قائلاً : « هو الذى سيبتهج » • نعم ، لا أحد غيرك ، حتماً • ولكن لا ضير • ان ألسنة الناس ألسنة سوء ... ولكن لا قيمة لهذا ! ... • يا بنى العزيز » (بالفرنسية) ، ذلك كله سام كل السمو ، لذيذ كل اللذة • ولكنك تعرفها معرفة جيدة ، أنت • ثم ان آنا آندريفنا ترى فيك أحسن رأى • هى ذات وجه قاس آسر أخاذ ، وجه صورة انجليزية • انها أحلى الصور الانجليزية قاطبة • لقد كنت منذ سنتين أملك مجموعة من هذه الصور ... ان هذه النية كانت فى نفسى دائماً ، دائماً • وانما يدهشنى أنتى لم أفكر فى هذا الأمر أبداً •

- ولكنك أحببت أنا أندريتنا دائماً ، وقدوتها دائماً ، طوال المدة
التي أذكرها .

- يا صديقي ، انسا لا نريد أن نلحق ضرراً بأحد . ان الحياة مع
أصدقاء وأقرباء وأشخاص أحبة هي الجنة . نحن جميعاً شعراء ...
الخلاصة : هذا معروف منذ العصور السابقة على التاريخ . اسمع ، سوف
نقضي الصيف أولاً بمدينة سودن ، ثم بمدينة بادجاستاين ! أين ذهبت ؟
كنت أنتظرلك . ما أكثر الأحداث التي مرت منذ ذلك الوقت ، ما أكثرها ،
اليس كذلك ؟ وانما المبحزن أنني لست هادئاً : فمتى خلاوت الى نفسي
شعرت بأننى قلق . هذا هو السبب فى أنني يجب ألا أبقي وحيداً ،
أليس كذلك ؟ هذا واضح وضح النهار . آه يا صديقي ، انها لم تقل
الا كلمتين ... ولكن كان كلامها أروع قصيدة . ولكن ... أنت
أخوها تقريباً ، أليس كذلك ؟ يا عزيزى ، ليس غريباً أنني أحببتك
ذلك الحب كله ! كنت أتوقع كل هذا ، أحلف لك . ولقد قبّلت يدها ،
وبكيت .

واستل مندبله من جيبه ، كأنه يهم أن يبكى من جديد . كان متأثراً
جداً ، بل أظن أنه كان فى حالة من تلك الحالات « المحزنة » التي أتبع لى
أن أراها فيه مدة معرفتى به . انه فى العادة ، بل فى جميع الأوقات
تقريباً ، يكون أكثر نضارة وقوة مما هو الآن . وتمتم يقول :

- سوف أغفر لهم جميعاً يا صديقي . أحب أن أغفر للجميع
الناس ، وقد صرت منذ مدة طويلة لا أحقد على أحد . الفن ، الشعر
فى الحياة ، مساعدة البؤساء ، وهى ، ذلك هو جمال التوراة . ما أروعها
من انسان ، هه ؟ أناشيد سليمان . لا . ليس هو سليمان ، بل هو
داود الذى أصبح فتاة جميلة فى سريريه طلباً للدفع فى شيخوخته .
أوه . داود ، سليمان ، هذا كله يدور فى رأسى دوران اعصار

حقاً • • ان تلك الحسناء فى شيخوخه داود ، لهى قصيدة • ، أما بول
دوكوك فليس له ذوق ولا احساس بالتوازن ، رغم أنه صاحب موهبة • •
ان كاترين نيقولايفنا تبسم • ولقد قلت لها اننا لن نضايقها • اننا بدأنا
روايتنا ، فليسمح لنا بأن نتمها • سُمه حلمًا ان شئت ، ولكن فليتركوا
لنا حلمنا ولا ينتزعوه منا •

- كيف تقول انه حلم يا أمير ؟

- كيف أقول انه حلم ؟ فليعدوه حلمًا ، ولكن فليتركوا لنا أن
نموت مع هذا الحلم •

- آه • • • أمير • • • لماذا الموت ؟ ان الحياة هى الواجبة الآن !

- وماذا كنت أقول ؟ لست أقول غير هذا ! حقًا اتنى لا أدرى لماذا
الحياة قصيرة هذا القصر كله • اغلب الظن أن الغاية من قصرها هى
ألا تكون مملة ، ذلك أن الحياة هى أيضاً عمل فنى من أعمال الخالق
الأعظم صاغها صياغة نهائية كاملة كقصيدة من قصائد بوشكين • ان الایجاز
أول شروط الفن • ولكن الذين لا يشعرون بالملل يجب أن يتاح لهم أن
يعيشوا مدة أطول •

- قل لى يا أمير ، هل أذيع النبأ فى الناس ؟

- لا ، لا يا عزيزى ، لم يُذع تمامًا • انه محدود بحدود
الأسرة ، بحدود الأسرة وحدها حتى الآن • لم أبج بما فى نفسى بوحاً
كاملاً الا لكاترين نيقولايفنا ، لأننى أعد نفسى آثمًا فى حقها • ذلك أن
كاترين نيقولايفنا ملاك ، ملاك •

- نعم ، نعم •

- نعم ؟ أنت أيضاً تقول نعم ؟ كنت أظنك عدوًّا لها • آه • • •

بالمناسبه : لقد طلبت منى ألا أستقبلك بعد اليوم • تصبور أنتى نسيت ذلك منذ دخلت على •

انتفضت وسألته :

- ما هذا الذى تقوله ؟ لماذا طلبت منك ذلك ؟ ومتى ؟

(لم يكذبنى احساسى • ان شيئاً من هذا النوع هو ما أوجسته منذ زيارة تاتيانا بأفلوفنا !) •

- أمس يا صديقى ، أمس • لا أدرى كيف استطعت أن تدخل • ذلك لأن التدابير قد اتخذت لمنع من الدخول • كيف دخلت ؟

- ببساطة •

- هذا هو الأرجح • فلو أنك دخلت بالكر والحيلة لأوقفوك حتماً ، ولكنك دخلت ببساطة فتركوا لك أن تدخل • البساطة يا عزيزى ، البساطة هى أخطر المكر •

- لست أفهم شيئاً • هل قررت اذن ، أنت أيضاً ، ألا تستقبلنى بعد اليوم ؟

- لا يا صديقى • لقد أحببت بأن هذا ليس شأنى ••• أقصد أنتى وافقت موافقة تامة • ثق يا بنى العزيز أنتى أحببك حباً كبيراً • ولكن كاترين يقولاننا طلبت ذلك بكثير من اللاحاح • آه ••• هى ذى !

فى تلك اللحظة ظهرت كاترين يقولاننا على العتبة • كانت مرتدية ثياب الخروج ، وقد جاءت الى أبيها لتقبله على عادتها دائماً من قبل • فلما رأتنى توقفت واضطربت ، ثم استدارت وخرجت • فصاح الأمير مذهولاً منفعلًا أشد الانفعال :

- كذلك هى !

فهمت آقول :

- هو سوء تفاهم لا أكثر • دفيقة واحدة يا أمير ••• سوف •••

سوف أرجع فوراً يا أمير !

وركضت وراء كاترين نيقولايفنا •

ان كل ما حدث بعد ذلك قد حدث بسرعته بلغت من الشدة اننى لم أستطع التفكير ، بل لم أستطع أن أهىء سلوكى أقل تهيه • فلو اننى استطعت أهىء سلوكى لتصرفت تصرفاً آخر حتما • ولكننى كنت قد طاش صوابى كصبي صغير • هرعت الى حجراتها ، غير أن الخادم قال لى ان كاترين نيقولايفنا قد خرجت فى هذه اللحظة نفسها وأنها تركب عربتها • فاندفعت أهبط السلم الكبير منكس الرأس • فرأيت كاترين نيقولايفنا تنزل على السلم ، مرتدية معطفها ، ورأيت ضابطاً فارح القد حسن القامة بزة عسكرية من غير معطف يسير الى جانبها بل قل يقودها متقلداً سيفه الذى يتدلى على جنبه • وكان خادم يحمل له معطفه وراءه • هذا هو البارون • انه كولونيل فى الخامسة والثلاثين من عمره ، نموذج الضابط الأنيق الجاف ، له وجه بيضى كثيراً ، وله شاربان أحمران ، بل ان حاجبيه أحمران أيضاً • ليس وجهه جميلاً ألبتة ، ولكن هذا الوجه يعبر عن الجزم والتحدى • اننى أصفه الآن على عجل ، كما رأيته فى تلك اللحظة • لم أكن قد اقيته حتى ذلك الحين • وركضت وراءها بغير قبعة وبغير معطف • فأبصرتنى كاترين نيقولايفنا قبل صاحبها وهمست فى أذنه بشئ ••• فالتفت ، وسرعان ما أوماً للخادم والبواب السوسرى بإشارة من رأسه • فتقدم الخادم منى خطوة أمام الباب ، ولكننى دفعته يدي ووثبت الى درج الباب فى اثرهما • أجلس بيورنخ صاحبه فى العربة • وصحت أنا قائلاً بنباه (كما يفعل أبله ، كما يفعل أبله ! آه ! اننى أتذكر كل شئ • كنت بغير قبعة) :

– كاترين نيقولايفنا ! كاترين نيقولايفنا !

فالتفت بيورنيج مرة أخرى غاضباً ، وصاح يقول للخدام كلمه
او كلمتين لم اميزهما • واحسست اننى امسكت من الكوع • وانطلقت
العربة فى تلك اللحظة • فصرخت صرخة واندفعت اجرى وراء العربيه •
كانت كاترين نيقولايفنا تنظر من نافذة العربيه – رايت انا ذلك – وكانت
تبدو قلقة قلقاً شديداً • ولكننى بحركتى السريعه حين انطلقت أعدو وراء
العربة قد صدمت بيورنيج صدمة قوية دون أن أفكر فى هذا البتة ، وأظن
أننى دست على رجله أيضاً • فصرخ صرخة صغيرة ، وصرّ بأسنانه ،
وأمسك كتنى بيد قوية ودفعنى دفعة بلغت من شدة الغضب والخفق أننى
تقهقرت ثلاث خطوات • وفى تلك اللحظة 'مدّ اليه معطفه ، فارتداه ،
وركب عربته الزلاجة ، ومن هناك صرخ صرخة تهديد أخرى وهو يشير
للخدم وللواب الى • فأمسكوا بى ، وثبتونى فى مكانى ، وألقى الى
أحد الخدم معطى ، ومدّ الى خادم ثان قبعتى ؛ لست أتذكر الآن ماذا
قالوا لى : لقد كانوا يتكلمون ، وكنت أصغى اليهم دون أن أفهم شيئاً •
ولكننى تركتهم فى مكانهم فجأة ، ووليت هارباً •

ظللت أركض دون أن أميز شيئاً ، وأصدم المارة أثناء ركضى
 يمنة ويسرة ، حتى وصلت أخيراً الى بيت تاتيانا بافلوفنا ، ولم يخطر
 ببالى فى الطريق حتى أن أستقل عربة • لقد دفعنى بيورنيج بحضورها
 « هى ! صحيح أنتى دست على قدمه فدفعنى عنه بغريزته كما يفعل شخص
 ديس على قدمه فانتزع ثفن من أصبعه (يجوز فعلاً أن أكون قد سحقته
 له ثفن فى رجله !) • ولكنها رأت ، رأت الحدم يقبضون على • هذا كله
 حدث بحضورها ، أمامها !

حين داهمت تاتيانا بافلوفنا لم أستطع فى أول الأمر أن أنطق بكلمة •
 كانت فكى السفلى ترتعش من الحمى • لقد اجتاحتنى حمى فعلاً • وكنت
 عدا ذلك أبكى • • • فالى هذا الحد كنت أشعر بالهوان والمذلة !

— هه ! طردوك اذن ؟ أحسنو صنعاً ! أحسنوا صنعاً !

كذلك قالت تاتيانا بافلوفنا • وتهاويت على الديوان دون أن أقول
 شيئاً ، ونظرت إليها •

قلت وهى تحدد الى :

— ولكن ماذا أصابه ؟ خذ ، خذ هذه الكأس ، ابلع قليلاً من
 ماء ، اشرب ! وقل لى ما الحماقة الجديدة التى ارتكبتها •

تمتمت قائلاً أنتى طردت ، وان بيورنيج دفعنى فى الشارع •

- هل يمكنك حالتك الآن من أن تفهم شيئاً ؟ اقرأ اذن ، ولنشرح
فؤادك •

قالت تانيانا بأفولونا ذلك وتناولت من على المائدة ورقه ومدتها الى
وتسمرت أمامي • فسرعان ما تعرفت خط فرسيلوف • لم يكن ثمة
الا أسطر قليلة : انها رسالة الى كاترين نيقولايفنا • ارتشت • ولكن
القدرة على الفهم لم تلبث أن وافقت أقوى ما تكون • واليك نص تلك
الرسالة الفظيعة ، الفاضحة ، المستحيلة ، الاجرامية ، اليكم نصها
كلمة كلمة :

الى السيدة كاترين نيقولايفنا

« رغم علمي بما أنت عليه من فساد الخلق سواء اكان هذا الفساد طبيعة
فيك ام كان قسما تحذيقته ، فلقد كنت التصور أنك تستنطقين ان
تسيطرى على أهوائك ، وألك في اقل تقدير ان تلحقى اذى باطفال •
ولكنك لم تتورعى حتى من هذا • اننى ابلغك ان الوليقة التى تعرفين
لم تحرق على لهب شمعة حتما ، ولم تكن عند كمرات في يوم من الأيام ،
فان تجنى لها مما تلعبين • فلا تفسدى اخلاق شاب في غير طائل •
كفى اذالك عنه . فانه لا يزال قاصرا ! بل انه ليكاد ان يكون طفلا لا يبلغ
بعد كمال نموه العقل والجسم • فبم يفيدك ؟ اننى اهتم بامره ،
ولذلك جازلت فكتبت اليك هذه الكلمات ، رغم اننى لا ارجو لها اى
نجاح • ويشرفنى ان ابلغك انى ابث بنسخة من هذه الرسالة الى
البارون بيورنيج • »

اصفر وجهي أثناء القراءة ، ثم انفجرت فجأة واختلجت شفتاي
استياء وسخطاً • وصحت أقول غاضباً :

- اياى يقصد ؟ هذا بمناسبة ما بحث له به أمس الأول !

- ذلك لأنك بحث له به !

واتزعزت تانيانا الرسالة من يدي •

- ولكن ... ليس هذا ما كنت أقوله له ! آه ... ربه ! ما عسى

يكون ظنها بى الآن ؟ ولكن هل هو مجنون ؟ انه مجنون • لقد رأيته
أمس • متى بعث الرسالة ؟

— أمس نهاراً • وقد وصلت فى المساء ، فأعطيتها اليوم بنفسها •

— ولكننى رأيته أمس • انه مجنون ! لا يمكن أن يكتب فرسيلوف
هذا • هذا عمل رجل مجنون ! من ذا الذى يكتب كلاماً كهذا الكلام الى
امرأة ؟

— يكتبه مجانين من نوعه حين تجعلهم الغيرة ويجعلهم الغضب
صماً عمياً ويتحول الدم فى عروقهم الى زاج • انك لم تكن تعرفه بعد !
ولكنه سيدفع الثمن غالياً • لسوف يسحق سحقاً • انه يضع نفسه بنفسه
تحت الساطور • ألا ان من الأفضل له أن يذهب ذات ليلة الى خط نيقولا ،
فيضع رأسه فوق السكة الحديدية فتقطعه له عجلات القطار قطعاً مناسباً ،
مادام يستقل حملة ! وما الذى حملك على التحدث اليه ؟ ما كانت حاجتك
الى مذاكرته ؟ أردت أن تزهر بنفسك ؟

— يا له من كره ! ما أشد هذا بغض ! كذلك هتفت وأنا ألطم
رأسى بيدى • وتابعت أتمساء :

— ولماذا ؟ لماذا ؟ يسى • هذه الاساءة الى امرأة ؟ ماذا صنعت ؟ أى ذنب
جنت ؟ ما العلاقات التى كانت بينهما حتى يكتب لها رسائل كهذه ؟
— كره ! بغض !

هكذا كررت تاتيانا بافلوفنا وهى تقلد لهجتى وحركاتى بسخرية
حائقة •

وازدحم الدم فى وجهى من جديد : بدا لى فجأة اننى أفهم شيئاً
جديداً كل الجدة • نظرت الى تاتيانا بافلوفنا نظرة مستفهمة ، أودعتها

كل ما أملك من قوة • فزعت تاتيانا بأفلوفا وهي تدير لى ظهرها وتهددنى
بيدها ، قائلة :

– اذهب من هنا ! كفاينى ما لقيت منكم جميعاً ! حسبى ! فى وسعكم
أن تقييوا كلكم ... الوحيدة التى ما أزال أشفق عليها هى أمك •
ركضت الى فرميلوف طبعاً • ولكن ما أقبحه من عذر ! ما أقبحه
من عذر !

لم يكن فرسيلوف وحيداً • يجب أن أذكر سلفاً انه بعد أن أرسل تلك الرسالة الى كاترين نيقولايفنا أمس ، وأرسل نسخة منها (لا يعلم الا الله لماذا !) الى البارون بيورنيج ، كان ينتظر أنساء النهار « عواقب » الخطوة التى قام بها ، فلذلك اتخذ بعض التدابير : فقتل ماما وليزا منذ الصباح الى فوق ، الى « التسابوت » (وقد علمت فيما بعد أن ماما كانت قد مرضت فى الصباح عند عودتها فرقدت فى سريرها) ، كما عنى بنظافة الغرف وترتيبها عناية كبيرة ، ولاسيما « الصالون » ، وما وافت الساعة الثانية بعد الظهر فعلاً ، حتى جاء الى الدار بارون اسمه « ر • • » ، وهو عسكري برتبة كولونيل ، فى نحو الأربعين من عمره ، ألمائى الأصل ، طويل القامة ، جاف الهيئة ، قوى الجسم جداً فيما يبدو ، أحمر البشرة هو أيضاً ، مثل بيورنيج ، لكنه أصلح قليلاً • انه واحد من البارونات « ر • • • » الكثير عددهم فى الجيش الروسى ، وهم جميعاً أناس شديداً التأذى فى كل ما يمس الشرف ، ليس لهم ثراء ، وانما هم يعيشون من رواتبهم ضباطاً كباراً ومقاتلين كباراً • لم أشهد بداية الحديث الذى جرى بينهما • كانا كلاهما فى أوج النشاط والاندفاع • وكيف لا يكونان كذلك ؟ كان فرسيلوف جالساً على الديوان أمام الطاولة ، وكان البارون جالساً فى مقعد الى جانب • وكان فرسيلوف شاحب اللون ، ولكنه يتكلم برصانة ، ويزن أقواله ، وكان البارون يرفع صوته ، ويهم أن يحرك يديه بإشارات عنيفة ، ولكنه يكبح جماحه • وكانت نظرتة قاسية

فيها تمال بل فيها احتقار ، ولكنها مع ذلك لا تخلو من دهشة • فحين
رأني قطب حاجيه ، ولكن فرسيلوف كاد يقتبط لرؤيتي • وقال يحييني :
- يومك سعيد يا عزيزي •

وأضاف يخاطب البارون :

- يا بارون ، هذا هو الشاب الذي عنيت في رسالتي • صدق أنه
لن يضايقنا وجوده ، حتى لقد يفيدنا •
رمضى البارون بنظرة شزراء فيها احتقار • وأردف فرسيلوف
قائلاً :
- يا عزيزي ، يسعدني أنك جئت • تلّبت في ركن ، أرجوك ،
إلى أن تنتهي •

ثم قال للبارون :

- اطمئن يا بارون ، سيبقى في ركن ...
لم يهمني ذلك • كنت قد عزمت أمري • وكان كل شيء عدا هذا
يدهشني ويذهلني • وجلست في ركن لا أنطق بكلمة ، ولبت هنالك
لا تطرف لي عين ، ولا أتحرك ، إلى آخر الحديث •
قال فرسيلوف مقطماً جميع الكلمات تقطعاً قوياً :
- أكرر لك مرة أخرى يا بارون أنني أعد كاترين نقولايضا
آخماكوفا ، التي كتبت إليها تلك الرسالة البديئة الحسيسة ، أنبل المخلوقات
طراً ، بل أعدها ذروة الفضائل الكاملة !

فزأر البارون يقول :

- إن هذا الدحض لأقوالك ، كما قلت لك من قبل ، أشبه
بتأكيد لها • فتمايرك تخلو من الاحترام خلواً واضحاً •

- ان الأفضل مع ذلك أن تفهم أقوالى بالمعنى الذى يدل عليه نصها
حرفاً حرفاً • اننى أصاب أحياناً بنوبات تستبد بى وتسيطر علىّ ، حتى
اننى مضطر الى معالجة نفسى ومداواة مرضى ، وقد اتفق لى فى أثناء نوبة
من تلك النوبات أن •••

- هذه الايضاحات والاعذار لا يمكن قبولها • أكرر لك مرة أخرى
أنك لا تزال تصر على ضلالك اصراراً عنيداً ولعلك تتعد أن تتخذ
نفسك • لقد نبهتك منذ البداية الى أن المسألة المتعلقة بتلك السيدة ، أعنى
رسالتك الى الجئالة آخماكوف ، يجب اقضاؤها من الحديث الذى نحن
بصدده ، ولكنك لا تزال تمود الى تلك المسألة • لقد رجائى البارون
بيورنيج وكلفنى أن أوضح ما يتعلق به هو وحده ، أعنى ما اجترحت من
وقاحة اذ بعثت اليه تلك « النسخة » من الرسالة ، ثم الحاشية التى أضفتها
قائلاً انك « على استعداد لتحمل المسؤولية أمام أى انسان ، وبأية
طريقة » •

- ولكن يبدو لى أن هذه النقطة الأخيرة جلية لاحتجاج الى مزيد
من الايضاح •

- أفهم ، أعلم • انك تهرب حتى من الاعتذار ، وتظل تؤكد
أنك « مستعد لتحمل المسؤولية أمام أى انسان وبأية طريقة » • ولكن
سيكون معنى ذلك أن تتخلص من الأمر بأبخس ثمن • لذلك أجد أن من
حقى ، بسبب ما أراه من اصرارك على توجيه الايضاح هذه الوجهة ،
أن أفصح لك عن رأيى بغير تحرج : لقد وصلت من تفكيرى فى الأمر الى
النتيجة التالية : ان البارون بيورنيج لن يقبل بحال من الأحوال أن يكون
له ملك قضية ••• فكأنكما ندان •

- أرى أن هذا الحل أنفع الحلول لصديقك البارون بيورنيج • وانى
لأعترف لك بأنك لا تدهشنى البتة : فلقد كنت أتوقع هذا الأمر •

يجب أن أذكر هنا مستطرداً أنني لاحظت منذ الكلمات الأولى ومنذ
النظرة الأولى أن فرسيلوف كان يسمى الى احداث انفجار ، فكان يستفز
ويتحدى ويناكذ هذا البارون الذى من طبه الاهتياج ، ولعله كان
يمتحن صبره امتحاناً قاسياً . فكان البارون كالجالس على الشوك نفاذ صبر .
- كنت أعلم أنك تستطيع أن تكون حاضر البديهة فى الفكاهة ،
ولكن هذا ليس هو الذكاء .

- هذه ملاحظة عميقة الى أبعد حدود العمق يا كولونيل .

صرخ البارون يقول :

- لست فى حاجة الى مدحك ، ولا جئت هنا لانتكلم فى الهواء
سدى . اسمعنى من فضلك : ان البارون بيورنيج ، حين تلقى رسالتك ،
احتار حيرة سديده ، اذ كانت تفوح منها رائحة مستشفى مجانيين .
ولقد كان فى الامكان طبعاً أن تلمس الوسائل .. لتهدئت فوراً . ولكن
أسباباً خاصة حملتهم على مراعاتك ، وقد سألوا عنك ، فاتضح أنك كنت
تنمى الى المجتمع الراقى ، وأنت فى الماضى قد عملت فى « الحرس » ،
غير أنك أقصيت من ذلك المجتمع ، واتضح أن سمعتك الآن مشبوهة بل
أكثر من مشبوهة . ورغم ذلك اتقلت اليك لأستطلع الأمر بنفسى ،
وهأت ذا تستريح فوق ذلك أن تتلاعب بالألفاظ حتى الآن ، ثم تشهد على
نفسك بأنك تصاب بنوبات ... كفى ! ان مركز البارون وسمعته لا يمكن
أن يتورطا فى هذا الأمر . والخلاصة أبها السيد اننى مكلف بأن أعلن
لك أنك اذا كررت هذا الفعل أو قمت بعمل آخر من هذا النوع ، فسوف
تلمس لتهدئتك وسائلها على الفور ، وهى وسائل أوكد لك أنها مضمونة
جداً وسريعة جداً . انسا لانعيش فى الغابات ، بل فى دولة لها شرطة !

- هل أنت واثق كل الثقة يا عزيزى الطبيب البارون ؟ ر . . . ؟

- أف ...

كذلك صرخ البارون ثم نهض فجأة وقال :
- انك تغريبنى بأن أبرهن لك حبالاً على اننى لست « عزيزك
البارون الطيب » .

نهض فرسيلوف هو أيضاً وقال :
- أنبّئك مرةً أخرى الى أن زوجتى وابنتى ليستا بعيدتين ، لذلك
أرجوك ألا ترفع صوتك كثيراً ، لأن صرخاتك تصل اليهما .
- امرأتك .. هاه ! لئن بقيت أتحدث اليك هذه المدة كلها ، فمن
أجل أن أستوضح هذه القضية القذرة ...

كذلك تابع البارون كلامه وهو لا يزال غاضباً حائقا ، ولم يخفض
صوته أى خفض . ثم صرخ يقول ساخطاً :
- كفى ! انك لست مطروداً من مجتمع الشرفاء فحسب ، بل أنت
كذلك رجل مهووس ، مهووس حقاً ، رجل مختل العقل ؛ وهذا بعينه
ما وصفوك به ! انك لا تستحق التسامح ، وانى لأعلن لك أن تدابير معنية
سوف تتخذ فى هذا اليوم نفسه ، وانك ستستدعى الى مكانٍ ترد فيه
الى الصواب ... وستخرج من المدينة !

قال ذلك وغادر الغرفة سريعاً بخطى واسعة . ولم يشيعه فرسيلوف ،
بل ظل واقفاً ينظر الى فى ذهول كأنه لا يلاحظنى . وابتسم فجأة ، وهز
شعره ، وتناول قبعته ، واثبجه نحو الباب هو أيضاً . فأمسكت يده .
فتوقف أمامى وقال :

- ها .. حقاً .. أنت هنا ! هل .. أصغيت ؟
- كيف أبحت لنفسك أن تصرف هذا التصرف ؟ كيف أمكنك
أن تشوه وأن تلتطخ بالعار ... وأن تنذر هذا القدر كله ؟

حَدَّقَ الىَ بِنظرة ثابتة ، ولكن ابتسامته كانت تتسع شيئاً بعد شيء ،
حتى صارت الى ضحك حقا .

صحت أقول خارجاً عن طوري :

- لكنني أنا الذي لطَّخت بالعار .. أمامها ! أمامها ! هزئت على
مرأى منها . لقد دفعني دفعاً مهيناً .

قال :

- هل هذا ممكن ؟ آه يا بني المسكين ، لكم أشفق عليك ! هزموك ؟

- أتضحك ، أتضحك مني ؟ أترى هذا داعياً الى الضحك ؟

استل يده من يدي مسرعاً ، وتناول قبعته ، وخرج من البيت
ضاحكاً ، ضاحكاً الآن ضحكاً حقا !

ألحق به ؟ علام ؟ لقد فهمت كل شيء وفقدت كل شيء في دقيقة !
وأبصرت ماما فجأة . كانت قد نزلت ، وهي تلقى على الآن نظرة وجلة .
- هل خرج ؟

قبَّلَتها في صمت ، وقبلتني بقوة ، بقوة ، ملتصقة بي التصاقاً .

- ماما العزيزة ، كيف يمكنك أن تبقى هنا ؟ لنرحل فوراً ،
سوف أؤويك ، سوف أعمل من أجلك كما يعمل محكوم بالأشغال
الشاقة ، من أجلك ومن أجل ليزا . لنتركهم جميعهم ، جميعهم ،
ولنرحل . سنكون وحدنا . ماما ، هل تتذكرين يوم جئت تزوريني عند
توشار ورفضت أن أتعرفك ؟

- أتذكر يا بني . طوال حياتي كنت آئمة في حقك . ولدتك ثم
لم أعرفك .

- هو الآثم يا ماما • هو سبب كل شيء • لم يحيننا فى يوم من الأيام •

- بلى • أحبنا •

- لنرحل يا ماما •

- كيف أتركه ؟ هل هو سعيد ؟

- أين ليزا ؟

- فى السرير • ما ان عادت حتى مرضت • أنا خائفة • ما بالهم حائرين عليه هذا الحق كله ؟ ماذا يريدون به ؟ لماذا كان هذا الضابط يهدده ؟

- لن يقع له سوء يا ماما • لن يقع له سوء أبداً • لن يقع له سوء أبداً • ولا يمكن أن يقع له سوء • هكذا خلق ! ولكن ما هى ذى تاتيانا بافلوفنا • أسألها ان كنت لا تصدقيننى •

كانت تاتيانا بافلوفنا قد دخلت علينا • وتابعت أقول :

- الى اللقاء يا ماما ، سأعود حالاً ، وسأطلب منك هذا الطلب مرة أخرى •••

ووليت هارباً • كنت لا أطيق أن أرى أحداً ، ناهيك عن تاتيانا بافلوفنا • كان أمر ماما يعذبني عذاباً شديداً • كنت أريد أن أخلو الى نفسى ، وحيداً ، وحيداً •

ولكن ما ان وصلت الى الشارع التالى حتى أحسبت أننى عاجز عن السير . وكنت أصطدم اصطداماً غريباً بأولئك الناس ، الغرباء ، غير المكتثرين . الى أين أذهب ؟ مَنْ هو فى حاجة الىّ ، وما الذى احتاجه أنا الآن ؟ وسرت سيراً آلياً حتى وصلت الى بيت الأمير سرجى بتروفتش دون أن يخطر على بالى البتة . لم يكن الأمير بالبيت . فقلت لبطرس (خادمة) اننى سأنتظر فى مكتبه (كما سبق أن فعلت ذلك مراراً) . انها غرفة واسعة ، عالية السقف جداً ، ملأى بأثاث كثير . مضيت الى أعم ركن ، وجلست على ديوان ، ووضعت كوعى على المائدة ، وأسندت رأسى الى يديّ . نعم ، كان هذا هو السؤال : « ما الذى أنا فى حاجة اليه الآن ؟ » . ولئن كنت أستطيع أن أصوغ السؤال ، فلقد كنت عاجزاً عن الاجابة عنه كل العجز .

ولكننى كنت لا أقدر أن أفكر ولا أن أسأل . سبق أن ذكرت من قبل أننى فى نهاية تلك المرحلة كانت « الأحداث قد سمحقتى » . والآن ، فيما أنا جالس ، كان شئ كالسديم يدور فى رأسى اعصاراً . « نعم ، اننى لم أر من هذا الرجل شيئاً ، ولم أفهم عنه شيئاً » . تلك هى الفكرة التى كانت تبرى فى خاطرى فى بعض اللحظات . « لقد ضحك منى فى وجهى منذ قليل ؟ ولكن لا ، انه لم يضحك منى أنا ، بل كان لا يزال يضحك من بيورنسيج ، لا منى أنا . أمس الأول ، أثناء العشاء ، كان يعرف كل شئ . وكان قائم النفس . لقد استولى على اعترافى الغيبي فى

المطعم ، فشئوه كل شيء ، على حطام الحقيقة • ما حاجته الى الحقيقة ؟
انه لا يصدق نصف كلمة مما كتبه اليها • كانت حاجته كلها هي أن
يجرح ، أن يجرح لغير سبب ، بل دون ان يعرف لماذا ، متشبهاً بأية
حجة ، وقد قدمت انا اليه تلك الحجة • • هذه فعلة كلب مسعور ! • • •
هل ينوى الآن أن يقتل بيورنج ؟ لماذا ؟ لأى سبب ؟ ان قلبه يعرف السبب !
أما أنا فأتنى أجهل ما فى قلبه • • • نعم ، مازلت أجهل هذا حتى الآن •
هل يحبها هذا الحب المشبوب كله ؟ لا أدري • وهل يدري هو نفسه ؟
لماذا قلت لأمى « انه لا يمكن أن يقع له سوء » ؟ وماذا عنيت بهذا الكلام ؟
أترانى فقدته أم لم أفقده ؟ • • • •

• • • « لقد رأيت كيف 'دفعت' • • وضحكت أيضاً • • أم أنها لم
تضحك ؟ لو كنت أنا فى مكانها لضحكت ! الجاسوس هو من 'ضرب' ،
الجاسوس ! • • • •

« وما الذى عناه (واتتنى هذه الفكرة فجأة) ، ما الذى عناه حين
دسّ فى رسالته الدنيئة تلك أن الوثيقة لم 'تحرق' ، وأنها لا تزال
موجودة ؟ • • • •

« لن يقتل بيورنج • هو الآن فى المطعم قطعاً ، يصنى الى أغنية
لوسيا ! ولكن لعله بعد لوسيا سيمضى يقتل بيورنج • لقد دفعنى بيورنج ،
بل ضربنى تقريباً • هل ضربنى ؟ ان بيورنج يأبى حتى أن يسأل
فرسيلوف : فهل ينازلنى أنا ؟ ، ، « قد يكون على أن أقتله فى الغد
برصاصة مسدس ، وأن أترى به فى الشارع • • • • نشأت هذه الفكرة
فى ذهنى من تلقاء نفسها تماماً ، ولم أثبت عليها البتة •

وفى بعض اللحظات كنت أحلم بأن الباب سيُفتح فندخل كاترين
نقولاً يفنا : تدخل فتدلى يدها وتنفجر ضاحكين كلانا • • آه • • عزيزى ،

الطالب ! ان هذه الفكرة بل فل هذه الرغبة انما عرضت لى حين ساد الظلام
الغرفة تماماً . ولكن هل وقفت أمامها مدة طويلة أودّعها بينا هي تمد
الى يدها وتضسحك ؟ كيف يمكن هذا : فى برهة وجيزة من الزمن ،
على مثل هذه المسافة الرهيبة ! ألا فلأذهب اليها ببساطة فأناقشها حالاً ،
ببساطة ، ببساطة ! رباہ ! هذا عالم جديد كل الجدة يبدأ ، جديد كل
الجدة ، كل الجدة . . ليزا ، الأمير ، لا يزال هذا هو العالم القديم . .
أنا الآن عند الأمير . وماما ، كيف أمكنها أن تعيش معه اذا صدق الأمر ؟
أنا كان فى امكانى ، أنا فى امكانى ، ولكن هي ؟ ما الذى سيحدث
الآن ؟ . . وأخذت أطياف ليزا ، وأنا أندريفا ، وستيلكوف ، والأمير ،
وأفردوف ، والجميع ، تتلاحق كاعصار دون أن تترك أثراً فى ذهني
المريض . وأصبحت الصور تزداد ابهاماً وتستعصى على الادراك مزيداً من
الاستعصاء . فأسعدني أن أفهم واحدة منها وأن أمسك بها .

قلت لنفسى فجأة : « ان لى » فكرتى ، ولكن هل هذا صحيح
حقاً ؟ أليست هذه جملة حفظتها على ظهر القلب ؟ ان فكرتى هي العتمة
والعزلة ، ولكن هل أستطيع الآن أن أعتصم بمتمة الماضى تلك ؟ آه ! يارب !
ولكن السبب هو أنني لم أحرق « الوثيقة » ! لقد نسيت أن أحرقها
أمس الأول . سأرجع الى بيتى فأحرقها على لهب الشمعة ، نعم ، على
لهب الشمعة . ولكننى لا أدري هل حسن ما أفكر فيه الآن . . .

ساد الظلام منذ مدة طويلة وجاء بطرس بالشموع . وقف أمامي
وسألنى هل أكلت ؟ فلم أزد على أن أشرت له بيدي . ومع ذلك جاءني
بعد ساعة بشاى ، فشربت كأساً كبيرة بشراة . ثم سألته كم الساعة ؟
كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف . لم يدهشنى حتى أن أكون قد
قضيت هنا خمس ساعات . قال بطرس :

— جئت ثلاث مرات ، ولكننى أعتقد أنك كنت نائماً .

لم أتذكر أنه دخل على • ولكننى لا أدرى لماذا رثو عني فجأة أن
أكون قد • نمت • ، فاذا أنا أنهض وأخذ أمشى فى الغرفة طويلاً وعرضاً
حتى لا أنام • وأخيراً أحسست بصداع فى رأسى • حتى اذا كانت الساعة
العاشرة تماماً دخل الأمير • فأدهشنى أننى انتظرتة • كنت قد تمسيتها
كل النسيان • كل النسيان •

قال لى :

- أنت هنا • وأنا ذهبت أبحث عنك فى بيتك !

كانت هيئته مكفهرة قاسية خالية من أسير ابتسام • وكانت عيناه
تعبران عن فكرة ثابتة ثابوية فى قرارة ذهنه •

تابع يقول :

- كافحت طول النهار واستعملت جميع الوسائل • ولكن كل شئ •
أخفق فأصبح وضعى الآن رهيباً • (ملاحظة : لم يذهب الى الأمير
تقولوا ايفانوفتش) • رأيت جييلسكى • انه انسان فظيع • اسمع : لا بد
أولاً من الحصول على المال • ثم نرى ما يكون من الأمر • واذا لم نظفر
بالمال • فمئذ • • لكننى قررت ألا أفكر اليوم فى هذا • اليوم يجب
أن نحصل على المال • وفى غد نرى ان المبلغ الذى ربحته أنت أمس
الأول لا يزال كاملاً • هو ثلاثة آلاف روبل ينقصها ثلاث روبلات •
فاذا طرحنا دينك يبقى على • أن أرد اليك ثلاثمائة • فخذها وأضف
اليها سبعمائة لتصبح ألفاً • وأخذ أنا الألفين • ثم نمضى معاً الى
مشرشيكوف • فنجلس على طرفين متقابلين ونحاول أن نربح عشرة
آلاف • ففى أن نصل الى شئ • • والا • • هذا هو المخرج الوحيد
الذى بقى لى •

وألقى على نظرة يائسة •

هتفت أقول فجأة كأتى بعثت بشأ جديداً :

– نعم نعم ! هيا بنا ! لم أكن أنتظر الا أن تجيء ..

لاحظوا أن الروليت لم تخطر ببالى لحظة واحدة طوال تلك
الساعات كلها .

وقال الأمير يسأل على حين فجأة :

– والدناءة ؟ وحقارة الفعل ؟

فهتفت أقول :

– ماذا ؟ ذهابنا الى الروليت ؟ ولكن هذا هو المخرج . ان المال هو
كل شيء . نحن القديسان أنا وأنت ، على حين أن بيورنج باع نفسه ،
وأن أنا آندريفنا باعت نفسها ، وأن فرسيلوف .. هل تعرف أن فرسيلوف
مختل ؟ مختل ، مختل ! ...

– ألسنت مريضاً يا آرКАДى ماكاروفتش ؟ ان عينك غريبتسان .

– هل تقول هذا لتذهب الى الروليت دون أن تصطحبنى ؟ لن أتركك
بعد الآن . ليس عبثاً أتى حلمت بالقمار طول الليل . هيا بنا الى الروليت !
هياً بنا !

كذلك صحت كأتى اكتشفت حل اللنز فجأة .

– طيب ، هياً بنا ، رغم أن بك حمى ، وهناك ...

لم يكمل الأمير جملته . كان فى وجهه شيء أليم مرعب وخرجنا .

قال لى فجأة وهو يقف على العتبة :

– هل تعلم أنه لايزال هناك مخرج آخر غير القمار ؟

– ما هو ؟

- مخرج جدير بامراء •

- ما هو ؟ ما هو ؟

ستعرفه فى المستقبل • ولكن أعلم أننى الآن لا أستحقه ، لقد
فان الأوان • هلمّ ، وتذكر أقوالى هذه • لنجرب المخرج الجدير بعامة
الناس • هل يمكن أن أجهل أننى أتصرف تصرف خادم ، بوعى واضح
وارادة كاملة ؟

طرت الى الروليت طيراناً كأن السلامة كلها قد تجمعت هناك ، وكأن الروليت هي الحل الوحيد . ومع ذلك لم تكن الروليت قد خطرت بآلى قبل وصول الأمير ، كما سبق أن ذكرت . على أننى لم أذهب مقامراً لنفسى ، وانما ذهبت مقامراً بمال الأمير ومن أجل الأمير . اننى لا أستطيع أن أفهم ماذا كان يجذبنى ، ولكننى كنت منجذباً انجذاباً لاسيلى الى مغالبتة . لا ، لا ، ان هؤلاء الناس ، وهذه الوجوه ، وأولئك القوامين على مائدة الروليت ، وتلك الصرخات التى يطلقها المقامرون ، وتلك الصالة الحظيرة كلها ، صالة تسرشتشيكوف ، ذلك كله لم يد لي فى يوم من الأيام على هذا القدر كله من البشاعة والجهامة والفظاظة والحزن كما بدا لي فى هذه المرة ! اننى أتذكر بوضوح ما بعده وضوح شعور الحداد والحزن الذى كان يعض قلبى أثناء تلك الساعات الماضية كلها أمام مائدة القمار . ولكن لماذا لم أبارحها ؟ لماذا بقيت وتحملت كمن يذعن لقدر أو كمن يقدم نفسه قرباناً أو كمن يقوم بسخرة ؟ يمكننى أن أقول شيئاً على كل حال : هو أننى لا أستطيع أن أقطع حقاً بأننى كنت أملك عقلى كاملاً حينذاك . ومع هذا لم أقامر فى حياتى بتعقل كما قامرت فى ذلك المساء . كنت صامتاً متركز التفكير شديد الانتباه بارعاً فى الحساب الى حد رهيب ، وكنت صبوراً وبخيلاً ، وكنت فى الوقت نفسه حازماً فى اللحظات الحاسمة . جلست من جديد أمام الصفر ، أى مرة أخرى بين تسرشتشيكوف و أفردوف الذى يجلس دائماً على يمين تسرشتشيكوف .

لقد كنت أشمئز من هذا المكان ، ولكننى أردت أن احط على الصفر
حتماً ، وكانت جميع الأماكن الأخرى حول الصفر محتلة . قامرنا قرابة
ساعة . وأخيراً رأيت الأمير من بعيد ينهض ويتجه شاحب الوجه الى الطرف
الذى كنا فيه ، ويقف أمامى فى الجهة الأخرى من المائدة : كان قد خسر
كل ما معه ، فهو ينظر الى لعبى صامتاً ، ربما دون أن يفهم منه شيئاً
بل دون أن يفكر فى اللعب . وكنت قد أخذت أربح ، وكان
تسرشتشيكوف قد نقدنى مبلغاً . فاذا أنا أرى آفردوف يتناول ورقة من
أوراقى بمائة روبل ، فيضمها الى الكدسة التى كانت أمامه . فعل هذا
فجأة ، دون أن يقول كلمة ، على مرأى منى ، بأكبر وقاحة . فصرخت
وأمسكت يده . حدث لى عندئذ شئ لم أتوقعه أنا نفسى : ان جميع الأحوال
والاهانات التى قاسيت منها فى النهار قد تجمعت فجأة فى هذه اللحظة
الوحيدة ، فى سرقة هذه الورقة . لكأن كل ما تراكم وانضغط فى نفسى
كان لا ينتظر الا هذه اللحظة لينفجر . فهأنذا أصرخ خارجاً عن طورى
ناظراً فيما حولى :

— هذا لص . لقد سرق منى ورقة بمائة روبل .

لا أريد أن أصف كل ما أثارته هذه الكلمات من جلبة ولفظ . ان
حادثة كهذه هى فى هذا المكان شئ جديد كل الجدة . ان الناس فى صالة
تسرشتشيكوف يتصرفون تصرفاً لائقاً ، وقد اشتهرت داره بهذه السمعة .
ولكننى كنت قد فقدت صوابى . وهذا صوت تسرشتشيكوف يجلجل وسط
الضجة والصياح قائلاً على حين فجأة :

— اختفت فعلاً ، ليس فى ذلك شك . كانت هنا . أربعمائة

روبل !

هذه قضية أخرى : ان كدسة تضم أربعمائة روبل قد اختفت من
« البنك » تحت أنف تسرشتشيكوف . وأخذ تسرشتشيكوف يبتئن المكان

الذى كانت فيه الكدسة فانلاً : « كانت هنا منذ لحظة » ، وكان هذا المكان قريباً منى كل القرب ، بل كان يلاصقنى ، كان يلاصق الموضع الذى فيه مالى ، كان أقرب الىّ منه الى آفردوف كثيراً .

وهتفت أقول مشيراً الى آفردوف :

- اللص هنا ! هو الذى سرق أيضاً ! نبشّوه !

وارتفع بين الصيحات صوت مهيب راعد يقول :

- مرجع هذا كله الى أنه 'يسمح لأى شخص بالدخول الى هنا .
أناس لم يوص بهم أحد . من أتى به ؟ من هو هذا ؟

- رجل يقال له دولجوروكى .

- الأمير دولجوروكى .

وصرخ أحدهم يقول :

- الأمير سوكولسكى هو الذى أتى به .

صرخت أقول للأمير عبر المائدة وقد طاش صوابى :

- اسمع يا أمير : يظنون أنني أنا السارق مع أنني 'سرفت فى هذه اللحظة نفسها ! فقل لهم ، قل لهم من أنا !

عندئذ حدث شىء هو أفظع من كل ما سبق حدوثه فى ذلك اليوم كله . . . بل فى حياتى كلها : أنكرنى الأمير . رأيتـه يرفع منكبيه ، ويعجب عن الأسئلة التى كانت تنهمر عليه قائلاً بصوت واضح قاطع :

- أنا لست مسئولاً عن أحد . أرجوكم أن تدعونى وشأنى .

وفى أثناء ذلك انتصب آفردوف بين الحشد طالباً بصوت عالٍ أن ينبشّوه ، وأخذ يقلب جيوبه ، ولكن الأصوات ارتفعت تجيب عن مطالبته

صائحة : « لا ، لا ، السارق نحن نصرفه » • وكان قد نودي خادمان ،
فاذا هما يمسكان ذراعى من خلف •

فصرخت أقول وأنا أحاول أن أخلص يديّ :

- لن أسمع لأحد بأن ينهشنى ، لن أسمع لأحد بذلك •

ولكننى جررت جرأ الى غرفة مجاورة ، وهناك نبشت ثيابى كلها
دون أن تغفل منها ثنية واحدة ، فكنت أصرخ وأتخبط محتججا • قال
أحدهم :

- لا بد أنه رمى ما سرقه الى الأرض •

فأجاب آخر :

- ولكن أين نبحت عنها الآن فى الأرض ؟

- تحت المائدة • لاشك أنه رماها تحت المائدة •

- لم يبق لها أثر حتماً ••

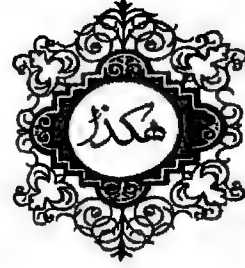
واقنادونى ، لكننى استطعت أثناء ذلك أن أتوقف على القبة وأن
أصرخ فى حق مجنون :

- الروليت تحظرها الشرطة • سأثى بكم جميعاً فى هذا
اليوم نفسه •

- أنزلونى على السلم ، وألبسونى معطفى و ••• فتحوالى باب
الشارع •

الفصل التاسع

١



انتهى النار بكارثة • وبقي الليل • فاليكم ما أذكره
عن تلك الليلة :

أظن أن الساعة كانت قد تجاوزت منتصف الليل قليلاً حين وجدت نفسي في الشوارع • كانت الليلة صافية هادئة باردة • وكنت أسير سيراً يشبه أن يكون ركضاً ، متعجلاً تعجلاً محمواً ، لكنني لا أتجه الى البيت • « علام الرجوع الى البيت ؟ هل يمكن أن أفكر في البيت الآن ؟ ان المرء في البيت يحيا فاذا ذهبت الآن الى البيت استيقظت من النوم غداً لأحيا : فهل هذا الآن ممكن ؟ لقد انتهت الحياة ، فيستحيل على بعد اليوم أن أحيا » • هكذا ظللت أهيم على وجهي في الشوارع ، لا أرى أين أمضي ، بل اني لأجهل هل كنت أريد أن أمضي الى مكان • وكنت أحس بحرج شديد ، حتى لأحل أضرار معطفي في بعض اللحظات ، ويتراءى لي أنه « ما من عمل يمكن أن يكون له أية غاية » • شيء غريب : كان يبدو لي بغير انقطاع أن كل شيء من حولي ، حتى الهواء الذي أتنسمه ، انما ينتمي الى سيارة أخرى غير الأرض ، وكأنني وجدت نفسي فجأة على سطح القمر • كل شيء : المدينة ، المرأة ، الرصيف الذي أركض عليه ، ذلك كله لم يبق لي أنا فكنت أقول لنفسي : « هذا ميدان القصور ؟ وهذه بحيرة اسحاق ، ولكن لم يبق لي بهما الآن شأن ، لا علاقة لي بهما الآن ! » • أصبح كل شيء غريباً عني ، كف كل شيء عن أن يكون لي • « ان لي ماما و ليزا !

ولكن ماذا تستطيع ماما وليزا أن تصنعا لى الآن ؟ انتهى كل نى . انتهى
كل نىء دفعة واحدة ، الا شيئاً واحداً : أنتى سارق الى الأبد .

• كيف أبرهن على أنتى لست سارقاً ؟ هل يمكن الآن هذا ؟ أأسافر
الى أمريكا ؟ ولكن ما الذى أستطيع بذلك أن أبرهن عليه ؟ لسوف يكون
فرسيلوف أول من يصدق أنتى سرقت ! « الفكرة » ؟ أية « فكرة » ؟
ما « الفكرة » الآن ؟ بعد خمسين سنة ، بعد مائة سنة ، حين سأمر ،
سيوجد دائماً من يشير الىّ باصبعه قائلاً : هذا سارق ، دشن « فكرته »
بسرقة مال فى الروليت . . .

هل شعرت بحقد ؟ لا أدرى . لعلنى شعرت بحقد . غير أن هناك
صفة غريبة أنصف بها ، ربما منذ نعومة أظفارى : اذا نالنى أحد باساة ،
اذا بلغت هذه الاساءة حداً الأقصى ، اذا أهانتى أحد اهانة شديدة ،
فأنتى أشعر دائماً برغبة نهمة فى تحمل الاهانة دون رد ، بل فى أن
أستبق رغبات المسىء ، فكأنتى أقول له : « خذ ، انك تذلنى ، فهأنذا أذل
نفسى مزيداً من الاذلال . فأنظر الىّ واعجب بى ! » . كان توشار يضربنى
وكان يريد أن يظهر أنتى خادماً ، أنتى لست ابن عضو من أعضاء مجلس
الشيوخ . فسرعان ما كنت أقوم بدور الخادم ، فلا أقصر على أن أناوله
ثيابه بل أتناول الفرشاة طوعاً من تلقاء نفسى ، وأخذ أنفض عن ثيابه
أسر غبار عالى بها ، دون أن يكون قد طلب منى ذلك أو أمرنى به ،
وكنت فى بعض الأحيان أتابع هذا العمل بالفرشاة مندفعاً بحماسة الخادم ،
لأزيل عن رداءه آخر ذرة من غبار ، الى أن يوقفنى من تلقاء نفسه قائلاً :
« كفى كفى يا آرКАДى ، هذا كافٍ ! » . وكنت اذا عاد بعد خسروج ،
فنزح معطفه ، أخذ أنظف المعطف بالفرشاة ، وأطويه بغضاية تامة ،
وأعطيه بغطاء من حرير ذى مربعات . كنت أعرف أن رفاقى يسخرون منى
ويحتقروننى ، كنت أعرف هذا حق المعرفة ، ولكن ذلك بعينه هو ما كان

يرضىنى ، فكأنتى أقول لهم : « أردتم لى أن أكون خادماً ، فانظروا كيف أننى خادم + ما دمت خادماً فلاأكن خادماً تماماً ! » + وقد احتفظت بهذا الكره السلبي وهذا الحقد الخفى سنين طويلة + وعند تسرشتشيكوف ، حين صرخت قائلاً لجميع من فى الصالة وقد ثارت ثائرتى وخرجت عن طورى : « سوف أننى بكم جميعاً ، فالروليت تحظرها الشرطة » ، فميتاً ان عاطفة من هذا النوع هى التى كانت تحركنى : لقد أذلونى ونبشونى ووصفونى على رموس الأَشهاد بأننى لص ، أى قتلونى قتلاً ، فكأنتى رددت على ذلك قائلاً : « طيب .. اعلموا جميعاً أنكم عرفتمونى على حقيقتى ، اعلموا أننى لست لصاً فحسب ، بل اننى أيضاً. واش ! » + حين أتذكر اليوم ما حدث ، فاننى أفسره هذا التفسير وألخصه هذا التلخيص + ولكن الأمر حينذاك لم يكن أمر تحليل ، فأطلقت صرختى تلك بنبرة ، وقبل ذلك بثانية واحدة كنت أجهل أننى سأطلقها + لقد خرجت الصرخة من تلقاء نفسها ، ولكنها خرجت لأن هذه الصفة التى أتصف بها كانت قائمة فى نفسى +

لاشك أن هذيانى كان قد بدأ حين أخذت أركض ، ولكننى أتذكر تذكراً واضحاً كل الوضوح أننى كنت أتصرف داعياً + كل ما هنالك - وهذا ما أستطيع أن أقطع به واثقاً - أن ميداناً كاملاً من الأفكار والاستنتاجات كان موصداً دونى : فحتى فى ذلك الوقت كنت أشعر بينى وبين نفسى أن « ثمة أفكاراً يمكن أن توافينى ، وأن ثمة أفكاراً أخرى ممنوعة عنى إطلاقاً » + وكذلك كانت بعض قراراتى ، فهى وإن اتخذت بوعى واضح وشعور كامل ، كان يمكن أن تخلو حينذاك من أى منطق داخلى + بل أكثر من ذلك اننى أتذكر تذكراً واضحاً أن قراراً من قراراتى كان يمكننى فى بعض اللحظات أن أشعر بسخافته واستحالة ثم أشرع مع ذلك فى تنفيذه على الفور واعياً كل الوعى + نعم ، لقد كانت الجريمة

تربص بى فى تلك الليلة ، ولئن لم أرتكب جريمة فإن الفضل فى ذلك يرجع الى الصدفة وحدها .

وفجأذ وافتنى الكلمة التى قالتها ثانيانا بافلوفنا عن فرسيلوف :
« لىذهب الى خط نيقولا فيضع رأسه على السكة الحديدية ، فينفصل رأسه عن جسمه على نحو مناسب » . وسيطرت هذه الفكرة لحظة على جميع مشاعرى ، ولكننى لم ألبث أن طردتها من ذهنى على الفور مثلاً ، اذ قلت لىنسى : « أضع رأسى على السكة الحديدية وأموت ؟ لو فعلت هذا لقالوا غداً : هو السارق اذن ، شعر بالحزى والعار فانتحر . لا ، لن أفعل هذا أبداً ! » . وأذكر أن شرارة كره رهيب قد شبت فى قلبى فى تلك اللحظة . قلت : « ماذا ؟ يستحيل على بعد اليوم أن أبرى نفسى ، يستحيل على أن أبدا حياة جديدة . فيجب اذن أن أخضع ، يجب أن أجعل نفسى خادماً ، يجب أن أكون كلباً ، أن أكون ذبابة ، أن أكون واشياً ، أن أكون الآن واشياً بالفعل ، وفى أثناء ذلك أستعد بهدوء ورفق ، حتى اذا آن الأوان فى ذات يوم دمرت كل شىء ، أبدت كل شىء ، أفنيت العالم كله ، المجرمين فيه والأبرياء . وسيعلم الناس جميعاً حينذاك ، على حين فجأة ، أن الذى فعل ذلك انما هو الرجل الذى اتهموه بأنه لص ، ومعدئذ انما انتحر » .

لا أذكر الآن كيف أفضى بى السير الى زقاق صغير قريب من شارع « الفرسان الحرس » . ان هذا الزقاق تحفه فى الجانبين ، على طول مائة متر تقريباً ، جدران عالية هى حواجز تحجب وراءها أفنية منازل . وأبصرت خلف أحد هذه الجدران ، على اليسار ، كومة كبيرة من حطب ، كومة عالية جداً يتجاوز ارتفاعها ارتفاع الجدار مترين . فوقفت فجأة وأخذت أفكر . كان فى جيبي أعواد كبريت من شمع ، محفوظة فى علبة من فضة . أكرر مرة أخرى أننى كنت عندئذ أعى وعياً واضحاً

ما أفكر فيه وما أريد أن أعمله ، وما زلت أذكر هذا الى اليوم ، ولكن لو سألتني لماذا أردت أن أقدم على هذا العمل لما استطعت أن أجيبك بشيء البتة . كل ما أتذكره هو أن هذه الرغبة قد استبدت بى وملكت على مشاعرى فجأة . قلت لنفسى : « ان تسلق الجدار ممكن جداً » . لقد كان هناك ، على بعد خطوتين ، باب كبير لاشك أنه مغلق منذ أشهر طويلة . وتابعت تفكيري قائلاً لنفسى : « اذا وضعت قدمى على حرف أسفله ، كان فى امكانى أن أتمسك بأعلاه ، فأسلك الجدار ، ولن يرى أحد شيئاً . لا أحد سيرى شيئاً ! صمت كامل ! وهناك فى أعلى الجدار ، سأستقر مرتاحاً ، فأشعل النار فى الحطب . هذا سهل ، حتى بدون أن أنزل الى الفناء ، لأن الحطب يكاد يلامس الجدار . وبسبب البرد ستسرى النار فى الحطب سريعة . ليس علىّ الا أن أسحب يدي حطبة سندر . . بل لماذا الحطبة ؟ أستطيع رأساً ، وأنا جالس على الجدار ، أن أترزع يدي قليلاً من القش ، فأشعله بلهب الكبريت ، أشعله ثم أدسه فى وسط الحطب ، فيشب الحريق . وأتب أنا الى أسفل الجدار وأنصرف . ولا داعى حتى الى الركض ، لأن الحريق لن يلاحظه أحد الا بعد مدة أدت هذا كله فى رأسى ، ثم عزمت أمرى تماماً على حين فجأة . وشعرت بلذة قصوى ، بلذة قصوى وتسليقت . كنت أجيد التسلق اعادة عظيمة : اننى منذ كنت فى اللبسة كنت متفوقاً فى الرياضة البدنية تفوقاً كبيراً . ولكننى كنت أتعل حذاءين من كاوتشوك ، فكان ذلك عقبة . ومع ذلك استطعت أن أمسك باحدى يديّ حافة لا يكاد يرى بروزها ، وأن أصعد : وهممت أن أقذف يدي الأخرى لأتمسك بأعلى الجدار ، فإذا بقدمى تنزلق فأسقط منقلباً . أظن أن رقبتي اصطدمت بالأرض . ولاشك أننى بقيت مغشياً علىّ مدة دقيقة أو دقيقتين . فلما أفقت من غيوبتى ، عقدت أزرار معطفى بغير شعور ، لأننى أحسست ببرد لا يحتمل ، وجررت نفسى جراً الى حيث

الباب الكبير ، فلطوت هناك وأنا لا أعى ما أفعل وعياً واضحاً ، وتجمعت
على نفسى فى تجويف بين الباب وتواء الجدار + كانت الأفكار فى ذهنى
مضطربة ، وأغلب الظن أننى سرعان ما غفوت . اننى أذكر الآن ،
كما لو كنت فى حلم ، أن صوت نواقيس ، عميقاً ثقيلاً ، قد ترجع فى
أذنى فجأة ، وأننى أصغيت الى ذلك الصوت متلذذاً .

كان النافوس يرن مرةً كلَّ ثانيتين ، بل كل ثلاث نوان ، ولكن صوته ليس صوت نافوس الخطر ، بل هو صوت ممتع بهيج عريض ، ولم ألبث أن ميزته فجأة : انه نافوس كنيسة القديس نيقولا ، الكنيسة الحمراء التى تقع فى مواجهة منزل توشار ! - هى كنيسة موسكوبية قديمة ، ذكرها فى خيالى واضحة ، شيدت فى عهد الكسى ميخائيلوفتش ، بمسئلتها وقبابها الكثيرة وأعمدها . وقد انتهى أسبوع الفصح منذ برهة قصيرة ، وعلى أشجار السندر النحيلة فى حديقة آل توشار ، أخذت تهتز الأوراق الخضراء الجديدة منذ الآن . والشمس المتألقة عند الأصيل تسكب أشعتها المائلة فى صفنا بالمدرسة ، وأنا ، فى غرفتى الصغيرة التى تقع على اليسار ، والتى أقصائى إليها توشار بعيداً عن « أبناء الكوتات وأعضاء مجلس الشيوخ » ، عندى زائرة . نعم ، أنا الولد الذى لا يُعرف له منبت ، عندى زائرة ، أتتى أول مرة منذ أن أودعت فى مدرسة توشار . ولقد تعرفتها منذ دخلت : انها أمى . تعرفتها رغم اننى منذ العهد الذى كانت تقودنى فيه الى كنيسة القرية لتناول القربان المقدس ، وهى الكنيسة التى كانت الحمامة تعجّاز قبتها ، لم أرها مرةً واحدة . نحن الآن جالسان معاً . وأنا أتأمل وجهها تأملاً غريباً . ولقد عرفت فيما بعد ، عرفت بعد سنين كثيرة ، أنها فى ذلك الحين ، وقد بقيت وحيدة اذ تركها فرسيلوف وسافر الى الخارج فجأة ، جاءت الى موسكو دون أن يكون لأحد سلطان عليها ، مستعينةً على ذلك بما تملك من مال زهيد ، كاتمة

امر سفرها تقريباً عن اولئك الذين عهد بها اليهم ، وذلك كله من أجل
أن ترانى لا أكثر . شىء غريب أيضاً : انها حين دخلت قد تحدثت الى
توشار ، أما أنا فلم تقل لى انها أمى . هى الآن هنا على مقربة منى ،
وانى لأذكر أننى قد أدهشنى أن أراها لا تتكلم الا قليلاً جداً . وهامى
ذى تفض صرّة كانت تحملها : ان فى الصرة ست يرتقالات ، وبضعة
أقراص من الحلوى ، ورغيفين من خبز أبيض . وقد ساءنى الخبز ،
فأجبت أمى متجههم الهيئة بأننا 'نطعم هنا أحسن الطعام ، وأتأنا نمطى كل'
يوم مع الشاى رغيفاً كاملاً . فقالت لى أمى :

- لا بأس يا عزيزى ، لقد قلت لنفسى بسذاجة : « لعلمهم فى هذه
المدرسة لا يغذونكم تغذية حسنة » . لا تؤاخذنى يا حبيبى .

قلت :

- وسوف 'يجرح شعور آنطونين فاسيليفنا (زوجة توشار) ،
وسوف يسخر رفاقى منى . . .

- ألا تريد اذن ؟ قد تأكله مع ذلك !

- اتركه ، اذا شئت .

ولم أتمس الهدايا . فالبرتقالات وأقراص الحلوى بقيت على المائدة
أمامى ، وبقيت أنا جالساً خافضاً عينى ، ولكن على وقار . من يدرى ؟
لعلنى كنت أتمنى ألا أخفى عنها أن زيارتها 'تخجلنى أمام رفاقى ، وأن
أظهر لها ذلك قليلاً لتفهم ، كأن أقول لها : « انك تخجليننى ولا تدركين
ذلك من تلقاء نفسك » . نعم ، أقول لها ذلك أنا الذى فى تلك اللحظة
ذاتها كنت أجري وراء توشار حاملاً الفرشاة لأنفض عن ثيابه أقل غبار !
وكنت أتصور كذلك مدى السخريات التى سيعصبها على الصبية الآخرون
متى انصرفت ، وقد يعصبها على توشار نفسه ، فلم يهتز قلبى بأية عاطفة
طيبة نحو أمى . كنت أنظر شزراً الى قسستانها القائم العتيق ، والى يديها

الغليظتين اللتين تسبهان يدي نغاله ، والى حذاءيها الثقيلين ، والى وجهها الذى نحل نحولاً شديداً . ان جبينها قد اتخذ منذ الآن بفضون صغيرة ، مع أن آنطونين فاسيليفنا قالت لى بعد ذلك فى المساء ، بعد انصرافها : « لابد أن أمك كانت فى الماضى جميلة جداً » .

وفيما كنا على هذه الحال اذا بأجائى تدخل علينا بصينية فوقها فنجان قهوة . الوقت بعد الظهر . وآل توشار ، فى هذه الساعة ، يحسبون القهوة دائماً عندهم فى الصالون . ولكن ماما شكرت ولم تتناول الفنجان . وعلمت فيما بعد أن ماما لا تشرب القهوة أبداً ، لأن القهوة تحدث لها خفقاناً فى القلب . وآل توشار ، فى قرارة أنفسهم ، يرون أن زيارتها وسماحهم لها بزيارتى هو منتهى التسامح والكرم منهم ، وأن فنجان القهوة الذى أرسلوه اليها هو ذروة الانسانية ومأثرة كبيرة من مآثر مشاعرهم المتمدنة وأفكارهم الأوروبية . ولكن أمى رفضت القهوة بمصادفة تشبه أن تكون عمداء .

ونوديت الى عند توشار . فطلب منى أن آخذ جميع دفاترى وجميع كتبى وأن أظهر عليها أمى « لترى مدى ما أجنيه من فائدة فى مدرسته » . وانبرت آنطونين فاسيليفنا عندئذ فقالت لى بلهجة ساخرة وهى تزم شفتيها : - أظن أن قهوتنا لم تعجب أمك .

وجمعت دفاترى لأحملها الى أمى التى كانت تنتظر . ومررت أمام « أبناء الكوتات وأعضاء مجلس الشيوخ » الذين احتشدوا فى الصف وأخذوا يرقبوتنا كلينا . وسررتى أن أنفذ أمر توشار تنفيذاً دقيقاً محكماً . فكنت أفتح دفاترى فتحاً منظماً ، وآخذ أشرح لأمى قائلا : « هذه دروس قواعد اللغة الفرنسية . وهنا نصوص الاملاء . وهذا تصريف الفعلين المساعدَيْن ، فعل avoir وفعل être ، وهنا الجغرافيا ، وصف المدن

الكبرى بأوروبا وجميع أجزاء العالم ، الخ ، . ظلت نصف ساعة أو أكثر
أشرح لأمي ذلك كله بصوت رقيق مطرد خافضاً عينيّ كما يفعل ولد
أحسن تأديبه . وكنت أعلم أن ماما لا تفقه في العلوم والآداب شيئاً ،
وأنها ربما كانت لا تعرف القراءة والكتابة ، وهذا هو السبب في أن الدور
الذي قمت به أعجبني . ومع ذلك لم أفلح في أن أتعبها ، فكانت تصفني
إلى دون أن تقاطعني ، وكانت تنصت بانتباه بل بخشوع ، حتى اعتراني
أنا السأم والضجر فكففت عن الاستمرار من تلقاء نفسي . وكانت نظرتها
حزينة ، وكان في وجهها شيء يبعث على الشفقة .

ونهضت أخيراً لتصرف . فاذا بتوشار يدخل بنفسه بتهمة ، ويسألها
بوقار مصطنع غبي هل هي راضية عن النجاح الذي حققه ابنها . فأخذت
أمي تتمتع معبرة عن شكرها الجزيل بجمل مشوشة . ثم دخلت آنطونين
فاسيليفنا . فرجتهما أمي ألا يتركها اليتيم ، « لأنه الآن في حكم اليتيم ،
فاستمر في احسانكما اليه ونمكما عليه . » . وحيتهما منورقة العينين
بالدموع ، حيث كلا منهما على حدة ، بانحناء شديد ، كما يفعل العامة
من أبناء « الشعب » حين يجيئون إلى سادة كبار يلتمسون منهم شيئاً . وكان
توشار وامرأته لا يتوقعان هذا كله ، حتى لقد لانت آنطونين من ذلك
ليناً واضحاً ، ولاشك أنها سرعان ما غيرت رأيها فيما يتعلق بفنجان
القهوة . وازداد توشار اصطناعاً للوقار ، وأجاب قائلاً بلهجة انسانية
« انه لا يفرق بين الأولاد ، وانهم هنا جميعاً أولاده ، وانه هنا أبوهم
كافة ، وانني أعامل كما يعامل تقريباً أبناء الكوتات وأبناء أعضاء مجلس
الشيوخ ، وان هذا شيء يجب أن يقدر حق قدره ، الخ ، الخ .
فكانت أمي تزيد تحياتها أثناء كلام توشار . واتفقنا اضطرابها ، فالتفت
إلى والدموع تلتصق في عينيها وقالت : « استودعك الله يا بني » .

وقبّلتني بل قل انني سمحت لها أن تقبّلتني . وكان واضحاً

أنها ودّت لو تقبّلنى مزيداً من التّقييل ، وأنّ تعاقبنى وأنّ تحضنتى وأنّ
تشدّنى إليها ، ولكنها أمسكت عن ذلك إما لأنها استحت من الحضور ،
وإما لأنها شعرت بحزن ، وإما لأنها أدركت أنّى أشعر بخجل ، فهامى
ذى تحبى توشار وامرأته تحية أخيرة ، وتسرع متجهةً الى باب الخروج •
وبقيت أنا مسمراً فى مكانى •

قالت آنطونين فاسيليفنا :

— « هلاّ تبعت أمك ! ان هذا الولد لا قلب له ! » •

ورفع توشار منكبيه ، كأنه يقول لها : « ليس عبناً أنى أعامله كما
يعامل خادم » •

وأطعت أمر آنطونين فاسيليفنا ، فنزلت وراء أمى ، وخرجنا الى
درج الباب • وكنت أعلم أنّ الآخرين ينظرون إلينا الآن من النافذة •
والتفتت أمى الى الكنيسة ، فرسمت إشارة الصليب ثلاث مرات بخشوع ،
وكانت شفتاها تحتلجان • ورنّ جرس جهير فى أعلى برج الناقوس رنات
قوية منتظمة • فالتفت أمى الىّ ، ثم لم تطلق صبراً فاذا هى تضع يديها
على رأسى وتجهش باكية بكاء غزيراً •

— كفى ياماما ، هذا يخرجنى ••• انهم يروننا من النافذة •••

فارتدت أمى الى وراء ، وأسرعت تريد الانصراف وقالت :

— طيب ! •• الرب •• الرب معك ! •• ملائكة السماء تحركك ،
ومريم العذراء والقديس نيقولا •••

وظلت تردد بسرعة ، وهى لا تزال ترسم إشارة الصليب ،
وتحاول أن تضع علىّ مزيداً من الصليبان بمزيد من السرعة :

- الرب .. الرب .. حبيبي .. عزيزي .. ولكن انتظر قليلاً ...

وأسرعت تدس يدها في جيبها فتستل منها منديلاً .. منديلاً أزرق ذا مربعات قد عقد في طرفه عقداً قوياً .. وأخذت تحاول حلّ العقدة .. ولكنها لم تفلح ، فقالت :

- طيب .. لا بأس .. خذ المنديل أيضاً .. انه نظيف كل النظافة .. قد تستعمله . ان في العقدة أربعة تقود كبيرة فيما أظن ، فعسى أن تنتفع بها في شيء . لا تحقد علىّ يا بني ، ليس معي أكثر من ذلك .. لا تزعل مني يا حبيبي .

أخذت المنديل . وقد أردت أن أنبئها الى « أن مسيو توشار وأنطونين فاسيليفنا يعاملاننا أحسن معاملة ، وأننا لا يعوزنا شيء » ، ولكنني أمسكت عن الكلام وقبلت المنديل .

ورسعت علىّ إشارة الصليب . مرةً أخرى ، وتمتعت أيضاً بدعاء لا أدري ما هو ، ثم اذا هي تحييني بانحناءة كبيرة بطيئة طويلة على حين فجأة ، تماماً كما حيّت توشار وامراته فوق . لن أنسى هذه التحية ما حييت ! لقد ارتعشت من قمة رأسي الى أخمص قدمي ، لا أدري أنا نفسي لماذا ! ماذا قصدت من هذه التحية ؟ أكانت « تعترف بخطيئتها أمامي » كما تخيلت ذلك كبيراً فيما بعد ؟ لا أدري . ولكنني شعرت حينذاك بمزيد من الحجل والحزى ، « لأنهم كانوا هناك في أعلى ينظرون ، وقد يضربني لامبير بعد قليل ، »

وانصرفت أخيراً .

كانت البرتقالات وأقراص الحلوى قد التهمها أبناء الكوتات وأعضاء مجلس الشيوخ حتى قبل أن أعود ، وسرعان ما انتزع مني لامبير النقود

الأربعة الكبيرة • فاشترى بها كتلة كبيرة من الشوكولاتة والجاتوه من عند بائع الحلوى ، ولم يذيقونى شيئاً مما اشترى •

انقضت ستة أشهر • نحن الآن فى شهر تشرين الاول (أكتوبر) •
رياح وأمطار • نسيت أمى نسياناً تاماً • والكراهة ، الكره الأسود العميق لكل شيء • قد نفذ الى قلبى واستولى عليه استيلاء كاملاً • ومازلت أنفص الفبار عن ثياب توشار بالفرشاة ، لكننى أكرهه الآن بكل ما أملك من قوى • ومازال كرهى يزداد شدة وتأججاً • وذات يوم ، فى ساعة الغسق الحزينة • بينما كنت أنبش علبتى ، اذا أنا أبصر المنديل الأزرق فى الركن الذى دسسته فيه منذ أعطيتيه أمى • فأخرجته وأخذت أثملمه باهتمام • ان طرفه لا يزال يحتفظ بآثار العقدة • بل لا يزال يحتفظ بأثر قطعة تقديده مستديرة • ولكننى لم ألبث أن أعدت المنديل الى مكانه وأغلقت العلبة • كان ذلك فى عشية عيد • وقد أخذت الأجراس تقرع مؤذنة بقداس الليل • وكان التلاميذ قد ذهبوا الى أسرهم بعد الغداء ، ولكن لاميير قد بقى فى هذه المرة ، لأن أهله لم يرسلوا أحداً يصطحبه • انه لا يزال يضربنى كما كان يفعل من قبل ، ولكنه أصبح يروح لى بأشياء كثيرة ، وأصبح فى حاجة الى • لبنا طوال السهرة تتكلم عن مسدسات لوباج التى لم يسبق لأحد منا أن رآها ، وعن السيوف الشركسية ، وانتقل لاميير أخيراً الى حديثه المفضل ، وهو حديث سافل كنت أحب أن أصغى اليه رغم ما أشعر به من دهشة بينى وبين نفسى • ولكننى فى هذه المرة وجدت الحديث كريهاً لا يطاق ، فقلت للاميير انتى أشعر بصداغ فى رأسى ، ومضينا الى النوم • فتمسرت رأسى بالنطاء ، واستللت المنديل الأزرق من تحت المخدة : كنت قد عدت الى اخراجه من العلبة قبل ساعة ، فما ان رُتّب سريرانا حتى وضعته تحت المخدة • شددت المنديل الى وحمى وأخذت أقبّله • وهمست أقول وقد استولت على ذكرى أمى وانقبض

صدرى كأنه مضغوط بين فكي ملزمة : « ماما ، ماما » • وتراعى لى وجهها وأنا مغمض عينيّ ، تراعى لى بشفتيه المختلجتين حين كانت ترسم على نفسها اشارة الصليب أمام الكنيسة ، ثم ترسم اشارة الصليب علىّ أنا ، فأقول لها : « انتى أشعر بخجل ، انهم يروننا » • وتابعت هتافى لماما : « ماما ، ماما الحبيبة ، لقد جئت الىّ مرةً على الأقل •• أين أنت الآن يا زائرتى البعيدة ؟ هل تذكرين الآن ابنك الصغير المسكين الذى جئت تزورينه ؟ •• تعالى الىّ مرةً أخرى ، تعالى الىّ فى الحلم على الأقل ، لأقول لك انتى أحبك حباً عظيماً ، وانتى أصبحت لا أشعر منك بخجل وخزى ، وانتى كنت أحبك فى ذلك الوقت أيضاً ، وان قلبى كان يتألم حين كنت أقبع هناك كخادم ! لن تستطيعى أبداً يا ماما أن تقدرى كم كنت أحبك حينذاك ! ماما الحبيبة ، أين أنت الآن ؟ هل تسمعينى ؟ ماما ، ماما ، هل تتذكرين الحمامة ، فى الكنيسة ؟ ••• •• »

دمدم لاميير من قرارة سريريه يقول :

- شيطان يأخذه ! ماذا دهاه ؟ انتظر قليلاً ! انه يمنع الناس من النوم •••

وها هو ذا يشب عن سريريه أخيراً ، فيركض الى سريرى ، وينزع عني الغطاء ، ولكننى أثبتت بالغطاء تشبهاً قوياً وأظل مطوقاً رقبتى به • - تبكى ؟ ماذا دهاك حتى أخذت ثن يا أبله ؟ خذ هذه لك !

قال ذلك وأخذ يكيل لى الكلمات على ظهري وعلى أضلاعى ، ويؤلمنى مزيداً من الايلام عند كل ضربة •• وفجأة فتحت عينيّ •••

النهار قد طلع تملأماً ؟ والجليد يسطع على الثلج وعلى الجدار ••• وأنا جالس متجمع على نفسى نصف ميت ، متخدر فى معطفى • وهذا رجل يقف أمامى يحاول أن يوقظنى من نومى بشتائم مقذعة ، ويركنى

على الأضلاع بطرف قدمه اليمنى • فأنهض وأنظر : هو رجل يرتدى
معطفاً ثميناً من جلد الدب ، ويدنر رأسه بقبعة من الفراء ، له عيسان
سوداوان ، وأسنان بيض مسددة الى • انه أبيض اللون ، محمر الحدين ،
يشبه وجهه أن يكون فناعاً • • • لقد مال على حتى كاد وجهه يلامس
وجهى ، فكلما زفر زفرة خرج من فمه بخار متجلد :

- لقد تجمدت من البرد يا سكير ، يا أبله ! لسوف تفتس هنا من
التجلد كما يفتس كلب ! قم ! قم !

صرخت أقول :

- لامير •

- من أنت ؟

- دولجوروكى •

- أى دولجوروكى ؟

- دولجوروكى فحسب ! • • ذلك الذى فرزت فى فخذه شوكة • •

فهتف وهو يبتسم ابتسامة طويلة ، ابتسامة من يتذكر :

- آ • • آ • • هذا أنت اذن ؟ أنت ؟

(أتراه نسينى ؟) •

وأنهضنى ، وأوقفنى على قدمى • فكننت أنرنج وأجد فى الوقوف
والحركة مشقة ، فقادنى وهو يسندنى بيده • كان ينظر فى عيني كمن
يريد أن يتذكر وأن يفهم ، وكان ينصت الى كلامى بكل ما أوتى من قوة ؛
وكننت أنا أنتم بكل ما أوتيت من قوة أيضاً ، فأتكلم وأتكلم بدون
انقطاع ، وأشعر بسرور لأننى أتكلم ولأنه لامير • لأنه بدا لى خلاصاً ،

مما أنا فيه ، أم ترانى ارتعيت عليه ارتعائى على انسان من عالم آخر ؟
لا أدرى • لم أكن فى ذلك الوقت أفكر • لقد ارتعيت عليه بغير تفكير •
ماذا قلت ؟ لا أتذكر البتة • ولا شك أن ما قلته كان مفككاً • بل لا شك
أن نطقى لم يكن واضحاً • ولكنه كان يصفى الى اصغاء شديداً • واستوقف
أول عربة مرت بنا ، فما انقضت بضع دقائق حتى كنت فى دفة غرفته •

ان كل انسان ، أياً كان ، يحتفظ حتماً بذكرى حادثة شخصية
يعدّها أو يميل الى أن يعدّها غير مألوفة ، خارقة ، كأنها تنتمي الى عالم
الخيال ، كأنها معجزة من المعجزات ؛ وهذه الحادثة تكون حلماً رآه أو لقاءً
وقع له ، أو نبوءة تنبأ بها ، أو احساساً سابقاً بأمر سيقع ، أو شيئاً من
هذا القليل . واني محمول حتى الآن الى اعتبار لقائي هذا بصاحبي لامير
مشملاً على شيء من ذلك على الأقل اذا نحن نظرنا الى ظروف هذا
اللقاء والى ما كان له من نتائج ضخمة . ولقد حدث هذا كله حدوداً بسيطاً
غاية البساطة ، من أحد الجوانب على الأقل : لقد كان لامير عائداً من
احدى مهماته الليلية (سنرى ماذا كانت تلك المهمة) ، وكان نصف
سكران ، فلما توقف لحظةً أمام باب من الأبواب ، أبصرنى . ولم يكن
قد انقضى على وجوده بطرسبرج الا بضعة أيام .

الغرفة التى 'نقلت اليها' غرفة صغيرة ، أثاثها بسيط جداً ، مزودة
بما تزود به غرفة بطرسبرجية عادية من الدرجة الثانية . أما لامير نفسه
فكان يرتدى ثياباً فاخرة باذخة . وكان على أرض الغرفة حقيبتان لم تفرغا
الا من نصف ما فيهما . وكان ركن من الغرفة محجوباً بحاجز يخفى
وراءه السرير .

صاح لامير منادياً :

- ألفونسين !

فأجاب من وراء الحاجز صوت نسوى مرتعش يقول بلغة فرنسية
باريسية اللهجة :

- نعم !

وسمعت من وراء الحاجز حفيف قدمين عاريتين ، وما هى الا لحظة
حتى ظهرت « مدموازيل ألفونسين » بقميص النوم • انسانة عجيبة ؛ طويلة
القامة نحيلة كمود يابس ، فتيّة ، سمراء ، طويلة الوجه ، عيناها
تتطنطان ، وخداها خاسفان • مخلوقة بالية بلى رهيباً •

- أسرعى ! (أنا الآن أترجم لأنه كلّمها بالفرنسية) • لا بد أن
عندهم سماءاً يعبرونه • أسرعى • هاتى ماءً ساخناً ونيذاً أحمر وسكرآ ،
وقدحاً ، وأسرعى ، فانه متجلد من البرد • هو صديقى وقد قضى الليل
فى الثلج •

فهتفت تقول بالفرنسية وهى تلوى يديها بحركة مسرحية :

- مسكين !

- هلمى ، هست ...

كذلك صرخ لامبير كأنه يكلم كلباً ، ولوّح لها بأصبعه مهدّداً •
فسرعان ما كفّت عن حركاتها ، وركضت تنفذ ما أمرها به •

وأخذ لامبير يفحصنى ويمسنى ويجس نبضى ويلمس صدغى • ثم
جمعهم يقول : « غريب أنك لم تتجمد تجمداً تاماً ... ولكنك كنت
مدفوناً فى معطفك مع رأسك ، فكان لك معطفك كعجر ... » •

ووصل كأس الماء المغلى ، فابتلعت بهشراة ، فسرعان ما أنشنى ،
وعدت أتمتم • كنت مضطجماً فى الركن على الديوان نصف اضطجاع ،
وكنت أتكلم نشوان بالكلام ، ولكننى لا أكاد أتذكر الآن ماذا كنت أقول ،

بل ان هناك صفحات من ثرثرتى فد امحت الان من ذاكرتى امحاء تالما •
هل فهم من كلامى شيئاً؟ لا أدرى • ولكننى أدركت فيما بعد انه لابد أن
يكون قد فهم على الاقل أن لقاء هذا بى امر لا ينبغى له أن يهمله ، وأن
الابقاء على علاقته بى يمكن أن يجلب منه منافع • وسأشرح فيما بعد ما لعله
أجراء من حساب •

لم أتنفس انتعاشاً قوياً فحسب ، بل أظن أننى كنت فى بعض
اللحظات مرحاً • اننى أتذكر الشمس التى أضاءت الفرفة فجأة حين
أزيجت الستائر ، وأتذكر المدفأة التى طقطقت نيرانها حين أشعلت •
أما من أشعل المدفأة وكيف أشعلها فلا أدرى • وأتذكر الكلب الصغير
الأسود الذى كانت مدموازيل آلفونسين تمسكه بيديها وتشده الى قلبها
بنعيج ودلال • لقد سلانى هذا الكلب وأضحكنى كثيراً ، حتى اننى انقطعت
عن الكلام ومددت اليه يدى مرتين ، ولكن لاميير أوما ايمساء فاذا
بآلفونسين وكلبها يختفيان فوراً وراء الحائز •

وكان لاميير شديد الصمت ، وكان جالساً أمامى ينصت الى كلامى
انصاتاً قوياً وقد مال على فلا يتعد عنى • وكان يتسم فى بعض الأحيان
ابسمامة طويلة بطيئة ، ويكشف عن أسنانه ويطرف بعينه كمن يبذل جهداً
من أجل أن يفهم وأن يحزر • أذكر أننى حين رويت له قصة
« الوثيقة » لم أفلح فى أن أعبر تعبيراً واضحاً وأن أعرض قصة متسقة ،
فكنت أرى فى وجهى أنه لا يستطيع أن يفهم عنى • حتى لقد جازف مرة
نألقى سؤالاً ، وكان هذا شيئاً خطراً ، لأننى كنت أغير موضوع الحديث
متى 'ألقي على' سؤال ، وأنسى ما كنت بصدد الكلام عنه • كم قضينا من
الوقت على هذه الحال مسترسلين فى الحديث ؟ لا أدرى ، وهاهو ذا ينهض
فجأة وينادى آلفونسين فيقول لها :

— انه فى حاجة الى هدوء • وقد نحتاج الى استدعاء طيب • افعل

كل ما يطلب ، أعنى ••• « تفهمين يا بنتى ؟ هل معك مال ؟ لا ؟
خذى اذن !

قال ذلك وأخرج من جيبه ورقة مالية بعشرة روبلات ، ثم همس
يقول لآلفونسين وهو يلوح لها باصبعه مهدداً ويقطب حاجبيه بقسوة :

– « هل تفهمين ؟ هل تفهمين ؟ » •

ورأيت أنها كانت ترتعد أمامه ارتعاداً شديداً • وأردف يقول :

– سأرجع •

ثم اتجه الى فقال لى مبتسماً :

– أما أنت فعليك أن تنام • هذا خير ما تفعله •

وتناول قبعته • فصاحت آلفونسين تقول له بلهجة عاطفية :

– « ولكنك لم تنم البتة يا موريس ! » •

فأجابها بقوله :

– « اسكتى ! سأنام فيما بعد » •

• وخرج •

همست تقول لى بنبرة التأثر وهى ترينى ظهرها :

– 'أنقذت !

وسرعان ما أخذت تخطب قائلة وقد انتصبت فى وسط الغرفة

(بالفرنسية) :

– سيدي ، سيدي ، ما من رجل كهذا الرجل كان قاسياً هذه

القسوة كلها ، وكان بسماركاً الى هذا الحد ، فنظر الى المرأة نظرتة الى

فاذوره ، ما امرأة فى عصرنا هذا ؟ « أقلها ! » هذه هى الكلمة الأخيرة التى
قالتها اكاديمتنا الفرنسية !

حملت عينيَّ • اتى أرى الشخص شخصين • اتنى ارى
الفونسييتين اثنتين • ولاحظت فجأة أنها تبكى • فارتعشت وأدركت أنها
كانت تكلمنى منذ مدة طويلة وأتتى كنت اذن نائماً طوال ذلك الوقت ،
أو كنت مغشياً علىَّ •

وصاحت تكمل خطابها (بالفرنسية) :

- ... « وا أسفاه يا سيدى ، فيم كان يمكن أن يفيدنى أن اكتشفه
فى وقت مبكر ... أفلم يكن من الخير لى أن أظل كاتمة عارى طوال
حياتى ؟ قد لا يشرّف فتاة أن تشرح ما يدور فى نفسها بمثل هذه الحرية
أمامك يا سيدى ، ولكننى أعترف لك بأننى اذا سمح لى أن أريد شيئاً ،
فسوف يكون هذا الشيء هو أن أعمد فى قلبه خنجرى ، ولكن على أن
أشيع عنه بصرى ، مخافة أن أرى نظراته فترتمش ذراعى وتتجمد
عزيمتى ! لقد اغتال ذلك الكاهن الروسى يا سيدى ، وثقف لحيته الحمراء
من أجل أن يبيعها لفنان عند « جسر المارشالات » بقرب متجر مسيو
آندريو - أزياء راقية ، بضائع باريسية ، ملابس داخلية ، قمصان
أنيفة ، تعرف يا سيدى ، أليس كذلك ؟ آه يا سيدى ، حين تضم
العساقفة ، على مائدة واحدة ، زوجةً وأولاداً وأخوات وأصدقاء ،
ويشتعل فى القلب فرح قوى ... هل هناك يا سيدى سعادة أفضل من هذه
السعادة التى بنعم بها جميع الناس ؟ ولكنه يضحك يا سيدى ، هذا
الديابول الكريه العجيب الذى لا يتصوره العقل • يمناً يا سيدى ، لولا
وساطة مسيو آندريو ، لما ... آه ... مستحيل ، لما كنت ... ولكن ماذا
يا سيدى ، ماذا بك ؟ ماذا بك يا سيدى ؟

كذلك هتفت تسألنى ، ثم اندفعت الىَّ • لعلنى كنت أرتعد ، بل

لعلنى قد اغمى على • لا استطيع ان اصف الشعور الشاق الأليم الذى
احدته فى نفسى هذه المخلوقة نصف المجنونة • ولعلها تخيلت ان عليها
أن تسلينى وتسرى عنى • المهم أنها لم تتركنى لحظة واحدة • ولعلها كانت
تمثل فى الماضى • لقد كانت تنشد للامها اشاداً ، وتدور على نفسها ،
وتتكلم بدون انقطاع ، على حين كنت قد صمت منذ مدة طويلة • كل
ما استطعت أن أفهمه من أقوالها هو أنها كانت لها « علاقات وثيقة
بمتجر مسيو آندريو - أزياء راقية ، بضائع باريسية ، الخ » ، وأنها
لعلها كانت تخرج من عند مسيو آندريو » ، ولكن « هذا الشيطان الخائى
الذى لا يتصوره العقل قد انتزعها من مسيو اندريو الى الأبد » ، وتلك
هى مأساتها •• انها تشفق وتنتحب ، ولكن بدا لى أنها لا تفعل ذلك
كله الا تقيداً بالشكل • وشعرت فى بعض اللحظات أنها توشك أن تهاوى
متهشمة كهيكل من عظم • وكانت تتكلم بصوت مختنق فيه ارتعاش ومط ،
فالألّف المدودة تخرج من حلقها كأنها نغاء شاة • وحين أفقت من غيوبتى
رأيتها مستدير فى وسط الغرفة على رجل واحدة ، ولكن دون أن
ترقص ، لأن استدارتها هذه كانت تمثيلاً يتصل بقضيتها • واندفعت
فجأة نحو بيانو صغير قديم غير مدورن ، كان بالغرفة ، ففتحته وأخذت
تنقر على أصابعه وتغنى ••• أظن أننى غبت عن وعيى عشر دقائق أو أكثر ،
وأننى نمت ، ولكن الكلب الصغير نبح ففتحت عينيّ ، وعاد الى شعورى
كاملاً فأضاءنى بنوره كله لحظةً ، فانتفضت مذعوراً ، وأنا أقول لنفسى :
« لامبير ، اننى عند لامبير » ، وتناولت قبعتى وارتميت على معطفى •

قالت لى آلفونسين اليقظة :

— « الى أين تذهب يا سيدى ؟ » •

فأجبتها :

— أريد أن أنصرف ، اريد أن أذهب ، لا تمنعنى !

فقال آل فومسين مؤيدة بقوة وهي تندفع لتفتح لى باب الدهليز :

- نعم يا سيدى !

ثم هتفت نقول بصوت عالٍ حتى 'يسمع كلامها فى الدهليز كله :

- « ولكن المكان ليس بعيدا يا سيد ، فلا داعى الى ارتداء الفروة •

انه قريب يا سيدى ! » •

فلما خرجت من الغرفة ، انعطفت ' يمنة • فصاحت آل فومسين تقول
بكل ما تملك من قوة وهي تتشبث بمعطى بأصابعها الطويلة المعروقة
وتدلى باليد الأخرى على مكان فى يسار المر لم أكن فى حاجة الى
الذهاب اليه البتة :

- « من هنا يا سيدى ، المكان من هنا ! » •

ولكننى أفلت منها وركضت الى باب الخروج نحو السلم • فأخذت
الفومسين تصرخ قائلة بصوت مكسّر وهي تركض ورائى :

- « انه ينصرف ! انه ينصرف ! ولكنه سيقتلنى يا سيدى ،

سيقتلنى ! » •

ولكننى صرت على السلم ، واستطعت أن أفتح الباب فى أسفل
رغم أنها كانت تلاحقنى على الدرجات ، ووثبت الى الشارع ، وسارعت
أرتمى فى أول عربة ، ذاكرآ للحوذى عنوان أمى ...

ولكن شعورى ما ان أضاء لحظةً حتى انطفأ . فلا أكاد أذكر الآن كيف 'نقلت الى بيت أمى ، وهناك لم ألبث أن غبت عن الوعى على الفور تقريباً . وفى الغد ، كما قيل لى هذا فيما بعد (وانى لأتذكر ذلك أنا نفسى على كل حال) أضاء عطفى مرةً أخرى لحظة . فرأيتنى فى غرفة فرسيلوف على ديوانه ، ورأيت حولى وجوه فرسيلوف و ماما و ليزا . وانى لأتذكر تذكراً واضحاً كل الوضوح كيف كلمنى فرسيلوف عن تسرشتشيكوف والأمير ، وكيف أرانى رسالةً وحاول أن يهدتنى . وقد رووا لى فيما بعد أننى كنت لا أنفك ألقى أسئلة مذعورة عن شخص أسميه لاميير ، ولا أنفك أسمع نباح كلب صغير . ولكن هذا الشعاع الضئيل من الشعور لم يلبث أن أظلم ، فلما كان المساء من ذلك اليوم الثانى كانت الحمى قد اجتاحتنى اجتياحاً تاماً . ولكننى أحب أن أستبق الأمور فأذكر الواقعة التالية رغم أننى لم أستطع أن أعبها على الفور .

فى ذلك المساء الذى 'طردت فيه من عند تسرشتشيكوف ، وحين هدأ فى الصالة كل شىء ، واستأنف تسرشتشيكوف اللعب ، أعلن فجأة بصوت مدور ، أن خطأ مؤسفاً قد وقع : فاللال المفقود ، أى الأربعمائة روبل ، قد عثر عليه فى كومة أخرى من المال ، وأجريت حسابات البنك فأتضح أنها كاملة لم ينقص منها شىء . فاذا بالأمير ، وكان قد بقى فى الصالة ، اذا به يقترب من تسرشتشيكوف ويلح عليه أن يعلن براءتى على رهوس الأَشْهاد ، وأن يعبرّ لى عدا ذلك عن اعتذاره كتابة . ورأى

تسرشتشيكوف أن هذا الطلب مشروع ، وتعهد امام الجميع بان يبعث الى
فى الغد رسالة ايضاح واعتذار . وقد زوّده الأمير بعنوان فرسيلوف منذ
الغد فعلاً ، وتلقى فرسيلوف من تسرشتشيكوف رسالة "موجهة" الى ،
ومعها مبلغ يزيد على ألف وثلاثمائة روبل ، هو مالٌ لى نسيته على مائدة
الروليت . كذلك انتهت قضية تسرشتشيكوف . وقد أسهم هذا النبأ المفرح
فى ابلالى من المرض حين عاد الى شعورى .

أما الأمير فانه حين رجع من صلالة القمار قد كتب فى تلك الليلة
رسالتين ، احدهما الى والثانية الى الكتيبة التى كان ينتمى اليها والتى
وقعت له فيها تلك الحادثة مع حامل الراية سيبانوف . وقد بعث الرسالتين
كنتينهما فى صباح الغد . وبعد الرسالتين كتب تقريراً الى رؤسائه ، وجاء
الى الكولونيل فى الصباح حاملاً تقريره بنفسه ، فأعلن للكولونيل أنه
« مجرم من مجرمى الحق العام ، وشريك فى جناية تزيف أسهم ، فهو
لذلك يستلم نفسه للعدالة ، ويطالب بأن يحكم عليه القضاء » ، وفى
الوقت نفسه سلم التقرير الذى يعرض فيه كل شئ كتابةً ، فأودع
السجن .

واليكم نص الرسالة التى كتبها لى فى تلك الليلة كلمة كلمة :
عزيزى الغالى آرКАДى ماكاروفتش !

« اننى ، وقد جُربت المخرج « العامى » ، قد فقدت الحق فى أن
أواسى نفسى أية مواساة بأننى استنطعت أخيراً أن أعزم أمرى على القيام
بعمل شجاع وعادل . اننى مجرم فى حق الوطن وفى حق السلالة التى
أنحدر منها وأتسمى اليها ، لذلك أعاقب نفسى بنفسى ، أنا آخر أفراد هذه
السلالة . لست أفهم كيف أمكننى أن أتشبث بغريزة البقاء الدنيئة ، وأن

أفكر لحظةً في أن أفدى نفسي بمالٍ أدفعه لشركائى فى الجريمة •
فلو فعلت ذلك لبقيت فى نظر نفسي مجرمًا رغم كل شىء • ولو ردَّ الىَّ
أولئك الناس رسائلهم لطللت قلقًا طوال حياتى ، فلا راحة ! ماذا يبقى لى
لو فعلت ذلك ؟ أعيش معهم ، وأرافقهم طوال عمرى : ذلك هو المصير
الذى كان ينتظرنى ! فما كان لى أن أراضى بهذا • وأخيرًا وجدت فى نفسي
من الصلابة أو ربما من اليأس ما يتيح لى أن أفعل ما أفعله الآن •

« لقد كتبت الى كتيبتى السابقة ورفاقى القدامى مبرئًا ستيانوف •
وليس فى هذا أى مأثرة تكفر عن ذنبى ، ولا يمكن أن يكون فيه أى
مأثرة تكفر عن ذنبى : وانما هى وصية رجل سيموت غدًا • هكذا يجب
أن يفهم عملى » •

« اغفر لى أننى أشحت عنك فى صالة القمار • ذلك أننى لم أكن
فى ذلك الوقت واثقًا بك • الآن وأنا رجل ميت ، أستطيع أن أدلى بهذه
الاعترافات ••• من العالم الآخر » •

« مسكينة ليزا ! انها لم تعرف شيئًا عن هذا القرار • فقل لها
ألا تلغنى ، بل أن تفكر • اننى لا أستطيع أن أبرئ نفسي ، ولا أجد
كلمات أشرح لها بها أى شىء • واعلم أيضًا ، يا أركادى ماكروفتش ،
أننى فى صباح أس • حين جاءت تزورنى آخر مرة ، كشفت لها عن
خداعى ، فاعترفت بأننى ذهبت الى آنا أندريفنا خاطبًا • لم أستطع أن
أبقى هذا السرَّ حملًا ثقيلًا على ضميرى قبل قرارى الأخير الذى كنت
قد اتخذته ، فلم يسعنى الا أن اكشف لها عنه حين رأيت حبها • وقد

غفرت لي ، غفرت لي كل شيء ، لكنني لم أصدقها • ليس هذا منها
غفراناً • فلو كنت في مكانها لما غفرت •

• تذكرني •

صديقك الأبدى الأثير التمس

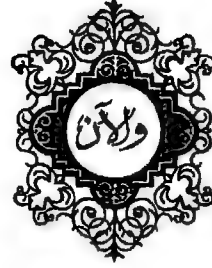
سوكولسكي

وقد بقيت في سريري بلا شعور تسعة أيام تماماً •

الجزء الثالث

الفصل الأول

١



فلنتكلم عن غير هذا تماماً •
الحق أننى أقول دائماً « فلنتكلم عن غير هذا » ،
نم اذا أنا أعود الى الكلام عن نفسى • كنت قد
أعلنت مع ذلك ألف مرة أننى لا أنتوى أبداً أن
أحكى عن نفسى ، وكنت قد عزمت أمرى على ذلك جازماً حين بدأت
تدوين هذه الأمور : اننى أدرك حق الادراك أن ما يحدث لى لا يهم
القارىء فى شىء • فأنا أصف غيرى وأريد أن أصف غيرى ، فاذا كان
شخصى يعود فيندس تحت قلبنى دائماً ، فليس ذلك الا خطأ يؤسف عليه ،
ويستحيل الافلات منه رغم كل ما أملك من ارادة ورغبة • ومما يحز فى
نفسى خاصة أننى حين أروى أحداث حياتى بمثل هذه الحرارة المتأججة
كلها أوهم القارىء بذلك أننى لا أزال الآن كما كنت فى ذلك الوقت •
ولكن القارىء يتذكر على كل حال أننى هتفت أقول غير مرة : « آه ... »
ليت المرء يستطيع أن يبدل الماضى وأن يبدأ كل شىء بداية جديدة ! ،
فما كان لى أن أهتف ذلك الهتاف لولا أننى قد تبدلت الآن تبدلاً عميقاً ،
ولولا أننى أصبحت شخصاً آخر يختلف عن الشخص الأول كل
الاختلاف • ذلك واضح وضوحاً قوياً • ولكن ليت القارىء يستطيع أن
يتصور مدى ما أشعر به من ضيق حين أسوق جميع هذه الاعتذارات
وهذه المقدمات التى أضطر أن أدسها كل لحظة فى وسط هذه الصفحات
التي أدونها •

ولا تتقل من بعد الى الوقائع •

أفقت من غيبوتي بعد تسعة أيام ، أفقت وقد بُعثت بشأً جديداً ،
ولكننى لم أصلح • وكان انبعاني حيوانيسا على كل حال ، اذا نحن فهمنا
هذه الكلمة بمعناها الواسع ، ولعل الأمر لو تمّ الآن لجرى مجرى آخر •
وكانت فكرتى أو عاطفتى لا تزال (كما كانت من قبل ألف مرة) تنصب
على ضرورة أن « أتركهم » كلهم تركاً تاماً ، تركاً حاسماً مطلقاً ، لا كما
حدث من قبل حين اتخذت هذا القرار ألف مرة دون أن أُلح في تنفيذه
أبداً • يمينا لم أكن أريد أن أنتقم من أحد ، رغم أنني كنت اشتكى منهم
جميعاً • وكنت أهيمُ - نفسى للرحيل دون اشمئزاز ، ودون لحن ، وانما
أنا أريد أن تكون لى قوتى الشخصية ، قوتى الحقيقة فى هذه المرة ،
قوتى المستقلة « عنهم » جميعاً وعن العالم بأسره ! اننى لا أسجل هذا الحلم
كفكرة بل كاحساس عارم لا يغالب سيطر علىّ فى ذلك الوقت • وكنت
لا أريد أن أصوغ ذلك الحلم فى كلام ما بقيت راقداً فى السرير • كنت
أحس وأنا مريض خائر القوى راقداً فى غرفة فرسيلوف مهجور
« منهم » جميعاً ، كنت أحس مدى ما هويت اليه من عجز ، فيؤلنى ذلك
ايلاماً شديداً : كنت قشة ملقاة على سرير ، لا انساناً ! ولم يكن المرض
وحده سبب ذلك ، فما أشد ما أورتنيه هذا من عذاب ! هكذا أخذ يصعد
من أعماق كيانى احتجاج قوى ، فكنت أخلق فى قرارة نفسى نوعاً من
وقاحة مغالبة وتحدٍ شديد • لا أذكر أن عهداً من عهود حياتى قد حفل
بمشاعر الاستعلاء والتكبر مثلما حفلت بها هذه الأيام الأولى من نقاهتى ،
أعنى الفترة التى كانت فيها القشة ملقاة على السرير •

ولكننى كنت بانتظار تحقيق حلمى ألتزم الصمت ، حتى لقد قررت
ألا أفكر فى شيء ! كنت أسبر وجوههم محاولاً أن أحزر فيها كل
ما كنت فى حاجة اليه • وكان واضحاً أنهم هم أيضاً كانوا لا يحبون أن

يسألونى ، ولا ان يظهروا بمظهر المستطلعين ، وانما هم يكلمونى فى أمور ليست بذات بال • فكان هذا يرضينى ويحزننى فى آن واحد • ولن أحلل هذا التناقض • وكنت أرى ليزا أقل مما أرى ماما ، رغم أنها نجىء الى كل يوم ، وربما جاءت فى اليوم مرتين • وقد استخرجت من شذرات من أحاديثهم ومن هيشهم كلها أن ليزا هموماً ومتاعب كثيرة ، وأنها تغيب عن البيت أحياناً كثيرة جداً بسبب مشاغلها ، فكان مجرد تفكيرى فى أن لها « مشاغل » خاصة بها يجرى شعورى ويؤذى نفسى • ولكن هذه الاحساسات كانت احساسات مرضية على كل حال ، احساسات فزيولوجية صرفاً ، فلا داعى الى وصفها • وكانت تاتيانا بافلوفنا أيضاً نجىء الى كل يوم تقريباً ؛ ولئن لم تكن تعاملنى برقة ولطف ، فانها لم تكن تشتمنى كما كانت تفعل من قبل ، وهذا أمر أغاظنى كثيراً ، حتى لقد عبرت لها عن غيظى بسداجة فقلت لها : « أنت يا تاتيانا بافلوفنا تكونين مملّة مضجرة اذا لم تعلقى بشئائم ! ، فاذا هى تجيبنى بلهجة قاطمة : « لن أجىء اليك اذن ! ، » وانصرفت • فسرّنى أنا أنى طردت واحدة على الأقل •

ولكننى كنت أعذب أُمى خاصة • كانت أُمى هى التى تحقننى أكثر من غيرها • كانت قد استبدت بى شهوة الطعام استبداداً قوياً ، فكنت أذمر تذمراً شديداً من أن وجبتى تتأخر دائماً (وهذا ما لم يحدث فى يوم من الأيام) • وكانت أُمى تتفنن فى تخيل ما يرضينى • وقد جاءتى مرة بالحساء ، وأخذت تطعمنيه بيدها على عادتها ، فكنت أذمر وأنا ألتهمه • وفجأة خجلت من تذمرى وقلت لنفسي : « ربما كانت هى الوحيدة التى أحبها ، ومع ذلك فهى التى أسومها سوء العذاب ، • ولكن فظاظتى لم تهدأ ، ثم اذا بهذه الفظاظه تتحول الى بكاء فجأة • فظننت المسكينة اننى أبكى حناناً ورقة ، فمالت على* وطفقت تقبلنى • فصبرت ، وتركت

للزوبعة أن تنقضي ، ولكنني في تلك اللحظة قد كرهت أمني في الواقع .
والحق أنني قد أحيتها دائماً ، وحتى في تلك اللحظة كنت أحبها ، فليس
صحيحاً أنني كرهتها ، وإنما حدث عندئذ ما يحدث دائماً : ان الذي
نحبه أكثر من غيره نعذبه قبل غيره .

والشخص الذي كنت أبفضه حقاً في تلك الأيام الأولى انما هو
الطبيب . كان هذا الطبيب شاباً متعجرف الهيئة ، شرس اللهجة ، بل
قليل التهذيب . ان أمثال هذا الطبيب يصطنعون دائماً وضع من حقق في
العلم اكتشافات خارقة مفاجئة بالأمس القريب ، ولا يكون الأمس القريب
قد شهد شيئاً ذا بال . ولكن هذا شأن « التافهين » و « العامين » . وقد
صبرت عليه طويلاً ولكنني انفجرت أخيراً على حين بغتة ، فأعلنت له
أمام جميع من في الدار أنه يزعج نفسه في غير طائل ، وانني سأشفي بدون
أن يكلف نفسه عناء مداواتي ، وأنه رغم ما يتظاهر به من أنه
واقعي، محشو العقل بالآوهام، وأنه لم يدرك حتى الآن أن الطب لم يشف
أحداً من مرض في يوم من الأيام ، وأنه في أغلب الظن جاهل جهلاً
فاحشاً ، « كسائر اختصاصيي هذا الزمان الذين يشمخون بأنوفهم كثيراً » .
وقد امتنأ الطبيب استياءً شديداً (فظهر بذلك على حقيقته) ، ولكنه ظل
يعودني . وقد أعلنت لفرسيلوف أخيراً أنني ، اذا لم ينقطع الطبيب عن
زيارتي ، فلأقولن له كلاماً أغلظ مما سبق أن قلته له عشرة أضعاف .
فأجابني ان قول كلام أغلظ ضعفين اثنين أمر مستحيل ، فما بالك بكلام
أغلظ عشرة أضعاف ! فسررتي ملاحظة فرسيلوف هذه .

يا له من انسان على كل حال ! أقصد فرسيلوف . لقد كان وحده
سبب كل شيء . ومع ذلك كان الوحيد الذي لم أغضب منه . وليست
معاملته وحدها هي التي فتنتني ، وإنما كان كل منا يحس أن عليه ايضاحات
يجب أن يقدمها لصاحبه ، فالأفضل لهذا السبب ألا يوضح أحد لأحد

شيئاً قط • انه لشيء ممتع فى ظروف كهذه الظروف أن يعامل المرء رجلاً ذكياً ! سبق أن قلت ، فى الجزء الثانى من روايتى ، مستبقاً الأمور ، ان فرسيلوف كلمنى بايجاز شديد عن رسالة بعثها الى الأمير المعتقل ، وعن سرشتشيكوف واعتذاره لى ، الخ • واذا أننى كنت قد أزمعت الصمت ، فقد ألفت عليه ، بأشد ايجاز ممكن ، سؤالين أو ثلاثة أسئلة مقتضبة ، فأجاب عنها اجابات واضحة دقيقة ، ولكن دون أن تشتمل اجاباته على كلمات زائدة ، ودون أن تشتمل على عواطف زائدة ، وهذا أعلى قيمة أيضاً • ان العواطف الزائدة هى ما كنت أخشاه فى ذلك الحين •

ولست أقول شيئاً عن لامير ، ولكن لاشك أن القارىء قد حزر أننى كنت أفكر فيه كثيراً • لقد تكلمت عن لامير أثناء الهذيان مراراً • ولكن حين أفقت من غيبوتى ، وألقيت بضع نظرات حولى ، فانتى سرعان ما اعتقدت أن حكاية لامير لا تزال سرّاً ، وأن أحداً لا يعرف عنها شيئاً ، حتى فرسيلوف • فاعتبطت لهذا وانقضى خوفى • ولكن ما كان أشد دهشتى حين علمت فيما بعد أننى كنت مخطئاً فى اعتقادى : لقد جاء لامير أثناء مرضى ، غير أن فرسيلوف لم يحدثنى عن مجيئه بشيء ، فاستنتجت من ذلك أننى الآن فى نظر لامير قد انتقلت الى العالم الآخر • ومع ذلك كنت أفكر فيه فى كثير من الأحيان ، أفكر فيه بغير اشمزاز منه ، بل أفكر فيه بمودة له ، كأننى أحس فيه شيئاً جديداً يلبيه ما أخذ ينشأ فى نفسى من مشاعر جديدة وخطط جديدة • الخلاصة أننى قررت أن أفكر فى لامير قبل أن أفكر فى أى شيء آخر متى عقدت العزم على الشروع فى التفكير • شيء غريب : لقد نسيت نسبياً تماماً أين يسكن ، وفى أى شارع جرى كل الذى جرى • كنت أتذكر كل شيء : الغرفة ، آلفونسين ، الكلب الصغير ، الدهليز ، حتى لقد كان يمكننى أن أرسم هذا كله لو شئت • ولكن أين جرت هذه الأحداث كلها ؟ فى أى شارع ؟

فى أية عمارة ؟ لا أدرى ! نسيت نسياناً تاماً • والأغرب من هذا اننى
لم أدرك ذلك الا فى اليوم الثالث أو الرابع من عودة شعورى الىّ ، أى
بعد انقضاء مدة طويلة على شعورى بالقلق من لامبير •

تكلم هى اذن احساساتى الأولى بعد انبعائى ، لم أذكر منها الاكثرها
سطحيةً ، ولعلنى لم أستطع أن أذكر منها الشىء الأساسى • والحق أن الشىء
الأساسى لعله تحدد وتبلور فى قلبى فى ذلك الأوان نفسه ؟ اننى لم أقض
وقتى كله فى الغضب والحنق من تأخر وصول حسائى • آه • • اننى
لأنذكر كم كنت حزيناً ، وكم كان يستبد بى السأم أحياناً ، ولا سيما حين
أبقى وحيداً خلال مدة طويلة • كانوا قد لاحظوا ، هم ، أننى أضيق
ذرعاً بهم ويشفقونهم ، فكانوا يتركوننى وحيداً فترات ما تنفك تزداد :
افراط فى الذوق !

فى اليوم الرابع من صحوى الكامل ، كنت راقداً على سرىرى فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر ، ولم يكن معى أحد • كان الجو رائقاً وكنت أعلم أن الشمس ستأفل بعد ثلاث ساعات ، وأن شعاعاً مائلاً أحمر سيسقط على زاوية جدارى ، فيضيئها بقعة متوهجة • كنت أعلم هذا من الأيام السابقة ، وكنت أعلم أيضاً أن ذلك سيحدث بعد ساعة حتماً ، فكان يقينى من ذلك يسخطنى الى حد الحق الشديد • ولذلك رأيتنى أنقلب الى الجهة الأخرى بحركة متشنجة ، فاذا أنا فجأةً ، فى الصمت العميق ، أسمع هذه الكلمات سماعاً واضحاً : « يا ربنا يسوع المسيح ، يا الهنا ، ارحمنا » ، نطقت هذه الكلمات بما يشبه الهمس ، ثم انطلقت من صدر المتكلم زفرة عميقة ، ثم عاد كل شىء الى الصمت • فأنهضت رأسى بسرعة •

وكنت قبل ذلك ، أمس ، بل أمس الأول ، قد لاحظت أن فى غرفنا الثلاث ، تحت ، شيئاً خاصاً • فلا بد أن الغرفة الصغيرة التى كانت تقيم فيها ماما وليزا ، على الجهة الأخرى من الصالة الكبيرة ، تضم الآن شخصاً آخر • وكنت قد سمعت بعض الأصوات عدة مرات ، فى النهار وفى الليل ، ولكن خلال لحظات قصار دائماً ، فسرعان ما كان الصمت يخيم من جديد ساعات عدة ، لذلك لم أحفل بالأمر ولا انتهت اليه • وخطر ببالى أمس أن فرسيلوف هو الذى أحدث تلك الأصوات ، لا سيما وأنه جاء الى بعد لحظة • ومع ذلك كنت أعلم من أحاديثهم علم اليقين أن

فرسيلوف قد انتقل أثناء مرضى الى غرفة أخرى يبيت فيها • أما ماما وليزا
فكنت أعلم منذ مدة طويلة أنهما انتقلتا كلاتهما (من أجل هدوئى وراحتى
فيما اعتقدت) الى الطابق الأعلى ، الى « تابوتى » القديم ، حتى لقد
تساءلت بينى وبين نفسى ذات يوم : « كيف أمكنهما أن تقيما فيه كلاتهما ؟ »
ثم هأنذا أتبين فجأة أن غرفتهما التى كانتا تقيمان بها انما يسكنها اليوم
شخص آخر ، وأن هذا الشخص الآخر ليس فرسيلوف • وهأنذا ،
بخفة لم أكن أظنها فى نفسى (اذ كنت أتصور حتى ذلك الحين أننى
لا أملك أية قوة) ، « أخرج ساقى » من السرير ، وأدسهما فى بابوجين ،
وألقى على كفى ثوباً للمنزل رمادى اللون مصنوعاً من جلد الحمل كان
على مقربة منى (ضحى به فرسيلوف) ، وأسير عبر الصالون متجها الى
الغرفة التى كانت تسكنها أمى من قبل • ان ما رأيته هناك قد شدهنى
وأذهلنى • لم أكن أتصور شيئاً مما رأيت ، فوفقت فى العتبة كالتسمر •

ان فى الغرفة شيخاً أشيب الشعر تماماً ، له لحية بيضاء بياضاً هائلاً ،
كان واضحاً أنه مقيم هنا منذ مدة طويلة • ولم يكن الشيخ جالساً على
السرير ، وانما هو جالس على كرسى ماما ، مستند الى السرير بظهره
فحسب ؛ وكان عدا ذلك منتصب الجذع فى جلسته ، فكأنه ليس فى حاجة
الى أى امتداد رغم ما به من مرض بين لا يخفى • وكان يرتدى فوق قميصه
سترة مبطنة بفراء خروف ، وينطى ركبتيه بشال لأمى ، وينتعل
بابوجين • لا بد أنه طويل القامة • وهو عريض المنكبين ، تدل هيئته على
شكيمة قوية ، رغم مرضه ورغم شئ من الشحوب والنحول ؛ وهو يضىو
الوجه ، شعره غزير ولكنه ليس طويلاً جداً ؛ ويبدو أنه تجاوز السبعين
من عمره • وعلى مقربة منه ، فوق مائدة صغيرة فى متناول يده ، ترقد
ثلاثة كتب أو أربعة ، ونظارتان من فضة • فما ان أبصرته حتى حزرت
من هو ، رغم أننى لم يخطر ببالى لحظة واحدة أن ألقاه ، ولكننى

لم أستطع أن أفهم كيف أمكن أن يفضى هذا الوقت كله بجوارى مستخفياً
هذا الاستخفاء الذى بلغ من الشدة أننى لم يدر فى خلدنى وجوده .

لهم يتحرك حين رآنى ، وإنما نظر الىّ ملياً بصمت ، ونظرت اليه
أنا كذلك ، مع فارق واحد هو أننى أظهرت دهشةً شديدة ، أما هو فلم
يظهر أية دهشة . حتى أنه بعد أن تفرس فىّ خلال خمس نوان أو عشر ،
ابتسم فبجأة ، بل ضحك ضحكة خفيفة لا تكاد تدرك ، ضحكة مرعان
ما انقضت ، ولكن بقى أثرها المضى الفرح فى وجهه ، ولا سيما فى
عينيه ، الزرقاوين جداً ، المشعتين ، الواسعتين ، اللتين يعلوها حاجبان
منتقضان متهدلان من الشيخوخة ، وتحيط بهما غضون صغيرة لانهاية
لعددها . ان ضحكته خاصةً هى التى أثرت فى نفسى .

أنتنى أرى أن الانسان حين يضحك يكون منظره منفراً فى أكثر
الآحيان . فالضحك يبرز فى العادة لدى الناس نوعاً من العامية والتدنى ،
وان كان الضاحك لا يعرف شيئاً عن الأثر الذى يحدثه فى نفوس
الآخرين . انه يجهل هذا الأثر جهل المرء بشكل وجهه أثناء النوم . فمن
النائمين من تبقى وجوههم ذكيةً ، ومنهم من تصبح أثناء النوم غيبةً
فمضحكةً رغم أنهم أذكىاء . لا أدري سبب هذه الظاهرة . كل ما أريد
أن أقوله هو أن الضاحك ، كالنائم ، لا يعرف عن وجهه شيئاً فى أكثر
الآحيان . هناك كثرة كبيرة من الناس لا تجيد الضحك البتة . والحق
أن الأمر ليس أمر اجادة يحصلها المرء بالمران ، وإنما الضحك موهبة
يؤتاها المرء فطرةً ، فاذا أراد أحد أن يحصل هذه القدرة على اجادة
الضحك كان عليه أن يربى نفسه تربية جديدة ، وأن يحسن ذاته ، وأن
ينتصر على غرائزه السيئة ، فاذا فعل ذلك فقد يتحسن ضحكه . ومن
الناس من يفضحهم ضحكهم ، فمتى رأيتهم ضاحكين حزرت فوراً ما تخبئه
بطونهم . فرب ضحكة ذكية حقاً ثم هى تنفرك مع ذلك أحياناً . ان

الضحك يقتضى الصراحة قبل كل شئ : فإين الصراحة فى البشر؟ والضحك يقتضى نفساً طيبة كريمة ، والناس فى أكثر الأحيان انما يصعدون فى ضحكهم عن خبث وشر . والضحك الصريح الذى لا شر فيه فرح : فأين الفرح فى زماننا هذا وأين الناس الذين يعرفون كيف يفرحون ؟ (هذه الملاحظة عن الفرح فى زماننا انما سمعتها من فرسيلوف فحفظتها) . فرح الانسان هو السمة التى تكشف عن خلقه أكثر من سائر سماته ، الى جانب رجليه ويديه . هناك طباع لا تستطيع أن تنفذ اليها ، فاذا اتفق لأحد الذين يملكون طبعاً من هذه الطباع أن انفجر يضحك أمامك ضحكاً صريحاً ذات مرة ، رأيت طبعه مبسوطاً أمام بصرك فوراً . لا أحد الا أولئك الذين ينعمون برقى رفيع سعيد ، يمكن أن يفرح فرحاً معبراً سارياً ، فرحاً طيباً لا سبيل الى مقاومة فتنته . ولست أقصد هنا رقى الذكاء والعقل بل رقى الطبع والخلق ، أعنى رقى الانسان كله جملة . لذلك اذا أردت أن تدرس امراً وأن تعرف نفسه فلا تنبته الى طريقته فى الصمت ، أو فى الكلام ، أو فى البكاء ، أو حتى فى تأثره بأبل المعانى والأفكار ؟ وانما انظر اليه حين يضحك . فاذا أحسن الضحك فهو امرؤ طيب . وعليك أن تلاحظ الفروق الطفيفة : يجب مثلاً ألا يبدو لك ضحكه غيباً بحال من الأحوال مهما يكن هذا الضحك صريحاً ومهما يكن بريئاً وساذجاً . فمتى لاحظت فى ضحكه أية علامة من علامات الغباء فاعلم أنه انسان محدود العقل ، مهما يحفل عقله بأفكار كثيرة . واذا لم يكن ضحكه غيباً ، لكنه بدا لك هزلاً على حين فجأة ، فاعلم أن هذا الانسان لا يحترم نفسه احتراماً حقيقياً ، أو لا يحترم نفسه احتراماً كاملاً . واذا كان هذا الضحك معبراً وسارياً ولكن بدا لك عامياً مبتذلاً فاعلم أن طبيعة الرجل عامية ، وأن كل ما تكون قد لاحظته فيه قبل ذلك من نبل وسمو انما كان مقصوداً أو مصطنعاً أو مستعاراً على غير شعور منه ، وأن الرجل سيرتد حتماً الى

طبيعته السيئة ، فيهتم بما يعود عليه « بارباح » ، وينبذ أراءه السميجه
الكريمة نبذاً لا هوادة فيه ولا رحمة ، ويعدّها من أخطاء الشباب
وحماساته •

اذا كنت أسهب هذا الاسهاب الطويل فى الكلام عن الضحك مضحياً
بمواصلة سرد قصتى فلست أفعل ذلك استطراداً بغير نية • اننى أعد هذه
الآراء نتيجةً من أئمن النتائج التى استخلصتها طوال حياتى • واننى أوصى
بها الفتيات المخطوبات اللواتى يوشكن أن يتزوجن الخطيب ولكنهن
مازلن يتفرسن فيه بشك وحيرة ولمّا يمزمن أمرهن بعد • ألا لا تسخرن
من مراق يتصدى لاعطاء دورس فى أمور الزواج التى لا يفهم منها شيئاً •
اننى أعرف شيئاً واحداً لا أكثر : هو أن الضحك أضمن مقياس 'تعرف به
النفس • انظروا الى الأطفال : ان بعضهم يحسنون الضحك احساناً تاماً •
وهذا هو السبب فى أن المرء لا يستطيع أن يقاوم فتنتهم • ان الطفل البكاء
كريبه الى نفسى • أما الطفل الذى يضحك ويتهيج فانه شعاع من الجنة •
واطلالة على المستقبل الذى سيصبح فيه الانسان آخر الأمر طاهر طهارة
طفل • ساذجاً سذاجة طفل •

ولقد كان فى الضحكة العارضة التى ضحكها ذلك الشيخ شىء
من طفولة لا حدود لفتنتها • فسرعان ما دنوت منه •

قال لى بلطف وهو يشير الى مكان بقربه ، ويرمقنى بتلك النظرة المشعة نفسها :

- اجلس ، اجلس لحظة ، فلا تزال ساقاك ضعيفتين •

فجلست الى جانبه وقلت له :

- اننى أعرفك • أنت ماكار ايفانوفتش •

- نعم يا عزيزى • حسن أنك تقف الآن على قدميك • انك شاب •
هذا حسن لك • للشيخ القبر ، وللشباب الحياة •

- هل أنت مريض ؟

- نعم يا صديقى ، السافان خاصة • حملتنى سافاى المسكينتان حتى وصلت الى هنا ، ولكن ما لبثتا أن تورمتا منذ جلست • بدأ هذا يوم الخميس الماضى ، حين وقف الترمومتر (ملاحظة : يقصد حين تجلد من البرد) • كنت قبل ذلك أدهنهما بمرهم • الدكتور لشتن ادموند كارلوفتش هو الذى وصف لى ذلك المرهم بموسكو منذ ثلاث سنين ، وكان ذلك المرهم ينفعنى كثيراً • ومنذ أمس ، سرى الوجع الى الظهر ، حتى لكأن الكلاب تنهش ظهرى نهشاً • • • وصرت لا أنام الليل • •

قاطعته سائلاً :

- وكيف لا 'يسمع لك صوت هنا البتة ؟

فننظر الى وبدا مفكراً ، ثم أضاف يقول كأننا وافقه ذكرى
مباغتة :

- حذار أن توفظ أملك • لقد ظلت تضطرب حولي طول الليل ،
ولكن بدون أن 'يسمع لها أى صوت ، كما لا يسمع صوت لفراشة •
وهي الآن ترمح •
وتنهّد قائلاً :

- نىء حزين أن يكون المرء شيخاً مسكيناً • لا أدري بمن تشبث
روحي ، ولكنها لا تزال صامدة ، وهي سعيدة بأن تبقى فى هذا العالم ،
بل لو كان عليها أن تستأنف حياتها كلها على هذه الأرض لما جزعت من
ذلك • ولكن لعل مثل هذه الفكرة اثم •
- لماذا تكون ائماً ؟

- هذه الفكرة حلم ، وعلى الشيخ أن يمضى الى نهايته • نعم ان
استقبال الموت بتذمر أو استياء اثم كبير • على كل حال ، اذا كان حب الحياة
ناشئاً عن فرح روحي ، فأظن أن الله سوف يغفره حتى لشيخ • يصعب
على الانسان أن يعزف الفرق بين ما هو اثم وما ليس باثم • هذا سر يفوق
العقل الانسانى • وعلى الشيخ أن يكون دائم الرضى ، وأن يموت منموراً
بضياء روحه ، سعيداً بما قضى من أيام ، متطلعاً الى ساعته الأخيرة ،
فرحاً بالرحيل كسنبلة تنضم الى باقة السنابل ، بعد أن حقق سرّه •
- أراك تتكلم دائماً عن السر • فما الذى تعنيه بقولك :
« حقق سره » ؟

سأله هذا السؤال وأنا ألقى نظرة على الساب • كنت سعيداً بأننا
وحيدان ، وأن كل ما حولنا سكون وهدوء • وكانت الشمس تسطع قوية
على النافذة قبل أقولها • وكان الشيخ يتكلم بشيء من التفخيم وبدون دقة

كأنه كان فرحاً بوجودى حقاً • ولكننى لاحظت أنه يعانى من حمى لا شك فيها ، بل يعانى من حمى قوية • وكنت مريضاً أنا أيضاً ، وكنت أشعر بحمى كذلك منذ دخلت عليه • قال :

- ما هو السر ؟ كل شىء سر يا صديقى • سر الله موجود فى كل مكان • كل شجرة • كل عنبية تشتمل على سر • أن يفرد طير صغير ، وأن تسطع النجوم متألثة فى الليل ، فذلك كله سر ، ذلك كله سر واحد • ولكن ما ينتظر نفس الانسان فى العالم الآخر هو سر الأسرار ، هو أكبر الأسرار • هكذا يا صديقى !

- لا أدري ماذا تعنى •• وثق اننى لا أقول هذا الكلام مناكدةً لك، وثق أننى أوّمن بالله • ولكن هذه الأسرار جميعها قد كشف عنها العقل منذ مدة طويلة ، وما لم يكشفه العقل فسوف يكشفه يوماً - هذا مؤكد حتماً - وربما اكتشفه فى وقت قريب • عالم النبات يعرف تماماً كيف تثبت الشجرة ، وعالم الفزيولوجيا وعالم التشريح يعرفان لماذا يفرد الطائر ، أما النجوم فقد أحصى عددها ، بل حسبت كل حركة من حركاتها حتى ليكن النبوء بظهور أى مذنب قبل ألف سنة من ظهوره يخطأ لا يتجاوز دقيقة واحدة • وحتى تركيب أبعد الكواكب صار الآن معروفاً • خذ مجهرأ - المجهر عدسة مكبرة تضخم الأشياء مليون مرة - وانظر فى قطرة ماء • ولسوف ترى فى قطرة الماء عالماً كاملاً يعج بالخلوقات الحية ، وكان ذلك سرا فاكشفناه •

- سمعت أناساً يتكلمون عن هذا مراراً كثيرة يابنى • لست أنكر أن ذلك شىء عظيم مدهش • كل شىء 'وهاب للانسان بارادة الله • ليس عبثاً أن أعطى الله الانسان نسمة الحياة : « عيش واعرف » •

- هذه معان تلوكها جميع الألسن • ما أنت مع ذلك بعمو من أعداء العلم ، ما أنت كهنوتى ؟ أعنى ••• لا أدري هل تفهم •••

- لا يا بنى ، لقد احترمت العلم دائماً منذ أن كنت صبياً ، وإذا كنت لا أعرف من العلم شيئاً فأننى لا أناصبه العداء . مالم يوهب لنا قد وهب لآخرين . ولعل فى هذا خيراً : كل امرئ ميسر لما خلق له . ذلك أن العلم يا بنى ليس دائماً ميزة . فمن الناس من ينقاد للرغبة فى ادهاش العالم ، فلو كنت عالماً فقد أرغب فى ذلك أكثر من سائر البشر . أما وأنتى جاهل فكيف يمكننى أن أتباهى؟ ولكنك أنت شاب ملئ ذكاء . وذلك قدرك . فعليك بالدراسة . حاول أن تعرف كل شيء ، فإذا لقيت رجلاً زنديقاً أو رجلاً تافهاً كان فى وسعك أن ترد عليه ، ولا يفرنك بأقوال باطلة تعكر عقلك الفص . أما تلك العدسة التى جئت على ذكرها فقد رأيتها منذ مدة ليست بالطويلة كثيراً .

قال ذلك واسترد أنفاسه وتهد . ولا شك أن مجيئى إليه قد سرَّ سروراً عظيماً . كانت تعتمل فى نفسه حاجة قوية الى البوح ، حاجة تكاد تكون مرضية . زد على ذلك أننى لا أظننى مخطئاً اذا قلت انه كان فى بعض اللحظات ينظر الى نظرات تزخر بماطفة قوية : كان يضع يده على يدى بعضان ، ويلعب كتفى ولكن يجب أن أعترف أنه كان فى لحظات أخرى يبدو كمن نسينى نسياناً تاماً ، فكأنه وحيد فى الغرفة ، فإذا واصل كلامه بحماسة كان كمن يكلم نفسه .

تابع يقول :

- ان فى دير جناديفا - بوستين ، يا صديقى ، رجلاً عظيماً الذكاء ، نبيل الأصل ، واسع الثراء ، برتبة ليونتان كولونيل . لقد امتنع هذا الرجل عن الزواج منذ كان يعيش فى المجتمع . وهو الآن فى الدير منذ قرابة عشر سنين ، انفصل عن الناس حباً بالسكون والوحدة وأراح حواسه من أباطيل الحياة الاجتماعية . انه يلتزم جميع قواعد الحياة الرهبانية ، ولكنه لا يريد أن يرتدى مسوح الرهبان . وما أكثر ما عنده

من كتب يا صديقي ! اننى لم ار هذا القدر من الكتب فى أى مكان
الا عنده ! نعمنا يبلغ نمائة آلاف روبل . هو قال لى ذلك . اسمه بطرس
فالريانتش . وقد علمنى أشياء كثيرة فى فترات مختلفة ، فطالما كنت أحب
أن أصغى اليه . قلت له ذات مرة : « كيف يا سيدى وأنت رجل عظيم
الفكر يعيش منذ عشر سنين فى طاعة النظام وهجر الارادة والتنازل عن
الرغبة ، كيف لا تتمنى أن ترتدى المسوح فتزداد كمالاً ؟ » فقال لى :
« كيف يا شيخ تجرؤ أن تزعم لى فكراً عظيماً ؟ لعل فكرى هو الذى
أسرنى واستعبدنى بدلاً من أن أروّضه وأسيطر عليه . وما هذا الذى
تقوله عن طاعنى ؟ لعلنى منذ مدة طويلة قد فقدت القصد والاعتدال ! وتكلم
أيضاً عن هجرى ارادتى وتنازلى عن رغبتى ؟ فاعلم اذن أننى مستعد لأن
أدع على الفور مالى ، وأن أردّ رتبى ، وأن أضع على هذه المائدة جميع
أوسمتى . ولكن غليونى . . هأنذا منذ عشر سنين أخشى ألا أستطيع
الاستغناء عنه ! فأى راهب يمكن أن أكون ، وأين هجر الارادة الذى
تمدحه فى ؟ » دهشت عندئذ من هذا التواضع . وقد مررت بذلك الدير
فى الصيف الماضى يوم القديس بطرس - أراد الله لى ذلك - فماذا رأيت
فى الحجرة ؟ رأيت ذلك الشيء الذى حدثتني عنه : مجهراً كان الرجل قد
استقدمه من الخارج وتحمل فى سبيل ذلك نفقات ضخمة . قال لى : « انتظر
قليلاً ، سوف أريك شيئاً مدهشاً لم تره فى حياتك حتى الآن . هل ترى
هذه القطرة من الماء ؟ انها صافية رائقة كدمعة . فانظر اذن الى ما فى
داخلها . لتجدن أن علماء الميكانيكا سيكشفون قريباً عن جميع أسرار
الرب . . فلا يدعون منها واحداً » . هذا ما قاله وقد حفظته . وكنت أنا قد
نظرت فى المجهر قبل ذلك بخمسة وثلاثين عاماً عند مولانا الكسندرا
فلادميروفتشى مالجاسوف ، خال آندره بتروفتشى ، الذى آلت أملاكه بعد
وفاته الى آندره بتروفتشى . لقد كان سيداً خطير الشأن ، وكان جنرالاً

كبيراً ، وكان يملك رهطاً كبيراً من كلاب الصيد ، وقد عملت عنده صيادا بالكلاب مدة طويلة . وكان قد احضر هو أيضاً هذا المكروسكوب ، فكان يدعو جميع الناس بعضاً وراء بعض ، رجالاً ونساءً ، للنظر فيه ، عارضاً تحت عدسته قملةً وبقة ورأس دبوس وشعرة وقطرة ماء . ما أكثر ما تسلينا وضحكنا ! كنا نخاف أن نقرب من المكروسكوب ، ولكننا كنا نخاف مولانا أيضاً إذا نحن لم نقترّب ، لأنه كان شديد الغضب . وكان بعضنا لا يعرف أن ينظر ، فهم يغمضون أعينهم فلا يرون شيئاً . وكان آخرون يصرخون جزعاً واهلاً . حتى ان العمدة سافين ماكاروف وضع يديه على عينيه صارخاً : « اصنع بى ما شئت فلن أنظر ! » ، فانطلق الضحك من كل صوت ! كنت اذن قد رأيت هذا المكروسكوب قبل ذلك بمدة طويلة ، قبل ذلك بأكثر من خمسة وثلاثين عاماً ، كنت قد رأيت هذه المعجزة ، ولكننى لم أقبل هذا لبطرس فالريانوفتش ، اذ كان يسره سروراً عظيماً أن يريها . حتى لقد تظاهرت بأننى أدهش وأرتاع . فتركنى لحظةً ثم سألتى : « فما قولك يا شيخ ؟ » . قلت وأنا انتصب : « الرب قال : كن يا ضياء فكان الضياء . » فأجابنى فجأةً : « لعل الظلمات هى التى كانت ! » قال ذلك بطريقة غريبة دون أن يتسم . وشعرت فى تلك اللحظة باستغراب ، أما هو فقد كاد يغضب ثم لم يقل بعدئذ شيئاً .

قلت له :

- الأمر بسيط جداً ، ان صاحبك بطرس فالريانوفتش يقيم فى الدير ليأكل كوتيا ويركع ويسجد ، لكنه لا يؤمن بالله ، وأنت انما وقعت عليه وهو فى لحظة من لحظات صراحته تلك . هذا كل شيء ، ثم انه شخص عجيب جداً : فلا شك أنه رأى هذا المكروسكوب عشر مرات ،

فلماذا جنَّ به في المرة الحادية عشرة ؟ هذه حساسية عصبية ... أغلب الظن أنه اكتسبها في الدير .

قال الشيخ بافتتاح :

- انه رجل طاهر القلب رفيع الفكر ، وليس زنديقاً . ان له عقلاً واسعاً ، ولكن قلبه قلق . وما أكثر أمثاله الذين يفدون علينا من عند هؤلاء السادة العلماء . ثم اسمع ما سأقوله لك : ان الرجل يعاقب نفسه . فلاحظ هؤلاء الناس ، ولا تمذهبهم ، واذكرهم في صلواتك قبل النوم ، لأنهم انما يبحثون عن الله . هل تصلى قبل أن تنام ؟

- لا . أنا أعتقد أن الصلاة طقس من الطقوس السخيفة لا طائل فيه . ولكن يجب أن أعترف لك أن صاحبك بطرس فالريانوفتش يعجبني : فهو على الأقل ليس خرقه بل رجلاً ، وهو يشبه بعض الشبه رجلاً آخر قريباً منا نعرفه كلانا .

لم ينتبه الشيخ الا الى الجزء الأول من جملتي . وأردف يقول :

- خطأ منك يا صديقي ألا تصلى . الصلاة شيء حسن يبهج القلب عند النوم وعند الصبح في الصباح وحين يستيقظ المرء في الليل . أنا أقول لك هذا . في صيف من الأصيف ، في شهر تموز (يولييه) ، كنا نحت الخطى نحو دير « العذراء » احتفالاً بعيد . فكلما اقتربنا من المكان ازداد عدداً ، فإذا نحن نصبح مائتي شخص تقريباً ، مسرعين الى تقيل الرفات المقدس للشهيدين أنيكى و جريجوار . كنا قد قضينا الليل في حقل من الحقول ، وفتحت عيني في الفجر حين كان الجميع لا يزالون نائمين وحين لم تكن الشمس قد خرجت بعد من الغابة . رفعت رأسي يابني ، وشملت الأفق بنظرة وتهدت : كان كل شيء جميلاً جمالاً لا يوصف ! كل شيء هادئ ، الهواء نسيم ، العشب يثبث - انبت يا عشب الرب ... والطاقير

الصغير يفرد - غرّد يا طائر الرب ... والطفل الصغير يزقرق على ذراعى أمه - ليحرسك الله أيها الرجل الصغير ، اكبر وكن سعيداً ! لعلنى أدركت الجمال يومئذ أول مرة فى حياتى ! وعدت أرقد ، ونمت نوماً ما كان أخفه وأحلاه ! العالم جميل يا صديقى ! اذا تحسنت صحتى فسوف أستأنف طوافى متى طلع الربيع . اذا كان هناك أسرار ، فمرحّباً بالأسرار . صحيح أن الأسرار تهرب القلب وتثير فيه العجب ، ولكن هذا الخوف يبهج القلب أيضاً : « كل شئ متجمع فىك أيها الرب ، أنا نفسى موجود فىك ، فخذنى إليك ! » .

وأضاف يقول برقة وحنان :

- لا تتململ يا فتى ! لأن يوجد سر فذلك أجمل .

- « لأن يكون سر فذلك أجمل ... » . سوف أتذكر هذه الكلمات . الأسرار تهرب القلب ، كما عبرت عن ذلك تعبيراً غير صحيح ، ولكننى أفهم ... ان ما يدهشنى هو أنك تعرف وتدرى أموراً أكثر مما تستطيع التعبير عنه . ولكن كأنك تتكلم وأنت فى حالة هذيان ...

أفلتت منى هذه الجملة وأنا أرى عينيه المحمومتين ووجهه الشاحب . ولكن أظن أنه لم يسمعنى .

واستأنف كلامه فقال كمن يتابع كلامه الذى انقطع :

- هل تعرف يا بنى الصغير أن لذكرى الانسان على هذه الأرض حداً ؟ ان هذا الحد لا يتجاوز مائة سنة . قد تبقى ذكرى المرء عند أولاده أو أحفاده الذين رأوا وجهه . واذا بقيت ذكراه مدة أطول ، فانما تكون بعد ذلك ذكرى شفوية ، ذكرى عقلية ، لأن جميع الذين رأوا وجهه الحى سوف يمضون وسوف يخفى العشب قبره فى المقبرة ، وتنكسر الشهادة ، وينساه جميع الناس حتى أعقابه ، وأخيراً ينسون اسمه أيضاً ، لأن الذين

تبقى اسمائهم فى ذاكرة البشر قلة قليلة جداً • لا بأس ! فليسى
أعزائى • ولكننى سأظل أنا أحبهم من قرارة قبرى • أيها الأولاد الصغار ،
اتنى أسمع أصواتكم الفرحية ، وأسمع أصوات وقع أقدامكم على قبور
آبائكم فى يوم عيد الأموات ، وسوف أصلى من أجلكم ، وسوف أنزل
اليكم فى أحلامكم ••• ان الحب يبقى بعد الموت ! ••

كنت فى حمى مثله • وبدلاً من أن أنصرف أو أن أحضه على أن
يهداً ويسكن ، أو أن أرقده فوق سريرى ، لأنه كان يبدو فى حالة هذيان
كامل ، أمسكت يده فجأة ، وقلت له وأنا أميل عليه وأشد على يده ،
قلت له بهمس متأثر ودموع فى القلب :

- انتى سعيد برؤيتك • لعانى كنت أنتظرك منذ مدة طويلة •
لا أحب أحداً : ليس فى أحد منهم جمال •• لن أتبعهم ، ولا أعرف
الى أين أذهب ، فسأبقى معك •••

ولكن شاء حسن الحظ ان تدخل أمى فى تلك اللحظة • فلولا ذلك
لما عرفت كيف كان يمكن أن ينتهى الأمر • دخلت دخول شخص استيقظ
الآن وأوجس خطراً • وكانت تحمل بيدها قارورة وملقحة حساء • فلما
رأتنا صاحت تقول :

- آ ••• توقعت هذا ! لقد نسيت أن أجرعك جرعة الكينا فهانت
ذا قد اعترتك حمى شديدة ! نمت مدة طويلة يا مكارا يفانوفتشى ،
يا عزيزى !

نهضت وخرجت • وأعطته أمى جرعة وأرقدته على السرير •
واندست أنا أيضاً فى سريرى ، ولكننى كنت مضطرباً أشد
الاضطراب • لقد رجعت الى غرفتى وأنا أشعر بدهشة كبيرة ، وأخذت
أفكر فى هذا اللقاء بكل ما أملك من قوة • لا أدري ماذا كنت أنتظر من

هذا التفكير • وأغلب الظن اننى كنت أفكر فى الأمور تفكيراً مشوشاً لا تسلسل فيه ، وأن ما كان يتلاحق فى ذهنى لم يكن أفكاراً بل شذرات أفكار • كنت فى اضطجاعى متجهاً برأسى الى الجدار ، فإذا أنا أرى البقعة المضيئة المتوهجة التى أسقطتها الشمس الغاربة على الزاوية ، والتى كنت أنتظرها من قبل ساخطاً لا عناء • اننى أتذكر أن نفسى كلها قد اشتعلت حماسة فى تلك اللحظة ، كأن شعاعاً جديداً قد نفذ الى قلبى • اننى أتذكر تلك اللحظة العذبة ، ولا أريد أن أنساها • لم تكن الا لحظة أمل جديد ، وقوة جديدة ••• كنت قد بدأت فترة النقاهة طبعاً ، فمن الجائز اذن أن تلك الثوبات لم تكن الا نتيجة لا مفرَّ منها لحالة أعصابى ، ولكننى ما زلت الى اليوم أو من بذلك الأمل المضيء الذى ملأ نفسى • ذلكم ما أردت اليوم أن أسجله وأن أحفظه • صحيح أننى كنت أعلم حق العلم أننى لن أصحب ماكار ايفانوفتش لأجوب الأرض مثله ، وأننى كنت أجهل أنا نفسى ماذا كان ذلك التطلع الجديد الذى استولى على نفسى ، ولكننى كنت قد نطقت بتلك الجملة ، ولو فى الهذيان : « ليس فيهم جمال ! » قلت أحدث نفسى مفتتاً : « انتهى الأمر ، سوف أبحث منذ هذه اللحظة عن الجمال ، وهم ليس فيهم جمال ، فسأتركهم » • وسمعت حفيفاً ورائى ، فالتفت • انها ماما ، تميل على وتنظر فى عينيّ مستطلعةً على خجل • فأمسكت يدها فجأة ، وسألتها دون أن أتوقع أنا نفسى ماذا كنت سأقول :

— لماذا لم تقولوا لى شيئاً عن ضيفنا العزيز ؟

فإذا بقلقها كله يختفى بغتةً ، وإذا الفرح يضيء وجهها ، ولكنها لم تجبنى الا بهذه الكلمات :

— لا تنس أيضاً ليزا ، ليزا • انك قد نسيت ليزا •

قالت ذلك بسرعة وقد احمر وجهها ، وهمت بالانصراف مستعجلةً ، لأنها كانت هى أيضاً تكره أن تبسط عواطفها • انها من

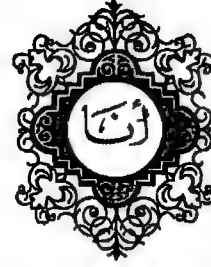
هذه الناحية تشبهني ، أعني أنها مغلقة على نفسها عفة • هذا عدا أنها ما كانت لتريد أن تتسرع في حديث معي عن هذا الموضوع : ماكار ايفانوفتش • كان ما استطعنا أن نتبادل من نظرات كافياً • ولكنني ، أنا الذي أكره أن أعرض عواطفى ، قد احتجزتها عنوةً باحدى يديّ ، وأخذت أنظر فى عينيها برقة ، وأضحك برفق ولطف ، والامس باليد الأخرى وجهها العزيز وخديها الحاسقتين • فعالت علىّ ، ووضعت جيئها على جيئى ، ثم قالت لى فجأة وهى تنتصب مشرقة المحيا :

- أبلّ من مرضك فأكون لك شاكرة • انه مريض ، مريض جداً • ان حياته بين يدي الرب • • آه ! ما هذا الذى قلته ؟ مستحيل ! • •

واصرفت • لقد ظلت طول حياتها خائفةً مرتعدة زاحرة النفس بالاحترام والتعظيم والتكريم لزوجها الشرعى ، الجوّاب ، ماكار ايفانوفتش ، الذى غفر لها الى الأبد بنفس كبيرة وقلب عظيم •

الفصل الثاني

١



ما نسيت ليزا • أخطأت ماما الظن • لقد رأيت
هذه الأم الحساسة أن هناك نوعاً من الفتور بين
الأخ وأخته ، ولكن هذا لم يكن وهنا طراً على
ما يربطهما من عاطفة ، وانما كان ضرباً من
الغيرة • وهانذا أشرح ما فى نفسى ببضع كلمات •

ان المسكينة ليزا قد انتابها مند اعتقال الأمير نوع من الاستعلاء
المتعطرس ، والتكبر الشديد الذى لا يكاد يحتمل • ولكن كل من فى
البيت قد أدرك الحقيقة ، فمرف أنها تعاني عذاباً قوياً ، ولئن حزنت أنا فى
أول الأمر وقطبت حاجبى ، فانما كان مرد ذلك الى ما أتصف به من سرعة
التأذى وفرط الحساسية ، وهما أمران زاد المرض حدتهما عندي ، أو هذا
ما أقدره الآن • ولكننى لم أنقطع عن حب ليزا أبداً • بالعكس : اشتد
فى نفسى ما كنت أحمله لها من حب • كل ما هنالك أننى لم أشأ أن أقوم
بالخطوة الأولى ، رغم أننى أدركت أنها هى أيضاً لن تقوم بالخطوة الأولى
فى حال من الأحوال ، مهما كلفها الأمر •

ان ليزا ، منذ عرفت قصة الأمير فور اعتقاله ، سارعت تتخذ منا ومن
جميع الناس موقف انسان لا يمكن أن يحتمل أن يرثى أحد لحاله أو أن
يشفق عليه أو أن يسرى عنه بمحاولة تبرئة الأمير • بالعكس : أصبحت ،
مع حرصها على ألا تفصح عما بنفسها وألا تجادل أحداً قط ،

تصطنع هيئة من يمجّد سلوك خطيئها المسكين ويعدّه بطولة ما بعدها بطولة .
لكأنها كانت تقول لنا جميعاً في كل لحظة (دون أن تنطق بكلمة ، أكرر
هذا) : « لا أحد منكم يمكن أن يفعل ما فعله هو أبداً . لا أحد منكم
يمكن أن يسلم نفسه مدفوعاً الى ذلك بدواعي الشرف والواجب . ذلك
أنكم لا أحد منكم يملك وجدانا يبلغ هذا المبلغ من الرهافة والطهارة .
أما عن أعماله فأى انسان من البشر لا تثقل على ضميره سيئة من السيئات ؟
الآخرون يكتمون ويخفون أما هو فقد آثر أن يهلك على أن يفقد
قيّمته في نظر نفسه . » ، ذلك ما كانت تسبرّ عنه كل حركة من حركات
ليزا تعبيراً واضحاً . وأظن أنني لو كنت في مكانها لتصرفت هذا التصرف
نفسه . ولا أدري هل هذه المعاني هي التي كانت راسخة في قراة قلبها ،
في أعماق نفسها : وأغلب الظن عندي أنها في النصف الآخر من عقلها ،
في النصف المضيء ، كانت تدرك حتماً كل تفاهة « بطلها » . فمن ذا الذي
يرفض اليوم أن يعترف أن هذا الانسان الذي يمكن أن يعد من
جهة أولى تيساً شقيّاً ، وأن يعد من جهة أخرى شهماً كرهه النفس
في نوعه ، قد كان في الوقت نفسه امرأ تافهاً كل التفاهة ؟ ان شدة
تأذيها نفسها ، وان تأهبها الدائم للتهجم علينا ، وان ما كانت
تحسه من اشتباه مستمر في أننا قد نرى فيه رأياً آخر ، ان ذلك
كله يدل على أنها في أعماق نفسها كان حكمها على صديقها حكماً آخر .
ومع ذلك أسارع فأضيف أنها في نظري كانت على حق ، أو على بعض
الحق في أقل تقدير . انها 'تعذر أكثر منا جميعاً اذا هي ترددت في
استخلاص نتيجة حاسمة ورأى قاطع . أنا نفسي أعترف من كل قلبي ،
بعد أن مضى وانقضى ذلك كله ، أنني لا أدري على وجه اليقين كيف
أحكم حكماً قاطعاً وكيف أقدّر تقديرًا حاسماً ذلك المسكين الذي جعلنا
جميعاً أمام لنز لا نعرف كيف نحله .

على أن المنزل قد استحال بسببها الى جحيم صغير • ان ليزا التي أحبت
حباً قوياً كان لابد أن تتألم كثيراً • وكانت بحكم طبعها تفضل أن تتألم
صامتة • ان طبعها يشبه طبعى ، أعنى ان يجنح بها الى التحكم
والتسلط والتكبر •• وقد اعتقدت دائماً ولا ازال أعتقد الى اليوم انها
قد أحبت الأمير مدفوعة الى ذلك بالرغبة فى التسلط والتحكم ، لان
الأمير كان بغير ارادة ، ولأنه منذ الكلمة الأولى ومنذ الساعة الأولى قد
خضع لها وانقاد لمشيئتها انقياداً تاماً • ذلك كله انما يتم فى القلب من تلقاء
نفسه بدون أى حساب سابق • ولكن هذا الحب الذى يحمله قوى لضعيف
يكون فى بعض الأحيان أعنف كثيراً وأبعث على الألم كثيراً من حب يقوم
بين اثنين متكافئين ، ذلك لأن القوى يتحمل تبعه صديقة الضعيف رغم
ارادته • أو هذا ما اعتقده أنا على الأقل • ولقد أحاطها أهل الدار منذ
البداية بأكبر المراقبة وأشد المداواة ، ولا سيما ماما • ولكنها لم ترف ،
ولم تستجب لهذه العاطفة ، وثابت على كل مساعدة • ولئن ظلت تكلم
ماما فى أول الأمر ، فانها أصبحت تبخل بالكلام مزيداً من البخل يوماً
بعد يوم ، وأصبحت أكثر فظاظة بل أكثر قسوة • وكانت تستشير فى
أول الأمر فرسيدوف ، ولكنها لم تلبث أن اتخذت فاسين مستشاراً لها
ومساعداً ، وهذا أمر أدهشنى حين عرفته فيما بعد • كانت تذهب كل يوم
الى فاسين ، وتركض الى المحاكم ، وتقابل رؤساء الأمير ، وتراجع
المحامين ووكيل النيابة • وفى النهاية صار ينقضى النهار كله دون أن يراها
أحد فى البيت تقريباً • وكانت تزور الأمير مرتين كل يوم طبعاً ، فى قسم
النبلاء من السجن الذى أودع فيه ، ولكن هذه اللقاءات كانت قاسية شاقة
على ليزا كما علمت ذلك من بعد • صحيح أنه ليس ثمة شخص ثالث
يمكن أن يعرف شئون حبيين معرفة تامة • ولكننى أعلم مع ذلك أن الأمير
كان يجرح شعورها جرحاً عميقاً فى بعض الأحيان • كيف ؟ بغيرة
لا تنقطع • أمر عجيب ! ان لنا الى هذه النقطة عودة • غير اننى أحب أن

أضيف هذه الفكرة : انه لمن الصعب ان يقطع المرء فى هذا السؤال :
أيهما كان يعذب الآخر تعذيباً أشد ؟ لعل ليزا التى كانت بيننا تعتر بطلها ،
لعلها كانت تعامله معاملة أخرى ، كما يجوز لى أن افترض ذلك على أساس
بمض الوقائع التى سنحجى على ذكرها فيما بعد أيضاً .

ففيما يتعلق بمواطنى وعلاقائى بأختى ليزا ، لم يكن كل ما يرى
ويلاحظ الا كذباً مقصوداً عنيداً من الطرفين كليهما ، والحق أننا لم
تتحاب يوماً كما تحابينا فى تلك الفترة . يجب أن أضيف شيئاً آخر هو
أن ليزا منذ أن جاء النسا ماكار ايفانوفتشى قد عاملته ، بعد الاستغراب
والفضول اللذين أحستهما فى اللحظة الأولى ، عاملته بنوع من الاحتقار
بل الاستعلاء ، وتعمدت أن تتظاهر بأنها لا توليه أى انتباه .

عاهدت نفسى اذن على التزام الصمت ، كما أوضحت ذلك فى الفصل
السابق ، وقدّرت نظرياً ، أى فى أحلامي ، أنتى سأنى بالمعهد طبياً .
نعم ، أنتى لأوثر ، مع فرسيلوف مثلاً ، أن أتحدث فى علم الحيوان ،
أو أن أتكلم عن أباطرة الرومان على أن أتكلم عنها ، أو عن ذلك السطر
من رسالته ، الذى يبلغها فيه أن « الوثيقة » لم تحرق بل هى موجودة ،
وأنها يمكن أن تظهر الى النور - ذلك السطر الذى أخذت أفكر فيه
بينى وبين نفسى فوراً منذ صحوت من غيبوبتى وعاد الى رشدى بعد
الحمى . ولكن وا أسفاه ! لقد أدركت منذ الخطوات العملية الأولى بل
قبلها تقريباً ، أدركت كم يصعب على المرء بل كم يستحيل عليه أن يتقيد
بهذه القرارات التى تصورها خياله . ان ظرقاً لم يكن فى الحسبان قد
هزنى هزاً قوياً رهيباً غداة لقائى بماكار ايفانوفتشى .

كان الظرف الذى هزنى هزاً قوياً هو زيارة داريا أونيسيوفنا ، أم الفتاة اولى التى انتحرت سنقاً . كنت قد عرفت من أمى انها جاءت مرتين أثناء مرضى ، وأنها كانت تهتم كثيراً بأبناء صحتى . أمن أجلى حقا انما جاءت تلك « المرأة الرائعة » كما كانت تصفها أمى بذلك دائماً ، أم هى جاءت لزيارة أمى فحسب ، جرياً على عاداتها ؟ اتنى لم أسأل عن هذا . لقد كانت أمى تقص على أحداث المنزل دائماً ، وكانت تقص على هذه الأحداث فى العادة حين تجىء لتطعمنى حسائى (قبل أن أصبح قادراً على تناول طعامى بنفسى) ، وذلك تسلياً لى وتسريةً عنى . وكنت أحرص فى كل مرة على أن أظهر أننى لا أحفل بما ترويه لى ، لذلك لم أسألها شيئاً من التفاصيل عن داريا أونيسيوفنا .

الساعة هى الحادية عشرة . وقد دخلت على داريا أونيسيوفنا حين كنت أهم . أن أنهض لأتقل الى مقعد بقرب المائدة . فلما دخلت تعمدت أن أبقى فى السرير . كانت أمى منهمكة بالعمل فوق ، فلم تنزل لترأها ، فأمكننا أن نبقى وحيدين . جلست قبالتى ، على كرسى بقرب الجدار ، تبتسم ولا تنطق بكلمة . وتوقعت أن يطول الصمت . وكان مجيئها يحدث فى نفسى ضيقاً وحنقاً واهتياجاً فى جميع الأوقات على كل حال . فلم ألتجئ اليها ولو بحركة من رأسى محيياً ، وظللت أهدق الى عينيها بنظرة ثابتة . ولكنها حدثت الى هى أيضاً .

وسألتها فجأة وقد نفذ صبرى :

- لا شك أنك تضجرين الآن وحيدة بعد غياب الأمير ؟

فأجابت تقول :

- لا ، اننى لا أقيم هنالك الآن • فأنا بفضل آنا آندريفنا ، أعنى
الآن بالطفل •

- أى طفل ؟

- طفل آندره بتروفتش •

قالت ذلك هامسة ، بلهجة البوح ، وهى تنظر الى الباب •

- ولكن هناك تاتيانا بافلوفنا •••

- بل تاتيانا بافلوفنا وآنا آندريفنا كلتا هما ، وكذلك اليزابت
ماكروفنا ، وأمك ••• انهن جميعاً يشاركن • وقد انعقدت الآن أوامر
صداقة قوية بين تاتيانا بافلوفنا وآنا آندريفنا •

هذا نبأ !

وكانت المرأة تتعش وتنشط أثناء كلامها • ونظرت اليها نظرة كره •

وقلت لها :

- أرى أنك الآن أنشط مما كنت عليه ابان زيارتك الأخيرة لى
فى بيتى •

- آ ••• نعم !

- وأظن أنك سمعت ؟

فألت على نظرة غريبة • ثم قالت :

- اننى أحبها كثيراً ، كثيراً •

- من هى ؟

- أنا آندريفنا طبعاً • أحبها كثيراً • اسانة نبيلة • عاقلة •••
- نعم • وكيف حالها الآن ؟
- هادئة جداً • هادئة جداً •
- كانت دائماً هادئة •
- صحيح • دائماً •

ونفذ صبرى فهتفت أقول لها فجأة :

- اذا كنت قد جئت الى لتروى لى أقاويل وتنقلى الى نمائم ،
فاعلمى اننى الآن لا أتدخل فى شىء • واننى عزمت على أترك كل شىء ،
وأن أترك جميع الناس ••• لقد استوت عندى الأمور كلها : اننى راحل !
قلت ذلك وصمت اذ تاب الى رشدى • اننى لا أريد أن أهبط الى
حيث أشرح لها أهدافى الجديدة • وقد أصغت الى بدون اندهاش وبدون
اضطراب • ولكن خيم صمت جديد • ثم اذا هى تنهض فجأة • فتسجه
نحو الباب • وتلقى نظرة على الترفة المجاورة • حتى اذا اطمأنت الى أن
الغرفة خالية ليس فيها أحد • وأنسا وحيدان • رجعت بهدوء شديد •
وعادت تجلس فى مكانها نفسه •

قلت وأنا انفجر ضاحكاً :

- شىء لطيف !

سألتنى فجأة وهى تميل على قليبلاً وتخفض صوتها كأن هذا هو
السؤال الأساسى الذى من أجله جاءت :

- مسكنك عند ذلك الموظف • أتتوى أن تحتفظ به أم لا ؟

- مسكنى ؟ لا أعرف • قد أتركه ••• ما يدرينى ؟

- ذلك أن السكان ينتظرونك • الموظف ينتظرك بفارغ صبر ،
وكذلك زوجته ... • ولقد أكد لهما آندره بترفش أنك عائد حتماً •

- ولكن فيم يهيك هذا الأمر ؟

- آنا آندريفنا أيضاً تريد أن تعرف • لقد سرّها كثيراً أن تعلم
أنك باق •

- من أين جاءت هذه الثقة باننى سأبقى فى ذلك المسكن ؟

وهممت أن أسألها : « وما شأنها هى فى هذا الأمر ؟ » ولكننى
امتنعت عن القاء هذا السؤال تكبراً واستعلاء •

- أكدّه لها مسيو لامبير •

- من ؟

- مسيو لامبير • هو أيضاً أكدّ لآندره بترفش تأكيداً قاطعاً بأنك
باق ، وطمأن كذلك آنا آندريفنا •

اضطربت اضطراباً شديداً • ما هذه القصة أيضاً ؟ اذن أصبح
لامبير يعرف فرسيلوف • اذن وصل لامبير الى فرسيلوف ! لامبير
وآنا آندريفنا : وصل لامبير حتى الى آنا آندريفنا ! واتابتنى حمى • لكننى
صمت • وأغرق نفسى سيل رهيب من صلف ، صلف أو شيء آخر •
المهم أننى كنت كمن يقول لنفسه : « اذا طلبت كلمة ايضاح واحدة ،
كنت أقحم نفسى فى هذا العالم من جديد ، فلا أتركه بعد ذلك أبداً » •
واشتمل فى قلبى كره شديد • وقررت جازماً أن أصمت ، ولبثت فى
سريرى ساكناً لا أتحرك • ولبثت هى أيضاً صامتة خلال دقيقة كاملة •

سألته فجأةً بغير تمهيد :

- كيف حال الأمير نيقولا ايفانوفتش ؟

ألقيت هذا السؤال بلهجة قوية لأغير موضوع الحديث ، فإذا أنا ألقى السؤال الأسسى اعتباطاً كمن فقد عقله ، فأرجع كالمجنون الى ذلك العالم الذى كنت قد قررت مهتاجاً أن أهرب منه •

قالت :

— هو فى تساركويه سيلو • انه مريض قليلاً • المدينة ملأى الآن بهذه الحميات نصحه الجميع أن يعتزل فى تساركويه سيلو بمنزله هناك نشدانا للهواء النقى •

لم أجب • وأردفت هى تقول :

— تزوره آنا آندريفنا والجنرالة كل ثلاثة أيام • تذهبان اليه معاً •
آنا آندريفنا والجنرالة (أى « هى ») صديقتان ! تذهبان اليه معاً !

لم أقل شيئاً •

— ذلك أنهما أصبحتا صديقتين جداً • وآنا آندريفنا تمدح كاترين
يقولايانا كثيراً •••

بقيت صامتاً •

— عادت كاترين يقولايانا الى ولعها بالمجتمع ، فهى تنتقل من حفلة الى حفلة ، تتلأأ ••• بل يقال ان كثيراً من رجال البلاط بهيمون بحبها ، أما السيد بيورنيج فقد انقطع الحبل بينه وبينها ، فلن يتم الزواج •
ذلك ما يؤكد جميع الناس ••• منذ تلك المرة •••

أرادت أن تقول : منذ وصول رسالة فرسيلوف • وقد ارتعدت ، لكننى لم أقل كلمة واحدة •

— ما أشد اشفاق آنا آندريفنا على الأمير سرجى بتروفتش ! وكذلك

كاترين نيقولايفنا ! انهما تتحدثان عنه دائما ، ونقولان ان القضاء
سيبرئه وسيحكم على الآخر ، ستيلكوف ..

نظرت اليها نظرة تفيض كرهاً • ونهضت فجأة ومالت علىّ تقول لى
بهمس :

- أوصتنى آنا آندريفنا بأن أستفسر عن صحتك ، وأمرتني أن
أرجوك أن تذهب اليها متى خرجت ، فأرجو أن تبسل من المرض •
استودعك الله •

وخرجت • فجلست على سريري • وأخذ عرق بارد يتصبب فى
جبينى • غير أن ما شعرت به لم يكن قلقاً • ان هذا النبأ الكريه الذى
لم أستطع أن أفهمه ، هذا النبأ عن لامبير ومكائنه ، لم يروّعنى كما
كانت تروعننى أثناء مرضى وفى الأيام الأولى من نقاهتى ، ذكرى لقائى به
فى تلك الليلة • حتى اننى فى تلك اللحظة الأولى من الاضطراب المبهم
الذى أعقب انصراف داريا أونيسيوفنا ، لم يتلبث فكرى على لامبير ...
وانما استولى على ذهنى ما أنبأتنى به داريا عن القطيعة التى وقعت بين
كاترين نيقولايفنا وبين بيورنيج ، وعن سعادة كاترين فى المجتمع ، وعن
الحفلات التى تتنقل بينها ، وعن النجاح الذى تلقاه ، وعن تألقها • لقد
قالت داريا أونيسيوفنا « انها تتألاً » • وشعرت فجأة بأننى عاجز عن
اتزاع نفسى من هذا الاعصار ، رغم اننى استطعت أن أتجلد وأصمت ،
وألألقى على داريا أسئلة بعد الأشياء المذهلة التى روتها لى • واجتاحنى
ظماً شديداً الى تلك الحياة ، « حياتهم » ، و ... واجتاحنى كذلك ظماً
آخر لذبد عذب ، لا أدري ما هو ، ظماً أحسسته كالسعادة وأحسسته
كالعذاب • وطفقت أفكارى تدور فى رأسى كزوبعة • وتركت لها أن
تدور هذا الدوران ! كنت أقول لنفسى : « علام التفكير ؟ » • ثم جعلت
أفكر تفكيراً منقطعاً لا تسلسل فيه ، فأقول لنفسى : « ان أمى نفسها قد

أخفت عني مجيء لاميير • ذلك أن فرسيلوف أمرها أن تسكت • اننى
أفضل أن أموت على أن أسأل فرسيلوف عن لاميير بحال من الأحوال ! •
ثم عدت أقول : « فرسيلوف ! فرسيلوف ولاميير ! أوه ! ما أكثر ما حدثت
من أمور جديدة عندهم ! ما أكرر فرسيلوف هذا ! لقد أخاف ذلك الألماني
بيورنيج بتلك الرسالة • لقد أذاع فى حقه النائم • • • » النسيمة لايد
أن يبقى منها شئ ، دائماً • • خاف الرجل من الفضيحة • آه • • آه • •
درس حسن لها ! • لاميير ! ولكن ألا يكون لاميير قد وصل إليها هي
أيضاً • لا بد أنه وصل إليها حتماً ! ما عسى يحملها على أن ترفض عقد
صلة به ؟ •

وهنا كفت فجأة عن ادارة هذه الأفكار المضطربة المشوشة فى ذهنى ،
وهويت برأسى على الوسادة من شدة الكرب واليأس • ثم صحت أقول بعزم
مباغت : « ولكن لا ! » ووثبت عن سريرى ودسست قدمى فى الباججين ،
وألقيت على ثوب المنزل ، ومضيت قدوماً الى ماكار ايفانوفتش كأن الشفاء
من هذه الأفكار التى تحاصرني انما يجب أن ألتمسه عنده ، كأن لديه
النجاة والخلاص ، كأن عنده المرساة التى أستطيع أن أتشبث بها
فلا أغرق •

وأغلب الظن أننى أحسست بهذه الفكرة احساساً قوياً ، والا فهل
كنت أنهض هذا النهوض الذى لا سبيل الى مقالبته ، وهل كنت أسرع الى
ماكار ايفانوفتش وأنا على ما أنا عليه من تلك الحالة النفسية المضطربة ؟

لكننى وجدت عند ماكار ايفانوفتش زواراً لم أكن اتوقعهم : ماما والدكتور . ولأننى كنت أتصور حين مضيت الى الشيخ أننى سألقاه وحيداً كما حدث أمس ، فقد وقفت فى العتبة متحيراً تحيراً غيباً . ثم ما ان قطبت حاجبى حتى وصل أيضاً فرسيلوف ، ووصلت وراءه ليزا . التأم الشمل كله اذن عند ماكار ايفانوفتش « فى وقت غير مناسب » !

قلت وأنا اتجه الى ماكار ايفانوفتش رأساً :

- جئت أسأل عن صحتك .

- شكراً يا ابنى ، كنت أعلم أنك ستأتى ! هذه الليلة أيضاً فكرت فيك .

وكان ينظر فى عبنى برقة وحنان ، فرأيت أنه ربما كان يحببنى أكثر من الآخرين جميعاً . ولكننى لاحظت فوراً برغم ارادتى أنه اذا كان وجهه فرحاً فان مرضه قد تفاقم فى الليل كثيراً . وكان الطبيب قد فحصه منذ لحظة فحصاً دقيقاً جداً . وقد علمت فيما بعد أن هذا الطبيب (وهو الطبيب الشاب الذى تشاجرت معه يداوى ماكار ايفانوفتش منذ وصوله) قد عامل مريضه بكثير من الاهتمام ، وهو يشخص لديه جملة معقدة من الأمراض المتنوعة لا أستطيع أن أسميها بلقمتهم الطبية . وقد انعقدت بين ماكار ايفانوفتش وبين الطبيب علاقات فيها كثير من الصداقة كما أدركت

ذلك منذ أول نظرة ، فلم يعجبني هذا كثيراً فى تلك اللحظة • ثم اتنى
كنت آتذّ معتكر المزاج جداً •

سأل فرسيلوف قائلاً :

– فماذا يا الكسندر سيمونوفتش ؟ كيف صحة مريضنا العزيز
اليوم ؟

لولا أننى كنت مضطرباً لجعلت أول همى أن أدرس ، باهتمام
شديد وشغف كبير ، علاقات فرسيلوف مع هذا الشيخ • وقد خطر
ذلك ببالى منذ الأمس • والشئ الذى خطف بصرى الآن خاصة هو ما كان
يعبر عنه وجهه فى الظاهر من لطف وبشاشة • أظن أننى سبق أن أشرت
الى أن هيئة فرسيلوف تصبح جميلة جداً مدهشاً متى كان بسيطاً بعض
البساطة •

أجاب الطبيب يقول :

– نحن لانفتأ نتشاجر •

– تشاجر مع ماكار ايفانوفتش ؟ لا أصدق شيئاً من هذا :
لا يستطيع المرء أن يتشاجر معه •

– لكنه لا يريد أن يعطينى : انه لا ينام الليل •••

– دعك من هذا الكلام يا ألكسندر سيمونوفتش ، كفى تقريباً !

كذلك قال ماكار ايفانوفتش ضاحكاً • وتابع كلامه سائلاً
آندره بتروفتش :

– هيه آندره بتروفتش العزيز ؟ ما صنعت بآستنا ؟

ثم أضاف وهو يشير الى أمى :

– لقد ظلت مضطربةً قلقة طول الصباح •

فهتفت أمى تقول بقلق شديد فعلاً :

- نعم يا آندره بتروفتش ، حدثنا بسرعة عما فعلوا بصاحبتنا
المسكينة ! ماذا قرروا فى حقها ؟

فقال :

- حكموا عليها •

- أوه !

- هدنى روعك ، لن تنفى الى سيبيريا : حكموا عليها بدفع غرامة
مقدارها خمسة عشر روبلاً • مهزلة !

قال ذلك وجلس • فجلس الطيب أيضاً • كانوا يتكلمون عن
تاتيانا بافلوفنا • ولم أكن أعرف شيئاً عن تلك القصة بعد • كنت على
يسار ماكار ايفانوفتش • وجلست ليزا أمامى على اليمين • كان واضحاً
أنها تعاني ألماً خاصاً جاءت تنفى به الى أمى • كان وجهها ينم عن اضطراب
واستياء • وقد تبادلنا نظرة فى تلك اللحظة ، فقلت لنفسى فجأة : « كلانا
تلتطح شرفه ، وعلىّ أنا أن أقوم بالخطوة الأولى نحوها » • لقد رقّ قلبى
لها فجأة • وفى تلك الأثناء أخذ فرسيلوف يروى ما جرى فى الصباح •

لقد مثلت تاتيانا بافلوفنا فى هذا الصباح أمام قاضى الصلح مع
طباختها • وكانت القضية مضحكة جداً • سبق أن ذكرت أن الفنلندية
المتعبة كانت اذا غضبت تلزم الصمت فى بعض الأحيان أسابيع متصلة فما
تجيب بكلمة واحدة على أسئلة مولاتها • وذكرت أيضاً أن تاتيانا بافلوفنا
ضعيفة تجاهها ، فهي تحتمل منها كل شئ • ولا يمكن أن تطردها من
خدمتها بحال من الأحوال • ان جميع هذه النزوات النفسية التى تلاحظ
فى العواصى أمور تستحق الاحتقار فى نظرى ولا تستحق أى اهتمام ،
واذا كنت قد قررت أن أروى هذه القصة هنا ، فأنما يدغمنى الى ذلك

ان هذه الطباخة سيكون لها فى روايتى دور مشوم لا يمكن اغفاله •
وأعود الى حكايتها فأقول ان تانيا بافلوفنا قد نفذ صبرها أخيراً وضافت
ذرعاً بهذه الفنلندية العنيدة التى لم تجب عن أسئلتها بكلمة واحدة منذ
عدة أيام ، فاذا هى تضربها فجأة وذلك ما لم يسبق أن حدث من قبل أبداً •
وقد صمتت الفنلندية عندئذ ولم تقل شيئاً ألبتة بل لم يصدر عنها أى
صوت ، ولكنها اتصلت فى ذلك اليوم بنفسه بمستأجر كان يقيم فى مكان
يطل على سلم الحدم نفسه ، تحت ، وهو الملازم البحرى المتقاعد
أوستروف الذى كان يعمل وسيطاً فى جميع أنواع القضايا ، وكان يرفع
الى المحاكم قضايا من هذا النوع ، طلباً للرزق فى الكفاح من أجل البقاء •
وكانت النتيجة أن طلبت تانيا الى المتول أمام قاضى الصلح ، واستدعى
فرسيلوف شاهداً •

روى فرسيلوف هذه الحكاية كلها بلهجة بلغت من المرح والطرب
أن أمى نفسها أخذت تضحك • وقد قلد شخصيات تانيا بافلوفنا والملازم
البحرى والطباخة • فذكر كيف أعلنت الطباخة للقاضى أنها تطالب بتعويض
مالى وكيف عقت على ذلك قائلة : « والا فلمن أهيمىء العشاء اذا هى
'سجنت ؟ ' • وروى كيف أن تانيا بافلوفنا قد أجابت عن أسئلة القاضى
بكثير من التكبر حتى انها أبت أن تبرز فعلتها وانتهت الى القول :
« ضربتها ولسوف أضربها أيضاً » ، فكان أن 'حكم عليها بغرامة قدرها
ثلاثة روبلات لعدم توقيعها القاضى • وأخذ يصف الملازم البحرى ، وهو
شاب متخلع المشى نحيل الجسم ، فذكر كيف اندفع يلقي خطاباً طويلاً
فى مدح صاحبه الطباخة ، ولكنه لم يلبث أن ارتبك ارتباكاً مخجلاً
فأخذت القاعة كلها تضحك • وسرعان ما انتهت المناقشات فحكم على تانيا
بافلوفنا بأن تدفع خمسة عشر روبلاً لطباختها ماري ، التى أسادت اليها
وأهاتها • فما كان من تانيا بافلوفنا الا أن استلت محفظة نقودها فوراً

بدون انتظار ، وعدت المبلغ ، فاذا بالملازم البحرى ينبجس حالاً ويمد يده ، ولكن تاتيانا بافلوفنا دفعت يده بقوة حتى كادت ان تضربها ضرباً ، والتفتت نحو ماري تريد ان تنقدها المبلغ ، فقالت لها ماري : لا تكثرني يا سيدتي ، وأضيفي المبلغ الى حسابي ، أما هذا السيد فساقوم أنا بدفع أجره له ، فقالت تاتيانا بافلوفنا : « أرايت يا ماري ما أغبى الرجل الذى اتخذه مدافعاً عنك ؟ » قالت تاتيانا بافلوفنا ذلك وهى تومئ الى الملازم البحرى ، فرحةً أعظم الفرح بأن ماري قد فتحت فمها أخيراً . فأجابت ماري وهى تنظر نظرة مأكرة : « هو غبى فعلاً يا سيدتي . أظن أنك أمرتني اليوم بأضلاع مشوية وبإزلاء ، أليس كذلك ؟ اننى لم أسمع كلامك حين كنا فى البيت اذ كنت استعجل المجيء الى هنا . » فأجبتها تاتيانا بافلوفنا : « بل أمرتك بأضلاع وكرومب يا ماري ، واياك أن تحرقها كما فعلت أمس ! » فقالت ماري : « سأكون شديدة الانتباه يا سيدتي ، ولا سيما اليوم . هاتى يدك » . وقبلت ماري يد مولاتها دليلاً على المصالحة . فكانت الصالة كلها أثناء ذلك تضحك .

— يالها من امرأة غريبة الأطوار !

كذلك قالت ماما وهى تهز رأسها ، راضية مع ذلك بالنبا ، مقتبطة أيضاً بما قصه آندره بتروفتش . ولكنها كانت تختلس النظر الى ليزا قلقة .

قال ماكاز ايفانوفتش وهو يضحك :

— هكذا كانت الأنسة منذ طفولتها .

فقال الدكتور :

— هذا من أثر الصفراء والفراغ .

— اياى تعنون ؟ عنى تجيئون على ذكر الصفراء والفراغ ؟

ان تاتيانا بافلوفنا هى التى دهمت الغرفة ، وكان واضحاً أنها راضية
عن نفسها جداً • وأردفت تقول مخاطبة الطبيب :

- يا ألكسندر سيمينوفتش ، خير لك ألا تقول هذه السخافات •
لقد عرفنى حين لم تكن قد بلغت العاشرة من عمرك ، فلا بد أنك تعلم
هل أنا فى بطلالة وفراغ حقاً • أما عن الصفراء فانك تداوينى منذ سنة
كاملة ولا تفلح فى شفائى • كان عليك أن تخرجل من هذا ! هيناً هيناً ،
لقد سخرتم منى سخرأ كافياً • شكرأ يا آندره بتروفتش لأنك رضيت
أن تجيء الى المحكمة شاهداً • أما أنت أيها العزيز ماكار ، فمن أجلك
انما جئت • لقد جئت لأعودك أنت لا لأعود هذا (أشارت الىّ ، ولكنها
لم تلبث أن ربت على كفى بمودة • اننى لم أرها مشرقة المزاج الى هذا
الحد فى يوم من الأيام) •

وختمت كلامها تقول وهى تلتفت فجأة الى الطبيب وتقطب حاجبيها
مهمومة :

- فماذا يا دكتور ؟

- لا يريد أن يبقى رافداً ، وهو بالجلوس يرهق نفسه •

فجمعهم ماكار ايفانوفتش يقول بهيئة متضرعة كطفل :

- ولكنها لحظة نقضيها مع الاصدقاء ••

فانبرت تاتيانا بافلوفنا تقول :

- نعم نحن نحب هذا ، نحب أن نثرثر مع الناس ؛ نحب أن

يتعلق حولنا جمهور • اننى أعرف صاحبنا ماكار •

وابتسم الشيخ مرة أخرى وقال ملتفتاً الى الطبيب :

- وما أشد اصراره • انتظر قليلاً ، دعنى أتكلم : لسوف أرقد على

السريـر ، ولكن المثل عندنا يقول : « من يرقـد فقد لا ينهـض » • ذلك بعينه هو ما يـرـبـص بـى يا صديقى -

- هوـه ! هـى الأوهام الشعبية ما تنفك تنشش فى عقولنا « اذا رقدت فقد لا أنهض » ، ذلك ما تخشاه عامة الشعب فى أكثر الأحيان ، فيؤثر الرجل أن يقضى فترة مرضه واقفاً على أن يذهب الى المستشفى • أما أنت يا مكار ايغانوفتش فان ما يستولى على نفسك الآن هو الضجر ، هو التحسر على الحرية ، هو الشوق الى السفر والتجول والتجواب • مرضك كله هو أنك فقدت عادة المكث فى مكان • نعم ، ان التشرد ضرب من هوى جارف يستبد بشعبنا • لاحظت هذا مراراً • ان شعبنا هو أكثر شعوب الأرض حياً للتشرد •

قلت ثانياً بافلوفنا :

- فى رأيك اذن أن مكار متشرد ؟

- لا ، ليس متشرداً بهذا المعنى • لقد استعملت الكلمة بمعناها العام • ان مكار متشرد عن تدين وتقى ، ولكنه متشرد على كل حال • صحيح أنه متشرد بمعنى حسن ، بمعنى نبيل ، ولكنه متشرد •• من وجهة النظر الطيبة •••

التفت فجأة نحو الدكتور ، وقلت :

- أؤكد لك أننا أنا وأنت وسائر الحضور هنا ، أولى بأن 'نعد' متشردين من هذا الشيخ الذى يحق له أن يلقتنا كثيراً من الدروس لأن له فى حياته مبدأ ثابتاً ، أما حياتنا نحن جميعاً فتتشرد على غير هدى فى كل اتجاه •• ولكنك فى الواقع لا تستطيع أن تفهم !

لا شك أنتى تكلمت بخشونة ، ولكن من أجل هذا انما جئت

والحق أننى لا أدرى لماذا بقيت ، ولكننى كنت خارجاً عن طورى حتى
لكأتى جنت .

فنظرت الى تاتيانا وقد بدا فى هيئتها الاشتباه ، وقالت تسألنى :
- ماذا أصابك ؟

ثم قالت تسأل ماكار ايفانوفتش مشيرة بيدها الى :
- كيف تعجده ؟

فأجاب ماكار ايفانوفتش :

- باركه الله . ان له فكراً متقدماً .

ولكن الحضور ما أن سمعوه يصفى بأن لى فكراً « متقدماً » حتى
طفقوا يضحكون . فكلمت غيظى . وكان الدكتور أشدهم ضحكاً .
من المؤسف أننى كنت أجهل فى ذلك الحين ما كانوا قد تواطئوا عليه .
ان فرسيلوف والطبيب وتاتيانا بافلوفنا قد تعاهدوا ، قبل ثلاثة أيام ، على
أن يصرفوا أمدى عن توجساتها السيئة وأن يبعدوها عن مخاوفها على ماكار
ايفانوفتش الذى كان مرضه أخطر كثيراً وأشد استعصاءً على المداواة مما
كنت أظن حينذاك . ذلك هو السبب فى أن الجميع كانوا يمزحون وكانوا
يحاولون أن يضحكوا . غير أن الطبيب كان أحق ، وكان بطبيعته
لا يعرف كيف يمزح . هذا هو السبب فى كل ما أعقب ذلك . فلو كنت
على علم بما اتفقوا عليه لتصرفت تصرفاً آخر . وكانت ليزا لا تعلم أيضاً .

ظللت أصغى بجزء من سمعى ، فكانوا يتكلمون ويضحكون ؛ أما أنا
فكان رأسى مشغولاً بشئ آخر : داريا أوتيسيموفنا وما ذكرته لى من أنباء ؛
وكنت لا أستطيع أن أتحرك مما كان يدور فى رأسى . انها تترامى لها هناك ،
جالسة تنظر الى ، ثم قائمة بحذر لتلقى نظرة على الغرفة الأخرى .

وانفجروا يضحكون ضحكاً عالياً على حين فجأة • كانت تاتيانا بأفلوفنا قد وصفت الطبيب بأنه ملحد قاتلة له : « هذا معروف ، ما أنتم جميعاً يا أطباء النحس الا ملاحدة » •

فهتف الدكتور يقول منظاهراً تظاهراً غيباً بأنه أمين ، مطالباً بأن 'ينصف :

— ماكارا ايفانوفتش ! هل أنا ملحد ؟ نعم أم لا ؟

— أنت ملحد ؟ لا ، لست ملحدآ !

بذلك أجابه الشيخ وهو يحدق اليه بنظرة ثابتة ، وأضاف يقول هائزاً رأسه بوقار :

— لا ، الحمد لله • أنت انسان مرح •

فسأله الدكتور بسخرية :

— واذا كان الانسان مرحاً فلا يمكن أن يكون ملحدآ ؟

قال فرسيلوف بدون أن يضحك :

— هذا رأى !

فهتفت أقول على غير ارادة منى وقد فتنت بهذه الفكرة :

— رأى قوى !

وكان الطبيب ينظر فيما حوله مستفهماً •

فبدأ ماكارا ايفانوفتش يتكلم فقال وقد خفض عينيه قليلاً :

— هؤلاء المثقفون ، هؤلاء الأساتذة (أغلب الظن أنهم كانوا قد قالوا شيئاً عن الأساتذة من قبل) كنت فى البداية أخشاهم كثيراً : كنت اذا لقيتهم أنهيهم ، لأننى لا أخاف أحداً كما أخاف الملاحدة • كنت أقول

لنفسى : « انى لا أملك الا نفساً واحدة ، فاذا ضيعتها فلن أجد عنها عوضاً » ، ولكننى استرددت شجاعتى بعد ذلك فقلت لنفسى : هياً ، ما هم آلهة على كل حال ، هم بشر مثلنا ، لهم ما لنا من أهواء ! » ثم استبد بى حب الاطلاع قوياً شديداً ، فقلت لنفسى : « أريد أن أعرف أخيراً ما الاحاد » . ولكن حب الاطلاع هذا قد انقضى هو أيضاً يا صديقى .

صمت ماكار ايفانوفتش لحظة ، ولكنه ظل عاقداً عزمه على الكلام ، مبسماً تلك الابتسامة الوقور الرصينة نفسها . ان هناك سذجاً يركنون الى جميع الناس والى كل انسان دون أن تخطر السخريه لهم ببال . هؤلاء يكونون 'سذجاً' ، فهم مستعدون لأن يخرجوا من قلوبهم أثمن ما تخفى . ولكن يبدو لى أن ماكار ايفانوفتش كان يتصف بشيء آخر غير السذاجة وأن براءة البساطة لم تكن هى الشيء الوحيد الذى يدفعه الى الكلام . انه يملك شيئاً من صفات الدعاة . ولقد سرّنى أن ألاحظ فيه استهزاءً لا يخلوا حتى من بعض المكر ، تناول به الدكتور ، وربما فرسيلوف أيضاً . وكان واضحاً أن هذا الحديث تمة لأحاديث سابقة جرت بينه وبينهم هذا الأسبوع . ولكن شاء سوء الحظ أن تفلت تلك الكلمة المشثومة التى كهربتى بالأمس ، فأهاجتى اليوم هيجاناً مازلت آصف له .

تابع الشيخ كلامه متجمع الفكر فقال :

- « الملحد - الانسان » ، ربما كنت أخشاه الى الآن . ولكن هذا الملحد - الانسان ، يا ألكسندر سيمينوفتش ، لم يتفق لى أن لقيه مرة واحدة فى يوم من الأيام ، وانما أنا لقيت « الملحد - المشوش » . نعم هكذا يجب ان يسمى . أناس من كل نوع ، لا يستطيع المرء حتى أن يرى رؤية واضحة من هم . بينهم كبار وصغار ، وبينهم حمقى وعلماء ،

وبينهم حتى افراد من عامة الشعب • وهم جميعا مشوشون • انهم يقضون حياتهم كلها فى القراءة والاستدلال والتفكير ، وقد امتلأت نفوسهم افتئانا بالكتب ، ولكنهم يظلون دائماً فى الشك ، ولا يستطيعون أن يميزوا أمرهم على شئ • منهم من تبشروا تبشراً تاماً فأصبحوا لا يلاحظون أنفسهم ، ومنهم من جمدوا فكانوا كالصخر على امتلاء قلوبهم بالأحلام • ومنهم خفاف يحسون ولا يكثرثون ولا يهمهم الا أن يطلقوا السخريات تلو السخريات • ومنهم لا يقطعون من الكتب الا الزهرة ، ولكنهم يقطعون الزهرة التى يريدون ، ثم يظلون مشوشين لا يستقرون على حال • اسمع ما سأقوله لك : ان فى هذا كله ضجراً كثيراً • الانسان البسيط يعيش فى عوز ، فهو فى حاجة الى خبز ، ولا يملك ما يقدمه للصغار ، وينام على قش خشن ، ولكن قلبه فرح خفيف دائماً • قد يرتكب خطايا ويقول كلاماً غليظاً ، ولكن قلبه يبقى مرحباً خفيفاً • أما الانسان الذى له شأن خطير فهو يتملأ شراباً وطعاماً ، وينام على أكداس ذهب ، ولكن قلبه يبقى مترعاً بالضجر • ان بين هؤلاء من طافوا بجميع العلوم ، ولكن الضجر بقى فى قلوبهم • أعتقد أن الانسان كلما كان أكثر فكراً كان أكثر ضجراً • انظر فى هذه النقطة : لقد وجد التعليم منذ وجد العالم • فهل جاء التعليم بما يجعل مسكناً جميلاً عامراً بالأفراح ؟ بل اننى لأقول لك : انهم ليس فيهم جمال ، ولا يريدون الجمال • هم جميعاً أموات ، ولكن كلاً منهم يتباهى بموته ، ولا يخطر بباله أن يتجه الى الحقيقة « الوحيدة » • أن يعيش المرء بغير اله فذلك عذاب • وربما لعن البشر ما قد ينير لهم الطريق ، حتى دون أن يفتنوا الى ما يفعلون • أين العقل والحكمة فى هذا ؟ ان الانسان لا يستطيع أن يعيش بغير سجود • بغير سجود لا يمكن أن يحتمل الانسان نفسه • ما من أحد قادر على هذا • فإذا جحد الله سجد لمعبود من خشب أو من ذهب ، أو سجد لمعبود صنعه له الخيال • انهم جميعاً وثنيون لا ملحدون • هكذا يجب أن نسميهم • ولكن كيف لا يكون

هناك ملحدون ! ان بعض الناس ملحدون حقاً ، وهؤلاء ابعث على الخوف
والرهبة من الآخرين ، لأن اسم الله مائل في أفواههم دائماً • سمعت عن
هؤلاء مراراً ، ولكنني لم ألق أحداً منهم يوماً • هم موجودون يا صديقي ،
وأظن أنهم لابد أن يوجدوا •

انبرى فرسيلوف يقول مؤيداً :

– موجودون يا مكارا يفانوفتش و « لابد أن يوجدوا » !

– موجودون حتماً و « لابد أن يوجدوا » !

أفلتت مني هذه الجملة بنير ارادني حارةً ملتهبةً لا أدري لماذا •
ولكن لهجة فرسيلوف كانت قد أهاجتني ، كما أن فكرةً فنتتني في قوله :
« لابد أن يوجدوا » • ماكنت أتوقع هذا الحديث أبداً • وحدث في تلك
اللحظة شيء لم يكن بالمتوقع البتة أيضاً •

كان النهار مضيئاً جداً • وقد جرت العادة في غرفة ماكار ايفانوفتش أن تسدل الستارة طول النهار بأمر من الطيب • غير أن ما كان مسدلاً على النافذة لم يكن ستارة بل حجاباً ، فلم يكن أعلى النافذة مغطى • ذلك أن الشيخ تضايق حين كان لا يرى الشمس أبداً بسبب الستارة القديمة • وقد بقينا معه الى أن سقط شعاع من الشمس على وجهه رأساً • واذ كان منهمكاً في الحديث فانه لم ينتبه الى ذلك في أول الأمر ، ولكنه أشاح وجهه مراراً بغير شعور وهو مستمر في الكلام ، لأن الشعاع الساطع كان يضايقه ويهيج عينيه المريضتين • وكانت أمي وافقةً أمامه ، فنظرت الى النافذة عدة مرات في قلق • وكان ينبغي أن تغطي النافذة تماماً ، ولكن أمي ، من حرصها على ألا تقطع جمل الحديث ، بدا لها أن ترحزح المقعد الذي كان يجلس عليه ماكار ايفانوفتش ، أن ترحزحه نحو اليمين بدفعه خمسة عشر سنتميترًا أو عشرين في أكثر تقدير • وقد مالت عدة مرات لتفعل ذلك فلم تفلح ، اذ أبى المقعد أن يترحزح • وأحس ماكار ايفانوفتش بجهودها ، ولكن على غير شعور البتة ، وذلك من شدة انجرافه في الحديث ، وحاول أن ينهض عدة مرات ، ولكن ساقبه لم تسعفه • وظلت ماما مع ذلك تواصل بذل جهودها وتشد المقعد • فإذا بهذا كله يثير حقن ليزا في نهاية الأمر • اننى أتذكر بعض نظراتها الملتبهة الساخطة • ولكننى في اللحظة الأولى لم أستطع أن أعزو هذه النظرات الى سبب • هذا عدا أننى كنت مشغولاً بالحديث عن كل ما عداه •

وفجأةً دَوَى هذا النداء العنيف الذى يشبه الصراخ ، متجهاً الى
ماكار ايفانوفتشى :

- ولكن هلاً نهضت قليلاً ! ألا ترى كم تبذل ماما من جهد ؟

فنظر الشيخ الى ليزا بسرعة ، وفهم على الفور ، وحاول فى الحال
أن يطيعها ، ولكنه لم يفلح ، فانه ما ان ارتفع عن المقعد عشرة ستمترات
حتى تهاوى عليه ثانية • فقال يجب ليزا بصوت شاك وهو ينظر اليها
بمذلة :

- لا أقدر يا ابنتى !

- تقدر أن تدفق فى كلام يملأ كتاباً بكامله ، أما أن تتحرك قليلاً
فلا تقدر ، هه ؟

فصرخت تاتيانا بافلوفنا تنهر ليزا :

- ليزا !

وعاد ماكار ايفانوفتشى يبذل جهداً خارقاً من أجل أن ينهض •
فصاحت ليزا تقول له من جديد :

- تناول عكازتك فاستعين بها • هى ذى على الأرض !

فقال الشيخ ، وهو يسرع الى تناول عكازته :
- حقاً •

فانبرى فرسيلوف يقول وهو ينهض :

- بل تنهضه وكفى !

وتحرك الطيب ، واندفعت تاتيانا بافلوفنا ، ولكنهما لم يصلا الى
ماكار ايفانوفتشى الا وقد توكأ على عصاه ، ونهض فجأة ، ووقف على ساقيه

ناظراً حوله ، فرحاً بانتصاره ، ضاحكاً فى مرحة ، قائلاً بما يشبه
الظفر :

- استطعت مع ذلك • شكرأ يا ابنتى ، لقد رددتني الى الصواب
وكنت أظن أن ساقى أصبحتا عاجزتين لا تصلحان لشيء !

ولكنه لم يلبث واقفاً مدة طويلة • فانه ماكاد ينهى جملته حتى
انزلت العكازة التى كان يستند اليها بكل وزنه ، انزلت على السجادة
فجأة • فاذا هو يسقط على الأرض بجسمه كله • كان المنظر رهيباً •
انتى أتذكر ذلك • صاح الجميع بصوت واحد : « أوه ! » ، وأسرعوا
يرفعونه عن الأرض • ولكن شاء حسن الحظ ألا يحدث له أى كسر •
صحيح أن ركبتيه قد صدمتا الأرض صدمة قوية فأحدث سقوطه ضجة
شديدة • ولكنه كان قد استطاع أن يقدم يده اليمنى وأن يستند اليها •
وأنهضوه وأرقدوه على السرير • كان وجهه شاحباً ، لا من الخوف ، بل
من الهزة (كان الطبيب قد اكتشف لديه مرضاً فى القلب عدا الأمراض
الأخرى) واضطربت أمى أشد الاضطراب هلعاً • واذا بماكار ايفانوفتش
الذى لا يزال شاحب اللون ولا يزال جسمه يهتز اهتزازاً قوياً ، ولم يكذب
يثوب الى نفسه ، اذا هو يلتفت الى ليزا ويقول لها بصوت رقيق يكاد يكون
حنوناً زاخراً بالعاطفة :

- لا يا ابنتى • أصبحت ساقاى لا تحملاينى ، كما ترين •

لا أستطيع أن أصف الشعور الذى أحسسته • ان أقوال الشيخ
المسكين لم يكن فى نبرتها أى شكوى أو ملامة • بالعكس : كان واضحاً
أنه منذ البداية لم ير فى كلمات ليزا أى سوء ، وأنه عدّ صراخها شيئاً
واجباً ، أى تهريماً يستحقه خطؤه • وقد أثر هذا فى ليزا تأثير رهيباً
أيضاً • لقد وثبت لحظة سقوطه كما وثب الجميع ، ووقفت فى مكانها

كالميتة ، متألمةً طبعاً لأنها كانت سبب كل ما حدث • لكنها حين سمعت هذه الكلمات احمرت احمراراً شديداً من الحجل والندم •

قالت تاتيانا بافلوفنا آمرة :

- كفى ! سبب هذا كله هو هذه الأحاديث • فليرجع كل واحد الى حيث كان • ولكن ما العمل اذا كان الطبيب نفسه هو الذى يبدأ
الثرثرة ؟

فقال ألكسندر سيمينوفتش وهو يسمى حول المريض منهمكاً :

- حقاً يا تاتيانا بافلوفنا • معذرة • انه فى حاجة الى راحه •

ولكن تاتيانا بافلوفنا كانت قد انقطعت عن الاصغاء : انها منذ نصف دقيقة تنعم النظر الى ليزا صامته • ثم قالت فجأة :

- تعالى يا ليزا وقبّلينى ، قبّلنى العجوز الحمقاء ، اذا أردت

طبعاً !

وقبّلتها ، لا أدري لماذا ، وكان هذا ما يجب فعله حقاً ، حتى اننى أوشكت أنا نفسى أن اندفع الى تاتيانا بافلوفنا فأقبّلها • كان يجب فعلاً ألا تسحق ليزا باللوم ، وانما يجب أن تستقبل العاطفة الطيبة الجديدة التى ستشأ فى نفسها بالمرح والتهنئات •

ولكننى لم أملك هذا السلوك فى الواقع • لقد نهضت فجأة ، وقلت

وأنا أقطع كلمائى بغية أن تكون بارزة واضحة :

- ماكار ايفانوفتش ، انك قد استعملت مرةً أخرى هذه الكلمة :

« الجمال » ، وكانت هذه الكلمة تعذبنى بالأمس ، وتعذبنى طوال هذه الأيام الأخيرة • بل انها عذبتنى فى جميع أيام حياتى ، ولكننى لم أكن أعرف فى الماضى ماذا كان عذابى • فانا أعد هذه المصادفة قدراً بل أكاد أَعدها معجزة ... اننى أعلن هذا بحضورك •

ولكنهم أوقفوني عن الكلام • أكرر أنني كنت أجهل ما تواطئوا
عليه بصدد ماما وماكار ايفانوفتش • وقياساً على ما عرفوا من أفعال الماضي ،
حكموا بأننى لا أتورع عن أية فضيحة •

غضبت تاتيانا بافلوفنا غضباً شديداً ، وزارت تقول :
- أسكتوه !

وأخذت ماما ترتجف • وذعر ماكار ايفانوفتش هو أيضاً حين
رأهم جميعاً مذعورين • وصرخ فرسيلوف يقول بقسوة :
- اسكت يا آرКАДى •

ولكننى لم أسكت بل أردفت أقول بصوت أعلى :
- يشدنى ويفزنى يا سادتى أن أراكم جميعاً بقرب هذا الطفل
(أشرت بيدى الى ماكار) • ليس هنا الا قديسة واحدة هى ماما ، ولكنها
هى أيضاً ...

قال الدكتور ملحاً :

- انك تروّعها !

فتمتت أقول :

- أعلم أنني عدو الجميع ••

أو قلت كلاماً من هذا المذاق • ثم التفت الى فرسيلوف ألقى عليه
نظرة تحدٍ واستفزاز • فصرخ فرسيلوف قائلاً :

- آركَادى ... سبق أن حدث بيننا هنا مشهد من هذا النوع •

فسيطر على نفسك الآن • أرجوك !

لا أستطيع أن أصف العاطفة القوية التى ظهرت على فرسيلوف وهو

ينطق بهذه الجملة • لقد عبرَ وجهه عندئذ عن حزن خارق ، صادق ،
كامل • ومما يدعو الى الدهشة أكثر من ذلك أن هيئته كانت هيئة انسان
نادم : فالآن أنا القاضى وهو الجانى • فكان من شأن ذلك كله أن أخرجنى
عن طورى • فهتفت أجييه قائلاً :

– نعم ، حدث هذا يوم كنت قد دفنت فرسيلوف ، يوم كنت قد
انتزعته من قلبى ••• ولكن جاء يوم الحشر بعد ذلك وُبعث الموتى •••
أما الآن فقد انتهى كل شيء • ولسوف ترون جميعاً ، جميعاً ، ما أنا قادر
عليه ! انكم لا تتوقعون ما أستطيع أن أفعله •

قلت ذلك ، واندفعت الى غرفتى • فهرع فرسيلوف ورائى •

اتكست بعد ابلال : اتابنتى حمى شديدة ، وفى المساء كنت
أهذى . ولكن لم يكن كل شىء هذياناً ، فقد رأيت أحلاماً كثيرة غريبة ،
حفظت واحداً منها الى آخر حياتى ، أو قل حفظت شذرات واحد منها
أرويه الآن بدون تفسير . لقد كان فى ذلك الحلم تنبؤ ، فلا أستطيع أن
أغفله .

رأيتنى فى غرفة واسعة عالية وقد امتلأ قلبى فجأة بنية عظيمة نبيلة .
أين ؟ لا أدري . ولكن لم أكن عند تاتيانا بأفلوفنا . وأقول سلفاً : اننى
أذكر تلك الغرفة تذكراً واضحاً كل الوضوح . ورغم اننى كنت وحيداً ،
فقد كنت أحس - مثلاً قلقاً - اننى لست وحيداً وأننى 'أنتظر' ، وأن شيئاً
'يتوقع منى' ، فى مكان وراء الباب أشخاص ينتظرون ما سأفعله .
احساس لا يطاق : « آه .. ليتنى كنت وحيداً » . وها « هى »
ذى تدخل فجأة . انها تنظر الى « خجلة » ، خائفةً خوفاً شديداً ،
باحشةً عن عيني . و « الوثيقة بين يدي » ، وابسمت لتغرينى ،
والتصقت بى . فأشفقت عليها . ولكننى أخذت أشعر باشمزاز . وفجأة
غطت وجهى بيديها ، فرميت الوثيقة على المائدة باشمزاز لا يوصف :
« لا تسألينى شيئاً . خذى . لا أطلبك بشىء ! بالاحتقار انتقم لنفسى من
كل الالهات التى تحملت » .

وخرجت من الغرفة شاعراً بكبرياء قويه واعتزاز شديد . ولكن
لامبير يوقننى على العتبة فى الظلام ، ويهمس قائلاً لى وهو يمسك

ذراعى بقوة : « أحقق ، أبله ! سوف تشيء فى فاسيلي اوستروف مدرسة داخلية لبنات النبلاء (يعنى لنستطيع أن تعجنى رزقها اذا علم أبوها بأمر الوثيقة فحرمها من الميراث وطردها من بيته • اننى اسجل تعابير لامبير بنصها كما سمعتها فى الحلم) •

— آرКАДى ماكاروفتش يسمى وراء « الجمال » •

ذلك صوت آنا آندريفنا النحيل سمعته قريباً منى على السلم • ولكن هذه الكلمات لم تكن مدحاً بل كانت سخرية لاتطاق • وأعود الى الغرفة مع لامبير • فإذا « هى » ، حين تراه ، تأخذ تضحك مستهزئة • ان الشعور الأول الذى أحسسته كان ارتياعاً رهيباً ، ارتياعاً بلغ من الهول أننى توقفت ورفضت أن أتقدم • ونظرت اليها فلم تصدق عيناى ما رأيت • لكأن قناعاً كان على وجهها فانحسر القناع فجأة : لا تزال قسماً وجهها كما هى ، غير أن كل واحدة منها قد شوهتها وقاحة لا حدود لها • وصاح لامبير يقول لها : « الفدية يا سيدتى ، الفدية ! » ، فإذا ضحكهما كليهما يشند • وكف قلبى عن الحفقان • « هل يُعقل أن تكون هذه المرأة الوحشة هى المرأة نفسها التى كان يكفينى أن تنظر الىّ حتى يشتعل قلبى فضيلة ؟ » •

ويهتف لامبير قائلاً :

— هذا ما يفعله هؤلاء المتعجرفون من أبناء المجتمع الراقى فى

سيل المال !

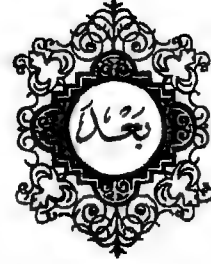
ولكن الوحشة لم تضطرب • وهى انما تضحك لأننى مروّع • آه ! انها مستعدة للفدية ، و • • • ماذا يحدث فى نفسى ! أصبحت لا أشعر بشفقة ، بل باشمئزاز • وأرتعش كما لم أرتعش فى حياتى من قبل • • • واستولت علىّ عاطفة أخرى لا سبيل الى وصفها ، عاطفة لم أعرفها فى يوم من الأيام ، عاطفة قوية قوة الكون • أصبحت لا أقوى على

الانصراف • لن أنصرف بحال من الأحوال • آه • • • • •
لشدهما يسعدني
أن يبلغ الأمر هذه الدرجة من الخلاعة ! وهانذا امسك يديها • ان ملامسة
يديها تهز نفسى هذا اليماء • وهانذا أقرب شفتى من شفتيها الوحتين ،
القرمزيتين ، اللتين ترتجفان ضحكاً وتناديانى •

بعداً لهذه الذكرى المخزية ! سحقاً لهذا الحلم اللعين ! أحلف
لكم أنني قبل هذا الحلم الدنيء لم يراود خيالى أى شئ يشبه هذه الفكرة
المخجلة ! لا ، لم يراود خيالى شئ من ذلك حتى فى أحلام من هذا النوع
بغير ارادة (وان كنت قد احتفظت « بالوثيقة » مخيطة فى جيبي ، وكنت
أتحسسها من حين الى حين مبتسماً ابتسامة غريبة) • فمن أين جاءني
هذا فجأة ؟ جاءني من أن لى نفس عنكبوت ! أعنى أن هذا كله كان قائماً
فى نفسى منذ مدة طويلة على حال بذرة ، وكان ثاوياً فى قلبى الفاسق ،
فكنت « أشتهى » ، ولكن قلبى كان الحجل لا يزال يصده ، وكان فكرى
لا يجسر ، بعد ، أن يتصور شيئاً من هذا القليل تصوراً واعياً • أما
فى الحلم فان النفس قد عرضت كل ما كان قائماً فى قلبى ، فجاءت
هذه اللوحة الكاملة الواضحة الدقيقة ، وكانت نبوءة • هل « هذا »
ما كنت أريد أن أبرهن لهم عليه حين وُلّيت فى الصباح من عند
ماكار ايفانوفتش ؟ ولكن كفى ! لا كلمة عن هذا الأمر قبل أن يحين الحين !
ان هذا الحلم الذى رأيته هو من أغرب مغامرات حياتى •

الفصل الثالث

١



ثلاثة أيام نهضت في الصباح فشعرت فجأة ، حين
وقفت على قدميَّ ، أنني لن ألزم السرير بعد
اليوم . لقد أحسست في كيسي كله باقتراب
الشفاء . لعل هذه التفاصيل كلها لا تستحق أن

تسجل . لقد تتالت أيام لم يحدث فيها شيء ذو بال ، ولكنها بقيت في
ذاكرتي بتمامها شيئاً هادئاً فرحاً : هذا أمر نادر في ذكرياتي . لا أريد
الآن أن أصف حالتي النفسية . فلو عرف القارئ ماذا كانت لما صدّق .
فالأفضل أن يبرز هذا من الوقائع فيما بعد . ولكنني بانتظار ذلك أقول :
ليتذكر القارئ ما هي « نفس عنكبوت » ، ما هي نفس عنكبوت لدى
إنسان يريد أن يتركهم ، « هم » والعالم كله سعيّاً وراء « الجمال » ! صحيح
أن ظمئى الى الجمال كان في ذروته ، ولكن كيف تحالف هذا الظمأ الى
الجمال مع أنواع أخرى من الظمأ يالها من أنواع ! ذلك ما يبقى لغزاً أعجز
عن حله . ولقد كان لغزاً على الدوام ، وطالما أدهشنى أن يستطيع
الإنسان (الإنسان الروسى خاصة) أن يهدم في قلبه أسمى شيء
وأدنى شيء في آن واحد ، صادقاً مع ذلك صدقاً كاملاً . هل مرد هذا
الى « رحابة الفكر » التي 'تمزى الى الرومى أم مرده الى حطة لا أكرر ؟
ذلك هو السؤال .

ولكن دعونا من هذا . المهم أنه كان ثمة هدنة . لقد أدركت أن على
أن أسترده عافيتى بأى ثمن ، وبأقصى سرعة ممكنة ، لأبدأ العمل فى أقرب

وقت ، كذلك قررت أن أعيش ملتزماً بقواعد الصحة ، وأن أطيع الطبيب (كيف كان) ، وأن أرحي نيات القتال والعدوان بكل حكمة (وهذه نمره رحابه الفكر) الى أن أخرج ، اى الى ان اشفى . كيف امكن أن تجمع مشاعر المساله ومباهج الهدنه تلك كلها مع خفقات قلبى العارمة الجامحه الاليمه أماً لذيداً ، ومع توجس الفرارات العاصفة الهوجاء التى أزمع أن أتخذها ؟ لا أدري . ولكننى أعزو ذلك الى « رحابه الفكر » . أصبحت لا أشعر بالقلق الذى كنت أحسه من قبل . لقد أرجأت كل شئ الى وقته العتيد ، دون أن أرتجف من تصور المستقبل كما كنت أرتجف من قبل أيضاً ، وانما أنا الآن أمام المستقبل رجل غنى واثق بما يملك من موارد وقوى . وكانت مشاعر الغطرسة والتحدى تجاه المصير ما تنفك تزداد ، ولعل ذلك يرجع قليلاً الى شفائى الذى أصبح الآن واقعاً ملموساً ، والى اننى استرددت طاقاتى الحيوية . ومازلت الى الآن أتذكر ، بكثير من الاتيارج والسرور ، تلك الأيام التى كنت قد شفيت فيها شفاء حاسماً بالفعل .

وكانوا قد غفروا لى كل شئ ، غفروا لى اندفاعتى الشيفه وأقوالى القاسية هم الذين وصفتهم أمامهم أبشع وصف ! هذا ما أحبه فى الناس ، هذا ما أسميه ذكاء القلب . أو قل اننى افتتنت بهذا الموقف على الفور ، بعض الافتتان طبعاً . فمع فرسيلوف مثلاً ظلمت أتحادث كما يتحدث صديقان قديمان ، ولكن الى حد لا تتجاوزه : فمتى أسرفنا فى اظهار عواطفنا (وكان هذا يحدث) ، أمسكنا عن الكلام كلانا فوراً ، وشعرنا بشئ من الحجل . ثمة حالات لا يستطيع فيها الغالب أن يتمتع عن الحجل من المغلوب ، لا لشيء الا لأنه غلبه . ولقد كنت أنا الغالب طبعاً ، فكنت أحمر من ذلك خجلاً .

وفى ذلك الصباح ، أعنى يوم نهضت عن مريرى بعد الانتكاس ،

جاء فرسيلوف الى * . وعندئذ انما علمت منه أول مرة ما كانوا قد تواطؤوا عليه في شأن ماما و ماكار ايفانوفتش * وقد أضاف فرسيلوف أن الشيخ تحسنت صحته ولكن الطبيب لا يضمن شفاؤه * فوعده من كل قلبى بأن أكون فى المستقبل أكثر حذراً وتروياً * . وحين كان فرسيلوف يروى لى هذا كله ، لاحظت فجأة ، أول مرة ، أنه كان هو نفسه قلقاً على الشيخ ، وأن قلقه صادق لا اصطناع فيه ، أى كان قلقه يفوق كثيراً ما كان يمكن أن أتوقعه من رجل مثله ، ولاحظت أنه يعده رجلاً عزيزاً ، عزيزاً عليه هو ، بنض النظر عن أمى * . وقد تساقنى هذا الأمر ، بل أدهشنى تقريراً * . فأننا أعترف بأننى لولا فرسيلوف لفاتسنى أشياء كثيرة ما كنت لأقدرها حق قدرها عند ذلك الشيخ الذى خَلَّف فى قلبى ذكرى من أقوى الذكريات وأبقاها وأكثرها أصالة * .

وكان يبدو على فرسيلوف أنه قلق من علاقاتى بماكار ايفانوفتش ، أو قل انه كان لا يركن الى ذكائى ولا الى كياستى ، فلذلك ارتاح كل الارتياح فيما بعد حين أدرك أننى أيضاً قادر فى بعض الأحيان على أن أفهم كيف يجب التصرف مع انسان له آراء وتصورات مختلفة عن آرائنا وتصوراتنا كل الاختلاف ، أى اننى أستطيع عند اللزوم أن أكون انساناً مسالماً مصالحاً منفتح النفس واسع النظرة * . وأعترف أيضاً (دون أن أخفض قدر نفسى فيما أظن) بأننى وجدت فى هذا الانسان الأسمى من صفوف الشعب شيئاً جديداً على كل الجدة من ناحية العواطف والأفكار ، شيئاً أجهله ، شيئاً هو أوضح كثيراً وأدعى الى العزاء والسلوى كثيراً من أسلوبى فى فهم الأشياء من قبل * . ولكن كان يستحيل على * مع ذلك ألا أغضب فى بعض الأحيان حين كنت أراه يتشبث بأوهام قاطعة يؤمن بها ايماناً هادئاً ويطمئن اليها اطمئناناً ثابتاً لا يتزعزع * . على أن ذلك انما يرجع طبعاً الى نقص ثقافته * . أما نفسه فقد كانت فى الواقع تنعم بمساق ونظام ما رأيت أحداً يفوقه فيهما * .

ان ما كان يجذبني اليه قبل كل شيء آخر ، كما سبق أن ذكرت ذلك، هو بساطته القصوى وخلوه من الأنانية خلواً تاماً ، حتى ليحس المرء أن له قلباً بلا خطيئة تقريباً . كان قلبه عامراً « بالفرح » ، وعامراً اذن « بالجمال » . وكان يحب كلمة « الفرحة » هذه حباً كثيراً ، وكان يستعملها في كلامه كثيراً . صحيح أنه كان ينتابه في بعض الأحيان نوع من هياج مرضي ، نوع من حنان مرضي لعله يرجع الى أن الحمى لم تبارحه طوال هذه المدة . ولكن ذلك كان لا يمنع الجمال الروحي من أن يتألق فيه . وكان يتصف عدا ذلك بصفات متناقضة : فالى جانب السذاجة الشديدة التي كانت تجعله عاجزاً عن ملاحظة السخرية عجزاً تاماً (وكان هذا يحزنني) ، كان يتصف بنوع من مكر مرهف يستعمله خاصة في المناوشات الجدلية . كان يحب الجدال ، ولكنه يحب بين الفينة والفينة ، ويحبه على طريقته الخاصة . ان المرء يلاحظ أنه جاب في أرجاء روسيا كثيراً ، وسمع كثيراً . ولكنني أعود فأقول انه يحب الحنان أكثر من أي شيء آخر ، ويجب اذن كل ما يؤدي الى الحنان ، ويجب أن يقص أموراً تثير الحنان . وكان يحب كثيراً أن يقص . لقد سمعت من فمه عدداً كبيراً من القصص عن أسفاره ، وأنواعاً من الأساطير عن الحياة الخفية التي عاشها قدامى النساك . وهذه أمور ليست معروفة عندي أو مألوفة لي ، ولكنني أظن أنه كان يمزج بهذه الأساطير أشياء مختلفة كثيرة جاء معظمها مما يتناقله شعبنا بالرواية . كان في قصصه أشياء لا يقبلها العقل حقاً . ولكن الى جانب هذه التحريفات

الواضحة او التلويقات الينة كان يشيع فى قصصه الزاخرة بالمعاطفة الشعبية والمثيرة للحنان دائما ، شىء مضمون قوى راسخ . لقد حفظت من قصصه ، مثلاً ، تلك الحكاية الطويلة التى تسمى « حياة ماريما المصرية » . لم أكن أعرف حتى ذلك الحين شيئاً عن حياة ماريما المصرية هذه ، ولا عن حياة أحد غيرها تقريباً . ولكننى أستطيع أن أقول بصراحة : انه يستحيل على المرء أن يسمع قصة حياة ماريما المصرية دون أن تترقق الدموع فى عينيه ، لا بتأثير ما تثيره فى النفس من حنان ، بل بتأثير نوع من حماسة غريبة : ان المرء يحس فى هذه القصة بشىء خارق حار كرمل الصحراء المحرقة التى تملؤها الأسود والتى كانت ماريما تجوبها . ولكن ليس هذا ما أريد أن أتكلم عنه ، ولست من أهل الاختصاص فى هذا الميدان على كل حال .

ومما أعجبني فى ماكار ايفانوفتش ، عدا الحنان ، أنه كانت له آراء أصيلة كل الأصالة فى مسائل لا تزال موضع خلاف كبير بين الناس فى عصرنا هذا . ففى ذات يوم ، مثلاً ، روى لى قصة حديثة عن جندي انتهت خدمته ، وقد شهد ماكار الحادثة بنفسه تقريباً ، فقال ان هذا الجندي حين عاد الى بلده ، ووجد نفسه بين فلاحين ، لم يعجبه ولا أعجبهم . فأخذ الرجل المسكين يفقد صوابه شيئاً بعد شىء ، وأخذنا يشرب ويسرف فى الشراب ، وقام ذات يوم بعمل سلب ونهب . ولم يكن ثمة أدلة قاطعة على ارتكابه هذه الجريمة ، ولكنه اعتقل أثناء ذلك وحوكم . وقد أخذ المحامى يدافع عنه وكاد يثبت براءته لعدم توفر الأدلة ، فاذا بالرجل الذى كان يصنى الى دفاع المحامى ينهض فجأة فيقطع المحامى قائلًا : « لا ، انتظر قليلاً » ، ثم طفق يروى الوقائع من أولها الى آخرها ، ويعترف بذنبه باكيًا تادماً . فانسحب المحلفون وأغلقوا عليهم باب القاعة ، ثم عادوا يخرجون ليعلموا بأن « المتهم برى » . فتعالت صيحات

الفرح من كل صوب • ولكن الجندى بقى جامداً فى مكانه كأنه استحال
عموداً ، لأنه لم يفهم شيئاً ، لا ولا فهم ما قاله له رئيس المحكمة حين
أُخرج عنه • وانصرف الجندى أخيراً وهو لا يصدق عينيه ولا يدرك ما يحدث
له • واستبد به الضجر ، وغرق فى التفكير والتأمل ، فهو لا يأكل
ولا يشرب ولا يكلم من الناس أحداً • وبعد خمسة أيام شقق نفسه • قال
ماكاز ايفانوفتش خاتماً حديثه : « فانظر كيف تكون الحياة حين تثقل على
ضمير المرء خطيئة » • صحيح أن القصة لا قيمة لها ، وأن أعمدة جميع
الصحف فى أيامنا هذه تمتلئ بحكايات من هذا النوع ، ولكن الشيء
الذى أعجبني انما هو اللهجة • ومما أعجبني أكثر من اللهجة أيضاً ما كان
يستعمله ماكاز ايفانوفتش من ألفاظ تعبر عن فكرة جديدة حقاً • من
ذلك أنه حين روى لى كيف لم يعجب الجندى الفلاحين عند عودته الى
القرية قال : « معروف ما الجندى : الجندى فلاح فسد » ؛ وحين
تكلم بعد ذلك عن المحامى الذى كاد يربح الدعوى قال أيضاً : « معروف
ما المحامى : المحامى ضمير للتأجير » • لقد وقع ماكاز ايفانوفتش
على هذين التعبيرين عرضاً بدون أى عناء ، وبدون أن ينتبه هو نفسه
اليهما • ولكنهما يشتملان على جملة تصوره لهذين الموضوعين ، وهو
تصور ان كان لا يمثل رأى الشعب كله فانه يمثل رأى ماكاز ايفانوفتش
تمثيلاً رائماً • ان هنـه الأحكام الجاهزة التى يصدرها الشعب فى موضوع
من الموضوعات تكون فى بعض الأحيان حافلة بأصالة باهرة حقاً •

سألته فى هذه المناسبة :

– ماكاز ايفانوفتش ، ما رأيك فى خطيئة الانتحار ؟

فأجابنى وهو يتنهد :

– الانتحار أكبر خطيئة يرتكبها الانسان • ولكن الرب هو الحاكم
الوحيد ، لأنه وحده يعرف كل شيء ، مقاييس وحدوداً • وواجبنا نحن

هو أن ندعو الله لأنثال هؤلاء الخطاة الكبار • فإذا سمعت عن خطيئة كهذه الخطيئة ، فادع لمرتكبها دعاءً حنوناً قبل أن تنام ، وتشفع له عند الرب ولو كنت لا تعرفه ، وإذا كنت لا تعرفه فإن شفاعتك تكون أجدى أيضاً •
- هل ينفعه الدعاء وقد حكم عليه ؟

- ما يدريك ؟ ان ناساً كثيرين لا يؤمنون ، فيضلون من لا يعلمون • فلا تستمع لهؤلاء ، فانهم لا يعرفون الى أين هم ماضون • ان صلاة صادرة عن انسان حتى من أجل انسان ميت تصل الى الرب فعلاً • ولكن ما عسى يصير اليه من ليس له أحد يصلى من أجله ؟ لذلك يجب عليك ، حين تصلى قبل النوم ، أن تضيف هذا الدعاء : « ارحم يا يسوع أيضاً جميع أولئك الذين ليس لهم أحد يصلى من أجلهم » • ان هذا الدعاء نافع جداً ، مبهج جداً • بل صلّ كذلك من أجل الخطاة الذين لا يزالون أحياء • قل « ربّ أنقذ جميع السادرين في ذنوبهم بما تعرف من وسائل » • هذا أيضاً صلاة حسنة •

وعدته بأن أتلو هذه الصلوات ، لأننى أحسست أن هذا الوعد سيسره سروراً عظيماً • وقد سطع الفرح في وجهه فعلاً حين قطعت له على نفسى هذا العهد • ولكن يجب علىّ أن أسارع فأضيف أن ماكارا إيفانوفتش كان في مثل هذه الأحوال لا ينظر الىّ من علىّ ، كناسك يخاطب مرهقا غراً • بالعكس : كان يجب في كثير من الأحيان أن يصغى الىّ ، وأن ينصت الى كلامى بدون كلال في مواضيع شتى ، وكان يرى أنه اذا كان يتفوق علىّ بالسن فأنسى أنفوق عليه كثيراً بالثقافة • من ذلك مثلاً أنه كان يجب في أحيان كثيرة أن يتكلم عن النساك ، وكان يضع « عزلة الصحراء » في منزلة أعلى كثيراً من منزلة « جوب الآفاق » ، فكنت أوجه اليه اعتراضات شديدة حارة ، وألح على أنانية هؤلاء الناس الذين يهجررون العالم ، ويتركون ما يستطيعون أن يقدموه للانسانية من خير ، لا لشيء الا خلاص

أنفسهم • فلم يفهمنى فى أول الأمر ، بل لعله لم يفهمنى فى لحظة من اللحظات ، ولكنه ظل يدافع عن عزلة الصحراء قائلاً : « ان المرء يشفق على نفسه فى أول الأمر طبعاً (أى حين يستقر فى الصحراء) ، ثم يغتبط يوماً بعد يوم ، ولا يزال يزداد اغتباطه الى أن يرى الرب آخر الأمر » • فأخذت أصوّر له تصويراً كاملاً ما يقوم به السالم والطبيب وصديق الانسانية عامة من عمل مفيد ، فاستطعت أن أصل به الى حماسة صادقة ، لأنه أخذ هو نفسه يتكلم عن هذا بحرارة ، وكان يؤيدنى فى بعض اللحظات قائلاً : « نعم يا بنى نعم ، باركك الله ، انك على حق ! » • ولكنه ، حين فرغت من كلامى ، لم يوافقنى مع ذلك موافقة تامة ، وقال متنهداً تنهداً عميقاً : « هذا كله حسن ، ولكن هل هم كثيرون أولئك الذين يصمدون ويواظبون على الاهتمام بسعادة الآخرين ؟ اذا لم يكن المال الهاً فهو نصف اله • انه اغراء كبير • ثم هناك المرأة أيضاً ، ثم هناك الشك ، ثم هناك الحسد • فاذا بالمرء ينسى القضية الأساسية ، ويمضى يهتم بالأموال الصغيرة • ولا كذلك فى عزلة الصحراء • ففى عزلة الصحراء يقوى المرء نفسه للقيام بجميع المبرات والأعمال المقدسة • نعم يا صديقى • أما فى العالم فماذا يحدث ؟ » ثم هتف يقول بعاطفة خارقة : « أليس العالم حليماً لا أكثر ؟ خذ رملًا وبذره على حصى ، فاذا نبت الرمل الأصفر فوق الحصى فسوف يتحقق حلمك فى العالم • • • هذا ما يقولونه عندنا • أما عند المسيح فيقال : « امض وزرع ثروتك ، واجعل نفسك خادماً للجميع » ، فتصبح عندئذ أغنى مما كنت ألف مرة • ذلك أن السعادة لا يصنعها الطعام وحده ، ولا الثياب الثمينة ، ولا الزهو والحسد ، وانما يصنعها حب لا نهاية له • ان ما ستكسبه حينذاك ليس ثروة ضئيلة ، ولا مائة ألف ، ولا مليوناً ، وانما أنت ستكسب الكون بأسره ! نحن الآن نجمع المال بدون شبع ، وتلفه بجنون • أما حينذاك فلن يبقى يتامى ولا فقراء ، لأن الجميع لى أنا ، لأن الجميع أقربائى ،

كسبتهم جميعاً ، اشتريتهم الى آخرهم • ليس بالأمر النادر أن نرى اليوم أناساً أغنياء أو أناساً من أصحاب الشأن لا يهتمون بعدد أيامهم ، ولا يعرفون هم أنفسهم ما عساهم يخترعون من تسليمات • أما حينذاك فإن أيامك وساعاتك ستضاعف ألف مرة ، لأنك لن تريد أن تضيّع دقيقة صغيرة واحدة ، وستشعر في كل دقيقة من حياتك بالفرح في قلبك • وعندئذ سوف تكتسب الحكمة لا من الكتب وحدها ، لأنك ستكون مع الرب نفسه وجهاً لوجه • وسوف تتألق الأرض عندئذ أكثر مما تتألق الشمس ، ولا يكون حزن ولا يكون تأوه ، ولا يبقى إلا جنة واحدة لا تقدر بشئ • • • • •

تلك هي نوبات الحماسة التي كان يجلبها فرسيلوف فيما أظن حباً عظيماً • ولقد اتفق أن كان فرسيلوف هذه المرة في العرفة •

قاطعت ماكار ايفانوفتش فجأة لأقول وقد فارت حماستي أنا أيضاً (اننى أتذكر تلك السهرة) :

— ماكار ايفانوفتش ! ان ما تنادى به وتدعو اليه هو الشيوعية ، هو شيوعية حقيقية !

واذ كان لا يعرف أى شيء عن المذهب الشيوعى ، حتى انه يسمع هذه الكلمة الآن أول مرة ، فقد أخذت أعرض له كل ما كنت أعرفه عن المذهب الشيوعى • اعترف أن ما كنت أعرفه ضئيل وغامض ، وأننى حتى الآن لست حجةً في هذا الموضوع ، غير أن القليل الذى كنت أعرفه قد عرضته بحرارة وحماسة رغم كل شيء • مازال يسرنى أن أتذكر التأثير الحارق الذى أحدثته فى الشيخ ، بل أستطيع أن أقول ان ما أحدثته فيه لم يكن تأثيراً بل كاد يكون هزة • وقد اهتم بالتفاصيل التاريخية ، فكان لا ينفك يسألنى : « أين ؟ كيف من فعل هذا ؟ من قال هذا ؟ » • •

وكنيت قد لاحظت على كل حال ان هذه خاصة من خصائص الشعب : ان الشعب متى اهتم بشيء اهتماماً كبيراً ، لم يكتف بالفكرة العامة بل طالب بالتفاصيل حتماً . ولقد أربكتني التفاصيل وتنت في شعابها ، واذ كان فرسيلوف يستمع الى حديثي ، فقد خجلت منه قليلاً ، ولكنني ازددت من ذلك حماسة واندفاعاً . وأصبح ماكار ايفانوفتش في النهاية ، وقد ذاب حناناً ، لا يزيد على أن يعقب على كل كلمة من كلماتي بقوله : « نعم نعم » ، ولكن كان واضحاً أنه لا يفهم عني ولا يتابع سلسلة حديثي . وقد ضايقتني هذا ، ولكن فرسيلوف قاطعني فجأةً ، ونهض معلناً أنه أن أوان النوم . وكانت الأسرة كلها مجتمعة ، وقد طالت السهرة . وحين جاء فرسيلوف بعد بضع دقائق يلقي نظرة على غرقتي أسرعت أسأله عن نظرتي الى ماكار ايفانوفتش ، وعن رأيه فيه عامةً . فضحكت ضحكة فرحة (ليست تهكماً على أخطائي في حديثي عن الشيوعية ، فانه لم يتكلم عن هذا الأمر) . أعود فأقول : ان فرسيلوف كان شديد الالتصاق بماكار ايفانوفتش ، وكثيراً ما فاجأت على وجهه ابتسامة فتانة حين كان ينصت الى الشيخ . ولكن هذه الابتسامة كانت لا تمنع النقد . بادر فرسيلوف يقول :

— قبل كل شيء ، ليس ماكار ايفانوفتش فلاحاً ، وانما هو قن خادم كان أبوه قناً خادماً . فهو لاء الأفنان الخدم كانوا يشاركون أسيادهم جوانب كثيرة من حياتهم الخاصة الفكرية والروحية ، في العهد الماضي . لاحظ أن ماكار ايفانوفتش لا يزال حتى اليوم يهتم اهتماماً خاصاً بوقائع حياة الأسياد والارستقراطية . انك لا تعلم بعد مدى ولعه وشغفه ببعض الأحداث التي جرت في بلادنا في الآونة الأخيرة . هل تعلم أنه شديد الاهتمام بالسياسة ؟ هذا رجل لا يكفي أن تحكي له كلاماً عاماً ، وانما يجب عليك أن تذكر له كل شيء : من الذي قام بالحرب ؟ هل سنقوم بالحرب أيضاً ؟

ما أعظم البهجة التي هيأتها له في الماضي بأحاديث من هذا النوع ! وهو يحترم العلم كثيراً ؛ ومن بين جميع العلوم يفضل علم الفلك . عدا هذا يجب أن نذكر أن له في الأمور آراء مستقلة يستحيل أن تزحزحه عنها . ان له اقتناعات ثابتة وواضحة ... ومخلصة ! ورغم جهله فانه قادر على أن يدهشك فجأة بمعرفته بأمور ما كان لك أن تتصور أن يعرفها . هو يمدح لك عزلة الصحراء بحماسة ولكنه لن يعتكف في الصحراء بحال من الأحوال ، لا ولن يدخل الدير ، فانما هو خاصة " متشرد " ، كما سماه بهذا الاسم اللطيف ألكسندر سيمينوفتش الذي يجب أن أذكر لك في هذه المناسبة أنك تخطيء اذا أنت آخذته وحقدت عليه . ماذا أيضاً ؟ هو كذلك فنان قليل ، له كلمات من ابتداعه وكلمات ليست من ابتداعه . منطقته ليس سليماً كل السلامة . انه تارة " يسبح في عالم مجرد " وتارة يغوص في عاطفية شديدة ، ولكن عاطفته عاطفية شعبية صافية ، أو قل انها نوبات من ذلك الحنان الذي يتصف به شعبنا ويدخله في شعوره الديني ولن أتكلم عن نقاء قلبه وطيب نفسه : فليس الحديث عن هذا من شأننا نحن ...

كى أتهى من رسم صورة ماكار ايفانوفتش ، سأقل الآن قصة من قصصه ، مستمدة من حياته الخاصة • ان لقصص ماكار ايفانوفتش طابعاً غريباً ، بل قل انها لا يجمعها طابع مشترك • يستحيل عليك أن تستخرج منها أخلاقاً معينة أو اتجاهاً عاماً ، اللهم الا كونها مثيرة للحنان جميعاً • غير أن بينها قصصاً لا تتصف بهذه الصفة ، حتى ان بينها قصصاً مرحة فكهة تشتمل على سخريات من بعض الرهبان الفاسدين ، وهذه قصص كانت روايتها تسيء الى فكرته ، وقد نبهته أنا الى هذا ، ولكنه لم يفهم ماذا أودت أن أقول • وكان يصب على المرء أحياناً أن يحزر ما الذى كان يدفعه الى رواية هذه القصص ، حتى لقد استغربت منه هذا الاكثار من الكلام ، فعزوته الى شيخوخته والى حالته المرضية •

همس فرسيلوف يقول لى يوماً :

— ليس الآن كما كان فى الماضى • ان وفاته قريبة ، انها أقرب كثيراً مما نظن • فيجب أن نكون متأهبين •

نسيت أن أقول ان « سهرات » مطردة كانت قد استقرت عادة عقدها عنده ؟ فعدا ماما التى كانت لا تترك ماكار ايفانوفتش ، كان يأتى فرسيلوف الى غرفته كل مساء ، وكنت آتى أنا أيضاً ، ولم يكن نمة مكان آخر أذهب اليه على كل حال ؟ وفى الأيام الأخيرة أصبحت تأتى ليزا فى العادة ولو أنها تصل متأخرة عن الآخرين وتظل صامتة طول الوقت .

تقريباً ؛ وكانت تأتي تاتيانا بافلوفنا ، وكان يجيء الطيب أيضاً ولكن
مجيئه نادر . ولا أدري كيف رأيتي أصبح قريباً من الطيب . صحيح
أنتى لم أقرب منه كثيراً ، ولكننى على كل حال أصبحت لا أثور عليه كما
كنت من قبل . ان ما أعجبنى فيه نوع من بساطة لاحظتها أخيراً ، ونوع
من التعلق بأسرتنا ، فقررت أن أغفر له غروره الطبى ، وعلمته عدا
ذلك أن يغسل يديه وأن يعنى بأظافره ، أما أن يلبس قميصاً نظيفاً فذلك
أمر لم أفصح فى أن أحمله عليه . وقد أفهمته أنتى لا أطلب منه هذا حرصاً
على الأناقة ، وتعلقاً « بالفنون الجميلة » ، وإنما أنا أطلبه منه لأن النظافة
جزء من وظائف الطيب نفسها مبرهنأ له على ذلك بالحجة الدامغة . وكانت
لو كيريا تأتي من مطبخنا فى أحيان كثيرة فتقف وراء الباب منصتة الى
ما يرويه ماكارا ايفانوفتش . وقد دعاها فرسيلوف يوماً أن تدخل فتجلس
معا . فأعجبنى منه هذا . ولكنها انقطعت منذ ذلك اليوم عن المجيء .
ان لها طبعها !

أحب أن أسوق الآن قصة من قصص ماكارا ايفانوفتش وقع عليها
اختيارى عرضاً لسبب واحد هو أنتى أحفظها أكثر مما أحفظ القصص
الأخرى . هى قصة تاجر أظن أن مدنتا الكبيرة والصغيرة تجرى فيها
آلاف من القصص تشبهها ، فيكفى أن نحسن النظر حتى نراها .
وللقارىء أن يقفز فوق هذه القصة اذا شاء ، لا سيما وأنتى أرويهما
بأسلوب صاحبها .

حدث هذا عندنا ، بمدينة آفيميافو . سأحكى لكم الآن هذه المعجزة . كان يوجد تاجر اسمه سكوتوبوينيكوف ، مكسيم ايفانوفتش . لم يكن فى المقاطعة أحد أغنى منه . كان قد بنى مصنع نسيج يشغل مئات من العمال . وهذا كبر رأس الرجل . ويجب أن نذكر أن جميع الناس كانوا يخضعون لأوامره . وكانت السلطات لا تضع له العصي فى العجلات . وكان الأرشمندريت يشكر له همته وحماسته ، اذ كان يقدم للدير هبات كثيرة ، وكان فى بعض الأحيان ، اذا بدا له أن يفعل ذلك ، يتكلم كثيراً عن الروح ، ويهتم اهتماماً شديداً بالحياة الآخرة . وكان أرمل ، ولم يكن له أولاد . عن زوجته كانت تجرى شائعات تقول انه أساء معاملتها كثيراً فى السنة الأولى من زواجهما ، مستعملاً قبضتى يديه فى أكثر الأحيان . أما أن يتزوج مرة أخرى فذلك أمر لا يخطر له ببال . وكان يحب الشراب أيضاً . فاذا شرب رآه الناس يركض فى أرجاء المدينة ثملاً ، خالماً ثيابه ، صارخاً . والمدينة صغيرة ، فجميع الناس يعرف بعضهم بعضاً . حتى اذا صحا من سكره عاد رجلاً جاداً ، كل رأى يراه فهو الصواب ، وكل أمر يصدره فهو يعرف كيف يصدره . مع الناس كان يصفى حساباته كما يشاء هوام . هاهو ذا بمسك عدادته ويضع نظارتيه - : « أنت يا فوما ، كم لك على ؟ » فيجيبه فوما : « لم أقبض شيئاً منذ عيد الميلاد يا مكسيم ايفانوفتش . لى عليك تسعة وثلاثون روبلاً » . فيقول : « لا ، هذا كثير ! هذا كثير عليك ! أنت لا تساوى تسعة وثلاثين

روبلًا • هذا لا يناسبك أبدًا ! يجب أن نخصم عشرة روبلات • خذ •
هذه تسعة وعشرون ! • • فلا يقول فوما شيئًا • لا أحد يمكن أن يتفوه
بكلمة • صمت عام •

- أنا أعرف كم يجب أن 'يدفع له • هذا هو التصرف الواجب مع
هؤلاء الناس • الناس هنا فاسدون لولاي أنا لماتوا جوعاً منذ زمن طويل •
لماتوا كلهم بدون استثناء • أكرر لكم أنهم جميعاً لصوص : عيونهم أكبر
من بطونهم • وليس لهم قلوب تتحرك • زد على ذلك أنهم سكتيرون :
متى دفعت لهم راتبهم حملوه الى الحانة ثم لم يخرجوا منها الا عرياً لا يستر
جسمهم شيء • عرياً كدودة • ثم انهم أوغاد : اجلس على صخرة أمام
الحانة واسمع أينهم وشكواهم : « لماذا ولدتنى يا أمى العزيزة • أنا السكير
المسكين ؟ لماذا ولدت هذا السكير ؟ كان الأفضل أن تخفيه منذ ولد ! » •
أهذا انسان ؟ بل هو حيوان لا انسان • يجب أن نريه أولاً • وبعد ذلك
نعطيه مالاً • أنا أعرف متى يجب أن يعطى أحدهم مالاً •

هكذا كان يتكلم مكسيم ايفانوفتش عن أهل آفيمافو • لم يكن ذلك
حسناً منه • ولكنه ليس وحده مخطئاً • كان سكان مدينتنا ضعافاً لا يملكون
قوة الارادة •

وكان يوجد فى تلك المدينة نفسها تاجر آخر • ولكن هذا التاجر
الآخر مات • كان شاباً وطائشاً • فأفلس وفقد كل رأس ماله • كان فى
السنة الأخيرة يتخبط كسمكة على الرمل • ولكن ساعته كانت قد حانت •
وكانت علاقاته بمكسيم ايفانوفتش شجاراً مستمراً • وكان مديناً له
بمبالغ كبيرة • حتى وهو على فراش الموت • حين كان يلفظ أنفاسه
الأخيرة • كان يلعن مكسيم ايفانوفتش • ومات الرجل تاركاً زوجة
شابة وأطفالاً خمسة وأما أرملة ؟ سنونو بلا مأوى • هذه محنة قاسية •
ولا سيما مع خمسة أولاد لا تعرف الأم من أين تطعمهم • وكان كل ما بقى

لهم بيتاً صغيراً من خشب انتزعه مكسيم ايفانوفتش سداداً لديونه • واليك ما فعلته الأرملة : صفت أطفالها الخمسة أمام باب الكنيسة : ان أكبرهم صبي عمره ثمانى سنين ؟ والأطفال الآخرون كلهم بنات صغيرات • كبراهن عمرها أربع سنين ، صفراهن لاتزال ترضع • فلما انتهى القداس ، خرج مكسيم ايفانوفتش من الكنيسة ، فركم الأطفال الأربعة أمامه (كانت أمهم قد علمتهم هذا الدرس) ، وضم كل منهم يديه الصغيرتين متضرعاً ، وانحنت الأم الى الأرض وهى تحمل الطفل الخامس على ذراعيها ، انحنت محية مكسيم ايفانوفتش قائلة له على مسمع من جميع الناس : يا سيدى الطيب مكسيم ايفانوفتش ، ارحم أطفالاً يتامى ، ولا تترزع منهم آخر لقمة ، لا تطردهم من عش أبيهم ! • جميع الذين رأوا المشهد ذرفوا دموعاً • أحسنت الأم تعليم أطفالها الدرس • قدّرت أن مكسيم ايفانوفتش لابد أن يخطئ أمام الناس ، فيغفر ويرد البيت الى اليتامى • ولكن حدث غير هذا • وقف مكسيم ايفانوفتش وقال : أيتها الأرملة الشابة ، أنت تريدين زوجاً ، وليس من أجل الأطفال تبكين • زوجك لعنى وهو على فراش الموت ! ومضى مكسيم ايفانوفتش ولم يرد البيت • قال : كيف تنطلى على الأعيهم ؟ اذا أنت أكرمت اللثيم تمرد ! لا يفيد هذا كله فى شىء ، ولا يؤدى الا الى فوزى ! • وكان يتناقل الناس فى المدينة أن مكسيم ايفانوفتش ، قبل عشر سنين ، قد عرض على هذه الأرملة التى كانت يومئذ فتاة بارعة الجمال ، مبلغاً ضخماً من المال ، ناسياً أن هذه الخطيئة كخطيئة تدبير كنيسة من كنائس الرب • ولكنه لم يظفر منها بشىء • وكان قد ارتكب أعمالاً فذرة من هذا النوع فى المدينة بل فى المقاطعة كلها • ولكنه فى هذه المرة جاوز الحدود •

أخذت المرأة تعول مع صفارها • وطرده مكسيم ايفانوفتش اليتام من البيت ، لا حباً بالشر فحسب ، بل لأن المرء فى بعض الأحيان يجهل

هو نفسه سبب عناده واصراره على فكرته • وقد هبَّ بعض الناس الى مساعدة الأرملة فى البداية • ثم مضت بعد ذلك تلتمس عملاً • ولكن ما عسى يجنى المرء من العمل عندنا فى غير المصنع ؟ تفسل أرضاً هنا • وتزق حديقة هناك • وتوقد حماماً هنالك • وعلى ذراعيها طفل يبكى وفى الشارع أربعة صغار يركضون عراةً الا من قميص ؟ حين أركبتهم أمام الكنيسة كانوا لا يزالون يتعلمون أجذيتهم الصغيرة • ويرتدون معاطفهم الصغيرة • كأولاد التجار • أما الآن فانهم يركضون حفاة • تعلمون أن اليباب تبلى بسرعة أجسام الأطفال • وعلى كل حال فالأطفال لا يحتاجون الى أشياء كثيرة ما ظلت الشمس تطلع • هم فى ذلك الفصل لا يحسون بالبرؤس • بل ينطلقون سعداء • يزقون كالمصافير • وترن أصواتهم رنين الأجراس الصغيرة • كانت الأرملة تقول : « سيأتى الشتاء فما عسانى صانعة بكم ؟ » ليت الرب يأخذكم اليه ! • ولكنها لم تضطر الى الانتظار حتى حلول الشتاء • انتشر فى مقاطعتنا سعال أطفال • السعال الديكى ؟ فكان يسرى من طفل الى طفل • فماتت البنت الرضيع أولاً • ومرض الآخرون فماتت البنات الأربع فى ذلك الحريف نفسه • ولكن واحدةً منهن لم تمت من المرض بل ماتت لأن عربة داستها فى الشارع • فماذا الذى تظن أنه حدث ؟ دفنت الأم بناتها باكية معولة • كانت قبل ذلك تلعنهن وتدعو لهن بالموت • فلما أخذهن الرب اليه • طفقت تتنحب وتنشج • هكذا قلوب الأمهات !

لم يبق لها الا ابنها البكر • فكانت ترتعش خوفاً عليه • حتى لتكاد تحتق اختناقاً • وكان الولد نجلاً رقيقاً • وكان له وجه لطيف كأنه بنت • مضت بالولد الى المصنع • فمهدت به الى عرابه الذى كان مديراً • وذهبت هى تعمل خادمةً فى بيت أحد الموظفين • وفى يوم من الأيام كان الولد يركض فى الحوش • فاذا بمكسيم ايفانوفتش يصل راكباً عربته •

وكان مخموراً كأنما بمصادفة • وكان الولد قد هبط السلم ، فانزلق وصدمه لحظة كان ينزل من عربته ، ووضع كلتا يديه على بطنه • فأمسك مكسيم شعر الولد ، وصاح يسأل : « لمن هذا الولد ؟ هاتوا السيّاط ! اجلدوه فوراً ، أمامى • » كاد الولد أن يموت خوفاً ، وأخذوا يجلدونه ، فكان يصرخ • قال مكسيم : « تصرخ أيضاً ؟ اجلدوه الى أن يكف عن الصراخ ! » • جلدوه مزيداً من الجلد ، الى أن أشرف على الموت فعلاً • فتوقفوا عن جلده ، وارتاعوا : أصبح الطفل لا يتنفس ، وظل راقداً مغشياً عليه • لقد قبل فيما بعد انه لم يجلد كثيراً ، ولكنه كان طفلاً شديد الخوف جداً • وارتاع مكسيم ايّافونتش نفسه • وسأل : « لمن هذا الولد ؟ » • فقالوا له من هو • فقال : « هكذا اذن ! احملوه الى أمه • ماذا جاء به الى المصنع يسرح فيه ويمرح ؟ » • وبعد يومين سأل : « ما أخبار الولد ؟ » • وكانت الأخبار سيئة : كان الولد مريضاً ، راقداً فى ركن عند أمه ، لأن أمه تركت عملها فى هذه المناسبة • كان الولد مصاباً باحتقان فى الرئة • قال مكسيم : « عجب ! لماذا ؟ انه لم يضرب كثيراً • وانما خوفاً مخويفاً فحسب • لقد ضربت جميع الأولاد الآخرين مثلما ضربته ، فلم يحدث شئ • • • » وكان يتوقع أن تشكو المرأة أمرها الى القضاء • فكان يتكبر ويتعالى • ولكن أنثى للمرأة أن تشكى ! لم تجرؤ • عندئذ أرسل اليها خمسة عشر روبلاً ، وأوفد لها طبيباً • فعل هذا لأنه كان خائفاً ، بل فعله هكذا ، بعد تفكير • ثم أصابته نوبة اقبال على الحمر ، فلم يصح من سكره مدة ثلاثة أسابيع •

وانقضى الشتاء • حتى اذا كان النصح ، سأل فى يوم العيد مرة أخرى : « ما أخبار الولد ؟ » • لقد صمت طول الشتاء لايسأل أبداً • قيل له : « الولد شفى ، وهو عند أمه ، والأم تعمل خادمة فى النهار • » ذهب مكسيم ايّافونتش الى الأرملة ، ولكنه لم يدخل البيت ، بل استدعاها

الى المدخل ، وبقي في عربته • قال لها : « اسمي ايتها الارملة المحترمة ،
اننى أريد لابنك الخير ، أريد أن أكون المحسن اليه ، وأن أغدق عليه
نعماً بغير حدود : آخذه الى منزلى منذ اليوم • فاذا أعجبني قليلاً
تركت له مبلغاً كبيراً ، واذا أعجبني اعجاباً تاماً جعلته وريثي بعد موتى
وتركت له كل ثروتى كأنه ابنى ، ولكننى أفعل هذا بشرط واحد : أن
لا تهجئ الى بيتى أبداً ، الا فى الأعبياد الكبيرة • قال هذا وانصرف •
وبقيت الأم كالمجنونة • سمع الناس كلام مكسيم ، فقالوا للأم : « حين
يكبر الولد فسوف يلومك كثيراً اذا أنت حرمته من هذا الحظ » • فظلت
الأم تبكى ابنها طول الليل ، حتى اذا طلع الصبح اصططحته الى مكسيم •
فكان الولد أقرب الى الموت منه الى الحياة •

ألبسه مكسيم ايفانوفتش كما يلبس سيد صغير ، وأستأجر
له معلماً ، ووضعه بين الكتب منذ تلك اللحظة • أصبح لا يحول عنه
بصره ، ويجلسه الى جانبه دائماً • فمتى تناب الطفل انبرى يقول له :
« خذ كتاباً وادرس ! أريد أن أجعلك رجلاً » • ولكن الولد كان ضعيفاً
هزيراً منذ المرة الأولى ، منذ 'جلد بالسياط • وكان يسعل • فكان
مكسيم ايفانوفتش يقول مدهوشاً : « اذن فالحياة عندى لا تروقه • كان عند
أمه يركض حافى القدمين ، ولا يأكل الا كسرات خبز ، ثم ها هو ذا
الآن أشد هزالاً مما كان » • فقال له المعلم : « الأطفال يحتاجون الى
الركض ، ولا يستطيعون أن يقضوا الوقت كله فى الدرس ، فلا بد لهم
من الحركة • • • » • شرح له ذلك كله مدعوماً بالحجج • فقال مكسيم
ايفانوفتش : « ما تقوله حق » • المعلم هو بطرس ستيانوفتش حفظه الله •
رجل طيب يشبه أن يكون « مجنوباً » • كان يحب الشراب ، بل كان
يسرف قليلاً فى الشراب ، لذلك طرد من جميع الوظائف التى عين لها ،
فكان يعيش على الصدقات تقريباً • ولكنه كان دماغاً كبيراً ، كان قوياً فى

العلوم . حتى لقد كان يقول بينه وبين نفسه : « هذا ليس مكاني » فانما يجب أن أكون استاذاً بالجامعة . أما هنا فأنا في الوحل » حتى صارت ثيابي تتقرز مني » . وهذا مكسيم ايفانوفتش ينادي الطفل صارخاً فيقول له : « هيا اركض » ، وكان الطفل لا يكاد يستطيع التنفس . أمامه . حتى لقد صار لا يستطيع أن يحتمل صوته . فأخذ يرتجف . فازدادت دهشة مكسيم ايفانوفتش وقال : « أخرجته من الوحل » وألبسته ناعم الثياب ، وتعلمته بأحسن الجلد ، وجعلت له قميصاً مطرزاً ، وعاملته كما يعامل ابن جنرال ، ثم هو لا يزال غير متعلق بي ا ما باله ينظر الى كما ينظر صغير الذئب ؟ » . منذ مدة طويلة أصبح لا يندهش أحد من صدور أى شيء عن مكسيم ايفانوفتش . ولكن الناس عادوا يدهشون : انه مرتبط بالولد أشد الارتباط ، لا يستطيع أن يفارقه ، ولا يعرف ماذا يتخيل من أجله . وكان يقول : « اني أفضل أن أنشق علي أن أعجز عن تغيير طبيعه . لقد لعنتي أبوه وهو على فراش الموت بعد أن تناول القربان المقدس . انه صورة أبيه ! » .

لم يجلبده مرة واحدة (كان خائفاً أشد الخوف منذ المرة الأولى)
وكان الطفل مروّعاً بدون جلد ، فما الحاجة الى جلده ؟

حيثئذ حدث الحادث . ففي ذات يوم ، بعد أن خرج مكسيم من الغرفة ، ترك الطفل كتابه وصعد على كرسي ، اذ كانت كرتته قد وقعت على خزانة ملابس ، فأراد أن يلتقطها ، ولكن كره اشتبك بمصباح من الخرف كان على الخزانة ، فسقط المصباح على الأرض وتهشم متناثراً ألف قطعة . دوى صوت سقوط المصباح في المنزل كله ، وكان المصباح تحفة ثمينة من خرف ساكس . سمع مكسيم صوت سقوط المصباح من النقرة الثالثة ، فأخذ يزأر . زعر الولد زعراً شديداً ، وأسرع يولي هارباً الى الشرفة ، ثم اجلس الحديقة ، وخرج من الباب الخلفي حتى

صار على رصيف النهر • كان هناك شارع تزيينه شجيرات مزهرة • مكان
رائع الجمال • وهرع الولد الى الماء ، ورأه الناس ، حتى اذا صار على
حافة النهر ، فى الموضع الذى ترسو فيه معدية ، باعد ذراعيه ، ثم
لعله خاف من الماء فبقى جامداً فى مكانه • المكان عريض ، والنهر سريع ،
والقوارب تمر ؟ وفى الجهة الأخرى دكاكين وميدان وكنيسة ذات قباب
من ذهب يسطع • وفى تلك اللحظة كانت الكولونيله فرتسنج تهبط نحو
النهر مع ابنتها • كان بمدينتنا كتيبة مدفعية • وابنة الكولونيله صبية فى
الثامنة من عمرها هى أيضاً ، ترتدى فستاناً أبيض • نظرت الى الولد
وضحكت • وكانت تحمل بيدها قفصاً صغيراً من خشب فيه قنفذ • قالت
لأمها : « انظرى الى الصبى كيف يتطلع الى قنفذى يا ماما » • فقالت الأم :
« لا بل هو خائف من شىء ما • لماذا تبدو خائفاً هذا الخوف الشديد أيها
الصبى اللطيف ؟ ما أحسن ثيابه ! من أنت يا ابنى ؟ » (هذا ما روى
فيما بعد) • ولم يكن هو قد رأى قنفذاً من قبل • فاقرب ونظر •
نسى ما كان فيه • هكذا الأولاد ! قال يسأل : « ما هذا الذى معك ؟ » •
أجابت الأم : « قنفذ • اشتريناه منذ قليل من فلاح وجده فى الغابة » •
قال الصبى : « وما القنفذ ؟ » • وضحك • وأراد أن يلمسه باصبعه ،
فانتفض القنفذ ، وضحكت البنت ، وقالت : « سنأخذه الى البيت
فنؤنسه » • قال الصبى « اعطينى قنفذك ! » طلب منها ذلك هكذا ، بلطف •
ولكن ما ان أنهى جملته حتى كان مكسيم ايفانوفتش يصرخ من أعلى :
« آآآ هذا أنت ! أوقفوه ! » (كان مكسيم قد بلغ من شدة الغضب
أنه خرج من البيت بدون قبعة) • تذكر الطفل كل شىء ، وصرخ ،
وتقدم نحو الماء ضاماً يديه الصغيرتين الى صدره ، ونظر الى السماء (رأوه
ينظر الى السماء) ، وألقى نفسه فى النهر • فتعالى الصراخ فى كل
صوب ، واندفع ناس من المدينة يلقون أنفسهم فى النهر عسى أن يتشبهوه ،
ولكن الماء كان قد جرفته ، فالنهر سريع ، حتى اذا أخرجوه كان قد

فارق الحياة • لم يتحمل الماء بسبب ضعف صدره • لم يحتاج الى وقت طويل حتى يموت • ما يسمع الناس فى بلادنا قبل ذلك اليوم عن طفل مات منتحراً • خطيئة كبرى ! ما عساها تقول للرب فى السماء ، هذه النفس الصغيرة ؟

منذ ذلك الحين أخذ مكسيم ايفانوفتش يفكر فى المسألة • وتبدلت حاله ، حتى صار المرء ينكره ولا يصرفه • حزن حزناً كبيراً • وأخذ يشرب • أخذ يشرب كثيراً • ثم انقطع عن الشراب : لم ينفعه شيء • وانقطع أيضاً عن الذهاب الى المصنع • وأصبح لا يصفى الى أحد • اذا كلموه لم يجب ، أو حرك يده مشيراً الى أنهم يضجرونه • وانفضى شهران ، ثم صار يكلم نفسه • صار يسير وهو يكلم نفسه • وشبت النيران فى قرية فلكوفا ، بقرب المدينة ، فالتهمت تسعة بيوت • ذهب مكسيم الى الحريق ليرى • أحمق به المصابون وأخذوا ينتحبون : فوجد بأن يمد اليهم يد المعونة ، وأصدر أمره بذلك ، حتى اذا رجع الى بيته استدعى وكيله وألقى كل ما وعد به ، قائلاً له : « لا تعطهم شيئاً » ، ولم يذكر السبب • قال يحدث نفسه : « ان الرب خلقنى شيطاناً ، وجعلنى بليّة لسائر البشر ، فليكن ذلك ! وقد طارت سمعتى فى الناس سريعة كالريح » • وجاءه الأرشمندريت بنفسه فى يوم من الأيام : انه راهب عجوز قاس أدخل على الدير أسلوب الحياة المشتركة • قال له الأرشمندريت بلهجة قاسية : « ما هذا السلوك الذى تسلكه » ، فأجابه مكسيم : « مكذا ! » وفتح له كتاباً وأشار له الى فقرة من الكتاب :

« من أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بى فخير له أن يعلّق فى عنقه حجر الرحى ويُفرق فى لجّة البحر » (اتجيل متى ، الاصحاح الثامن عشر ، ٦) •

قال الأرشمندريت :

– نعم ، هذا لم يُذكر فى هذه المناسبة ، رغم أن ثمة علاقة •
ما أشقى الانسان الذى يتجاوز الحدود ! انه يضع نفسه • وأنت قد أسرفت
فى الارتفاع •

تصلب مكسيم ايفانوفتش ، حتى وكأنه أصيب بداء التيتانوس •

قال له الأرشمندريت :

– اسمع واحفظ • لقد قيل : « كلام المكروب اليائس تحمله
الرياح » • وتذكر أيضاً ما يلى : ملائكة السماء نفسها ليست كاملة ،
والكمال الوحيد المبرأ من الخطيئة انما هو الرب ، يسوع المسيح ، الذى
تخدمه الملائكة • ثم انك لم تشأ موت ذلك الطفل • كل ذنبك أنك كنت
متهوراً قليل التبصر والتروى • غير أن هناك ما يملأ نفسى دهشة : لقد
سبق أن ارتكبت سيئات كثيرة أخرى ؟ ما أكثر الذين جعلتهم متسولين
مستجدين ، ما أكثر الذين أفسدت أخلاقهم ، ما أكثر الذين دفعتهم
الى الموت دفعاً ، فكأنك قتلهم ! وأولئك البنات الصغيرات ، وأخواته ،
ألم يمتن قبله هن الأربع على مرأى منك تقريباً ؟ فلماذا ينفرد هو بإدخال
الاضطراب الى نفسك ؟ أتراك نسيت جميع السوابق ناهيك عن الأسف لها
والندم عليها ؟ ما بالك ترتاع هذا الارتياح الشديد كله لموت هذا الطفل
الذى لم تكن أنت مسئولاً عن موته كل المسئولية ؟

تمتم مكسيم ايفانوفتش يقول :

– لأننى أراه فى المنام •

– ثم ماذا ؟

ولكن مكسيم ايفانوفتش لم يكشف للأرشمندريت عن شيء ، وظل

صامتاً • فدهش الأرشمندريت وانصرف : لا فائدة !

عندئذ أرسل مكسيم ايفانوفتش من يستدعى له المعلم ، بطرس
سييتانوفتش . انهما لم يلتقيا منذ حدث الحادث .

قال له :

- هل تتذكر ؟

- أتذكر .

- سمعت أنك رسمت لوحات بالزيت للمطعم ، وأنتك تنسخ الآن
صورة للمطران . هل تقدر أن ترسم لى لوحة بالألوان ؟

- نعم ، أقدر . اننى أملك جميع المواهب ، وأقدر على كل شيء .

- ارسم لى اذن لوحة ، أكبر لوحة ممكنة ، لوحة تحتل الجدار
كله . ضع فيها النهر ، والمنحدر ، وجميع الناس الذين رأوا المشهد .
ضع الكولونيلة وابنتها والقنفذ . وارسم الشاطئ الآخر كله بحيث
يراه الناظر كما هو : الكنيسة والبيدان والدكاكين والمكان الذى ترابط فيه
العربات ، ارسم كل شيء كما هو فى الواقع . وارسم الولد أمام المعذية ،
على ضفة النهر ، فى ذلك المكان نفسه ، واجعل يديه مضمومتين الى
صدره . وأمامه ، على الشاطئ الآخر ، 'شق' السماء ، وصوّر جميع
الملائكة فى التور السماوى وهم يطفرون الى لقائه . هل تقدر أن ترسم
هذا ؟

- أقدر أن أفعل كل شيء .

- اسمع ، أستطيع أن استقدم أكبر رسّام من موسكو وحتى من
لندن ، بدلاً من الاعتماد على مخربش مثلك . غير أنك ، أنت ، تذكر
وجهه . فإذا جاءت صورة وجهه لا تشبهه ، أو لا تشبهه شيئاً كافياً أعطيتك
خمسین روبلاً ، أما اذا جعلتها تشبهه كل الشبه فسأعطيك مائتى روبل .

تذكر عينيه الصغيرتين الزرقاوين ... ولتكن اللوحة أكبر لوحة
ممكنة •

وأبرما اتفاقهما • وأخذ بطرس ستيبانوفتش يعمل ، ولكنه جاء الى
التاجر يقول له فى ذات يوم :

- لا سبيل الى رسم ما ذكرت •
- لماذا ؟

- لأن هذه الخطيئة ، خطيئة الانتحار ، هى أكبر الخطايا جميعاً ،
فكيف يمكن أن تستقبله الملائكة بعد أن ارتكب هذه الخطيئة ؟
- لكنه طفل • ليس مسئولاً •

- لا ، لم يكن طفلاً صغيراً • كان قد بلغ سن الرشد • كان عمره
ثمانى سنين حين حدث الحادث • فو مسئول قليلاً رغم كل شيء •
ازداد مكسيم ايفانوفتش ارتباعاً • قال :

- وجدت حلاً : لاثشق السماء ولا ترسم ملائكة ، حسبك
أن تسقط عليه من السماء شعاعاً • هذا شيء على كل حال •

فعل الرسام ما تخيله مكسيم ايفانوفتش • أسقط على الطفل
شعاعاً من السماء • وقد رأيت اللوحة بنفسى ، فيما بعد ، مع الشعاع
والنهر الأزرق ، رأيتها تغطى الجدار كله • كان فيها الطفل ضاماً ذراعيه
الصغيرتين الى صدره ، وكان فيها الأنسة الصغيرة والقفذ ، كان فيها كل
شيء • ولكن مكسيم ايفانوفتش لم يسمح لأحد برؤية اللوحة : أغلق عليها
مكتبه بالمفتاح • هرع الناس من المدينة كلها يريدون أن يروا اللوحة ،
ولكنه طردهم جميعاً • وتكلم الناس فى الأمر كثيراً • وتغيرت حال بطرس
ستيبانوفتش حتى لكأنه شخص آخر • أصبح يقول لنفسه : « أنا الآن
أقدر على كل شيء • مكاني الذى استحقه هو البلاط فى بطرسبرج • » •
ان بطرس ستيبانوفتش من أحب الناس الى القلب • ولكنه كان يحب أن

يعظم نفسه كثيراً • وسرعان ما وافته منيته : فانه بعد أن قبض المائتى روبل ،
هرع يشرب ويطلع الناس على ماله تباهياً ، فقتل ذات ليلة ثملاً • قتله
بورجواى كان يشرب معه ، وأخذ ماله • واكتشف هذا كله فى
الصباح •

اما تمة القصة فلا يزال جميع الناس يذكرونها هناك : فى ذات يوم
جاء مكسيم الى الأرملة راكياً عربته • كانت الأرملة تسكن كوخاً صغيراً
فى آخر المدينة • وقد دخل هذه المرة الى فناء البيت • وتسمّر أمام المرأة
ثم حيّأها منحنيّاً حتى الأرض • وكانت المسكينة مريضة منذ حدوث تلك
الأحداث كلها ، فهى لا تكاد تستطيع أن تجر نفسها جراً • قال لها : • تعالى
أيتها العزيزة ، أيتها الأرملة المحترمة ، تعالى تزوجينى رغم أننى شيطان
رجيم ، ردّى الى القدرة على الحياة • نظرت اليه المرأة لا حية
ولا ميتة • قال لها : • أريد أن يكون لنا صبي صغير آخر ، فاذا ولد لنا
صبي آخر ، كان معنى ذلك أن الأول قد غفر لنا كلينا ، أنا وأنت •
هو الذى أمرنى بذلك • • لاحظت المرأة أن الرجل لا يملك صوابه
كاملاً ، وأنه خارج عن طوره ، ومع ذلك لم تنطق صبراً فقالت له :

— هذه سخافات وحقارة • بسبب هذه الحقارة فقدت جميع صفارى •
لا أستطيع حتى أن أراك أمامى ، فاهيك عن أن أحكم على نفسى بمثل
هذا العذاب الى الأبد ؟

انصرف مكسيم ايفانوفتش ، ولكنه لم يهدأ • ذهلت المدينة كلها
من هذه المعجزة • أرسل مكسيم ايفانوفتش الى الأرملة نساءً يتشفعن له
عندها • واستدعى من بلده عمّتين له ، قد تكونان عمّتيه وقد لا تكون
عمّتيه ، ولكنهما بورجوازيتان من قريباته على كل حال ، أى امرأتان
لهما وزن وقيمة • أخذت النساء تنصحنها ، وتمدحها ، ولا تخرج من
عندها • وأرسل أيضاً أشخاصاً من المدينة : أرسل تجاراً ، وامرأة

الأرشمندريت ، وزوجات موظفين • المدينة كلها راحت تتقرب منها وتترلف اليها • ولكنها احتقرتهم جميعاً • كانت تقول : « لو كان هذا يبعث ينامى أحياه فقد أقبل ، أما وأنهم لن يبعثوا فعلام أفعل ؟ اذا رضيت لأنت في حق أولادى اليتامى ! » •

وقد استطاع مكسيم ايفانوفتش ان يحمل الارشمندريت نفسه على اشفاعة لديها ، فقال لها الأرشمندريت : « سوف تخلقين منه انساناً جديداً » • فارتاعت • وكان الناس يدهشون من سلوكها : « كيف يمكن أن ترفض امرأة مثل هذه السعادة ؟ » • واليكم الطريقة التى استطاع بها أخيراً أن يقنع المرأة : قال لها : « لقد قتل نفسه رغم كل شيء • ولم يكن طفلاً صغيراً • كان قد بلغ سن الرشد • كان فى سن يستطيع فيها أن يتناول القربان المقدس بدون اعتراف • فهو اذن مسئول عن خطيئة الانتحار بعض الشيء • فاذا تزوجتنى نذرت لأبنين » كنيسة جديدة لترتاح نفسه راحةً أبدية • • • أذغنت المرأة لهذه الحجة ، وارتضت أن تتزوج مكسيم ايفانوفتش ، وتمّ الزواج •

دهش جميع الناس من نتيجة هذا الزواج • لقد عاش الزوجان منذ اليوم الأول فى وئام كامل صادق ، كان كل منهما وفياً للآخر وفاء عظيماً ، فكأنهما نفس واحدة حلت جسدين • وحملت المرأة فى ذلك الشتاء نفسه ، وطفق الزوجان يزوران الكنائس ويتقون غضب الرب • وذهبا الى ثلاثة أديرة يسمعان النبوءات • وقام مكسيم ايفانوفتش ببناء الهيكل الذى وعد بنائه ، وأنشأ فى المدينة مستشفى وملجأ • ووهب جزءاً من ثروته لأرامل ويتامى • وتذكر جميع أولئك الذين أساء اليهم ، وحاول أن يرد اليهم ما اغتصبه منهم • ولكنه أخذ يبدد المال بغير اعتدال ، حتى ان امرأته والأرشمندريت اضطرا أن يصدها عن ذلك : « كفى ! ما فعلته كافٍ » • وانصاع مكسيم ايفانوفتش • لكنه قال : « لقد غششت قوما مرة » •

ورد الى فوما حقه • وذرف فوما دموع التأثر ، وقال : « لاداعى الى هذا ... أخذنا منك كثيراً ، فنحن شايدون لك فضلك الى الابد » •
وتشيع جميع الناس بهذه الروح • حقاً ان الانسان يتأثر بالقوة الصالحة • ان الناس فى بلدنا طيبو القلب •

وتولت الزوجة ادارة المصنع ، بلغت من حسن ادارتها أن الناس لا يزالون يتذكرون ذلك • ولم ينقطع هو عن الشراب ، لكنها كانت تراقبه ، وحاولت أن تشفيه • وأصبحت أحاديثه رصينة حتى لقد تغير صوته • وصار رجلاً رموفاً حتى بالحيوانات : فى ذات يوم رأى من نافذته رجلاً يضرب حصانه بالسوط ، فأرسل من يشتري الحصان بضعفى ثمنه • ووهبت له القدرة على البكاء : ففينا هو يتكلم مع أحد الناس ، تنرق عيناه بالدموع فجأة • ولما حان الموعد استجاب الرب لدعائهما فزرعهما غلاماً ، فإذا بمكسيم ايفانوفتش يشرق وجهه بالفرح أول مرة بعد الشفاء الذى أصابه • ووزع صدقات كثيرة ، وردّ ديوناً كثيرة ، ودعا المدينة كلها الى حفلة التعميد • ولكن وجهه كان فى الغد مكفهراً •

ورأته زوجته مهموماً ، فجاءته بالوليد وقالت له : « ان ابنى غفر لنا ، فدموعنا وصلواتنا أثرت فى قلبه » • يجب أن نذكر أنهما لم يتحدثا عن هذا الموضوع بكلمة واحدة طول السنة • وكان كل منهما يحتفظ به لنفسه • نظر مكسيم ايفانوفتش اليها مظلم الوجه كالليل ، وقال لها : « اسمعى • انه لم يجتنى طول هذه السنة • ولكنى رأيت فى الحلم الليلة » • وقد وصفت الزوجة بعد ذلك ما اتابها من شعور حينذاك فقالت : « عندما سمعت هذه الكلمات الغريبة ، نفذ الرعب فى قلبى » •

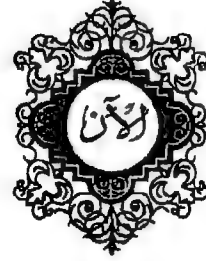
لم يكن عبثاً أن الولد ظهر لمكسيم فى الحلم • وما ان نطق مكسيم بهذه الكلمات حتى مرض الوليد فى تلك اللحظة نفسها • ودام مرضه ثمانية أيام ، فكانوا يصلون من أجله بغير انقطاع ، واستدعوا له الأطباء •

حتى لقد استقدموا من موسكو بالقطار أكبر طبيب • وقال الطبيب غاضباً :
« انتى أكبر طبيب ، وموسكو كلها تنتظرنى • ووصف للمريض فطرات
دواء وأسرع عائداً الى موسكو ، بعد أن قبض ثمانمائة روبل • ومات
الطفل فى المساء •

ماذا حدث بعد ذلك ؟ ترك مكسيم ايفانوفتش نروته كلها لزوجته
العزيرة ، سَلَّمها جميع أمواله وأوراقه ، متنازلاً لها عن ذلك كله
وفقاً للأصول المرعية والأنظمة الشرعية ، ثم وقف أمامها وانحنى يحييها
حتى الأرض ، وقال لها : « يا زوجتى ، يا أغلى ما فى الحياة عندى ،
دعنى أمضى لانتهاز روحى ما دمت أملك الآن سيلاً الى ذلك • فاذا قضيت
هذا الوقت دون أن أظفر بطائل ، فلن أعود • لقد كنت قاسى القلب •
ولقد سمت الآخرين سوء العذاب • ولكننى أظن أن الآلام التى سأحملها
فى المستقبل ، وحياة التجارب التى سأعيشها ، قد تشفع لى عند الرب
فيهب لى رحمته ، ذلك أن ترك هذا كله ليس صلياً صغيراً ولا ألماً
صغيراً • • • حاولت زوجته أن تثنى عزمه بالدموع • قالت له : « ليس لى
الآن على هذه الأرض أحد غيرك ، فمن ذا الذى سيرعانى ؟ لقد انفتح
قلبى فى هذه السنة للمحبة والحنان • وظلت المدينة كلها تنصحه خلال
شهر كامل • تضرعوا اليه ، قرروا أن يحتجزوه بالقوة • ولكنه لم يصنع
الى أحد • وتسلس فجأة فى ذات ليلة ومضى ثم لم يعد • يقال انه لا يزال
الى الآن يجوب الآفاق ويتحمل العذاب ، ويزور امرأته الغالية مرة
كل شهر •

الفصل الرابع

١



أصل الى الكارثة النهائية التي تختتم هذه المذكرات •
ولكننى قبل أن أواصل الكتابة أرانى مضطراً الى
أن استبق الحوادث فأشرح أمراً ما كنت أعرفه فى
حينه وانما أنا عرفتُه وأدركته بعد ذلك بمدة
طويلة ، أى بعد أن انتهى كل شىء • وإذا لم أفعل ذلك فلن يكون
حديثى واضحاً ، بل سيكون ألبازاً لا تفهم • ومن أجل هذا التوضيح
التمهيدى سوف أضحي فى سبيل الوضوح والإيجاز بكل ما يسمى اشارة
فنية أو تشويقاً فنياً ، فكأن الذى يكتب ليس أنا ، وكأن قلبى لا يشارك
فيه أية مشاركة • سيكون ما أقوله غير شخصى ، فهو أشبه « بمقالة
صغيرة » فى جريدة •

كان فى وسع رفيق طفولتى ، لامير ، أن ينتمى انتماء تاماً الى
عصابة من تلك المصابات الرهيبة التى تتألف من متآمرين حقيرين يتواطئون
على القيام بما يطلق عليه اليوم اسم « الابتزاز » ، وما يقع الآن تحت طائلة
العقوبة فى بعض مواد القانون المدنى • والمصابة التى شارك لامير فى
أعمالها بعض المشاركة انما تكونت بموسكو ، وارتكبت عدداً كبيراً من
المكائد (واكتشف شىء من أمرها فى النهاية) • وقد علمت فيما بعد أن
أعضائها كان لهم بموسكو ، خلال فترة من الزمن ، رئيس واسع
الخبرة جداً ، ليس بالفبى ، وليس بالشاب اليافع ، وانما هو رجل متقدم
فى السن • وكان أفراد العصابة ينفذون مشروعاتهم جماعةً واحدة فى بعض

الاحيان أو ينفذونها زمراً زمراً فى احيان أخرى • وعدا الجرائم القذرة
الكثيرة التى ارتكبوها (والتى تحدثت عنها الصحف) كانوا بقيادة رئيسهم
يقدمون على أعمال معقدة غاية التعقيد ، مأكرة أشد المكر • وقد عرفت
بعض هذه الأعمال فيما بعد • لكننى لا أحب أن أدخل فى التفاصيل •
فحسبى أن أذكر سمة بارزة من سمات أسلوبهم فى العمل : انهم يحاولون
أن يكتشفوا أسرار أناس يكونون شرفاء جداً فى بعض الأحيان ، وتكون
لهم فى المجتمع منزلة عالية • فإذا عرفوا هذه الأسرار ذهبوا الى أولئك
الأشخاص فهددوهم بنشر بعض الوثائق (وهى وثائق ليست فى حوزتهم
أحياناً) ويطالبونهم بأن يدفعوا لهم مبالغ من المال ثمناً لسكوتهم • ان هناك
أموراً لا توجب العقاب ، وليس فيها شيء من اجرام ، ولكن أشرف
الناس وأشدهم ثباتاً وصلابة يخشون نشرها • وكان أفراد العصابة يستغلون
الأسرار العائلية فى أكثر الأحيان • فمن أجل أن أبين للقارىء مدى
الحذق والمكر فيما كانوا يقومون به من أعمال ، سأروى مكيدة من
مكائدهم ، دون أن أدخل فى التفاصيل • لقد حدث فى أسرة كريمة
من الأمور شيء يؤسف له حقاً ، بل شيء يمكن ان يوصف بأنه جريمة ،
وهو أن زوجة رجل معروف مرموق قامت علاقة بينها وبين ضابط غنى
شاب • وقد ترمى هذا السر الى علم أفراد العصابة ، فاليكم ما فعلوه :
ذهبوا الى الشاب وهددوه بأنهم سيلفون الزوج • لم يكن لديهم أى
برهان • ولكن كل حذقهم فى اللجوء الى استعمال هذا الأسلوب وكل
براعتهم فى الحساب انما يقومان على أن الزوج ، اذا بلغه الأمر ، ولو لم
يكن هناك براهين ، سيتصرف تصرف من يملك البراهين القاطعة ،
وسيتخذ الاجراءات التى يتخذها من توفرت له الأدلة الدامنة • فهم قد
بنوا حسابهم على معرفتهم بطبع الزوج ومعرفتهم بظروف الأسرة • وكان
بين أفراد العصابة شاب من المجتمع الراقى استطاع أن يحصل سلفاً على
معلومات مفيدة • فطالبوا العشيق بمبلغ ضخم من المال ، دون أن يتعرضوا

من ذلك لأى خطر ، لأن الضابط الذى وقع فريسة لهم كان هو نفسه لا يهتم الا بكتمان الأمر .

ان لامير ، رغم مشاركته فى أعمال تلك العصابة المسكوبيه ، لم يكن ينتمى اليها انتماء تاماً . لكنه وقد استطاب هذه الصنعة ، أخذ يجرب العمل لنفسه شيئاً فشيئاً . يجب أن أبادر فأقول انه لم يكن قادراً على السير فى هذا الطريق كل القدرة . صحيح أنه لم يكن غيباً ، وصحيح أنه كان حيسوباً ، ولكنه كان شديد الاندفاع ، وكان عدا ذلك مسرفاً فى البساطة أو قل فى السذاجة : فهو لا يعرف البشر ولا يعرف المجتمع . أظن مثلاً أنه كان لا يدرك الدور الذى يقوم به رئيس تلك العصابة بموسكو ، فكان يتخيل أن ادارة مثل هذه الأعمال وتنظيمها هما من الأمور السهلة جداً . وكان عدا ذلك كله يكاد يحسب جميع الناس أوغاداً جناء مثله ، فإذا لاحظ مثلاً أن فلاناً من الناس خاف فى ظرف خاص ، تخيل أنه سيخاف فى كل ظرف لأنه جبان . كان هذا عنده بديهية من البديهيات .

أحسب اننى لا أحسن التعبير عما أريد أن أقوله . وهذه الأمور كلها ستوضحها الوقائع فيما بعد . ولكننى أعتقد أن لامير كان سىء الخلق ، فهناك عواطف سامية نبيلة لا يصدق أن تكون موجودة ، بل لا يخطر له وجودها على بال .

وقد جاء الى بطرسبرج لأنه كان يحلم منذ مدة طويلة بأن مجال العمل فيها أوسع من مجال العمل بموسكو ، ولأنه كان قد وقع له بموسكو حادث مزعج ، فكان يلاحقه ويطارده هنالك شخص يضرر له أسوأ النيات . فلما وصل الى بطرسبرج أسرع يتصل برفيق من رفاقه القدامى . ولكنه لم يلبث أن وجد مجال النشاط محدوداً ووجد الأعمال ضئيلة تافهة . ثم اتسعت دائرة معارفه ، ولكنه لم يصل الى ثمرة . وقد قال لى فيما بعد:

« الناس هنا خرق باليه وصيية صنفلا لا أكثر » . وهاهو ذا في ذات صباح ، عند طلوع النهار ، يلقاني متجلداً من البرد في محاذاة جدار ، ثم يكتشف مما قلته أثناء هذياني انه وقع على « قضية هامة جداً » يمكن أن ندر عليها أرباحاً طائلة ، أو هذا ما قدره .

لقد استخرج هذه القضية كلها مما رويته له حين كنت أتدافاً في بيته وأنا في حالة هذيان حتماً . فمن كل ما أفلت من لساني ذلك اليوم كان يتضح أن الاهانة الكبرى انما وقعت على من بيورنج ، ومنها « هي » : والا لكان يمكن أن يدور هذري على ما جرى لي عند تسرشتشكوف . ولكنني لم أهدر الا في الأمر الأول ، وهذا ما عرفته بعد ذلك من لامير نفسه . ثم انني كنت متحمساً ، وكنت في ذلك الصباح الرهيب أعد لامير وآلفونسين متقدين ومحررين . وحين تساءلت بعد ذلك ، أثناء نقاهتي ، وأنا لا أزال في السرير : ما عسى عرف لامير من أحاديثي إبان الهذيان ، وإلى أي مدى أفضيت إليه بأسراري ، لم يخطر ببالي أبداً أنه ربما عرف أشياء كثيرة ! صحيح أنني كنت أقدر - وهذا ما تدل عليه مشاعر الندامة التي أخذت بخناني - أنني قد أكثرت من الكلام حتماً ، ولكن أعود فأقول انني لم يدر في خلدي قط أن أكون قد بلغت من كثرة الكلام ذلك المبلغ كله ! وقد أمّلت أيضاً - وكنت أعوّل على هذا - أن أكون قد عجزت في ذلك الوقت ، بسبب ضعفى ووهنى ، عن النطق بكلام واضح . وهذا ما أنذكره الآن تذكراً واضحاً . ولكن تبين في الواقع أنني قلت كلاماً أوضح كثيراً مما كنت أقدر وأؤمل . ولكن المهم أن هذا كله لم يتكشف لي الا بعد مدة طويلة ، وذلك كان سبب بلائي .

استطاع لامير أثناء هذياني أن يعرف من هذري وتمتمائي وحماساتي وما الى ذلك ، استطاع أن يعرف أولاً : جميع الأسماء تقريباً ، وحتى بعض المناوين ، معرفة دقيقة . واستطاع ثانياً أن يكتون لنفسه فكرة قريبة

من الواقع عن دور كل شخص من الأشخاص (الأمير العجوز ، بيورنج ،
هى ، أنا آندريفنا ، وحتى فرسيلوف) . واستطاع أن يعرف ثالثاً
أننى 'أهنت وأنتى هدّدت بالانتقام . واستطاع رابعاً وأخيراً أن يعلم أن
فى حوزتى وثيقة سرية مخبأة هى رسالة يكفى أن يُطلع عليها أمير عجوز
نصف مجنون حتى يعرف أنها مكتوبة بخط بنته التى تصفه فى هذه الرسالة
بأنه مجنون ومستشير فيها أناسا من رجال القانون من أجل أن توقع حجراً
عليه ، فاما أن يجنّ نهائياً واما أن يطردها من بيته ويحرمها من الميراث
أو يتزوج أمنة تسمى فرسيلوفا يفكر فيها منذ الآن ولكنهم لا يسمحون له
بتزوجها . الخلاصة أن لاميير عرف أشياء كثيرة . ولا شك أن هناك أشياء
كثيرة بقيت غامضة فى ذهنه ، ولكنه قد أمسك بالحيط ووضع قدمه فى
الطريق . وحين فررت بعد ذلك من عند ألفومسين استطاع أن يعرف
عنوانى فوراً (بأبسط وسيلة : مكتب العناوين) . ثم أسرع يجمع
المعلومات اللازمة ، فعرف أن جميع الأشخاص الذين سميتهم موجودون
فعلاً . فبادر عندئذ الى القيام بأول مسعى .

كان الشئ الأساسى هو أن هناك وثيقة ، وأن الوثيقة فى
حوزتى أنا . ولم يخامر لاميير أى شك فى أن لهذه الوثيقة قيمة كبيرة .
هنا أسكت عن ظرف يستحسن أن أرجىء ذكره الى أن يحين وقته .
ولكننى أشير الى أن هذا الطرف قد عزز اقتناع لاميير بأن الوثيقة موجودة
فعلاً وبأن لها قيمة كبيرة (وأبادر فأقول حالاً ان الطرف كان حاسماً ،
ولم يكن فى امكانى أن أتخيله فى ذلك الوقت ، حتى ولا الى آخر
القصة ، أى الى اللحظة التى انهار فيها كل شئ دفعة واحدة واتضح من
تلقاء نفسه) . حتى اذا تم له الاقتناع بهذه النقطة الأساسية مضى يزور
آنا آندريفنا قبل كل شئ .

لا يزال هنالك لغز يحيرنى : كيف استطاع هذا الرجل ، لاميير ، أن

يتسلل فيصل الى امانة صعبة المأخذ رفيعة مثل انا اندريفنا ؟ صحيح أنه حصل على معلومات ، ولكن ما قيمة هذا ؟ وصحيح انه كان حسن الهندام وأنه كان يتكلم بلهجة باريسية ويسمى باسم فرنسى ، ولكن كيف لم تدرك آنا آندريفنا على الفور أنه ويش ؟ أم ترانا يجب أن نفترض أن هذا الوبش نفسه هو الذى كانت محتاجة اليه فى ذلك الوقت ؟ هل هذا ممكن ؟

لم أشأ فى يوم من الأيام أن أعرف تفاصيل اللقاء الذى تم بينهما . ولكننى تصورت المشهد بعد ذلك مراراً كثيرة . أغلب الظن أن لامير منذ البداية ، قد مثل بأقواله وحركاته ، دور صديق الطفولة انقلب على رقيق عزيز . وأغلب الظن أنه أشار فى الوقت نفسه إشارة واضحة الى « الوثيقة » التى فى حوزتى ، وأنه أفهم آنا آندريفنا أن هذه الوثيقة سر لا يعرفه أحد غيره ، هو لامير ، وأننى أعول على هذه الوثيقة للانتقام من الجنرالة آخماكوفا ، الى آخر ما هنالك . واستطاع خاصة أن يشرح لها ما لهذه الورقة من شأن كبير وقيمة عظيمة ، شرحاً فيه كل ما يجب من دقة ، وكانت آنا آندريفنا فى ذلك الأوان نفسه تمر بظرف لا يمكنها فيه الا أن تتشبث بمثل هذا النبأ ، والا أن تنصت اليه بانتباه شديد . . والا أن تعلق بالفنح - انقياداً لدافع « الصراع من أجل البقاء » .

كانوا ، فى ذلك الأوان نفسه ، قد انتزعوا منها خطيبتها ، ونقلوه الى تساركويا تحت الوصاية ، ووضعوها هى نفسها تحت الوصاية . ثم اذا بحظ موات يعرض لها : فالأمر الآن ليس أمر نمائم يهمس بها همساً ، ولا أمر شكاوى ترافقها دموع ، ولا أمر أقاويل ووشايات ، انما الأمر الآن أمر رسالة ، رسالة مكتوبة بالخط ، أى برهان قاطع على سوء ما تضره ابنة الأمير لأبيها من نيات دنيئة ، وما يضمه جميع الذين انتزعوا الأمير منها من مثل هذه النيات . هو برهان قاطع على أنه ينبغي

للأمير أن ينقذ نفسه ولو بالهروب ، وأن يجيء إليها هي أنا أندريفنا ،
وأن يتزوجها في غضون أربع وعشرين ساعة ، والا أودعوه مستشفى
للمجانين •

ومن الجائز أيضاً ألا يكون لأمير قد عمد الى المكر مع هذه
الآنسة دقيقة واحدة ، وانما قل لها فجأة منذ أول كلمة : « يا آنسة ،
اما أن تبقى غانسة ، واما أن تصبحي أميرة ومليونية : هناك وثيقة ،
سأستلمها من ذلك الشاب ، وأسلمتها اليك • • فهاتين ثلاثين ألفاً ، •
بل اني لأظن أن هنا هو ما حدث • نعم ، لقد كان لأمير يتصور جميع
الناس أوغاداً مثله • أكرر مرة أخرى أن لأمير يتصرف بما يتصف به
الوغد من سذاجة ، وبراعة • ومن الجائز جداً كذلك ، أن أنا أندريفنا
لم تضطرب لهذه الهجمة لحظة واحدة ، وعرفت كيف تسيطر على نفسها
سيطرة تامة ، وكيف تصفى الى الرجل المبتز الذي يتكلم بلفظه اصغاء
كاملاً ، وذلك بفضل « رحابة الفكر » • ولعلها احمرت في أول الأمر
قليلاً ، ولكنه تجلدت وأتصت الى النهاية • ما أوضع الصورة التي أتخيلها
لهذه المرأة الصعبة المأخذ ، ذات الكبرياء ، الرصينة حقاً ، التي تملك
فكراً واسماً ، وهي تمد يدها الى يد رجل مثل لأمير ! نعم • • • فكراً
واسماً ! فكراً ووسياً بعيد الأفق ، شغوفاً « بالرحابة » ، هو الى ذلك
فكر امرأة تمر بمثل هذه الظروف •

سألخص الآن : لقد كان لأمير ، في يوم خروجه بعد المرض ،
يقف الموقفين التاليين (الآن انما أعرف هذا معرفة اليقين) : فهو أولاً
يريد أن يطلب من أنا أندريفنا ثلاثين ألف روبل على الأقل ، ثانياً
للوثيقة • وهو يريد ثانياً أن يساعدها في تخويف الأمير ، واختطافه ،
وتزوجه فوراً ، أو في شيء من هذا القليل • حتى لقد تم وضع خطة
مقررة • ولكن تنفيذ الخطة ينتظرني أنا ، أي ينتظر الوثيقة •

ولكن لامبير كان فى ذهنه مشروع آخر أيضاً ؛ هو أن يخون
آنا أندريفتا ، فيتركها ويبيع الوثيقة للجنرالة آخماكوف ، اذا كان ذلك
يعود عليه بربح أكبر . وفى هذه الحالة يكون التعويل على بيورنيج . ولكن
لامبير لم يكن قد لقي الجنرالة بعد ، وانما هو يتبع خطاها . وهنا أيضاً
يجب انتظارى أنا .

آه . . . ما كان أشد حاجته الىّ ، لا الىّ أنا ، بل الى الوثيقة !
وكان لامبير يتصور أن يتبع معى احدى خطتين أيضاً . فأما الخطوة الأولى
فهى ، اذا لم يمكن سلوك سبيل آخر ، أن نتعاون معاً ، فنتقاسم الربح
بعد أن يكون قد استولى علىّ جسماً وروحاً . وأما الخطوة الثانية - وهى
تفريه اغراء أشد - فقوامها أن يفرّ بى كما يفر بصبى صغير ، فيسرق
منى الوثيقة ، أو يبتزعها منى عنوةً وقسراً . وكان يجب هذه الخطوة
الثانية ويداعبها فى أحلامه . أكرر مرةً أخرى أن ثمة ظرفاً معيناً كان
يجعله لا يشك فى نجاح هذه الخطوة الثانية تقريباً ، ولكن سبق أن ذكرت
أننى سأشرح هذا الطرف فيما بعد . ومهما يكن من أمر ، فقد كان لامبير
ينتظرنى نافذ الصبر ، فكل شئ متوقف علىّ : المساعى التى يجب أن
يقوم بها ، والخطوة التى يجب أن يختارها .

ويجب أن أنصفه فأقول : انه رغم نفاد صبره قد سيطر على نفسه
الى اللحظة الأخيرة . فلم يجرى الىّ أثناء مرضى أبداً ، ولكنه مرّ بالبيت
مرةً وكلم فرسيلوف . لم يرهقنى ، ولم يخفنى ، حتى لقد ظلّ الى
ساعة خروجى يظهر عدم المبالاة . وكان على يقين من أننى لن أكلم عن
الوثيقة أحداً ، ولن أسلمها الى أحد ، ولن أتلفها بحال من الأحوال .
لقد استطاع أن يستخلص من أقوالى نفسها فى بيته أننى أحتفظ بالوثيقة
سراً مكتوماً ، بل أخاف أن يفتضح أمرها . وكان لا يشك فى أننى متى
شفيت فسيكون هو أول من أسعى اليه فوراً ، واننى لن أسعى الى أحد

قبله • وقد عادتني داريا أونيسيموفنا تنفيذاً لأوامره ، فكان يعلم أنني خائف وأنتى احترق شوقاً الى معرفة ما حدث ، وأنتى لن أصمد ••• وكان عدا ذلك قد اتخذ جميع التدابير ، واستطاع أن يطلع حتى على اليوم الذى سأخرج فيه ، بحيث لا يمكننى أن أفلت منه ولو أردت •

ولكن اذا كان لامير ينتظرني ، فلقد كانت آنا أندريفنا تنتظرني أكثر منه أيضاً • ويجب أن أقول بصراحة ان لامير كان على حق فى تأهبه لحياتها والغدر بها ، وكان الذنب فى ذلك ذنبها هى • فرغم تفاهمها المحقق (وأنا أجهل صورة ذلك التفاهم ، لكننى أعرف أنه حدث) ظلت آنا أندريفنا الى آخر دقيقة لا تلتزم فى تعاملها معه جانب الصراحة التامة ، ولم تكشف عمّا تضرره كشفاً كاملاً • وانما هى تكتفى بالإشارة والتلميح • لقد لمّحت له بكل أنواع الموافقة ، ولمحت له بكل أنواع الوعود ، ولكن كلامها كان تلميحاً فصعب • لعلها أصغت الى جميع تفاصيل خطته ، ولكنها لم توافق عليها الا بالصمت • ان هناك أسباباً قوية تدفعنى الى الاعتقاد بهذا • وكان يحضها على اتباع هذا الأسلوب أنها كانت « تنتظرني » • لا بد أنها كانت تفضّل أن تتعامل معى على أن تتعامل مع وغد مثل لامير ؟ وهذا أمر بديهي ومفهوم • ولكن المصيبة هى أن لامير أدرك ذلك أخيراً • فلو أخذت آنا أندريفنا الوثيقة منى بالاتفاق معى رأساً ، لألحق ذلك به خسارة كبيرة • وكان هو مقتنعاً بضخامة الصفقة ، • ولو كان غيره فى مكانه لخاف ولظلت تساوره الشكوك • ولكن لامير شاب ، وجريء ، وظامئ الى الربيع السريع ، ولا يعرف البشر كثيراً ، ويتصور قلة الشرف فى جميع الناس • فليس فى وسع انسان مثله أن يشك ، لا سيما وأنه قد حصل من آنا أندريفنا على تأييدها للنقاط الأساسية فيما يعزم عليه •

ثمة أمر آخر له شأن كبير : هل كان فرسيلوف ، فى ذلك اليوم ،

يعرف شيئاً ما ؟ هل كان يششارك لامبير فى بعض الخطط ولو من بعد ؟
كلا ، ثم كلا ! انه فى « ذلك الوقت » لم يكن يششارك بعد . لعل كلمة
طائشة قد أفلتت منه . ولكن كفى كفى ! حسبى استباقاً للأحداث !

ثم ماذا عنى أنا ؟ هل كنت أعرف شيئاً يوم خروجى ؟ لقد ذكرت
حين بدأت بكتابة هذه الزاوية من حديثى أننى كنت يوم خروجى
لا أعرف شيئاً ، وأننى عرفت كل شئ فيما بعد . هذا صحيح . ولكن
هل صحيح كل الصحة ؟ الحق أننى كنت أعرف شيئاً ما ، بل كنت أعرف
أشياء كثيرة . ولكن كيف ؟ فلينذكر القارئ « حلمى » الذى رأيته .
إذا كان حلم من هذا النوع قد أمكن أن أراه فى نومى ، وأن ينبجس
من نفسى فى هذه الصورة ، فإن هذا يدل على أننى كنت لا أزال أجهل
أموراً كثيرة ، ولكنه يدل على أننى كنت « أتوجس » هذه الأمور ، كما
يستدل على ذلك مما شرحتة هنا من أشياء لم أعرفها فى الواقع الا بعد
أن كان قد « انتهى كل شئ » . صحيح أننى كنت لا أعلم شيئاً علم اليقين ،
ولكن قلبى كان يخفق بتوجسات تتبأ بما سيحدث ، وكانت الأرواح
الشريرة قد غزت أحلامى واستولت عليها . ذلكم هو الرجل الذى هرعت
اليه وأنا أعرف من هو ، وأوجس جميع التفاصيل . لماذا هرعت اليه ؟
تخلوا أننى ، الآن ، فى هذه اللحظة ، وأنا أكتب هذه الأسطر ،
يبدو لى أننى منذ ذلك الحين ، كنت أعرف ، بأدق التفاصيل ، لماذا
سببت اليه مسرعاً ، رغم اننى فى واقع الأمر لم أكن أعرف شيئاً
كما سبق أن ذكرت ذلك . قد يفهم القارئ عنى هذا الكلام . ولننتقل
الى الوقائع ، ولنذكرها بعضها وراء بعض .

بدأ كل شيء هكذا : قبل خروجي الأول بيومين ، دخلت ليزا مضطربةً أشد الاضطراب • كانت منزوعةً انزعاجاً شديداً • لقد حدث لها في الواقع شيء لا يطلق •

سبق أن أشرت الى صلاتها بفاسين • لقد ذهبت اليه لا لتبين لنا أنها في غير حاجة اليها فحسب ، بل لأنها كانت تقدره فعلاً • كانا قد تعارفا بمدينة لوجا • وقد لاح لي دائماً أن فاسين ليس غير مكترث بها وكان طبيعياً ، وهي فيما هي فيه من شقاء ، أن ترغب في طلب النصيح من انسان يملك عقلاً راجحاً ، ويتمتع بالهدوء ، ويتسم بسمو النفس ، وهذا كله كانت تفترضه في فاسين • ثم ان النساء لا يملكن بصيرة نافذة في تقدير شخص يعجبهن • حتى لقد يرين في المفارقات الغريبة آراء سديدة ، متى جاءت تلك المفارقة مطابقة لرغباتهن • ولقد كانت ليزا تحب في فاسين اهتمامه بحالتها الراهنة وعطفه على الأمير ، كما بدا لها ذلك منذ المرات الأولى • واذ كانت من جهة أخرى تحس بما يحمله لها من عواطف ، فقد كان يستحيل عليها ألا تحترم فيه تقديره لمناقسه والأمير ، حين باحت له هي نفسها بأنها تستشير فاسين أحياناً ، أحس بقلق شديد ، وشعر بغيرة قوية عليها • فجرح هذا شعور ليزا . وأصبحت تواصل زيارة فاسين متعددةً منذ ذلك الحين • فسكت الأمير ، ولكنه صمت على مضض وظل مكفهر الوجه • وقد اعترفت لي ليزا فيما بعد (بعد مدة طويلة جداً) أن فاسين سرعان ما أصبح لا يعجبها • لقد كان

هادئاً ، وهذا الهدوء المستمر المطرد الذى أعجبها كثيراً فى البداية قد أصبح يغيظها بعد ذلك • صحيح أن فاسين كان رجلاً عملياً ، وأنه أسدى إليها فعلاً بعدد من النصائح التى يؤمّ ظاهرها بأنها نصائح رائعة ، ولكن هذه النصائح جميعها قد تبّين بما يشبه المصادفة أنها لا يمكن تنفيذها • وكان فى بعض الأحيان ينظر الى الأمور نظرة مسرفة فى التعالى ، وأخذ خجله أمام ليزا يقل شيئاً بعد شيء • وقد عزت هى ذلك الى أن اهتمامه بحالها أخذ يتضاءل مزيداً من التضاؤل على غير شعور منه • وفى ذات مرة شكرت له أنه لا يزال يلقانى ويحدثنى حديث الند للند رغم تفوقه علىّ فى الفكر (وهى بذلك قد أبلغته كلماتى نفسها) ، فما كان منه الا أن أجابها بقوله :

— ليس الأمر ما تظنين ، بل هو أبسط من ذلك كثيراً • فأنا لا أرى أىّ فرق بينه وبين سائر الناس • ولا أعده أغبى من الأذكياء ولا أسوأ من الأخيار • لذلك أعامل الناس كلهم معاملة واحدة ، لأنهم فى نظرى متماثلون لا يختلف بعضهم عن بعض •

— كيف ؟ لا ترى بين الناس فروقاً ؟

— بلى • ان الناس يختلف أحدهم عن الآخر فى هذه النقطة أو تلك ، ولكن هذه الاختلافات لا وجود لها فى نظرى لأنها لا تتعلق بى ولا شأن لى بها • هم عندى متساوون جميعاً • والأمور كلها تستوى عندى • وذلك هو السبب فى أننى أعامل الناس كافة معاملة حسنة •

— ولا تضجر من هذا ؟

— لا ، أنا راض عن نفسى دائماً •

— وليس لك رغبات ؟

— بلى ، ولكن رغباتى ليست كثيرة • لست فى حاجة الى شيء ،

أو لا أكاد أكون في حاجة الى شيء ، لست في حاجة حتى الى روبل واحد زيادة على ما معي • يستوى عندي أن ألبس ذهباً وأن أبقى كما أنا • الملابس الذهبية لا تضيف الى فاسين شيئاً • والطعام الفاخر لا يفريني • وهل المناصب والأمجاد تساوي قيمتي ؟

لقد حلفت لي ليزا بشرفها أنه قال لها هذا الكلام بنصه يوماً • والحق أننا قبل أن نقطع برأى ، يجب أن نعرف الظروف التي قيلت فيها هذه الكلمات •

ان تسامح فاسين تجاه الأمير (وهو تسامح اقتنعت ليزا أخيراً بأنه لا يرجع الى ما يحمله لها من عاطفة ، وانما يرجع الى قلة الاكثرات التي يتخذها فاسين عقيدة له ومذهباً) قد أخذ يفسد شيئاً فشيئاً حتى استحال الى نوع من سخرية فيها احتقار • وقد أحق هذا ليزا ، ولكن فاسين آمن فيه • وكان يعبر عن آرائه دائماً بركة ولطف ، بل كان يهتم ويدين بغير اظهار شيء من الاستياء أو الامتناع ، وانما هو يستعمل البراهين المنطقية وحدها ليحكم بأن بطل ليزا رجل نافه لا قيمة له • وفي هذا المنطق انما كانت تنوى السخرية • وبرهن لها أخيراً على أن حبها للأمير • يجافى العقل ، ، وأنها تكره نفسها عليه اكراهاً وتفسرها عليه قسراً • وختم كلامه قائلاً : « لقد ضلت في عواطفك ، وعلى المرء حين يدرك ضلاله أن يتداركه بالاصلاح حتماً » •

حدث هذا في ذلك اليوم • وقد استاءت ليزاء ونهضت لتتصرف ، فما الذي فعله واستنتج هذا الانسان العاقل ؟ انبرى يعرض عليها الزواج بنبل ، وحتى بعاطفة ! فما كان من ليزا الا أن بادرت تصفه على الفور بأنه غبي أحقق ! قالت له ذلك وجهاً لوجه • وخرجت •

أن يعرض على امرأة أن تخون انساناً شقياً لأن هذا الانسان الشقي

« لا يستحقها » ، وأن يمرض هذا على امرأة حبلى من هذا الانسان الشقى ، ذلكم هو ذكاء هؤلاء الناس من أمثال فاسين ! اننى أسمى هذا احباً فى النظريات وجهلاً مطلقاً بالحياة مردؤه الى زهو وغرور . وقد أدركت ليزا ، من جهة أخرى ، ادراكاً واضحاً كل الوضوح ، أن اعتراض فاسين باقدامه على هذا العرض انما يرجع الى معرفته بأنها حامل . وسرعان ما ذهبت الى الأمير وقد فاض دمعها استياء واستنكاراً ، فاذا بالأمير يتفوق على فاسين سخافة . كان ينبغي له ، بعد الذى قصته عليه من أمر فاسين ، أن يقتنع بأن غيرته لا محل لها . ولكن تقيض هذا هو ما حدث . فقد طاش صوابه عندئذ تماماً . وكذلك شأن جميع الفيورين على كل حال ! لقد شاجرهما شجاراً عنيفاً ، وصدع رأسها تصديماً رهيباً ، وأتمخض شمورها بالجراح وأهانها حتى أوشكت أن تقطع كل علاقة لها به على الفور .

ومع ذلك رجعت الى البيت كاظمة غيظها مسيطرة على نفسها ، ولكنها لم تستطع الا أن تبوح لأمها بما حدث . فذاب الجليد ، وعادت المرأتان الى سابق عهدهما ، فتعانقتا كما كانتا تتعانقان من قبل ، وبكت كل منهما فى ذراعى الأخرى على عادتهما ، وبدا أن ليزا قد هدأ روعها وان ظلت مكفهرة الوجه مظلمة النفس . وفى المساء بقيت جالسة عند ماكار ايفانوفتش دون أن تنطق بكلمة ، ولكن دون أن تغادر الغرفة . وأصغت كثيراً الى ما كان يقوله ماكار ايفانوفتش . انها منذ وقع له حادث السقوط عن المقعد أصبحت تحترمه احتراماً كبيراً يمازجه شيء من خجل ، وان ظلت قليلة الكلام .

ولكن ماكار ايفانوفتش قد غير الحديث فى هذه المرة تغييراً غريباً لم يكن فى الحسبان . يجب أن أذكر أن فرسيلوف والطبيب كانا قد تحدثا فى الصباح عن صحته ، فكان يبدو على وجهيهما هم وقلق . ويجب أن

أذكر أيضاً أن البيت كان منذ عدة أيام يستعد للاحتفال بعيد ميلاد ماما الذي سيكون موعده بعد خمسة أيام تماماً ، وأن جميع أهل البيت كانوا يتكلمون عن هذا الاحتفال • ففي هذه المناسبة اندفع مكارا إيفانوفتش يستعيد ذكرياته فجأة ، وتذكر طفولة ماما ، أيام « كانت لا تحسن الوقوف على ساقيها بعد » • قال : « كنت لا أتركها أبداً • وكنت أعلمها المشي : أضعها في ركن على بعد ثلاث خطوات مني ، ثم أناديها ، فتجأز الغرفة مترجحة بلا خوف ، ضاحكة ، وتركض الى » ، وترتمى بين ذراعي ، وتقبل عنقي • ثم كنت أقص عليك حكايات يا صوفيا أندريفنا ، اذ كنت تحسقين الحكايات عشقاً • كانت تبقى على ركبتي ساعتين ، تصني الى • وكان جميع من بالكوخ يدهشون فيقولون : « انظروا ما أشد تعلقها بمكارا » أو كنت أمضي بك الى الغابة يا صوفيا أندريفنا ، فأعثر على شجرة عتيق ، فأجلسك هناك ، ثم أصنع لك صفارة من خشب • حتى اذا ارتويينا من النزهة ، عدنا الى البيت والطفل نائم على ذراعي • وفي ذات يوم ، خافت من الذئب ، فارتمت على مرتجفة مرتعدة ، ولم يكن ثمة ذئب •

- قالت ماما :

- هذا أتذكره !

- تتذكرينه ؟ لا يمكن •••

- بل أتذكر أشياء كثيرة أيضاً •

وأضافت تقول بصوت متأثر وقد احمرت احمراراً شديداً :

- كلما أوغلت في تذكر الماضي وأيتك ورأيت ما كنت تحمله لي

من حب وحنان •

انتظر مكارا إيفانوفتش لحظة ثم قال :

- وداعاً يا أولادى ، أما راحل • الآن حان حينى • لقد وجدت
فى شيخوختى عزاء عن جميع آلامى • شكراً يا أصدقائى •
هتف فرسيلوف متأثراً بعض التأثير :

- دعك من هذا الكلام يا مكارا ايفانوفتش ، يا عزيزى • لقد قال لى
الطبيب منذ قليل ان صحتك تحسنت تحسناً كبيراً •
وكانت أمى تصنى الى الحديث مرتاعة •
قال مكارا ايفانوفتش مبتسماً :

- وما 'يدرى صاحبك الكسندر سيمينتش ؟ صحيح انه لطيف ،
ولكن هذا كل شئ • أم تراكم تظنون يا أصدقائى أننى خائف أن أموت ؟
فى هذا الصباح ، بعد أن تلوت صلاتى ، راود قلبى احساس بأننى لن
أخرج من هنا حياً • أحد قال لى هذا • هيا ! تبارك اسم الرب ! ولكننى
أتمنى لو أظلل أراكم جميعاً • كان أيوب المعضب يتعزى عن آلامه برؤية
أحفاده الجدد ، ولكن هل كان ينسى أولاده السابقين ، وهل كان يستطيع
أن يساهم • كلا • ذلك مستحيل ! على أن الحزن يمتزج بالفرح كلما
مضت السنون ، ثم يستحيل الى زفرة سعيدة • هكذا تجرى الأمور فى
هذا العالم : كل نفس تمتحن وتتعزى •

وأردف مكارا ايفانوفتش يقول وهو يتسهم ابتسامة عذبة جميلة لن
أساها ما حيت :

- قررت يا أولادى أن أقول لكم كلمة ، كلمة لا أكثر ...
ثم التفت نحوى فجأة وقال :

- أنت يا عزيزى ، اعمل للكنيسة بهمة وحماسة ، ومت فى سبيلها
إذا دعا الداعى •

ثم أضاف يقول ضاحكاً :

— ولكن انتظر • لا تخف ! أنا لا أقول هذا لتفعله الآن • انك اليوم لا تفكر في هذا الأمر ، وقد تفكر فيه في المستقبل • غير أن هناك شيئاً آخر أيضاً : اذا أردت أن تفعل خيراً ، فافعله في سبيل الله ، ولا تفعله انقياداً للنزوة • كن رابط الجأش صلب العود ، ولا تدع لنفسك أن تسترسل في أنواع من الجبن • ولكن تمهل في عملك ، ولا تتسرع ولا تهرع واثباً • ذلك هو كل ما ائت في حاجة اليه • شيء آخر : تعود أن تملو صلاتك كل يوم حتماً • أقول لك هذا عرضاً ولعلك تذكره في يوم من الأيام •

ثم التفت الى فرسيلوف فقال له :

— لك أيضاً يا آندره بتروفتش ، يا عزيزي ، أريد أن أقول بضع كلمات • ان الرب سيهدي قلبك دون أن أتكلم أنا على كل حال • لقد كفنا عن الكلام في ذلك الأمر منذ مدة طويلة ، منذ أن نفذ ذلك السهم في قلبي • أما وأنتي الآن راحل فأحب أن أذكرك • • بالوعد الذي قطعته لي على نفسك حينذاك •

نطق بهذه الكلمات همساً وهو خافض رأسه ، وأردف يقول :

فهتف فرسيلوف متأثراً وهو ينهض :

— ماكارا ايفانوفتش !

— طيب طيب ، لا تضطرب يا عزيزي • ما هذه الا ذكرى • •

ان أكبرنا انما أمام الله في هذه القضية هو أنا • كان ينبغي ألا أسمع بما حدث رغم أنك كنت مولاي • فلا تضطربي أنت أيضاً يا صوفيا ،

لا تدعى لنفسك أن تسرف في الاضطراب ، لأن الانتم ائتمى أنا ، ولأنتى
أعتقد أنك كنت فى ذلك الأوان لا تعرفين ماذا تفعلين •

هنا ابتسم ماكار ايفانوفتش واختلجت شفتاه من ألم • ثم تابع كلامه
فقال :

- كان يمكننى يا زوجتى أن ألقنك درساً فى ذلك الحين
ولو باستعمال العصا ، بل كان يجب على أن أفعل • ولكننى أشققت عليك
حين ارتميت أمامى باكية ، واعترفت لى بكل شيء وأنت تقبلين قديمى •
ليس فيما أقول لك الآن لوم أو مؤاخذه ، ولكننى أريد أن أذكر آندره
بتروفتش ... واهك يا عزيزى لتذكر عهد الشرف الذى قطعته على
نفسك • ان الزواج يستر كل شيء • أقول لك هذا أمام أولادى ...

كان ماكار ايفانوفتش منفعلاً الى أقصى حدود الانفعال ، وكان ينظر
الى فرسيلوف منتظراً منه أن يقول كلمة تأكيد • أكرر أن هذا كله لم
يكن فى الحسبان ، فبقيت جالساً على كرسيى بلا حراك • وكان فرسيلوف
لا يقل عنه انفعالاً بل يزيد عليه : وها هو ذا يدنو من ماما صامتاً فيقبلها •
وها هى ذى ماما تتقدم من ماكار ايفانوفتش ، صامتةً كذلك ، فتحية
بانحناء شديدة •

الخلاصة أن المشهد كان يبعث فى النفس أشد التأثير • ولم يكن بالفرقة
فى هذه المرة غريب ، ولا تاتيانا بافلوفنا • وكانت ليزا منتصبه الجذع
فوق كرسيها تصنى صامتة • فهامى ذى تهض فجأة ، وتقول لماكار
ايفانوفتش بلهجة ثابتة قوية : باركنى أنا أيضاً يا ماكار ايفانوفتش ،
لأتحمل المحنة الكبيرة التى تنتظرنى • غداً يتقرر مصيرى كله • فادع
اليوم لى •

قالت ليزا ذلك وخرجت • اتى أعرفه أن ماكار ايفانوفتش كان على

علم بأمر ليزا ، فقد أطلعتة ماما عليه • ولكننى فى ذلك المساء رايت فرسيلوف وماما أول مرة معاً • أما قبل ذلك فلم أكن أرى الى جانبه الا عبدة • ثمة أشياء كثيرة كنت لا أزال أجهلها ولم أكن قد لاحظتها لدى هذا الرجل الذى كنت قد أدتته • لذلك رجعت الى غرفتى مضطرباً • يجب أن أذكر أننى فى تلك اللحظة نفسها قد تكأفت شكوكى فيه مزيداً من التكأف • انه لم يبد لي فى يوم من الأيام أقرب الى السر واللفز مما يبدو لي الآن • ولكن هذا هو كل القصة التى أكتبها : ولسوف يأتى كل شىء فى حينه •

قلت محدثاً نفسى وأنا أرقد على سريرى : « لقد قطع لماكار ايفانوفتش على نفسه عهد الشرف ليتزوجنَّ أُمى متى ترمّلت • ولكنه لم يقل لي شيئاً عن هذا الأمر من قبل حين كلمنى عن ماكار ايفانوفتش » •

فى الغد غابت ليزا عن المنزل طول النهار ، فلما عادت كان الوقت متأخراً ، فمضت الى غرفة ماكار ايفانوفتش رأساً • وكنت لا أريد أن أدخل حتى لا أضايقهما ، ولكننى لاحظت أن ماما وفرسيلوف كانا قد دخلا فدخلت • كانت ليزا جالسةً بجانب الشيخ تبكى على كتفه • وكان الشيخ يلاعب رأسها صامتاً حزين الوجه •

وقد شرح لي فرسيلوف (فى غرفتى بعد ذلك) أن الأمير يلح على أن يتزوج ليزا متى أمكن ذلك ، حتى قبل صدور قرار المحكمة ؛ وأن ليزا مترددة لئلا تعزم أمرها بعد رغم أنها لم يبق لها حق فى التردد تقريباً • وكان ماكار ايفانوفتش « يأمرها ، أيضاً بأن تتزوجه • وهذا كله كان ينبغى أن يتم من تلقاء نفسه فتوافق ليزا على الزواج من تلقاء نفسها أخيراً ، بلا تردد ولا أوامر ، ولكنها الآن تشعر بأن الرجل الذى تحبه قد أهانها أهانة شديدة ، وأن حبها يذلها حتى فى نظر نفسها ، فكان يصعب عليها

أن تعزم أمرها • ولكن هناك شيئاً غير الاحانة ، قد تدخل فى الموضوع
وما كان ليخطر لى بال •

أضاف فرسيلوف يسأل فجأة :

— هل جاءك نبأ شباب بطرسبورسكايا الذين اعتقلوا أمس ؟

فهمت :

— ماذا ؟ درجاتشيف ؟

— نعم • وفاسين أيضاً •

'ذهلت ، ولا سيما من سماع اسم فاسين •

— هل له دخل فى شيء ؟ ما عساهم يصنعون بهم ! وباه ! ويحدث
هذا فى الوقت الذى تشتكى فيه ليزا من فاسين ! ما عسى يحدث لهم فى
رأيك ؟ يميناً ان لستيلكوف يداً فى الأمر !

قال فرسيلوف وهو يرشقنى بنظرة خاصة ، كما ينظر الى امرئ
لا يفهم شيئاً ولا يحزر شيئاً :

— دعنا من هذا الآن ! ما أدرانا بما وقع ، وما يدرينا بما سيصنع
بهم ؟ ليس هذا ما كنت أريد أن أقوله : لقد علمت أنك تريد أن تخرج
غداً • فهل تذهب الى الأمير سرجى بترفتش ؟

— سأذهب اليه قطعاً ، رغم أن هذه الزيارة تشق على نفسى وتؤلنى ،
أعترف بذلك • هل تريد أن أنقل اليه شيئاً على لسانك ؟

— لا ، لا شيء • سأراه بنفسى • انتى أرثى لحال ليزا • أية نصيحة
يستطيع ماكار ايفانوفتش أن يسديها اليها • انه هو نفسه لا يدرك شيئاً
لا من أمور الناس ولا من أمور الحياة ! شيء آخر يا عزيزى (كان منذ
مدة طويلة قد انقطع عن مخاطبتي بقوله : « يا عزيزى ») • ان فى القضية

أيدي عدد من الشبان ... أحدهم رفيقك القديم لاميير • يخيل إلى أنهم
جميعاً أوغاد رهيون • أردت تسيهك فحسب • هذا شأنك وحدك •
أنا أعلم أنني ليس من حقى أن ...

فرايتنى أمسك يده فجأة دون أن أفكر ، مدفوعاً الى هذا بما يشبه
الحماسة والالهام ، كما يحدث لى كثيراً (وقد حدث هذا كله فى ظلام
كامل) ، ورايتنى أقول له :

- آندره بتروفتش ، لقد صمت أنا حتى الآن ، وأنت تعرف لماذا
صمت • صمت لأتحاشى أن أتدخل فى أسرارك التى قررت ألا أطلع
عليها فى يوم من الأيام • اننى جبان • اننى أخشى أن تنتزعك هذه الأسرار
من قلبى انتزاعاً تاماً ، وذلك ما لا أريده • أفلا ينبغي لك والحالة هذه أن
تأملنى بمثل ما أعاملك به ، فتتركنى وشأنى أمضى حيث أريد ! أليس
هذا صحيحاً ؟

فقال لى وهو يتركنى :

- انك على حق • ولكن أرجوك : لا تزد على هذا كلمة واحدة !

وهكذا تكاشفنا عرضاً • كانت مكاشفة ضئيلة جداً ، ولكنها كافية
لمضاعفة اضطرابى ازاء الخطوة الجديدة التى سأقوم بها غداً • لذلك قضيت
الليل متأرقاً • ولكننى تخففت من بعض ما كان يجثم على صدرى •

حين خرجت فى الغد من البيت ، كانت الساعة هى العاشرة • لكننى بذلت كل جهودى من أجل أن أنصرف خفية بدون وداع وبدون كلمة واحدة • تسللت تسللاً • لماذا ؟ لا أدرى • ولكن لو اتفق أن رأيتى أمى عند خروجى فحاولت أن تكلمنى ، لكان يمكن أن أغلط لها القول • فلما صرت فى الشارع وتسمت الهواء الطرى ، رأيتى أهنر من احساس قوى جداً ، يكاد يكون حيوانياً ، وأستطيع أن أصفه بأنه احساس « وحش ضار » • لماذا أذهب والى أين أذهب ؟ كان احساسى شيئاً لا يمكن تحديده ، ولكنه ضار شديد الضراوة • كنت خائفاً منه وفرحاً به فى آن واحد •

– أأندس اليوم أم لا أندس ؟

كذلك تساءلت بينى وبين نفسى ، على علمى بأن الخطوة التى سأخطوها هذا النهار ستكون ، متى تمت ، حاسمة فى حياتى كلها • ولكن لماذا الكلام بالغاز ؟

مضيت الى سجن الأمير رأساً • كنت قد حصلت منذ ثلاثة أيام على رسالة من تاتيانا بافلوفنا الى مدير السجن ، فاستقبلنى استقبالاً حسناً جداً • لا أدرى أهو رجل طيب أم لا ، ولكننى أظن أن هذا السؤال ناقل لا داعى اليه • المهم أن المدير أذن لى بقاء الأمير ، بل تلتطف فأخلى لنا غرفته ليم فيها اللقاء • كانت الغرفة كجميع الغرف ، غرفة عادية

لموظف متوسط يسكن على نفقة الدولة • أظن أن من نافل القول أيضاً أن
أصف الفرفة • وهكذا خلوت الى الأمير •

طلع الأمير بلباس لا هو عسكري ولا هو مدني ، بل هو بين
بين ، لكن قميصه نظيف ، ورباط عنقه أبيض ، وقد غسل وجهه ومشط
شعره ، ولكنه نحل نحولاً رهيباً ، واصفر اصفراراً شديداً ، وقد
لاحظت هذا الاصفرار حتى في عينيه • الخلاصة أنه بلغ من التغير أنني
وقفت مشدوها مذهولاً • وهتفت أقول :

- لشدما تغيرت !

فقال مزدهياً بعض الشيء :

- لا قيمة لهذا ! اجلس يا عزيزي !

واشار لي الى كرسي ، وجلس قبالي • وأردف يقول :

- لنناقش النقطة الأساسية : هأنت ذا ترى يا عزيزي ألكسي
ماكاردوفتش ...

فقاطعت مصححاً :

- أركادي !

- ماذا ؟ آآ نعم • طيب طيب • لا قيمة لهذا • آآ ..

نعم ..

أدرك خطأه في تلك اللحظة ، فأضاف يقول :

- معذرة يا عزيزي • ولنتقل الى النقطة الأساسية ...

كان يتعجل الوصول الى غايته تعجلاً شديداً • لكن فكرة أساسية
كانت تلبسه من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، فهو يريد أن يمر عنها
وأن يعرضها • وكان يتكلم بفزارة ، وبسرعة ، وكان يبذل في الكلام

جهداً ويعانى منه عذاباً ، ويستعين عليه بالاشارات والحركات • ولكننى
لم أفهم منه فى أول الأمر أى شىء إطلاقاً •

وختم يقول :

- الخلاصة ••• (كان قد استعمل هذه الكلمة عشر مرات فى أقل
تقدير) •• الخلاصة : لئن ازعجتك يا آرКАДى ماكاروفتش فالحقت على
ليزا بالأمس إلحاحاً شديداً أن تأتى بك ، فلأن الأمر مستعجل • ولكن
لما كان القرار الذى يجب اتخاذه قراراً استثنائياً ونهائياً ، فان علينا •••

قاطعته قائلاً :

- اسمح لى يا أمير • تقول انك طلبت أمس أن أجيء اليك ؟ ان
ليزا لم تبلغنى شيئاً •

فهتف يقول وهو يقف عن الكلام فجأة ، ويدهش دهشة شديدة ،
حتى ليكاد يرتاع ارتياعاً :
- كيف ؟

- لم تبلغنى شيئاً البتة • لقد عادت الى البيت بالأمس مضطربة
اضطراباً يبلغ من الشدة أنها لم تقل لى كلمة واحدة •
انتفض الأمير •

- هل تقول الحقيقة يا آرКАДى ماكاروفتش ؟ اذن •••
- ولكن ماذا هنالك من أمر يبلغ هذا المبلغ من ••• ؟ ما لى أراك
فلقاً هذا القلق كله ، لابد أنها نسيت أن تبلغنى ، أو أن شيئاً ما قد •••
جلس الأمير ، ولكنه ظل كالأبله • لكن هذا النبأ ، وهو أن ليزا
لم تبلغنى رغبتة ، قد سحقه سحقاً • ثم سرعان ما عاد يتكلم محرراً
ذراعيه ، ولكن كلامه بقى مضطرباً فيستحيل على المرء أن يفهمه •

وقال فجأة :

- انتظر ! ...

ثم سكت رافعاً أصبعه فى الهواء • ثم استأنف كلامه مجتمعاً ، فقال
وهو يتسهم ابتسامة رجل مهووس :

- هذه •• هذه •• اذا لم يخطئ ظنى •• هذه مكائد ! •• معنى
ذلك أن ••

قاطعه قائلاً :

- ليس لهذا كله أية قيمة ! ولست أفهم لماذا تقلق هذا القلق كله
لأمر تافه • آه يا أمير ، منذ تلك الليلة ، هل تذكر كيف •••

فصرخ يقول متضيقاً من مقاطعته :

- أية ليلة ؟ ماذا ؟

- عند سرشتشيكوف ، حيث التقينا آخر مرة ، قبل رسالتك •••
لقد كنت فى تلك الليلة أيضاً مضطرباً اضطراباً مخيفاً • ولكن شتان بين
اضطرابك فى تلك الليلة واضطرابك الآن • اننى الآن أراك فارتعد
خوفاً ••• أم تراك لا تذكر •••

فأجاب بصوت رجل من أبناء المجتمع الراقى وكأنه تذكر كل شئ ،
فجأة :

- آ •• نعم •• نعم •• ذلك المساء •• لقد سمعت أن •• كيف
صحكت الآن ، كيف حالك بعد تلك القصص كلها يا أركادى ماكروفش ؟
••• ولكن فلنرجع الى النقطة الأساسية • ذلك أننى ألاحق ثلاثة أهداف •
ان أمامى ثلاثة أغراض ، فأريد •••

وعاد يتكلم عن « نقطته الأساسية » ، فأدركت أخيراً أننى أمام رجل

يجب أن توضع على رأسه خرقة مبلولة بالخل فوراً ، أو يجب اسعافه
بالقصد حالا . كان حديثه المشوش يدور فى أغلب الظن على الدعوى
وما قد تنتهى اليه ، وعلى قيام الكتيبة بزيارته بنفسه ومحاولته ثنى عزمه
عن خطوة يريد ان يخطوها ولكنه لم يصغ اليه ، وعلى رسالة بعث بها
الى جهة ما ، وعلى وكيل نيابة ، وعلى انه سينفى حتما الى مكان بشمال
روسيا مجرداً من حقوقه ، وعلى أن من الممكن أن يستوطن طشقند
مسترداً رتبته ، وعلى الدروس التى سيلقنها لابنه (ابنه الذى مسئله له
ليزا) ، وما سيسلمه اياه هناك « فى الفلاة » فى أرخانجل ، وفى
خولموجورى ، . لئن أردت أن أعرف رأيك يا آرКАДى ايفانوفتش ،
نق كل الثقة أننى أقدر عاطفتك قدراً كبيراً . . . ليتك تعلم يا آرКАДى
ايفانوفتش ، يا عزيزى ، يا أخى العزيز ، ليتك تعلم ما ليزا عندي ،
ماذا كانت ليزا لى هنا طول هذا الوقت ! « كذلك صاح فجأة وهو يمسك
رأسه بيديه .

- سرجى بتروفتش ، هل 'يعقل أن تريد لها الموت باصطحابها الى
خولموجورى !

أفلتت هذه الجملة من لسانى برغم ارادتى . لقد تراءى لى ارتباط
مصير ليزا بهذا المهووس مدى الحساسة واضمحاً كل الوضوح أول مرة ،
فجزعت . فنظر الى ، ونهض مرة أخرى ، ومشى خطوة ، وأدار
ظهره ، ثم عاد يجلس وهو لا يزال ممسكاً رأسه بيديه .

قال فجأة :

- اننى أحلم دائماً بعناكب .

- أنت فى اضطراب رهيب يا أمير . أنصحك بأن ترقد فى سريرك
وأن تستدعى الطبيب فوراً .

- لا ، اسمع لي ، فيما بعد • وانما استديعتك خاصة
لأشرح لك •• مسألة الزواج • ان الزواج ، كما تعلم ، سيتم هنا ، سبق
أن قلت هذا • لقد أُعطيَت الاذن بالزواج ، حتى انني "أُسَّجِع عليه •
أما ليزا •••

صحت أقول :

سارحم ليزا يا أمير ، يا عزيزي : لا تعذبها بغيرتك ، الآن على
الأقل !

فهتف قائلاً وهو يصوب إلى عَيْنين محمِلَتَيْن ، ويتسسم ابتسامة
متشَنِّجَة فيها استفهام أبله :
- كيف ؟

كان واضحاً أن كلمة « الغيرة » قد فجأتَه فجأةً شديداً •

- معذرة يا أمير ، قلت هذا الكلام برغم ارادتي • اسمع : لقد
تعرفت في الآونة الأخيرة الى شيخ عجوز ••• هو أبنى الشرعى •••
لو رأيته لأصبحت أكثر هدوءاً وسكينة • ان ليزا أيضاً تقدره قدرأ كبيراً •
- آ •• نعم •• ليزا •• آ •• نعم •• هو أبوك ؟ نعم •• معذرة
يا عزيزي • هناك شيء •• أتذكر الآن •• حدثتني ليزا عن هذا • شيخ
طيب •• أنا متأكد ، أنا أيضاً عرفت شيخاً طيباً • ولكن دعنا من هذا
الآن • ان الأمر الاساسي هو أن نوضح جوهر المسألة ، يجب •••

قمت لأنصرف • كان يؤلمني منظره • فلما رأيته أهمُّ أن أنصرف ،
قال بقسوة ووقار :

- لست أفهم !

فقلت :

- يؤلمني أن أراك على هذه الحال •
- كلمة أخرى يا آرКАДى ماكاروفتش ، كلمة أخرى •
- وأمسك كنفىَّ بحركة مختلفة كل الاختلاف ، وقد تبدلت هيئته كل
- التبدل ، وأجلسنى على المقعد ، وأردف يقول وهو يميل علىَّ :
- هل جاءك نبأ أولئك الناس ؟ أقصد ...
- نعم ، درجاشيف •
- ولم أستطع أن أسيطر على نفسى فأضفت أقول صائحاً :
- لا بد أن سنيلكوف هو الواشى !
- نعم ، سنيلكوف ... ألا تعلم ؟
- وتوقف عن الكلام ، وحدّق الىَّ مرة أخرى بعينين محمقتين
- وابتسامة متشنجة عريضة فيها استفهام أبله ، وما تنفك تزداد غرضاً •
- وأخذ وجهه يشحب شيئاً فشيئاً • فإذا برعدة تسرى فى جسمى على حين
- فجأة ، اذ تذكرت نظرة فرسيلوف حين أنبأنى أمس باعتقال فاسين •
- وهتفت أقول مذعوراً :
- هل يُعقل هذا ؟
- اسمع يا آرКАДى ماكاروفتش ، أنا انما استدعيتك لأشرح لك ••
- وأضاف هامساً بصوت خافت :
- أردت أن ...
- فصحت أفاطحه قائلاً :
- أنت الواشى بفاسين !
- لا ، وانما كان هناك مخطوطة ؛ وقد سلم فاسين المخطوطة الى

ليزا قبل اليوم الأخير ... لتحفظها • وتركتها لى ليزا هنا لأتصفحها ،
وبعد ذلك حدث أن تخصصا فى اليوم التالى ...

— فأرسلت أنت المخطوطة الى السلطات ؟ ...
— آرКАДى ماكاروفتش ! آرКАДى ماكاروفتش !

صحت أقول واثباً من مكانى مقطماً كلمتى :

— هكذا اذن ، بدون أى دافع آخر ، وبدون أى هدف آخر
عدا الغيرة • لأن فاسين المسكين غريمك ، سَلَّمَت الى السلطان المخطوطة
التي 'عهد بها الى ليزا ! الى من سَلَّمَتها ؟ الى من ؟ الى وكيل النيابة ؟

ولكن لم يتسع الوقت لأن يجيب عن أسئلتى • وبمساذا كان يمكنه
أن يجيب ؟ لقد تسمر أمامى كتمثال وهو لا يزال يتسهم تلك الابتسامة
المرضية ، ويحملق تلك الحمقة الجامدة • وانه كذلك اذا بالباب ينفتح
فتدخل ليزا • فلما رأتنا معاً كادت تسقط مقشياً عليها • وصرخت تقول
وقد انقلب وجهها فجأة وأمسكت يديّ :

— أنت هنا ؟ اذن ... « علمت » ؟

لقد قرأت فى وجهى أننى « علمت » • وقبلتها بسرعة ، قبل أن
تستطيع الاعتراض ، قبلتها بقوة ، بقوة • لقد أدركت فى تلك
اللحظة ، أول مرة ، ادراكاً كاملاً ، مدى الحزن القاتم الذى لا مخرج
منه ولا حدود له ، مدى العذاب الرهيب الذى سيحجم الى الأبد على حياة
هذه الانسانة ... الباحثة عن الآلام !

قالت وهى تتزع نفسها منى فجأة :

— ولكن هل يجوز للمرء أن يكلمه الآن ؟ هل يجوز للمرء أن
يبقى معه ؟ لماذا جئت الى هنا ؟ انظر اليه ، انظر اليه ، هل يمكن
أن يدان ؟

كان وجهها يفيض ألما وشفقة لا حدود لهما ، حين أشارت لى يدها
الى الرجل المسكين وهى تهتف ذلك الهتاف • كان جالسا على المقعد دافنا
وجهه فى يديه • انها على حق : لقد كان يعانى من حمى حارة ، فهو غير
مشتول عن أعماله • ولعله كان غير مشتول عن أعماله منذ ثلاثة أيام •
وقد أودع المستشفى فى ذلك الصباح نفسه ، ولم يحل المساء حتى تكشف
أصابته فى الدماغ •

تركت الأمير مع ليزا فى نحو الساعة الواحدة بعد الظهر ، ومضيت من هناك الى مسكنى القديم . نسيّت أن أذكر أن الجو كان رطباً ، ممتعاً ، وأن الجليد كان قد بدأ يذوب ، وأن ريحاً فائرة كانت تهب فتثير حتى أعصاب فيل . استقبلنى المؤجر فرحاً ، وأخذ يسعى ويتحرك حولى كثيراً ، وهذا نىء أكرهه وأمقته فى مثل هذه الأحوال . ولقد أظهرت له شيئاً من الجفوة ، واتجهت الى غرفتى رأساً ، ولكنه تبعنى : كان لا يجرؤ أن يسألنى عن شىء ، ولكن حب الاطلاع كان يلتمع فى عينيه ، وكانت هيئته هيئة انسان من حقه أن يستطلع . كان ينبغى لى أن ألاحظه ، فى سبيل مصلحتى . ولكننى رغم حاجتى القصوى الى معرفة نىء ما (وكنت أعلم أننى لو لاطفته لعرفت شيئاً ما) ، كرهت أن استرسل فى سؤال وجواب . واكتفيت بأن سألته عن صحة زوجته ، ثم ذهبت اليها . فاستقبلتني بلطف ومودة ، ولكنها حافظت على رصانتها وكانت قليلة الكلام . فهدأتنى هذا قليلاً . على أننى علمت فى النهاية أموراً تثير أكبر الدهشة .

كان لامبير قد جاء طبعاً ، ثم جاء مرتين آخرين ، وطاف بجميع الغرف ، قائلاً انه قد يستأجر غرفة . وجاءت داريا أونيسيوفنا عدة مرات . فكان أهل البيت يشاءون : « لماذا تجيى ؟ » . وقد أضاف المؤجر قوله : « كانت شديدة حب الاطلاع أيضاً » . غير أننى لم أسرّه فأسأله عن حب الاطلاع عندها ماذا كان ! وكنت على وجه العموم لا ألقى على

الرجل سؤالاً ، وانما كان يتكلم وحده ، وكنت أنظـاهر بأننى أنبش فى حقيقتى (التى لم يكن قد بقى منها شىء تقريباً) • ولكن الشىء المزعج أنه قد ارتأى هو أيضاً أن يمد الى السر والتعمية ، وأنه حين لاحظ امتناعى عن سؤاله اعتقد أن من واجبه هو أيضاً أن يقتضب كثيراً ، حتى ليكاد كلامه أن يصيح ألغازاً •

أضاف يقول وهو يلقي على نظرة غريبة :

– جاءت آمنة أيضاً •

– أية آمنة ؟

– أنا أندريتنا • جاءت مرتين • وتعرفت بزوجتى • امسانة لطيفة ، بشوشة • ان معرفة آمنة مثلها شىء ثمين يا أركادى ماكاروفتش ••

قال هذه الكلمة وهو يتقدم منى خطوة : كان يرغب رغبة قوية فى أن يفهمنى شيئاً !

قلت مدهوشاً :

– مرتين ؟ غير معقول •••

– وكانت فى المرة الثانية مع أخيها •

قلت فى نفسى : • انه لاميير • •

– لا ، ليس هو لاميير ، بل هو أخوها •• شاب اسمه فرسيلوف •
أظن أنه يعمل فى البلاط •

لقد حزر الرجل ما تصوره ، كأن عينيه قد نفذتا الى قرارة نفسى • اضطربت اضطراباً شديداً • وكان ينظر الىّ وهو يتبسّم ابتسامة تودد كريبه • ثم أضاف :

– آ •• نعم •• وجاءت آمنة أخرى تسأل عنك ، الآمنة الفرنسية ،

مدموازيل آلفونسين دو فردان • آه • ما أحسن غناءها ! ما أجمل
انشادها الشعر ! ولقد ذهبت خفية الى تسارسكوييا لترى الأمير يقولوا
ايفانوفتش ، فتبعه كلباً صغيراً نادراً ، حالك السواد ، لا يزيد حجمه
على حجم قبضة الكف •••

رجوته أن يتركنى وحيداً بحجة أننى أعانى من صداع • فأطاعنى
فوراً ، قبل أن ينهى جملته ، وبدون غضب ، بل بابتهاج ، محرّكاً يده
بإشارة غريبة كأنها تقول : « أفهم ، أفهم ! » • وخرج على رهوس
الأصابع من غير أن ينطق بكلمة واحدة ، متيحاً لنفسه هذه المسرة • ان
على سطح هذه الأرض أناساً يثيرون الأعصاب فعلاً !

بقيت وحدى أفكر ، ساعة ونصف ساعة • بل قل اننى لم أفكر ،
وانما أخذت أحلم • كنت مضطرباً ، ولكننى لم أكن مدهوشاً • حتى
لقد كنت أتوقع المزيد ، وأتظر عجائب أكبر • قلت أحدث نفسى : « لا بد
أنهم عملوا أشياء كثيرة منذ الآن ! » • كنت مقتنعاً كل الاقتناع ، منذ
مدة ، منذ كنت فى البيت ، أن آلتهم قد تحركت وأنها تعمل بسرعة •
وقلت لنفسى أيضاً ، وأنا أشعر بنوع من الرضى المصبى اللذيذ : « لا ينقصهم
الآن الا أنا ، انهم ينتظروننى على أحر من الجمر ، انهم يريدون أن
يدبروا أمراً فى مسكنى ، هذا واضح وضوح النهار ، أياكون الأمر الذى
يدبرونه هو زواج الأمير المجوز ؟ انهم ينصبون له فخاً ، ولكن هل أسمع
أنا بهذا ياسادة ؟ ذلكم هو السؤال ، • كذلك ختمت حديثى الى نفسى
مزدهياً •

« اذا دخلت فى هذا الأمر ، فسرعان ما سيجربنى الاعصار كما
يجرف قشة • أنا حر فى هذه اللحظة أم لم أبقى حرّاً ؟ ألا أزال أستطيع
حين أعود الى ماما فى هذا المساء أن أقول لنفسى كما أقول فى كل يوم :
« أنا ما أنا » ؟ » •

ذلكم هو جوهر أسئلتى أو قولوا جوهر خفقات قلبى أثناء تلك المدة
التي دامت ساعة ونصف ساعة ، والتي قضيتها فى ركن على السرير ،
واضعاً كوعى على ركبتي ، جاعلاً رأسى فى يدي ؟ ولقد كنت أعلم منذ
ذلك الحين أن هذه الأسئلة كلها ليست الا ترهات ، فانما كانت « هى »
التي تهذبني وتجريني ، « هى » ، « هى » وحدها ! أخيراً أقول هذا
واضحاً قاطعاً ، وأسجله على الورق بأحرف بلرزة : اننى حتى فى هذا
اليوم ، وأنا أكتب بعد انقضاء سنة ، لا أزال أجهل الاسم الذي يجب
أن أسمي به العاطفة التي كانت تختلج فى نفسى آنذاك !

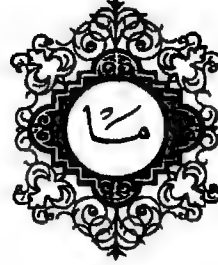
صحيح أننى كنت أشعر بشفقة على ليزا ، وكنت أعانى ألماً صادقاً !
وكان يمكن لهذا الألم وحده أن يطمأن أو أن يمحو من نفسى ، ولو الى
حين قصير ، ما كان يجيش فيها من شعور وحشى ضار (هأنا أستعمل
هذا التعبير مرة أخرى) . ولكن كان يجرفنى استطلاع رهيب وخوف
غامض ، وكانت تعجرفنى عاطفة أخرى لا أعرف ما هى ، ولكننى
كنت منذ ذلك الحين أعرف أنها ليست عاطفة طيبة ، بل هى عاطفة
فاسدة . لعلنى كنت أصبو الى أن أترامى عند قدميها ، ولعلنى كنت أريد
كذلك أن أغرقها فى جميع أنواع العذاب وأن أبرهن لها على شيء ما
« بسرعة » . فلم يكن لأى ألم أو أى عطف على ليزا أن يوقف اندفاعى .
هيا ، هل أستطيع أن أنهض فأعود الى البيت . . . وأجلس الى ماكاد
ايفانوفتش ؟

« ولكن هل يستحيل على حقاً أن أذهب اليهم ، فأعرف منهم كل
ما 'يدبر' ، ثم أتركهم فجأة الى الأبد ، فأكون قد مررت بالعجائب
والشياطين سليماً لم يمسننى سوء ؟ » .

فى الساعة الثالثة ، اذ ثبت الى نفسى ورأيت أننى كدت أتأخر ،
خرجت مسرعاً ، فركبت عربة وطرقت الى آنا آندريفنا .

الفصل الخامس

١



ان أبلغوا آنا آندريفنا وصولي حتى تركت شغلها
وأسرعت تستقبلني في الغرفة الأولى ، وتلك
حفاوة لم ألق مثلها من قبل • وقد مدت اليّ يديها
كلتيهما ، واحمر وجهها بسرعة • وقادتني الى
حجرتها صامتة ، وعادت تتناول شغلها ، وأجلستني بجانبها • لكنها كفت
عن التطرّيز ، وظلت تنفرس فيّ باهتمام حار دون أن تقول شيئاً •
قلت فجأة وقد تضايقت قليلاً من هذا الاهتمام المتصنع رغم أنه
طاب لي كثيراً :

— أرسلت اليّ داريا أونيسيوفنا ؟ •••

فسرعان ما شرعت في الكلام دون أن تجيب عن سؤال ، فقالت :

— لقد قصوا عليّ ما وقع لك ، فعرفت كل شيء • يالها من ليلة
رهية ! ••• ما أشد العذاب الذي لا بد أنك عانيته ! هل صحيح ، هل
صحيح أنهم وجدوك في غيبوبة ، وكنت توشك أن تتجمد ؟

فجمعت أقول وقد احمر وجهي :

— هل ••• لامير ؟ •••

— حكى لي كل شيء في ذلك الوقت • ولكنني كنت أنتظرك •
لقد جاءني مرتاعاً • عندك ••• في البيت الذي كنت راقداً فيه على سرير

المرض ، رفضوا أن يراك • وقد استقبلوه استقبالاً سخيلاً ••• لا أدري
فى الواقع كيف وقع لك ما وقع • ولكنه حدثنى كثيراً عن تلك الليلة •
وقال لى انك حين فتحت عينيك قد ذكرت اسمى • فأنثرَ هذا فى قلبى
تأثيراً قوياً ، لقد تفرقت الدموع فى عينيَّ من سدة التأثر يا أركادى
ماكاروفتش • وانى لا أدري حقاً ماذا فعلتُ حتى استحق منك هذه العاطفة
كلها ، ولا سيما فى حالة كالحالة التى كنت فيها • قل لى : هل مسيو لامبير
رفيق طفولتك ؟

— نعم ، ولكننى أعتزف بأننى ••• فى ذلك الحادث ••• كنت
متهوراً فلملنى قلت له أكثر مما كان ينبغى أن أقول •

— ولكننى كنت سأعرف تلك المكيدة السوداء الرهيبة دون أن يروى
هولى شيئاً ! لقد كنت أحس دائماً ، دائماً ، أنهم سيوصلونك الى هذا !
قل لى : هل صحيح أن بيورنج تجرأ أن يرفع يده عليك ؟

انها تتكلم كلام من يعتقد أننى لم يُعثر علىَّ عند الجدار الا بسبب
بيورنج وبسببها « هى » • وقد قلت لى : « الواقع أنها على حق » •
ولكننى انفجرت أقول مع ذلك :

— لو رفع علىَّ يده لما تركته بغير عقاب ، ولما وجدتى الآن أمامك
قبل أن أثار لى نفسه •

لقد أحسست أنها تريد أن تغيظنى ، وأن تثير حنفى على شخص ما
(أعرف من هو) ، ومع ذلك رأيتى أتناقد لاستنارتها ، فقلت :

— تقولين انك كنت قد أدركت أننى بسببها سأصل الى ما وصلت اليه •
فأحب أن أذكر لك أن ما وقع بينى وبين كاترين نيقولايفنا ليس الا سوء
تفاهم ، وان يكن صحيحاً أنها سرعان ما تغيرت عواطفها نحوى فى أعقاب
سوء التفاهم •••

— تماماً • سرعان ما تغيرت عواطفها !

كذلك قالت آنا آندريفنا متعاطفة • ثم تابعت :

— آه ... ليتك تعرف المكيدة التى 'تدبر' الآن ! لاشك أن حالتك

لا تساعدك فى هذا الوقت على أن تدرك حراجة وضعى كل الادراك ...

قالت ذلك وقد احمر وجهها وغطت طرفها • واستطردت تقول :

— اننى فى ذلك الصباح نفسه الذى التقينا فيه آخر مرة ، قد خطوات خطوة لا يستطيع جميع الناس أن يفهموها وأن يقدروها كما يمكن أن يفهمها وأن يقدروها رجل له ذكاؤك السليم وقلبك المحب النفس الذى لم يفسد • ثق يا صديقى اننى أحسن تقدير عاطفتك ، وأعرف كيف أكافئك عليها بالشكر والامتنان الى الأبد • لاشك أن الناس فى المجتمع الراقى سيموتنى بحجر ، بل لقد رمونى بالحجر فعلاً • ولكن هبهم على حق من وجهة نظرهم الرهيبة ، فمن ذا الذى يستطيع ، من ذا الذى يجرؤ منهم أن يديننى ؟ لقد هجرنى أبى منذ طفولتى • اتنا ، آل فرسيلوف ، الأسرة العريقة النبيلة ، أناس مغامرون ، وأنا الآن آكل خبز الآخرين فضلاً منهم واحساناً • أفليس طبيعياً اذن أن أتمجبه الى ذلك الذى كان لى منذ طفولتى بمنزلة الأب ، وأغرقنى بحسناته سنين طويلة ؟ الله وحده يرى ما أحمل لهذا الرجل من عواطف ، والله وحده يحق له أن يحكم على الخطوة التى خطوتها • اننى لا أقبل حكم البشر على هذه الخطوة • وعدا ذلك ، حين تحسك أدناً وأحققر مكيدة ، حين يوشك أن يقع أب شهم كريم ضحيةً لمؤامرة تدبرها له ابنته ، فهل يستطيع المرء أن يحتمل هذا ؟ لا ، انى لأؤثر أن أضيع سمعتى على ألا أنقذه • انى مستعدة أن أكون له خادماً وحارساً وممرضة ، ولكننى لن أدع لحساب دنىء وضع كربه أن ينتصر !

كانت تتكلم بحرارة شديدة ، قد يكون نصفها مفتعلاً ، ولكنها حرارة صادقة رغم كل شيء ، فليس يخفى أن اهتمامها بهذه القضية اهتمام شديد . ولقد أحسست بأنها كانت تكذب (تكذب كذباً صادقاً ، فالمرء يمكن ان يكذب كذباً صادقاً) ، وأحسست بأن كل ما فيها زيف وزور . ولكن ما أغرب ما يحدث للمرء مع النساء : ان هذه النبرة الراقية ، وهذه الأنفة الشماء ، وهذه العفة الفخور ، ان هذا كله كان يذهلنى عن نفسى ويحيرنى فى أمرى ، فاذا أنا أوافقها على جميع النقاط ، ما بقيت معها . لا شك أن الرجل تستعبد المرأة روحه ، ولا سيما اذا كان رجلاً شهماً ذا أريحية ! ان امرأة كهذه المرأة تستطيع أن تنتصر على أى رجل كريم . قلت أحدث نفسى وأنا أنظر اليها مرتبكا متحيراً : « هى ولا مير ! رباه ! » . على أننى سأقول كل شيء : اتنى لا أزال حتى هذا اليوم عاجزاً عن أن أقطع فيها برأى . ان الله وحده قادر على أن يرى عواطفها ، ثم ان الانسان جهاز يبلغ من التعقيد أن المرء لا يستطيع أن يفهم من أمره شيئاً ، ولا سيما اذا كان هذا الانسان امرأة .

سألتها بلهجة جازمة :

— فماذا تنتظرين منى يا آنا آندريننا ؟

— ما تعنى بهذا السؤال يا آر كادى ماكاروفتش ؟

قلت مرتبكا :

— يبدو لى .. مما سمعته .. ومن اعتبارات أخرى أيضاً ، أنك انما أرسلت تستدعينى لأنك تنتظرين منى شيئاً . فما الذى تنتظرينه منى على وجه التحديد ؟

ولكنها لم تجب عن سؤالى ، وانما سارعت تستأنف كلامها ، بمثل تلك السرعة وبمثل تلك الحرارة :

- ولكننى لا أستطيع ، اننى أشد إباءً وكبرياءً من أن أدخل فى
إيضاحات ومساومات مع أناس لا أعرفهم مثل مسيو لامير . فأنت من كنت
انتظر ، لا مسيو لامير . ان وضعى حرج رهيب ، يا أركادى ماكاروفتش!
فأنا مضطرة الى الحيلة والمكر ، لأننى محاطة بمؤامرات تحوكلها لى هذه
المرأة . وهذا لا يطاق . اننى أتدنى الى مستوى المكيدة ، فكنت انتظرك
كما ينتظر متخذ مخلص . ما ينبغى أن أتهم لأننى أنظر فيما حولى
بشراهة عسى أن اكتشف صديقاً واحداً على الأقل ، وهذا هو السبب فى
أننى لم أستطع الا أن أقرح حين وقعت على هذا الصديق ؛ ان الذى
أمكنه ، حتى فى تلك الليلة ، وهو يكاد يكون متجمداً من البرد ، أن
يتذكرنى وألا يردد الا اسمى لهو صديق مخلص حتماً . ذلك ما قلته
لنفسى ، وهذا هو السبب فى أننى كنت أعوّل عليك .

كانت تنظر فى عينيّ نافذة الصبر شوقاً الى سماع جوابى . ومرة
أخرى أعوزتنى الشجاعة اللازمة لأبدد أوهامها ولاذكر لها بصراحة
أن لامير خدعها وأننى لم أزعّم له أبداً أن صداقتى لها تبلغ هذا المبلغ كله
من القوة ، واننى لم أرد اسمها وحدها . فكان صمتى بمثابة تأكيد لكذب
لامير . وأنا أعلم أنها كانت هى نفسها تدرك حق الادراك أن لامير قد
بالغ وغالى ، بل لعله كذب عليها أيضاً ، لا لشيء الا أن يجد عذراً كريماً
لمحجته اليها وعقد صلة بينه وبينها . ولئن كانت تنظر فى عينيّ نظرة
الموقن بصدق أقوالى وقوة صداقتى ، فانما مرد ذلك طبعاً الى أنها كانت
تعلم أننى لن أجروّ على التكذيب ، بحكم ذوقى وأدبى ، وبحكم سنى
أيضا . على أننى أسأله : هل هذا الافتراض صحيح أم هو غير صحيح ،
فلا أجد لهذا السؤال جواباً . ولعلنى أمرؤ فاسد فساداً رهيباً .

وانبرت تقول فجأة بحرارة شديدة حين رأت اننى لا أجيّب :

- ان أخى سيدافع عني .

تمتت أقول مضطرباً :

- قيل لى انك جئت تزوريتى معه •

- ذلك أن هذا المسكين ، الأمير يقولوا ايعانوفتش لم يكده يبقى له ملجأ يعصمه من هذه المؤامرة أو قل يحميه من ابتسه الا مسكنك ، اعنى الا مسكن صديق • ألا يحق له فعلاً أن يمدك صديقاً ، أنت على الأقل ؟ فان كنت تستطيع أن تصنع له شيئاً فاصنعه ، اصنعه اذا استطعت ، اذا كان لك قلب كبير زاخر بالجرأة والشجاعة ، واذا كنت قادراً على أن تصنع شيئاً بالفعل ، • اننى لا أسألك هذا من أجلى • لا • لا أسألك هذا من أجلى ، بل من أجل شيخ تبس أجلك وحده حباً صادقاً ، وتعلق بك تعلقه بابنه ، ولا يزال يضجره بمدك عنه الى الآن • من أجلى أنا لا أنتظر شيئاً ، لا أنتظر شيئاً حتى منك ، بعد أن رأيت أن أبى نفسه قد دبراً لى مكيدة دنيئة !

قلت :

- يخيل الى أن آندره بتروفتش

فقاطعتنى قائلة وهى تبسم مرة :

- ان آندره بتروفتش قد أجاب عن سؤالى الصريح بأن حلف لى بشرفه أنه لم يضمرك لكاثرين يقولايقنا شيئاً فى يوم من الأيام ، ولا طمع فى شىء منها أبداً ، فصددته أنا كل التصديق فخطوت خطوتى • ثم انصع أنه لم يحافظ على هدوئه الا الى الوقت الذى جاءه فيه ذلك النبأ عن رجل اسمه بيورنيج •

هتفت أقول :

- ليس هذا هو الأمر • أنا أيضاً ظننت فى لحظة من اللحظات أنه يجب تلك المرأة • ولكن ليس هذا هو الأمر وحتى لو صدق أن

هذا هو الأمر ، فان فى مكانه الآن أن يبقى هادئاً وألا يحرك ساكناً
بعد أن انسحب ذلك السيد •

— أى سيد ؟

— بيورنج •

فقالت وهى تضحك ضحكة ساخرة :

— من قال لك انه انسحب ؟ لعل هذا السيد لم يكن فى يوم من
الأيام قوياً كقوته الآن •

وبدا لى الآن أنها كانت تحدجنى أنا أيضاً بنظرة ساخرة •

تمتعت أقول وقد اضطربت اضطراباً لم أقدر أن أخفيه ولا شك
أنها لاحظته :

— داريا أونيسيموفنا قالت لى هذا •

— داريا أونيسيموفنا اسأنة طيبة ، ولست أملك طبعاً أن أمنعها

عن حبى ، ولكنها لا تستطيع أن تعرف ما لايعلق بها •

انقبض صدرى • وكما كانت تنوى أن تلهب استيائى فقد التهب
استيائى فعلاً ، ولكن هذا الاستياء لم ينصب على المرأة « الأخرى » بل
انصب على أنا آندريفنا نفسها ، فنهضت وقلت :

— ان من واجبى ، كرجل شريف ، أن أنهك يا آنا آندريفنا الى
أن الآمال التى تعقدونها علىّ قد تكون أوهاماً باطلة لا جدوى منها ••

فحدقت الى بنظرة ثابتة وقالت :

— اننى أنتظر أن تحمى •• أن تحمى اسأنة هجرها الجميع ••

أن تحمى أختك يا آكارى ماكاروفتش !

وكادت أن تجهش باكياً •

فتمتت أقول وأنا أشعر بألم شديد :

- الأفضل ألا نقول على هذا ، لأن « من الجائز ، أن لا يحدث شيء » .

- ماذا يجب أن أفهم من أقوالك هذه ؟

ألفت هذا السؤال بكثير من التروى والحذر . فإذا أنا أصرخ قائلاً :
بما يشبه الغضب :

- أفهمي من أقوالى أنني سأسألكم عنكم جميعاً ، وكفى ! أما
« الوثيقة » ... فسوف أمزقها . استودعك الله !

حيثما وخرجت صامتاً لا أجرو حتى أن أنظر إليها . ولكن
ما ان بلغت أسفل السلم حتى أدركتني داريا أونيسيموفنا وهي تحمل ورقة
من ورق الرسائل مطوية نصفين . من أين جاءت داريا أونيسيموفنا ؟
أين كانت مختبئة فيما كنت أكلم آنا أندريفنا ؟ ذلك ما لم أستطع أن
أفهمه . وقد أعطتني الورقة دون أن تقول كلمة واحدة ، وعادت أدراجها
مسرعة . وفضضت الورقة ، فإذا أنا أقرأ فيها عنوان لامبير مكتوباً بأحرف
جلية دقيقة ، فكان واضحاً أن كل شيء قد تمّ اعداده وتحضيره منذ بضعة
أيام . تذكرت فجأة أنني ، يوم جاءت الى داريا أونيسيموفنا ، قد ألفت
منى أنني لا أعرف أين يقيم لامبير ، ولكنني انما قلت هذا الكلام بمعنى
أننى « لا أعرف ولا أريد أن أعرف » . وأنا الآن أعرف عنوانه بعد أن
كلف ليذا بالحصول عليه من « مكتب الضاوين » . بدت لى هذه المبادرة
من آنا أندريفنا بليغة الدلالة بل شديدة السخرية : فانها ، رغم رفضي

التعاون معها ، ترسلنى الى لامير رأساً ، فكأنها 'نفهمنى أنها لا تصدقنى
أى تصديق • كان واضحاً جداً أنها على علم بقصة « الوثيقة » كاملة •
ومن عسى يعلمها بها غير لامير الذى ترسلنى اليه لىتم التفاهم بينى وبينه ؟
قلت لنفسى مستاءة : « انهم جميعاً يعدوننى صبيهاً صغيراً لا ارادة له
ولا حزم عنده » فيستطيعون أن يفعلوا به ما يشاءون ! » •

مع ذلك ذهبت الى لامبير . وهل كان يمكننى أن أرضى حب الاطلاع الذى تملكته الا عنده ؟ ان لامبير يسكن بعيداً جداً ، فى شارع كوسوى بيريؤلوك ، بقرب « حديقة الصيف » ، فى ذلك البيت المفروش نفسه . ولكنى حين ولّيت هارباً من عنده لم أتبّه الى طول المسافة ، حتى اذا زوّدتنى ليزا بعنوانه بعد أربعة أيام ، دهشت ولم أكّد أصدق أنه يسكن هناك . وفيما كنت أصعد السلم بصرت أمام باب البيت المفروش ، فى الطابق الثالث ، بشابين اعتقدت أنهما قرعا الجرس قبل فهما ينتظران أن 'يفتح لهما الباب . وكانا كلاهما يتفرسان فى أثناء صعودى ، وقد أدارا للباب ظهرهما . قلت لنفسى حين وصلت اليهما : « هذا بيت مفروش ، فلا بد أنهما آتيان الى مستأجرين آخرين غير لامبير » . كان يمكن أن يزججنى جداً أن ألقى أحداً عنده . ومددت يدى الى الجرس لأقرعه ، محاولاً ألا أنظر اليهما . فاذا باحدهما يصيح قائلاً لى :

- انتظر !

وقال الآخر بصوت رنان رقيق ، ممطوط قليلاً :

- انتظر من فضلك . سنقرع الجرس معاً متى انتهينا ، اذا

تكرمت .

فأمسكت عن قرع الجرس . انهما شابان فى ريعان الشباب ، يبلغان من العمر عشرين عاماً أو اثنين وعشرين ، قد وقفا أمام الباب منهكين

فى عمل عريب حاولت أن أفهمه مدهوشاً • ان الذى صاح يقول :
« انتظر » ، مديد القامة جدا ، يبلغ طوله مائة وتسعين سنتيمترا فى أقل
تقدير ، وهو شديد النحول ، لكنه بارز العضلات ، الى رأس صغير جداً
بالقياس الى طول القامة ، هذا عدا وجه مجدور قليلاً ، مكفهر اكفهراراً
مضحكاً ، لكنه ينم عن ذكاء ، بل يسكاد يكون محبباً • ان عينيه تحدقان
تحديقاً ، بصلاية لا محل لها بل لا داعى اليها • وهو سىء الهندام ، يرتدى
معطفاً عتيقاً مبطناً بقطن ، ذا ياقة صغيرة من فراء مكشوط ، معطفاً قصيراً
مسرفاً فى القصر بالنسبة الى طول قامته - فلاشك أنه مستعار - وهو يتنعل
حذاءين تكاد تكون من أحذية الفلاحين ، ويضع على رأسه قبة عالية
مشققة ، بالية رهيبة البلى • هو على وجه الاجمال وسخ ، يده اللتان
لا يسترهما قفازان قذرتان ، وأظافره الطويلة مسودتان • ولا كذلك
رفيقه : فانه أنيق الى أبعد حدود الأناقة : معطف خفيف من فراء
ابن عرس ، قبة حلوة ، قفازان نضران زاهيان على أصابع رقيقة ناعمة •
انه فى مثل طولى ، على محبباً فتان ووجه فتى غض •

كان الشاب الطويل ينزع عن عنقه كرافته ، وهى شريط مهترى •
كل الاهتراء ، متسخ بالدهن ، كاد يستحيل الى خيوط ؛ على حين اصل
رفيقه من جيبه كرافة أخرى سوداء ، جديدة كل الجدة ، اشترت من
المتجر منذ هنيهة ، وراح يعقدها له على رقبته • فكان الأول يمد رقبته
الطويلة طائعاً معبراً بوجهه عن أكبر الجد ، تاركاً لمعطفه أن يسقط عن
جسمه •

قال الشاب الأنيق •

- لا ، مستحيل • القميص وسخ جداً • وسيظهر بالتضاد أشد
اتساخاً • ألم أقل لك أن تلبس ياقة مضافة ؟ لا أستطيع •••
ثم التفت الى وقال يسألنى :

- ألا تستطيع أنت ؟

- ماذا ؟

- أن تعقد له كرافته متنفخة بحيث لا يظهر تحتها قميصه الوسخ ،
والا فقدت كل قيمتها وتأثيرها • لقد اشتريتها له خصيصاً من عند الحلاق
فيليب ، ودفعت ثمنها روبلاً •

تمتم الطويل يقول :

- هل هو روبلك أنت ؟

- نعم • ولم يبق معي كوبك واحد • هيه ؟ ألا تستطيع ؟ يجب
أن نسأل ألفومبين •

وسألني الطويل بفتة في غلظة :

- هل أنت آت الى لامير ؟

فأجبهه بمثل لهجته وأنا أهدق الى عينيه :

- نعم ، الى لامير •

فعاد يسأل بتلك اللهجة نفسها وذلك الصوت نفسه :

- دولجورفكي ؟

فقلت أجيبه بنفاظة كلفاظته :

- لا ، لست كورفكين •

لقد سمعت خطأ •

فقال كمن يصرخ صراحاً ويتقدم نحوي خطوة كمن يهددني :

- دولجوروفكي ؟

فانفجر رقيقه ضاحكاً ، وقال شارحاً :

- انه يقول دولجوروفكى ولا يقول كوروفكين • انت تعلم ان
الفرنسيين فى « جريدة الجدل » يشوهون الأسماء الروسية دائماً •

فقال الطويل مصححاً مقرأً :

- بل جريدة « الاستقلال » •

- ... غير مهم • جريدة « الاستقلال » أيضاً • فاسم دولجوروفكى
مثلاً يكتبونه دولجوروفكى • قرأت هذا بنفسى • واسم ف... فوف
يكتبونه دائماً كونت فالونيف •

صاح الطويل :

- دوبيونى !

- نعم ، هناك أيضاً اسم دوبيونى • قرأته بنفسى ، وضحكنا جميعاً :
هى امرأة يقال لها مدام دوبيونى ، روسية فى الخارج ...

ثم أضاف يقول ملتفتاً الى الطويل :

- ولكن علام ذكرهم جميعاً ؟

وعاد يكلمنى فقال :

- معذرة • هل أنت السيد دولجوروفكى ؟

- نعم ، دولجوروفكى • ولكن من أين عرفت اسمى ؟

هنا همس الطويل فى أذن رفيقه اللطيف ببعض الكلام ، فقطب هذا
حاجبيه وحرك يده بإشارة نفى • ولكن الطويل التفت الى فجأة وقال
يسألنى بالفرنسية :

- « سيدى الأمير ، هلاً أعطيتنا روبلاً فضة ، لا روبلين ، بل روبلاً
واحداً ! » •

فصرخ القصير يقول مؤنباً :

- يا للحيوان !

وعاد الطويل يكلمنى فقال وهو ينطق الكلمات الفرنسية نطقاً
رديئاً أخرق :

- « سترد اليك » •

وانفجر القصير يضحك ، وقال :

- هذ افنى رقيق ! هل تظن أنه لا يحسن الكلام بالفرنسية ؟
انه ليتكلم كما يتكلم باريسى ، ولكنه يقلد الروس من أبناء المجتمع الراقى
الذين تملكهم رغبة جنونية فى التخاطب بلغة لا يجيدونها •••

فأبهرى الطويل يقول مخصصاً :

- « فى حافلات القطار » •

- طيب • فى حافلات القطار أيضاً • انك لمضجر حقاً • ما الداعى
الى مزيد من الشرح • أية لذة تجد فى تمثيل دور الغبى ؟
فى أثناء ذلك كنت قد أخرجت روبلاً ومددته الى الطويل • فقال
وهو يضع الروبل فى جيبيه (بالفرنسية) :

- « سترد اليك » •

ثم التفت فجأة الى الباب بهيئة ساكنة كل السكون جادة كل الجدة ،
وأخذ يده بطرف حذائه الضخم ، ولكن بدون أى احتياج أو حنق •
فقال له القصير قلقاً :

- سوف تشاجر مرة أخرى مع لامير • الأفضل أن تقرع الجرس •

وقرعت أنا الجرس ، ولكن ذلك لم يمنع الطويل من مواصلة
دق الباب بقدمه •

وفجأة دوى صوت لامير وراء الباب قائلاً :

— هوه ! يا للعين !

وفتح لامير الباب بسرعة ، وصرخ يقول للطويل (بالفرنسية) :

— « قل لى ، أتراك تريد أن أهشم لك رأسك ؟ » •

فقال الطويل بجذ ووقار وهو يواجه لامير الذى احمر غضباً :

— « يا صديقى ، هذا دولجوروكى ! أما الثانى فهو صديقى ! » •

فما ان رأى لامير حتى تغير تغيراً كاملاً وهتف يقول :

— هذا أنت يا آرКАДى ! أخيراً ! كيف صحتك ؟ هل شفيت ؟

وتناول يديّ كليهما ، وشدّ عليهما شداً قوياً • الخلاصة أنه
بلغ من صدق الحماسة للقائى أننى سرعان ما رقّ قلبى له ، وافتنت
به • قلت :

— هذه أول زيارة أقوم بها !

فصرخ لامير منادياً :

— « آلفونسين ، !

فوثبت آلفونسين من وراء الحاجز ، فقال لها لامير :

— « هو ذا ! » •

فصاحت آلفونسين مصفقةً بيديها :

— « انه هو ! » !

ثم عادت تباعد يديها واندفعت الىّ لتقبّلنى ، ولكن لامير حمائى
منها ، اذ صاح يقول لها كمن يخاطب كلباً صغيراً :

— هيه ! هيه ! على مهلك !

ثم التفت الىّ فقال :

- اسمع يا أركادى ، لقد اتفقنا ، عددًا من الأشخاص ، على أن
تتسنى اليوم فى مطعم "التتر" . فلن اتركك . سنصبحنا . سنتسنى معاً .
وسأصرف هذين حالاً ، ثم نأخذ نتحدث . ادخل . سنخرج على الفور .
دقيقة واحدة لا أكثر ...

دخلت ، وتسمرت فى وسط الغرفة ، أنظر الى ما حولى وأستعيد
ذكرىأتى . كان لامير قد أخذ يرتدى ثيابه وراء الحاجز . وقد دخل
الشباب الطويل ورفيقه وراءنا ، رغم ما قاله لامير . فكنا نحن الثلاثة
وقوفاً .

خار الطويل يقول لألفونسين :

- مدموازيل ألفونسين ! بوسبنى ! » .

وقال الصغير وهو يتقدم ويربها الكرافة الجديدة :

- مدموازيل ألفونسين ! » .

ولكنها هجمت عليهما كليهما حائقة مسعورة وقالت :

- « آه ... يا للسافل ! لا تقرب منى ، لا توسخنى ! »

قالت هذا للشباب القصير ، فهو الذى كانت حاقدةً عليه .

ثم اتجهت الى الطويل فقالت له :

- « وأنت أيها الأبله الطويل ! لسوف أطردهكما كليكما ركلاً »

بقدمى ... هل تعرف هذا ؟ » .

ورغم أنها أشاحت عن القصير بازدياء واحتقار ، كأنها تخشى
حقاً أن يوسخها (وهذا ما لم أفهمه ، لأنه كان نظيفاً كل النظافة ، وقد
ظهر حسن هندامه واضحاً حين خلع معطفه) ، رغم ذلك رجاها القصير
ملحاً أن تعقد للطويل الأبله كرافته ، وأن تميزه قبل ذلك بإقة نظيفة

من ياقات لامير • فأوشكت آلفونسين أن تضربهما استياءً من هذا الطلب ، ولكن لامير الذى سمع الكلام ، صاح من وراء الحاجز يطلب منها ألا تبقيهما وان تعطيهما ما يريدان ، و « الا فلن يدعانا هاديين » ، فسرعان ما تناولت آلفونسين ياقة وأخذت تلبسها الشاب الطويل بدون أى اشمئزاز • ومدّ الطويل لها رقبته وهى تعقد له كرافتسه ، كما فعل لرفيقه حين كانا على السلم أمام الباب •

قال يسألها بغتة :

— « مدموازيل آلفونسين ، هل بعث البولونيا الذى كان عندك » •
— « ما البولونيا هذا ؟ » .

فانبرى القصير يشرح لها أن « البولونيا » كلب صغير •
— « هه ! ما هذه الرطانة ؟ »

— « انتنى أتكلم كما تتكلم سيدة روسية فى مدينة من مدن المياه المعدنية » •

بذلك أجابها « الطويل الأبله » وهو لا يزال ماداً رقبته •
فقال له :

— « ما سيدة روسية فى مدينة من مدن المياه المعدنية ؟ » •

ثم أضافت تخاطب القصير وهى تلتفت اليه فجأة :

— « و ... أين ساعتك الجميلة التى أعطاك اياها لامير ؟ » •

فصاح لامير يقول من وراء الحاجز ساخطاً :

— ماذا ؟ بغير ساعة مرة أخرى ؟

فدمدم « الأبله الطويل » قائلاً :

- أكلنا بئمنها !

وأضاف القصير يجب لامير مبرراً عمله بدون حرارة :

- بعثها بثمانية روبلات • هي من فضة مذهبة ، وليست ذهباً كما زعمت • أمثال هذه الساعات تباع الآن في المتاجر بستة عشر روبلاً •

فتابع لامير كلامه بمزيد من السخط قائلاً :

- يجب أن يوضع حد لهذا • يا صديقى ، اذا كنت أشتري لك ثياباً وأعطيتك أشياء ثمينة ، فأننى لا أفعل ذلك من أجل أن تبيعها فتنفق ثمنها على صاحبك الطويل الأبله ••• ما قصة هذه الكرافته التى اشتريتها له أيضاً ؟

- هذه ثمنها روبل واحد لا أكثر • ولم أدفع ثمنها من مالك أنت • لم يكن عنده كرافته ، ولا يزال يحتاج الى قبعة •

قال لامير وقد استعر غضبه استعاراً رهيباً فى هذه المرة :

- كفى حماقات ! لقد أعطيتك ما يكفى لشراء قبعة أيضاً • ولكنه سرعان ما ينفق المال فى أكل محار وشرب شمبانيا • ان رائحته عفنة • انه قذر • لا يستطيع المرء أن يصطحبه الى أى مكان • كيف أصطحبه الى العشاء ؟

جميعم « الطويل الأبله » يجب قائلاً :

- فى عربة ! • ان معنا روبلاً فضة اقترضناه من صديقنا الجديد •

فصرخ لامير يقول :

- لأمطهما شيئاً يا أركادى ، لأمطهما شيئاً البتة !

قال القصير فجأة وقد احمر احمراراً شديداً فتضاعف جماله :

— اسمح لى يا لامبير • اتنى أطلبك بعشرة روبلات فوراً • ولا تقل
سخافات كهذه التى فلتها الآن لدولجوروكى ! اطلبك بعشرة روبلات ،
لأرد الروبل الى دولجوروكى حالاً ، ثم أشتري بالباقى قبة لآندريف ،
وسترى •

خرج لامبير من وراء الحاجز ، وقال :

— اليك ثلاث ورقات صفر ، ثلاثة روبلات ، ولن أعطى شيئاً
آخر قبل يوم الثلاثاء القادم ، ولا أحب أن أراكما قبل ذلك
الموعد • والا ...

انتزع « الطويل الأبله » من يديه الورقات الثلاث • فمدّ روبلاً الى
دولجوروكى قائلاً له :

— « دولجوروكى ، اليك روبلاً ، نرده شاكرين أجزل
الشكر » •

ثم صاح يقول لرفيقه :

— هلمّ بنا يا بيرو !

وفجأة رفع الورقتين الأخريين يلوّح بهما فى الهواء ، وأنشد يقول
بأعلى صوته وهو ينظر الى لامبير وجهاً لوجه :

— « أوهيه لامبير ! أين لامبير ؟ هل رأيت لامبير ؟ » •

فزأر لامبير ينهره بغضب رهيب :

— اسكت ! اسكت !

وأدركت أن وراء هذا كله قصة قديمة أجهلها كل الجهل ، فكنت
أنظر الى المشهد مدهوشاً • ولكن الطويل لم يحدث له غضب لامبير أى
خوف • بالعكس : أخذ يزأر منشدأ بصوت أعلى : « أوهيه لامبير ! » النخ •

وخرج الشابان وصارا فى السلم ، وركض لاميير يلاحقهما ، ولكنه لم يلبث أن عاد أدراجه . وقال :

- لسوف أطردهما ! سوف أطردهما قريباً ! انهما يكلفاني نفقات أكبر مما يعودان علىّ به من أرباح . هلمّ بنا يا آرКАДى ! لقد تأخرت . ينتظرني هنالك شخص ... شخص مفيد !

وهتف يقول مرة أخرى وهو يكرز أسنانه :
- أوباش ! أوباش !

لكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه فجأة . قال :
- يسعدنى أنك جئت أخيراً . يا آلفونسين ! لا يخطرنبسالك أن تخرجى ! هلمّ بنا يا آرКАДى !

أمام الباب ، كانت تنتظره عربة فخمة . ركبنا العربة . ولكنه ظل طوال الطريق لا يفلح فى تهدئة حنقه على ذينك الشابين تهدئة تامة . وقد أدهشنى أن أراه يأخذ الأمر مأخذ الجد الشديد ، وأدهشنى أن رأيتهما يعاملان لاميير بغير احترام ، حتى لقد كاد لاميير أن يرتعد أمامهما ارتعاداً . لقد كان يخيّل الىّ دائماً ، بالاستناد الى شعور قديم من مشاعر الطفولة ، أن لاميير شخص لا بد أن يخشاه جميع الناس ، حتى لقد كنت أنا نفسى ، رغم كل ما أئصف به من استقلال ، أشعر بخوف منه فى تلك اللحظة قطعاً .

استمر لاميير يصرّ عن غضبه ، فقال :

- أقول لك انهما وبشان رهيان . صدقنى : ان هذا الطويل قد سلمنى سوء العذاب منذ ثلاثة أيام فى مجتمع راق . وقف أمامى ينشد صائحاً : « أوهيه لاميير » . فى مجتمع راق . وأخذ الناس جميعاً يضحكون . كانوا يعلمون أنه انما يفعل ذلك لأعطيه مالا . رأيت المشهد

هنا بنفسك • وقد أذعنت فأعطيته • آه ••• انهم أوغاد • كن تلميذاً ضابطاً • فطردوه من المدرسة • تستطيع أن تتصور • وهو مثقف • نشأ في أسرة كريمة • في أسرة كريمة • صدقني • وله أفكار • كان في وسعه أن ••• ! ذلك أنه قوى قوة هرقل • انه يقدم بعض الخدمات الصغيرة • ولكن بغير همة وحماسة • وقد رأيت بعينك : انه لا يفشل يديه • ذات مرة أوصيت به سيدة من السيدات • سيدة عجوزاً من الطبقة الأرستقراطية • وزعمت لها أنه شاب نادم يريد أن ينتحر من شدة ما بلقى من عذاب الضمير • فذهب اليها • وجلس عندها • وطلق يصفر ! أما الآخر • الفتى • فهو ابن جنرال • أسرته تخجل أن يكون ابنها • خلصته من المحكمة • أنقذته • فافطر كيف يكافئني ! ليس ههنا رجل ! ولكنني سأطردهما • سأشدهما من جلد الرقبة وأضهما على الباب •

– انهما يعرفان اسمي • فهل أنت الذي حدثتهما عني ؟

– ارتكبت هذه الحماقة • في أثناء العشاء • سيطر على نفسك • أرجوك • ابق في مكانك • سيجيء الى العشاء وغد آخر رهيب • ذاك وبش فظيع • ماكر مكرراً فظيماً • ليس ههنا الا سفلة على كل حال • ما من رجل واحد شريف ! ولكن ستخلص منهم •• ثم • ماذا تحب من طعام فاخر ؟ لا قيمة لهذا السؤال على كل حال • جميع وجبات العشاء طيبة • أنا الذي سأدفع • لا تهتم ! من حسن الحظ أنك ترتدى ثياباً حسنة • أستطيع أن أعطيك مالا • ليس عليك الا أن تنجي • وتطلب • تصور أنني أتخمتها شرباً وطعاماً • في كل يوم فطائر • وتلك الساعة التي باعها هي الساعة الثابتة • ذلك القصير تريشأتوف – رأيت كيف تشمئز ألفونسين حتى من رؤيته وكيف تمنعه أن يقترب منها – ما ان يجد نفسه في مطعم • ومن حوله ضباط • حتى يأخذ يصرخ : • أريد حجباً • • فأطلب له حجباً ! لكنني سأنتقم •

- هل تذكر يا لاميير ... يوم ذهبنا معك الى المطعم بموسكو ،
فطعنتنى هناك بشوكة فى فخذى ! كان معك خمسمائة روبل فى ذلك
اليوم !

- نعم ، أذكر . طبعاً أذكر . اننى أحبك . صدقنى . لا أحد
يجبك . لكننى أنا أحبك . أنا وحدى ، تذكر هذا . ان الرجل الذى
سيجئ الى العشاء ، الرجل المجدور ، هو أمكر الأوغاد قاطبة . حذار
منه . اذا كلمك فاصمت ، واذا أخذ يسألك فأجبه بسخافات ، لاتقل شيئاً .
ان اضطرابه قد منعه على الأقل من أن يلقي على أسئلة أثناء الطريق .
وقد جرح شعورى أن أراءه واقعاً بى هذه الثقة كلها ، والا يخطر بباله
أن يشكّ فى أى شك . انه يتصور ، استناداً الى طواعيتى القديمة له ،
حين كنا فى مدرسة توشار ، أنه لا يزال يستطيع أن يأمرنى فأصعد
بأمره . وقلت لنفسي ونحن ندخل المطعم : « هو فوق ذلك كله جاهل
جهلاً فطبعاً ، فلا أثر فيه لثقافة » .

هذا المطعم ، فى شارع مورسكيا ، كنت قد ترددت اليه فى أيام سقوطى المخزى .. فلما رأيت هذه الصالات وهؤلاء الخدم الذين حيونى وعرفوا فىّ واحداً من رواد المطعم ؛ وأحسست بالنربة فى جو رفاق لامير ، وفى جو هؤلاء الصحب الذين رأيتنى بينهم على حين فجأة وكأنى واحد منهم ؛ وخالجتى توجس غامض بأننى مقبل على أمور قدرة وأننى سأنتهى فى أغلب الظن الى ارتكاب عمل سيء ، شعرت بطئنة تنفذ فى قلبى دفعة واحدة ، حتى هممت فى لحظة من اللحظات أن أنصرف ، ولكن تلك اللحظة مرت ، وبقيت .

ان « المجدور » الذى يخشاه لامير تلك الحشية كلما كان قد وصل قبلنا فهو ينتظرنا . هو واحد من أولئك الناس الذين يبدو عليهم انهم اك غبى فى العمل ، والذين أكرههم كرهاً شديداً منذ أن كنت طفلاً . هو فى نحو الخامسة والأربعين من العمر ، متوسط القامة ، أشيب الشعر قليلاً ، أمرد الوجه الى حد الفحش ، مع عارضين شائنين مقصوصين حلقاً ، كأنهما نقائق على خدين فى وجه مسطح كريحه . وهو طبعاً مضجر ، شديد الرصانة ، صموت ، بل هو على عادة أمثاله متعال متكبر . وقد تفرس فىّ بانتباه ، ولكن دون أن ينطق بكلمة . وشاءت خرافة لامير وهو يجلسنا على مائدة واحدة ألا يعرف أحداً بالآخر . فكان يمكن لهذا الرجل أن يعدنى واحداً من أولئك المبتزين الذين يرافقون لامير . وقد وصل الشابان لحظة وصولنا تقريباً ، فلم يخاطبهم الرجل أيضاً بكلمة

واحدة طول مدة العشاء ، ولكن كان واضحاً أنه يعرفهما معرفة وثيقة .
لم يكلم الا لاميير ، بل لم يكلمه الا بما يشبه أن يكون همساً . وكان
لاميير يكاد ينفرد بالكلام على كل حال ، أما المجدور فكان يكتفى بإجابات
مقتضبة وكلمات غاضبة مستفزة . كان هو متغطرساً متعجرفاً ، وكان
لاذعاً وساخرأ ، ولا كذلك لاميير ، فقد كان يبدو شديد الاحتياج ،
وكان كأنه يستحثه على أمر من الأمور لاشك أنه الاشتراك فى مشروع
من المشروعات . وقد مدت يدي الى قارورة النبيذ مرة ، فاذا بالمجدور
يتناول زجاجة من خمر الحريز ، فيمدها الى . لم يكن قد خاطبنى قبل
ذلك أبداً . وها هو ذا يقول لى الآن :

- جرّب هذا !

حزرت عندئذ أنه هو أيضاً كان يعرف عنى كل شيء ، اسمنى
وتاريخي ، وربما الخطط التى يعول لاميير فى تنفيذها على . فلمسا
تصورت أنه يعدنى مستخدماً عند لاميير ، استعرت حقنى مرة أخرى ؛ ومنذ
أن كلمنى هذا الرجل المجدور ، قرأت فى وجه لاميير قلقاً شديداً فيه
كثير من الحماقة . ولاحظ المجدور نفسه ذلك ، فانفجر يضحك . قلت
لنفسى : « لاشك أن لاميير مستعبد لهم جميعاً » ، وكرهته عندئذ بكل
قلبي . هكذا انقسمنا قسمين ، رغم أننا نجلس الى مائدة واحدة : قسماً
هو المجدور ولاميير جلسا بقرب النافذة متقابلين ، وقسماً هو أنا والطويل
الوسخ آنديريف بجانبى وتريشاتوف أمامى . وكان لاميير يستعجل
التهاء العشاء فهو ماينفك يستحث الخادم : حتى اذا جىء بالشمبانيا ،
قطع حديثه مع المجدور ، ومدّ كأسه نحوى قائلاً :
- نخب صحتك . فلندق الأقداح !

فَعَقِبَ تَرِيشَاتُوفُ اللَّطِيفَ قَائِلاً وَهُوَ يَمْدُ نَحْوَى قَدْحِهِ مِنْ فَوْقِ

الْمَائِدَةِ :

• - اسمح لى أنا أيضاً أن أدق قدحى بقدحك •

وكان تريشاتوف ، الى حين وصول الشمبانيا ، واجماً صامتاً •
أما « الأبله » فكان لا يقول شيئاً البتة ، وانما هو يأكل ساكناً ويأكل كثيراً •

أجبت تريشاتوف بقولى :

- يسرنى هذا !

ودققنا القدحين وشربنا • فقال « الأبله » فجأةً وهو يلتفت الى :

- أما أنا فلن أشرب نخب صحتك ، لا لأننى أتمنى لك الموت ،
بل لتكف عن المزيد من شرب الخمر هذا اليوم •

قال هذه الكلمات مربد الوجه متصنع اللهجة • وتابع يقول :

- أنت تكفيك ثلاثة أقداح !

ثم أدرف وهو يضع قبضة يده على المائدة :

- أرى أنك تنظر الى قبضة يدي الوسخة • اننى لا أغسلها ، بل
أؤجرها على حالتها هذه غير مغسولة ، أؤجرها للامير ، لكسر رهوس
الآخرين فى القضايا التى تفتح شهيته •

قال هذه الكلمات وضرب المائدة بقبضة يده ضربة بلغت من القوة
أن الأطباق والأقداح انقلبت وسقطت • وكان فى القاعة أربع موائد أخرى
قد جلس اليها طاعمون من ضباط وسادة محترمين • انه مطعم من المطاعم
الرائجة • فاذا بجميع المحادثات تنقطع ، واذا بجميع الأنظار تتجه الى
الركن الذى نحن فيه • وكنا قد أثرنا فضول الناس قبل مدة طويلة على
كل حال • اصطبغ وجه لاميير بحمرة شديدة • وقال بهمس حائق
يخاطب أندرييف :

- آ... ها هو ذا يستأنف أظن يا نيقولا سيمونوفتش أنتى رجوتك
أن تسيطر على نفسك •

فرشقه الرجل بنظرة طويلة بطيئة وقال :

- لا أريد لصديقى الجديد « دولجوروفكى » أن يسرف اليوم فى
شرب الخمر •

ازداد احمرار لامبير • وكان المجدور يصيح بسمعه صامتاً ، ولكن
كان واضحاً أنه راضى مقتبط • لقد أعجبت ثورة آندرييف • أنا وحدى
لم أدرك لماذا كان يجب على ألا أشرب •

قال لامبير وهو يكثر أسنانه :

- انه لا يفعل هذا الا ليأخذ مالا • سأعطيك سبعة روبلات • هل
تسمع ؟ سأعطيك سبعة روبلات بعد العشاء • ولكن دعنا نفرغ • لا نخزنا •
فزأر « الأبله » منتصراً :
- آ... آ... •

وابتهج المجدور قطعاً ، فهاهو ذا يضحك •

وقال تريشمانوف لصديقه بقلق ، بل بما يشبه الألم ، راغباً فى
صّده طبعاً :

- اسمع ، انك تسرف !

فصت آندرييف ، ولكن صمته لم يطل ، فان ما فعله لم يشف
غليله • كان يتحشى على مائدة ثانية تبعد عنا خمس خطوات سيدان منهمكان
فى حديث حار • انهما سيدان متقدمان فى السن ، يبدو عليهما أنهما
حساسان سريعاً التأذى • أحدهما طويل سمين جداً ، والثانى سمين أيضاً
لكنه قصير • كان الرجلان يتكلمان باللغة البولندية عن الأحداث الأخيرة

التي وقعت بباريس • وكان « الأبله » ينظر اليهما منذ مدة طويلة باستطلاع
وفصول ، ويصيح بسمعه الى حديثهما • وأغلب الطن ان البولندي القصير
قد بدا له رجلاً سخيلاً مضحكاً ، فسرعان ما أبغضه ، شأنه في ذلك شأن
جميع الأشخاص الصفراويين المصابين بمرض في الكبد ، الذين يحدث
لهم هذا بغتة بدون أى سبب • واتفق أن نطق البولندي القصير فجأة
باسم النائب ماديه دومونجو ، لكنه نطق الاسم بلكنة بولندية على عادة كثير
من البولنديين ، أى انه شدد المقطع السابق على المقطع الأخير من الاسم ،
فجاء نطق الاسم هكذا : ماديه دو مونجو • ولم يكن « الأبله » في حاجة
الى أكثر من ذلك ، فهاهو ذا يلتفت الى البولنديين ، ثم ينتصب بوقار ،
ويقول بصوت عال واضح وكأنه يلقي سؤالاً :

— ماديه دو مونجو ؟

فالتفت البولنديان حائقين • وسأله البولندي الطويل السمين مهدداً :

— ماذا تريد ؟

وكان « الأبله » ينتظر هذه اللحظة • فكرر سؤاله بصوت عال جداً
ليسمعه كل من بالصالة :

— ماديه دو مونجو ؟

كرر سؤاله هذا فوراً بغير مزيد من الايضاح ، تماماً كما فعل معي
من قبل أمام الباب حين كرر سؤاله لى وهو يتقدم منى : « دولجوروفكى ؟ »
فاتفص البولنديان • ونهض لاميير وهم أن يهجم على آندرييف ، لكنه
سرعان ما تركه واندفع نحو البولنديين يقدم لهما الاعتذارات •

فأخذ البولندي القصير يقول باحتقار وقد احمر احمراراً شديداً
حتى صار لون وجهه كلون جزرة :

- هؤلاء مهرجون ، يا سيد ، هؤلاء مهرجون • قريباً سيستحيل على المرء أن يجيء الى هنا •

واضطربت الصلاة كلها ، وبُسمت من كل مكان دمدمات تذمر ، ولكن الضحكات كانت أكثر من الدمدمات •

تمتم لامير يقول وقد طاش صوابه ، محاولاً ان يدفع آندريف الى خارج الصلاة :
- اخرج ، أرجوك •••

فوافق آندريف على الخروج بعد أن ألقى على لامير نظرة فاحصة فأدرك أنه سيعطيه مالا • لا شك أنه قد سبق له مراراً أن ابتز منه مالا بهذا الأسلوب • وأراد تريشاتوف أن يركض وراءهما ، ولكنه نظر الى توقف • ثم قال وهو يخفي عينيه باصابعه اللطيفة الناعمة :
- آه •• شيء كريه !

فقال المجذور هامساً وقد ظهر الاستياء في وجهه هذه المرة :
- كريه فعلاً !

ورجع لامير في أثناء ذلك مصفراً الوجه ، وهمس في أذن المجذور ببعض الكلام محرراً يديه بإشارات عنيفة ! وكان المجذور قد أمر أن يؤتى بالقهوة حالاً • وقد أصغى الى لامير باحتقار • وكان واضحاً أنه يود الانصراف • ولم تكن القضية كلها مع ذلك الا عبثاً صيانياً • وحمل تريشاتوف فئجان قهوته وجاء يجلس بجانبى • وأخذ يتكلم بهيئة صريحة كأنما نحن قد بحثنا هذا الموضوع مراراً •

- اننى أحبه كثيراً ، آندريف هذا • لا تستطيع أن تتصور مدى تعاسه • لقد بدد مهر أخته في الشراب والطعام ، بل بدد في الطعام

والشراب كل ما يملكه أهله فى أثناء خدمته العسكرية • وأنا أرى الآن كيف يتعذب عذاباً شديداً • اذا كان لا يغتسل فانما مرد ذلك الى الكمد واليأس • تراوده أفكار جنونية : يقول لك على حين فجأة سيان أن يكون المرء وغداً سافلاً أو رجلاً شريفاً ، فلا فرق بين الأمرين • يجب على المرء ألا يفعل شيئاً ، لا خيراً ولا شراً • فى وسع المرء أن يفعل الخير وأن يفعل الشر ، فكلاهما سواء • ولكن الأفضل من هذا أن يظل راقداً مدة شهر كامل لا يخلع ثيابه ، وانما هو يأكل ويشرب وينام لا أكثر • ولكن صدق أن هذا الكلام كله انما يقوله بغير جد • بل انى لأعتقد أن ما فعله اليوم انما فعله لينتهى من لامبير ويقطع صلته به قطعاً تاماً • بالأمس كان يحدثنى فى هذا • هل تصدق أنه فى الليل ، أو حين يخلو الى نفسه مدة طويلة ، يأخذ يبكى • وهو اذا بكى فانما يبكى كما لا يبكى انسان آخر غيره • انه يعول عويلاً رهيباً ، وهذا أبعث على الشفقة • تصور رجلاً يبلغ مبلغه من الطول ومن القوة ، ثم هو يبكى ممولاً ! بائس ، أليس كذلك ؟ أريد أن أنقذه ، ولكننى أنا نفسى شخص حقير ، فتى ضائع ، لعلك لا تصدق ! هل تسمح لى بالدخول يادولجوروكى اذا أنا جئت أزورك أحياناً ؟

— طبعاً ! أنا أحبك كثيراً .

— لماذا تحبنى ؟ شكراً على كل حال ! اسمع • فلنشرب كأساً أخرى • ماذا أقول ؟ لا ، لا تشرب ! لقد صدقت القول : يجب أن تكف عن الشراب هذه الليلة •

قال ذلك وهو يلقي على نظرة معبرة • وأردف يقول :

— أما أنا فسأشرب مع ذلك • أصبح الشراب لا يحدث لى شيئاً ، وأصبحت لا أستطيع أن أمتنع نفسى عن شىء • انصحنى اليوم بأن أمتنع عن تناول العشاء فى المطاعم ، تجدنى فى الغد مستمداً لكل شىء فى سبيل أن

أعشى فى المطاعم • أؤكد لك أننا نود ، مخلصين ، أن نصبح شرفاء ،
ولكننا نرجى ذلك دائماً الى الغد • وما ينفك الغد يراجع ،

وتمضى السنون تليها السنون ويغنى ربيع القمر

ولكنى أخاف عليه هو • سوف يشنق نفسه • سوف يمضى يشنق
نفسه دون أن يقول لأحد شيئاً • هذه طبيعته • ما أكثر الذين يشنقون
انفسهم فى هذه الأيام ! من يدرى ؟ لعل أمثالنا كثير • أنا مثلاً لا أستطيع
أبدأ أن أحيا بدون أن يكون معى فضل من المال • أنا أحوج الى المال
الزائد منى الى المال اللازم • اسمع ، هل تحب الموسيقى؟ أنا أحبها جداً
جنونياً • سأعزف لك شيئاً حين أجيء اليك • اننى أجيد العزف على
البيانو اجادة كبيرة • درست العزف زمناً طويلاً • دراسة
جادة • لو أتيح لى أن أؤلف أوبرا لاخترت موضوع « فاوست » •
اننى أحب هذا الموضوع كثيراً • فترانى دائماً أبهى بخيالى مشهداً
فى كاتدرائية : أتصور كاتدرائية قوطية ، وأتصور جوقات المغنين
والأناشيد • وتدخل جرتشن • الجوقات من القرون الوسطى ، حتى
يشعر المرء بجو القرن الخامس عشر • جرتشن حزينة مكتسبة ، فى
البداية 'تسمع تلاوة منعمة ، بصوت جهير ، لكنه صوت رهيب ،
معدّب • ثم يدوى صوت الجوقات بفناء فاتم ، قاس ، غير مكترث :

هذا يوم الغضب

وفجأة يعلو صوت الشيطان، يغنى الشيطان • انه لا يرى، ولكن
'يسمع صوته ، الى جانب الأناشيد ، ينطبق عليها تقريباً ، ولكنه مختلف
عنها كل الاختلاف • ذلك ما يجب التوصل اليه • وغناء الشيطان طويل ،
لا يتعب ، وهو تينور ، تينور حتماً • يكون فى البداية رقيقاً ، رقيقاً :
« هل تذكرين يا جرتشن أيام كنت لا تزالين بريشة ، أيام كنت لا تزالين
طفلة ، كيف كنت تجيئين مع أمك الى هذه الكاتدرائية وتتمنين بصلوات

تقرئنها فى صلب عيسى ؟ » • ولكن الغناء يفوى ثم يقوى ، وما ينفك
يزداد حرارة واندفاعا • أصبحت النغمات اعلى : يحس فيها السامع
دموعا ، يحس فيها ضجرا ، ضجراً لا ينتهى ، لا مخرج منه ، ثم
ياتى الياس : « لا غفران يا جرتشن ، لا غفران لك هنا ! » • وتريد
جرتشن أن تصلى وتدعو ، ولكن من صدرها لا تخرج الا صرخات -
اتعرف هذا النوع من الصرخات ؟ الصرخات التى تنطلق تشنجات من صدر
أترع دموعا • ويظل الشيطان يغنى • انه لا يصمت ، ويظل ينفذ فى
النفس الى أعماق أبعد ، ثم اذا هو ، على حين فجأة ، ينقطع مرة واحدة
بهذه الصرخة : « انتهى كل شيء » ، انصبت عليك اللعنة ! • وتهاوى
جرتشن على الأرض راکعة ، ضامة يديها أمامها • وتنطلق عندئذ
صلاتها ، صلاة قصيرة جداً ، هى قراءة منقمة ، ولكنها ساذجة ،
لا يصطنع فيها فن ، هى تلاوة ترجع فيها آثار القرون الوسطى قوية •
أربعة أبيات ، أربعة أبيات فقط - عند ستراديل نغمات كهذه ! - ثم
الأغماء ، بعد آخر نغمة ! ويحدث هرج ومرج • وترفع جرتشن ،
وتنقل • فاذا بالجوقة 'يرعد غناؤها فجأة • وكأنها صاعقة تنزل • غناء فيه
الهام ، غناء ظافر ، ساحق ، شيء من نوع لشيدناء تشيد الملائكة الصغار •
يهتز كل شيء حتى أساسه ، ويفضى كل شيء الى تسبيحة « المجد لله ! » •
لكنه صراخ الكون كله ، بينما هى 'تحمل و'تنقل • 'تنقل جرتشن ،
وتسدل الستارة • حقاً لو كنت أستطيع لفعلت شيئاً ما • ولكننى أصبحت
لا أصلح لشيء • فانما أنا أكتفى بأن أحلم • أحلم بهذا طول الوقت •
أحلم • حياتى كلها ليست الآن الا حلمًا • وفى الليل أحلم أيضاً • آه !
دولجوروكى ، هل قرأت كتاب ديككنز « مخزن العاديات » ؟ •

- نعم قرأته ، فماذا ؟

- لاشك أنك تتذكر ... انتظر • سأفرغ كأساً أخرى • لاشك

أنك تذكر ذلك الجزء من أواخر القصة ... الذى تراهما فيه ، ذلك الشيخ المجنون وتلك البنية الصغيرة ، حفيدته ، التى عمرها ثلاث عشرة سنة ، تراهما ، بعد هروبهما العجيب وتجوألهما الطويل ، يجدان ملجأ يأويان اليه بمكان فى أقاصى انجلترا ، قرب كاتدرائية قوطية قديمة ، وترى البنت الصغيرة تحصل هناك على وظيفة دليل ويرى الزائرين الكاتدرائية ، ففى ذات يوم تغرب الشمس ، فاذا بالطفلة ، والواقعة فى فناء الكاتدرائية ، وقد غمرتها أواخر أشعة النهار ، اذا بها تنظر الى الشمس الغاربة وقد امتلأت نفسها ، نفس الطفلة ، نفسها المدهوشة ، امتلأت تأملاً هادئاً وتفكيراً عميقاً ، كأنما هى تقف أمام لغز من الألغاز ، لأن الشيتين كليهما ، الشمس التى هى فكر الله ، والكاتدرائية التى هى فكر البشر ، انما هما لغزان حقاً ؟ ... أليس هذا صحيحاً ؟ آه ... اننى لا أجيد التعبير . ولكن الرب يحب هذه الخواطر الأولى التى تملأ نفوس الأطفال . وهناك ، على مقربة منها ، فوق الدرجات ، كان ذلك الشيخ المجنون ، جدّها ، يتأملها بنظرة جامدة . صحيح أن هذا كله ليس فيه شيء خارق ، هذا المشهد الذى رسمه ديكنز ، ولكن المرء لا يمكن أن ينساه أبداً . وقد بقى فى أوروبا كلها . لماذا ؟ لأن هذا هو الجمال . لأن فى هذا براءة . آه ... أنا لا أدري ما الذى يشتمل عليه هذا ، ولكننى أحس فيه جمالاً . كنت فى المدرسة الثانوية أكثر من قراءة الروايات . ان لى أختاً فى الريف ، تكبرنى بسنة واحدة ... الآن بيع كل شيء هناك ، ولم يبق لنا أملاك ! كنا واقفين على الشرفة معاً ذات يوم ، نقرأ هذه الرواية ، تحت أشجار الزيزفون فى دارنا ، وكانت الشمس تغرب أيضاً ، فاذا نحن نقطع عن القراءة ، ويقول كل منا للآخر : نحن أيضاً سنكون خيرين ، سنكون جميلين ... كنت أستعد حينذاك لدخول الجامعة . ان لكل انسان ذكرياته يا دولجوروكى ...

وفجأة مال برأسه الجميل على كنفى ، وطفق يذرف دموعاً غزيرة •
فأشفقت عليه ، أشفقت عليه كثيراً • صحيح أنه كان قد شرب كثيراً ،
ولكنه كان يكلمنى بصدق كبير ، وأخوة خالصة ، وعاطفة طاهرة •

وفى تلك اللحظة سمعنا من الشارع صرخة ، وسمعنا فرعات قوية
على زجاج النافذة (كانت كل نافذة من النوافذ قطعة واحدة من الزجاج ،
وكانت كبيرة ، وكانت فى الطابق الأرضى ، فيستطيع المرء أن يلمسها من
الشارع) • انه آندرييف الذى ' طرد •

– « أوهيه لامير ! أين لامير ؟ هل رأيت لامير ؟ » •

داهمتنا هذه الصرخة من الشارع • فهتف الفتى وهو يشب عن
مكانه متدفعاً :

– لا يزال اذن هنا ! انه اذن لم ينصرف !

وصاح لامير يقول للخادم :

– الحساب !

وكانت يداه ترتجفان غضباً وهو يدفع الحساب • ولكن المجدور
لم يسمح له بأن يدفع عنه •

– لماذا ؟ أنا الذى دعوتك وقد قبلت أنت الدعوة •

– لا ، اسمح لى •

وأخرج المجدور محفظة نقوده ، ودفع حصته بعد أن حسب
ما عليه • قال له لامير :

– انك تهيننى يا سيمون سيدوروفتش !

– هذا ما أريده •

بذلك أجاب سيمون سيدوروفتش • وتناول قبته ، وخرج من

الصالة وحده دون أن يودع أحداً • فقدف لامير باقى الحساب للخادم
وأسرع يركض وراء المجدور ، حتى لقد نسينى من شدة اضطرابه •
وجرجنا أنا وتريشاتوف آخر من خرج • كان آندرييف متسماً أمام
الباب ، كنصب ، ينتظر تريشانوف •

قال له لامير الذى أصبح لا يستطيع كظم غيظه :

— سافل !

فاذا بآندرييف يزأر صائحاً :

— هيه !

ثم اذا هو يقلب له قبته بقفا يده ، فنسقط القبعة على الرصيف •
ويسرع لامير الى التقاطها بمذلة •
— « خمسة وعشرون روبلاً » •

كذلك قال آندرييف لتريشاتوف وهو يريه الورقة النقدية التى
استطاع أن ينتزعها من لامير • فصرخ تريشاتوف قائلاً له :
— كفى ! لماذا الجرسه دائماً ؟ ولماذا أخذت منه خمسة وعشرين
روبلًا ؟ انه لا يدين لك الا بسبعة روبلات •

— لماذا ؟ لأنه وعدنا بأن تمنى وحدنا مع نساء ، فاذا هو يمشينا
مع هذا المجدور بدلاً من النساء • هذا عدا أننى لم أفرغ من طعامى ،
وقد تجمدت من البرد على الرصيف بما يساوى ثمانية عشر روبلاً ،
فيكون المجموع خمسة وعشرين •

زأر لامير يقول :

— شيطان يأخذكما ! اننى أطردكما كليكما وسوف أريكما ...

فصرخ آندرييف قائلاً :

- لامبير ، أنا الذى اطرلك ، وانا الذى سوف أريك ! ...
« الوداع يا أميرى » ! لاتزد على ما شربت • هلمّ يا بيرو ! الى الأمام ،
سر ! « أوهيه لامبير ! أين لامبير ؟ هل رأيت لامبير ؟ » •

كذلك ردّد مرة أخيرة وهو يتعد بخطى عملاق ! •

تمتم تريشاروف يقول لى بسرعة وهو يتعجل اللحاق بصديقه :
- اذن سأجىء اليك ، هل تسمح ؟

وبقيت وحدى مع لامبير • قال وهو لا يكاد يستطيع أن يسترد
أنفاسه ، وكأنه فقد صوابه :

- هيا بنا !

فأسرعت أصبح قائلاً له بلهجة متحدية مستفزة :

- الى أين ؟ لا ، لن أصحبك الى أى مكان !

فسألنى قلقاً وقد ناب الى نفسه فجأة :

- كيف هذا ؟ اتنى لم أكن أنتظر الا أن تبقى وحدنا •

- الى أين ؟

يجب أن أعترف بأن رأسى كان يدور قليلاً بعد أن شربت ثلاث

أقداح من الشمبانيا ، وكأسين من خمرة الخريز •

- الى هنا ، الى هنا ، هل ترى ؟

- ولكن فى هذا المحل محاراً طازجاً كما ترى • مكتوب ذلك •

فالرائحة اذن كريهة •

- هذا ما يجب لنا بعد العشاء • انه محل ميلوتين • المحار لن نأكله •

ولكننى سأقدم لك شمبانيا •

- مستحيل • أنت تريد أن تسكرنى •

- مما اللذان قالوا لك هذا • ضحكا عليك • أتصدق هذين
الوغدين ؟

- لا ، ليس تريشاروف وغداً • ثم أننى أعرف بنفسى كيف أكون
حذراً •

- فلك اذن ارادة قوية ؟

- نعم ، لى ارادة قوية ، أقوى من ارادتك على الأقل ، فانت
يستعبدك أول قادم ! لقد جللتننا بالعار • مضيت تعتذر لدينك البولنديين
ذليلاً كخادم • لا بد أنك كثيراً ما ضربت فى المطاعم •

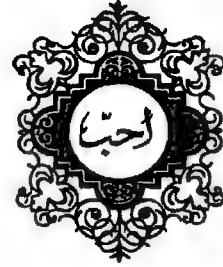
صاح يقول باحتقار وقد نفذ صبره نقاداً معناه : « وانت أيضاً ؟ » •

- ولكن بيننا كلام يا غبى ! أتراك خائفاً ؟ أأنت صديقى أم لا ؟

- لست صديقك ، ما أنت الا وشى دنى • على كل حال ،
هنا ! أريد أن أبرهن لك على أننى لست خائفاً منك • هوه ! ما أبشع
هذه الرائحة ! رائحة جبن عفن ! ما أشدها قنارة !

الفصل السادس

١



أن أذكر مرة أخرى بأن رأسي كان يدور قليلاً • والا لكنت تصرفت وتكلمت على غير هذا النحو •

في قاعة خلفية من تلك الدكان كان يؤكل محار فعلاً • وقد جلسنا الى مائدة عليها غطاء وسخ • وأمر لامبير بشامبانيا • فاذا أمامي قدح مملوءة بخمرة باردة لونها كلون الذهب ، تنظر الى وتفريني بنفسها • لكنني كنت مستاءً مهموماً •

- هل تعلم يا لامبير ما الذي يسوءني منك خاصة ؟ أنك تصور نفسك قادراً حتى الآن على أن تأمرني فأطيع ، كما كان الحال في مدرسة توشار ، مع أنك أنت المستعبد لهم جميعاً هنا !
- غبي ! هياً ! لنديق الأقداح !

- لا تريد حتى أن تجبر نفسك على شيء • ليتك تحاول على الأقل أن تخفي عني أنك تريد أن تسكرني !

- انك تقول سخافات ، وانك لسكران • يجب أن تشرب المزيد فتصبح أكثر مرحاً • هياً تناول قدحك • ما بالك لا تتناول قدحك ؟
- أتناول قدحي ؟ أنا منصرف • ذلك كل ما ستحصل عليه مني !
وهيمت أن أنصرف فعلاً • ولكن هاهو ذا يفض غضباً شديداً :
- ان تريشاتفوف هو الذي أنارك على : رأيتكما ، كنتما تنهماسان •

ما أنت الا غبي • ان آلفوسين تشمئز منه اذا هو أقرب منها ••• انه مقزز • سأحكي لك عنه فتعرف ما قيمته !

- سبق أن حكيت لي • ليس في فمك الا اسم آلفوسين ! انك لمحدود العقل حقاً !
- محدود ؟

لم يفهم عني • وأردف يقول :

- ماهما الآن مع المجدور • ذلك هو السبب في أنني طردتهما •
ان هذا المجدور رجل دنيء • سوف يفسدهما • أما أنا فكنت أطلبهما بأن يلتزما الشرف والنبل في سلوكهما دائماً •

جلست ، وتناولت القدح بغير شعور ، وجرعت جرعة •
قلت له :

- أنا بثقاقتي أعلى منك كثيراً !

ولكنه كان قد امتلأ فرحاً بأثني عدت أجلس • وسرعان ما ملأ لي القدح مرة أخرى • تابعت كلامي لأغيطه (ولا شك أنني كنت عندئذ أبعث منه على الاشتمزاز) ، فقلت :

- ولكنك خائف منهما ، أليس كذلك ؟ أسقط آندرييف قبعتك عن رأسك ، فكافأته على ذلك بخمسة وعشرين روبلاً •

- نعم ، ولكنه سينال عقابه • انهما يتمردان ، ولكنني سأعرف كيف أقنص •••

- والمجدور يعذبك • أظن أنك لم يبق لك أحد غيري • فجميع آمالك معقودة على أنا الآن ، هه ؟

- نعم يا عزيزى آرКАДى • هذا صحيح جداً : لم يبق لى صديق
غيرك • صدقت !

قال ذلك ووبت على كتنى •

ما العمل برجل يبلغ هذا المبلغ من الغباء ! انه بعقله المحدود
يحسب السخرية مديحاً •

تابع كلامه وهو ينظر الى برقة وعاطفة :

- فى وسعتك أن تجنبنى كثيراً من المنغصات ، وأن تخلصنى من
ورطة اذا كنت رفيقاً مخلصاً يا آرКАДى !
- كيف ذلك ؟

- أنت تعرف • ما لم أساعدك فستظل غنياً طول حياتك ، لكننى
أستطيع أن أهيب • ثلاثين ألف روبل نقسسمها نصفين ، نصفاً لك
ونصفاً لى • انظر ماذا أنت الآن : انك لا تملك شيئاً ، لا اسماً ولا أسرة •
فاذا قبلت ما أعرضه عليك صرت غنياً فى طرفة عين • وبثروة كهذه
الثروة تستطيع أن تشق لنفسك طريقاً •••

ذهلت من هذا الأسلوب • كنت أتصور أنه سيعمد الى المكر
والحيله ، ثم هاهو ذا يمضى الى الهدف رأساً فيكلمنى بلا لف ولا دوران
كما يكلم صبي صغير • قررت أن أصغى اليه ، من باب رحابة الفكر ••
وبتأثير الفضول الشديد أيضاً !

قلت له بلهجة ثابتة صارمة :

- اسمع يا لامبير ، قد لانفهم ما سأقوله لك ، لكننى سأقوله :
اننى أقبل أن أصغى الى كلامك لأننى رحب الفكر •

وجرعت جرعة أخرى ، فسرعان ما عاد لاميير يكمل ملء
الكأس • وقال :

- اسمع يا آرКАДى : لو أن رجلاً مثل بيورنج قد أباح لنفسه
أن يشتمنى وأن يضربنى بحضور سيدة أعبدها ، لما عرفت ماذا كان
يمكن أن أفعل ! أما أنت فقد تحملت • ولذلك أحترقك : ما أمت
الا خرقه بالية !

فهمت أقول وقد اصطبغ وجهى بحمرة شديدة :

- تجرؤ أن تقول ان بيورنج ضربنى ؟ أنا الذى ضربته ، وليس
هو الذى ضربنى !

- بل هو الذى ضربك ولست أنت الذى ضربته !

- كذاب ! حتى اننى دست على قدمه !

- لكنه دفعك عنه بيده وأمر الخدم أن يقتادوك ... وكانت
هى فى العربة تنظر اليك وتضحك عليك ! هى تعلم أنك ليس لك أب ،
وأنت تبلع كل اهانة !

- يخيّل الىّ يا لاميير أننا نتكلم الآن كما يتكلم تلاميذ مدرسة •
وانتى لأشعر عنك بخزى وعار • أنت تقول هذا كله لستشيرنى ، وتقوله
بغلظة شديدة وفظاظة صريحة ... أتراك تحسبنى صيباً فى السادسة عشرة
من عمري ؟

ثم هتفت أقول وأنا أرتعش غضباً وأشرب كأسى جرعات بغير
شعور :

- انك تفاهمت مع آنا آندريفنا !

- آنا آندريفنا وغدة مأكرة ، ستضحك علينا أنا وأنت والعالم
بأسره ! وأنا انما انتظرتك لأنك تستطيع أن تتفق مع الأخرى •

- من الأخرى ؟

- السيدة آخماكوفا • انتى أعرف كل نى • أنت نفسك قلت
لى انها تخشى الرسالة التى فى حوزتك ...

- أية رسالة ؟ ... أنت كذاب !

وتمتت أقول مضطرباً أشد الاضطراب :

- هل رأيتها ؟

- رأيتها • جميلة • « جميلة جداً » • ان لك ذوقاً رفيعاً !

- أعرف أنك رأيتها • ولكنك لم تجرؤ أن تكلمها • ولا أريد
أن تتكلم عنها •

- انك مازلت فتى غراً ، وهى تضحك عليك وتسخر منك
لا أكثر • عرفنا فاضلة من هذا النوع بموسكو • ما كان أشد شموخها
بأنفها ! ولكن ما ان هددت بفضح كل شىء حتى أخذت ترتجف ،
وسرعان ما أصبحت طيعة ! فنلنا منها كل ما أردنا : المال وغير المال •
هل تفهم ؟ لقد عادت الآن الى المجتمع ، وأصبح الوصول اليها
مستحيلاً ، وصارت تحلق عالياً • ما أفخم العربى التى تركبها ! ليتك
رأيت الماخور الذى تمّ فيه هذا كله ! انك لم تعيش بعد • ليتك تعرف
المواخير التى لا يخشين فيها أن ...

تمتت أقول بغير ارادة :

- خطر ببالى هذا !

- انهن فاسقات حتى نخاع العظام ! انك لا تعرف كيف لا يتورعن
عن شىء ! لقد عاشت ألفونسين فى بيت من تلك البيوت ، فما كان أشد
اشمئزازها !

فقلت أؤيده مرةً أخرى :

- فكرت فى هذا !

- أ تضرب ثم تأخذك شفقة ؟ ...

فأدركت قصده على الفور ، فصرخت أقول له وأنا أرتجف غضباً :

- لاميير ، أنت وغد ، أنت وبش لثيم ! لقد رأيت هذا كله فى

النام . حلمت بك جالساً بجانب آنا أندريفنا ... آه ... انك سافل

دنىء ! أكنت تحسبنى حقيراً الى هذا الحد ؟ لقد رأيت هذا فى المنام

لأننى كنت أعلم منذ ذلك الحين أنك ستحدثنى هذا الحديث . ثم ان

الأمر ليست بسيطة هذه البساطة كلها فتحدثنى عنها بمثل هذه الصراحة ،

وبمثل هذه البساطة !

- أ رأيت ؟ ها هو ذا يغضب ! هـ هـ هـ ...

أخذ لاميير يضحك منتصراً . وتابع كلامه فقال :

- اسمع يا عزيزى آكاردى . عرفت الآن ما أنا فى حاجة اليه .

لهذا انما كنت انتظرك ، استمع الى ما أقول : أنت تحبها ، وتريد أن تنتقم

من بيورنج . هذا ما كنت أريد . أن أعرفه . ولقد كنت أفدّره أثناء هذا

الانتظار . « اذا كان الأمر كذلك ، فقد تغيرت المسألة » (بالفرنسية) .

وفى هذا خير . ذلك أنها تحبك هى أيضاً . فتزوجها بلا ابطاء . هذا

خير ما تفعل . ثم انك لا تستطيع أن تفعل غير هذا . لقد اخترت أفضل

حل . ثم اعلم يا آركادى أن لك صديقاً . أنا الصديق الذى تستطيع أن

تفعل به ما تشاء . ان هذا الصديق سيساعدك وسيزوجك . سأجد كل

شئ . سأمضى أبحث تحت الأرض عن كل ما تحتاجه ، يا عزيزى

آركادى . وفى مقابل ذلك تعطى رفيقك القديم ثلاثين ألف روبل

أجراً على ما بذل من جهد ، مه ؟ سأساعدك . لا تقلق . أنا فى مثل

هذه الأمور أعرف جميع المداخل والمخارج • ستال المهر كله ، فاذا انت غنى ، واذا باب المستقبل اللامع ينفتح امامك .

كان راسى يدور • ولكن هذا لا ينفى اننى كنت أنظر الى لامير مدهوشا • لقد كان جاداً فيما يقول ، او قل اننى كنت ارى رؤية واضحة أنه كان يصدق هو نفسه أن فى امكانه أن يزوجنى ، بل انه يتبنى هذه الفكرة بحماسة • وكنت أدرك كذلك طبعاً أنه يستدرجنى الى فتح كائننى طفل صغير (لاشك أننى قد أدركت هذا منذ ذلك الحين) • ولكن فكرة هذا الزواج بها كانت بلغت من قوة النفاذ الى كيانى كله اننى رغم افدهاشى من أن يستطيع لامير تصديق هذا الخيال ، قد اندفعت أنا نفسى الى تصديقه تصديقاً لا سبيل الى مقاومته ، دون أن أفقد ، خلال لحظة واحدة ، شعورى بأن هذا أمر لا يمكن تخفيقه طبعاً • لا أدري كيف أمكن أن تجتمع هذه المشاعر المتناقضة فى نفسى معاً •

تمتت أسأله :

- ولكن هل هذا ممكن ؟

- لم لا ؟ تريها الوثيقة فتخاف فتتزوجك حتى لا تضيّع الميراث •

قررت ألا أصدّ لامير عن المضى فى هذه الحقاير ، لأنه كان يعرضها أمامى بسذاجة كبيرة ، ولا يخطر بباله أنه من الممكن أن يثور عليه حتى فجأة • ومع ذلك دمدمت أقول له اننى لا أحب على كل حال أن أتزوج بقوة التهديد وحدها :

- مستحيل ، لن أتزوج عنوة • كيف يدور فى خلدك أن

أكون من الحسة بحيث لا أتورع عن هذا ؟

- هوه ! ولكنها ستجىء اليك من تلقاء نفسها • لا أنت بل هى •

ستخاف فتتزوجك !

ثم استدرك يقول :

- ثم انها ستزوجك لأنها تحبك .

- كذاب . أنت تسخر منى . كيف عرفت أنها تحبني ؟

- أعرف هذا طبعاً . أنا أندريتنا نفترضه أيضاً . اننى جاد فيما

أقول . اننى أقول الحقيقة : أنا أندريتنا تتصور هذا . سأحكى لك شيئاً

آخر حين تجيى الى " ، فترى أنها تحبك . لقد ذهبت ألفونسين الى

تسارسكويما . وحصلت هي أيضاً على معلومات ...

- ماذا استطاعت أن تعلم هناك ؟

- لنذهب الى البيت : ستحكى لك هي نفسها ، فيكون ذلك أمتع

لك وأحلى . ثم هل أنت أقل من غيرك ؟ انك جميل ، ومتعلم ...

دمدمت أقول :

- نعم ، متعلم ...

كنت أتنفس بمشقة ، وكان قلبى يخفق خفقاناً شديداً حتى ليكاد

يتحطم ، ولم تكن الحمرة هي السبب الوحيد طبعاً ...

- أنت جميل وأنيق .

- نعم أنيق .

- وطيب ...

- نعم طيب ...

- فكيف لا ترضاك اذن زوجاً ؟ ان بيورنج لن يتزوجها بدون أن

يكون لها مال ، وأنت تستطيع أن تحررها من مالها ، فتخاف فتزوجك .

واذا تزوجتها فقد انتقمت من بيورنج في الوقت نفسه . لقد قلت لى فى

تلك الليلة ، حين كنت متجيداً من البرد ، انها تحبك .

- أنا قلت لك هذا ؟ أنا لم أقل هذا الكلام حتماً !

- بلى بلى • قلت هذا الكلام بعينه •

- قلته أثناء الهذيان • ولا بد اننى حدثتك اذن عن الوثيقة ؟

- نعم ، ذكرت أن تلك الرسالة هى فى حوزتك • فساءلت أنا :

إذا كان يملك تلك الرسالة فماذا ينتظر ؟ كيف يضئع وقته ؟

تمت أقول :

- أضغاث أحلام • لست من الحماقة بحيث أصدق أن هذا

الزواج يمكن أن يتم • هناك أولاً فرق السن • وهناك ثانياً أننى ليس لى اسم •

- أقول لك انها ستزوجك • يستحيل ألا تتزوجك حين تكون

مهددة بفقد ميراث ضخم • وسوف أدبر هذا الأمر • ثم انها تجبك • هل تعلم ؟ ان هذا الأمير العجوز يحمل لك أطيب المشاعر • فما أكثر العلاقات التى تستطيع أن تعقدها برعايته ! أما عن الاسم ، فان المرء فى هذا الزمان لا يحتاج الى اسم : متى ملكت المال فسوف تسير قدماً الى أمام ، وسوف تمضى بعيداً ، فما هى الا عشر سنين اذا أنت تملك من الملايين ما تهتز له روسيا كلها : ما حاجتك الى الاسم حينذاك ؟ ان فى وسع المرء أن يشتري من النمسا لقب بارون • وحين تتزوج عليك أن تفرض ارادتك • يجب على الرجل أن يعرف كيف يعامل النساء • ان المرأة التى تحب رجلاً تريد أن يسيطر هذا الرجل عليها • المرأة تهوى فى الرجل الصلابة • وأنت متى أخفتها بالرسالة تكون قد برهنت لها فى الوقت نفسه على صلابتك • ستقول : « آ • • لا يزال فى ريق الشباب ثم. هو صلب العزيمة الى هذا الحد ! » •

بقيت على مقعدى كالمصعوق • ما كان لى أن أنقاد لئله هذا الحديث

الأحقق مع اى انسان اخر • ولكن لهما لذيتا لا ادرى ما كنهه كان
يدفعنى الى اطالة الحديث • ثم ان لامير كان اشد غباء واشد حطة من
أن يخجل المرء أمامه • فلت فجأة :

- اسمع يا لامير • فل ما نشت • ولكن كلامك زاخر بالسخافات •
ولئن كنت أكلمك فلأنتا رفيقان ، فليس لأحدنا أن يخجل من الآخر •
وما كان لى أن أنزل الى هذا المستوى لو كنت أكلم شخصاً آخر • ثم
ما الذى يجعلك تجزم بأنها تحبني ؟ لقد صدقت منذ قليل حين تكلمت عن
المال • ولكنك يا لامير لا تعرف المجتمع الراقى : ان كل شيء فى تلك
البيئة يخضع لتقاليد نظام الأبوة ، ويخضع لاعتبارات التمييز بين
الطبقات • وهى الآن تجهل طافتى ، ولا تعرف المدى الذى يمكن أن
أبلغه فى هذه الحياة ، فلا يمكن إلا أن تشمر بالعار اذا هى تزوجتنى •
لكننى لا أكتمك يا لامير أن هناك نقطة تبعث على الأمل هى أنها قد تزوجتنى
على سبيل الشكر والامتنان ، لأننى سأخلصها عندئذ من كره يضره
لها رجل تخاف منه •

- أباك تعنى ؟ هل هى تحبه اذن كثيراً ؟

ألقى لامير هذا السؤال وقد هزّه فضول شديد • هتفت أقول :

- لا ، لا • حقاً انك لفظيع وغبى فى آن واحد ، يا لامير !
هل يمكن أن أريد تزوجها لو كان يحبها ؟ الابن وأبوه ! سيكون هذا
مخزياً رغم كل شيء ! ان أبى يحب ماما • لقد رأيته يقبلها • ما كان
أغبانى حين كنت أتصور فى الماضى أنه يجب كاترين يقولايقتنا ! صحيح
أنه كان يحبها ، ولكنه أصبح يكرها منذ مدة طويلة • انه يريد
الانتقام ، وهى خائفة • ذلك أنه رهيب اذا هو أخذ ينتقم يا لامير !
يكاد يصبح عندئذ مجنوناً • اذا غضب منها فانه يفقد صوابه فلا يتورع
عن شيء ! هذا كره من نوع الكره الذى كان ينشب بين الأسر القديمة

ويقوم على اساس من مبادئ • الناس فى عصرنا هذا لا تقيم وزناً للمبادئ • فى عصرنا هذا لا مبادئ بل حالات خاصة • اه • • • لامير ! انك لاتفهم شيئاً • أنت غبى كقديمك • أنا أكلّمك الآن عن المبادئ • وأنت لا تفهم من أمر المبادئ شيئاً • أنت جاهل جهلاً رهيباً • هل تتذكر كيف كنت تضربنى ؟ ولكننى الآن أقوى منك • هل تعلم هذا ؟

ـ عزيزى آرКАДى ، لنذهب الى بيتى ! سنقضى السهرة معاً ، وسنشرب زجاجة أخرى ، وستغنى لنا ألفومسين عازفةً على القيثارة •

ـ لا ، لن اذهب • اسمع يا لامير • أنا الى « فكرتى » • فاذا لم ينجح المشروع ولم أتزوج ، فسوف أرتد الى فكرتى • أما أنت فليس لك فكرة •

ـ طيب طيب • ستحدثنى عن هذا • هيّا بنا !

ـ لن اذهب الى بيتك !

ونهضت ، وأنا لا أزال أقول :

ـ لا أريد أن اذهب ، ولن اذهب • سأجىء اليك ، ولكن ما أنت الا وغد • سأعطيك ثلاثين ألفاً • ليكن • لكننى أظهر منك وأنبّل منك • أما هى ، فأننى أمتك حتى من أن تفكر فيها : انها فوقنا جميعاً • ما خططك الا قذارات استغربها حتى منك أنت • أريد أن أتزوج • هذه قضية أخرى • ولكننى لست فى حاجة الى ثروة • أنا أحتقر الثروة • لن أقبل ولو قدمت لى ثروتها راکعة • • • أن أتزوج ؟ هذه مسألة أخرى • ثم • • • هل تعلم ؟ صدقت حين قلت ان على الرجل أن يكون صلباً فيعرف كيف يسيطر عليهن • حسن أن يحب الرجل ، أن يحب حباً قوياً مشبوحاً ، بكل ما يقدر عليه الرجل وتمعّز عنه المرأة من عظمة النفس ، ولكن يجب أن يكون الرجل طاعية مستبدّاً • ذلك أن المرأة ،

يا لامير ، تحب الاستبداد • أنت يا لامير تعرف النساء ، ولكنك في كل ما عدا ذلك غبى غباءً يثير الدهشة • ثم هل تعلم يا لامير ؟ ما أنت بالمقزز الى الحد الذى يتصوره المرء حين يراك • أنت بسيط • أحبك يا لامير • آه يا لامير ، لماذا أنت وبش ؟ الحياة معك يمكن أن تكون مملأً بالفرح والمرح ! هل تعلم يا لامير ؟ أنا أرى أن ترشاتوف لطيف وديع •

هذه الجمل الأخيرة المفككة التى لا يربطها رابط انما تستهيا بعد أن صرنا فى الشوارع • اتنى أتذكر أسير التفاصيل : يجب أن يرى القارئ كيف أمكنتى عندئذ أن أمقط فى مثل هذا الوحل بمثل هذه السهولة بعد كل ما شبَّ فى نفسى من حماسة ، وكل ما حلفته من أيمان ، وكل ما قطعته من عهود لأرجع الى الخير وأبحث عن الجمال • قسماً ما كنت لأعترف بهذه المخازى على أية حال من الأحوال ، على أية حال من الأحوال ، لولا اقتناعى الكامل التام بأن الحياة قد أحالتنى انساناً آخر تعلم الحياة العملية وتعودها •

كنا قد خرجنا من الدكان ، وكان لامير يسندنى محيطاً بذراعه قائمى • ورفعت اليه بصرى فجأة ، قرأيت فى نظرتة الثابتة المتفحصة اليقظة المختلصة ذلك التعبير نفسه الذى رأيته فيها يوم كنت متجلداً من البرد عند الصباح ، فقادنى محيطاً بذراعه قائمى ، على هذه الصورة تماماً ، الى أن أوصلنى الى عربة ركبها ، وكان يصغى بأذنيه وعينه جميعاً الى تمتمائى المفككة التى لا يربطها رابط • ان الأشخاص الذين أنبلهم الشراب ولكنهم لم يسكروا سكرًا تاماً ، توافيهم على حين فجأة لحظات صحو كامل •

قلت له بصلاية وأنا ألقى عليه نظرة ساخرة وأدفع ذراعه عنى :

ـ لن أصحبك الى بيتك بحال من الأحوال !

– طيب طيب • سآمر آلفونسين بأن تهيب • لنا شايآ •

كان مقتعآ أعمق الاقتناع بأننى لن أفلت منه • وكان يحيطنى
بذراعه ويسندنى معتبطآ أعظم الاغتياط ، لأنه أطبق على فريسته • لقد
كان محتاجآ الىّ فى ذلك المساء ذاته ، وأنا على هذه الحال نفسها •
وسترون سبب ذلك فيما بعد •

كررت أقول :

– لن أذهب معك ! يا حوذى !

وكانت زلاجة تمر فى تلك اللحظة نفسها فوثبت وصرت فيها •
فزأر لامير خائفآ خوفآ رهيبآ وهو يشدنى من معطفى :
– الى أين تذهب ؟ ما هذا الذى تفعل ؟

فصحت أقول له :

– ولا تحاول أن تتبعنى ، لا تجر ورائى !

وضرب الحوذى حصانه بسوطه ، فسارت العربية ، وأفلت معطفى
من يدى لامير • فصرخ لامير ورائى يقول بصوت خيىث :
– سبان ! لسوف تجىء !
– أجبىء اذا أردت •
كذلك أجبته من العربية وأنا التفت اليه •

لم يلاحقنى ، ويرجع ذلك فى أغلب الظن أنه لم يقع على عربة فوراً ، فاستطعت أن أفلت منه . ولكن ما ان وصلت الى « سوق العلف » حتى نزلت من العربة وصرفتها . كان بى شوق جنونى الى المشى . لم أكن أشعر لا بتعب ولا بسكر شديد . وانما كنت أشعر بنوع من نشاط الهمة وفيض القوة ، وبقدرة خارقة على القيام بأى عمل ، وبأفكار لذيذة لا نهاية لها تزدهم فى رأسى .

وكان قلبى يخفق خفقاناً قوياً ، حتى لقد كنت أسمع كل دقة من دقاته . وكان كل شىء فى نظرى فاتناً وسهلاً . فلما وصلت الى أول مخفر بسوق العلف شبت فى نفسى رغبة قوية فى أن أمضى الى الحفير فأعاقته وأقبله . وكان الجليد يذوب ، وكان الميدان مظلماً ، وكانت تفوح فيه روائح كريهة ؛ غير أن كل شىء كان يعجبنى ، حتى هذا الميدان .

قلت لنفسى : « سأسير الآن فى شارع أوبوخوف ، ثم التفت يسرةً فأمشى فى شارع سيمينوفسكى ، فأكون قد درت دورة . هذا لذيذ . وكانت أضرار معطفى محلولة : لا أحد يشد معطفى . أين هم اللصوص اذن ؟ يقال ان فى « ميدان العلف » لصوصاً . فما بالهم لا يتقدمون منى ! قد أعطيتهم معطفى . ما حاجتى اليه ؟ المعطف تملك . و « كل تملك سرقة » . ولكن كفى بلاهة ! ما أجمل كل شىء ! ما أحلى أن يذوب الجليد . علام الجليد ؟ ما ينبغي أن يكون جليد . ما أحسن

ان يقول المرء سخافات . عجيب ، ماذا قلت للامير عن المبادئ ؟ قلت انه لا مبادئ . بل حالات خاصة . كذبت . كذبت أكبر الكذب . كذبت متمعدا ، لادهشه واذله . هذا عيب ، هذا خزي ، ولكن لا ضير . سأصلح الامر . لا تشعر بعار يا آرКАДى ماكاروفتش ، لا تعذب نفسك ! انك تعجبنى يا آرКАДى ماكاروفتش ، بل انك تعجبنى كثيراً يا صديقى الشاب . خسارة أن تكون وغداً صغيراً . . . و . . . آه . آه . . .

وقفت فجأة وانتشى قلبى من جديد .

« رياه ! ماذا قال ؟ قال انها تعجبنى ! يا للسافل ! لقد كذب . قال ذلك لأصعبه فأقضى الليلة عنده . ولكن قد أكون مخطئاً . قال ان آنا آندريفا تمتد بهذا هي أيضاً . . . هي . هي ! لعل داريا أويسيموفنا استطاعت أن تعرف شيئاً : انها تحشر أنفسها فى كل مكان . ثم لماذا لم أصعبه الى بيته ؟ لو صعبته لكان يمكن أن يحكى لى كل شىء . هم . . . ان له خطته . أوجست هذا وتبأت بجميع تفاصيله . حلم . انك قد أجدت تصور خطتك يا مسيو لامير . ولكنك تكذب . لن تجرى الأمور هذا المجرى . ولكن قد تجرى هذا المجرى ! قد تجرى ! هل هو يعجز عن تزويجى ؟ انه قادر على هذا قدرة تامة . هو ساذج وهو يصدق . هو غبى وجرىء ، كجميع رجال الأعمال . اجتماع الغباء والجسارة قوة كبيرة . اعترف يا آرКАДى ايفانوفتش ، اعترف أنك خفت من لامير ! وما حاجته الى رجال شرفاء ؟ انه قال هذا الكلام جاداً : ما من رجل شريف هنا ! ولكن ماذا أنت ؟ هو ! ما هذا الذى أقوله ؟ أليس الأوغاد فى حاجة الى شرفاء ؟ ان الحاجة الى الشرفاء هى فى الأعمال السافلة أشد منها فى أى مجال آخر . هاهاها ! كنت لا تعرف هذا بعد ! يا آرКАДى ماكاروفتش ، من شدة براءتك ! يا رب ! ماذا لو زوجنى حقاً !

وتوقفت مرةً أخرى • يجب ان أعترف هنا بأمر سخيـف
(مادام هذا الامر يرجع عهدـه الى زمان بعيد) • يجب ان اعترف بانـي
كنت منذ مدة طويلة أريد أن أتزوج • بل قل انـي كنت لا أريد هذا ،
وما كان لهذا أن يحدث (وهو لن يحدث أبداً ، أقسم على ذلك
بشرفى) ، لكنـي كنت قد حلمت بالزواج مراراً كثيرة ، خلال مدة
طويلة ، قلت لنفسى عدداً لانهاية له من المرات : ما أحلى أن أتزوج !
وكان يحدث لى هذا كل مساء حين أستلقى فى فراشى لأنام • بدأ ذلك
عندى وأنا فى السادسة عشرة من العمر • كان لى فى المدرسة الثانويه
رفيق اسمه لافروفسكى • هو فتى لطيف جداً ، وهادىء ، وجميل •
ولكن هذه مزاياء كلها لا ميزة له غيرها • كنت لا أكاد أكلمه أبداً • ثم
إذا نحن نجد نفسينا فى ذات يوم وحيدين ، قد جلس كل منا بجانب
الأخر • كان غارقاً فى التفكير • وما هو ذا يقول لى فجأة : « آه
يا دولجوروكى ! ما رأيك ؟ ليتنا نتزوج ! ومتى نتزوج اذا لم نتزوج
الآن ؟ هذه أصلح فترات العمر للزواج • ومع ذلك يستحيل الزواج ! » •
قال ما قاله صادقاً مخلصاً • فشعرت بانـي أوافقـه على رأيه بكل
نفسى ، لأنـي كنت أحلم هذا الحلم من قبل • والتقينا بعد ذلك عدة
مرات متتالية ، فكنا نتكلم فى هذا الأمر دائماً ، متخفين متكتمين • وبعد
ذلك انفصلنا ، لا أدري لماذا ، وانقطعنا عن التـخاطب • فى ذلك الحين
اذن انما أخذت أحلم بالزواج • ولكن علام أذكر كل شىء ؟ انـي
ما تحدثت عن تلك الفترة الا لأبين كيف أن الأمور يرجع عهدـها فى
بعض الأحيان الى زمان بعيد ...

قلت لنفسى وأنا استمر فى المشى : « ليس هناك الا اعتراض هام
واحد : ان فرقاً طفيفاً فى السن لن يكون عقبةً » ، ولكن هـى اوستقـرالمية ،
وأنا دولجوروكى فحسب ! هذا سىء جداً ! هم ... يستطيع فرسيـلوف

إذا تزوج ماما أن يطلب من الحكومة موافقتها على أن يتبنانى ... مكانة
للأب على خدماته • لقد خدم فى الوظيفة • فله إذن خدمات • كان
وسيط صلح • آه ... ما هذه الدعاية التى أنشط اليها ! •

هتفت هذا الهاتف ، ووقفت مرةً ثالثة على حين فجأة ، لكننى فى
هذه المرة كنت كمن سحق فى مكانه سحقاً • أحسست بمذلة أليمة من
هذه الفكرة التى أمكن أن تخطر ببالى وهى أن أغير اسمى بالتبنى
فأخون كل طفولتى • وبدد هذا كلَّ ما كنت أحسه من بهجة ، وطار
فرحى دخاناً • قلت محدثاً نفسى وأنا أحمر احمراراً فظيماً : « لن ، لن
أفنى بهذا الى أحد ، ولئن انحطعت الى هذه الدعاية كلها ، فذلك ...
فذلك لأننى عاشق وغبى • لا ، اذا صدق لاميير فى أمر ، فقد صدق
حين قال ان المرء فى هذا الزمان لا يحتاج الى هذه السخافات ، وان
الشيء الأساسى فى عصرنا انما هو الشخص ثم ماله • بل الشخص ثم
قوته لا ماله • اننى أستطيع بهذه الثروة أن أنطلق فى تحقيق « فكرتى » ،
فما هى الا عشر سنين حتى يترجع ذكر اسمى فى روسيا كلها ، وأتقم
من الجميع • ولا حاجة بى معها الى هذا الاحتفال كله ! هنا صدق لاميير
أيضاً : لسوف تخاف فتزوجنى • الأمر بسيط • سوف توافق ببساطة
تامة ، على أتفه نحو • وتذكرت أقوال لاميير : « انك لا تعرف فى أى
ماخور تمَّ هذا » ، فقلت أحدث نفسى مؤيداً كلام لاميير : « صحيح •
ان لاميير على حق فى جميع النقاط • هو أصدق رأياً منى ألف مرة ،
وأصدق رأياً من فرسيلوف ، ومن سائر هؤلاء المثاليين ! انه رجل
واقعى • سوف ترى أن لى ارادة صلبة • وسوف تقول : ان له ارادة
صلبة • • لاميير وغد • وهو لا يفكر الا فى أن يحصل منى على
ثلاثين ألفاً • ولكنه صديقى الوحيد ، رغم كل شيء • ما من صداقة
أخرى ممكنة • ان الذين تخيلوا هذا أناس عمليون • وأنا لا أذلها •

هل أنا اذلها ؟ ابدا • النساء جميعا سواء • هل فى الدنيا كلها امرأة غير دينية ؟ لهذا هن فى حاجة الى الرجل • لقد خلقن عيىدا • المرأة رذيله وفضيحة ، والرجل نبل وكرم • وستبقى الحال على هذا المنوال الى اخر الدهر • اننى أفكر فى استغلال الوثيقة : أى ضمير فى هذا ؟ هذا لا ينفى النبل ولا الكرم • ليس فى هذه الحياة سيللر كامل لا تشوبه شائبة • تلك صورة لفقها الخيال • لا قيمة للوسيلة الدينية اذا كانت الغاية نبيلة • ثم 'يفسل كل شىء فلا يبقى أثر من وساخة • هذه رحابة الفكر ، هذه هى الحياة ، هذه هى الحقيقة العملية • كذلك يجب أن تسمى الأمور اليوم ! •

أعود فأستغفر القارئ عن ذكر كل هذا الهذيان الذى دار فى رأس سكران ، استغفره عن ذكره كاملاً لم أسقط منه شيئاً • ان ما ذكرته هو زبدة الأفكار التى تلاحقت فى رأسى آنذاك ، لكننى أظن مع ذلك أننى استعملت هذه العبارات نفسها • وكان لابد لى أن أثقلها الآن ما دمت أكتب لأحكم على نفسى • والا لم يبق ما أحكم عليه • هل فى الحياة ماهو أخطر من هذا ؟ وليست الحمر بمرر • فقديماً قال المثل اللاتينى : « الحمر تكشف » •

وفىما كنت مسترسلاً فى هذه الأحلام غارقاً فى هذه الأخيلة ، لاحظت أننى قد وصلت الى البيت ، أعنى بيت أمى • حتى أننى لم ألاحظ كيف دخلت • ولكن ما ان وضعت قدمى فى حجرة المدخل الصغيرة حتى أدركت فوراً أن شيئاً خارقاً قد حدث • ففى الغرف 'يسمع كلام و'يطلق صراخ ، وأمى تبكى • وكادت لو كيريا أن تقلبنى وهى تمر كالاعصار من غرفة ماكار ايفانوفتش الى المطبخ • فخلعت معطفى ، ودخلت غرفة ماكار ايفانوفتش لأن الجميع كانوا محتشدين فيها •

كان فى الغرفة فرسيلوف وأمى • وكانت أمى متهاكة على ذراعى

فرسيلوف ، وكان فرسيلوف يشدها الى صدره شداً قوياً . وكان
ماكار ايفانوفتش جالسا على المقعد كمادته ، لكنه يبدو منهارا لا قوة له .
فكانت ليزا تسند كتفه بمشقة كبيرة لتمنعه من السقوط . وكان واضحاً
أنه يوشك في كل لحظة أن يسقط . فلما تقدمت نحوه بخطوة سريعة ،
ارتعدت وأدركت كل شيء : كان الشيخ ميتاً .

لقد مات منذ قليل ، ربما قبل وصولي بدقيقة واحدة . كان قبل
عشر دقائق لا يحس بأى تغير فى حالته . ولم يكن عنده الا ليزا . كانت
جالسةً بجانبه تحدثه عن حزنهما وتفضى اليه بأشجانها ، وكان هو
يلعب رأسها كما فعل بالأمس . ثم اذا هو يرتجف على حين فجأة
(هذا ما روته ليزا) ، وقد أراد أن ينهض ، وأراد أن يصرخ ، لكنه
لم يلبث أن سقط على جنبه الأيسر صامتاً . قال فرسيلوف : «هو القلب !» .
وصرخت ليزا صرخة قوية جعلت كل من فى البيت يهبون واقفين ،
وهرع الجميع . حدث هذا كله ربما قبل وصولي بدقيقة واحدة !

صرخ فرسيلوف يقول لى :

- آر كادى ! اركض فوراً الى تاتيانا بافلوفنا ! هى الآن فى بيتها
حتماً . فقل لها أن تأتى فوراً . اركب عربة . أسرع ، أرجوك .

كانت عيناه تسطعان ، أتذكر هذا تذكراً واضحاً . لم ألاحظ فى
وجهه شيئاً مما يشبه أن يكون حسرة واضحة أو دموعاً . ان أمى وليزا
ولوكيريا هن اللواتى كن يبكين . بل انى لأذكر ذكراً واضحاً أن ما فجأ
بصرى فى وجهه انما هو احتياج شديد ، نوع من حماسة . وركضت
منجهاً الى بيت تاتيانا بافلوفنا .

ليس الطريق طويلاً . تعلمون هذا مما سلف . لم أركب عربة ،
وانما اجتزت المسافة راكضاً بنير توقف . كنت مضطرب الفكر ، حتى

لأكاد أكون متحمساً أنا أيضاً • لقد أدركت أن حادثاً له شأن خطير قد وقع • فلما وصلت الى بيت تاتيانا بافلوفنا ، كان سكرى قد تبدد تماما ، وتبددت معه جميع تلك الأفكار الدنيئة •

فتحت الفنلندية الباب وقالت : « السيدة خرجت ! » ، وهمت أن تغلق ثانية •

فقلت وأنا أقتحم الباب الى حجرة المدخل اقتحاماً :

- خرجت ؟ كيف ؟ مستحيل • مات ماكار ايفانوفتش !

فاذا بصوت تاتيانا بافلوفنا يدوي من خلال باب صالونها المغلق :

- ما ... ذا ؟

مات ! ماكار ايفانوفتش ما مات ! يرجوك آندره بتروفتش أن

تجيئى حالا •

- كذاب !

وصرّ المزلاج ، ولكن الباب لم يفتح فتحاً وانما شقّ بمقدار

اصبع :

- « ماذا حدث ؟ قل ! » •

- لا أدري • وصلت الى البيت فوجدت ماكار ايفانوفتش ميتاً •

آندره بتروفتش يقول : « هو القلب ! » •

- حالا ، حالا ! اركض • قل اني آتية فوراً • هيا اذهب •

ما بالك لاتذهب ! ماذا ؟ ما بقاؤك واقفاً هنا ؟

لقد رأيت رؤية واضحة ، من خلال الباب المشقوق ، ان أحداً

خرج من وراء الستارة التى تحجب سرير تاتيانا بافلوفنا ، وتسمّر فى

قراءة الفرقة ، وراء تاتيانا بافلوفنا ، فوجدتني أضغ يدي على المزلاج

آلياً ، غريزياً ، بحيث لا يمكن اغلاق الباب ثانية •

— آرکادی ایفانوفتش ! هل صحيح أنه مات ؟

انه صوت أعرفه ، صوت رقيق عذب متسق ، يرن رنين المعدن ،
هزاً أعماق نفسي منذ سمعته • وكان سؤالها يختلج بعاطفة وتأثر •

قالت تاتيانا فافلوفنا وهي تترك الباب فجأة :

— اذا كان الأمر كذلك ، فدبرا أمركما بنفسكما كما تريدان •
أنت التي أردت هذا !

وولت مسرعة تختطف شالاً ومعطفاً قصيراً ، وتهرع الى السلم •
وبقيتا وحيدتين • نضوت عنى معطفي ، وتقدمت خطوة ، وأغلقت
الباب •

كانت واقفةً أمامي كما حدث في لقائنا السابق ، مشرقة الحيا ،
واضحة النظرة • وكما في المرة الماضية مدت اليّ كلتا يديها • وكأن
منجلاً قطع ساقى ، فاذا أنا أهوى على قدميها •

أخذت أبكى ، لا أدري لماذا . لقد نسيت الآن كيف أجلسنى بجانبها . ولكننى - وهذه ذكرى ثمينة - رأيتنا جالسين جنباً الى جنب ، قد أمسك كل منا يد الآخر ، واندفعنا فى حديث سريع . سألتنى عن الشيخ وعن موته ، فحكيت لهما ما أعرف ، فلو رأتى أحد أثناء ذلك لظننى أبكى على ماكار ايفانوفتش ، ولكن ذلك ذروة السخافة . وأنا أعلم على كل حال أنها لا يمكن أن تفترض فى بلاهة كهذه البلاهة الصيانية . وثبت الى نفسى أخيراً على حين فجأة ، وشعرت بخزى وعار . أفترض الآن اننى انما بكيت حينذاك من فرط الحماسة ، وأظن أنها أدركت ذلك فوراً ، فأنا من هذه الناحية مطمئن .

وبدا لى فجأة أن من المستغرب جداً أن تسألنى بمثل هذا اللاحاح عن ماكار ايفانوفتش . فسألتها مدهوشاً :

- هل تعرفينه ؟

فأجابت :

- منذ مدة طويلة . اننى لم أره يوماً . ولكنه لعب فى حياتى دوراً . سمعت عنه أشياء كثيرة فى الماضى من الرجل الذى أخشاه . تعرف من أعنى .

- أعرف الآن أن « ذلك الرجل » كان أقرب الى نفسك كثيراً
مما أظهرت •

قلت لها ذلك وأنا لا أدري ما الذى أردت أن أعبر عنه ، ولكننى
قلته مؤاخذاً مقطب الجبين •

تابعت مساءلتى فقالت دون أن تصفى الى كلامى :
- تقول انك رأيته يقبل ماما منذ قليل ؟ قبلها ؟ رأيته بعينيك ؟
فأسرعت أجيب مؤكداً ، وقد رأيت كيف تهلل وجهها فرحاً :
- نعم رأيته • وصدقتى أن ذلك كله كان صادقاً كل الصدق
كريمًا كل الكرم •

قالت وهى ترسم إشارة الصليب :

- الحمد لله • الآن تحلل من أغلاله • كان هذا الشيخ يكبل
حياة آندره بتروفتش بالأصفاد • ولسوف ينبعث الشعور بالواجب
والشعور بالكرامة فى نفسه من جديد ، كما حدث هذا مرة من قبل •
ذلك أنه رجل كريم قبل كل شئ • وسوف يهدى قلب ماما التى يحبها
أكثر مما يحب أى شئ فى هذه الحياة ، وسبهداً هو نفسه أخيراً •
الحمد لله • آن الأوان •

- هل هو عزيز عليك ؟

- نعم ، عزيز جداً ، ولكن ليس بالمعنى الذى يريد هو
وتقصده أنت •

سألتها فجأة :

- ولكن الآن ، أأنت خائفة على نفسك أم خائفة عليه ؟

- هذه أسئلة صعبة • لتتركها !

- لتتركها ، نعم • ولكننى كنت لا أعرف من هذا كله شيئاً ، ولعل
هناك أموراً كثيرة أخرى أجهلها كل الجهل • مهما يكن من أمر ، أنت
على حق • لقد تبدل الآن كل شيء ، وإذا كان أحد قد يُعتبَ بعتاً جديداً
فهو أنا • لقد انحطعت بتصوراتى وأفكارى انحطاطاً شديداً تجاهك
يا كاترين نيقولايفنا ؟ ولعلنى ، منذ ساعة لا أكثر ، قد ارتكبت عملاً
دنيئاً فى حقك • ولكن اعلمى أننى الآن ، وأنا جالس بجانبك ،
لا أحس بشيء من عذاب الضمير • ذلك أن كل شيء قد زال ، ذلك
أن كل شيء قد تبدل ؟ والرجل الذى كان منذ ساعة يضمرك لك شراً
أنا لا أعرفه ، ولا أريد أن أعرفه •

ابتسمت وقالت :

- "أفقد" • لكأنك تهذى قليلاً •

تابعت كلامى قائلاً :

- وهل يستطيع المرء أن يحكم على نفسه حين يكون معك ؟ سواء
أكان حقيراً أم كان شريفاً فانك تظلين كالشمس لا يمكن الوصول
إليك • ولكن لبتك تعرفين ماذا حدث منذ ساعة ، منذ ساعة لا أكثر •
يا للحلم الذى كان يصدد التحقق !

قالت وهى تبسم ابتسامة رقيقة عذبة :

- أظن أننى أعرف كل شيء • لقد أردت منذ قليل أن تنتقم منى ،
وحلفت لتضيئنى • ولا شك مع ذلك فى أنك لو سمعت أحداً يتجراً
فيقول كلمة سوء فى حقى أمامك لقتلته أو لألحقته به أذى •

صحيح أنها ابتسمت وكانت تمزح • ولكن مردد ذلك الى طيبة
قلبها ، فقد عرفت فيما بعد أنها فى تلك اللحظة كانت نفسها كلها مترعة
بهم شخصى ضخم وب عاطفة تبلغ من القوة والصرامة أنها كانت لا تتحدث

معى ولا تعجب عن أسئلتي الجوفاء المحنقة الا كما يجيب المرء فى بعض الأحيان عن أسئلة سخيفة يصرفُ طفل صغير على القائها اصراراً عنيداً ، فهو يجيب عنها ليتخلص ويرتاح • وقد أدركت ذلك فجأة ، فسمعت بخجل وخزى ، ولكننى كنت لا أستطيع أن أتوقف •

هتفت أقول وقد فقدت سيطرتى على نفسى :

— لا ، لم أقتل الشخص الذى قال فى حقك سوءاً ، بل أيّدته وشجّعته !

— أرجوك ، ناشدتك الله ، لا تفحص على شيئاً ، لا فائدة فى هذا ، لا يجب هذا •

ومدّت يدها لوقفى عن الكلام ، حتى لقد ظهر فى وجهها ألم • ولكننى كنت قد وثبت ووقفت أمامها لأروى لها كل شيء • ولو قد فعلت لما حدث ما حدث بعد ذلك • لأننى كنت سأنتهى حتماً الى الاعتراف لها بكل شيء ، والى تسليمها الوثيقة • ولكنها انفجرت تضحك على حين فجأة قائلة :

— لا داعى الى الكلام • ما أنا فى حاجة الى شيء • دعك من التفاصيل ! جرائمك كلها ، أنا أعرفها • أراهن أنك أردت أن تتزوجنى ، أو أردت شيئاً من هذا القبيل ، وأنت قد تواطأت منذ قليل مع واحد من أعوانك ، هو رفيق من رفاقك القدامى فى المدرسة ••• أظن أننى حذرت !

بهذا هتفت وهى تحدّق الى •

فقلت لها متمماً كما يتمم أهله ، وقد اعترانى شدة وذهول :

— كيف ••• كيف أمكنك أن تحزرى ؟

- أين الصعوبة في هذا ؟ ولكن كفى كفى ! انى أغفر لك ، ولكن كفى عن الكلام في هذا الأمر •

حتى لقد حرّكت يدها باشارة تنم عن شدة التملعل • وأردفت تقول :

- أنا أيضاً أحب أن أحلم • لئتك تعلم الأساليب التى أُلجأ إليها فى أحلامي ، حين لا يصدنى شيء ! كفى ! انك لا تزيد على أن تبث الاضطراب فى نفسى • يسرنى جداً أن تاتيانا بافلوفنا خرجت • كنت أريد كثيراً أن أراك ، فلو بقيتُ لما استطعنا أن نتكلم كما نتكلم الآن • أظن أنني مذنبّة فى حقك ، مسؤولة عما وقع لك حينذاك • أليس كذلك ؟

- أنت ؟ مذنبّة ؟ ولكننى أنا الذى أسلمتكَ « اليه » • ترى ما عساك قلت عني ؟ لقد ظلمت أفكر فى هذا الأمر طول الوقت ، فى جميع هذه الأيام ، كلّ لحظة ، أفكر فيه وأحس به •

لم أكذب عليها • قالت :

- أخطأت اذ عدّبت نفسك هذا التعذيب • لقد أدركتُ أنا على الفور كيف حدث كل شيء • لقد كشفتُ له ، بكل بساطة ، وأنت فى غمرة الفرح ، أنك تحبّنى و ... أننى ، وأنتى كنت أدع لك أن تتكلم وأصغى اليك • ذلك أنك لم تتجاوز من عمرك العشرين • أنت تحبه أكثر مما تحب الكون بأسره ، وتبحث فيه عن صديق ، عن مثل أعلى ، وقد أدركتُ أنا هذا حق الادراك • ولكن بعد فوات الأوان • صحيح أنني أخطأت أنا أيضاً ، لا شك فى هذا ، لكننى كنت معتكرة المزاج مكفهرة النفس ، فأمرت بالألا 'تقبل فى البيت بعد ذلك • وعندئذ انما وقع ذلك المشهد أمام الباب ، ثم كانت تلك الليلة •

اعلم اننى طول هذا الوقت كنت أحلم ، مثلك ، بأن أراك خفية ،
لكننى كنت لا أعرف السبيل الى تحقيق هذه الأمنية . وما الذى كنت
أخشاه أكثر من أى شئ آخر فيما تظن ؟ لقد كنت أخشى أن تصدق
نمائمه عنى وأقاويله فى حقى .

هتفت أقول :

— أبداً !

— اننى أقدر لقاءنا الماضية . وما أحبه فىك هو الفتى المراق ،
وربما هذا الصديق أيضاً . . . ذلك أن لى طبعاً يتصف بالجد . أعلم اننى
بين نساء عصرى أكثرهن صرامة وجرأ . ها ها ها ! لسوف يتاح لنا
أن نتحدث كثيراً ، أما الآن فلست هادئة النفس مطمئنة البال . اننى
الآن منفعة انفعالاً شديداً . . . بل اننى فى حالة هستريا . ولكن ،
أخيراً ، أخيراً ، سوف يتركى وشأنى أعيش فى سلام !

أفلتت منها هذه الجملة الأخيرة بغير ارادة . وقد فهمتها أنا فوراً
ولم أشأ أن أثبت عليها . لكننى كنت أرتجف ارتجافاً شديداً .

ثم عادت تهتف من جديد كأنها تحدث نفسها :

— هو يعلم اننى غفرت له !

فلم أتمالك نفسى فهتفت أسألها :

— كيف أمكنك أن تغفرى له تلك الرسالة . وكيف يستطيع أن
يعرف هو أنك غفرت له ؟

فتابعت كلامها تجيبنى ، ولكن كأنها لا تخاطبنى وانما هى تحدث
نفسها :

— انه يعرف ! لقد استرد صوابه الآن . كيف لا يدرك اننى

غفرت له وهو يعرف نفسى كلها على ظهر القلب ؟ انه ليعلم حق العلم
أنتى من نوعه تقريباً •

- أنت ؟

- نعم ، وهو يعرف ذلك • أنا لست مشبوبة العاطفة بل هادئة ،
لكننى أنا أيضاً أحب أن يكون جميع الناس أخياراً طيبين ••• ليس
عبثاً أنه افتتن بى حباً !

- فلماذا قال اذن انك تتصفين بجميع العيوب والنقائص ؟

- قال هذا كلاماً لا أكثر • أما رأييه الذى يكتمه سرأ فى قرارة
نفسه فيختلف عن هذا الكلام كل الاختلاف • ولكن أليس صحيحاً
أن رسالته كانت مضحكة ؟

- مضحكة ؟

كنت أصغى اليها بكل ما أملك من قوة الانتباه • وأظن أنها كانت
تعانى نوبة هستيريا حقاً ، و ••• أنها ربما كانت لا تتكلم من أجل
أنا أبداً • ولكننى لم أستطع أن أمسك عن مساءلتها • قالت :

- مضحكة قطعاً • ولشدها كان يمكن أن أضحك لولا ••• لولا
أنتى كنت خائفةً خوفاً شديداً • لست مع ذلك جبانة • لا يذهبن بك
الظن الى أنتى جبانة • لكن رسالته قد حرمتنى من النوم تلك الليلة •
لكنها كتبت بدم ، بدم رجل مريض • ماذا يبقى للمرء أن يفعل بعد
رسالة كذلك الرسالة ؟ أنتى أحب الحياة ، وأخاف على حياتى كثيراً •
فى هذه النقطة أنا جبانة حقاً •

وهتفت فجأة تقول :

- اذهب اليه • هو الآن وحيد • أغلب الظن أنه لم يبق هناك •
لابد أنه مضى الى مكان آخر • فأدركه بأقصى سرعة ، يجب أن تدركه ،

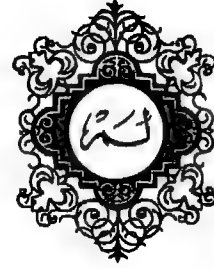
اركض اليه ، وأظهر له انك ابنه المحب ، وبرهن له على أنك فتى
طيب لطيف ، يا عزيزي الطالب ، وعلى أنى . . لا . . اتنى أسأل الله
أن يهب لك السعادة . أنا لا أحب أحدا ، ذلك أفضل ، ولكننى أتمنى
السعادة للجميع ، للجميع ، وأتسناها له قبل أى انسان آخر . ألا فليعرف
هذا . . . فيعرفه حالا . . سيسرُّه كثيراً أن يعرف . . .

ونهضت ، واختفت فجأة وراء الستارة . كانت دموع تلتمع فى
وجهها حينذاك (دموع هسترية بعد الضحك) . بقيت وحيداً ،
مضطرباً . كنت لا أعرف حقاً الى أى شئ . يجب أن أعزو مثل هذا
الانفعال الشديد الذى ما كان لى أن أفترضه فيها . وانقبض صدرى .

انتظرت خمس دقائق ، ثم عشرأ . وأدهشنى الصمت العميق
فجأة ، فقررت أن أنظر من الباب وأن أنادى . فلما ناديت ظهرت لى
ماريا فأعلنت لى بلهجة هادئة ، أن مولاتها ارتدت ثيابها منذ مدة طويلة ،
وغادرت البيت خارجة من سلم الخدم .

الفصل السابع

١



يكن ينقصنى الا هذا • تناولت معطى ، ولبسته
بسرعة ، وهرعت أخرج وأنا أتماءل : « انها
تسريد أن أذهب اليه ، فأين يمكننى أن
أجده ؟ » •

غير أن هناك ، عدا هذا كله ، سؤالاً كان يحيرنى : « لماذا
تصور أن الزمان قد تبدل الآن ، وأنه سيدعها وشأنها تعيش فى سلام ؟
لأنه سيتزوج ماما قطعاً • ولكن ما علاقتها هى بهذا ؟ أيبهجها أن يتزوج
ماما أم يشقيها ؟ أليس هذا هو ما يجعلها فى حالة هستريا ؟ ما أعجزنى
عن حل هذه المشكلة ! » •

اننى اسجل هذا الحاطر الثانى الذى لمع فى ذهنى سريعاً كالبرق ،
أسجله للتذكرة • ان له شأنًا كبيراً • كان ذلك المساء حاسماً • ان المرء
مضطرب أن يصدق أخيراً بالقدر : فاننى ما ان قطعت مائة خطوة متجهاً الى
بيت ماما ، حتى اصطدمت بالرجل الذى كنت أبحث عنه • وضع يده على
كففى ووقف ، وهتفت يقول فرحاً مدهوشاً فى آن واحد :

- أنت ؟

وأضاف مسرعاً فى الكلام :

- تصور أنتى ذهبت الى بيتك ساعياً اليك ، وسألت عنك : أنت وحدك من أحتاج اليه الآن فى الكون كله ! لا أدري بماذا أجبني صاحبك الموظف ، مؤجر بيتك ، لقد طفق يقول أشياء كثيرة المهم أنك لم تكن هناك ، فانصرفت من عنده ، ناسياً حتى أن أطلب منه ابلاغك أن تجىء الى فوراً . وفيما أنا أمشى راجعاً ، كنت مقتنماً اقتناعاً لا يتزعزع بأن القدر لا يمكن الا أن يضعك فى طريقى فى هذا الوقت الذى أحتاج فيه اليك هذا الاحتياج الشديد كله . فكنت أول شخص ألقاه . هلم بنا الى بيتى . انك لم تزرنى حتى الآن فى يوم من الأيام . . .

الخلاصة أن كلاً منا كان يسعى الى الآخر ويبحث عنه ، فوقعت لنا كلينا مصادفة واحدة . وحدثنا الخطى . فى الطريق لم يوجّه الىّ الا بضع جمل قصيرة : انه ترك ماما مع تاتيانا بافلوفنا ، النخ النخ . وكان يقودنى ممسكاً ذراعى . لم يكن بيته بعيداً ، فسرعان ما وصلنا . لم أزره قبل اليوم فعلاً . هو بيت صغير من ثلاث غرف استأجره (بل قل استأجرته تاتيانا بافلوفنا) لسكنى « الطفل الرضيع » لا أكثر . وقد كانت تاتيانا بافلوفنا هى التى تشرف على البيت مع خادم للطفل (هى الآن داريا أونيسيوفنا) . ولكن البيت كان يضم غرفة لفرسيلوف هى الغرفة الأولى التى تقع على يمينك حين تدخل . انها غرفة واسعة حسنة الأنث ، هى نوع من حجرة للقراءة والعمل . فعلى المائدة وفى الحزانة وفوق الرفوف ، يرى المرء كتباً كثيرة (كان مسكن ماما يكاد يخلو من الكتب خلواً تاماً) ، وأوراقاً فيها كتابة ، وحزم رسائل . الخلاصة أن هذا كله يشير الى أن المكان ركن مسكون منذ مدة طويلة ، وكنت أعرف أن فرسيلوف كان ينتقل الى هذا البيت من وقت الى آخر (ولو نادراً) ، فمكنت فيه مدداً تبلغ عدة أسابيع فى بعض الأحيان .

ان أول شيء لفت انتباهى صورة فوتوغرافية لماما معلقة فوق المكتب

ضمن اطار رائع من خشب محفور • واضح أن الصورة قد أخذت لها فى الخارج ، وانها بحكم كبرها النادر شئ ثمين • لم أكن أعرف هذه الصورة قبل الان ، ولا سمعت عنها • غير أن ما خطف بصرى خاصة هو شبهها الكبير بماما • انه شبه روحى ان صح التعبير : لكائها صورة رسمتها يد فنان صناع ، ولم يلتقطها جهاز آلى • فما ان دخلت حتى رأيتنى أقف أمام الصورة جامداً رغم ارادتى •

قال فرسيلوف :

- أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟

كان يريد أن يقول : « أليست تشبهها حقاً ؟ » • فالتفت اليه ، ففجأنى تعبير وجهه • كان صاحب اللون قليلاً ، غير أن نظرتة المشدودة الحارة كانت تسطع سعادة وقوة : لم أعهد فى وجهه مثل هذا التعبير قبل الآن •

قلت متحمساً على حين فجأة :

- ما كنت أعرف أنك أحبيت ماما هذا الحب كله !

فابتسم ابتسامة سعيدة ، فيها مع ذلك ألم ، أو قل فيها عاطفة انسانية أعلى ••• لا أعرف كيف أعبر ! ولكن يبدو لى أن الانسان حين يكون على جانب كبير من الثقافة ، لا يستطيع أن يعبر وجهه عن سعادة متصورة ظافرة • وهاهو ذا ، بدون أن يعينى ، يرفع الصورة بكلتا يديه ، فيقربها منه ، ويقبّلها ، ثم يعود فيعلقها بالحائط • قال :

- لاحظ أن الصور الفوتوغرافية يندر أن تشتمل على شبه • وسبب ذلك واضح : فالأصل ، أعنى كل واحد منا ، يندر أن يشبه نفسه • هناك لحظات نادرة يعبر فيها الوجه عن السمة الأساسية فى الانسان وعن فكره الذى يميزه • ان الفنان يدرس الوجه ، فيدرك

ذلك الفكر الأساسي ، حتى حين لا يكون ذلك الفكر بارزا في الوجه
ثناء الرسم . اما الفوتوغرافيا فانها تفاجئ الشخص كما هو في اللحظة التي
تلتقط له فيها الصورة . ومن الجائز جداً أن يفاجأ نابوليون في لحظة من
اللحظات غيباً ، وأن يفاجأ بسمارك في لحظة من اللحظات رقيقاً حنوناً .
ولكن هنا ، في هذه الصورة ، شاءت المصادفة أن تدرك الشمس صونيا
في لحظةها الأساسية ، فظهرت على حقيقتها ، امرأة ذات خفر ، تفيض
حباً رقيقاً ، ويشع منها عفاف فيه وجل . ما أعظم السعادة التي ملأت
جوانحها حين اقتضت بأننى أرغب كثيراً في الحصول على صورتها هذه !
ان هذه الصورة لا يرجع عهدها الى زمن بعيد . ولكن صونيا كانت في
تلك الأيام أفتى وأجمل ! ومع ذلك كان خداهما منذ ذلك الحين خاسفين ،
وكانت لها هذه الغضون في الجبين ، وكان في نظرتها هذا الحياء الوجيل ،
وذلك كله قد ازداد بتقدم السنين وبرز مزيداً من البروز شيئاً بعد شيء .
هل تصدق يا صغيرى ؟ انى لا أكاد أعجز الآن عن أن أتصورها بوجه آخر !
ومع ذلك كانت ، هى أيضاً ، شابة وفاتنة ! ان النساء الروسيات تدب
اليهن الدمامة بسرعة ، وينقض جمالهن ، ولا شك في أن هذا لا يرجع الى
خصائص في طبيعة الجنس الروسى فحسب ، وانما يرجع أيضاً الى أن
النساء الروسيات يعرفن كيف يندفعن في الحب بلا تحفظ . اذا أحبت
المرأة الروسية ، فانها تهب كل شيء دفعة واحدة : تهب اللحظة والمصير ،
الحاضر والمستقبل : انهن لا يستطعن الاقتصاد والتوفير ، انهن لا يدخرن .
فسرعان ما ينتقل جمالهن الى من يحبين . هاتان الحدان الخاسفتان هما أيضاً
جمال ضحت لى به من أجل متعة قصيرة . أنت يسرك أننى أحبيت أمك ،
ولم لك كنت لا تصدق أن أكون قد أحبيتها ، أليس كذلك ؟ بلى يا صديقى
بلى ! أحبيتها كثيراً . لكننى لم أجلب لها في يوم من الأيام الا سوء .
هناك صورة أخرى . خذ . انظر في هذه أيضاً .

تأول الصورة من على المكتب ومدّها الى * . هي صورة فوتوغرافية
أيضاً ، أصغر من صورة ماما كثيراً ، قد وضعت في إطار بيضوى من
خشب نحيل : وجه فتاة هزيلة مصدورة ، لكنها جميلة * ان الفتاة تفكر ،
ولكن وجهها خال من الفكر خلواً غريباً * قسّمت متسقة * طلعة تصفّت
ورافت بتعاقب الأجيال ، ولكنها تشعر كأن فيها مرضاً : فكأن هذه الامانة
قد فاجأتها فكرة ثابتة ، فنالتها بعذاب شديد لأنها فوق طاقة قواها *

قلت أسأله وأنا أشعر ببعض الحجل :

- هذه * * * هذه هي الفتاة انتى أردت أن تتزوجها هناك ثم ماتت
بالسل ، أليس كذلك ؟ بنت زوجها « هي » *

- نعم ، أردت أن أتزوجها * ماتت بالسل * بنت زوجها * كنت
أعلم أنك تعلم * تلك نائم * على كل حال ، ما كان يمكنك أن تعرف هنا
شيئاً ، بغض النظر عن النائم * دع هذه الصورة في مكانها يا صديقى *

- مجنونة تماماً ؟

- أو معنوه * لكننى أظن أنها مجنونة أيضاً * لقد ولدت ولداً من
الأمير سرجى بتروفتش (عن جنون ، لا عن حب ، وهذا عمل من
أدنا وأحقر أعمال الأمير سرجى بتروفتش) : والطفل هنا الآن ، في
هذه الغرفة * انتى منذ مدة طويلة أريد أن أريك الطفل * والأمير سرجى
بتروفتش لم يجرو أن يجيىء الى هنا ليرى ولده * هذا اتفاق أبرمناه معاً
في الخارج * ضمنت الطفل الى باذن من أمك * وباذن من أمك ، أردت
أيضاً أن أتزوج تلك * * البائسة * *

قلت بحرارة :

- كيف يمكن اذن * كهذا ؟

— يمكن • ما كان لأمك أن تغار ! ليست تلك المختلة بامرأة !

هتفت أقول :

— فى نظر الآخرين ليست امرأة • ولكنها فى نظر أمى امرأة •
لن أصدق أبدا أن أمى لم تغر !

صدقت • لقد أدركت أنا هذا بعد أن انتهى كل شيء ، أى بعد
أن أذنت أمك • ولكن دعنا من هذا • ان الأمر لم يتم ، لأن ليديا ماتت •
ولعل الأمر ما كان ليتم ولو بقيت حية • على كل حال ، أنا لا أدع
لأمك أن تأتي الى الطفل ، حتى فى هذا الحين • ذلك حادث عارض
مضى • يا عزيزى ، اننى أنتظرك هنا منذ مدة طويلة • اننى أحلم بلقاء
بيننا هنا منذ زمن طويل • هل تقدّر طول هذا الزمن ؟ ستان •

قال ذلك وهو يلقي على نظرة يتجلى فيها الصدق ، وتعبر عن
اندفاع من القلب حار • فتناولت يده ، وهتفت أسأله :

— لماذا تأخرت ؟ لماذا لم تسادنى ؟ لو علمت ما حدث ، فأشرت لى
بأصبعك أن أجيء اليك ، لما وقع الذى وقع

فى تلك اللحظة جىء بالسماور ، ثم اذا بداريا أويسيموفنا تدخل
حاملةً الطفل • وكان الطفل نائماً •

قال فرسيلوف :

— انظر اليه • اننى أحبه • ولقد أمرت بإحضاره لثراه أنت • والآن
أرجعيه يا داريا أويسيموفنا • أجلس الى جانب السماور • سأخيل
أنا عشنا دائماً هكذا ، أنا وأنت ، وأنا اجتمعنا كل مساء هذا الاجتماع ،
دون أن ننفصل فى يوم من الأيام • دعنى أنظر اليك : اجلس هكذا لأرى
وجهك • كم أحبه ، هذا الوجه ، وجهك ! لطالما تصورته وتخيّلته !
لطالما انتظرتك وأنا بموسكو ! تسألنى لماذا لم أرسل من يجيئ بك منذ
مدة طويلة ؟ انتظر • لعلك ستفهم الآن •

- أياكون موت ذلك الشيخ هو الذى حل عقدة لسانك ؟ غريب ...
نطقت بتلك الجملة ، ولكن ذلك لا ينفى أننى كنت أنظر اليه بحب .
وتحدثنا كما يتحدث صديقان ، بأكمل وأسمى معانى هذه الكلمة . لقد
جاء بى الى هنا ليشرح لى ، ليحكى لى ، ليبرر نفسه ... ولكن كل شيء
قد اتضح وتبرر قبل كل كلام . مهما أسمع منه الآن ، فإن الهدف قد تم
بلوغه . وكنا كلانا نعرف ذلك ، وكان كل منا ينظر الى الآخر بسعادة .
أجابنى يقول :

- لا ، ليس موت الشيخ هو الذى حل عقدة لسانى ، ليس هذا
الموت وحده هو الذى حل عقدة لسانى . هناك شيء آخر كان له تأثيره فى
هذا الاتجاه نفسه . بورك فى هذه اللحظة ، وفى حياتنا ، منذ الآن ،
والى الأبد . لتتحدث يا عزيزى . اننى أبتعد دائما عن الموضوع ، وأشرد
الى غيره . أهم أن أتكلم فى شيء ، فإذا أنا أتوه فى تفاصيل شيء آخر .
ذلك يحدث دائما حين يكون القلب طافحا . ولكن فلتتحدث .
آن الأوان ، وانى لموله حبا بك منذ مدة طويلة يا صغيرى .

ارتد فرسيلوف الى ظهر مقعده ، وجعل يتأملنى مرة أخرى من
الرأس الى القدمين .

قلت وأنا غارق فى افئتنى :

- ما أغرب أن أسمع هذا ، ما أغرب أن أسمعه ! ...

ولكن هأنذا أرى الفضن المؤلف الذى يعبر عن الأسى والسخرية
معاً ، هأنذا أرى هذا الفضن الذى أعرفه حق معرفته ، يظهر فى
وجهه من جديد . اننى أتذكر هذا تذكراً واضحاً . ولكن فرسيلوف
تجلد . وبجهد ، بدأ يتكلم .

- اسمع يا أركادى ، ما عسى كنت أقول لك لو ناديتك قبل الآن ؟
كان ذلك جوابه كله .

- هل تريد أن تقول انك اليوم زوج أمى وانك أبى وانك
ما كنت تستطيع أن تقول لى شيئاً عن وضعى الاجتماعى ؟ هل هذا
ما تعنيه ؟

- لا هذا وحده . هناك أشياء كثيرة كنت سأضطر الى السكوت
عنها . هناك أشياء مضحكة ، بل 'مذلة' ، لأنها تشبه أن تكون مكائد
مشعبذين ، وألماب مهرّجين . كيف كان يمكن أن يفهم أحدهما عن
الآخر ، اذا كنت أنا نفسى لم أفهم نفسى الا اليوم ، فى الساعة الخامسة بعد
الظهر ، أى قبل موت ماكار ايفانوفتش بساعتين تماماً ؟ أراك تنظر الى
بارتباك واضح وحيرة أليمة . لا تقلق ! سأشرح لك الأمر . غير أن ما قلته
صحيح كل الصحة . حياة كاملة تنقضى فى ترحال وشك ، ثم اذا بالحل
يأتى فجأة ، فى يوم معين ، فى الساعة الخامسة بعد الظهر . شئ 'مذل' ،
أليس كذلك ؟ لو حدث هذا قبل مدة قصيرة ، لكان يمكن أن أشعر منه
بمهانة حقاً .

كنت أصغى بحيرة أليمة فعلاً . وكنت أرى الغضن القديم فى وجه

فرسيلوف ، بارزاً بروزاً قوياً ، الفضن الذى كنت أتمنى ألا أراه فيسه
ذلك المساء بعد كل ما قيل من كلام . وفجأة رأيتنى أهتف قائلاً :

— هل وصلك « منها » شئ ، هذا اليوم ، فى الساعة الخامسة ؟

فنظر الىّ محدقاً ، وكان واضحاً أنه فوجئ بهتافى بل لعله فوجئ .
أيضاً بقولى « منها » ، وها هو ذا يقول مبتسماً ابتسامةً يمازجها تفكر :

— ستعلم كل شئ . ولن أخفى عنك شيئاً مما يجب أن تعلمه ،
فمن أجل هذا انما جئت بك الى هنا . ولكن فلنؤجل هذا الى وقت آخر .
اتنى يا صديقى أعرف منذ مدة طويلة أن لنا أولاداً يتساءلون عن أسرهم
منذ طفولتهم ، ويجرح أنفسهم ما يرونه من بشاعة فى آبائهم وفى بيتهم .
وقد لاحظت أن هؤلاء الأولاد تمتلئ قلوبهم قلقاً منذ يكونون فى
المدرسة ، واستخلصت من ذلك أن السبب هو أنهم عرفوا الحسد قبل
الأوان . وبعد ذلك عددت نفسى واحداً منهم . ولكن ... معذرة
يا عزيزى ، اتنى أشرد شروداً غريباً . كنت أريد أن أقول اتنى خفت
عليك دائماً هنا ، طوال هذا الوقت تقريباً . كنت أراك دائماً كواحد من
أولئك الصغار الذين يشعرون بما يملكون من موهبة فيعتمسون بالغرلة .
أنا أيضاً ، مثلك ، لم أحب رفاقى فى يوم من الأيام . ما أكبر شقاء
هؤلاء الصغار الذين يتركون لقواهم وحدها ، ويتركون لأحلامهم ، وقد
أوتوا ظمأً مشبوباً الى الجمال ، ظمأً سابقاً لأوانه ، يكاد يكون مشبعاً بروح
الانتقام ، نعم ، بروح « الانتقام » . ولكن كفى يا عزيزى ، لقد شردت
مرة أخرى . اتنى حتى قبل أن يبدأ حبى لك ، كنت أتخيلك أنت
وأحلامك ، أحلام المعتزل المتوحش . ولكن كفى . لقد نسيت حقاً عمّ
كنت أريد أن أتكلم ... على كل حال ، هذا كله أيضاً كان يجب أن
يقال . ماذا كان يمكننى أن أقول لك من قبل ؟ الآن أرى نظرتك
ترمقنى ، فأعرف أن « ابنى » هو الذى ينظر الىّ . وما كان لى بالأسمن ،

بالأمس فقط ، أن أصدق أنني سلّج نفسي في يوم من الأيام متحدثاً مع
ابنى كما أفعل اليوم •

كان يبدو ذاهلاً ذهولاً شديداً بالفعل ، ولكنه كان يبدو في
الوقت نفسه متأثراً تأثراً عميقاً •
قلت مسلماً له نفسي كلها :

— الآن لم أعد في حاجة الى أن أحلم ؛ الآن يكفيني أن تكون لى •
لسوف أتبعك !

— تبغنى أنا ؟ ولكن ترحالى فد انتهى ، انتهى في هذا اليوم
نفسه : لقد وصلت متأخراً يا عزيزى • اليوم ينتهى الفصل الأخير ،
وتسدل الستارة • طال هذا الفصل الأخير كثيراً • لقد بدأ منذ زمن
بعيد ، بدأ حين فررت الى الخارج آخر مرة • تركت يومئذ كل شىء •
واعلم أنني تركت يومئذ أمك ، وأعلنت لها أنني تاركها • يجب أن تعلم
هذا • قلت لها اننى راحل الى الأبد ، وانها لن ترانى بعدئذ قط • وأسوأ
من ذلك أنني نسيت حتى أن أترك لها شيئاً من مال • وأنت أيضاً لم تخطر
بألى لحظة واحدة • رحلت متوياً أن أبقى فى أوروبا يا عزيزى ، وألا
أعود الى البيت أبداً • هاجرت •

هتفت أقول عاجزاً عن ضبط نفسي :

— ذهبت الى هرتسن ؟ ذهبت لتكون داعية فى الخارج ؟ لابد أنك
ساهمت طيلة حياتك فى مؤامرة من المؤامرات !

— لا يا صديقى ، لم أشارك فى أية مؤامرة • أرى عينيك تلتصمان •
أحب صيحاتك يا عزيزى • لا ، لقد سافرت سأمأ لا أكثر • سافرت فى
أعقاب ضجر تملكنى فجأة • هو ضجر سيد روسى • لا أجد فى تعريف
هذا الضجر تعبيراً أنسب • ضجر سيد روسى لا أكثر •

جميعت أقول لاهناً :

— القنانة *** تحرير الأفتان ؟

— لا ، لا يا صديقي ! أظن أنني آسف على نظام القنانة ؟ أظن أنني لم أحتمل تحرير الأفتان ؟ لا ، لا يا صديقي • ثم اننا نحن الذين حررناهم • لقد هاجرت بدون أى حقد • كنت قبل قليل وسيط صلح ، وقد بذلت جميع جهودى • اندفعت أعمل باخلاص وتفانٍ • ولئن كوفئت على لبرائيتى مكافأة سيئة ، فإن هذا نفسه لم يكن سبب رحيلى • لا أحد منا كوفىء حينذاك ، أقصد لا أحد من أمثالى • كانت العزة هى التى تدفعنى الى الرحيل ، لا الندامة • هاجرت بلا غضب ، بلا حقد ، بلا حسرة • صدّق أنني لا أعتقد بأنه آن لى أن أختم حياتى حذاءً • « أنا سيد قبل كل شئ » ، وسوف أموت سيداً • لكن هذا لا ينفى أنني كنت حزيناً • لعل روسيا لا تزال تضم ألف رجل من نوعى • ألف رجل لا أكثر • ولكن هذا العدد يكفى حتى لا تموت الفكرة • نحن حملة الفكرة يا عزيزى • يا صديقي ، اننى أكلمك وفى نفسى أمل غريب هو أنك ستفهم هذا الهراء المشوش الملتبس • لقد جئت بك الى هنا لا انقياداً لنزوة فى قلبى • • • اننى منذ مدة طويلة أحلم بأن أقول لك • • نعم لك • • لك أنت ! • • على كل حال ، على كل حال • • •

هتفت أقول :

— بل تكلم ، تكلم ، اننى أقرأ فى وجهك الصدق • • ماذا عن أوروبا ؟ هل بعتك أوروبا بشئاً جديداً ! • • • وماذا كان ذلك الضجر ، « ضجر السيد » ؟ سامحنى • • • اننى لمّا أفهم بعد •

— تسألنى هل بعتنى أوروبا بشئاً جديداً ؟ فاعلم اننى انما سافرت لأدفعها !

قلت مدهوشاً :

— لتدفنها ؟

فابتسم • وقال :

— آركادى ، صديقى ، الآن نفسى رقت وفكرى اضطرب • لن أنسى أبداً لحظائى الأولى بأوروبا • كنت قد عشت فى أوروبا من قبل ، ولكن ذلك كان فى عهد خاص ، ولم أكن قد دخلت أوروبا قبلئذ بمثل ذلك الحزن •• ولا بمثل ذلك الحب • سأصف لك واحداً من مشاعرى الأولى حينذاك • هو حلم رأيته ، حلم حقيقى •

• حدث ذلك وأنا لا أزال بألمانيا • كنت قد غادرت درسدن ، ثم تجاوزت المحطة التى كان ينبغي أن أغيرَ فيها القطار ، تجاوزتها سهواً وغفلة فسرت فى غير الاتجاه الذى كنت أريد أن أسير فيه • فما ان وصلت الى أول محطة تالية ، حتى نزلت • كان الجو صحواً • هى مدينة ألمانية صغيرة • دلونى على فندق • كان يجب علىَّ أن أنتظر : ان القطار التالى يمر فى الساعة الحادية عشرة من المساء • ولقد سررت بهذه المفارقة سروراً كبيراً ، فلا شئ كان يستعجلنى • الفندق صغير ردىء ، لكنه غارق فى الخضرة وشرائط الأزهار ، على عادة القوم هناك • أعطيت غرفة صغيرة • ولما كنت قد قضيت الليلة كلها فى القطار ، فسرعان ما نمت بعد الغداء ، فى نحو الساعة الرابعة من الأصيل •

• فحلمت حلماً غير مألوف البتة ، ما رأيت مثله من قبل أبداً • ان فى متحف درسدن لوحة للرسام كلود لوران 'جمل عنوانها فى الكاتالوج ' آسيس و جالانى ' • أما أنا فقد سميت هذه اللوحة دائماً ' العصر الذهبى ' ، لا أدري لماذا ! لقد سبق أن رأيت هذه اللوحة • وقبل ثلاثة أيام لاحظتها مرة أخرى عابراً •

« فهذه اللوحة هي ما رأيته في الحلم . لكنني لم ارها صورة ، بل رأيها واقعاً . انني لا أتذكر على وجه الدقة ما الذي رأيته في الحلم هذه الرؤية . ولكنني رأيت ، كما في اللوحة ، ركناً من الأرخيل اليوناني منذ ثلاثة آلاف سنة : أمواجاً زرقاء هادئة ، جزراً وصخوراً ، شاطئاً مزهراً ؟ وفي بعيد ، منظراً كأنه السحر ، شمساً غاربة تفتن النظر . يستحيل على المرء أن يصف هذا بالفاظ . انها الانسانية الأوربية تتذكر مهدها : ملأت هذه الفكرة شعاب نفسي بحب كحب الابن أبويه . هذا هو الفردوس الأرضي للانسانية : الآلهة تهبط من السماء لتواخي البشر . . . اه . . . ما كان أجملهم ، أولئك البشر ! كانوا يفقون وينامون سعداء أبرياء . المروج والحراج الصغيرة تمتلئ بأغانيهم وصيحاتهم الجذلى . فيض من الطاقات البكر ينتشر حباً وفرحاً ساذجاً . الشمس تغمرهم بدفئها وضياؤها ، معجبةً بهؤلاء الأطفال الرائعين . . . انه حلم أخاذ ، طالما فتنت روعته الانسانية عن نفسها وأزاغت بصرها ! ان العصر الذهبي هو الحلم المستحيل الذي حلمه كل من وجدوا على هذه الأرض ، ولكنه على استحالاته رأينا بشراً يهبون له حياتهم كلها ، وقواهم كلها ، وفي سبيله مات أنبياء وقتل أنبياء ، وبدونه لا تريد الشعوب أن تعيش ، ولا تريد حتى أن تموت ! هذا الاحساس كله ، قد عشته في ذلك الحلم . والصخور والبحر ، وأشعة الشمس المائلة عند الغروب ، ذلك كله بدا لي أنني لا أزال أراه حين أفقت من نومي وفتحت عينيّ المغرورقتين بالدموع . كنت سعيداً . أتذكر هذا . ان احساساً بسعادة لم أشعر بمثله من قبل ، قد اختلج في قلبي حتى كاد أن يكون ألماً . كان ذلك حباً للانسانية كلها . »

« وكان المساء قد حل . ومن خلال خضرة الأزهار الموضوعة على النافذة ، كانت حزمة من أشعة مائلة تلطم زجاج غرفتي الصغيرة فتغمرني بضياؤها . ثم ماذا يا صديقي ؟ ان تلك الشمس الغاربة في أول أيام الانسانية الغربية ، التي كنت أراها في الحلم قد استحالت في نظري فجأة

منذ أن استيقظت شمساً غاربة في آخر أيام الانسانية الاوروبية ! فوق أوروبا كلها كانت تسمع حينئذ أصوات نواقيس جنازة • لست أعنى الحرب وحريق التويلرى فحسب • لقد كنت أعلم ، بدون الحرب وبدون حريق التويلرى ، أن كل شيء سينقضي ، عاجلاً أو آجلاً ، وأن كل وجه العالم الأوروبي القديم سيندرس • ولكننى ، أنا الأوروبي الروسى ، كنت لا أستطيع أن أقبل هذا • نعم ، كانوا قد حرقوا التويلرى ! لا ، مهلاً ، أنا أعرف أن هذا كان « منطقياً » • وأنا أدرك تماماً ما كان للفكرة التى راجت آتئذ من قوة لا تقاوم • ولكننى ، كممثل للفكر الروسى الرفيع ، كنت لا أستطيع أن أقبل هذا ، لأن الفكر الروسى الرفيع يصلح بين جميع الأفكار المتعارضة مصالحه عامة شاملة • ومن ذا الذى كان يمكنه حينذاك ، فى العالم بأسره ، أن يفهم هذا الفكر ؟ لقد كنت أطوف وحيداً • لست أتكلم عن نفسى ، بل عن الفكر الروسى • هناك ، كان الاقتال والمنطق العنيد • هناك ، كان الفرنسى ليس الا فرنسياً ، وكان الألماني ليس الا ألمانياً ، وذلك بعنف لم يشهد تاريخهم كله عنفاً أقوى منه ؛ أى ان الفرنسى ما أساء الى فرنسا يوماً كما أساء اليها فى هذه الفترة ، ولا الألماني أساء الى ألمانيا يوماً كما أساء اليها فى هذه الفترة ! لم يكن فى أوروبا كلها عندئذ أوروبى واحد ! أنا وحدى بين جميع مشعلى الحرائق كنت أستطيع أن أقول لهم وجهاً لوجه ان اقدامهم على احراق التويلرى خطأ ؛ وأنا وحدى بين جميع المحافظين المنتقمين كنت أستطيع أن أقول لهم ان احراق التويلرى ان كان خطأ فهو منطقى • وذلك ، يا عزيزى ، لأننى ، كروسى ، كنت عندئذ فى أوروبا ، « الأوروبي الوحيد » • لست أتكلم عن نفسى ، بل عن الفكر الروسى كله • كنت أضرب فى الأرض يا صديقى ، كنت أضرب فى الأرض ، ولا أعرف أنتى لم يبق لى الا أن أسكت وأن أضرب فى الأرض • • • ولكننى كنت حزيناً رغم كل شيء • ذلك لأننى ، يا ابنى ، لا أملك الا أن أحترم نبالتى • تضحك ، أليس كذلك ؟

قلت بصوت متأثر :

ـ لا ، لا أضحك • لا أضحك البتة • انك برؤياك « العصر
الذهبي » قد بثت الاضطراب فى قلبى ؛ ثق كل الثقة أنتى بدأت أفهمك •
غير أن ما يسعدنى أكثر من أى شئ آخر هو أنك تحترم نفسك هذا
الاحترام كله • أسارع فأصارحك بذلك • ما كنت لأتوقع منك هذا أبداً !

ـ سبق أن قلت لك انتى أحب صيحات تعجبك يا عزيزى !
قال ذلك وابتسم للملاحظتى الساذجة مرةً أخرى ، ثم نهض عن
مقعده ؛ وبدون أن يعى ما يفعل ، أخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً • فنهضت
أنا أيضاً • وتابع هو كلامه بلغته العجيبة الفريية ، الزاخرة بالفكر
مع ذلك •

- نعم يا بنى ، أعود فأكرر لك أننى لا أملك الا أن أحترم نبأتى .
لقد نشأ عندنا ، خلال القرون ، نموذج حضارى أعلى لم يشاهد فى أى
مكان آخر فى الكون ، هو نموذج التألم للبشر كافة . هذا نموذج روسى .
ولكن لما كان هذا النموذج انما خلقه الجزء الأعلى ثقافة بين مجموع
الشعب الروسى ، فأننى أحمل شرف الانتماء اليه . انه يحتوى مستقبل
روسيا . ان عددنا لا يربو على ألف رجل ، قد نكون أكثر من ذلك
قليلاً وقد نكون أقل من ذلك قليلاً ولكن روسيا كلها انما عاشت حتى
الآن لتنجبنا . رب قائل يقول ان هذا العدد ضئيل جداً ، وانها لفضيحة
أن تنفق روسيا قروناً طويلة وأن تضحي بملايين كثيرة من أبنائها فى سبيل
أن تنجب هذه الصفوة . أما أنا فأرى أن ذلك ليس قليلاً .

كنت أصغى الى كلامه بجهد شاق ، فأرى تعبيراً عن افتتاع تكون
خلال حياة بأسرها . ان كلامه هذا عن « الألف رجل » يكشف النقاب
عن نفسه كلها . وقدرت أن انطلاقه هذا فى مكاشفتى انما مردّه الى
صدمة خارجية ، وأنه يقول لى هذا الكلام الحار كله حباً بى . ولكن
السبب الذى من أجله أخذ يتكلم فجأة ، والذى من أجله كان يريد أن
يتحدث الى ، الى « أنا خاصة » ، ظل مجهولاً عندى .

وتابع كلامه يقول :

- هاجرت غير آسف على سىء مما خلفت ورائى . كنت قد خدمت روسيا على أرضها بكل ما املك من قوى . وحين سافرت ظللت أخدمها ، لكننى وسعت فكرنى . هل كان يجب على أن ابقى روسيا ضيقاً ، مثلما كان كل فرنسى فرنسياً ، وكل ألمانى ألمانياً ؟ فى أوروبا لن يفهموا هذا الكلام . ان أوروبا قد خلقت النماذج النبيلة للفرنسى والانجليزى والألمانى . أما انسانها فى المستقبل فانها لاتزال تجهل عنه كل شىء تقريباً . وأظن أنها لا تريد ان تعرف عنه شيئاً حتى الآن . وذلك أمر يمكن فهمه : انهم ليسوا أحراراً ، أما نحن فأحرار . أنا وحدى فى أوروبا ، مع ضجرى الروسى ، كنت حراً .

لاحظ يا صديقى هذا الشىء الغريب : ان كل فرنسى يستطيع أن يخدم الانسانية مع بلده فرنسا ، ولكن بشرط أن يبقى فرنسياً خاصة . ويصدق هذا على الانجليزى وعلى الألمانى . والروسى وحده ، حتى فى عصرنا هذا ، أى قبل أن تتحقق له صورته النهائية ، قد وهب له أن يكون روسياً أكثر لأنه أوتى القدرة على أن يكون أوروبياً أكثر . هذا هو الفارق القومى الأساسى الذى يميزنا عن سائر الناس ، فنحن من هذه الناحية لا يشبهنا أحد . أنا فى فرنسا فرنسى ، ومع الألمانى ألمانى ، ويونانى مع يونانى العصر القديم ، وأنا بهذا نفسه روسى دائماً الى الحد الأقصى . أنا بهذا نفسه روسى حقاً ، أقدم لروسيا أكبر قدر من الخدمات ، لأننى أجسّد فكرها الأساسى . أنا رائد هذا الفكر . لقد هاجرت ، ولكن هل تركت روسيا ؟ لا ، لم أتركها . ظللت أخدمها . وهبنى لم أعمل شيئاً فى أوروبا ، هبنى لم أذهب اليها الا لأتجول وأترحل وأضرب فى الأرض (ولقد كنت أعرف أننى لا أرحل اليها الا لهذا الغرض) فحسبى هذا لأذهب اليها مع فكرى وضميرى . لقد نقلت الى أوروبا سأمى

الروسي • لا ، ليس الدم الذي كان يسيل حينئذ هو الذي روّعني ،
حتى ولا احراق التويلرى ، بل ما كان لابد ان يتبع ذلك • بأن محكوماً
عليهم أن يظلوا يقتلون زمناً طويلاً أيضاً ، لأنهم لا يزالون ألماناً وفرنسيين
أكثر مما يجب ، ولأنهم لم ينتهوا من عملهم فى تمثيل هذا الدور •
كنت حتى ذلك الحين أشعر بحسرة لما يقع من دمار • ان أوروبا عزيزة
على الروسى كروسيا سواء بسواء ، كل حجر فى أوروبا حبيب الى قلب
الروسي غالٍ فيه • كانت أوروبا للروسي وطناً كروسيا ، بل كانت له وطناً
أكثر من روسيا • يستحيل أن يحب أحد روسيا كما أحبها ، ولكننى لم
ألم نفسي فى يوم من الأيام على أننى وجدت البندقية وباريس وروما وما فيها
من كنوز العلم والفن وما لها من تاريخ ، أحبّ الىّ من روسيا • آه •••
ان قلوب الروس تحمل حباً كبيراً لتلك الحجارة الأجنبية ، لتلك الروائع
التي تنتمى الى العالم القديم ، تلك البقايا من المعجزات المقدسة • بل ان
هذا كله أعزّ على نفوسنا منه على نفوسهم ! ان لهم الآن أفكاراً أخرى
وعواطف أخرى ، لقد كفوا عن تقدير تلك الحجارة القديمة ! ••• هناك
لا يكافح المحافظ الا فى سبيل البقاء • ومشعل الحرائق لا يعمل الا ليطالب
بحقه فى قطعة خبز • روسيا وحدها لا تحيا من أجل نفسها ، بل من
أجل الفكر • اعترف • يا صديقى بهذه الحقيقة الواضحة : أن روسيا منذ
قراية قرن لا تحيا من أجل نفسها بل من أجل أوروبا فقط ! أما هم ،
فقد 'نذروا لآلام رهيبية قبل أن يصلوا الى ملكوت الرب •

كنت أصغى اليه مضطرباً أشد الاضطراب • اعترف بذلك • حتى
لهجة كلامه كانت ترّوعنى ، رغم أننى لم أملك الا أن أفاجأ بأفكاره •
وكان يخيفنى اخافة رهيبية أن يكون فيما يقول كاذباً • فرأيتنى ألقى عليه
هذا السؤال فجأة بلهجة قاسية :

- قلت « ملكوت الرب » • وقد علمت أنك عملت هنالك داعيةً ومبشراً ، وأنت كنت تثقل جسمك بأصفاذ • هل هذا صحيح ؟
فابتسم وقال :

- دعك من أصفادى • تلك مسألة أخرى • فى ذلك العهد لم أكن أبشراً بشيء بعد • ولكننى كنت أتوق الى الهمم • هذا صحيح • كانوا قد نادوا بالاحاد • • نادى به نفر منهم ، نادى به طليعة منهم ، ولكن ذلك كان الخطوة الأولى نحو « التنفيذ » ، وهذا هو الأمر الخطير • كان سلاحهم المنطق دائماً • وحيث يكون المنطق يكون الضجر • كنت أنا أُنتمى الى حضارة أخرى ، فكان قلبى يرفض هذا • كان ذلك العقوق فى انفصالهم عن فكرة • وكانت تلك الأصوات التى تنطلق من الصفارات ، وكان ذلك التلوين والتلطيف بالوحل ، كان ذلك كله أموراً لا أطبق احتمالها • كانت أساليب الاسكافين هذه ترعبنى • صحيح أن الواقع تفوح منه دائماً رائحة النعال ، حتى حين يصبو المرء الى المثل الأعلى صبوة للألاءة • ولقد كان على أن أعرف ذلك • لكننى كنت طرازاً آخر من البشر : كنت حراً فى اختياري ، ولم يكونوا هم أحراراً • فكنت أبكى ، أبكى عليهم ، أبكى على الفكرة القديمة • ولعلنى بدموع صادقة انما كنت أبكى ، من غير كلام مزق •

سألته غير مصدق :

- هل كنت تؤمن بالله هذا الايمان القوى حقاً ؟

- يا صديقى ، هذا سؤال لعله نافل • هب أنى لم أكن أؤمن هذا الايمان القوى • ذلك لا ينفى أننى كنت لا أملك الا أن أتجسر على فكرة وأن أحن إليها • كنت فى بعض اللحظات لا أفصح فى أن أتصور كيف يستطيع الانسان أن يحيا بدون اله ، ولا أن أتصور هل يصبح هذا

ممكنا فى يوم من الايام • كان قلبى يجيب دائما بأن هذا مستحيل •
قد يحدث هذا فى عهد من العهود الى حين • وانى لأشك فى أن يأتى
هذا العهد • ولكننى كنت أتخيل عندئذ لوحة أخرى مختلفة كل
الاختلاف ...

— ما هى ؟

لقد سبق أن صرّح لى طبعاً بأنه كان سعيداً • وواضح أن أقواله
كانت تشتمل على حماسة كثيرة • ولقد أخذت أنا أكثر كلامه هذا المأخذ ،
ونظرت اليه بهذا المنظار • وانى لما أحمله لهذا الرجل من احترام ، لن
أضع على الورق كل ما تبادلناه من حديث حينذاك • غير أن خطوطاً معينة
من اللوحة الغريبة التى حملته على أن يرسمها لى ينبغى أن تذكر هنا •
ولقد كانت مسألة « الأصفاد » خاصةً هى التى تشغل بالى وتعذبنى ،
فكنت أريد أن تتضح لى ، فلذلك ألححت • ان أفكاراً تبلغ غاية الغرابة
والعجب مما قاله فى ذلك اليوم قد بقيت منقوشة فى قلبى الى الأبد •

بدأ يتكلم وهو يتسم ابتسامةً يمازجها تفكير ، فقال :

— اليك اللوحة التى أتخيلها يا عزيزى • أتخيل أن القتال انتهى ،
وأن الصراع هدأ • فبعد التلاعن والتقاذف بالوحل وتبادل التصفير ، عمّ
الهدوء ، وبقي البشر « وحيدين » كما كانوا يريدون : هجرتهم الفكرة
الكبيرة التى كانت تعيش معهم ، وغاب ينبوع الطاقة الذى كان الى ذلك
الحين يغذيهم ويمدهم بالحرارة ، كتلك الشمس الرائعة الأسيرة التى نراها
فى لوحة كلود لوران • ولكن هذا يكون الآن آخر أيام الانسانية • فاذا
بالبشر يدركون أنهم أصبحوا وحيدين تماماً ، ويحسون فجأة أنهم
مهجورون هجر اليتامى • يا صغيرى العزيز ، اننى لم أستطع فى يوم من
الأيام أن أتخيل البشر عقوقين أغبياء • فلما صاروا يتامى أسرعوا يتقاربون

ويتلاصقون بمزيد من القوة ومزيد من العاطفة والمحبة . وأمسك بعضهم بأيدي بعض ، لأنهم أدركوا أنهم بعد الآن ليس لبعضهم أحد غير بعضهم الآخر . ان فكرة الخلود العظيمة تكون قد زالت ، فلا بد أن يتناضوا عنها بغيرها . فإذا بذلك الفيض من الحب الذي كانوا يحملونه لمن هو الخلود ، يتحول الآن الى الطبيعة ، الى العالم ، الى البشر ، الى كل عشة . سوف يؤخذون عندئذ بالأرض وبالحياة ، وسوف يجنونها حباً لا سبيل الى مقاومته ، على قدر شعورهم شيئاً فشيئاً بأن حياتهم عرض زائل ، وبأن زمنها محدود ، وسوف يكون حبهم حباً خاصاً ليس هو الحب الذي كانوا يحسونه من قبل . سوف يلاحظون في الحياة ويكتشفون فيها ظاهرات وأسراراً لم تخطر لهم الى ذلك الحين على بال ، لأنهم سينظرون اليها بعين جديدة ، سينظرون اليها نظرة الحبيب الى حبيبته . سوف يستيقظون فيسارع بعضهم الى بعض يتعاقبون ، ويتحابون ، لعلهم بأن أيامهم زائلة ، وأن ذلك هو كل ما بقى لهم . سيعمل بعضهم فى سبيل بعض ، وسيعطى كلٌ منهم شئ لكل الناس ، فيكون بذلك سعيداً . سيعلم كل طفل وسيحس أن كل انسان على هذه الأرض هو له أب وأم . سيقول كل واحد لنفسه حين ينظر الى غروب الشمس : « ليكن الغد آخر أيامى . ساموت . ولكن لا أضير : لأنهم سيقون هم جميعاً ، وبعدهم سيقى أولادهم » . وهذه الفكرة ، فكرة أنهم سيقون وسيظلون متحابين متعاطفين يخاف بعضهم على بعض ، ستحل محل فكرة اللقاء بعد الموت . لشد ما سيسارعون الى التحاب ، من أجل أن يخفقوا الحزن الكبير الذى فى قلوبهم . سيكونون متكبرين جريئين على أنفسهم ، ولكنهم سيكونون خجولين وجلين أمام الآخرين . سيخاف كل واحد على سعادة وحياة كل واحد آخر . سيحن بعضهم على بعض . ولن يشعروا بما يشعرون به اليوم من خجل وخزى . سيداعب بعضهم بعضاً كأطفال . وحين يلتقون

سيبادلون نظرات عميقة زاخرة بالذكاء ، وسيكون فى نظراتهم حب
وأسى •

وقطع كلامه مبتسماً على حين فجأة ثم أضاف :

- يا عزيزى ، ليس هذا كله الا خيلاً ، بل هو خيال لا يمكن
أن يتحقق فى الواقع • لكننى كثيراً ما تخيلت هذه الصور ، لانتى لم
أستطع فى يوم من الأيام أن أحيا بدونها ، ولا أن أمتنع عن التفكير
فيها • ولست أتكلم عن ايمانى ، فإيمانى ليس كبيراً • أنا رجل يؤمن
بوجود الله ، ولكنه لا يؤمن بالدين ؟ رجل يؤمن بوجود الله ايمان
فلاسفة ، كسائر أولئك الألف من الرجال ، أو هذا ما افترضه • ولكن
... ولكن الشئ الذى يلفت النظر هو أننى كنت أنهى لوحتى دائماً
برؤيا « المسيح على بحر البلطيق » ، كما نرى ذلك عند الشاعر هاينى •
اننى لم أستطع الا أن أراه أخيراً بين البشر الذين أصبحوا يتامى • يجيئ
اليهم ، ويمد لهم ذراعيه ، ويقول : « كيف نسيتمونى ؟ » • فإذا بنوع
من حجاب يسقط عن جميع الأبصار ، واذا بنشيد حماسى هو نشيد
الانبياء الجديد الأخير ، يأخذ يترجع مدوياً •

« دعنا من هذا يا صديقى ؟ أما عن « أصفادى » ، فتلك مسخافة •
لا يشغلن أمرها بالك • هناك شئ آخر : أنت تعرف أن لسانى خجول
ومقتضب • فلئن استرسلت اليوم فى الكلام ، فذلك ... بسبب عواطف
مختلفة ، وبسبب أننى معك • لغيرك لن أقول شيئاً أبداً • أضيف هذا
لأطمئنتك •

كنت متأثراً منفعلًا • ان الكذب الذى كنت أخشاه لا وجود له •
ولقد أسعدنى خاصة أن أرى رؤية واضحة بعد الآن أنه كان يعانى
من ضجر حقاً ، وأنه كان يتألم ويتعذب ، وأنه قد أحب كثيراً بدون شك :

وهذا ما أثر فى نفسى أكثر من أى شىء آخر • وقد أعلنت له ذلك بحماسة • ثم أضفت أسأله فجأة :

- ولكن يبدو لى أنك ، رغم كل ضجرك ، كنت سعيداً أقصى السعادة فى ذلك الأوان ، أليس هذا صحيحاً ؟
فقال :

- انك اليوم مصيب فى ملاحظاتك • نعم • كنت سعيداً • وهل كان يمكن أن أكون نسقياً وأنا فى مثل ذلك الضجر ؟ ليس أحد أكثر حرية ولا أعظم سعادة من المترحل الروسى الأوروبى الذى ينتهى الى أولئك الألف من الأفراد • أقول لك هذا بدون أن أضحك ، وفى كلامى كثير من الجلد • نعم ، ما كنت لأبيع ضجري بأية سعادة • يا عزيزى • ومن السعادة أننى أحبيت حينئذ أمك أول حب فى حياتى • نعم ، فيما كنت أضرب فى الأرض وأعانى الضجر ، أحبيتها فجأة كما لم أحب من قبل ، وسرعان ما أرسلت أستدعيها •
قال :

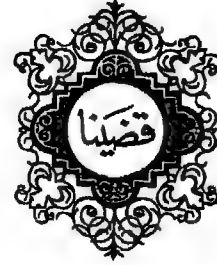
- آ ••• اقصص على هذا ••• كلمنى عن ماما •

ثم أضاف يقول وهو يتسم فرحاً :

- وقد خشيت أن تعينى من هذا الحديث ••• مستيضاً عنه بالكلام عن هرتسن أو عن مؤامرة ما •••
- ما جئت بك الى هنا الا لأحدثك عن هذا •

الفصل الثامن

١



فى الحديث كل المساء وسطراً من الليل ، فلن
أروى كل ما قيل ، بل اكتفى بما أوضح لى فى
النهاية نقطة من حياته كانت عندى لغزاً •

وأبدأ بما يلى : ليس يخامرنى أى شك فى أنه
أحب ماما ، فاذا هجرها وانفصل عنها حين سافر الى الخارج ، فلأنه كان
مرهقاً بالضجر ، أو لسبب آخر من هذا القليل ، وذلك أمر يحدث
لجميع الناس فى هذه الحياة الدنيا ويصعب دائماً تعليله • ثم انه فى الخارج ،
بعد انقضاء زمن غير قصير ، قد عاوده حب ماما فجأةً ، من بعيد ، بالفكر ،
فأرسل يستدعيها • رب قائل يقول : « هذه نزوة » • ولكننى أقول غير
ذلك ، ففى رأى أن ما فعله كان فيه أكبر الجلد رغم ما تتصف به طبيعته
من تناقضات أسلم بوجودها • ولكننى أحلف أن ضجره الأوروبى أمر
لاشك فيه ، وأنه يساوى بل يفوق كثيراً أى شكل من أشكال النشاط
العملى فى هذا الزمان ، كانشاء سكك حديدية مثلاً • وأنا أرى فى حبه
للإنسانية عاطفة صادقة كل الصدق ، عميقة كل العمق ، بريئة من كل
كذب أو تزيف • وأرى فى حبه لماما أمراً لا يمكن الجدل فيه إطلاقاً ،
وان كان جائزاً أنه يشتمل على شيء من غرابة • انه فى الخارج ، بينما
هو فى « ضجر وسعادة » ، وبينما هو فى عزلة كعزلة النساءك (أضيف

هذه الواقعة الخاصة التى أمدتنى بها تانيانا بافلوفنا فيما بعد) ، تذكر ماما على حين فجأة ، وتذكر خديها الحاسفتين خاصة ، فأسرع يستدعيها فوراً .

قال لى (وقد أفلتت منه هذه الجملة كما أفلتت غيرها) :

- يا صديقى ، لقد أحسست فجأة أن خدمة الفكرة لا تعفينى أبداً ، كإنسان أخلاقى وعاقل ، من أن أسعد فى أثناء حياتى انساناً واحداً على الأقل ، اسعاداً عملياً .

فسألته متحيراً :

- أأتكون فكرة مستمدة من الكتب ، كهذه الفكرة ، هى التى جعلتك تعزم أمرك ؟

- ليست هذه فكرة مستمدة من الكتب . وقد تكون كذلك فعلاً . ان الأشياء يختلط بعضها ببعض . ولكننى كنت أحب أمك فعلاً ، كنت أحبها حباً صادقاً ، حباً لا شأن له بالكتب البتة . ولولا أننى كنت أحبها هذا الحب لما استدعيتها ، بل عمدت الى اسعاد أول ألمانى أو أول ألمانى ألقاها بعد اهتدائى الى تلك الفكرة . أما عن ضرورة اسعاد انسان واحد على الأقل أثناء الحياة اسعاداً عملياً ، أى اسعاداً فعلياً ، فهذه فكرة أنصبها قاعدة يؤمر بالتزامها كل انسان مثقف ، تماماً كما يمكن أن يوضع قانون يأمر كل فلاح بأن يفرس شجرة واحدة على الأقل أثناء حياته ، لأن الأشجار يقل عددها فى روسيا الآن . بل ان شجرة واحدة لا تكفى . فيمكن أن يؤمر الفلاح بأن يفرس شجرة فى كل سنة . ان الامسان المتفوق المثقف الذى يسعى وراء فكرة عليا يدير ظهره للحياة اليومية أحياناً ، فيصبح سخيلاً مضحكاً ، ويصبح صاحب نزوات ، ويصبح بارداً ، بل أقول بصراحة انه يصبح غيباً ، فى الحياة العملية طبعاً ، بل يصبح آخر الأمر غيباً حتى فى

نظرياته • وهكذا يكون من شأن الاهتمام بالحياة العملية ، واسعاد انسان واقعى واحد على الأقل اسعاداً واقعياً ، أن يشفى وأن يجدد نضارة الشخص الذى يحسن هذا الاحسان • قد يكون هذا الرأى سخيلاً من حيث هو نظرية ، لكنه متى 'طبّق' وأصبح عادة مستحكمة ، لا يكون رأياً غيياً الى الحد الذى قد يتوهمه المرء • • لقد جربت هذا بنفسى : فأننى منذ أخذت أتصور نتائج هذا الرأى - على سبيل التسلية فى أول الأمر ، طبعاً - بدأت أدرك مدى الحب الذى يحمله قلبى لأملك • • ولم أكن قد أدركت أبدأ ، حتى ذلك الحين ، أننى كنت أحبها • حين كنت أعيش معها ، كنت أتمتع بها فى ابان جمالها ، ثم تستبد بى النزوات • ولم أدرك أننى أحبها الا فى ألمانيا • بدأ ذلك بخديها الخاسفين اللذين كنت لا أستطيع أبدأ أن اتصورها الا واراها ، حتى لأشعر بألم يهصر قلبى ، ألم حقيقى ، ألم جسمى • هناك يا عزيزى ذكريات أليمة تحدث وجمعاً واقعياً • ان جميع الناس أو أكثر الناس يحملون ذكريات كهذه الذكريات ، ولكنهم ينسونها ، ثم يتفق للمرء أن يتذكر بعد ذلك قسمة من قسومات الوجه أحياناً ، فإذا هو يشد إليها ولا يستطيع منها فكاًكاً • أخذت أتذكر ألف أمر من تفاصيل حياتى مع صونيا • وأصبحت هذه التفاصيل توافينى أخيراً من تلقاء نفسها ، وتحاصرني جمهرة غفيرة • وكادت هذه الذكريات أن تقتلنى عذاباً بينما كنت أنتظر وصولها • غير أن الشيء الذى كان يعذبنى خاصة انما هو ذكرى مذلتها الأبدية لى ، واعتقادها بأنها أدنى منى كثيراً فى كل أمر من الأمور ، وأننى أفوقها كثيراً حتى فى الجسم ! تصور ! كانت تشعر بخجل شديد ويتخضب وجهها بحمرة قانية حين كنت أنظر أحياناً الى يديها وأصابعها التى لم يكن فيها شيء من ارسقراطية • بل انها لم تكن تخجل

من أصابعها وحدها بل من جسمها كله ، رغم أنني أحببت جماله . كانت
تشعر معي بحياء دائم يبلغ حد التوحش . وأسوأ ما في الأمر أن هذا
الحياء كان يمازجه نوع من ذعر لا ينقطع . الخلاصة أنها كانت تمدّ نفسها
بالقياس إلى شيء لا وجود له ، أو شيئاً يكاد يكون غير لائق . وكنت في
البداية أظن أنها لا تزال ترى فيّ سيدها ، وأنها كانت تهانني وتخشاني .
ولكن الأمر لم يكن كذلك . واني لأحلف لك مع ذلك أنها كانت أفقر
من أي انسان على معرفة عيوبى ونقائصى ، وأنتى ما رأيت في حياتى امرأة
لها مثل قلبها رهاقة ونفاذ ادراك . لشدما كانت تشعر بالشقاء حين
كنت اضطرها في البداية ، أيام كانت لا تزال جميلة جمالا فاتنا ، أن
تترين . كان ذلك منها يشتمل على عزة وعلى شعور آخر سريع التآذى :
كانت تدرك أنها لن تصبح بالتزوين سيدة ، وأنها لن تكون بلباس
أجبنى الا مضحكة . وهى لا تريد أن يكون لباسها مضحكاً ، وتدرك أن
لكل امرأة ثياباً تناسبها ، وذلك أمر ستظل تعجز عن فهمه ألوف بل مئات
الألوف من النساء اللواتى يرضيهن أن تكون ثيابهن على الموضة وكفى !
كانت تخاف من نظرة ساخرة قد ألقىها عليها . وما أشد الألم الذى كنت
أشعر به حين أتذكر عينيها المدهوشتين اللتين كثيراً ما فاجأتها محذقتين
إلى أثناء حياتنا المشتركة : لقد كنت أحس أنها تدرك مصيرها ادراكاً
كاملاً ، وتعرف المستقبل الذى ينتظرها ، حتى لقد كان ذلك يحزننى ،
وان لم أكلمها فى هذا الأمر ، وانما ظللت أترفع عن الخوض فى حديث
عنه . ولكن هل تعلم ؟ انها لم تكن فى جميع الأحيان خائفة متوحشة
كما هى الآن . وهى حتى هذا اليوم لا يزال يتفق لها أن تفرح فجأةً وأن
تترين كما تفعل امرأة فى العشرين من عمرها . لكنها فى ذلك الوقت ،

إبان صباحها ، كانت تمسق الثرثرة والضحك أحياناً ، فى بيتها طبعاً ، مع
الخادومات مثلاً . ولشدهما كانت ترتجف اذا أنا باغتها ضاحكة على حين
فجأة ، وسرعان ما كانت تحمر عندئذ وتشخص الى بصرها خائفة ! فى
ذات يوم لا يسبق رحلى الى الخارج بمدة طويلة ، بل هو تقريباً عشية
انفصالى عنها ، دخلت الى غرفتها فوجدتها وحيدة بلا شغل ، قد وضعت
كوعياها على المائدة واسترسلت فى تأمل عميق . لم يسبق لها أن بقيت من
قبل عاطلة عن العمل فى أى يوم من الأيام تقريباً . وكنت فى ذلك الأوان
قد انقطعت عن ملاطفتها منذ مدة طويلة . فاستطعت أن أقرب منها برفق
ماشياً على رءوس الأصابع ، فامسكتها فجأة وقبّلتها . انفضت : لن أنسى
فى حياتى ما ارتسم على وجهها عندئذ من آيات الافتان والسعادة . ولكن
ذلك لم يلبث أن حل محله احمرار سريع ، وقدحت عينها شرراً .
هل تعلم ماذا قرأت فى ذلك الشرر ؟ « انك تعطينى صدقة ! » وانفجرت
تبكى كمن أصابها نوبة هستريا ، زاعمةً أننى روعتها . ووقفت أنا واجماً
أفكر . ان هذه الذكريات شاقة على النفس يا صديقى . هذا ما نجاهه لدى
كبار الفنانين : ان قصائدهم تصور فى بضع الأحيان مشاهد « أليمة » تظل
تقبض صدرك طول حياتك كلما تذكرتها . من ذلك مناجاة « عطيل »
الآخيرة ، ومشهد « أوجين » على قدمى تاتيانا ، ولقاء السجين الهارب
والطفلة الصغيرة فى « بؤساء » فكتور هوجو . ان هذه المشاهد تملن قلبك
مرة ، ثم يبقى الجرح نازفاً الى الأبد . آه . . . ما كان أشد نفاذ صبرى
وأنا انتظر وصول صونيا ، ولم كنت أود أن أقبلها فى أقرب وقت ؟ لقد
أخذت أضغ برنامجاً كاملاً لحياة جديدة . أخذت أفكر فى الوسائل التى
سأعمد اليها لأزيل من نفسها شيئاً بعد شئ ، بجهد متصل منظم ، خوفها
الدائم منى ، ولأنهمها قيمتها الكبيرة ، ولأجعلها تدرك أنها تفوقنى كثيراً .
آه . . . لقد كنت أعلم ، حتى منذ ذلك الحين ، أننى أحب أمك متى

انفصلت عنها ، فاذا اجتمعنا من جديد ، فتر حبي وبرد • ولكن شيئاً آخر حدث حينذاك •

كنت مدهوشاً • وهذا سؤال يبرق في ذهني : ماذا عنهما • هي • ؟ وسألته في حذر •

- وكيف تم اللقاء ؟

- في ذلك الوقت ؟ لم يتم لقاء • وصلت إلى مدينة كونيغسبرج بعد عناء شديد ، وبقيت بها ، وكنت أنا على نهر الراين • لم أذهب إليها ، بل أرسلت أمرها بأن تبقى حيث هي • التقينا بعد ذلك بمدة طويلة • • • • • مدة طويلة جداً • • • • • حين ذهبت استأذنها في أن أتزوج •

لن أذكر هنا الا الأشياء الأساسية ، أى ما استطعت أن أحفظه •
زد على ذلك أنه قد أخذ يتكلم بدون تسلسل ولا ترابط ، وتضاعف
تفكك أقواله وتشوشها واضطرابها عشر مرات منذ بلغ من حديثه
هذا الموضع •

لقد لقي كاترين نيقولايفنا مصادفةً ، حينما كان ينتظر ماما ، بل
حينما كان نفاذ صبره أثناء هذا الانتظار قد بلغ قمته • كانوا يومئذ جميعاً
على نهر الراين ، يقضون موسم المياه المعدنية • وكان زوج كاترين ايفانوفنا
يحتضر تقريباً ، أو قل على الأقل ان الأطباء كانوا يائسين منه فهو بحكم
المحتضر •

خطفت كاترين ايفانوفنا بصر أبى منذ أول لقاء ، حتى لكأنها رمته
بسحر • كان ذلك قدراً محتوماً • لاحظوا أنني ، وأنا أسجل وأتذكر
الآن هذا كله ، لا أذكر أن فرسيلوف استعمل فى حديثه كلمة « الحب »
مرة واحدة ، ولا قال انه « شغف » ، وانما استعمل كلمة « القدر » ،
فحفظت هذه الكلمة •

ولقد كان الأمر قدراً بالفعل • انه « لم يرد » ذلك ، لم يرد أن
يحب • لا أدري هل أقدر أن أعبر عن هذا تعبيراً واضحاً • المهم أنه
كان مستاءً بكل نفسه من أن هذا الأمر قد أمكن أن يقع له • ان كل

ما كان يملكه من حرية فد زال دفعه واحدة حين كان ذلك اللقاء ، ووجد الرجل نفسه مشدودا حتى الأبد الى امرأة ليس بينه وبينها نىء مشترك .
انه لم يرغب فى ان يستعبده الهوى هذا الاستبعاد . يجب ان اقول اليوم بصراحة : ان كاترين يقولانفسا نموذج نادر فى نساء المجتمع الراقى ، نموذج لعل المرء لا يقع عليه فى تلك الليثات . هى نموذج امرأة بسيطة صريحة الى أقصى حدود البساطة والصراحة . ولقد سمعت ، بل علمت من مصدر موثوق به ، أن هذا بعينه هو ما يجعلها كاسحة لا سبيل الى مقاومتها حين تظهر فى المجتمع (وكانت فى كثير من الأحيان تبتعد عن المجتمع ابتعاداً تاماً) . وكان فرسيلوف ، أثناء ذلك اللقاء الأول ، لا يظن أن لها هذه المزاي ، حتى لقد ظن تقيض ذلك ، أى اعتقد انها امرأة متصنعة منافقة . وسأستبق الأمور فأذكر هنا ما كان من رأيها هى فيه . لقد قالت ان رجلاً مثالياً لا يمكن أن يحكم عليها غير هذا الحكم ، لأن المثالى حين يصطدم بالواقع يكون محمولاً أكثر من سائر الناس على افتراض جميع أنواع العيوب . لا أدري هل يصدق هذا الرأى على المثاليين عامة ، ولكننى أعرف أنه يصدق عليه . وأحب أن أضيف هنا رأى أنا ، وهو رأى تكون فى ذهنى بينما كنت أصغى اليه : لقد قلت لنفسى انه كان يحب ماما حباً انسانياً شاملاً ان صحح التعبير ، لا ذلك الحب العادى الذى يشتعل فى نفس المرء حين يحب نساء ، وانه منذ أول اتصال له بامرأة أحبها ذلك الحب العادى ، قد أسرع ينبذ ذلك الحب ويرفضه ، بسبب عدم التعود فى أغلب الظن . على أن هذه الفكرة ربما كانت خطأ . وأنا لم أعبر له عنها على كل حال . ولو فعلت ذلك لما كنت لبقاً . لا سيما وأنه كان فى حالة توجب على المرء أن يداريه . لقد كان مضطرباً اضطراباً رهيباً . حتى انه فى بعض المواضع من حديثه كان ينقطع عن الكلام على حين فجأة أحياناً ، ويبقى صامتاً عدة دقائق وهو يذرع أرض الغرفة منقلب السحنة

ولم تلبث كاترين نيقولايفنا ان نفذت الى سره ، ولعلها تغنجت له
ان الأنتى لا تتنازل عن القيام بدورها ، حتى اظهر النساء . هذه عندهم
غريزة لا يستطيعن مقاومتها . ثم انتهى كل شيء بقطيعة عنيفة ، بل أظ
أنه أراد أن يقتلها . لقد اخافها ، ولعله كان يمكن أن يقتلها . « لكن ذل
كله استحالة فجأة الى كره » . ثم جاءت مرحلة أخرى عجيبة . ل
تملكته فكرة غريبة على حين فجأة : ان يعذب نفسه باتباع رياضة نفس
قاسية هي « تلك الرياضة نفسها التي يستعملها الرهبان . فاتباع ه
الرياضة اتباعاً تدريبياً منظماً مطرداً تتوصل الى التغلب على ارادتك ، باد
بأنفه الأشياء وأيسرها ، متتبعاً بتحقيق انتصار كامل على ارادتك ، فتصير
حرراً » . وأضاف أن هذه الرياضة التي يتبعها الرهبان بالتقشف وتعذيب
النفس ليست لعباً ، بل هي علم نشأ من تجربة دامت ألف سنة . على أ
أهم ما في الأمر هو أن فكرة « ترويض » النفس هذه لم تنشأ في ذهنه عر
رغبة في التحرر من كاترين نيقولايفنا ، بل عن اقتناع كامل بأنه لا يح
كاترين نيقولايفنا وانما هو يكرهها . وقد بلغ من قوة الاعتقاد بهذا الكر
أنه زين له فجأة أن يحب ابنة زوجها ، التي أغواها الأمير وتركها ، وأد
يتزوجها ، وأنه آمن هو نفسه بهذا الحب الجديد ، واجتذب اليه
حباً تلك البلهاء المسكينة التي هيأ لها هذا الحب في الأشهر الأخير
من حياتها سعادة كاملة . لماذا لم يتذكر ماما التي كانت لا تزال تنتظر
بمدينة كونجسبرج ، بدلا من تلك الفتاة البلهاء؟ ذلك سؤال يظل عندي
بلا جواب ! ... لقد نسي ماما نسياناً مباغتاً تاماً ، حتى لقد انقطع عر
ارسال شيء من المال اليها لتعيش ، فاضطرت أن تستجد بتاتيانا بافلوفنا التي
أغاثتها وكفلت لها الخلاص . ولكنه ذهب الى ماما فجأة ليطلب منها « اذ
بتزوج تلك الفتاة » ، متعللاً بأن « خطيبة » كهذه ليست امرأة » . قد تكود
هذه الصورة كلها صورة رجل « مستمد من الكتب » كما وصفته بذلك
كاترين نيقولايفنا فيما بعد ، ولكن لماذا يكون هؤلاء « الرجال المستمدون

من الكتب ، (اذا صح أنهم كذلك) قادرين على ان يعذبوا أنفسهم حقاً رغم كل شيء ، وأن يصلوا الى مآسى كهذه المآسى ؛ على أننى فى ذلك المساء قد فكرت فى الأمر تفكيراً يختلف عن هذا قليلاً ، وبرقت فى ذهنى فكرة أخرى :

— ان ثقافتك ونفسك كلها قد كلفتك عذاباً ومآرك ظلمت تخوضها طول حياتك ، أما هى فقد تلقت الكمال مجاناً • وهذا ليس من المساواة فى شيء • ذلك ما يثير الحنق فى المرأة •

قلت له هذا لا لأرضيه ، وانما قلته بحرارة وحتى باستياء • فقال مدهوشاً من كلماتى :

— الكمال ؟ كماليها ؟ ألا انها محرومة من أى كمال ! انها امرأة عادية جداً • امرأة لا قيمة لها بتاتاً ••• ولكنها مضطرة أن تحصل كل أنواع الكمال •

قلت :

— لماذا مضطرة ؟

فصاح غاضباً :

— لأنها تملك قوة — كهذه القوة ، فهى مضطرة أن تحصل كل أنواع الكمال •

— الأمر المحزن أنك معذب حتى الآن •

أفلتت منى هذه الجملة بغير ارادة • فوقف أمامى متحيراً ، وقال مردداً :

— حتى الآن ؟ معذب ؟

وأضام وجهه على حين فجأة ابتسامة هادئة طويلة واجمة ، ورفع

أصبه كمن قرر أمراً • حتى اذا ناب الى نفسه تماماً تناول من على المائدة رسالة مفوضة ورماها أمامي قائلاً :

— خذ ! اقرأ ! يجب أن تعرف كل شيء على الاطلاق ••• لما تركتني انبش هذه الحماقات كلها طول هذه المدة ؟ ان هذا لا يزيدني أن يحرق قلبي ! •••

لن استطيع أن أعبر عما اعتراني من دهشة ! لقد وصلته الرسالة منها « هي » ، في هذا اليوم نفسه ، الساعة الخامسة من المساء قرأت الرسالة وأنا ارتعش من الانفعال تقريباً • لم تكن الرسالة طويلة لكنها تبلغ من الصراحة والصدق أنني كنت ، وأنا أقرؤها ، أتمثل كاتبة أمامي وأسمع صوتها متكلمة • ان كاترين يقولاننا تعبر له في الرسالة تعبيراً مخلصاً كل الاخلاص (أى تعبيراً مؤثراً) عن خوفها منه ثم تتوسل اليه أن « يدعها وشأنها تعيش في سلام » ، وتبلغه في خاتمة الرسالة أنها ستتزوج بيورنغ فعلاً • ولم تكن قد كتبت اليه قبـ اليوم أبداً •

واليكم ما فهمته من أقواله :

ماكاد يفرغ من قراءة هذه الرسالة حتى أحس في نفسه فجأة بأمر لم يكن يتوقعه قط : لقد شعر ، لأول مرة خلال هاتين السنتين المشؤمتين ، بأنه لا يحمل لها أى كره ، ولا تهتز لها نفسه أى اهتزاز هو الذى « فقد صوابه » منذ مدة قصيرة حين سمع اسم بيورنغ • حتى لا قال لى بماطفة عميقة : « بالعكس : باركتها من كل قلبى » • سمعت هذه الكلمات معجباً • هكذا زايله كل ما كان يضطرم فى قلبه من هو ومن عذاب ، زايله دفعة واحدة ، من تلقاء نفسه ، كأنه كان حليماً ، كأنه كان مساً ثم مضى ! وقد دهش هو من نفسه ، فأسرع يذهب الى أمي فدخل عليها لحظة أصبحت « حرة » ، أى لحظة مات الشيخ الذى أوص

بالأمس أن يتزوجها • ولقد هزته هاتان المصادفتان هزاً قوياً • وبعد قليل ،
خرج يبحث عني • لن انسى ايدا اننى سرعان ما خطرت بباله •

لا ولن انسى نهاية تلك السهرة • ان هذا الرجل قد تبدل مرة
أخرى تبدلاً كبيراً مباغتاً • بقينا معاً الى ساعة متأخرة من الليل • سأحدث
فيما بعد عن الاثر الذى أحدثته فينا « النبأ » ، سأحدث عنه فى حينه •
أما الآن فسوف أقصر على بضع كلمات أختم بها كلامى عنه هو • اننى
لأدرك ، حين أفكر الآن ، أن ما فتنتى فيه حينذاك هو ذلك النوع من
الانقياد لى ، ذلك الاخلاص الصادق فى مخاطبة فتى مثلى ! لقد هتف
يقول : « كان ذلك ضلالاً » • ولكن بورك ذلك الضلال ! فلولا لكان
يمكن ألا أهتدى فى قلبى ، اهتداءً كاملاً أبدياً ، الى ملكتى الوحيدة ،
الى شهيدتى ، أمك • هذه الكلمات الحارة التى أفلتت منه بقوة لانقاوم ،
الما أسجلها هنا من أجل تامة القصة • ولكنه كان قد غزا قلبى وأسر
نفسى •

أذكر أننا صرنا فى النهاية الى مرح جنونى • أمر بشمبانيا ، فشربنا
« نخب » ، « ماما » ، و « نخب » المستقبل • وكان يزخر حياة ، ويفيض تأهباً
وتهيؤاً للحياة ! ولكن مرحنا الجنونى لم يكن سببه الخمر : فلم يشرب
كل منا الا كأسين اثنين • لا أدري لماذا أصبحنا فى النهاية نضحك عاجزين
عن كبح ضحكنا • أخذنا نتكلم فى أمور لا قيمة لها • روى نكات • ورويت
نكات • وكانت الضحكات والنكات بريئة كل البراءة ، خالية من أية
سخرية ، ولكنها كانت تزيدنا مرحاً • وكان لا يريد أن يعطى سبيلى
فهو ما ينفك يقول : « ابق ، ابق » ؛ وبقيت • حتى اذا خرجت صحبى •
كان الليل رائماً ، وكان جليد خفيف •

سألته فجأة بدون سابق تفكير ، وأنا أصافحه مرة أخيرة عند
منعطف :

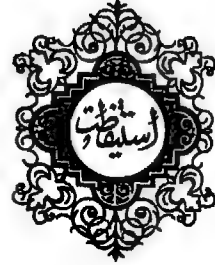
— قل لى : هل أجبتها ؟

— لا، لم أجبها بعده • ولكن لاقية لهذا • تعال غدا، تعال فى وقت أبكر • آ • • • شئ آخر : اترك لامير نهائياً ، ومزّق « الوثيقة » بأقصى سرعة • استودعك الله •

فال ذلك ومضى فجأة • فبقيت مسمّرا فى مكانى وقد بلغت من الاضطراب اننى لم أجرؤ أن أناديه • هزّنتى كلمة « الوثيقة » خاصة : من عسى يحدثه عنها بهذه الألفاظ الدقيقة غير لامير ؟ وعدت الى البيت قلقاً أشد القلق • وبرى فى ذهنى سؤال : كيف يمكن أن يزايله فى مثل لمح البصر « مس دام سنتين » ، ثم اذا هو يختفى كحلّم ، يتبدد كدخان ، يغيب كرويا ؟

الفصل التاسع

١



فى الغداة أنضرت همةً وأحسن حالاً • حتى
لقد رأيتنى آخذ على نفسى ، بغير غضب، شيئاً
من الخفة ونوعاً من التعالى ظهراً على أسس حين
كنت أصغى الى بعض الفقرات من « اعترافه » •

لقد كان اعترافه مفككاً فى بعض الأحيان ، وكان عدد من أقواله غامضاً
مبهماً بل مضطرباً مشوشاً لا ترابط فيه ولا اتساق بين أجزائه • ولكن هل
كان قد أعدّ خطاباً خطيباً حين دعانى الى بيته ؟ حسبى أنه شرفنى
باللجوء الىّ كما يلجأ صديق الى صديقه الوحيد فى مثل اللحظة التى
كان فيها • لن أنسى له هذا ما حييت • بل لقد كان اعترافه « مؤثراً فى
القلب » ، أقول هذا ولو سخر من هذا التعبير سآخرون • ولئن اشتمل
هذا الاعتراف على عناصر مستهترة ، أو حتى مضحكة قليلاً ، فلقد كنت
أرحب صدرى وأوسع أفقاً من ألا أفهم أو ألا أقبل الواقعة - دون
أن أطلع المثالية على كل حال • أخيراً فهمت هذا الرجل ؛ ولقد ساءنى
وأحزنى قليلاً أن أرى أمره بسيطاً كل تلك البساطة : هذا الانسان ،
كنت فى قرارة قلبى أنزله أعلى منزلة ، وأضعه فوق السحب • فكان
لابد لى حتماً أن أفع مصيره برداء من السر ، وكنت أتمنى طبعاً ألا
ينكشف ذلك السر بمثل هذه السهولة • ثم لقد كان هناك ، فى لقائه
« معها » ، وخلال هاتين السنتين من العذاب ، أشياء أخرى كثيرة معقدة :

« لم يرد ذلك القدر • كان فى حاجة الى الحرية لا الى عبودية القدر •
عبودية القدر هذه هى التى اضطرت ان يجرح شعور ماما التى كانت
تنتظره فى لونجسبرج • • • • • وعدا ذلك ، كان هذا الانسان فى نظرى
داعية ومبشراً على كل حال : كان يحمل فى قلبه العصر الذهبى ، ويعرف
مستقبل الالحاد • ثم اذا بلاقائه معها قد حطم كل شئ ، وشوّه كل شئ •
أنا لم أختها طبعاً ، ولكننى مع ذلك قد انحزت اليه • كنت أقول لنفسى :
ما كان لاما مثلاً أن تحرفه عن طريقه ولو تزوجته • وكنت أحس أن
لقاءه مع « الأخرى » أمر مختلف كل الاختلاف • صحيح أن ماما ما كانت
لتجئ به بالهدوء والسكينة • ولكن هذا أفضل • ان أمثال هؤلاء الرجال
ما ينبغى أن ' يحكم عليهم بالمقاييس التى ' يحكم بها على غيرهم • ان
لهم شأنًا خاصاً • ان حياتهم ستقضى دائماً على هذا النحو • وليس فى
ذلك شذوذ • بالعكس : فانما الشذوذ أن يجدوا الهدوء ، أو أن يصبحوا
كسائر الناس المتوسطين • ان افتخاره بالنباله وقوله « ساموت سيداً »
لم يقلقانى • لقد أدركت ما السيد الذى كان يعنيه : انه السيد الذى
يهب كل شئ ، ويبشر بمواطن الكون ، ويشيع الفكرة الروسية الداعية
الى « لقاء الأفكار لقاءً شاملاً » • لعل هذا كله كان سخافات وحماقات ،
أعنى « لقاء الأفكار لقاءً شاملاً » (مع أنه لا غنى عنه طبعاً) ، ولكن ألم يكن
حسناً أنه نذر حياته للفكرة ولم يقفها على عجل الذهب ؟ ولكن أنا • • •
رباه • • • • • هى أنا انحنيت لعجل الذهب حين تصورت فكرتى ؟ هل المال
هو ما كنت فى حاجة اليه ؟ يميناً لم أكن فى حاجة الا الى الفكرة ! يميناً
لو ملكت المال لما نجّدت كرسيّاً واحداً ولا ديواناً واحداً بالقטיפه ،
ولما أكلت غير صحن الحساء الذى آكله اليوم مع مائة مليون !

لبست ثيابى ، وشعرت بقوة تدفعنى اليه ولا أستطيع مغالبتها • يجب
أن أضيف هنا أننى فيما يتعلق بأشارته الى الوثيقة آمس ، قد وجدتني

اهدأ بالا • قلت لنفسي أتتى قد أبحث هذا الموضوع معه • وای ضير
فى أن يكون لامير قد تسلك اليه وحدته عن شيء ؟ وكانت فرحتى الكبرى
هى احساسى الغريب بأنه أصبح لا « يحبها » • كنت مقتنعا بهذا اقتناعاً
مطلقاً • وكنت أحس أن ثقلاً رهيباً قد نزل عن قلبى • حتى اننى أتذكر
افتراضاً مرّ بخاطرى : ان ما اشتملت عليه غضبته المسعورة من شذوذ
عجيب رهيب حين جاءه نبأ بيورنيج ، وما لجأ اليه عندئذ من ارسال رسالته
تلك التى احتوت على سب وشتم ، أقول ان ذلك العنف كله ربما كان
ايداناً بتغير جذرى فى عواطفه وعودة سريعة الى الحس السليم والعقل
الراجح • قلت لنفسي : ان هذا لابد أن يكون شيئاً بالنوبة التى تحدث
فى مرض ثم يقبها تقيضها ! فما ذلك الا مرحلة طيبة ! وقد أسعدتنى
هذه الفكرة •

وهتفت أقول : « الآن فلتصرف فى مصيرها كما تشاء » وللتزوج
بيورنيج ما حلا لها ذلك ، فانما المهم أنه هو ، أبى ، صديقى ، قد زال
حبه لها • • • على أن عواطفى أنا قد كان فيها سر • ولست أريد فى
مذكراتى هنا أن أُلحّ عليه أو اكشف عنه •

ولكن كفى ! الآن سأروى جميع الأهوال التى تعاقبت ، بدون أى
مدارة فى هذه المرة •

فى الساعة العاشرة ، فيما كنت أتهيأ للخروج (لأذهب اليه طبعاً)
 جاءت داريا أونيسيوفنا . فسألته مرحباً هل هو أرسلها الىّ ، فأخزنتى
 أن أعلم أنه ليس هو الذى أرسلها ، وانما أرسلتها أنا أندريفنا ، وأنها -
 هى داريا أونيسيوفنا - « قد خرجت من البيت عند طلوع الصباح » .
 - أى بيت ؟

- البيت نفسه ، بيت الأمس . ان البيت الذى كنت فيه أمس ، أغنى
 بيت الطفل ، مستأجر الآن باسمى أنا ، ولكن تاتيانا بافلوفنا هى التى
 تدفع ...

قاطعتها غاضباً أقول :

- ما شأنى أنا وهذا ! ولكن هو ، هل هو فى البيت ؟ هل أجده
 اذا ذهبت اليه ؟

فما كان أشد دهشتى حين علمت أنه خرج قبل أن تخرج هى ،
 فاذا كانت قد خرجت هى عند طلوع النهار ، فقد خرج هو قبل طلوع
 النهار .

- لعله يكون قد رجع الى البيت الآن ؟

- لا ، انه لم يرجع حتماً ، وربما لا يرجع أبداً .

قالت ذلك وهى تحدّث الى بنظرتهما الحادة الماكرة التى سبق أن ضقت بها وانزعجت منها حين زارتنى مريضاً فى السرير • ان ما أحقننى بخاصة هو هذه الأسرار وهذه السخافات التى تعود الى الظهور : ان هؤلاء الناس يصرون على ألا يستغفوا عن السر والمكر •

— لماذا قلت « ربما لا يرجع أبداً » ؟ ماذا تعنين بهذا ؟ لقد ذهب الى ماما وهذا كل شيء !

— لا أدري •

— ولكن ما جاء بك أنت ؟

فقلت لى انها الآن آتية من عند آنا آندريفنا ، وان آنا آندريفنا تدعونى أن أجيء اليها حالاً ، والا « فات الأوان » • فأحقننى هذا الكلام الملعن مرة أخرى وأخرجنى عن طورى :

— لماذا يفوت الأوان ؟ لا أريد أن أذهب اليها ولن أذهب ! لن أنقاد للتضليل مرة جديدة ! اننى لا أعبأ بلامبير ! قولى لها هذا • فاذا أرسلت لى لامبير ، فلأطردته ركلاً • بقدمى •

ارتاعت داريا ارتباعاً رهيباً •

قالت وهى تتقدم منى خطوةً وتضم يديها احدهما الى الأخرى ضارعة متوسلة :

— لا ، انتظر • لا تسرع الى الغضب هذا الاسراع • ان الأمر خطير ، بل خطير جداً بالنسبة اليك ، واليهم أيضاً ، الى آندره بترفش ، والى أمك ، والى الجميع • فاذهب الى آنا آندريفنا حالاً ، لأنها لا تستطيع أن تنتظر مدة أطول • • أحلف لك بشرفى • وبعد ذلك تتخذ قراراً •

نظرت اليها مدهوشاً مشمئزاً • وهتفت أقول بعناد وعداوة :

- سخافات • لن يحدث شيء • لن اذهب • تغير الآن كل شيء •
هل أنت قادرة على أن تفهمي ؟ مع السلامة يا داريا أونيسيوفنا • لن
أذهب • عمداً لن أذهب • وعمداً لن أسألك عن شيء • والا أفقدتني
صوابي • لا أريد أن أحشر أنفي في أسراركم •

ولكنها لم تنصرف ، بل ظلت متسمة في مكانها ، فلم يسعني الا أن
أتناول معطفي وطاقيتي ، وأن أخرج تاركاً اياها في وسط الغرفة • لم يكن
في غرفتي رسائل ولا أوراق ، ولا كنت أقفلها بالمفتاح في أى يوم من
الأيام تقريباً حين أخرج • ولكن ماكدت أصل الى الباب المفضي الى الشارع
حتى رأيت مؤجر غرفتي بطرس هيبوليتوفتش يركض ورائي بدون
قبعة وبدون سترة •

- آرКАДى ماكاروفتش ! آركَادى ماكاروفتش !

- ما بك أنت أيضاً ؟

- ألا تأمر بشيء قبل أن تخرج ؟

- لا •

فنظر الى نظرة نافذة فيها قلق واضح ، وقال يسأل :

- فيما يتعلق بالبيت مثلاً ؟

- فيما يتعلق بالبيت ؟ ألم تستلم الأجرة ؟

- ليس الأمر أمر الأجرة •••

قال ذلك وهو يتسهم ابتسامة طويلة على حين فجأة ، ويظل يتفحصني
بنظرته • فصحت أقول غاضباً :

- ولكن ماذا حدث لكم جميعاً ؟ ماذا تريد أنت ؟

فانتظر بضغ ثوان ، كأنه لا يزال يأمل منى شيئاً • ثم دمدم يقول
وهو يتسهم ابتسامة أطول :

— اذن تأمرنى فيما بعد ، مادمت الآن معتكر المزاج • طيب • مع السلامة • أنا أيضاً يجب أن أذهب الى المكتب •

وعاد يصعد السلم راكضاً • ان هذا كله يبحث على التفكير طبعاً • وأنا أتمدأ ألا أغفل أى تفصيل من تفاصيل هذه السخافات الصغيرة ، لأن كل واحد منها قد وجد مكانه من بعد فى مجموعها المتشابه • هذه حقيقة • ولئن ضقت ذلك الضيق كله ، وحنقت ذلك الحلق كله ، فلأنتى عدت أجد فى أقوالهم لهجة المكر واللفز تلك التى كنت أتعزز منها وكانت تذكرنى بالماضى •

ولكن فلأتابع حديثى •

لم أجد فرسيلوف فى البيت : كان قد خرج فعلاً مع طلوع النهار • وقتت أقول لنفسى : « سأجده عند ماما حتماً » • ولم أسأل الخادمة عن شىء • انها امرأة غبية • ولم يكن فى البيت أحد غيرها • ركضت متجهاً الى بيت ماما • أعترف بأننى كنت قلقاً غاية القلق • حتى لقد ركبت عربة بعد أن قطعت نصف الطريق • فعرفت هناك « أنه لم يجرى الى بيت ماما منذ مساء الأمس » • لم يكن مع ماما الا تاتيانا بافلوفنا و ليزا • وما ان دخلت حتى تأهبت ليزا للخروج •

لاتزالان تقيمان فوق، فى «تابوتى» • وتحت، فى الصالون، كان جثمان ماكار ايقانوفتش مسجى على المائدة ، وكان شيخ مجهول يقرأ عليه الزامير • لن أصف بعد الآن شيئاً مما لا يتصل بالقضية اتصالاً مباشراً • لكننى أحب أن أسجل أن النعش الذى صنع له و وضع فى الغرفة لم يكن نعشاً مبتذلاً : صحيح أنه أسود ، ولكنه مفروش بقطيفة ؛ والكفن ثمين : ترف لا يناسب الشيخ ولا يناسب اعتقاداته • ولكن تلك كانت رغبة ماما و تاتيانا بافلوفنا ، حرصنا عليها أشد الحرص •

لم أكن أنتظر طبعاً أن أراهنّ فى مرح • لكننى ما ان رأيت الحزن
الساحق والقلق الشديد والهم الثقيل فى أعينهن حتى قدّرت أن • هناك
شيئاً آخر غير التوفى قطعاً • اعود فأكرر أنى أتذكر هذا تذكراً
واضحاً •

ومع ذلك قبلت ماما بخنان • ثم لم ألبث أن سألتها • عنه • • فسرعان
ما اشتعل فى نظرتها استطلاع قلق • فبادرت أضيف أننا قضينا السهرة
معاً الى ساعة متأخرة من الليل • ولكننى لم أجده اليوم فى البيت • فقد
خرج مع طلوع النهار • رغم أنه طلب منى فى الليلة البارحة • حين
افترقنا • أن أجيء اليه فى أبكر وقت • لم تجب ماما بشىء • ولكن ثانيًا
بافلوفنا انتهزت فرصة فلوححت لى بأصبعها مهددة •

وقالت ليزا فجأة بلهجة قاطعة وهى تخرج من الغرفة بسرعة :
- استودعك الله • أخى •

وبادرت ألحق بها طبعاً • فوجدتها واقفةً تنتظرنى عند الباب •
قالت لى بهمس سريع :

- قدّرت أنك ستنزل •

- ماذا حدث يا ليزا ؟

- أنا نفسى لا أعلم • ولكن لا بد أن أشياء كثيرة قد حدثت • لا بد
أنها خاتمة هذه « القصة الأبدية » • لم يجرى • ولكن وصلتهم أخبار عنه •
لن يحكوا لك شيئاً • فكن هادئاً • ولا تسألهم أى سؤال اذا كنت تملك
بعض الذكاء • أنا أيضاً لم أسأل • ماما مرهقة • الى اللقاء !

وفتحت الباب • قلت :

- ليزا ! وأنت • أليس بك شىء ؟

ووثبت أدركها فى الدهليز • ان هيئتها المهدودة المكروبة اليائسة قد

طعنت قلبي • فنظرت الى نظرة لم تكن غاضبة فحسب ، بل كانت كاسرة
أيضاً • ثم ابتسمت ابتسامة مرة ، وحركت يدها بإشارة يأس •

وفيما كانت تهبط السلم منصرفة ، هتفت تقول :

- اذا مات فيجب أن نحمد الله •

كانت تعني الأمير سرجي بتروفتش الذي كان رافداً مع حمى
وغيبوبة • حدثت نفسي محققاً : « القصة الأبدية ؟ أية قصة أبدية ؟ »
وسرعان ما ساورتني رغبة قوية في أن أحدثهم عن جزء - على الأقل -
مما أحسست به بعد سماع « اعترافه » في الليلة البارحة ، وأن أذكر لهم
ذلك الاعتراف ذاته • « انهم يحملون آراء سيئة فيه • ألا فيلعلوا اذن
كل شيء ! » • تلك هي الفكرة التي لمت في خاطري •

أذكر انني بدأت الكلام بغير خراقة ، فسرعان ما أثرت اهتمامهما
واجتذبت انتباههما • حتى ان تاتيانا بافلوفنا كانت تشرب أقوالى شرباً ،
وذلك شيء لم يسبق أن حدث من قبل • وكانت أمي أكثر تحفظاً •
كانت رصينة جداً ، ولكن ابتسامة خفيفة رائعة ، وان تكن يائسة كل
اليأس ، قد أضاعت وجهها ولازمته الى نهاية الحديث • واسترسلت في
الكلام ، رغم علمي بأنهما لا تكادان تفهمان ما أقول • وقد أدهشني كل
الادهاش أن تاتيانا بافلوفنا لم تحاول أن تتأكدني ، فلا سألتني توضيحات
ولا نصبت لي فخاخاً ، كما كان من عادتها أن تفعل حين أتكلم • وكانت
تقتصر على أن تزعم شفقيها وتغمض عينيها نصف اغماض من حين الى حين
كأنما هي تجهد أن تفهم • حتى لقد بدا لي في بعض اللحظات أنهما كاتتا
تدركان كل شيء • غير أن ذلك كان مستحيلاً في الواقع • تحدثت
مثلاً عن اعتقاداته وآرائه ، وعن حماسه أمس ، عن حماسه لاما
خاصة ، عن حبه لاما ، ورويت كيف قبل صورتها ••• فكاتتا ، وهما
تصفيان الى كلامي ، تبادلان نظرات سريعة صامتتين • واحمرت ماما

احمراراً شديداً • وظللتا كلاتهما لا تقولان شيئاً • ثم • • • ثم
• كنت لا أستطيع طبعاً ، بحضور ماما ، أن ألمس النقطة الأساسية ، أعنى
لقاء مع الأخرى ، و « انبعاثه » الروحي بعد تلقيه تلك الرسالة • وكان
ذلك هو الأمر الجوهرى فى الواقع • وهكذا فإن جميع عواطفه التى عبر
عنها فى الليلة البارحة والتى كنت آمل أن أبهج بها ماما كثيراً ، بقيت
غامضة غير مفهومة بطبيعة الحال ، ولم يكن الذنب فى ذلك ذنبى ، لأن كل
ما كان يمكننى أن أقوله ، قد قلته بل أحسنت قوله جداً • فلما اتهمت
كنت مرتبكاً أشد الارتباك • واستمر صمتها • فوجدت نفسى معها فى
ضيق شديد • فقلت وأنا أنهض لأنصرف :

— لا بد أنه رجع الى البيت الآن • أو لعله ذهب الى بيتى فهو
ينتظرنى هناك •

فقال تاتيانا بافلوفنا مؤيدة بلهجة قاطعة :

— طيب • اذهب اليه ، اذهب اليه !

وسألتنى ماما بهمس :

— هل ذهبت الى تحت ؟

— نعم ، حيث جثمانه ، وصلت له • ما أجمله من وجه هادى •
يا ماما ! شكراً لأنك لم تقصّرى فى أمر النمش أىّ تقصير • لقد
استغربت ذلك فى أول الأمر ، ولكننى سرعان ما أدركت أننى لو كنت
فى مكانك لفعلت ما فعلته أنت •

سألتنى أمى مختلجة الشفتين :

— هل تأتى غداً الى الكنيسة للجنازة ؟

فقلت مدهوشاً :

— كيف لا يا ماما ؟ سأحضر قداس اليوم ، وآتى غداً أيضاً •
وغداً عيد ميلادك يا ماما ، يا صديقتى الغالية ! لم ينقصه الا ثلاثة أيام !

وانصرفت مدهوشاً دهشة أليمة : يا له من سؤال سخيف ! كيف
تسألنى هل آتى الى الكنيسة أم لا ؟

واذا كانتا تخشيان ألا آتى أنا ، فما عسى تكون خشيتهما من
ألا يأتى « هو » ؟

وكنت أعلم أن تاتيانا بافلوفنا قد تلحق بى ، فتمدت أن أقف عند
العتبة • وأدركتنى فعلاً ، لكنها دفعتنى بيدها الى السلم ، وخرجت بعدى
وأغلقت الباب •

— تاتيانا بافلوفنا ! هل تتوقعان اذن ألا يجىء آندره بتروفتش
لا اليوم ولا غداً ؟ اننى خائف ...

— اسكت • يا له من أمر عظيم أن تكون خائفاً !!! • • • قل : انك
لم تذكر كل شىء حين رويت ما رويته عن الليلة البارحة ، أليس كذلك ؟
لم أجد داعياً الى الكتمان ، فحكيت لها — وأنا شسبه غاضب على
فرسيلوف — حكاية الرسالة التى وصلته من كاترين نيقولايفنا ، والأمر
الذى أحدثته تلك الرسالة فى نفسه اذ بعثه بعثاً جديداً • فما كان أشد
استغرابى حين لاحظت أن واقعة الرسالة لم تدهشها ، فأدركت أنها على
علم بأمرها •

— ألا تكذب فيما تقول ؟

— لا ، لا أكذب •

فابتسمت ابتسامة ساخرة وكأنها تفكر ، ثم قالت :

— هه ! بُعث بعثاً جديداً ! لا ينقص الا هذا ! هل صحيح أنه
قبَّل الصورة ؟

— صحيح يا تاتيانا بافلوفنا •

— قبَّلها بماطفة ، أم تظاهر تظاهراً ؟

- تظاهر تظاهراً ؟ هل يتظاهر أحياناً ؟ عيب يا تاتيانا بافلوفنا ! ان
لك نفساً قاسية ، نفس امرأة !

قلت ذلك بحرارة ، ولكنها تظاهرت بأنها لم تسمعنى • كانت قد
عادت تفرق فى أفكارها رغم شدة البرد على السلم • كنت أنا مرتدياً
معطفى ، أما هى فكانت بفسطانها فقط •

قالت باحتقار وتململ :

- كان يمكن أن أعهد اليك بمهمة ، ولكن المؤسف أنك غبى غباء
شديداً • اسمع : اذهب الى آنا آندريفنا ، وانظر ماذا يحدث عندها •
لا بل لا تذهب ! فلن تكون هناك الا غيباً • امش • ما بقاؤك هنا متسماً
كنصب ؟

- لا ، لن أذهب الى آنا آندريفنا ! ومع ذلك فان آنا آندريفنا هى
التي أرسلت تستدعيني اليها اليوم •

- هى نفسها ؟ أرسلت داريا أويسيموفنا ؟

كانت تاتيانا بافلوفنا قد أدارت ظهرها وأخذت تفتح الباب لتصرف ،
لكنها ما أن سمعت كلامى حتى التفتت الى ثانية وألقت على ذلك السؤال
وهى تغلق الباب من جديد •

كررت أقول متلذذاً :

- لن أذهب الى آنا آندريفنا بحال من الأحوال • لن أذهب
اليها ، لأننى وُصفت منذ هنيهة بأننى غبى ، مع أننى لم أكن فى حياتى
ذكياً نافذ البصيرة كما كنت اليوم • ان قضاياكم كلها موضوعة على راحة
كفى ، أراها رؤية واضحة أكبر الوضوح ! على كل حال ، لن أذهب الى
آنا آندريفنا •

فهمت تقول وهى لا تزال تفكر :

- كنت أعرف هذا ! لسوف يوثقونها الآن ويضعونها فى الكيس •

- آنا آندريفنا ؟

- غبى !

- من تعنين اذن ؟ كاترين نيقولايفنا ؟ أى كيس ؟

جزعت جزءاً رهيباً • ان فكرة غامضة ، لكنها فظيعة ، قد برقت فى
نفسى كلها • وألقت على تاتيانا بافلوفنا نظرة ثاقبة ، وسألتنى فجأة :

- وأنت ما شأنك وهذا كله ؟ ما دورك فى هذا الأمر ؟ لقد سمعت
شيئاً عنك ألت أيضاً • حذار.

- اسمعى يا تاتيانا بافلوفنا • سوف أكشف لك سرا رهيباً • ولكن
لا الآن • الآن لا يتسع الوقت • غداً سأكشف لك عن ذلك السر ، على
انفراد • ولكن قولى لى الحقيقة كلها فوراً : ما هذا الكيس الذى تتحدثين
عنه ؟ ذلك أن جسمى كله يرتعد ارتعاداً شديداً •••

صاحت تقول :

- لا يهمنى أن يرتعد جسمك أو ألا يرتعد • ما هذا السر
الذى تريد أن تبوح لى به فى الغد أيضاً ؟ هل تعرف شيئاً بالفعل ؟ قل
ما تعرفه بصراحة •••

وعادت تلقى على نظرتها الفاحصة • ثم قالت تسألنى :

- ألم تحلف لها أنك قد حرقت رسالة كرافت ؟

وتابعت أنا أيضاً كلامى دون أن أجيب عن سؤالها لأننى كنت خارجاً
عن طورى :

- تاتيانا بافلوفنا ، أكرر لك •• لا تعذبينى •• انتبهى يا تاتيانا

بافلوفنا • • فسبب ما تخفيه عنى قد تقع مصيبة أكبر • لقد كان أمس
فى حالة انبعاث كامل •

- امش يا مهرج ! أنت أيضاً هائم حياً • الأب والابن مولَّهان
بحب امرأة واحدة ! تفو ! انكما لمقرزان !

واختفت • وصفقت الباب وراها استياءً وامتعاضاً وشعرت أنا بغضب
شديد من هذه الوقاحة وهذا الاستهتار الذى لا يمكن أن تصل اليه
الا امرأة ، فخرجت راكضاً وقد 'جرح شعورى جرحاً عميقاً • ولكننى
لن أحدثكم عن مشاعرى المضطربة : فقد عاهدتكم على ذلك • لن أحكى
الا الوقائع التى ستضع فى أيديكم الآن مفتاح كل شىء •

وقد انطلقت اليه طبعاً ، فأخبرتني الخادمة مرة أخرى بأنه لم
يرجع • سألتها :

- ولن يرجع ؟

- الله أعلم !

الوقائع ، الوقائع ! ولكن ما الذى سيستطيع أن يفهمه القارىء ؟
أتذكر أننى ، أنا نفسى ، وقد سحقتنى تلك الوقائع ذاتها ، كنت لا أستطيع
أن أفهمها ، فما انتهى النهار الا كان عقلى قد انقلب رأساً على عقب فعلاً !
لذلك سأسبق الأحداث ببضع كلمات •

اليكم ما كان يدور عليه قلقي وعذابي : اذا كان قد بُعث بالأمس
بعثاً جديداً فكفَّ عن « حبها » فأين يجب أن يكون اليوم ؟ الجواب :
أولاً ، عندى ، أنا الذى قبَلنى البارحة ، ثم فوراً عند أمى ، التى قبَل
صورتها • ولكنه بدلاً من أن يقوم بهاتين الخطوتين ، غادر البيت عند
« طلوع النهار » ، واختفى لا يدرى أحد أين ، وتقول داريا أونيسيوفنا
انه فى أغلب الظن لن يعود • أكثر من ذلك : ان ليزا تتحدث عن خاتمة
« القصة الأبدية » ، وتؤكد أن ماما وصلتها أخبار عنه ، أحدثُ من هذه
الأخبار أيضاً • وهم عدا ذلك يعرفون أمر الرسالة التى بعثتها اليه كاترين
يقولايڤنا (لاحظت أنا هذا) ، ولكنهم رغم كل شيء لا يصدقون أنه
« بعث بعثاً جديداً » ، وان كانوا قد أصغوا الى « بانتباه شديد » كانت ماما
مهدمة تهديماً ، وكانت تاتيانا بافلوفنا تبسّم ابتسامة ساخرة حين أنطق
بكلمة « الانبعاث » هذه • معنى ذلك اذن أنه قد وقعت له فى الليل ثورة
أخرى ، وقعت له نوبة أخرى ، بعد كل حماسه وحنانه وتأثره بالأمس !
ومعنى ذلك اذن أن هذا « الانبعاث » كله قد تبدد كفقاعة صابون ! ولعله

الآن يعاني ذلك الاحتياج المسعور نفسه الذى أصابه حين جاءه نبأ بيورنج !
فإذا صحَّ هذا فما عسى يحدث لماما ؟ وما عسى يحدث لى أنا ، ولنا جميعاً . .
وما عسى يحدث لها « هى » خاصة ؟ ما الكيس الذى كانت تعنيه تانيانا حين
أمرتنى أن أذهب الى آنا آندريفنا ؟ لابد أن « الكيس » اذن عند
آنا آندريفنا ؟ ولماذا عند آنا آندريفنا ؟

و'هرعت الى آنا آندريفنا طبعاً . كنت تعمدت عن غضبٍ أن أقول
اننى لن أذهب اليها . ثم 'هرعت الآن . ولكن ما الذى قالته تانيانا بافلوفنا
عن الوثيقة ؟ أليس هو الذى قال لى أمس : « احرق الوثيقة » ؟

تلكم كانت خواطبرى . ذلكم ما كان يخفئنى . ولكننى كنت فى
حاجة اليه « هو » خاصة . معه يمكن أن أحل كل شئ فى طرفه عين ،
يمكن أن أتفاهم بوضع كلمات : آخذ يديه ، وأشد عليهما ، وأجد فى
قلبي الأقوال الحارة المناسبة . كذلك كنت أحلم . ان فى وسعى أن
أنتصر على جنونه ! . . ولكن أين هو ؟ أين هو ؟ وما كان ينقصنى فى
مثل تلك اللحظة الا أن ألقى لاميير ، بينما أنا فى مثل ذلك الفوران !
وكدت أصل الى البيت ، فاذا أنا آقع على لاميير فجأة . فأخذ يطلق صيحات
فرح اذ رآنى . وتناول يدى .

— هذه هى المرة الثالثة التى أجبى اليك فيها . « أخيراً » ! هلم بنا
تتغدى .

— انتظر . أنت آت من بيتى ؟ هل آندره بتروفتش هناك ؟

— لا ، ليس أحد هناك . دعهم جميعاً ! أنت زعلت أمس يا أحق !
كنت سكران . هناك حديث جرى بينى وبينك . علمت اليوم أبناء رائعة
عماً كنا نتكلم فيه أمس . . .

قاطعته أقول لاهثاً متعجلاً ، صائحاً بعض الصياح برغم ارادتى :

- لاميير ، لئن وقفت فأننى لم أنف الا لأقطع صلتى بك قطعاً نهائياً •
وفد فلت لك هذا بالأمس ، غير أنك تصر على أن لا تفهم • لاميير ، أنت
صبى وغبى فى أن واحد ، كفرنى • تتخيل دائماً أنك لا تزال عند
توشار وأننى لا أزال أحقق كما كنت عند توشار • ولكننى الآن غير
ما كنت عند توشار • كنت امس سكران ، ولكن سبب سكرى لم يكن
الخمير بل أنى كنت مهتاجاً من قبل أن أشرب • ولئن أيدت ما كنت
تقوله ، فقد كنت أظاهر تظاهراً لأعرف تفكيرك • لقد خدعتك ، فسررت
أنت وصدقتنى واستمررت فى الثروة • اعلم أن زواجى بها حماقة لن
يصدقها تلميذ من تلاميذ الصف الاعدادى فى يوم من الأيام • هل يمكن
أن يتخيل أحد أن أصدق هذا الكلام ؟ لكنك تخيلته أنت ! مرد ذلك الى
أنك لا تستقبل فى المجتمع الراقى ، ولا تعرف ما يجرى فيه • ان
الأمر لا تجرى عندهم بمثل هذه السهولة • ليست الأمور بسيطة هذه
البساطة فى المجتمع العالى • ليس أمراً هيناً أن تقرر فجأة أن تتزوجنى •
سأقول لك بوضوح ماذا تريد أنت : تريد أن تجتذبنى فتسقينى الى أن
أسكر فأسلمك الوثيقة وأشاركك فى مؤامرة حقيرة على كاترين نيقولايفنا !
اعلم اذن أنك مخطئ • لن أجيء اليك أبداً • واعلم أيضاً أن الورقة
ستكون بين يديها غداً أو بعد غد ، لأن تلك الورقة ملك لها ، لأنها هى التى
كتبتها ، وأسسلمها اليها بنفسى ، فإذا أردت أن تعرف أين سأسلمها اياها
فاعلم أن ذلك سيكون فى مسكن تاتيانا بافلوفنا ، وبحضور تاتيانا بافلوفنا ،
صديقتها ، وأننى لن أطلب بشئ ثمناً • والآن : الى الأمام ، سر ! والا ،
والا يا لاميير ، فسأكون أقل أدباً •••

فلت ذلك وأخذت أرتجف • ان أسوأ عادة لدى كل انسان وأضر
عادة بكل انسان ، فى كل ظرف ، هى أن يصطنع وضع التعاطف • ما كان
أغنائى عن هذا الاندفاع الحار أمامه ! ما كان أغنائى عن هذا الخطاب الذى

كنت أوقع كلماته مترنماً وأرفع صوتي فيه أكثر فأكثر ، ثم أنهيه بذكر تلك النقطة التفصيلية النافلة ، فاقول أني ساسلمها الوثيقة بنفسى فى مسكن تاتيانا بافلوفنا ؟ لقد احسست فجأة برغبة قوية فى ادهاشه واذهاله ! فحين تكلمت عن الوثيقة بتلك المفظاظة فرأيت جزءاً غيباً يعتريه بغتة ، أردت أن أسحقه مزيداً من السحق بذكر مزيد من التفاصيل ! فكانت هذه الثرثرة المغرورة التى تلاحظ فى النساء سبباً فى وفوع كوارث رهيبة ، لأن هذه النقطة التفصيلية • المتعلقة بتاتيانا بافلوفنا ومسكنها سرعان ما نقشت فى ذهنه الذى هو ذهن انسان حقير ورجل عملى فى الأمور الصغيرة • انه فى الأمور الكبيرة الجدية تافه لا يفهم شيئاً ، أما فى هذه التفاصيل الجزئية فانه حاضر البديهة دائماً • فلو أننى لم أذكر اسم تاتيانا بافلوفنا ، لتجنبى وقوع مصائب كثيرة • ومع ذلك فانه بعد أن أصغى الىّ بدا كمن فقد صوابه • قال مجمجاً :

- اسمع • ألفومسين ستغنى • • ألفومسين ذهبت « اليها » • •
اسمع • عندى رسالة ، أو رسالة تقريباً ، تحدث فيها آخماكوفاً عنك • •
المجدور هو الذى زوّدنى بهذه الرسالة • هل تتذكر المجدور ؟ سترى ،
سترى ! هلمّ بنا !

- كذاب ! أرنى الرسالة !

- هى فى البيت ، عند ألفومسين • هيا بنا الى البيت !
كان يكذب طبعاً ، كان يهذى ، مخافة أن أفلت منه • لكننى تركته
فجأة فى وسط الشارع ، وحين همّ أن يتبعنى ، وقفت أهدّده بأصبعى •
فتردد لحظةً فأتيجح لى أن أخفى : لعل خطةً أخرى كانت قد نبئت فى
رأسه منذ ذلك الحين • لكن المفاجآت واللقاءات لم تكن قد انتهت بالنسبة
الىّ • اننى حين أتذكر ذلك اليوم الحافل بالشقاء ، يبدو لى دائماً أن تلك
المفاجآت واللقاءات انما كانت على موعد لتنهلّ علىّ غزيرة رهيبة • اننى

ما ان فتحت باب مسكنى حتى اصطدمت فى حجرة المدخل بشاب طويل
القامة له وجه يضوى شاحب ، ومشية مهيبة « راقية » ، يرتدى معطفاً
رائعاً ، ويزين وجهه بنظارة أنف • كانت له نظارة أنف • ولكنه حين
رأنى خلعها (من قبيل المجاملة الأنيقة) ، وقال لى وهو يتسهم ابتسامة
رفيقة و ينهض قبعته الطويلة بأدب وتهذيب ، ولكن دون أن يقف :
« آ • • • مساء الخير ! » (بالفرنسية) ثم مضى يدرك السلم • لقد عرف
كل منا الآخر على الفور ، رغم أننى لم أراه الا مرة واحدة سريعة
بموسكو • انه أخو آنا أندريفنا ، الحاجب بالبلاط ، الشاب فرسيلوف ،
ابن فرسيلوف ، أى أخى تقريباً ، وكانت المؤجزة تصحبه مشيعة (لم يكن
زوجها قد عاد من المكتب بعد) • فلما انصرف هجمت أسألها :

— ماذا يعمل هنا ؟ هل كان فى غرفتى ؟

— لا ، لم يكن فى غرفتك • جاء يزورنى أنا • • •

كذلك أجابتنى بلهجة قاطعة خشنة وهى تدير ظهرها • فهتفت
أقول صارخاً :

— لا ، لن يمر الأمر هكذا • أجبى من فضلك ماذا جاء يعمل
هنا ؟

— أوه ! هل من واجبى أن أحكى لك لماذا يجرى الناس ؟ أظن أن
من حقنا ، نحن أيضاً ، أن تكون لنا شئون خاصة • لعل هذا الشاب جاء
يقترض مالاً ، أو جاء يسألنى عن عنوان ، أو لعلنى وعده فى المرة
السابقة أن • • •

— فى المرة السابقة ؟

— آ • • • طبعاً ! فى المرة السابقة • انه لم يجرى اليوم أول مرة !
وانصرفت • أدركت أن اللهجة فى البيت تغيرت : أخذوا يفلظون لى

القول ! هذا سر جديد ! الاسرار تتراكم عند كل خطوة ، فى كل ساعة !
فى المرة الاولى جاء الشاب فرسيلوف مع أخته ، آنا اندريفنا ، حينما كنت
مريضاً . تذكرت هذا تذكرأ واضحاً . وتذكرت كذلك جملة قصيرة
مدهشة أفلتت أمس من آنا آندريفنا : وهى أن الأمير العجوز سيقف
عندى . ولكن هذا كله كان يبلغ من الغرابة أننى لم أستطع أن أفهم
شيئاً . فرأيتنى ألطم جينى ، وأهرع الى بيت آنا آندريفنا حتى دون
أن أجلس لأستريح . ولم أجد آنا آندريفنا فى بيتها ، لكن الباب
السويسرى أجابنى بأنها « سافرت الى تسارسكوييا ، وأنها لن ترجع الا غداً
فى مثل هذه الساعة تقريباً » .

— سافرت الى تسارسكوييا ! ذهبت الى الأمير العجوز حتماً ، وذهب
أخوها الى مسكنى يفتشه ! لا ، هذا مستحيل !

وصررت بأسنانى قائلاً : « اذا كان هناك تهديد حقاً ، فسوف أدافع
عن المرأة المسكينة » ! .

ومن بيت آنا آندريفنا لم أرجع الى بيتى ، لأن رأسى المتهب قد
انبجست فيه ، على حين فجأة ، ذكرى المطعم الذى يقع تحت مستوى
الأرض ، والذى اعتاد آندره بتوقفش أن يذهب اليه فى ساعات حزنه .
فابتهجت لهذه الفكرة ابتهاجاً عظيماً ، وهرعت الى المطعم فوراً . كانت
الساعة قد تجاوزت الثالثة ، وكان المساء يهبط . قيل لى فى المطعم انه
جاء ، « فلبث لحظة » ثم انصرف ، وقد يعود . « فقررت فجأة . بكل
ما أملك من طاقة ، أن أنتظره ، فأمرت لنفسى بغداء . هناك أمل
على الأقل !

وتنديت بل ظلللت أكل طبقاً بعد طبق حتى يحق لى البقاء أطول
مدة . أظن أننى مكثت زهاء أربع ساعات . لا أصف حزنى ، وتلهفى

المحموم • لقد كان كل شيء فى يهنز ويرتفش • ان هذا الأرغن البربارى ، وهؤلاء الشارين ، وهذا الضجر ، ان هذا كله قد نُقش فى نفسى ، ولعله نُقش فيها الى الأبد ! لا ولا أصف الأفكار التى كانت تملو فى رأسى كنفامة من أوراق أشجار يابسة فى فصل الخريف بعد اعصار • كان فى رأسى شيء من هذا القليل حقاً ، وكنت فى بعض اللحظات أحس بأن عقلى قد بارحنى فعلاً • أعترف بهذا •

غير أن ما كان يعذبنى خاصة (عدا عذابى الرئيسى طبعاً) انما هو ذكرى حادث لم أكلم عنه أحداً فى يوم من الأيام • • كانت هذه الذكرى كذبابة سامة من ذباب الخريف تدور ، وتثر ، وتصمت ، وتحاصر ، ثم تلسع لسعاً موجعاً على حين فجأة • فاليكم حكاية هذه الذكرى ، لأنها ، هى أيضاً ، يجب أن تُروى فى موضع ما من هذه القصة •

حينما كنت بموسكو فتقرر أن أسافر الى بطرسبرج ، أبلغنى
 يقولوا سيمونوفتش أن هناك مالا سيصلنى من بطرسبرج نفقات للسفر
 لم أسال من الذى سيرسل الى المال ، اذ كنت أعلم أن فرسيلوف هو الذى
 سيرسله . وكنت فى ذلك الحين أحلم بلقائى مع فرسيلوف ليلاً ونهاراً ،
 خافق القلب طموح المشارييع ، وانقطعت انقطاعاً تاماً عن التحدث فى
 هذا الأمر حتى الى ماريا ايفانوفنا . يجب أن أذكر من جهة أخرى أننى
 كنت أملك مالا أنفقه على الرحلة . ولكننى قررت رغم كل شيء أن
 أنتظر ! وكنت أقدر أن المال سيصلنى بالبريد .

ولكن ها هو ذا يقولوا سيمونوفتش يعود الى البيت ذات يوم فيبلغنى
 (باختصار ، على عادته ، وبدون الحاح) أن على أن أذهب غداً الى بيت
 الأمير ف . . . سكى بشارع مياستسكايا ، فى الساعة الحادية عشرة من
 الصباح ، فهناك سيسلمنى حاجب البلاط ، فرسيلوف ، ابن آندره بتروفتش ،
 الذى وصل من بطرسبرج ونزل عند رفيقه فى المدرسة الثانوية ، الأمير
 ف . . . سكى ، هناك سيسلمنى المبلغ المرسل الى نفقات للرحلة . بدت
 لى المسألة بسيطة غاية البساطة : فمن الجائز جداً أن يكون آندره بتروفتش
 قد عهد بهذه المهمة الى ابنه ، بدلاً من ارسال المبلغ بالبريد . ومع ذلك
 فإن هذا النبأ قد أمسك بخناقى وأخافنى اخافة غير طبيعية . لاشك فى أن

فرسيلوف قد أراد أن يعرفنى بابنه ، الذى هو أخى • كذلك تصورت نيات الرجل الذى كنت أحلم به ، وتصورت عواطفه • ولكن سؤالاً ضخماً قد انتصب أمامى : كيف أتصرف وكيف يجب أن أتصرف فى هذا اللقاء الذى لم أتوقعه البتة ، وهلاًّ يجرى هذا اللقاء كرامتى ؟

وفى الساعة الحادية عشرة تماماً من صباح الغد ، دخلت بيت الأمير فـ ... سكى • هو شقة عازب • ولكنه بدا لى فاخر الأثاث • وكان فيه خدم بالملابس الرسمية • وقفت فى حجرة المدخل • فكانت تصل الى من الداخلى اصوات حديث حار وضحكات • ان لدى الامير فـ ... سكى ضيوفاً آخرين غير حاجب البلاط • ذكرت للخادم اسمى وطلبت منه أن يبلغ عن وصولى • وأغلب الظن أنى فعلت ذلك بشيء من الحياء • المهم أنى لاحظت أن الخادم حين انصرف عنى قد نظر الى نظرة غريبة ، بل انه لم يولنى حقى من الاحترام فيما بدا لى • وما كان أشد دهشتى حين رأيته ينيب مدة طويلة ، زهاء خمس دقائق ، كنت أسمع خلالها رنين تلك الضحكات نفسها وأصداء تلك الأحاديث ذاتها !

وقد انتظرت واقفاً بطبيعة الحال ، لأننى ، وأنا « سيد مثله » ، لا يليق بى بل يستحيل علىّ أن أجلس فى حجرة المدخل التى يربط فيها الخدم • وجهة أخرى لم أشأ بحال من الأحوال أن أبادر من تلقاء نفسى ، بدون دعوة خاصة ، فأدخل الصالون ، فذلك لا يتفق وكبريائى • لعلها كانت كبرياء مغالية ، ولكن هذا ما كان ! وقد أدهشنى أن أرى الخدم الذين بقوا (وعددهم اثنان) يسمحون لأنفسهم أن يجلسوا بحضورى • فأشمت عنهم متظاهراً بأننى لم أر ذلك منهم ، ولكن أخذ جسمى كله يرتجف • ثم التفت فجأة ، ودنوت من أحد الخادمين « فأمرته » بأن يمضى يبلغ عنى مرةً أخرى على الفور • ولكن الخادم ، رغم قسوة نظرتى وشدة احتياجى ، نظر الىّ فى كسل دون أن ينهض ، وأجابنى الآخر نيابة عنه :

- تم الابلاغ عن وصولك • اطمئن !

فقررت أن أنتظر دقيقة واحدة ، واحدة فقط ، أو أقل من ذلك ،
ثم « أنصرف » • لقد كانت ثيابي حسنة : فبدلتني جديدة ، وممطفي جديد ،
وقميصي نضر كل النظارة عنيت به ماريا ايفانوفنا عناية خاصة لهذا اللقاء •
ولكن الخدم ، كما علمت بعد مدة طويلة ، ببطرسبرج ، من « مصدر
مؤنوق به » ، كان قد أبلغهم أمس خادم جاء مع فرسيلوف ، أنه سيجي
الى البيت شاب اسمه فلان هو أخو فرسيلوف سفاحاً • الآن أعرف هذا
معرفة اليقين •

انقضت الدقيقة • ان ذلك الاحساس الذي يحسه المرء حين يريد
أن يعزم أمره ثم لا يستطيع ذلك : « أمضي أم لا ؟ أنصرف أم لا ؟ » ،
كنت أحسه في كل ثانية من الثواني وأنا أكاد أرتعش • وفجأة رجع الخادم
الذي ذهب يبلغ عن وصولي • كان يحمل بيده أربع ورقات نقدية حمراء ،
أي أربعين روبلاً • فقال لي :

- خذ • اليك هذه الأربعين روبلاً !

غلي دمي وفار • يالها من اهانة ! لقد لبثت أحلم بهذا اللقاء الذي
هياه فرسيلوف للأخوين ، لبثت أحلم به طوال الليل • وطوال الليل ظلت
أتمسك محموماً : كيف يجب أن يكون سلوكي حتى لا أخفض قدر
نفسي ، وحتى لا أسى الى ذلك الصرح كله من الأفكار الذي بنيته في
عزلي وأستطيع أن أعتز وأن أفخر به في أية بيثة • كنت أقول
لنفسى : سأظهر نبلاً ، وكبرياء ، وقد أظهر شيئاً من الحزن والأسى أيضاً ،
بل قد أظهر قدراً من الحشونة والجفوة حتى في صحبة الأمير ف • • • سسكى ،
فبذلك أدخل هذا المجتمع دخولاً مهيباً • آه • • • لا أحب أن أداري
نفسى ، فعلى هذا النحو انما يجب أن 'تسجل' هذه التفاصيل الأليمة كلها !
وفجأة : أربعون روبلاً ، 'ترسل الى' مع خادم ، الى حجرة المدخل ، بعد

انتظار دام عشر دقائق ، ويقدمها الى الخادم رأساً ، بيده ، بأصابعه ،
لا موضوعة على صحن ، ولا مودعة في ظرف ! ...

صرخت في وجه الخادم صراخاً بلغ من الشدة أنه ارتجف وتراجع
القهقري ، وأمرته بأن يعيد المال الى سيده حالاً « ليحمله سيده الى
بنفسه ! ، أى اننى طلبت طلباً لاشك أنه كان في نظر الخادم غير معقول
ولا مفهوم . ولكن صراخى قد بلغ من القوة أن الخادم أطاع الأمر . هذا
عدا أن صرخاتى سمعت في الصالون ، فسرعان ما توقفت أصوات
الأحاديث والضحك فوراً .

ولم ألبث أن سمعت وقع أقدام رصينة موزونة هادئة ، ثم اذا أنا أرى
قائمة فارعة لفتى جميل المحيا متكبر الهيئة (وقد بدا لى يومئذ أشد شعوباً
ونحولاً منه في هذا اللقاء الثانى) تظهر في العتبة أو قل تقف على مسافة
بضعة سنتمترات من العتبة . كان يرتدى ثوباً للمنزل رائماً مصنوعاً من
حرير أحمر ، ويتعل بابوجين ويضع على عينيه نظارة أنف . وها هو ذا
يتفرس فى من خلال نظارته بدون أن يقول كلمة واحدة ، فتقدمت منه
خطوة ، كوحش كاسر ، ووقفت أمامه متحدياً ، أحدى اليه بنظرة
ثابتة . ولكنه لم يتأملنى هذا التأمل الا برهة قصيرة لا تزيد على عشر
ثوان ، ثم اذا بسخرية خفيفة لا تكاد تُرى تظهر على شفتيه ، ولكنها
مع ذلك سخرية جارحة جداً ، جارحة لأنها لا تكاد تُرى . ثم ها هو ذا
يدور على كعبه ، ثم يرجع الى حيث كان ، دون تعجل ، بل بهدوء
ورفق وخطى موزونة كما جاء . آه من هؤلاء الوقحين الذين يتعلمون
أهانة الناس منذ طفولتهم ، فى أسرهم ، من أمهاتهم ! وقد فقدت حضور
بديتهى طبعاً . آه ... لماذا فقدتها ؟

وفى تلك اللحظة نفسها تقريباً رجع ذلك الخادم نفسه حاملاً بيديه
تلك الورقات نفسها ، وقال :

- تفضل بقبولها • انها مرسله من بطرسبرج • لا يمكن استقبالك •
« ربما استقبلتك • السيد » فى مرة أخرى ، حين يكون لديه متسع من
الوقت أكبر » •

أحسست أن الكلمات الأخيرة قد أضافها هو • ولكن اضطرابى
استمر فى اضعاف نفسى • فتناولت المال بدون تفكير واتجهت نحو الباب •
فيسبب ذلك الاضطراب انما أخذت المال ، وكان ينبغي فى الواقع أن
أرفضه • ولم يفت الخادم ، من أجل اهانتى طبعاً ، أن يفضب غضبة جديدة
بخادم حقاً فأسرع يفتح الباب أمامى واسمأ ، حتى اذا مررت قال بوقار
ولهجة خاصة :

- تفضل !

فزارت أقول وأنا أرفع يدى ولكن دون أن أهوى بها :

- أنت وغد • وسيدك وغد آخر ، فقل له هذا فوراً •

أضفت هذه الجملة الأخيرة وأنا أدرك السلم مسرعاً •

- لا يحق لك ! ولو نقلت كلامك الى « السيد » فوراً ، لاستطاع
« السيد » أن يرسلك الى مخفر الشرطة حالاً مع بطاقة منه • أما تهديدى
أنا ، فلا يحق لك ...

هبطت السلم • انه سلم مترف عريض مكشوف • فيمكن أن أرى
من أعلى نازلاً على السجادة الحمراء • فكان الخدم الثلاثة قد خرجوا
وانكثوا بأكواعهم على قمة الدربزين ينظرون الى انسحابى • وقد قررت
أن ألزم الصمت طبعاً : كيف أشاجر خدماً ؟ ووصلت الى تحت ، دون أن
أتعجل الخطى ، وانما أتمد البطء فيما أظن •

رب حكماء (شيطان يأخذهم !) يقولون ان هذا كله حساسية لا داعى

اليها ، وتأذ فى غير محله ، وحق لا يصدر الا عن أغرار ! قد يكون هذا الكلام صحيحاً . غير أن الأمر كان بالنسبة الى جرحاً عميقاً ، جرحاً لم يمكن ان يندمل حتى الآن ، حتى فى هذه اللحظة التى أكتب فيها بعد أن انتهى كل شيء ، بل انتقم لكل شيء . يميناً يميناً ما أنا بالحقود ولا بمن يتحرق الى الانتقام . صحيح أننى أشتهى دائماً ، الى حد التألم ، أن أنتقم ممن ينالنى باهانة . ولكننى أحلف لكم أننى بالسماحة أنتقم . اننى أرد على الاهانة رداً فيه سماحة ، فيكفينى أن يشعر المسىء وأن يدرك أننى كنت سمحاً كريماً ، حتى أحس أننى انتقمته منه . يجب أن أضيف فى هذه المناسبة أننى لا أتحرق الى الانتقام ، ولكننى حقود وان أكن سمحاً كريماً : هل يشبهنى فى هذا جميع الناس ؟ لقد وصلت الى بيت الأمير ف . . سكى فيأض النفس بعواطف كريمة . . قد تكون عواطف مضحكة . . لا مانع . . ولكن لأن يكون المرء مضحكاً ولكن على شهامة ، خير من ألا يكون مضحكاً ولكن على دناءة ووضاعة !

لم أحدث أحداً عن هذا اللقاء الذى تمّ بينى وبين « أخى » ، ولم أكشف به حتى ماريا ايفانوفنا ، ولم أبح بسرّه حتى لليزا حين جئت الى بطرسبرج . كان ذلك اللقاء بمثابة صفة أليمة جللتنى بالخرى والعار . ثم هأنذا أقع فجأة على هذا السيد فى ظروف يا لها من ظروف عجيبة ! وها هو ذا يتسّم لى ، ويرفع قبعته احتراماً ، وينزع حتى نظارته تودداً ، ويقول لى فجأة بلهجة فيها صداقة : « مساء الخير » (بالفرنسية) . ان هذا يبعث على التفكير والتأمل طبعاً . . . ولكن الجرح انتكأ ونزف !

بعد الانتظار فى المطعم مدةً تزيد على أربع ساعات وجدتني كمن أصابته نوبة على حين فجأة ، فاذا أنا أخرج واتجه مسرعاً الى بيت فرسيلوف . انه لم يرجع الى البيت . وكانت الخادمة سأمانة ، فرجتني أن أرسل اليها داريا أوئيسيموفنا بسرعة . هه ! هذا ما كان يشغل بالي ! وذهبت الى بيت ماما أيضاً ، ولكنني لم أدخل ، وانما استدعيت لوكيريا الى البدهليز ، فعلمت منها أنه لم يجيء ، وأن ليزا غابت . ولاحظت أن لوكيريا كانت تود لو تسألني أيضاً ، بل لعلها ودّت لو تمهد الى بمهمة ، ولكن هل كان يمكنني أن أصغى اليها ؟ هناك أمل أخير : لعله ذهب الى بيتي . ولكنني لم أصدّق أن يكون قد ذهب الى بيتي !

سبق أن قلت ان عقلي كان اضطرب واختل تقريباً . وهأنذا أجد في غرفتي : آلفونسين والمؤجر . بل قل انني وجدتنيما يخرجان من غرفتي . وكان بطرس هيبوليتوفتش يحمل شمعة .

صرخت أقول له :

ـ ما هذا ؟ كيف تجاسرت أن تدخل الى غرفتي هذه التافهة ؟

فهمت آلفونسين تقول بالفرنسية :

ـ « غريب ... والأصدقاء ؟ » .

فزأرت قائلاً :

- اخرجى من هنا •

- « دب حقاً » •

وفرت الى الممر متظاهرةً بالخوف ، واختفت فى غرفة صاحبه
البيت • واقترب منى بطرس هيبوليتوفتش بهيئة قاسية وهو يحمل
شمعدانه :

- اسمح لى أن ألفت نظرك يا آرКАДى ماكاروفتش الى أنك قد
أسرفت فى الاندفاع • ومهما يكن احترامنا لك ، فإننا لا يسعنا الا أن
نذكرك بأن مدموازيل آلفونسين لا توصف بالتافهة • بالعكس ! انها لم
تجىء لتزورك أنت بل لتزور زوجتى • لقد تعارفتا منذ بعض الوقت •
فكررت سؤالى وأنا أمسك رأسى الذى أصابه ما يشبه الصداغ
فجأة :

- ولكن كيف تجاسرت أن تدخلها غرفتى ؟

- مصادفة ! • • دخلت أنا لأغلق كوة النافذة التى كنت قد فتحتها
لتهوية الغرفة ، واذا كنا مستمرين فى الحديث الذى بدأناه أنا وآلفونسين
كارلوفنا ، فقد دخلت الغرفة معى متابعةً كلامها ، دون أن تشعر •

- هذا كذب • آلفونسين جاسوسة • ولامبير جاسوس • وربما كنت
أنت أيضاً جاسوساً • لقد جاءت لتسرق شيئاً •

- قل ما شئت • اليوم تقول شيئاً ، وغدا تقول شيئاً آخر • أريد
أن أبلغك أنتى أجرت مسكنى الشخصى ، أجرتة الى حين ، وسنقيم
أنا وامراتى فى حجرة المكتب • ويترتب على هذا أن آلفونسين كارلوفنا
هى الآن من سكان البيت تقريباً ، مثلك •

هتفت أسأله مرتاعاً :

- أجرت مسكنك للامير ؟

فابتسم تلك الابتسامة الطويلة التى لاحت فى وجهه عند الصباح
ولكن فيها الآن نباتاً لم يكن لها حينذاك ، وقال :

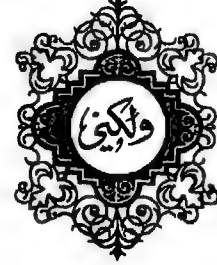
- لا ، لم أؤجره للامير • أظن أنك تعرف لمن أجرتة ، وانما أنت
تتظاهر بالجهل تفكهاً وتسلية ! واذا غضبت فمن باب التقيد بالشكل •
ليلتك سعيدة •

- نعم ، نعم ، دعنى هادئاً •

وحرّكت يديّ متمللاً ، وكدت أبكى من شدة ضيقى ، فلم
يسعه الا أن يدهش وهو ينظر الى • ولكنه خرج • فدفعت الزلاج ،
وتهالكت على سريري ، ودفنت وجهى فى الوسادة • كذلك انقضى ذلك
اليوم الأول الرهيب من الأيام الثلاثة المشئومة التى تختم مذكراتى •

الفصل العاشر

١



سأستبق الأحداث مرةً أخرى • انى أرى أن من الواجب منذ الآن أن أزود القارىء ببعض المعلومات ، لأن المجرى الأساسى لهذه القصة قد دخلت فيه أحداث عارضة تبلغ من الوفرة أن

القارىء يمكن ان يتوه ما لم 'يزوّد' ببعض الايضاحات سلفاً • ما ذلك « الكيس » الذى أشارت اليه ثانيانا بافلوفنا ؟ ان آنا آندريفنا قد رأت أخيراً أن تقدم على خطوة هى أجراً خطوة يمكن تصورها فى هذا الوضع • امرأة جسور حقاً ! لقد نقل الأمير العجوز ، بخجة المرض ، الى تسارسكوييا سيلو ؟ وترتب على ذلك أن نبأ اعتزامه الزواج بآنا آندريفنا لم يتح له أن يذيع فى المجتمع وانما اختنق فى مهده ان صح التعبير • ولكن الشيخ الضعيف الذى يمكن للمرء أن يفعل به كل شيء ، ما كان له ، رغم ذلك ، أن يوافق بحال من الأحوال على أن يتخلى عن فكرته وأن يخون آنا آندريفنا التى طلبت أن يتزوجها • لقد كان من هذه الناحية فارساً • وفى وسعه ، عاجلاً أو آجلاً ، أن ينهض فجأة ، فيضع نيته موضع التنفيذ بقوة جبارة لا سبيل الى السيطرة عليها ، كما يحدث ذلك للطباع الضعيفة فى أحيان كثيرة ، لأن ثمة حدوداً لا يجوز أن ندفعهم الى ما وراها • ولقد كان الشيخ يدرك عدا ذلك تماماً الادراك أن وضع آنا آندريفنا التى يحترمها احتراماً عظيماً وضع حرج ، كما يدرك أيضاً أن هناك نمائم يمكن أن تذاع ، وسخریات يمكن أن تنطلق ، وشائعات أن تروج • والشئ

الذى كان يهدئه ويوقفه الآن هو أن كاترين نيقولايفنا لم تسمح لنفسها
أبدًا ، لا تصريحًا ولا تلميحًا ، أن تقول أمامه أى رأى سىء فى
آنا أندريفنا ، ولا أن تبدى أى اعتراض على اعتزامه الزواج بها .
بالعكس : كانت تبدى فرحًا كبيرًا ، وكانت تحيط خطيبة أبيها بالكبر
الرعاية وأعظم الاهتمام . وهكذا كانت آنا أندريفنا فى موقف دقيق غاية
الدقة ، فهى بما تملكه من رهافة الحس ، تدرك أنها إذا قامت
بأى هجوم على كاترين نيقولايفنا التى يحبها الأمير أعظم الحب أيضًا ،
ويحبها اليوم أكثر مما أحبها فى أى يوم ، لاسيما وأنها سمحت له بالزواج
مبرهنةً على ذلك القدر كله من الكرم والاحترام ، فانها ستجرح أرق
مشاعرها ، وستجعلها تشك فيها بل تستاء منها . على هذا الميدان اذن انما
كان يقوم القتال الآن : فالخصمان - أى آنا نديفنا و كاترين نيقولايفنا -
انما يحاربان بسلاح المجاملة والصبر . والأمير ، من جهته ، لا يدري
أى المرأتين أروع من الأخرى وأدعى الى الإعجاب ! وعلى عادة جميع
الرجال الضفاف ، الذين لهم مع ذلك قلوب رقيقة ، انتهى به الأمر الى
التألم واتهام نفسه بكل شىء . ويقال ان كآبته قد وصلت الى حد المرض ،
وان أعصابه تهدمت ، فبدلاً من أن يجد فى تسارسكوي الشفاء ، أو شك
أن يلزم فيها الفراش فيما قيل .

أحب أن أشير هنا ، مستطرداً ، الى شىء لم أعلم به الا بعد مدة
طويلة ، هو أن بيورنج ، فيما يقال ، قد اقترح على كاترين نيقولايفنا أن
يقتادا المعجوز الى الخارج ، بعد أن يهيئه لذلك بحيلة من الحيل ، ثم يكون
من السهل عليهما هناك ، فى الخارج ، أن يحصلا على شهادة من أطباء .
ولكن هذا ما لا تقبله كاترين نيقولايفنا بحال من الأحوال . أو ذلك ما قيل
فيما بعد ، حتى ليقال انها رفضت الاقتراح مستائة . وتلك شائعة بعيد
عهدا ، لكننى أصدّقها .

فلما صارت القضية الى هذا الطريق المسدود ، علمت أنا أندريفنا من
لامير ان هناك رسالة تسأل فيها البنت أحد رجال القانون عن وسيلة يمكن
أن تعتمد اليها لاعلان أن أباه مجنون . فاذا بروحها التكبرة الانتقامية
تحتاج أشد الاهتاج على حين فجأة . وتذكرت ما سبق أن دار بيني وبينها
من أحاديث ، وقرّبت بين تلك الأحاديث وبين طائفة كبيرة من الأحاديث
الصغيرة فلم يخامرك شك في أن هذا النبأ صحيح . فاذا بخطة للهجوم
تنضج في قلبها ، قلب المرأة الصلبة التي لا تلين ، واذا هي تجدد نفسها
مدفوعة الى تنفيذ هذه الخطة دفعا لا سبيل الى مقاومته . وكانت الخطة هي
أن تكشف للأمير فجأة، بدون مداراة ومראה ، وبدون لف ودوران
عن القصة كلها ، فترعبه وتهزه هزاً قوياً ، وتبين له أن مستشفى المجانين
ينتظره حتماً . فاذا عند واستاء ورفض أن يصدق ، كشفت له عن قصة
رسالة ابنته قائلة له : « ان نية اعلان أنك مجنون قد سبق أن وجدت
في الماضي ، فكيف لا توجد الآن من باب أولى لمنك من الزواج ! » .
وبعد ذلك تنقل الشيخ المعجوز الى بطرسبرج مروّعاً مهدّماً مقتولاً ،
وتجىء به الى « بيتي أنا رأساً » .

هذه مجازفة رهيبة . ولكن أنا أندريفنا كانت تعتمد على قوتها اعتماداً
ثابتاً لا يتزعزع . ويجب أن أقول هنا ، مبتعداً عن الموضوع لحظة ،
ومستبقاً الأحداث استباقاً كبيراً ، ان ظنها لم يخطيء كثيراً فيما يتعلق
بقوة هذه الضربة . فان هذا النبأ كان له من التأثير في الأمير الشيخ
أكثر مما تصورت هي وتصورنا نحن أن يكون له من تأثير . ولم أكن
علمت أبداً الى ذلك الحين أن الأمير كان قد ترامى الى سمعه شيء عن تلك
الوثيقة ، ولكنه ، على ما هو معهود في جميع الرجال الضعاف الهيايين ،
لم يصدق تلك الشائمة بل دفعها عنه بكل ما يملك من قوة ، حفاظاً على
هدوئه وطمأنينته . ويجب أن أضيف أيضاً أن وجود الرسالة قد أثر في

كثيرين يقولوا يفنا تأثيراً رهيباً يفوق كثيراً ما كنت أتوقع أن يكون له من تأثير حينذاك ! ... الخلاصة أن تلك الورقة قد ظهر أنها أخطر شأنًا مما كنت أظن أنا الذي كنت أحملها مخططةً في جيبي • ولكنني أرى أنني أسرف في استباق الأحداث •

رب سائل يسأل : ولكن لماذا تجيء به الى بيتي رأساً ؟ لماذا تنقل الأمير الى غرفنا البائسة فترعبه في هذا الجو التيمس ؟ اذا كان نقله الى منزله مستحيلاً (لأن من الجائز أن 'يحبط المشروع كله هناك) ، فلماذا لا تهيم له مسكنًا « ثرياً » كما كان يقترح لامير ؟ هنا تكمن كل مجازفة الخطوة الحارقة التي قامت بها أنا آندريفنا !

كان الأمر الأساسي هو أن تطلع الأمير على الوثيقة منذ يصل • وكنت أنا لا أسلم الوثيقة بحال من الأحوال • ولأن على أنا آندريفنا ألا تضيع شيئاً من الوقت ، ولأنها تعتمد على سلطانها اعتماداً كبيراً ، فقد قررت أن تشرع في تنفيذ الخطوة قبل أن تملك الوثيقة ، على أن تجيء بالأمير الى بيتي رأساً • لماذا ؟ لكي تنقص عليّ أنا أيضاً ، فقتل بحجر واحد عصفورين كما يقول المثل • كانت تريد أن تعتمد الى أسلوب الصدمة والهزة والمباغطة معي أنا أيضاً • كانت تقدّر أنني متى رأيت الشيخ في بيتي ، ورأيت ارتباعه وحزنه ، وسمعت رجاءه ورجاءها ، فقد أمتسلم فأظهر الوثيقة • يجب أن أعترف بأن حسابها كان حاذقاً وذكياً ، وكان يقوم على معرفة بالنفس الانسانية ، واذا لم يكن قد نجح فقد أوشك • أما الشيخ فقد استطاعت أن تحمله على تصديقها بالأيمان تحلفها ، وأعلنت له أنها ستمضي به الى « بيتي أنا » • ذلك كله قد عرفته فيما بعد • ان مجرد ابلاغه أن الوثيقة عندي قد أزال من قلبه الوجع آخر شكوكه في صحة الواقعة : فالى هذا الحد كان يحبنى ويحترمنى !

يجب أن أذكر أيضاً أن أنا آندريفنا نفسها لم تشكل لحظة واحدة

فى أن الوثيقة لا تزال عندى ، وأنتى لم أتخلص منها بعد • والحق أنها قد أساءت فهم طبعى ، فكانت تعول بكثير من الاستهتار على سذاجتى وبراءتى وبساطتى، وحتى على فرط حساسيتى، وقد قدرت من جهة أخرى أنتى اذا قررت أن أسلم الوثيقة الى كاترين نيقولايفنا مثلاً ، فلا بد أن يكون هذا التسليم فى ظروف خاصة ، فكانت تريد أن تستبق هذه الظروف وأن تمنعها ، وذلك بالمفاجأة والهجوم المباغت والصدمة •

نم أن لامبير قد طمأنها عن هذا كله • سبق أن قلت ان وضع لامبير كان فى ذلك الحين حرجاً غاية الحرج ، دقيقاً أشد الدقة : لقد كان ، هو الخائن ، يريد أن يصرفنى عن آنا أندريفنا ، ويحملنى على بيع الوثيقة لأخماكوفا بالاتفاق معه ، لأن ذلك يعود عليه بربح أكبر • لكنه وقد لاحظ أننى ظلمت أرفض الى آخر لحظة أن أسلم شيئاً بحال من الأحوال ، قرر أن يساعد حتى. آنا أندريفنا من أجل ألا يفقد أى ربح • لذلك أخذ يستमित فى تقديم خدماته لها ، حتى لقد عرفت أنه عرض عليها أن يجيئها بكاهن عند اللزوم ••• ولكن آنا أندريفنا ابتسمت له ابتسامة احتقار ، ورجته أن يخفف من قوة حماسته ونشاطه • كان لامبير يبدو لها رجلاً كريهاً مقيتاً ، ولا يوقظ فى نفسها الا اشمئزاً وتقزراً • لكنها قبلت خدماته على سبيل الحكمة والروية والحذر • وكانت هذه الخدمات هى أن يتجسس لها مثلاً ! يجب أن أقول فى هذه المناسبة اننى لا أدرى حتى هذه اللحظة هل كانوا قد اشتروا بطرس هيبوليتوفتش أم لا ، وهل قبض منهم أى شىء • ثمناً لخدماته أم هو دخل شركتهم ببساطة من باب حب المغامرة • ولكنه كان يتجسس على • أما امرأته فأنا أعلم علم اليقين أنها كانت تقوم بهذا التجسس •

سيدرك القارىء الآن أنتى ، رغم تحسبى قليلاً ، لم يكن فى وسعى أن أحزر أنتى سأجد الأمير المعجوز فى بيتى غداً أو بعد غد • اننى ما كان

لى أن افترض لى آنا آندريفنا جساره كهذه الجساره ! ان المرء يستطيع
أن يقول بالكلام ما يريد ، وأن يشير بالكلام الى أى شىء • أما أن يقرر ،
ويشعر ، وينفذ ••• فهذا يحتاج الى طبع خاص وشكيمة قوية !

أتابع :

استيقظت فى الغداة ضحى • لقد نمت نوماً عميقاً بلا أحلام • فلما
أفتت أحسست براحة كبيرة فى لجسمى ونفسى على السواء ، حتى لكأن
الأمس لم يوجد • قررت ألا أذهب الى بيت ماما ، وانما أمضى الى كنيسة
المقبرة رأساً • حتى اذا انتهت الجنائز رجعت الى أمى فلم أتركها النهار
كله • وكنت واثقاً ثقة تامة بأننى سألقاه عند ماما على كل حال ، فى ساعة
متقدمة أو فى ساعة متأخرة من النهار ، ولكننى سألقاه •

لم يكن فى البيت لا آلفونسين ولا المؤجر • لقد خرجا منذ وقت غير
قصير • ولم أشأ أن أسأل امرأة المؤجر ، وكنت قد قررت على كل حال
أن أقطع جميع صلاتى بهم ، وأن أترك هذا البيت فى أقرب وقت • لذلك
ما ان أنيت بالقهوة حتى عدت أغلق على نفسى الباب • ولكن الباب لم يلبث
أن قرع • فدهشت • وكان القارع تريشاروف •

فتحت له فوراً ، ودعوته أن يدخل وسرنى أن أراه • ولكنه
رفض أن يدخل وقال :

— كلمتان فقط أريد أن أقولهما لك على العتبة ••• أم الأفضل أن
أدخل ؟ أظن أن الكلام يجب أن يقال هنا همساً • ولكننى لن أجلس •
أراك تنظر الى معطفى الردى • لقد استرد لامبير منى المعطف •

كان يرتدى معطفاً عتيقاً باليساً طويلاً على فامته فعلاً • وقد وقف أمامى متسمرآ ، متجههم الوجه مهموماً ، واضعاً يديه فى جيبه ، دون أن يخلع قبعته :

- لن أجلس ! لن أجلس ! اسمع يا دولجوروكى ! لا أعرف تفاصيل • لكننى أعرف أن لامير يدبر لك مكيدة ، وهذه المكيدة قريبة نوشك أن تتم حتماً • أعلم هذا علم اليقين • فكن يقظاً • ان المجدور هو الذى زلّ لسانه فألح الى هذا الأمر • هل تتذكر المجدور ؟ انه لم يذكر لى نوع المكيدة ، فلا أستطيع أن أقول لك أكثر مما قلت • أنا لم أجيء اليك الا لأنبهك • الى اللقاء !

- ولكن هلاًّ جلست يا عزيزى تریشانوف ؟ صحيح أننى على عجلة من أمرى ، ولكن يسعدنى أن أراك •••

- لا ، لا ، لن أجلس • ولكننى سأذكر طول حياتى أنك أحسنت استقبالى • آه يا دولجوروكى ؟ لماذا خداع الناس ؟ انى قد ارتضيت لنفسى عامداً أن أرتكب أنواعاً من القذارات ، وأن أقوم بأعمال تبلغ من الدنائة أننى أستحى أن أسميها لك • نحن الآن نعمل مع المجدور ••• استودعك الله ••• اننى لا أستحق أن أجلس عندك •

- كفى يا تریشانوف ، يا عزيزى ••

- لا يا دولجوروكى ••• أنا الآن ذاهب للقيام بأعمال وسخة ، وسألهو بعد ذلك وأقصف • وقريباً سأحظى بمعطف أجمل من معطفى السابق أيضاً ••• وسأمضى أتنزه راكباً عربية • ولكننى سأظل أعرف بينى وبين نفسى أننى خجلت أن أجلس عندك لاعتقادى بأننى لا أستحق ذلك ، وبأننى أمامك دنىء سافل • سوف أحظى بلذة هذه الذكرى على الأقل ، حين أمضى أتبذل فى القصف واللهو بحقارة ونذالة • استودعك الله •

هياً • استودعك الله • لن أناولك يدى أيضاً • ان آلفوسين لا ترضى
أن تصافحنى • وأرجوك ألا تسعى الى ، وألا تحاول رؤيتى • هذا
شرط بيننا •

واستدار الفتى العجيب على كعبه ومضى • ليس يتسع وقتى الآن
للبحث عنه ، ولكننى قطعت على نفسى عهداً لأكتشفن مكانه بأقصى سرعة
مهما كلف الأمر ، متى فرغت من تدبير أمورى وحل مشاكلى •

لن أصف وقائع ذلك الصباح تفصيلاً ، رغم أن هناك ذكريات كثيرة
ينبغى حفظها • لم يجرى فرسيلوف الى الكنيسة • حتى لقد كان يمكن
للمرء أن يستتج من النظر الى وجوههم أنهم كانوا ، حتى قبل حمل
الجنمان ، لا يتوقعون أن يجرى الى الكنيسة • وقد صلت أُمى بحرارة ،
بل كانت غارقة فى صلاتها غرقاً كاملاً • ولم يكن أحد بجانب الجنمان
الا تاتيانا بافلوفنا وليزا • لكننى لا أصف ، لا أصف شيئاً • بعد الدفن ،
عاد الجميع الى البيت ، وجلسوا الى المائدة • فاستتجت مرة أخرى من
النظر الى وجوههم أنهم كن لا ينتظرنه على المائدة أيضاً • حتى اذا نهضنا ،
اقتربت من ماما ، وقبلتها بحرارة ، وتمنيت لها عيداً سعيداً ؛ واقتدت بى
ليزا ، ففعلت مثلى •

وهمست تقول خفية :

- اسمع يا أخى ، انهن ينتظرنه •
- أدركت هذا يا ليزا ، رأيته •
- سيأتى حتماً •

قلت لنفسى : لابد أن لديهن معلومات دقيقة • لكننى لم أسأل •
رغم اننى لا أصف عواطفى ، يجب أن أذكر أن هذا اللغز قد جثم ثقيلاً
على قلبى ، رغم كل ما كنت فيه من حسن المزاج • جلسنا جميعاً فى

الصالون ، الى المائدة المستديرة ، حول ماما • آه • • ما كان أعظم سعادتي بوجودي معها ونظري اليها ! وطلبت مني ماما فجأة أن أقرأ لها صفحة من الانجيل • فقرأت لها اصحاحاً من انجيل القديس لوقا • لم تكن تبكي ، حتى أنها لم تكن شديدة الحزن ، ولكن وجهها لم يكن روحانياً في يوم من الأيام بمقدار ما هو روحاني في هذا اليوم • وكانت تسطح في نظرتها اللطيفة فكرة ، ولكن لم يكن في هذه النظرة أى شيء من نفاد الصبر في انتظار أمر من الأمور • وجرت الأحاديث ثرةً لا ينضب لها معين • قيلت ذكريات كثيرة عن المتوفى • وذكرت عنه تاتيانا بافلوفنا طائفة كبيرة من الأمور كنت أجهلها الى ذلك الحين كل الجهل • فلو سجلت ما دار في ذلك الحديث لجمعت محصولاً وافراً شائقاً • حتى تاتيانا بافلوفنا تغيرت حالها : فهي الآن رقيقة جداً ، ملاطفة جداً ، بل هي هادئة جداً ، رغم أنها تكلمت كثيراً لتسلي ماما • لكن هناك أمراً تفصيلياً أذكره تذكراً واضحاً : كانت ماما جالسةً على الديوان ، وكان فوق منضدة صغيرة على يسارها صورةٌ يبدو أنها وضعت هنالك عمداً ، وهي أيقونة قديمة بدون مسند من معدن ، تمثل قديسين فوق رأسيهما هالتان • ان هذه الأيقونة كانت لماكار ايفانوفتش : كنت أعلم ذلك ، وكنت أعلم أيضاً أن المتوفى كان لا يفارقها أبداً وكان يعدّها ذات معجزات •

نظرت تاتيانا بافلوفنا الى الأيقونة عدة مرات ثم قالت فجأةً وهي تغيرٌ موضوع الحديث :

- اسمعى يا صونيا ، أليس الأفضل أن نضع هذه الأيقونة قائمة على المائدة مستندةً الى الحائط وأن نشعل أمامها شمعة ؟
قالت :

- بل هي على هذا الوضع أحسن •
- حقاً • والا كنا نسرف في الاحتفال •••

لم أفهم حيثذ شيئاً ، ولكن واقع الأمر أن ماكار ايفانوفتش قد أعلن
جهاراً منذ مدة طويلة أنه يورث آندره بتروفتش هذه الصورة ، فكانت
ماما تستعد لتسليمها اليه .

كانت الساعة قد بلغت الخامسة والنصف من الأصيل . وطال
الحديث . فاذا أنا ألاحظ في وجه ماما نوعاً من الارتعاش ، واذا هي
تنصب جذعها بسرعة وتضيخ بسمعها على حين كانت تاتيانا بأفلوفنا مستمرة
في كلامها لم تلاحظ شيئاً . فأسرعت التفت الى جهة الباب ، فما انقضت
لحظة حتى رأيت آندره بتروفتش في العتبة . انه لم يسلك طريق درج
المدخل ، وانما جاء من جهة سلم الخدم ، فمرّ بالمطبخ فالدهليز ، وكانت
أمى وحدها هي التي سمعت وقع خطاه . سأصف الآن كل مشهد الجنون
الذي أعقب ذلك ، حركة حركة ، وكلمة كلمة .

في البداية ، لم ألاحظ على وجهه ، من أول نظرة على الأقل ، أى
تغير . كان هندامه هو هندامه المألوف ، أى هنداماً اقرب الى الأنافة .
وكان يمسك بيده باقة أزهار غضة ، باقة صغيرة لكنها ثمينة . وقد اقرب
من ماما ومدّ اليها الباقة مبتسماً فنظرت اليه ماما بدهشة وجلة ، لكنها
قبلت الباقة ، ثم اذا بحمرة تنعش خديها الشاحين فجأة ، واذا بفرح
يسطع في عينيها .
قال :

— كنت أعرف أنك ستستقبلينى هذا الاستقبال يا صونيا .

واذ كنا قد نهضنا جميعاً عند دخوله فقد دنا من المائدة ، فجلس على
المقعد الذى كانت تجلس عليه ليزا ، والذى يقع على يسار ماما ، دون
أن يتبّه الى أنه يأخذ مكان شخص آخر . وهكذا كان موقعه بجانب
المنضدة التى كانت عليها الأيقونة .

- سلام على الجميع • يا صونيا ، لقد أصررت اصراراً مطلقاً على أن أحمل اليك هذه الباقة احتفالاً بعيد ميلادك • ولئن لم أجيء الى الجنائز ، فلكى لا أظهر أمام ميت باقة أزهار • لكننى أعلم أنك كنت لا تنتظرين مجيئى الى الجنائز • ولن يحقد على الشيخ لأننى جئت بأزهار ، ألم يأمرنا هو نفسه بالفرح ؟ أعتقد أنه الآن فى مكان ما بهذه الغرفة •

نظرت اليه ماما مستغربة • وكانت تاتيانا بأفلوفنا كمن طار صوابها
فسألته :

- من بهذه الغرفة ؟

- المتوفى • ولكن فلندع هذا الأمر • تعرفون ان الانسان الذى لا يؤمن بالمعجزات يكون أميل من غيره الى الايمان بالأوهام والخرافات • ولكن فلنجعل كلامنا يدور على باقة الأزهار : كيف حملتها الى هنا ؟ لا أدرى • لقد اشتيت عدة مرات أن أرميها على الثلج وأن أدوسها بقدمى •

ارتعدت ماما • وتابع هو كلامه يقول :

- اشتيت ذلك بقوة جنونية • رحمةً بى يا صونيا ، ورحمةً برأسى المسكين • لقد اشتيت ذلك لأن الباقة جميلة مسرقة فى الجمال • هل فى العالم أجمل من زهرة ؟ حملتها والثلج والجليد فى كل مكان • جليدنا والأزهار : تعارض ! ولكن ليس هذا ما يهمنى : فانما أنا اشتيت أن أدوسها بقدمى لأنها جميلة • يا صونيا ، سأغيب من جديد ، ولكننى سأعود بسرعة ، لأننى سأخاف ، فيما يخيل الى • سأخاف : ومن يشفينى من الخوف الا صونيا ؟ أين أجد ملاكاً مثل صونيا ؟ ولكن ما تلك الصورة هناك ؟ آ ••• أيقونة المتوفى ! تذكرت • ورنها عن أسرته ، عن جده • لم يفصل عنها طول حياته • أنا أعلم هذا • وأتذكر أنه أورتى

اياها • نعم ، أتذكر هذا تذكرًا واضحًا • • وأظن أنها أيقونة من أيقونات
« قدامى المؤمنين » • • أرني !

وتناول الأيقونة بيديه ، وقربها من الشمعة ، وأخذ يتأملها •
ولكنه بعد أن أمسكها بضع ثوان فقط ، وضعها على المائدة ، أمامه فى هذه
المرّة • كنت مذهوشاً مذهولاً • لقد أطلق هذه الجمل كلها على نحو ما كان
لأحد أن يتوقعه ، فكنت لا أستطيع أن أجمع شتات فكرى • ولكننى أتذكر
أن هلعاً يشبه المرض قد نفذ فى قلبى • وانقلب زعر أُمى الى حيرة
وارتباك ، والى شفقة وعطف • كانت ترى فيه امساناً بائساً قبل أى شىء •
آخر • لقد سبق له أن كان حديثه غريباً هذه الغرابة قبل الآن • وشجب
لون ليزا شحوباً هائلاً على حين فجأة ، وأومات لى برأسها اليه • ولكن
تاتيانا بافلوفنا هى التى كانت أكثرهن جزعاً • قالت تسأله بحذر :

— ولكن ماذا بك يا عزيزى آندره بتروفتش ؟

— حقاً لا أدري ماذا بى يا تاتيانا بافلوفنا العزيزة • هدئى روعك •
لا أزال أتذكر أنك تاتيانا بافلوفنا ، وأنت طيبة رائعة • ولكننى لم أجد
الا لأمكت دقيقة واحدة • اننى أود أن أقول لليزا شيئاً حسناً ، وأبحث عن
كلمة أقولها فلا أفلح ، مع أن قلبى مترع بكلمات لا أستطيع أن أقولها وهى
كلمات غريبة فى الواقع • يخيّل الىّ أننى ازدوج فأصبح اثنين ،
أصبح مثلين •

قال ذلك وهو ينظر إلينا جميعاً بوجه نجاد الى أقصى حدود الجدل ،
وبرغبة صادقة فى الإفصاح عما فى نفسه • وتابع كلامه يقول :

— الحقيقة أن فكرى يزدوج فيصبح فكرين اثنين ، وهذا ما أخشاه
كثيراً • لكان لى مثلاً يجلس الى جانبى • فأنا رجل عاقل معتدل ، ولكن
الآخر الذى بجانبى يصير على أن يقوم بعمل مستحيل ، أو عمل سخيف

جداً ، ثم اذا بي أشعر فجأةً أنني أنا الذى أريد أن أقوم بهذا العمل ، لا يدرى الا الله لماذا ! اريد ! اريد أن أقوم به رغم أنفى ، وارىد أن أقوم به وأنا أعارضه بكل ما أملك من قوة . عرفت ذات مرة طبيباً أخذ يصفر فى الكنيسة فجأةً أثناء الاحتفال بجنائزته . حقاً لقد خفت أن أجيء اليوم الى الجنائز ، لأننى قد رسخ فى عقلى اعتقاد جازم و يقين مطلق بأننى سأنطلق صافراً أو ضاحكاً أثناء الجنائز على حين فجأةً ، كما فعل ذلك الطبيب المسكين الذى كانت نهايته سيئة . وحقاً لا أدري لماذا لازمتنى ذكرى ذلك الطبيب طوال هذا اليوم ، لازمتنى ملازمة لم أستطيع منها فكاً . اسمعى يا صونيا ، هأنذا أعود فأمسك الصورة (كان قد أمسك بالصورة ثانيةً وأخذ يقلبها بين يديه) ، فهل تعلمين أنني ، فى هذه اللحظة بعينها ، تستبد بى رغبة جنونية فى أن أقذفها الى زاوية المدفأة ، فإذا هى تنكسر على الفور نصفين ، نصفين لا أكثر ولا أقل ؟

قال هذا بدون أى تصنع ، بدون أية رغبة فى الظهور . بل كان يتكلم ببساطة ، فكان ذلك يزيد الأمر هولاً . لكأنه خائف فعلاً من شيء . ولاحظت فجأةً أن يديه ترتجفان قليلاً .

هتفت ماما ضامةً يديها ضارعة :

— آندره بترفنش !

وقالت تاتيانا بافلوفنا وهى تتنفض :

— اترك ، اترك الصورة يا آندره بترفنش ! اتركها ! ضمها فى مكانها ! واخلع ثيابك ، وارقد فى سريرك . يا آرКАДى ، اذهب فاستدع الطبيب !

قال برفق وهو يشمّلنا جميعاً بنظرة واحدة :

— مع ذلك ... مع ذلك ، ما أشد اضطرابكم !

ثم وضع كوعيه على المائدة ، وتناول رأسه يديه ، وقال :

- اننى أخيفكم • ولكن اسمعوا يا أصدقائي • هلاً سررتمنى قليلاً ، فعدتم تجلسون ، وهدأتم جميعاً ، دقيقة واحدة ! صونيا ، ليس هذا ما جئت من أجل أن أقوله لك • أنا جئت لأبلغك شيئاً ، لكنه شيء مختلف عن هذا كل الاختلاف • استودعك الله يا صونيا • أنا راحل من جديد ، كما سبق أن رحلت مراراً • لاشك فى أننى سأعود اليك فى يوم من الأيام • بهذا أنت لابد منك ، ولا غنى عنك • لمن عسى أرجع ، حين يكون كل شيء قد انتهى ؟ صدقنى يا صونيا أننى جئت اليك اليوم كما يجرى المرء الى ملاك لا الى عدو : هل يمكن أن تكونى عدوتى ؟ كيف يمكن أن تكونى عدوتى ؟ لا تصدقنى اننى أريد أن أحطم هذه الصورة ، لأننى فى الواقع ، يا صونيا ، تستبد بى ، رغم كل شيء ، رغبة قوية فى تحطيمها

حين هتفت تاتيانا بأفلوفنا قائلة له منذ قليل : « اترك الصورة » ، فانها كانت قد انتزعت الصورة من يديه ، وظلت تمسكها بيدها • فهاهو ذا آندره بتروفتش ، بعد أن نطق بأخر كلمة ، يشب من مكانه فجأة ، ويخطف الصورة من يدي تاتيانا بأفلوفنا فوراً ، ويشهرها بوحشية ، ثم يهوى بها على زاوية المدفأة بكل ما أوتى من قوة ، فاذا بالأيقونة تنكسر نصفين تماماً • وعاد يلتفت إلينا بفتنة ، فكان وجهه الشاحب قد احمر احمراراً شديداً ، وكانت كل قسمة من قسماات وجهه تختلج :

- لا تنظرنى الى عملى نظرتك الى رمز يا صونيا • ليس ميراث ماكار هو ما حطمته ، وانما حطمت بدون هدف غير التحطيم ولكننى سأعود اليك رغم كل شيء ، سأرجع الى ملاكى الأخير • على كل حال ، عدنى عملى رمزاً اذا شئت ، فانه رمز أيضاً !

وخرج من الغرفة بخطى متعجلة ، ومضى عن طريق المطبخ فى

هذه المرة أيضاً (وكان قد ترك بالمطبخ معطفه وطاقته) • لن أقص عليكم ما حدث لماما تفصيلاً • لقد هبّت واقفة وقد اعتراها رعب قاتل ، ورفعت يديها فعمدتها على رأسها ، وصرخت تقول له فجأة :

- آندره بتروفتش ، تعال ودّع على الأقل يا عزيزى !

فصاحت تاتيانا بأفلوفنا تقول لها وقد أخذت ترتعش ارتجاشاً شديداً ، واعترتها نوبة خنق رهيب ، خنق حيوانى :

- سيرجع يا صونيا ، سيرجع • أما سمعت ما قاله ؟ لقد وعد بأن يرجع • دعى للمجنون المسكين أن يتجول مرةً أخيرة ! حين يدب إليه الهرم ، وحين يصبح كسيحاً ، فمن ذا الذى سيدلله غيرك يا خادمته القديمة ؟ انه يعلن هذا جهاراً ، لا يساوره خجل •••

أما عسا نحن ، فان ليزا قد أغمى عليها ؛ وأنا أردت أن أركض وراءه ، لكننى ارتويت على ماما أضمها بذراعى • وهرعت لوكيريا لتأتى الى ليزا بكأس ماء • ولكن ناما لم تلبث أن أنافت من اغماها ، فتهاوت على الديوان ، وغطت وجهها يديها ، وطفقت تبكى •

وصاحت تاتيانا بأفلوفنا تقول بأعلى صوتها :

- أدركه ، أدركه على كل حال • هيّا •• أدركه ، لا تتركه خطوة واحدة ، هلم ••• ماذا تنتظر ؟ هل أنا التى يجب أن أركض وراءه اذن ؟

وكانت تبذل كل ما تملك من جهد لانتزاعى من ماما •

وصرخت أُمى تقول هى أيضاً على حين فجأة :

- بئى آر كادى ، هلمّ اركض وراءه ، أسرع !

فخرجت مسرعا ، عن طريق المطبخ والفناء أيضاً • لكننى لم أجده

فى أى مكان • كان قد اختفى • وعلى الرصيف فى بعيد ، كانت تتراعى فى
الظلام بقم سوداء هى قامات المارة ، فاندفعت أدركها ، وأخذت أتفرس
فى وجه كل واحد متى وصلت إليه ، ثم أمضى أتفرس فى وجه آخر ،
وهكذا دواليك ، الى أن بلغت منعطفاً •

« لا يفضب أحد من مجنون • وإذا كانت تاتيانا يافلوفنا مستعرة
الفضب منه ، فمعنى ذلك أنه ليس بمجنون البتة • • • • » تلكم هى الفكرة
التي برقت فى ذهنى • بدا لى أن ذلك كله كان « رمزاً » ، وأنه انما أراد
أن ينتهى من شىء ما ، كما انتهى من تلك الأيقونة • ولكن لاشك أن
« مثله » كان بجانبه أيضاً • • • •

لم أقع عليه فى أى مكان • ولا يُقبل أن أركض الى بيته ، فمن الصعب على المرء أن يتصور أنه رجع الى بيته وكفى ! وعرضت لى فكرة على حين بقتة ، فهرعت الى بيت آنا آندريفنا •

كانت آنا آندريفنا قد عادت الى البيت ، فأدخلت عليها فوراً • وقد دخلت عليها محاولاً أن أسيطر على نفسى ما أمكنتى ذلك • وبدون أن أجلس ، قصصت عليها المشهد الذى رأيته كله ، أى حكاية « المثل » تلك • فلن أُنسى ما حييت ، ولن أغفر لها ما حييت أنها كانت تصنى الى كلامى بشراة شديدة ، ولكن بهدوء لا رحمة فيه ، وطمأنينة لا تمكر صفوها عاطفة • ولقد أصفت الى حديثى واقفةً هى أيضاً •

ختمت حديثى أسألها ملحاً :

— أين هو ؟ لعلك تعلمين ؟ لقد أرادت تاتيانا بافلوفنا أن ترسلنى اليك أمس •••

— ذلك أننى كنت أريد أمس أن أراك • أمس ذهب الى تسارسكوياء وجاء الى " أيضاً • أما الآن •••

قالت ذلك ونظرت الى ساعتها وأردفت :

— الساعة الآن هى السابعة • فلا بد أنه فى بيته حتماً •

— أرى أنك تعلمين كل شئ • فتكلمى ، تكلمى !

- أعرف أشياء كثيرة ، لكننى لا أعرف كل شيء • ليس هناك
ما أخفيه عنك طبعاً ...

وشغلتنى بنظرة غريبة وهى تبسم وتظاهر بالتفكير • وأردفت :
- رداً على رسالة كاترين يقولاننا ، كتب اليها بالأمس يخطبها
رسمياً •

فحملت عيني قائلاً :

- لا يمكن !

- عن طريقى وصلتها الرسالة • أنا التى سلّمتها اليها مخومة •
فى هذه المرة تصرف كما يتصرف « فارس » ولم يكتف عني شيئاً •
- أنا أندريفا ! لا أفهم !

طبعاً • أمر يصعب فهمه • ولكن مثله فى هذا كمثل مقامر يرمى
على المائدة آخر قرش ، ويمسك فى جيبه سدساً مهياً • ذلك هو معنى
العرض الذى تقدم اليها به • احتمال الرفض تسعة خطوط من عشرة •
ولكنه يعتمد على الحظ العاشر • ولا أكتمك أننى استغربت ... لعله كان
خارجاً عن طوره : لعل « المثل » الذى وصفته أحسن وصف كان
بقره !

- وتضحكين أيضاً ؟ كيف يمكن أن أصدق أنك أنت التى أوصلت
الرسالة ؟ ألسنت خطيبة أبيها ؟ رحماك أنا أندريفا !

- رجائى ان أضحى لسعادته بسعادتى • بل قل انه لم يرجئى
رجاء صريحاً ، فأنما تمّ الامر بصمت ، لكننى قرأت فى عينيه كل شيء •
وما استغرباك ؟ ألم يذهب الى أمك بمدينة كونجسبرج يطلب منها أن
تأذن له بتزوج ابنة زوج مدام أخمأكوفا ؟ ذلك شبيه بما عمد اليه
أمس ، اذ اختارنى مندوبة عنه ونجية له •

كانت شاحبةً بعض الشحوب • ولكن هدوءها كان يعزّز سحريتها •
وقد غفرت لها كثيراً فى تلك اللحظة ، حين أخذت أفهم الأمور شيئاً فشيئاً •
واسترسلت فى التفكير دقيقة ، فكانت صامتة تنتظر •

قلت ضاحكاً على حين فجأة :

— اسمعى ، لقد أوصلت أنت الرسالة لأُملك لانتجازفين بشيء ،
فالزواج لن يتم مهما يكن من أمر ولكن هو ؟ وهى ؟ لاشك أنها لن تلتفت
الى طلبه ، وحينئذ •• حينئذ ، ماذا يمكن أن يحدث ؟ أين هو الآن
يا أنا أندريفنا ؟ ان كل دقيقة لثمينة ، وفى كل لحظة يمكن أن تقع مصيبة !

— قلت لك انه فى بيته • ففى رسالته التى سلّمتها أمس الى كاترين
يقولايقنا ، رجاها « على كل حال » أن تمن عليه ببقاء فى بيته ، الساعة
السابعة من هذا المساء • وقد وعدته بأن تجيء اليه فى الموعد المضروب •

— هى ، فى بيته ؟

— لم لا ؟ البيت بيت داريا أويسيمونسا • ففى امكانهما أن يلتقيا
فيه زائرين لها •

— لكنها تخاف منه ••• قد يقتلها !

— ان كاترين يقولايقنا رغم كل خوفها الذى لاحظته بنفسى
قد أضمرت دائماً ، حتى فى الماضى ، شيئاً من الاعجاب بنبل المبادئ •
وسمو الفكر لدى آندره بروفيتش • وقد وثقت به هذه المرة لتنتهى منه
الى الأبد • كما أنه ، من جهته ، قد حلف لها يمين الفروسية أنه لن
ينالها بسوء فما يجب أن تخشى شيئاً • لا أتذكر نص التعابير التى استعملها •
وانما المهم أنها وثقت به واطمأنت اليه ••• لأول مرة ان صح القول •
ولأول مرة ردت على مشاعره بمثلاً ، فكان اندفاعه بطولية قد تحققت لهما
كليهما •

هتفت أقول :

- والمثل ، والمثل ! ذلك أنه فقد عقله !

- لاشك أن كاترين يقولاننا ، حين وعدته أمس بالمجيء الى الموعد ، لم تقدر أن حادثاً كهذا يمكن أن يقع •

أدريت ظهري فجأة ، ووليت هارباً •• اليه •• اليهما طبعاً ! ولكنني لم ألبث أن رجعت من حجرة المدخل ثانية ، وتفرست في وجه آنا أندريفنا ، أختي ، وقلت صارخاً :

- أم تراك تريدان أن يقتلها ؟

أطلقت هذه الصرخة ، وخرجت من البيت راكضاً •

ورغم أنني كنت أرتعش ارتعاشاً شديداً كمن هو في نوبة حمى ، فقد دخلت الشقة بغير ضجة ، من المطبخ ، وطلبت من الخادمة أن تأتيني داريا أونيسيوفنا بصوت خافت • ولكن سرعان ما جاءت داريا من تلقاء نفسها ، فرشقتني صامتةً بنظرة مستفهمة رهبة ، وقالت :

- ليس مولاي في البيت •

لكنني ذكرت لها بوضوح ودقة ، هامساً هامساً سريعاً ، أنني أعرف كل شيء من آنا أندريفنا ، وأتني آتٍ من عندها •

- أين هما يا داريا أونيسيوفنا ؟

- في الصالون ، حيث كنتما بالأمس جالسين الى المائدة •••

- داريا أونيسيوفنا ، دعيني أذهب الى هناك •••

- كيف يمكنني هذا ؟

- لا أذهب الى هناك ، بل الى الغرفة المجاورة يا داريا أونيسيوفنا •

ان آنا آندريفنا تريد هذا أيضاً • فلو كانت لا تريد لما قالت لى انهما
هنا • لن يسمعننى • هى نفسها تريد هذا •••

قالت داريا أويسيموفنا دون أن تحول عنى بصرها :

— واذا كانت لا تريد ؟

فقلت مستعظفاً :

— داريا أويسيموفنا ، اننى أتذكر ابتك أوليا ••• دعينى أدخل •

فاذا بذقنها وشفقتها تأخذ بالاختلاج فجأة ، وقالت لى :

— يا عزيزى •• اكراماً لذكرى أوليا •• تقديراً لمواطنك ••

ولكن لا تتخلّ عن آنا آندريفنا يا عزيزى ! لن تتخلى عنها ، أليس
كذلك ؟ لن تتخلى عنها ؟

— لا ، لن أتخلى عنها •

— عاهدنى عهد الشرف أنك لن تدخل الصالون ، ولن تصرخ ،

إذا أنا خبأتك هناك •

— أحلف لك بشرفى يا داريا أويسيموفنا !

فأمسكت رديجوتى ، وقادتنى الى حجرة مظلمة ، مجاورة للفرقة

التي كانا فيها ، وسارت بى على سجادة طرية بدون ضجة الى ان بلغنا

الستارة ، فأجلستنى هناك ، وأزاحت ركناً من الستارة ، فكنت أراهما

كليهما •

انصرفت هى وبقيت أنا • طبعاً بقيت • لقد أدركت اننى أتصنت بنير

حق ، وأننى أتهجس على أسرار غيرى ، ولكننى بقيت • كيف لا أبقى

وأنا أعرف أن المشل موجود ؟ ألم يسبق لهذا المشل أن حطم الأيقونة

على مرأى منى ؟

كانا جالسين الى تلك المائدة نفسها التى شربنا عليها بالأمس نخب
 « انبعاته » معاً • وكانا متقابلين • اننى أميز وجهيهما تمييزاً واضحاً • كانت
 ترتدى فستاناً أسود ، وكانت جميلة هادئة المظهر على عادتها • وكان
 يتكلم ، فكانت تصفى اليه بانتباه شديد بشوش • حتى ليكن أن يكشف
 المرء فى وجهها شيئاً من خجل • ولا كذلك هو • فقد كان مهتماً
 اهتماماً شديداً • لقد وصلت وهما من الحديث فى قلبه ، لذلك لبثت برهة
 لا أفهم شيئاً • أتذكر أنها سأله فجأة :

– وهل أنا السبب فى ذلك ؟

فأجابها :

– بل أنا • أنت مذنب بدون أن تكونى مذنب • هذه أمور تحدث •
 وتلك هى الأخطاء التى لا تتفر ، ومرتكبوها يعاقبون فى جميع
 الأحيان تقريباً •

أضافت ذلك وهو يضحك ضحكة غريبة • وتابع كلامه يقول :

– لقد اعتقدت فى لحظة من اللحظات أننى نسيتك نسياناً تاماً ، فكت
 أضحك فعلاً من هواى الأحمق ••• ولكنك تعرفين هذا ! على كل حال ،
 فلم يعينى أن تتزوجى فلاناً أو فلاناً من الناس • لقد بعث اليك بالأمس
 رسالة أطلب منك فيها أن تتزوج • فلا تؤاخذينى • كانت تلك غباوة •

ولكن لم يكن لها عندى بديل • ما الذى كان يمكننى أن أفعله غير تلك
الغباوة ؟ لا أدرى •

قال ذلك وانفجر يضحك ضحكاً شاذاً ملتبساً وهو يرفع عينيه اليها
فجأة بعد أن كان يكلمها ناظراً الى جانب • لو كنت فى مكانها لآخافتنى
تلك الضحكة • أحسست بهذا • ونهض عن كرسيه فجأة وقال يسألها
بغته كأنما هو تذكر الأمر الجوهري :

- قولى : كيف أمكنك أن توافقى على المجيء الى هنا ؟ ان دعوتى
ورسالتى كلها ما كانتا الا حماقة ••• انتظرى : أظن أننى أستطيع أن
أحزر كيف وافقت على المجيء • ولكن لماذا جئت ؟ ذلك هو السؤال •
أنراك جئت عن خوف فحسب ؟

فقالته وهى تنظر اليه بحذر :

- جئت لأراك •

وصمت الاثنان كلاهما نصف دقيقة • وعاد فرسيلوف يجلس ،
ثم أخذ يتكلم بصوت رقيق ، لكنه مؤثر ، يكاد يكون متهدجاً ، فقال :
- منذ مدة طويلة لم أرك يا كاترين نيقولايفنا ••• منذ مدة
بلغت من الطول أننى أصبحت أتصور أنه يكاد يستحيل أن أجدنى فى ذات
يوم ، كما أجدنى الآن ، جالساً بقربك أنظر الى وجهك وأسمع صوتك ••
منذ سنتين لم ير أحدنا الآخر ، منذ سنتين لم يكلم أحدنا الآخر • كنت
لا أقدر أن أكلمك فى يوم من الأيام • على كل حال ، ما مضى فقد مضى ،
وما بقى اليوم سيزول غداً كدخان • ليكن ! اننى أقبل هذا ، اذ ليس عندى
له بديل •

ثم أضاف يقول لها فجأة كمن يضرع ضراعة :

- ولكن لا تنصرفى الآن بدون أن تقولى لى شيئاً • لقد نفختنى

صدقة حين قبلت أن نجيشي ، فلا تنصرفي قبل أن تحييني عن سؤال
سألقيه عليك !

— ما السؤال ؟

— لن يرى أحداً الآخر بعد اليوم أبداً • فماذا تخسرين إذا قلت لي
الحقيقة كلها مرة واحدة الى الأبد ؟ أجيبي عن سؤال لا يلقى العقلاء
أبداً : هل أحييتي في لحظة واحدة على الأقل ••• أم أرائي أخطأت
الظن ؟

احمرت كاترين فيقولاننا احمراراً شديداً • وقالت تعجبه :

— بل أحييتك •

توقعت أن تقول هذا : يا للصادقة ، يا للصريحة ، يا للمستقيمة
التي تقول الحقيقة !

وتابع يسألها :

— والآن ؟

— الآن لا أحبك •

— وتضحكين ؟

— لا • لئن ضحكت فوراً فقد كان ذلك برغم ارادتي ، لأنني كنت
أتوقع أن تسألني « والآن ؟ » ، فلما صدق توقعي ابتسمت ، لأن المرء
يبتسم دائماً حين يصدق توقعه •••

شيء غريب • ما رأيتهما قبل اليوم في مثل هذه الحصافة وهذا
الاحتراس ، ولا رأيتهما قبل اليوم شبه خجلى وشبه مستحبة الى هذا الحد !
وكان هو يلتمهما بعينه التهاماً •

— أعلم أنك لا تحييني ••• ولكن ألا تحييني البتة !

— ربما البتة ؟

ثم أضافت تقول بلهجة قاطعة ، دون أن تبترسم ودون أن تحمر :
- لا أحبك • صحيح أنتى أحبيتك ، ولكن حبي لم يطل • فما لبثت
أن كفت عن حبك ••

- أعرف ، أعرف • رأيت أن هذا ليس ما كنت فى حاجة اليه ••
قولى : ما الذى أنت فى حاجة اليه ؟ اشرحى لى مرة أخرى •••
- هل شرحت لك هذا من قبل ؟ ما أنا فى حاجة اليه ؟ انتى امرأة
عادية جداً • انتى امرأة هادئة •• أحب •• أحب الناس المرحين •
- المرحين ؟

- هانت ذا ترى أنتى عاجزة حتى عن التحدث معك • يخيل الى
أهلك لو أحبيتى حباً أقل ، لأحييتك •

وابترسمت خجلى مرة أخرى • كان يلتصق فى جوابها أكبر الصديق •
كيف لم تدرك أن هذا الجواب هو الصيغة التى تحدد علاقتهما تحديداً
حاسماً ، وتفسر كل شئ ، وتقطع بكل شئ ؟ وكم كان يجدر به ، هو ،
أن يفهم ذلك • ولكنه نظر وابترسم ابتسامة غريبة وأضاف يسأل :
- هل بيورنج مرح ؟

فأسرعت تجيبه :

- اطمئن • ما هو بالمرح البتة ! وانما أنا أتزوجك لأننى سأكون معه
أهدأ مما أكون مع آخر • ثم تبقى نفسى كلها لى أنا •

- يقال انك عدت تحيين حياة المجتمع وتشغفين بها ؟

- لا حياة المجتمع • فأنا أعرف أن مجتمعنا تسوده الفوضى كما تسود
كل ما عداه • ولكن المظاهر الخارجية تظل فيه أحلى ، فاذا كان المرء يحب
أن يعيش وكفى ، فالمعيشة فى المجتمع أمتع من المعيشة فى غيره •

- سمعت كلمة « الفوضى » هذه كثيرا ، فلا شك أنك خفت كثيرا
من الفوضى التي كانت تسود حياتي ... أصفاد ، وأفكار ، وسخافات ...
- لا ، ليس الأمر ذاك أبدا ...

- ما هو إذن ؟ قوله بصراحة ، ناشدتك الله !
- طيب ، سأقوله بصراحة ، لأننى أعبدك ذا فكر عظيم • اليك
الحقيقة : اننى لم أستطع أن لا أرى فيك شيئا مضحكا بشير انقطاع •
قالت ذلك واحمرت فجأة ، كأنما هى أحست أنها تورطت فى قلة
الاحتراس نورطا كبيرا •

قال آندره بتروفتش :
- لهذه الكلمة التى قلتها ، أستطيع أن أغفر لك أشياء كثيرة •
فأسرعت تضيف وهى تزداد احمرارا :
- لم أكمل كلامى • أنا المضحكة فى الواقع ... لا شيء الا لأننى
أكلمك كحمقاء •
- لا ، ما أنت بمضحكة ، وانما أنت امرأة من نساء المجتمع
فاسدة •

قال ذلك واصفر اصفرارا رهيبا • وتابع كلامه فقال :
- أنا أيضا لم أكمل كلامى حين سألتك لماذا جئت • فهل تريدان
أن أنهيه ؟ ان ثمة رسالة ، ان ثمة وثيقة تخلع قلبك هلما ؟ لأن أباك اذا
وقعت هذه الرسالة بين يديه ، يمكن أن يلعنك أثناء حياته ، وان يحرمك من
ميراثه شرعا فى وصيته • أنت خائفة من هذه الرسالة ... وقد جئتنى بحثا
عنها وسعيا اليها ...

تعلق بهذه الكلمات وهو يرتجف من رأسه الى قدميه ، حتى لتكاد
تصطك أسنانه •

فكانت تصفى اليه معبرة بوجهها عن سأم وألم • وقالت مدافعة عن
نفسها :

- أعلم أنك تستطيع أن تحدث لى أكدارا كثيرة ، ولكننى لم أجبى •
لأنك بالكف عن اضطهادى وتعذيبى بقدر ما جئت لأراك • بل لقد كانت
نفسى تضطرم رغبة فى لقاءك منذ مدة طويلة ...

وأضافت تقول فجأة ، كأنما تجرفها فكرة قاطعة بل عاطفة غريبة
مباغنة :

- غير أننى رأيتك على عهدى بك ...

- هل كنت تتوقعين أن تجدينى انسانا آخر بعد الرسالة التى تكلمت
فيها عن فساد خلقتك ؟ هل جئت الى هنا بغير خوف البتة ؟

- جئت لاننى أحيتك فى الماضى • ولكن لا تهددنى ، أرجوك •
ما بقينا مما ، فلا تذكرنى بأفكارى السيئة وعواطفى الرديئة • اذا أمكنك
أن تكلمنى فى غير هذا فساكون سعيدة جدا • قد يأتى دور التهديد ،
أما الآن فقل لى شيئا آخر ، أرجوك ! حقا لقد جئت لأراك وأنصت لك
دقيقة • فاذا كنت عاجزا عن هذا فاقتلنى قورا ولكن لا تهددنى ولا تعذب
نفسك أمامى ...

بهذا ختمت كلامها وهى تنظر اليه مترقة ترقبا غريبا ، كأنما هى
تفترض حقا أنه قد يقتلها •

ونهض أندره بتروفتش من جديد ، وراح يتأملها بنظرات حارة ،
ثم قال بلهجة قاطعة :

- سوف تخرجين من هنا بغير أية اسامة •

فايتسمت وقالت :

- نعم ، هذا عهد قطعته على نفسك •

- لا لأننى قطعت على نفسى عهدا فى الرسالة ، بل لأننى أريد أن أفكر فيك طول الليل •••

- تعذيا لنفسك ؟

- اننى استحضرت صورتك دائما حين أدخلو الى نفسى • وأظن أتحدث معك • وأذهب الى حانات ومواخير فاذا أنت تظهرين لى أيضا • ولكنك تضحكين منى دائما ، كما تفعلين الآن •

قال ذلك وكأنه خرج عن طوره • فصاحت تقول بصوت مؤثر وقد ارتسم على وجهها عطف قوى :

- أبدا ، أبدا ما ضحكك منك • واذا كنت قد جئت فلأننى حاولت بكل الوسائل ألا أجرح شعورك فى أمر من الأمور •

وأضافت تقول فجأة :

- لقد جئت الى هنا لأقول لك انى أحبك تقريبا •

ثم أسرعت تتدارك :

- معذرة ••• لعلنى لم أحسن التعبير عما أردت عنه •

فضحك وقال :

- لماذا لا تجيدين التظاهر ؟ لماذا أنت بسيطة كل هذه البساطة ؟

لماذا لست كسائر الناس ؟ ••• كيف يمكن أن يطرد أحد أحدا ثم يقول له : « أحبك تقريبا » ؟ •••

- ذلك أننى لم أحسن التعبير عما أردت التعبير عنه • ذلك أننى

ما وجدت يوما أمامك الا شعرت بخجل ولم أحسن الكلام ، ولئن لم أحسن التعبير حين قلت لك : « أحبك تقريبا » ، فذلك لأن الأمر كان غامضا فى ذهنى أيضا . هذا هو السبب فى انى قلت تلك الجملة ، رغم انى فى الواقع أحبك ... أحبك ذلك الحب « المشترك » الذى يحمله المرء لجميع الناس ولا يخجل من الاعتراف به أبدا ...

كان يصيح بسمعه اليها صامتا ولا يحول عنها نظره الحارة ، ثم استأنف كلامه فقال :

... لا شك أنتى أسىء اليك . هذا هو عيب الهوى الشديد . انى لأعرف شيئا واحدا هو اننى اذا كنت معك فقد انتهيت ، واذا غبت عنك فقد انتهيت أيضا . سببان أن أكون معك وأن أكون بدونك ، فأنت معى دائما حيثما تكونى . وأعلم كذلك أنتى أستطيع أن أكرهك أكثر مما أستطيع أن أحبك ... ثم انى منذ مدة طويلة أصبحت لا أفكر فى شيء . وأصبحت تستوى عندى جميع الأمور . كل ما آسف له هو أنتى أحبيت امرأة مثلك ...

كان قد وهن صوته ، وتابع كلامه يقول كالمخفق وهو يتسهم ابتسامة صفراء :

... ماذا تريدین ؟ انه لجنون منى أن أقول لك هذا الكلام . أظن أنتى مستعد أن أقف مسمرا على ساق واحدة مدة ثلاثين سنة اذا كان هذا يرضيك . أرى أنك تشعرين نحوى بشفقة . وجهك يقول : « لو استطعت لأحببتك ، لكننى لا أستطيع ... » . أليس هذا صحيحا ؟ لا ضير . لست بذى كبرياء . اننى مستعد لأن أقبل منك أية صدقة ، كشحاذ ، هل تسمين ؟ أية صدقة ... أنى لشحاذ أن يكون ذا كبرياء ؟ ...

فنهضت كاترين نيقولايفنا واقتربت منه ، ثم قالت وهى تلامس بيدها كفه وقد لاحت فى وجهها عاطفة لا يمكن التعبير عنها :

- صديقى ! اننى لا أستطيع أن أسمع مثل هذه الأقوال ! سأظل أفكر فىك طول حياتى تفكيرى فى أغلى انسان وأبلى قلب وأقدس شيء يمكن أن أحبه وأحترمه • آندره بتروفتش ! افهمنى ••• اننى لم أجدى الى هنا عبثا يا عزيزى ، يا من كنت وما تزال عزيزا على قلبى • لن أنسى أبدا ما أثرته فى نفسى من مشاعر أثناء لقاءاتنا الأولى • فلننفصل صديقين ، ولسوف تظل فى حياتى أجلا خاطرى شأنا وأحلاها مذاقا !

قال آندره بتروفتش :

- « فلننفصل ثم أحبك » • سوف أحبك ولكن فلننفصل •••

ثم قال وقد شحب لونه شحوبا شديدا :

- اسمعى • هبى لى صدقة أخرى : لا تحببى ، ولا تعيشى معى ، ولننقطع عن أن يرى أحدهنا الآخر الى الأبد • سوف أخفى متى أصبحت لا تريد أن ترى ، ولا أن تسمعنى •• ولكن •• ولكن •• لا تتزوجى » •

انقبض صدرى الى حد الألم حين سمعت كلامه • ان هذا الرجاء الساذج الذليل يوظف الشفقة فى النفس ويطعن القلب طعنا قويا بمقدار ما فيه من صراحة وما يشتمل عليه من استحالة • نعم ، انه يطلب صدقة حقا ! هل كان يستطيع أن يظن حقا أن رجاءه يمكن أن يلبي ؟ مع ذلك • نزل بنفسه الى حيث يرجو هذا الرجاء ، وحرص على طلب هذه الصدقة • ان هذا الدرك الأدنى من السقوط يشق على المرء أن يراه ! أما هى فان جميع قسماات وجهها قد تشوهت ألما • ولكنه قبل أن تنطق هى بكلمة واحدة ، استدرك يقول بصوت غريب تبدل فجأة فكأنه ليس صوته :

— سوف أدمرك تدميراً !

ولكنها اجابته بكلام لا يقل عن كلامه غرابة ، وبصوت كصوته تبدل
تبديلاً غير متوقع حتى لكانه ليس صوتها ، فقالت :

— اذا وهبت لك هذه الصدقة فسوف تنتقم فى المستقبل انتقاماً أفسى
من الانتقام الذى تهددنى به الآن لأنك لن تنسى أبداً أنك استجديتنى صدقة
وكنت أمامى شحاذاً ...

وختمت كلامها وهى تقذفه بنظرة تحد :

— لا أستطيع أن أسمع هذه التهديدات من فمك !

فأجابها برفق مبتسماً :

— « تهديدات من فمك » ، أى من فم شحاذ مثلك ! لقد كنت
أمزح • لن أصنع بك شيئاً • لا تخافى • انصرفى • أما تلك الوثيقة فسأبذل
جميع جهودى لأرسلها اليك • ولكن اذهبى • اذهبى ! • • • لقد بعثت
اليك رسالة حمقاء ، واستجبت أنت لتلك الرسالة الحمقاء ، فجئت :
فها نحن سواء : لا دائن ولا مدين !

وأضاف يقول لها ليدلها على الباب حين أرادت أن تخرج عن طريق
الغرفة التى كنت مختبئاً فيها وراء الستارة :

— من هنا !

قالت وهى تقف على العتبة :

— اغفر لى اذا استطعت •

فقال فجأة :

— اذا كتب لنا أن نلتقى صديقين فى يوم من الأيام ، فستذكر هذا
المشهد ضاحكين •

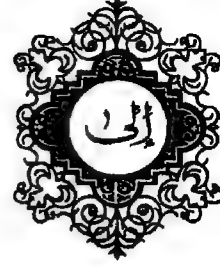
ولكن فسمات وجهها كلها كانت تختلج كمن اعترته نوبة •
هتفت تقول ضارعة الى الله وهى تضم يديها احدهما الى الأخرى ،
ولكنها تنظر الى وجهه وجلّة كأنما هى تحزر ماذا أراد أن يقول :
- أسأل الله أن يحدث هذا •

- انصرفى ! كلانا مفرط فى الذكاء • ولكنك • • • آه • • • أنت
من طيتى ! بعث اليك رسالة مجنونة ، فارتضيت أن تهجئى لتقولى انك
« تهجينى تقريبا » • لا ، لا ، ان بنا جنونا واحدا ! كلانا شاذ • ابقى
مجنونة دائما ، لا تتغيرى ، وسنعود نلتقى صديقين • اننى أتنبأ بهذا •
يمينا !

خرجت كاترين نيقولايفنا • فأسرعت الى المطبخ دون ضجة • ومن
غير أن أنظر تقريبا الى داريا أو نيسموفنا التى كانت تنتظرنى ، وبّت الى
الشارع نازلاً على سلم الخدم ماراً بالفناء • ولكن حين وصلت أنا الشارع
كانت هى قد ركبت العربّة التى كانت تنتظرها أمام الباب • فأخذت
أركض •

الفصل الحادي عشر

١



أين ؟ الى بيت لامبير !
مهما أشأ أن أسبغ طابعا منطقيا على سلوكي في
ذلك المساء وفي تلك الليلة ، ومهما أشأ أن
اكتشف فيه شيئا من سلامة العقل ، فاني حتى
في هذه اللحظة التي أستطيع فيها أن أرى الأحداث كلها جملة واحدة ،
أجدني عاجزا عن أن أعرضها بما يجب لها من تسلسل ووضوح . لا بد
أنني كنت تأتيا في عاطفة أو قل في سديم مضطرب من العواطف . بل
لا شك أن نمة عاطفة أساسية كانت تسحقني وتسيطر على جميع العواطف
الأخرى ، ولكن ... هل يجب أن أعترف بها ؟ لا سيما وانني غير واثق
كل الثقة ...

افتحمت بيت لامبير ، خارجاً عن طوري طبعاً ، حتى لقد أخفته هو
وصاحبه آلفونسين . لطالما لاحظت لدى الفرنسيين ، حتى لدى أشدهم
طيشاً وأكثرهم فجوراً ، أنهم في داخل بيوتهم حريصون أشد الحرص
على نوع من النظام البورجوازي ، وعلى طراز من الحياة مطرد رتيب تافه
يجري على وتيرة واحدة ولا يحبون أن يخرجوا عنه مرة . ولكن لامبير
سرعان ما أدرك أن شيئاً قد حدث ، فسرّه أن يراني في بيته وأن « يقبض
على ناصيتي » أخيراً . لقد كان لا يحلم الا بهذا طوال هذه الأيام ليل
نهار . ألا ما كان أحوجه الى ! ثم هأنذا ، بعد أن فقد هو كل أمل ،

أجيئه فجأة ، من تلقاء نفسى ، بل اجيئه وأنا على هذه الحالة من الجنون ،
اى على الحالة التى يريد لها !

صرخت أقول :

- خمرآ يا لامير ! اسفنى ! دعنى أعربد ! آلفونسين ، أين
قيارتك ؟

لن أصف المشهد ، فلا داعى الى ذلك . المهم أننا شربنا ، وقصصت
عليه كل شئ ، كل شئ . فكان يصغى الى كلامى بشراة . وقمت أنا
بالخطوة الأولى فاقترحت عليه تدبير مؤامرة ، اشعال حريق : نستدعى أولاً
كاترين نيقولايفنا برسالة ...

قال لامير مؤيداً وهو يختطف كل كلمة أقولها :

- هذا ممكن ...

قلت :

- وزيادةً فى ضمان نجاح المؤامرة ، يجب أن نبعث اليها فى تلك
الرسالة صورة عن « وثيقتها » لتستطيع أن تدرك أننا لا نفشها .

فقال لامير مؤيداً وهو لا يتفك يتبادل النظرات مع آلفونسين :

- تماماً ! هذا ما يجب أن نفعله .

قلت :

- وثالثاً ، يجب أن يكون لامير هو الذى يدعوها ، لشأن يخصه ،
منتحلاً صفة رجل مجهول آت من موسكو . وأجىء أنا بفرسيلوف .

فقال لامير :

- ربما نحضر فرسيلوف أيضاً ، نعم !

فصحت أقول معترضاً على قوله « ربما »

— لا ، لا ، ربما ، بل حتماً • هذا لا غنى عنه •

وأضفت موضحاً وأنا أجرع جرعة (لقد شربنا نحن الثلاثة ، لكننى أعقد اننى شربت زجاجة الشمبانيا كلها وحدى ، أما هما فكانا يتظاهران) :

— هذا كله من أجله هو • نجلس أنا وفرسيلوف فى الغرفة الأخرى • يجب الحصول على غرفة ثانية يا لامير ! حتى اذا جاءت اللحظة التى توافق فيها على كل شيء ، أى على الفدية المالية والفدية « الأخرى » ، لأنهن جميعاً حقيرات ، خرجنا أنا وفرسيلوف من مخبئنا وداهمناها فأقمتناها بحقارتها • وحينئذ يُشفى فرسيلوف ويطردها ركلا يقدميه • ولكننا فى حاجة الى بيورنج ، ليراها هو أيضاً !

أضفت هذه الجملة الأخيرة متحمساً • فقال لامير :

— لا ، بيورنج لا داعى اليه !

فصرخت أقول :

— بلى بلى ! أنت لا تفهم من الأمر شيئاً لأنك غبى يا لامير ! بالعكس : يجب أن تحدث فضيحة فى المجتمع الراقى : بذلك تنتقم من المجتمع الراقى ، ومنها • يجب أن تعاقب ! لامير ، سوف تعطيك كمبالة ... أنا لا حاجة لى الى المال ، أنا أبصق على المال ! أما أنت فسوف تنزل قدس المال فى جييك مخلوطا ببصاقى • وأكون أنا قد وضعت أنفها فى التراب !

كان لامير لا ينفك يقول مؤيداً :

— نعم ، نعم •

ويتبادل النظرات مع ألفونسين •

قلت متمتماً :

- لامبير ، انها تعبد فرسيلوف • رأيت هذا بنفسى منذ هنيهة ،
وأيقنت به •

- من حسن الحظ أنك رأيت كل شىء : ما كنت لأتصور أن لك
كل هذه الموهبة فى التجسس ، ولا أنك تملك كل هذا القدر من
الذكاء •

- أنت كاذب يا فرنسى • أنا لست جاسوساً ولكننى ذكى جدا •
ثم تابعت كلامى جاهداً أن أعبر عن فكرتى بمشقة وعناء :

- هل تعلم يا لامبير ؟ انها لن تتزوجه ، لأن بيورنج ضابط فى
الحرس ، أما فرسيلوف فليس إلا رجلاً كريماً سمحاً محباً للانسانية ،
أى هو فى نظرهم انسان مضحك لا أكثر ! آه... انها تفهم هذا الوله
وتفتن به سروراً ، وتفتح لفرسيلوف وتجتذبه وتغريه ، لكنها لن
تتزوجه ! انها امرأة ، انها أفعى ! كل امرأة أفعى ، وكل أفعى امرأة !
يجب أن نشفيه • يجب أن نسقط عن عينيه الغشاوة فيراها على حقيقتها
فيشفى • سأجىء به الى عندك يا لامبير •

فكان لامبير لا يزال يؤمن على كلامى ويملاً كأسى فى كل لحظة :
- حسن ، حسن !

كان يخشى أن أستاذ منه أى استياء ، كان يخاف أن يعارضنى ، وكان
يحرص على أن يسقينى مزيداً من الخمر ! وكان ذلك منه واضحاً أشد
الوضوح ، فلم أملك أنا نفسى الا أن ألاحظه • لكننى ما كان لى أن
أنصرف بحال من الأحوال • وظللت أشرب وظللت أتكلم • كنت أحترق
رغبة فى الإفصاح مرة عما يتمل فى نفسى ! وحين خرج لامبير ليحجىء

برجاجة ثانية ، عزفت آلفونسين على قيثارتها لحناً اسبانياً • فكادت تنهمر دموعى ، وقلت مخاطباً لامير بطاظة عميقة :

— يجب انقاذ هذا الرجل حتماً يا لامير ، لأنه ••• مسحور ! لو تزوجها ، فلسوف يطردها ركلاً بالقدمين منذ الصباح ، بعد الليلة الأولى • فهذا ما يحدث دائماً • ان هذا الحب الوحشى المسحور يوافى المرء كما توافيه نوبة ، ويفعل فيه كما يفعل فيه المرض ، فما ان يتهياً له الارتواء ، حتى تسقط الغشاوة وتنبجس العاطفة المناقضة : الاشتزاز والكره والرغبة فى الابداء والسحق • هل تعرف قصة آيساج يا لامير ؟ هل قرأتها ؟

— لا ، لا أتذكر • أهذه رواية ؟

— ذلك أنك لاتعرف شيئاً يا لامير • أنت جاهل جهلاً رهيباً ، جهلاً فظيماً ! ولكن لا يهمنى أن تكون جاهلاً أو أن تكون عالماً ! أوه ! انه يحب ماما ؛ لقد قبل صورتها • ولكن سيكون الأوان قد فات • لذلك يجب انقاذه منذ الآن •••

وأخيراً طفقت أبكى بكاءً مرّاً • لكننى ظلمت أهذر وأشرب • ما أكثر ما شربت ! الشيء الأساسى الذى يجب أن أذكره هو أن لامير لم يسألنى عن الوثيقة مرة واحدة ، طوال السهرة ، أقصد لم يسألنى : أين هى ؟ لم يطلب منى أن أريه اياها ، أن أبسطها له على المائدة • ألم يكن طبيعياً مع ذلك أن يلقى على هذا السؤال ونحن نتفق على القيام بعمل مشترك ؟ شيء آخر : لقد اتفقنا على أن نعمل كيت وكيت ، وقلنا اننا سنقوم بالعمل حتماً ، ولكن أين ، ومتى ، وكيف ؟ ذلك ما لم نقل عنه كلمة واحدة ! كان لامير لا يزيد على أن يؤيد كلامى ويتبادل النظرات مع آلفونسين • لا شيء عدا هذا ! صحيح أننى كنت فى ذلك الحين عاجزاً عن ادراك ذلك ، ولكننى أتذكره تذكراً واضحاً •

وفى النهايه تمت على الديوان ، بدون أن أحلع ثيابى • نمت مدة طويله جدء ، واستيقظت فى وقت متأخر جدا • اذكر أننى حين استيقظت ، ظلمت متمددا على الديوان زمناً كالشده • أحاول أن أجمع أفكارى وذكرياتى ، وأتظاهر بأننى ما زلت نائما • ولكن لامير كان قد خرج من البيت • كانت الساعة قد تجاوزت التاسعه • النار فى المدفأة تسمع طعقتها ، تماماً كالمره الماضيه ، حين فتحت عينى فى بيت لامير بعد تلك الليله المشثومه ! ولكن آلفونسين كانت ترصدنى وراء الحاجز : لاحظت ذلك فوراً ، لأنها نظرت الى وتفرست فى مرتين ، غير أننى كنت أغمض عينى وأتظاهر بالنوم • كنت أفعل ذلك لأننى أحس باكتئاب وأريد أن أعرف أين أنا من الأمر ؟ فما كان أشد عذابى حين تذكرت ، فأدركت فظاعة وحقارة ما أقدمت عليه فى الليل من اعتراف للامير ، واتفاق معه ••• وأدركت مدى خطئى وضلالى اذ جئت اليه أصلاً • ولكننى حمدت الله على أن الوثيقة لا تزال معى ، لا تزال مخيطة فى جيبى • لقد جسستها بيدى ، فأحسست بها ! فليس على اذن الا أن أثب وثبة واحدة ، فأولى هارباً • ولا داعى الى الخجل بعد ذلك من لامير ؟ فليس لامير بمن يستحق ذلك !

ولكننى كنت خجلان من نفسى ! لقد نصبت نفسى قاضياً أحاكم نفسى ! ما أشد الألم الذى كان يعصر قلبى ! على أننى لن أصف ذلك الشعور الجهنمى ، الذى لا يطاق ، لن أصف ذلك الاحساس بالخزى والتلطنخ والدناءة • ومع ذلك يجب على أن أعترف • فقد آن أوان الاعتراف فيما أعتقد • ويجب أن أسجل هذا الاعتراف فى مذكراتى • ألا فاعلموا أننى اذا كنت قد أردت أن ألوث شرفها بالعار ، واذا كنت قد هيات نفسى لرؤية المشهد الذى ستدفع فيه الفدية للامير (آه ••• يا للسفالة !) ، فان هذا لم يكن فى سبيل انقاذ ذلك المجنون فرسيلوف ، ولا فى سبيل

أن أردته الى ماما ، وانما ... لأننى ... ربما كنت أنا نفسى مولها
بحبها ، غيوراً عليها ! ممن كنت غيوراً ؟ ... من بيورنج ؟ من فرسيلوف ؟
من جميع أولئك الذين ستراهم وستحدثهم فى حفلة الرقص ، على حين
أكون أنا قابلاً فى ركنى ، شاعراً بالحزى من نفسى ؟ آه ... يا للقدارة !

الخلاصة أننى لا أعرف ممن كنت غيوراً . لكننى كنت أشعر ، بل
كنت قد أيقنت منذ مساء أمس ، كيقينى بأن اثنين واثنين أربعة ، أننى
فقدتها الى الأبد ، وأن هذه المرأة سوف تنبذنى وسوف تسخر من زيفى
ومن سخافتى . فهى امرأة صادقة ومستقيمة ، وأنا امرؤ متجسس ومخبىء
وثائق !

تلك حقيقة كتمتها مدة طويلة ، وقد آن لى أن أعترف بها الآن ...
هأنذا أعترف بها . لكننى أكرر مرةً أخرى ، ومرةً أخيرة ، أن نصف
هذا الاعتراف ، وربما ثلاثة أرباعه ، قد يكون تجنياً على نفسى ! اننى
فى تلك الليلة قد كرهتها كما يكره رجل مجنون غير مسئول عن أعماله ،
ثم كرهتها بعد ذلك كما يكره رجل أخذ به السكر كل مأخذ فانطلق
يتكلم كمن أصابه مس . وقد سبق أن ذكرت أن سديماً مضطرباً مشوشاً
من العواطف والاحساسات كان قد أغرقنى اغراقاً ، فلا أستطيع أن أعى
ما بقلبى ولا أن أدرك ما يعصف بنفسى عصفاً . ولكن لا بد لى مع ذلك
من هذا الاعتراف ، لأن جزءاً من هذه العواطف السيئة الفاسدة قد ملأ
نفسى حتماً .

وثبت عن الديوان مشمئزاً شمشزراً لا يغالب ، عازماً عزماً قوياً
على أن أمحو كل شئ . ولكن ما ان وثبت عن ديوانى ذلك اللوثوب حتى
هرعت الى ألفونسين . تناولت معطفى وقبعتى ، وقلت لها أن تبلغ لاميير
أننى كنت بالأمس أهذى ، وأننى تجنيت على تلك المرأة ، وأننى كنت

أمزح ، فحذار أن يبيع لنفسه أن تطأ قدماء بيتي في يوم من الايام •
قلت لها ذلك كله بالفرنسية متمجلاً كيفما أتفق ، وأغلب الظن اننى قلته
غامضاً مشوشاً ، فما كان أشد دهشتى حين رأيت آلفونسين تفهم عنى فهماً
كاملاً ؛ وأغرب من هذا أنها كانت تبدو مغتبطةً بكلامى ، مهللةً له •
قالت مؤيدة :

- • نعم نعم • ذلك عيب • سيدة محترمة • أنت رجل كريم !
اطمئن • سأوضح الأمر للامير ! • •

ولقد كان خليقاً بهذا التبدل الغريب المفاجئ فى عواطف آلفونسين ،
وربما فى عواطف لامير تبعاً لذلك ، أن يثير فى نفسى الشبهات • لكننى
خرجت صامتاً • لقد كنت مضطرب النفس ، وكنت لا أحسن التفكير •
ولقد أعدت النظر فى الأمر كله بعد ذلك ، ولكن كان قد فات الأوان !
يا. للمكيدة الجهنمية التى حيكّت لى ! اننى أتلث هنا قليلاً لأشرح
ما حدث ، والا عجز القارىء عن الفهم !

الواقع هو اننى منذ أن لقيت لامير أول مرة ، فى تلك الليلة التى
تدفأت عنده بعد تجلدى من البرد ، قد حكيت له (يا لغسائتى !) أن
الوثيقة مخيطة فى جيبى • ولقد نمت على ديوانه فى تلك الليلة بعض
الوقت فجأة ، فلم يلبث لامير أن جسّ جيبى ، فأيقن أن الورقة مخيطة
فيها فعلاً • واستطاع بعد ذلك مرراً أن يتأكد من أن الورقة لا تزال فى
مكانها • فأتناء عشائنا فى مطعم التتر مثلاً ، أتذكر أنه حضنتى عدة مرات ؛
فلما أدرك أخيراً ما لهذه الورقة من شأن خطير رسم خطة خاصة لم تخطر
ببالى قط • لقد كنت أتخيل دائماً (كما يفعل غيبى أحقق) أنه ان كان
يدعونى الى بيته دائماً بحماسة شديدة واصرار كبير ، فهو انما يفعل ذلك
ليستدرجنى الى الدخول فى عصابته والمشاركة فى عملها • ولكن الحقيقة
المؤسفة هى انه كان يدعونى الى بيته لغرض آخر ! كان يدعونى ليسكرنى

سكرآ شديداً ، حتى اذا رقدت غائبا عن شعورى وأخذت أشخر ، فصرّ جيبى واستولى على الوثيقة . وذلك ما فعلاه فى تلك الليلة هو وآلفونسين . قامت الفونسين بقص جيبى . فلما صارت الرسالة فى حوزتها ، أعنى « رسالتها » ، أعنى وثيقتى التى جئت بها من موسكو ، تناولا ورقة عادية من ورق الرسائل بحجمها نفسه ، فوضعاها فى مكان الرسالة ، ثم أعادا خياطة الجيب فى مكانه فكأن شيأ لم يحدث ، فلم ألاحظ أنا شيأ . ان آلفونسين هى التى أعادت خياطة الجيب . وظللت أنا ، انا الأحمق ، ظللت الى النهاية ، خلال يوم ونصف يوم ، أظن أننى ما زلت أملك السر ، وظلت أعتقد بأن مصير كاترين لا يزال بين يديّ .

كلمة أخيرة : ان سرقة الوثيقة كان سبب كل شيء ، كان سبب جميع المصائب الأخرى ا

اليكم الآن آخر أيام مذكراتي • انى أصل الى نهاية النهاية •

أظن أن الساعة كانت العاشرة والنصف حين وصلت الى مسكنى
محتاج الأعصاب ، ذاهلاً أكبر الدهول ، عاقداً عزمى على فرار حاسم •
ولم أتمجّل الخطى ، فقد كنت أعرف ماذا سأفعل • ولكن ما ان
وطئت قدماى الدهليز حتى رأيت أن الأمر قد دخل مرحلة جديدة : كان
العجوز قد نُقل من تسارسكوريا سيلو منذ قليل ، فهو الآن فى بيتنا ،
وبقربه أنا أندريفنا !

لم يسكنوه غرفتى ، بل الغرفتين المجاورتين لها ، أعنى غرفتى
المؤجر • وقد أحدثت بالأمس فى هاتين الغرفتين تغييرات وتجميلات ،
وان تكن طفيفة • وكان المؤجر قد نقل امرأته الى حجرة المستأجر المجدور
المتنمر الذى سبق أن تكلمت عنه ، كما نُقل هذا لا أدري الى أى
مكان •

لم يلبث المؤجر أن تسلل الى غرفتى ليستقبلنى • ان هيئته لا تنم
عمّا كانت تتم عنه بالأمس من حزم ، ولكنه كان فى احتياج شديد ،
احتياج من مستوى الأحداث ان صح التعبير • لم أكلمه ، بل انسحبت الى
زاوية الغرفة ، ووضعت رأسى بين يدى ، ولبثت على هذه الحال دقيقة •
فقدّر فى أول الأمر أننى أصطنع « وضعاً » ، ولكنه فى النهاية لم يطق
صبراً ، واعتراه الفزع ، فتمتم يسألنى :

- هل هناك شىء ؟

واذ لم أجبه أردف يقول :

- كنت أنتظرك لأسألك هل تريد أن نفتح هذا الباب فيكون اتصال
غرفتك بغرفتي الأمير مباشرة ... بدلا من المرور بالدھليز •

قال ذلك وهو يرينى بابا جانينا مغلقا ، يصل غرفتي بغرفته ، أى
بما هو الآن مسكن الأمير •

فقلت له برصانة ووقار :

- بطرس هيبوليتوفتش ، أرجو أن تتفضل فتمضى الى آنا آندريفنا
فورا ، فندعوها ان تجيء الى هنا لتتحدث معى قليلا • هل وصلا منذ
مدة طويلة ؟

- منذ زهاء ساعة

- طيب • اذهب الى آنا آندريفنا وقل لها ما أوصيتك به •

فذهب ثم عاد يحمل الى هذا الجواب الغريب ، وهو أن آنا آندريفنا
والأمير ينتظران أن أجيء اليهما بصبر فارغ • اذن لم تشأ آنا آندريفنا أن
تأتى • فعدلت ردتجوتى الذى تجعّد فى الليل ، ونظفته بالفرشاة •
وغسلت وجهى ، ومشطت شعرى • فعلت ذلك كله بغير تعجل • ثم
مضيت الى الشيخ مدركا مدى ما يجب التزامه من حذر وروية •

كان الأمير جالسا على ديوان أمام مائدة مستديرة ، أما آنا آندريفنا
فكانت فى ركن آخر ، أمام مائدة أخرى عليها غطاء وفوقها سماور البيت
مجلوا كما لم يسبق أن جلى فى يوم من الأيام ، وكان ماء السماور
يغلى ، وكانت آنا آندريفنا تهيب الشاى •

دخلت بتلك الهيئة القاسية نفسها ، فلاحظ العجوز المسكين ذلك

فورا ، فارتجف • وسرعان ما حل محل ابتسامته فزع حقا • لكننى لم ألح ، بل أخذت أضحك ، ومددت له يدي ، فارتمى المسكين فى أحضانى •

وفد أدركت فوراً ما صار الرجل اليه ، دون ريب • كان من الواضح أولاً أن الشيخ الذى كان قبل الآن يتمتع بقدر من القوة وينعم بشيء من سلامه العقل رغم كل شيء ، ولا يخلو من بعض الإرادة والصلابة ، قد أحالوه بعد آخر لقاء بينى وبينه الى نوع من مومياء ، وجعلوا منه طفلاً شديداً الخوف ، كثير الحذر والشك • يجب أن أضيف الى هذا أنه كان يعلم لماذا جئ به الى هنا ، وقد جرى كل شيء على النحو الذى ذكرته من قبل حين استبقت الأحداث • لقد فاجأوه بخيانة ابنته وبحديث مستشفى المجانين ، فصعقوه وحطموه وسحقوه سحقاً ، فانقاد وهو لا يكاد من شدة ذعره أن يعي ماذا يفعل • قالوا له ان الوثيقة فى حوزتى وهى « مفتاح الموقف » ، فاذا رآها كان فى وسعه أن يتخذ قراره النهائى • يجب أن أبادر فأقول سلفاً ان رؤية الوثيقة واتخاذ القرار هما ما كان يربعه تصورهما أكثر مما يربعه أى شيء فى هذا العالم • • • لقد كان يتوقع أن يرانى داخلاً عليه بالقرار فى جيبي والورقة فى يدي • فما كان أعظم فرحه حين رآنى ، بانتظار ذلك ، مستعداً لأن أضحك وأن أثّر فى موضوع آخر • وقد اسكبت دموعه غزيرة حين تعانقنا • ولا أكتكم أننى ذرفت أنا أيضاً بعض العبرات • لقد شعرت فجأة بشفقته كبيرة عليه • وكان كلب ألفونسين الصغير ينبع نباحاً نحيلاً كرنين جرس صغير ، ويندفع من الديوان نحوى • ان هذا الكلب الصغير أصبح لا يفارق الشيخ منذ صار عنده ، حتى لقد كان ينام معه •

هتف يقول وهو يومئ لآنا أندريفنا الى :

- « قلت انه صاحب قلب نبيل » (بالفرنسية) •

فقلت له :

— لقد تحسنت صحتك كثيراً يا أمير ! هيثك الآن مزهرة نضرة !
ولكن نقيض قولي كان هو الصحيح وا أسفاه ! لقد كان الشيخ
أنتبه بمومياء • وما قلت له ذلك الا لأشجعه •
فأخذ يردد بفرح :

— « أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ » (بالفرنسية) •
— ولكن هلاً شربت شايبك • اذا قدمت لى فنجاناً فسوف يسعدني
أن أحسوه فى صحتك •

— فكرة عظيمة • « فلنشرب ولنفرح » • هناك قصيدة بهذا المعنى •
أليس كذلك ؟ أنا آندريفنا ، أعطيه شاياً • « انه يفتن دائماً بالمواطف »
(بالفرنسية) • أعطينا شاياً يا عزيزتى •

سكبت لى آنا آندريفنا شاياً • ولكنها التفتت نحوى فجأة ، وأخذت
تتكلم بلهجة فيها كثير من الوقار ، فقالت :

— آر كادى ماكاروفتش ، انا — أنا والمحسن الى الأمير يقولوا
ايفانوفتش ، قد جئنا الى بيتك لاجئين • جئنا اليك أنت ، لا الى غيرك ،
جئنا ضيفين عليك نلتمس عندك المأوى والملاذ • تذكر أن كل مصير هذا
الانسان القديس ، النبيل ، المحزون ، هو بين يديك ••• انا نتظر القرار
الذى يمليه عليك قلبك بالحق والعدل !

لكنها لم تستطع أن تكمل كلامها • فقد اعترى الأمير رعب شديد ،
حتى كاد يرتعش من فرط الذعر ، وأخذ يقول مكرراً وهو يرفع يديه
نحوها :

— « فيما بعد ، فيما بعد ، أليس كذلك يا صديقتى العزيزة ؟ »
(بالفرنسية) •

لن أستطيع أن أصف الأثر الأليم الذى أحدثته فى نفسى مقاطعته
هذه لحديثها • ولم أجب بشيء • وإنما اكتفيت بتحية فاترة رصينة • ثم
جلست الى المائدة عامداً • وطفقت أتحدث فى مواضيع أخرى تافهة •
وأخذت أضحك وأمزح ••• فكان واضحاً أن الشيخ شكر لى ذلك •
وأنه اغتبط اغتباطاً شديداً • ولكن فرحه كان رغم شدته مهياً لأن يتبدد
سريعا وان يحل محله اكتئاب ويأس • كان هذا واضحاً من أول
نظرة •

— « بنى العزيز » (بالفرنسية) • بلغنى أنك كنت مريضاً • •
آ ••• معذرة ••• قيل لى انك كنت طول هذه المدة منشغلاً بتحضير
الأرواح • أهذا صحيح ؟
أجبت مبتسماً :

— ما خطر لى مثل هذا على بال •
— لا ؟ من كلمتى اذن عن تحضير ••• الأرواح • واح ؟

انبرت أنا آندريفا تشرح فقالت :

— ان الموظف • صاحب البيت • بطرس هيبوليتوفتش • هو الذى
كان يحدثه عن هذه الأمور منذ قليل • انه رجل مرح • يعرف نكات
كثيرة • هل تريد أن آناده ؟

— « نعم • نعم • رجل طيب » (بالفرنسية) • يعرف نكات كثيرة •
ولكن الأفضل أن ندعوه فيما بعد • سوف ندعوه • وسوف يحكى لنا كل
شئ • • ولكن فيما بعد • (بالفرنسية) • تصور أنه منذ قليل • حين
اعداد المائدة • قال لى : اطمئن • فهى لن تطير ! نحن لا نحضر الأرواح !
هل الموائد تطير عند الذين يحضرون الأرواح ؟

— لا أدري • يُقال انها ترتفع بجميع أرجلها •

فقال وهو يرشقنى بنظرة مرتاعة :

- ولكن هذا الذى تقوله رهيب ! » (بالفرنسية) •

- اطمئن • هذه سخافات !

- ذلك ما أقوله أنا أيضاً • ان ناستاسيا ستينانوفنا سالوميافا •••

أنت تعرفها طبعاً •• لا •• لا لاتعرفها •• الخلاصة •• تصور أنها هى

أيضاً تؤمن بتحضير الأرواح •••

والتفت الأمير الى آنا آندريفنا وقال مكملًا كلامه :

- تخيلي هذا • يا ابنتى • (بالفرنسية) ! قلت لها يوماً : ان فى

الوزارات موائد أيضاً ، وعلى كل مائدة ثمانى أيدٍ من أيدى الموظفين

تكتب و لاتقطع عن الكتابة ، فلماذا لا تراقص تلك الموائد ؟ تخيلها وقد

أخذت ترقص فجأة ! شغب تقوم به الموائد فى وزارة المالية ، أو وزارة

التعليم العام ••• لم يكن ينقص الا هذا ! •••

هتفت أقول محاولاً أن أضحك بصدق :

- ما ألفت الأشياء التى تقولها دائماً يا أمير !

- • أليس كذلك ؟ أنا لا أكثر من الكلام ولكننى أحسن القول »

(بالفرنسية) •

قالت آنا آندريفنا وهى تنهض :

- سأجىء ببطرس هيبوليتوفتش •

وكانت الغبطة تتلألأ فى وجهها • فقد أبهجها كثيراً أن رأتنى الألف

الأمير هذه اللطافة كلها • ولكن ما ان خرجت حتى تبدل وجه الشيخ

فجأة • ونظر بسرعة الى الباب ، وأجال بصره فيما حوله ، ثم مال من

ديوانه على • • وهمس يقول لى بصوت مروع :

- « يا صديقي العزيز ، ليتنى أستطيع أن أراهما كليهما هنا !
« آه بنى الغالى ! » •

- هدىء نفسك يا أمير !

- نعم نعم ، لكننا سنصلح بينهما ، أليس كذلك ؟ انه لشجار صغير
معزى بين امرأتين تفيضان كرمًا وشهامة ، أليس كذلك ؟ ليس لى من
أمل الا فيك ••• سنسوئى هذا كله هنا •••

ثم أضاف يقول وهو يلقي نظرة يكاد يكون فيها خوف :

- ولكن يا له من مسكن غريب ! وهذا المؤجر ! ان له عقلا
عجيباً • قل لى : أليس خطراً ؟

- المؤجر ؟ لا ! فيم يمكنه أن يكون خطراً ؟

- حسن ! عظيم ! « يبدو غيباً ، هذا السيد ، ! ابنى ! أستحلفك
بيسوع المسيح لا تقل لآنا آندريفنا انى خائف من كل شى هنا • لقد
أجزلت المديح لكل شىء منذ أن وطئت هذا المكان ، حتى لقد مدحت
المؤجر نفسه • اسمع ، أنت تعرف قصة فون سون ، هل تتذكر ؟

- نعم أتذكر ، فماذا ؟

- « لا شىء ••• لا شىء البتة ••• ولكننى حرر هنا ، أليس
كذلك ؟ ، ما رأيك ؟ لا يمكن أن يحدث هنا شىء ••• من ذلك
النوع ؟

- لا ، لا ، يا عزيزى ، اطمئن ، أحلف لك •••

هتف فجأة يقول وهو يصم يديه أمامى ولا يخفى عنى شيئاً من
جزعه :

- « صديقى ، ابنى ، ••• اذا كان فى حوزتك شىء حقاً •••

وثائق مثلاً •• اذا كان ثمة ما يمكن أن تقوله لى •• فلا تقله ••
لا تقله • لا تقل شيئاً ، ناشدتك الله ••• لا تتكلم ••• الزم الصمت .
أطول مدة ممكنة ، لا تتكلم •••

وأراد أن يحضننى بذراعيه • وسالت الدموع على خديه • لن
أستطيع أن أصف لكم مدى انقباض قلبي : كان الشيخ المسكين أشبه
بطفل بائس ضعيف مرتاع اختطفته غجريات من عشه عند أبويه ، وأخذته
الى أجنب • ولكن لم يُسمح لنا بأن تنماق : فقد فُتح الباب ودخلت
آنا آندريفنا ، ولكن الشخص الذى يصحبها ليس المؤجر بل هو أخوها ،
حاجب البلاط • فصعقنى هذا الشيء الجديد صعباً ، فسرعان ما نهضت
واتجهت نحو الباب •

قالت آنا آندريفنا بصوت عال :

- أركادى ماكاروفتش ، اسمع لى أن أعرف كلاً منكما
بالآخر •••

فلم يسعنى الا أن أتوقف • وقلت مقطعاً كلمائى مبرزاً منها كلمة
« أحسن » :

- أعرف أخاك « أحسن » المعرفة !

فجمجم الشاب وهو يقترب منى طلق الهيئة ، ويتناول يدى بحرية
فلا أملك أن أسحبها :

- أوه ! ما كان أكبرها غلطة ••• وانى لذنوبى يا عزيزى آند ••
آندره ماكاروفتش • ولكن خادمى ستيفان هو سبب كل شيء • لقد أساء .
الابلاغ عنك فعصبتك شخصاً آخر •

وأردف يشرح لأخته :

- حدث هذا بموسكو ***

ثم عاد يكمل كلامه لى :

- وقد بذلت بعد ذلك جميع جهودى لأعثر عليك وأشرح لك الأمر • ولكننى مرضت *** اساله ! « يا أمير يجب أن نكون صديقين حتى يحكم النسب » ، ، ،

وتجراً الفنى الوقع الى حيث وضع يده على كتفى، فكان ذلك ذروة رفع الكلفة • فأسرعت أخلص كتفى من يده بوثة الى جانب ، ولكننى خجلت أن أزيد على ذلك شيئاً ، فاكفيت بأن خرجت صامتاً ، ومضيت الى غرفتى ، فجلست على سريرى مفكراً قلقاً مضطرباً • كانت هذه المكيدة تختفى خنقاً ، ولكننى لا أستطيع أن أطيش صواب آنا أندريفنا وأن أسحقها سحقاً • لقد شعرت فجأة أنها هى أيضاً عزيزة على نفسى ، وأحسست أنها فى وضع رهيب •

كما كنت أتوقع ، جاءت الى غرفتي ، تاركة الأمير مع أخيها الذي أخذ يردد على مسامع الأمير أنواعاً شتى من نائم المجتمع الراقى الجديدة ، فسرعان ما استطاع بذلك أن يأسر وأن يفرح الأمير المسكين الذي يسهل التأثير فيه .

نهضت عن سريري صامتاً مستنفهماً . فبادرتني أنا آندريفنا قائلة بلهجة جازمة :

— قلت لك كل شيء يا آرКАДى ماكاروفتش . ان مصيرنا بين يديك .

— لكنني نبهتك أيضاً الى أنني لا أستطيع . . . ان واجباتي المقدسة تمنعني من الاقدام على ما تعتمدين على فيه . . .

— حقاً ؟ أهذا جوابك ؟ أنا لا يهمنى أن أهلك . ولكن الشيخ ؟ أعلم أنه سيُجنُّ منذ هذا المساء !
هتفت أجيبها بحرارة :

— بل سيُجنُّ إذا أنا أطلعت على رسالة من ابنته تسأل فيها محامياً كيف يمكن أن يعلن جنون أبيها . ذلك ما لن يستطيع أن يتحملة .
هو قال لي هذا .

الحق انني كذبت اذ ادعيت أنه قال لي ذلك . ولكن الكذب كان في محله .

— قال لك هذا ؟ قدّرت أن يقوله لك • فانا الهالكة اذن • حتى
لقد بكى منذ قليل ، وطلب ان يرجع الى البيت •
سألتها بالحاح :

— قولى لى : ما خطتك على وجه الدقة ؟

فاحمر وجهها من جرح كبريائها ان صح التعبير ، ولكنها كابرته
وتجلدت ، فقالت :

— ان هذه الرسالة التى بين أيدينا تبرئنا فى نظر الناس • سوف
أبادر فوراً فأنبئ الأمير « ف • • • » و بوريس ميخائيلوفتش بلتشيف ،
صديقى طفولته • هما شخصيتان من أصحاب الشأن والنفوذ ، وأنا أعلم
أنهما أديا استياءهما من بعض أعمال هذه الابنة الجسمة التى لا ترحم •
ولاشك أنهما سيصلحان ما بين الأب وابنته تلبيةً لطلبي ، وسألح أنا
نفسى على طلب هذه المصالحة • ولكن الوضع يكون قد تغير تغيراً تاماً •
وعدا ذلك سيدعمنى أقربائى من جهة أمى ، آل فاناريوتوف ؟ غير أن
الشيء الذى يهمنى خاصةً انما هو سعادته • يجب أن يعرف أخيراً من
ذا الذى كان مخلصاً له حق الاخلاص ، فيقدره قدره الذى يستحقه •
وانى لأعتمد على ما لك لديه من حظوة وما لك فيه من تأثير يا أركادى
ماكاروفتش • انك تحبه كثيراً • • • ولكن هل يحبه أحد غيرى وغيرك ؟
انه لم ينقطع عن ذكرك فى هذه الأيام الأخيرة • وكان يحنّ اليك حنيناً
شديداً ، ويشعر من بعدك عنه بضجر قوى • وكان يسميك « صديقه
الشاب » • وطبيعى أن شكرى لك وامتنانى منك لن يكون لهما حدود
ما حيث • • •

ها • • • ها هى ذى الآن تعدنى بمكافأة • • • لعلها مكافأة مالية !
فقاطعتها قائلاً بلهجة خشنّة ونبرة جازمة لا تشنى ولا تلين :

- مهما تقولى ... فلن أنزعج عن رفضى قيد شعرة ! لكننى
أستطيع أن أعاملك بمثل ما تعاملينى به من صراحة ، فأصارك بأخر
ما عقدت العزم عليه : بعد مدة قصيرة سأسلّم الرسالة المشثومة الى كاترين
نقولاي لنا يداً بيد ، ولكننى سأشترط عليها بسبب كل ما حدث الآن
ألا تقوم بفضيحة ، وأن تقطع لى على نفسها عهداً بالأ تحول بينك وبين
تحقيق سعادتك . هذا كل ما أستطيع أن أفعله .

قالت وقد احمرت احمراراً شديداً :

- مستحيل !

لقد أثار استياءها أن تتصور أن كاترين نقولاي لنا سوف « تداريها »
وتحميها .

قلت :

- لن أغير قرارى يا أنا أندريتنا .

- قد تغير .

- الجئى الى لامبير !

- أركادى ماكاروفتش ، انك لا تعرف المصائب التى يمكن أن تنتج
عن عنادك .

قالت ذلك بقسوة وغضب شديد . فأجبتها :

- جائز جداً أن تنتج مصائب ... اننى أشعر بدوار ! كفى الآن :

لقد فررت واتهى الأمر . ولكننى أرجوك ، بل أستحلفك بالله ،
ألا تأتبنى بأخيك .

- ولكنه يريد أن يمحو ما ...

- ليس هناك شيء يجب محوه ! ... ما أنا في حاجة الى أن يمحو شيئاً • لا أريد ، لا أريد !

كذلك صحت وأنا أمسك رأسي بيدي • ولعلني قد عاملتها بامتلاء •

وأردفت أسألها :

- قولي لي : أين سييت الأمير ؟ هنا ؟

- سييت هنا ، عندك ومعك •

- اني تارك هذا البيت منذ الليلة •

وما ان نطقت بهذه الكلمات التي لا رحمة فيها ، حتى تناولت قبعتي وأخذت ألبس معطفي • فكانت آنا أندريفا ترقبني صامتة مكفهرة الوجه • وقد رثيت لحال الفتاة المتكبرة ، وشعرت نحوها بالشفقة حقاً • ومع ذلك خرجت دون أن أترك لها كلمة أمل واحدة •

سأحاول أن أوجز • بعد أن اتخذت قرارى قاطعاً لا رجعة عنه ،
 اتجهت قدماً الى بيت تاتيانا بافلوفنا • واأسفاه ! لقد كان يمكن انتقاء
 مصيبة كبيرة لو أننى وجدتھا • ولكن سوء الحظ كان يلاحقنى فى ذلك
 اليوم • فلم أجد تاتيانا بافلوفنا • فذهبت الى ماما ، أولاً لأزور أمى
 المريضة ، وثانياً لأننى قدرت أننى سوف أجد عندها تاتيانا بافلوفنا فى
 أغلب الظن • ولكن تاتيانا بافلوفنا كانت قد تركت أمى منذ برهة وجيزة •
 وكانت أمى راقدة فى سريرها ، وقد بقيت ليزا وحدها معها • رجعتى
 ليزا ألا أدخل وألا أوقظ ماما من نومها قائلةً لى : « انها لم تنم
 الليل كله ، وظلت تتألم وتتعذب • فمن حسن الحظ أنها غفت الآن • » •
 قبلت ليزا ، وقلت لها بكلمتين اننى اتخذت قراراً ضعفاً حاسماً ، واننى
 مقدم على تنفيذه حالاً • فأصغت ليزا الى كلامى بدون دهشة كما يصغى
 المرء الى كلام عادى جدا ، ذلك أنهم جميعاً قد ألفوا كثيراً أن يسمعوا
 منى كلمات لا أنفك أكررها ثم أكررها ، كقولى « قرارات أخيرة » ،
 ثم رأونى أدخلى فأتركھا • ولكننى الآن • الآن • لن يكون شأنى
 كما كان • ومن أجل أن أترك لتاتيانا مهلةً تعود أتناهها الى بيتها ، ذهبت
 الى المطعم الذى يقع تحت مستوى الشارع ، والذى تروج فيه أغنية
 « لوسيا » رواجاً كبيراً • وسأشرح السبب الذى جعلنى فى حاجة شديدة
 الى تاتيانا بافلوفنا فجأة • لقد كنت أنوى أن أرسلها الى كاترين نيقولايفنا
 فوراً ، فتأتى بها الى بيتها ، فأردت الوثيقة الى كاترين نيقولايفنا بحضور تلك

المرأة نفسها بعد أن أشرح لها كل شيء مرة واحدة الى الأبد • الخلاصة
اننى كنت أريد أن أفعل الخير : أريد أولاً أن أبرىء نفسى تبرئة حاسمة ،
وأحرص على هذه التبرئة وأعدّها حقاً لى • حتى اذا فرغت من ذلك أخذت
أدافع عن آنا أندريفنا وأقول فيها قولاً حسناً ، ثم اصطحبت كاترين
نيقولايفنا وتاتيانا بافلوفنا (شاهدنا) الى بيتى ، أى الى الامير ، فأصلحت ما بين
المرأتين المتعاديتين هناك ، وأردت الحياة الى الأمير •• و •• فى نطاق
هذه الطائفة الصغيرة ، أجعل الجميع سعداء ، منذ هذا اليوم ، ثم لا يبقى
بعد ذلك الا فرسيلوف وماما • ولم يخالجنى شك فى نجاح مسامى : فان
كاترين نيقولايفنا ستكون ممتنة من ردّ الرسالة اليها رداً لا أطلب أن
أكافأ عليه بشيء ، فلن تستطيع أن ترفض تلبية رجائى • وا أسفاه !
كنت لا أزال أتصور أن الوثيقة فى حوزتى • آه ما كان أغبى وأحقّر
الوضع الذى كنت فيه بدون أن أتمر ! •••

كان الظلام قد هبط ، ولعل الساعة كانت قد بلغت الرابعة حين
قرعت باب تاتيانا بافلوفنا مرة أخرى • فقالت لى مارى بفظاظة • انها لم
ترجع • • اننى لأتذكر الآن نظرتها الغريبة المواربة تذكرنا واضحاً •
ولكننى فى تلك اللحظة لم تراودنى أية شبهة • حتى لقد خطرت لى هذه
الفكرة الأخرى : ففيمما كنت أهبط درجات السلم منزعجاً مشبّط العزيمة ،
تذكرت الأمير المسكين الذى مدّ الىّ ذراعيه منذ قليل ، فلمت نفسى لوماً
لاذعاً لأننى تركته من غضب ؛ وأخذت أتصور ، قلقاً أشد القلق ، ما لعله
حدث عندهم أثناء غيابى من أمور قد تكون سيئة غاية السوء ، فأسرعت
أعود الى البيت • فسلمت أن ما وقع هو الحوادث التالية :

ان آنا أندريفنا التى أغلظت لها القول وأغضبته ، لم تفقد شجاعته •
يجب أن أذكر أنها كانت منذ الصباح قد أرسلت الى لامير مرةً أولى فمرة
ثانية ، فلما لم يعثر عليه فى بيته ، بعثت أخاها يبحث عنه • كانت المسكينة

بعد أن رأته صمودى وعنادى تعقد أملها كله على لاميير وتأثيره فى .
فكانت تنتظره نافذة الصبر . ولكن كان يدهشها أن تراه يهجرها فجأة
ويختفى ، وهو الذى كان الى هذا اليوم لا يتركها أبداً ويظل يحوم
حولها . مسكينة ! كان لا يمكن أن يخطر لها على بال أن لاميير الذى
يستولى الآن على الوثيقة ، قد اتخذ قرارات أخرى ، وأن من الطبيعى
أن يتوارى عن الأنظار ، وأن يتوارى عن نظرها هى خاصة .

كان القلق والشعور بالخطر يتزايدان فى نفس آنا أندريفنا ، فكان
طبيعياً أن تصبح عاجزة عن تسليية الأمير الشيخ ، وكان قلق الشيخ من جهته
يشدد اشتداداً يدعو الى الخوف والفرع . كان يلقي أسئلة غريبة وجلة ،
وكان ينظر الى آنا أندريفنا مشتتاً مرتاباً ، حتى لقد أجهد باكياء عدة
مرات . ولم يمكث الشاب فرسيلوف مدة طويلة . فاستدعت آنا أندريفنا ،
بعد انصرافه ، بطرس هيبوليتوفتش الذى كانت تمول عليه كثيراً . ولكن
بطرس هيبوليتوفتش لم يحدث فى نفس الأمير الا الاشمزاز بدلاً من أن
يسليه ويسرّى عنه . وكان الأمير ، على كل حال ، ينظر الى بطرس
هيبوليتوفتش نظرة فيها حذر وشك وارتباب ما ينفك يزداد . وقد شاعت
المصادقة أن يستأنف بطرس هيبوليتوفتش ثروته عن تحضير الأرواح ،
وعن الألعاب أخرى قال انه شهدا بنفسه : منها أن مشعوذاً مرّ بالمدينة
يوماً ، فكان يقطع رؤوساً على مرأى من الناس ، فتسيل الدماء من الأعناق ،
ويشهد الجمهور ذلك كله بأعينه ، ثم يعود الرجل فيتناول الرموس المقطوعة
ويردّها الى مكانها فوق الرقاب فتلتصق على مرأى من جميع الناس
أيضاً ، وقد حدث هذا كله سنة ١٨٥٩ ؛ فحين سمع الأمير هذا الكلام
بلغ من شدة الهلع ومن شدة الاستياء فى الوقت نفسه أن آنا أندريفنا
اضطرت أن تطرد القصاص . ومن حسن الحظ أن وصل الغداء فى ذلك
الوقت ، وهو غداء 'عنى به لاميير و آلفونسين أوصيا باعداده طباًحاً
فرنسياً حاذقاً يسكن فى بيت قريب ، ولكنه لا يعمل الآن فى مكان وانما

هو يبحث عن عمل فى منزل أسرة ارستقراطية أو فى أحد النوادى •
فكان من شأن هذا الغداء مع الشمبانبا أن أفرح العجوز جداً ، فأكل
كثيراً وفرح كثيراً ؛ وكان طيبعباً بعد الغداء أن شعر بثقل وأحس برغبة
فى النوم • واذ كان من عادته أن ينام بعد الغداء دائماً ، فإن أنا آندريفنا
كانت قد أعدت له سريراً • فكان وهو يرقد على السرير يقبّل يديها
ويقول لها انها جنته ، وانها أمه ، وانها حوريتيه ، وانها « زهرته
الذهبية » ، الى ما هنالك من تعابير شرقية • ونام أخيراً • وعندئذ انما
وصلت أنا •

أسرعت أنا آندريفنا تدخل على ، فضمت يديها أمامى ضارعةً
مبهلة ، وقالت انها تتوسل الى (لا من أجلها بل من أجل الأمير)
ألا أخرج ، وأن أذهب اليه متى استيقظ من نومه • « اذا لم تكن أنت معه
فقد هلك • لسوف يصاب بنوبة • أخشى ألا يقاوم الى آخر اليوم • • • »
وأضافت تقول انها مضطرة أن تغيب عن البيت اضطراراً لا سبيل
الى دفعه ، « وان غيابها قد يطول ساعتين ، فهى اذن تترك الأمير
تحت حراستى • • فقطعت لها على نفسى عهداً حاراً بأن أبقى الى المساء ،
فاذا استيقظ بذلت كل ما أستطيع بذله من جهود لأسّليه وأسرى عنه •
فقلت تختم كلامها بقوة :

— وأنا سأقوم بواجبى •

وانصرفت • يجب أن أذكر مستبقاً الوقائع أنها انما مضت تبحث عن
لامبير • انه آخر أمل لها • وعدا ذلك زارت أخاها وأقرباءها
آل فاناريوتوف • فتستطيعون الآن أن تتخيلوا كيف كانت حالتها النفسية
حين رجعت !

استيقظ الأمير بعد انصرافها بنحو ساعة • وسمعت صوت أينيه من
وراء الجدار ، فأسرعتُ اليه فوراً • فوجدته جالساً على سريره بثوب

المنزل ، ولكنه كان قد بلغ من شدة الفزع من الوحدة وضوء الصباح الوحيد الخافت وهذه الغرفة الغريبة أنه حين دخلت عليه ارتعش واتفض وصرخ • فهرعت اليه ، فلما عرف أن القادم عليه هو أنا ، أخذ يقبّلنى ودموع الفرح تنهمر من عينيه •

— قيل لى انك تركت هذا البيت ، قيل لى انك خفت ففرت !

— من قال لك هذا ؟

— من ؟ دعنا ! لعلنى أنا الذى تخيلته • ولعل أحداً قاله لى أيضاً •
لقد حلمت منذ قليل حلماً : رأيت شيخاً ملتجئاً يدخل على فجأة وفى يده
أيقونة محطومة نصفين ، ويقول لى : « هكذا ستحطم حياتك ! » •

— لا بد أن أحداً أعلمك أن فرسيلوف قد كسر أمس أيقونة !

— « أليس كذلك ؟ » ، نعم ، نعم ، علمت هذا • علمته فى هذا
الصباح من داريا أونيسيوفنا • لقد نقلت الى هنا حقيتى وكلبى •

— يا له من حلم غريب !

— وتصور أن هذا الشيخ كان لا ينفك يهددنى بأصبعه • ولكن
أين أنا آندريفنا ؟

— ستأتى حالاً •

هتف يسأله بألم :

— من أين ؟ الى أين ذهبت ؟

— لا ، لا ، ستكون هنا حالاً • لقد طلبت منى أن أبقى معك
لحظة •

— « نعم » ، ستجىء • اذن 'جن' صاحبنا آندره بتروفش ،
« وبهذه المباشرة ، وبهذه السرعة ! » ، لطالما تنبأت له بأنه سينتهى هذه
النهاية • اسمع يا صديقى •••

قال ذلك وأمسك رديجوني وشدني اليه ، وهمس :

- جاءني المؤجر منذ قبل بصور فوتوغرافية ، صور فوتوغرافية
قدرة ، صور نساء .. نساء عاريات .. بأوضاع شرقية مختلفة .. وأخذ
يربني الصور في الضوء . فأخذت أنا أمدح له الصور طبعاً ، على مضض
وكره . ولكن تلك هي الطريقة التي استعملوها مع ذلك المسكين ليجيئوه
بنساء سيئات ، فيسكروه بسهولة أكبر ..

- تقصد فون سون أيضاً ! دعنا من هذا يا أمير ! ان المؤجر رجل
غبي لا أكثر .

- غبي لا أكثر ! هذا رأيي ، يا صديقي ، انقذني من هذا
المكان ان استطعت !

قال ذلك وهو يضم يديه أمامي ضارعاً على حين فجأة . قلت :
- سأفعل كل ما أستطيع يا أمير ! أنا لك ... عزيزي الأمير ،
انتظر ، قد أدبر جميع الأمور .
- « أليس كذلك ؟ » ، سوف نهرب ، تاركين الحقيقة هنا ، حتى
يتخللوا أننا سنعود .

- الى أين نهرب ؟ وأنا آندريفنا ؟

- لا ، لا ، سنهرب مع أنا آندريفنا .. « آه .. عزيزي .. »
أحس بغليان في رأسي ، اسمع : ان هناك ، في الكيس الذي على اليمين ،
صورة لكاتيا . لقد دمست الصورة في الكيس خفية منذ قليل ، حتى
لا تراها أنا آندريفنا ، وحتى لا تراها هذه المرأة داريا أونيسيموفنا
خاصة ! .. أخرج الصورة بسرعة ، ناشدتك الله ، وأحرص على
ألا يفاجئنا أحد .. ألا يمكن شد المزلاج فلا يفتح الباب ؟

نبشت الكيس فوجدت فيه صورة فوتوغرافية لكاترين نيقولايفنا

معلمة ، صورة ذات اطار بيضوى ، أخذها الشيخ منى ، وحملها الى الضوء ، فأخذت تسيل دموع غزيرة على خديه المهزيلتين الشاحبتين ، وهتف يقول :

- « ملاك ، ملاك من السماء ! » . أذنت فى حقها طول حياتى .
والآن أيضاً ! « ابنتى العزيزة » أنا لا أصدق شيئاً ، لا أصدق شيئاً !
قل لى يا صديقى : هل صحيح أنه يراد ايداعى فى ملجأ للمجانين ؟
« أقول أشياء حلوة ، فيضحك الناس كافة » . . ثم يؤخذ هذا الرجل فجأة الى ملجأ للمجانين .

صحت أقول :

- مستحيل . هذا الكلام خطأ . أنا أعرف عواطفها .
- أنت أيضاً تعرف عواطفها ؟ رائع ! . . . أحييتنى يا صديقى !
ما أكثر الكلام الذى قالوه لى عنك ! استدع كاتيا الى هنا ، ولتعانقا كلتاهما أمامى ، فأخذهما الى البيت ، ونطرد المؤجر .

قال ذلك ونهض وضمَّ يديه ضارعاً ، ثم ركع أمامى على الأرض
فجأة ، وأضاف يهمس بجزع مسعور ، مرتشياً كورقة فى مهب الريح :
- « عزيزى ، أين سيحشروننى الآن ؟

فهتفت أقول وأنا أنهضه وأجلسه على السرير :
- ألا تصدقنى أنا أيضاً ؟ هل تظن أننى أنا أيضاً مشارك فى
المؤامرة ؟ ألا انتى لن أسمع لأحد هنا أن يلمسك بأصبعه .
فتمتم يقول وهو يشدُّ على كوعى بيديه شداً قوياً وما يزال
يرتمش :

- « نعم » ، لا تسمح لأحد ! لا تسلمنى الى أحد ! وأنت أيضاً

لا تكذب على " لأنه " هل يمكن أن يقتادوني من هنا ؟ اسمع : هذا
المؤجر هبوليت " أو ما اسمه ؟ هل هو " طيب ؟

- دكتور ؟

- وهنا " أليس هنا ملجأ مجاني ، هنا ، فى هذه الغرفة ؟

ولكن الباب 'فتح فى تلك اللحظة و دخلت أنا أندريفا . لاشك
أنها كانت تتصنت وراء الباب ، ثم نفذ صبرها ففتحت فجأة ، فاذا بالأمير
الذى كان يرتجف من أيسر صرير ، اذا به يصرخ فجأة وينطس رأسه
فى وسادته ، ثم اذا هو يعانى ما يشبه أن يكون نوبة عصبية انتهت بكاء
يصحبه نسيج . قلت لها وأنا أشير الى الشيخ :

- انظرى الى ثمرة عملك الجميل !

فقال رافعة صوتها :

- بل هذه ثمرة عملك أنت . انى أتوجه اليك آخر مرة يا أركادى
ماكاروفتش : هل تريد أن تكشف عن المؤامرة الجهنمية التى دُبرت لهذا
الشيخ الذى لا يملك ما يدافع به عن نفسه ، وأن تضحي « باحلام حب
جنونى صياني » فى سبيل أن تنقذ « أختك أنت » ؟

- سأنقذكم جميعاً ، ولكن على الوجه الذى ذكرته لك من قبل !
اخرج الآن بسرعة ، فقد أستطيع أن أجيء بكاترين يقولايفا الى هنا
بعد ساعة ، فأصلح ما بينكم جميعاً ، وتسعدون جميعاً !

كذلك هتفت كاللهم .

قال الأمير وقد ثاب الى نفسه أخيراً :

- جىء بها ، جىء بها الى هنا . خذنى الى بيتها ! أريد كاتيا ،
أريد أن أرى كاتيا وأن أباركها .

أضاف ذلك هاتفاً وهو يرفع ذراعيه ، وينهض عن سريره
فقلت لآنا آندريفنا وأنا أشير إليه :

– هل ترين ؟ هل تسمعين ما يقول ؟ الآن لن تنقذك أية وثيقة ،
يكن من أمر !

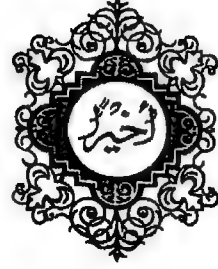
– أرى • ولكن الوثيقة لا تزال تستطيع أن تسوّغ سلوكي في :
المجتمع ، أما الآن فأنا معجلة بالخزي والعار ! على أن ضميري نقي •
تركى الجميع ، حتى أخى الذى خشي الاخفاق ... لكننى ساءاً
بواجبي ، ومأبقي بقرب هذا المسكين خادمة وممرضة •

ولكن لم يكن ثمة وقت يمكن اضاعته • فخرجت من الغرفة بسرعة
وصرخت من العتبة قائلاً :

– سأرجع بعد ساعة ، ولن أرجع وحيداً •

الفصل الثاني عشر

١



وجدت ناثيانا بافلوفنا! فاندفعت أروى كل شيء
دفعة واحدة ، فحكيت لها قصة الوثيقة من
أولها الى آخرها ، وحدثتها عما يجري عندنا
تفصيلا . وقد استغرق هذا العرض زهاء عشر
دقائق رغم أنها فهمت من تلقاء نفسها فهما كاملا، وأنها كانت قادرة على
أن تدرك القضية بكلمتين . كنت وحدي أتكلم ، فقلت الحقيقة كلها ولم
أخجل . وكانت هي صامئة ساكنة منتصبية الجذع كوتد ، وبقيت
جالسة على كرسيها مزمومة الشفتين لا تحول عنى عينيها ، وتصغى
الى كلامي بكل ما تملك من قوة الاصغاء . ولكن ما أن أنهيت حديثي
حتى وثبت عن مكانها فجأة ، وبلغت من سرعة الوثوب أنني وثبت
أنا أيضا ، وانطلقت تقول :

— آآآ يا وغد ! ... اذن كانت تلك الرسالة مخيطة في
جيبك .. خاطتها تلك البنية الحمقاء ماريا ايفانوفنا ! آه يا نذل ،
يا سافل ! اذن جئت الى هنا لتسيطر على القلوب ، ولتغزو المجتمع
الراقى ، ولتلتحق الأذى بأى انسان انتقاما لكونك ابن زنا .

صحت أقول لها :

— ناثيانا بافلوفنا، اننى أمنعك من شتمى، ولعلك أنت، بشتائمك،
منذ البداية ، كنت سبب استعار نفسى هناه نعم، أنا ابن زنا ، ولعلنى
أردت فعلا أن انتقم لنفسى من ذلك بايذاء أى انسان ، مادام الشيطان

نفسه عاجزاً عن معرفة المذنب فى هذا ! ولكن تذكرى أنتى نبذت تحالفى مع الأوغاد ، وأنتى انتصرت على أهوائى الجامحة ! سوف أضع الوثيقة أمامها دون أن أقول كلمة ، وسوف أنصرف حتى دون أن أنتظر منها هى كلمة ، وستكونين على ذلك شاهدة •

أعطينها ، أعطى الرسالة ، وأعطينها حالا ، ضمها هنا على المائدة ! من يدرى ؟ لعلك تكذب !

- هى مخيطة فى جيبي • ماريا ايفانوفنا خاطبتها بيدها • فلما صنع لى هنا رديجوت جديد ، سللتها من الرديجوت القديم وأعدت خياطتها بنفسى فى هذا الرديجوت • هى ذى ، هنا ، أمسكها ، جسيها ، لست أكذب !

فأجابت تاتيانا بأفولفنا تقول بحماسة :

- أعطينها اذن ! اسحبها !

- مستحيل • سأضعها أمامها بحضورك ، وسأنصرف بدون أن أنتظر منها كلمة واحدة • ولكن يجب أن تعرف وأن ترى بعينها أنتى أنا ، أنا نفسى ، الذى أردتها اليها ، بارادتى ، من غير اكراه ، وبدون جزاء •

- افتخاراً بنفسك ! انك لا تزال مولها بالحلب أيها الغر !

- صفينى بما تشائين من نعوت سيئة • انتى استحق ذلك كله • ولن أزعج • لتحسبنى صيباً ترقبها وتخيل مؤامرة عليها • لتحسبنى ما تشاء • ولكن فلتعترف بأننى سيطرت على نفسى ، وفضلت سعادتها • هى ، على كل شىء فى هذا العالم ! سيان يا تاتيانا بأفولفنا ، سيان ! انتى أهيب بنفسى قائلاً : عليك بالشجاعة وعليك بالأمل ! لعل هذه خطوتى الأولى فى الحياة ، ولكنها خطوة انتهت نهاية حسنة ، نهاية نبيلة !

وتابعت أقول كاللهم وقد سطت عيناى :

- ثم ... هبى أننى أحبها . لست أشعر من هذا بخجل : ان
ماما ملاك من السماء ، و « هبى » ملكة فى الأرض ! وسيمود فرسيلوف
الى ماما ... فليست فى حاجة الى الخجل . لقد سمعت ما قالاه هناك -
« هبى » وفرسيلوف - فقد كنت وراء الستارة . آه ... نعم ... اننا نحن
الثلاثة « مصابون بجنون واحد » . هل تعلمين من قال هذه الجملة ؟
انه هو ، آندره بتروفتش ! وهل تعلمين أننا قد نكون هنا أكثر من
ثلاثة ، نحن معشر المصابين بهذا الجنون نفسه ؟ نعم ، أراهن أنك
الرابعة ! هل تريدان أن أقول لك ما أعتقد به : أراهن أنك أنت أيضاً
قد تولدت طوال حياتك بحب آندره بتروفتش ، وأنتك ما تزالين
مولّهةً بحبه الى اليوم ...

أعود فأقول اننى كنت أنكلم كاللهم تدفقاً ، وكنت سعيداً ، ولكننى
لم أستطع أن أتمّ كلامى ، فهاهى ذى تاتيانا بافلوفنا تمسك شعرى
بحركة سريعة سرعة خارقة ، فتخنى رأسى الى الأرض مرتين ، بكل
ما تملك من قوة ... ثم تتركنى حيث أنا ، وتتسحب الى دكن ،
فتضع وجهها على الجدار منطى بمنديلها ، وتقول لى باكية :

- سافلى ! لا تقل لى مثل هذه الأشياء بعد الآن .

كان ذلك أمراً لا يمكن توقعه ، فشدهت أشد الشده . وبقيت
متسمرّاً فى مكائى أنظر اليها ولا أدرى ماذا يجب أن أعمل .

واستأنفت كلامها فقالت ضاحكة باكيةً فى آن واحد :

- غبى ! تعال ! تعال قبّل صديقتك العجوز البلهاء ! ولا تكرر
هذه الأشياء بعد اليوم أبداً . انى أحبك أنت ، ولقد أحبيتك طول
حياتى ... يا أبله !

قَبَلَتْهَا • وَأَحَبَّ أَنْ أَقُولَ مُسْتَطَرِدًّا أَنَا - أَنَا وَتَاتِيَانَا بَافْلُونَا - نَدِ
أَصْبَحْنَا مِنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ صَدِيقَيْنِ حَمِيمَيْنِ •
وَهْتَفْتُ تَقُولُ فَجْأَةً وَهِيَ تَلْطِمُ جِئْنَهَا :
- وَلَكِنْ مَا بَقَائِي هُنَا ؟ قُلْتُ لِي إِنْ الْأَمِيرَ الْعَجُوزَ فِي بَيْتِكَ ؟
هَذَا صَحِيحٌ ؟
- أَوْكَدَ لَكَ •

فَجَمِجَمْتُ تَقُولُ وَهِيَ تَرْكُضُ فِي الْغُرْفَةِ كِفْأَرَةً :
- آه ••• رِيَاهُ ! لَسَدَمَا يُوَجِّعُ قَلْبِي ! هَكَذَا يَعَامِلُونَهُ أُذُنَ مَنْذُ
الصَّبَاحِ ! إِنْ الْبَلَهَاءَ لَا يَعَاقِبُونَ أُذُنَ قُطْ ! هَلْ ارْتَاحْتُ الْآنَ أَنَا آتَدْرِيفُنَا ؟
يَا لَهَا مِنْ رَاهِبَةٍ ! وَالْأُخْرَى ، الـ « مِيلِيتْرِيَا » ، لَا تَعْرِفُ شَيْئًا !
- مَا مِيلِيتْرِيَا ؟

- الْمَلَكَةُ فِي الْأَرْضِ ، الْمَثَلُ الْأَعْلَى ! مَا الْعَمَلُ الْآنَ ؟
هْتَفْتُ أَقُولُ وَقَدْ ثَبَتَ إِلَى رَشْدِي :

- تَاتِيَانَا بَافْلُونَا • لَقَدْ اسْتَرْسَلْنَا فِي سَخَافَاتٍ ، وَنَسِينَا الشَّيْءَ
الْأَسَاسِي : لَقَدْ جِئْتُ بَاحِثًا عَنْ كَاتَرِينَ نِقُولَايْفُنَا ، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَنِي
هُنَاكَ !

وَشَرَحْتُ لَهَا أَنَّنِي سَأَسْأَلُ الْوَثِيقَةَ إِلَى كَاتَرِينَ نِقُولَايْفُنَا مُشْتَرَطًا
عَلَيْهَا أَنْ تَمْدَنِي بِمَصَالِحَةِ أَنَا آتَدْرِيفُنَا فَوْرًا ، بَلْ بِالْمُوَافَقَةِ لَهَا عَلَى
زَوَاجِهَا •••

فَقَاطَعْتَنِي تَاتِيَانَا بَافْلُونَا قَائِلَةً :

- هَذَا حَسَنٌ جَدًّا • أَنَا أَيْضًا كَرَرْتُ عَلَيْهَا هَذَا مِائَةَ مَرَّةٍ • ذَلِكَ
أَنَّهُ سَيَمُوتُ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ الزَّوَاجُ ؛ إِنَّهُ لَنْ يَتَزَوَّجَهَا ، وَإِذَا أَوْرَثَهَا فِي
وَصِيَّتِهِ بَعْضَ الْمَالِ ، فَلَاشِكُ أَنَّ هَذَا كَتَبَ فِي الْوَصِيَّةِ مِنْذُ الْآنَ •••

- هل المال وحده هو ما تأسف عليه كاترين نيقولايفنا ؟
- لا ، وإنما هي كانت تخشى دائماً أن تكون الوثيقة عندها ،
عند آنا ، وكنت أخشى ذلك أنا أيضاً . فكنا نراقبها هي . كانت البنت
لا تريد أن تصدم أباهما الشيخ . أما فيما يتعلق بالألماني بيورنيج ، فإن
المال هو ما كانت تأسف عليه حقاً .

- وبعد هذا ، هل يمكن أن تتزوج بيورنيج ؟
- ما حيلتنا مع غيبة ؟ الغيب يبقى غيباً طول حياته . على كل حال ،
سيهيئ لها نوعاً من الهدوء والطمأنينة . لا بد أن أتزوج أحداً ، فأنى
فرق بينه وبين غيره ؟ ، هذا ما تقوله . وسوف نرى ما يحدث .
لسوف تعض على أصابعها ندماً ، ولكن بعد قوات الألوان .
- فلماذا تسمحين لها بهذا ؟ انك تحبينها ، حتى لقد أعلنت لها
أنك مفرمة بها .

- مفرمة ، نعم اننى أحبها أكثر مما أحبكم مجتمعين . . .
ولكن هذا لا ينفى أنها بلهاء جداً !

- هلمى إليها حالاً . ستخذ قراراً ونقودها الى أبيها .
- ولكن هذا مستحيل ، مستحيل يا غيبى ! هذا بعينه ما هو
مستحيل ! آه ما العمل ؟ اتنى أشعر بدوار .
وظفقت تتحرك فى الغرفة مضطربة ، ولكنها تناولت معطفها .

قالت :

- آه لو أنك أتيت قبل أربع ساعات . . . الساعة الآن هي
السابعة وتزيد قليلاً . لقد ذهبت الى آل بلتشيف تتغدى عندهم ، ثم
تصحبهم الى الأوبرا .

- فماذا لو ركضنا الى الأوبرا ؟ لا . . . هذا مستحيل . ولكن
ما عسى يحدث للعجوز ؟ انه قد يموت فى هذه الليلة .

- اسمع • لاتذهب الى هناك ، بل اذهب الى ماما ، وغداً ، فى
ساعة مبكرة من الصباح •••

- لا ، مستحيل ، لن أترك الأمير بحال من الأحوال مهما يحدث !

- انك على حق • لا تتركه • ولكننى أنا ••• سأجرى اليها رغم
كل شئ • ، فأتارك لها كلمة ••• سأكتب برموزنا الخاصة (وستفهم هى)
أن الوثيقة موجودة ، وأن عليها أن تجىء الى حتماً فى الساعة العاشرة
تماماً من صباح الغد • اطمئن • ستجىء • ستسمع لى • وعندئذ سنسوى
كل شئ • اذهب أنت الآن الى هناك ، ودبر أمرى مع العجوز •••
أرفده ••• فقد يقاوم الموت الى الغد • ولا ترعب أنا أندريفنا • ذلك
أننى أحبها هى أيضاً • أنت تظلمها لأنك لا تستطيع أن تفهم : لقد أوديت
وأهينت ، أوديت وأهينت منذ طفولتها • آه • ما أكثر ما رأيت منكم
جميعاً ! ولكن لا تنس أن تقول لهما على لسانى انى سأتولى الأمر
بنفسى ، فأمسكه بيدى سعيدة بذلك ، ولتطمئن بالاً فلن تصاب كبرياؤها
بسوء • ذلك أننا تشاجرنا فى الأيام الأخيرة ، وشاتمنا ! فاركض اليها ••
بل انتظر •• أرنى جييك •• هل ما قلته صحيح ؟ صحيح حقاً ؟ هـ ؟
هل هو صحيح حقاً ؟ أعطنى الرسالة اذن ، أبقها معى هذه الليلة فحسب •
هل فى هذا ما يضررك ؟ اتركها عندى • لن أكلها • من الجائز أن تضيعها
فى هذه الليلة •• أو أن تغير رأيك !

- مستحيل ! أمسكى ، جئسى ، شوفى ! لكننى لن أتركها لك
بحال من الأحوال •

جست تاتيانا بافلوفنا جيبي بأصابعها ، فقالت :

- ثمة ورقة حقاً • طيب • اذهب • هيّا • وسأب أنا الى المسرح •
فكرت تلك حسنة • ولكن اركض ، ما بالك لا تركض •

- تاتيانا بافلوفنا ، لحظة ! كيف حال أمى ؟

- حسنة •

- وآندره بتروفتش ؟

فحركت يدها بإشارة تهرّب ثم قالت :

- سيسترد عقله •

فانصرفت مسرعاً وقد تشبعت وامتلأت نفسى رجاءً وأملًا ، رغم
أن النتيجة كانت غير ما توقعت •

ولكن القدر كان قد شاء أن تعجز الأمور مجرى آخر ، وكنت
أجهل ما هيام لى • حقاً ان على هذه الأرض قدراً •

سمعت فى بيتنا جنبه وأنا على السلم • كان باب البيت مفتوح
وفى الدهليز كان يقف خادم بملابس رسمية • وكان بطرس هيبوليتوف
وامراته واقفين كذلك فى الدهليز ينتظران مدعورين • ان باب غـ
الأمير مفتوح : وفى داخل الغرفة يجلبجلب صوت راعد سرعان ما عرفت
انه صوت بيورنيج • وما ان خطوات خطوتين حتى رأيت بيورنيج يجـ
الأمير الى الدهليز ، هو ورفيقه البارون « ر • • • » الذى سبق أن
يفاوض فرسيلوف • كان الأمير غارقاً بدموعه ، يرتجف ويشهق ويهـ
بيورنيج ويقبله • وكان بيورنيج يزعم صارخاً فى وجه آنا آندريفنا
خرجت هى أيضاً الى الدهليز تتبع الأمير • وكان بيورنيج يهدد
ويتوعدها ، وأظن أنه كان يضرب الأرض بقدمه • الخلاصة أنه
يتصرف تصرف جنسى ألماني فظ ، رغم كل « المجتمع الراقى الذى
ينتمى اليه » • وقد عرف فيما بعد أنه اعتقد أن آنا آندريفنا قد ارتكـ
جريمة من جرائم الحق العام ، وأنها يجب أن تحاسب الآن على
الجريمة أمام القضاء • كان من جهله بالقضية يضخمها ويبالغ فيها ،
يحدث هذا لكثير من الناس ، لذلك كان يرى أن من حقه أن يتصرـ
دون اكتراث بأى شئ ، ودون مراعاة لأى اعتبار • لا سيما وأنه
يتح له الوقت الكافى لتعمق المسألة : لقد وصلته رسالة غير مذيلة بتوـ
صاحبها ، تبلغه كل شئ ، كما ظهر ذلك من بعد (وكما سأذكر بـ
قليل) ، فهرع وهو على هذه الحالة من الغضب المسعور التى يمكـ
أن ينحدر إليها وينقاد لها أرقى الناس فكراً من أبناء هذا الشعب الألماني

فإذا هم لا يفوقون فى سلوكهم اسكافياً من الاسكافيين • وقد استقبلت
آنا آندريفنا هذه الهجمة بوقار كبير ، لكننى لم أشهد هذا • وانما رأيت
بيورنيج ، بعد أن جرد العجوز الى الدهليز ، يسلمه فجأة الى البارون
« ر • • • » ، ثم يرجع مسرعاً نحو آنا آندريفنا فيرشقها بالجملة التالية
(ربما جواباً على ملاحظة منها) :

— أنت محتالة متآمرة • ان ما تريدنيه هو ماله ! فاعلمى أنك منذ
هذه اللحظة قد تلتطخ شرفك فى المجتمع ، وأنت ستحاسنين أمام
القضاء ! • • •

— أنت الذى تستغل مريضاً مسكيناً بعد أن دفعتموه الى الجنون
دفعاً • • • ثم تعجىء تنتقم منى لأتتى امرأة ليس لها من يدافع عنها • • •

فقال بيورنيج ساخراً غاضباً ، بلهجة سيئة :

— آ • • • نعم • • • أنت خطيئته ، خطيئته ! • • •

قال الأمير دامج العينين :

— بارون • • • بارون • • •

ثم أضاف وهو يمد يديه نحو آنا آندريفنا :

— « أحبك يا ابنتى العزيزة » !

فصرخ بيورنيج قائلاً :

— دعك يا أمير ، ان هناك مؤامرة عليك ، وربما على حياتك !

— « نعم ، نعم ، أفهم ، فهمت منذ البداية » • • •

قالت آنا آندريفنا رافعة صوتها :

— أمير ، انك تهيننى ، وتسمع لغيرك بأن يهيننى !

فصرخ بيورنيج قائلاً لها فجأة :

- اخرجى من هنا !

فلم أستطع صبراً • فزأدت أقول له :

- وغد •

وأضفت مخاطبها :

- آنا آندريفنا ، أنا أدافع عنك •

ليس فى بيتى ولا فى وسعى أن أسجل جميع التفاصيل • لقد كان مشهداً رهيباً دنيشاً • فقدت صوابى فجأة • أظن اتى هجمت عليه فضربه ، أو صدمته صدمة قوية على الأقل • فضربنى على رأسى بكل ما أوتى من قوة ، فاذا أنا أسقط على الأرض • فلما ثبت الى نفسى ، اندفعت اطاردهم على السلم • أذكر أن الدم كان يسيل من أنفى • وكانت تنتظرهم عند الباب عربة فقيما كانوا 'يركبون الأمير' ، وثبت الى العربة ، وهجمت مرة أخرى على بيورنج رغم أن الخادم كان يبعدنى وينحبنى • لا أتذكر الآن كيف وصلت الشرطة • ولكن بيورنج أمسك ياقتي وأصدر الى الشرطى أمراً صارماً بأن يقتادنى الى المخفر • فصرخت أقول ان من الواجب أن يعجى هو أيضاً الى المخفر لتسجيل محضر ، وانه ليس من الحق أن 'أعتقل وأنا فى بيتى تقريباً' • ولكن لما كان المشهد قد حدث فى الشارع لا فى البيت ، ولما كنت أصرخ وأشتتم وأتخبط كسكران ، ولما كان بيورنج مرتدياً بزته العسكرية ، فقد قبض على الشرطى ، فاذا أنا يجن جنونى فعلاً ، فأقاوم الشرطى بكل ما أملك من قوة ، حتى لقد ضربته فيما أظن • وأتذكر أن اثنين وصلا بعد ذلك ، فاقسادانى • ولكننى لا أكاد أتذكر كيف 'أدخلت الى غرفة يملؤها الدخان ، وتفسد جوها رائحة التبغ ، ويحتشد فيها أنواع من الأشخاص بعضهم قاعد وبعضهم واقف ، بعضهم ينتظر وبعضهم يكتب • وهناك أيضاً ظللت أزق مطالباً بكتابة محضر ، فبذلك تمقدت القضية اذ دخلها

عنصر مقاومة السلطة والتمرد عليها • وكان هندامى قد ساء كثيراً •
ونهرنى أحدهم نهراً عنيفاً • وأخذ شرطى يتهمنى بمشاجرة استعملت
فيها الضرب ، وطفق يحكى القصة فقال : كان كولونيل ... الخ ...

صرخ أحدهم يسألنى :

- ما اسمك ؟

فزعت أقول :

- دولجوروكى •

- الأمير دولجوروكى ؟

فأخرجنى هذا السؤال عن طورى وأفقدنى رشدى ، فأجبت
بشتائم فاحشة ... ثم ... ثم ... أتذكر أننى 'جررت الى حجرة مظلمة
'لأفبق من سكرى' ، لا ، لست أحتج • لقد قرأ جميع الناس فى
الصحف فى الآونة الأخيرة شكوى سيد قصى ليلة كاملة فى المخفر ،
وكبّل بالسلاسل فى غرفة 'الصحو من السكر' ، وكان ذلك الرجل
بريثاً براءة تامة ، أما أنا فقد كنت مذنباً • تهالكت على مرقد الى جانب
شخصين كانا نائمين كجثتين هامدين من فرط السكر • كنت مصاباً
بصداع ، وكان صدغى ينبضان ، وكان قلبى يدق دقاً قوياً • وأغلب
الظن أننى قد أغمى على' ، وأخذت أهذى • لكننى أتذكر اننى استيقظت
فى وسط الليل ، فجلست على المرقد ، فتذكرت فجأة كل شيء ، وأدركت
كل شيء ، فجعلت كوعى' على ركبتي' ، ووضعت رأسى بين يدى ،
وغرقت فى تفكير عميق •

لا ، لن أصف هنا عواطفى ، فليس فى الوقت متسع لذلك • ولكننى
أريد أن أسجل ما يلى : لعننى لم أعش فى حياتى كلها لحظات أحفل
بالفرح من تلك الدقائق التى قضيتها مفكراً ، فى الليل العميق ، على
المرقد الحجري ، بمخفر الشرطة • قد يسدو هذا للقارىء أمراً غريباً

شاذاً ، وقد يحسبه نبجاً وتفاخراً ، وقد يعده رغبة في الاغراب والتفرد . ولكن ما أقوله هو الحقيقة . تلك لحظة من اللحظات التي قد يمر بها كل انسان ، ولكن مرة واحدة في حياته . ففي تلك اللحظة يقرر مصيره ، ويحدد آراؤه ، ويقول لنفسه الى الأبد : « انظر أين هي الحقيقة ، وانظر أين يجب أن تنشدها » . نعم ، لقد أضاعت تلك اللحظة نفسي . كنت أعلم حق العلم ، بعد أن أهانت ذلك الرجل الوقح بيورنج ، وبعد أن أيقنت أن تلك المرأة التي تنتمي الى المجتمع الراقى ستهينني أيضاً في الغد ، كنت أعلم حق العلم أنني أستطيع أن أنتقم انتقاماً رهيباً ، ولكنني قررت ألا أنتقم . وقررت ، رغم الاغراء ، ألا أكشف عن الوثيقة ، وألا أطلع عليها الناس (كما كانت تدور هذه الفكرة في رأسي) ، وأخذت أكرر على نفسي أنني سأضع الوثيقة أمامها منذ الغد ، وأني قد لا أحظى منها بكلمة شكر بل بابتسامة سخر ، غير أنني ، رغم كل شيء ، لن أقول كلمة واحدة ، وسأتركها الى الأبد . . . ولكن لا داعي الى الاحلاس . أما ما سيحدث غداً حين أساق الى السلطات ، وما سبصنع بي ، فذلك أمر نسيت تقريباً أن أفكر فيه . ورسمت على نفسي اشارة الصليب بارتياح ومجبة ، واضطجعت على المرقد ، ونمت نوماً مضيئاً كنوم الأطفال .

ولم أستيقظ في الغد الا ضحى . أنا الآن في الحجرة وحيد . جلست . وأخذت أنتظر صامتاً . انتظرت مدة طويلة . قرابة ساعة . وأغلب الظن أن الساعة كانت قد بلغت التاسعة حين نوديت . في وسمي أن أذكر تفاصيل كثيرة . ولكن لا داعي الى ذلك ، مادامت هذه القصة كلها قد انتهت الآن . وحسبي أن أشير الى الشيء الأساسي . ما كان أشد دهشتي حين رأيتهم يعاملونني بدمائه غير مهودة : ألقوا عليّ بضعة أسئلة ، أجبت عنها بما لا أتذكره الآن ، ثم أطلقوا سراحي فوراً . خرجت صامتاً . وقد ارتحت أشد الارتياح حين قرأت في أعينهم دهشتهم من رجل عرف كيف لا يفقد شيئاً من وقاره في مثل الظروف الذي هو

فيه • لقد رأيت هذه الدهشة ، ولولا أنني رأيتها لما سجلتها • وكانت
تاتيانا بافلوفنا تنتظرنى أمام الباب • وسأشرح الآن كيف أمكن إخلاء
سبيل بمثل هذه السهولة •

فى ساعة مبكرة من الصباح ، فى نحو الساعة الثامنة ، هرعت
تاتيانا بافلوفنا الى بيتى ، أعنى الى بيت بطرس هيبوليتوفتش ، آملة أن
تجد الأمير هناك ، فاذا هى تعلم بكل ما وقع فى الليلة البارحة من أهوال ،
واذا هى تعلم خاصةً بأننى اعتقلت • فما هى الا طرفة عين حتى كانت
عند كاترين نيقولايفنا (التى التقت بأبيها منذ الليلة البارحة عند عودتها
من المسرح ، اذ جىء به الى بيتها) ، فأيقظتها من نومها ، وأخافتها ،
وطالبت بالافراج عنى فوراً • فزودتها كاترين نيقولايفنا ببطاقة طارت
بها فوراً الى يورنيج تطلب منه بطاقة أخرى فى الحال ، موجهة الى
« من يهمه الأمر » ، مشتملة على « رجاء الافراج عنى بغير ابطاء لأننى
اعتقلت خطأ » • وبهذه البطاقة وصلت الى مخفر الشرطة ، فتمت تلبية
الرجاء •

الآن أعود الى النقطة الأساسية •

أمسكت تاتيانا بأفلوفنا ذراعى ، وأركبتى عربة ، وقادتني الى بيتها •
وهناك أمرت بسماور الشاي حالاً ، وربت هندامى ، ونظفتنى فى
المطبخ • وفى ذلك المطبخ نفسه قالت لى بصوت عال ان كاترين نيقولايفنا
ستصل اليها بنفسها فى الساعة الحادية عشرة والنصف لثرائى (اتفقتا على
ذلك منذ قليل) • وقد سمعت مارى هذه الكلمات • فجاءتنا بالسماور
بعد دقيقة ، ولكن حين نادتهما تاتيانا بأفلوفنا بعد دقيقتين ، لم
تجِب ، اذ كانت قد خرجت من البيت • أرجو القارىء أن يُبقى هذا
الأمر مانلاً فى ذهنه • أظن أن الساعة كانت فى نحو العاشرة الا ربمأ •
وقد غضبت تاتيانا بأفلوفنا من غياب مارى بدون اذنٍ منها • ولكنها
قالت لنفسها انها ذهبت الى المتجر ، ثم لم تخطر لها على بال • كان لدينا
أشياء أخرى نفكر فيها • كنا نتكلم بدون توقف ، لأن هناك ما نتكلم فيه ،
حتى اننى لم أُنَبِّه الى اختفاء مارى • ولكنى أرجو القارىء أن يُبقى هذا
الأمر مانلاً فى ذهنه •

كنت كالمخبول طبعاً • وكنت أتحدث عن عواطفى • وكنا نتنظر
كاترين نيقولايفنا خاصة • وكنت أرتعش حين أتصور أننى سألقاها بعد
ساعة ، وأننى سألقاها فى مثل هذه اللحظة الحاسمة من حياتى • وأخيراً ،
بعد أن حسوت فتجائنين من الشباى نهضت تاتيانا بأفلوفنا فجأة ، وتناولت
المقص من على الطاولة وقالت لى :

- هات جييك • يجب سحب الرسالة الآن • فليس يمكننا أن
نقص الجيب بحضورها !

فهتفت أقول وأنا أحل أضرار رديجوتى :

- نعم •

- ما هذه الحياطة المشريكة ؟ من خاط هذه الحياطة ؟

- أنا يا تاتيانا بافلوفنا ، أنا نفسى !

- واضح أنك الذى خطت !

ومسحت الرسالة • كان الطرف هو الطرف نفسه • ولكن لم يكن
فى الطرف الا ورقة بيضاء •

هتفت تاتيانا بافلوفنا قائلةً وهى تقلب الورقة على جميع الوجوه :

- ما معنى هذا ؟ ما هذا الذى مالت ؟

كنت واقفاً مشلول اللسان ، أصفر الوجه ••• ونهالكت على
الكرسى خائر القوى فجأةً وكاد 'يغمى على ' :

أعولت تاتيانا بافلوفنا تقول :

- وما معنى هذا أيضاً ؟ أين الرسالة ؟

فصرخت أقول بغتةً وأنا استنفض :

- لامبير !

لقد حزرتُ أخيراً ، ولطمت جينى بىدى • وأخذت أشرح لها
بسرعة كل شيء ، وأنا متقطع الأنفاس ، فحدثتها عن الليلة التى بت
فيها عند لامبير ، وعن المؤامرة التى حكناها حينذاك • وكنت على كل حال
قد اعترفت لها بهذه المؤامرة أمس •

صرخت أقول وأنا أقرع الأرض بقدمىَّ وأشد شعر رأسى بىدى :

— سرقوها منى ! سرقوها منى !
فقال تاتيانا بافلوفنا وقد أدركت الأمر:
— يا للمصيبة ! كم الساعة الآن ؟
— الحادية عشرة تقريباً •
— ومارى التى ليست هنا ! يا مارى ! مارى !
فاجابت مارى فجأة من قرارة المطبخ :
— ماذا تريد مولاتى ؟
— أنت هنا ؟ ولكن ما العمل الآن ؟ سأنب الى عندها •• وأنت
يا من لا تصلح لشيء !
— انا أذهب الى لامير • لأذبحته اذا لزم الأمر •
ولكن مارى صاحت تقول من المطبخ :
— مولاتى ، ان • واحدة • تسأل عنك •
وما كادت مارى تنهى جملتها حتى دهمتا تلك « الواحدة » من
تلقاء نفسها صارخة معولة • انها آلفونسين • لن أصف المشهد بجميع
تفاصيله • كانت تلك خدعة وأكثوبة ، ولكن يجب أن نصرف لآلفونسين
بأنها أجادت التمثيل اجادة هائلة • ردت آلفونسين ، وهى تذرف دموع
الندم وتحرك يديها بإشارات محمومة ، ردت (بالفرنسية طبعاً) أنها
هى التى سرت الرسالة ، وان الرسالة الآن عند لامير ، وأن لامير ،
بالتواطؤ مع ذلك « الرجل الأسود » ، « قاطع الطرق » ، يريد استدراج
« السيدة الجنرالة » الى بيته ، ليقتلها فوراً ، بعد ساعة ••• وأنها سمعت
هذا كله من فيهما ، فاعتراها دعر رهيب حين رأت بين يديهما المسدس ،
فهرعت الى هنا ، الينا ، لنذهب معها ، لننقذ كاترين نيقولايفنا ، لنوقها
القتل ••• ذلك الرجل الأسود •••

الخلاصة أن ذلك كله بدا لنا جائزاً جداً ، حتى ان السخافة
والحماقة فى بعض شروح ألفونسين كانت تقوّى جوازه .

صاحت تاتيانا بافلوفنا تسألها :

- أى « رجل أسود » ؟

- « نسيّت اسمه .. رجل فظيع .. نعم .. اسمه فرسيلوف » .

فهتفت :

- فرسيلوف ؟ مستحيل !

فصرخت تاتيانا بافلوفنا :

- بل يمكن أن يفعلها ! ولكن قولى لى يا « سيّدة » ، بدون وثب
ونط ، وبدون تحريك الذراعين والرجلين ، ماذا يريدان أن يفعلا ؟
اشرحى شرحاً معقولاً : اتنى لا أستطيع أن أصدّق أنهما يريدان أن
يطلقا عليها الرصاص ♦♦♦

فأخذت « السيّدة » تشرح فقالت (تذكروا أن ذلك كله كان كذباً
كما سبق أن نبّهت) ، قالت ان فرسيلوف سيبقى وراء الباب ، وان
لامير سيربها هذه الرسالة ، متى دخلت ، وعندئذ يشب فرسيلوف فـ ♦♦♦
« فينتقمان منها » . وانها ، هى ألفونسين ، تخشى أن تحل بها كارثة ،
لأنها كانت شريكة متواطئة ، ولأن تلك « السيّدة الجنرالة » ستأتى حتماً ،
« على الفور ، على الفور » ، لأنهما أرسلتا إليها نسخة من الرسالة ، فسوف
ترى حالاً أن الأصل فى حوزتهما فعلاً ، فلا بد أن تأتى . ولامير وحده
هو الذى كتب لهما الرسالة ، فهى لا تعرف شيئاً عن فرسيليف . وقد
عرف لامير نفسه بأنه رجل أوفدته من موسكو ، سيّدة بموسكو
(لاحظوا : ماريا ايفانوفنا !) ♦

صاحت تاتيانا بافلوفنا تقول :

- آه .. أشعر بألم فى قلبى .. أحسن بتدهور فى صحتى ! ..

وصرخت ألفومسين :

- « أنقذوها ! أنقذوها ! » ..

لاشك أن هذا النبا المجنون يشتمل على كثير من التفكير يدركه المرء حتى من أول نظرة ، ولكن وقتنا لم يتسع للتفكير فيه ، لأنه كان يبدو جائزاً كل الجواز حقاً . وكان فى وسعنا أن نفترض أيضاً أن من المحتمل جداً أن تمر كاترين نيقولايفنا بنا أولاً ، أى أن تجيء أولاً إلى بيت تاتيانا بافلوفنا بعد تلقيها دعوة لأمير ، لتستجلى الأمر . ولكن هذا أيضاً يمكن جداً ألا يحدث ، فقد تذهب إليها رأساً ، فهلك ! .. وكان يصعب على المرء مع ذلك أن يصدق أن ترتعى هذا الارتواء على رجل مجهول مثل الأمير ، استجابةً لأول نداء منه . ولكن هذا يمكن أن يحدث أيضاً ، بعد أن ترى نسخة الرسالة ، فتقتنع بأن الأصل موجود عنده فعلاً ، فتذهب إليه فتقع الكارثة . وكان الوقت شديد الضيق خاصةً ، فما ينبغي أن نضيع منه دقيقة واحدة فى التفكير .

وهتفت أقول :

- لسوف يقتلها فرسيلوف ! إذا كان قد هبط الى حيث يتصلل بالامير ، فسوف يقتلها حتماً ! انه المثل !

قالت تاتيانا بافلوفنا وهى تعقف يديها :

- آه ! .. هو « المثل » . هلم بنا . لابد ! خذ قبعتك ومعطفك ، ولتذهب الى هناك معاً . قودينا يا سيدة . آه .. ما أبعد المكان ! يا مارى ، مارى ! اذا جاءت كاترين نيقولايفنا فقولى لها اننى راجمة حالاً ، فلتجلس ولتنتظرنى ، واذا أبت أن تنتظر فأقفى الباب بالفتاح ، واحبسها عن الخروج عنوةً . قولى لها اننى أنا التى أمرت بهذا . سأعطيك مائة روبل يا مارى اذا أنت صنعت لى هذا المعروف .

واندفعنا الى السلم • لاشك أن هذا خير ما يمكن عمله ، لأن
البلاء الأكبر عند لامير ، فاذا اتفق أن جاءت كاترين نيقولايفنا الى تاتيانا
بافلوفنا أولاً ، فسيكون في وسع ماري أن تحتجزها • ومع ذلك فان
بافلوفنا غيرت رأيها فجأة ، رغم أنها كانت قد نادت حوذيًا • قالت
وهي تركني مع آلفونسين :

— اذهب أنت معها • ومت هناك اذا لزم الأمر ، هل تفهم ؟ وسألحق
أنا بك • أما الآن فانتى سائب الى بيتها ، فقد أجدها هناك ، لأن الشكوك
لا تزال تساورني ، مهما تقل !

وطارت الى بيت كاترين نيقولايفنا • وركضنا أنا وآلفونسين
الى بيت لامير • كنت أستحث الحوذي على الاسراع ، وأستمر في القاء
الأسئلة على آلفونسين في الوقت نفسه ، ولكن آلفونسين أصبحت لا تجيب
الا بصيحات وتأوهات ، وطفقت تبكي آخر الأمر • ولكن القدر كان
يحرسنا ، فحمانا جميعاً حين كان كل شيء معلقاً بخيط واهن • فبا ان قطعنا
ربيع الطريق حتى سمعت صرخة ورائي تناديني باسمي على حين فجأة ،
فالتفت ، فاذا أنا أرى تريشاتوف يلحقنا بعربة • صاح مرتاعاً :

— الى أين ؟ ومعه ، مع آلفونسين ؟

فصحت أقول له :

— لقد صدقت فيما قلت يا تريشاتوف : ان كارثة ستقع ! اننى
ذهاب الى ذلك الوغد السافل لامير ! فتعال معي ، فيكون عددنا أكبر !

فصرخ تريشاتوف قائلاً :

— بل ارجع ، ارجع حالاً • لامير يكذب ، وآلفونسين تكذب
أيضاً • المجذور هو الذى أرسلنى • ليسا في البيت : لقد لقيت لامير
وفرسيلوف منذ هنيهة • لقد ذهبنا الى بيت تاتيانا بافلوفنا • • • وهما
الآن هناك • • •

أوقفت العربية ، وقفزت الى عربة تریشاتوف • ماالت لا أدري
كيف اتخذت ذلك القرار فجأة ، ولكننى صدقت تریشاوف ، فسرعان
ما عزمتم أمرى • أخذت ألفونسین تطلق صرخات رهيبة ، ولكننا
تركناها فلا أدري هل تبعتنا أم هى رجعت الى بيتها • ولكننى لم أرها
بعد ذلك على كل حال •

وفى العربة ، أنصى الى تریشاتوف ، كيفما اتفق ، وهو يلهث ،
بأن مكيدة قد دُبّرت ، وأن لامبير اتفق مع المجدور ، ولكن المجدور
خان لامبير فى آخر دقيقة ، فأرسله ، هو تریشاتوف ، الى تاتيانا بافلوفنا
ليبلغها أن عليها ألا تصدّق لامبير وآلفونسین • وأضاف تریشاتوف
أنه لا يعرف غير هذا ، لأن المجدور لم يزد على ذلك شيئاً ، لأن وقته
لم يتسع لمزيد من الايضاح ، ولأنه كان على عجلة من أمره هو أيضاً ،
لأن القضية كلها توجب الاسراع • وتابع تریشاتوف كلامه فقال : « رأيت
أنك ذهبت فجزيت أتبعك » • كان واضحاً اذن أن المجدور يعرف كل
شئ هو أيضاً ، مادام قد أرسل تریشاتوف الى بيت تاتيانا بافلوفنا رأساً •
ولكن هذا كان لغزاً آخر •

ومن أجل ألا تختلط الأفكار ، سوف أعمد الآن ، قبل وصف
الكارثة ، الى شرح الحقيقة الصادقة كلها ، مستبقاً الأحداث آخر مرة •

بعد أن سرق لامبير الرسالة أسرع يتصل بفرسيلوف • أما كيف
 أمكن لفرسيلوف أن يتفق مع لامبير ، فهذا ما لا أقوله الآن ، وانما أرجئه
 الى حينه • انه « المثل » على كل حال ! ولكن كان على لامبير ، بعد أن
 تحالف مع فرسيلوف ، أن يستدرج كاترين نيقولايفنا بأسلوب حاذق
 بارع • • لقد كان فرسيلوف يؤكد له أنها لن تأتي • ولكن لامبير ، منذ
 أن لقيته في الشارع امس الأول ، وأعلنت له متباها متفاخراً أنني سأرد
 الرسالة الى كاترين نيقولايفنا في بيت تاتيانا بافلوفنا وبحضور تاتيانا بافلوفنا ،
 قد أقام نوعاً من الرقابة على شقة تاتيانا بافلوفنا : اذ اشترى ماري بعشرين
 روبلا • وغداة غد ، بعد ان تمت سرقة الرسالة ، زار ماري مرة أخرى ،
 وتفاهم معها تفاهما كاملاً ، اذ وعدها بمائتي روبل ثمناً لما ستقدمه له من
 خدمات •

ذلكم هو السبب في أن ماري ما ان سمعت أن كاترين نيقولايفنا
 ستكون عند تاتيانا بافلوفنا في الساعة الحادية عشرة والنصف وأنتى
 سأكون أنا أيضاً عندها ، حتى وثبت خارجة من البيت وركبت عربة
 وأسرعت تحمل النبأ الى لامبير • • هذا بعينه هو ما كان عليها أن تخبر به
 لامبير ، هذه هي الخدمات التي كان يجب عليها أن تقدمها له • واتفق
 أن كان فرسيلوف في تلك اللحظة ذاتها عند لامبير • فما هي الا طرفة عين
 حتى تخيل تلك اللحظة الجهنمية • يقال ان المجانين يكونون في بعض
 اللحظات من أوسع الناس حيلة وأعظمهم مكرآ •

وكانت الخطوة هي أن نستدرج ، أنا وتانيا ، الى خارج المسكن
بأية وسيلة من الوسائل ، ولو ربع ساعة فقط ، ولكن قبل وصول
كاترين نيقولايفنا ؟ وأن ينتظراهما في الشارع ، فمتى خرجنا أنا وتانيا
بافلوفنا دخلا الى البيت الذي ستفتحه لهما ماري ، وانتظرا وصول كاترين
نيقولايفنا . وفي أثناء ذلك يكون على ألفونسين أن تحتجزنا بكل ما أوتيت
من قوة في أى مكان تشاء ، وبأية وسيلة تراها . واذا أن كاترين نيقولايفنا
ستصل في الساعة الحادية عشرة والنصف ، كما وعدت بذلك ، فانها ستصل
اذن قبل أن نستطيع نحن أن نعود (طبعا لم تتلق كاترين نيقولايفنا أية
دعوة من لامبير ، لقد كذبت ألفونسين : ان هذه القصة كلها انما كانت من
اختراع فرسيلوف بجميع تفاصيلها . ولم تزد ألفونسين على أن مثلت دور
الحائن الذي يخون من شدة فزعه) . ومن الواضح أنهما كانا يتعرضان
للاخفاق ، ولكن تفكيرهما كان سليما : ، اذا نجحت الخطوة كان بها ، واذا
لم تنجح فلا نفقد شيئا لأن الوثيقة تبقى معنا . ولكن الخطوة نجحت ،
وكان لا يمكن الا أن تنجح ، لأننا كنا لا نستطيع الا أن نركض وراء
آلفونسين مدفوعين بهذا الافتراض : « ماذا لو صح ما تقوله ؟ » . أعود
فأقول : ان وقتنا لم يتسع للتفكير .

داهمنا المطبخ أنا وتريشاتوف ، فوجدنا مارى شبه ميتة من الخوف •
لقد أزعجها ، حين أدخلت لاميير وفرسيلوف ، أن رأيت بين يدي لاميير
مسدسا على حين فجأة • لئن قبلت من لاميير مالا ، فإن المسدس لم يدخل
فى حسابها قط • فكأنت مضطربة أشد الاضطراب ، فما ان رأيتى حتى
ارتعت على وقالت :

— الجنرالة جاءت ، ومعها مسدس !

قلت أمر تريشاتوف :

— تريشاتوف ، ابق أنت هنا فى المطبخ • فمتى صرخت أنا عليك
هرعت الى نجدتى بكل ما أوتيت من قوة •

وفتحت لى مارى باب الدهليز ، فتسللت الى غرفة تاتيانا بافلوفنا ،
الى تلك الغرفة الصغيرة التى ليس فيها مكان الا لسرير تاتيانا بافلوفنا ،
والتي سبق لى ذات مرة أن تنصت منها على حديث • جلست على السرير ،
وأسرعت أزعج الستارة قليلا •

وكان فى الغرفة جلبة منذ ذلك الوقت ، وكان الحديث يجرى
بصوت عال • يجب أن أذكر أن كاترين نيقولايفنا قد وصلت بعدهما
بدقيقة واحدة • وكنت قد سمعت هذه الجلبة وذلك الحديث منذ أن
دخلت المطبخ •

كان الصباح يصدر عن لاميير • كانت هى جالسة على الديوان
وكان هو متمسرا أمامها يصرخ كأبله • اننى أعلم الآن لماذا فقد هدوءه

بهذا النبأ : لقد كان على عجلة من أمره ، كان يخشى ان يفاجأ • وكانت الرسالة فى يده • لكن فرسيلوف لم يكن بالفرقة • وقد تأهبت للونوب عند أول خطر • وهأنذا أروى معنى الأحاديث التى جرت بينهما ، معناها فحسب • ربما كان هناك أشياء كثيرة لا أتذكرها تذكراً واضحاً • ولكنى كنت عندئذ أشد انفعالا واضطراباً من أن أستطيع حفظها بدقة •

— هذه الرسالة تساوى ثلاثين ألف روبل • هل تدهشين ؟ الحق أنها تساوى مائة ألف ، لكننى لا أطلب الا ثلاثين ألفاً •

كذلك قال لامير بصوت عال ، مندفعاً اندفاعاً رهيباً • فكانت كاترين نيقولايفنا ، رغم زعرها الواضح ، تنظر اليه بازدراء واحتقار • قالت : — واضح أن ههنا فخاً ، فلست أفهم شيئاً • ولكن اذا كانت تلك الرسالة معك حقاً ••

فقاطعها لامير قائلاً :

— خذى ! هى ذى ! انظرى اليها ! انظرى اليها ! ألسنت هى نفسها ؟ ثلاثون ألف روبل لا تنقص كوبكاً واحداً ••

— لست أحمل مالا •

— اكتبى سنداً • اليك ورقة • وبعد ذلك تجيشنى بالمال ، وسوف أنتظر أسبوعاً لا أكثر • فمتى جئتى بالمال رددت اليك السند والرسالة • — انك تكلمنى بلهجة سخيفة • وانك لمخطئ • سوف تؤخذ منك هذه الوثيقة متى شكوتك ••

— لن ؟ ها ها ها ! والفضيحة ؟ والرسالة التى سنطلع عليها الأمير ؟ وكيف يمكن أن تؤخذ منى ؟ اننى لا أحتفظ بوثائق فى بيتى • وسأطلع عليها الأمير بواسطة شخص ثالث • لا تصدى يا سيدتى ، اشكرى

لى اننى لا أطلب الا مبلغاً زهيداً • لو كان فى مكانى رجل آخر لطلب
منك خدمات أخرى تعرفين ما هى ! انها الخدمات التى لا ترفض أية
امرأة جميلة أن تقدمها فى حالة صعبة وظرف حرج • أعرفت ما هى
تلك الخدمات ؟ ها ها ها ! • « أنت امرأة جميلة ! » •

لم تزد كاترين نيقولايفنا على أن وثبت وثبة واحدة وقد احمرت
احمراراً شديداً ، فبصقت فى وجهه • ثم اتجهت بسرعة نحو الباب •
فاذا بالأحقق يشهر مسدسه • انه ، وهو الأبله المحدود العقل ، كان
مؤمناً ايماً أعمى بما سيكون للوثيقة من أثر ، فلم يدخل فى حسابه
نوع المرأة التى يخاطبها ، وذلك لأنه ، كما سبق أن قلت ، يتصور لدى
جميع الناس وجود تلك المواطن الدنيئة نفسها التى تملأ قلبه • لقد
أثار بفظاظته حقن كاترين نيقولايفنا منذ أول كلمة ، ولعلها ما كانت
لترفض تسوية مالية •

أعول يقول وقد ثارت ثائرتة من البصقة :

— لا تتحركى !

وأمسكها من كتفها وأراها المسدس ، ليخيفها طبعاً • فصرخت
وتهاكت على الديوان • فاندفعت أنا الى الغرفة • ولكن ، فى تلك اللحظة
نفسها ، دخل فرسيلوف من الباب المتصل بالدھليز (كان ينتظر هناك) ،
فلم أكد ألقى نظرة واحدة حتى كان قد انتزع المسدس من لاميير ،
وأخذ يضربه على رأسه بكل ما أوتى من قوة • فترنج لاميير ، وسقط
مغشياً عليه • وكان الدم يسيل غزيراً من جمجمته على السجادة •

أما هى فأنها حين أبصرت فرسيلوف ، قد اصفر وجهها اصفراراً
شديداً ، وشخصت اليه ببصرها بضع لحظات مرتاعة أشد الارتياح ، ثم
لم تلبث أن أغمى عليها • فارتمى عليها • هذا كله يبدو لى أننى لا أزال

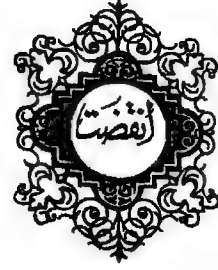
أراه • أتذكر أنني ذعرت حين رأيت وجهه الأحمر الذى يشبه أن يكون بلون القرمز ، وحين رأيت عينيه المحققتين • وانى لأظن أنه ، وقد رآنى فى الغرفة ، لم يعرفنى • ارتمنى عليها ، فتناول جسمها الهامد ، وأنهضه بقوة خارقة ، فحملها على ذراعيه بسهولة كأنه يحمل ريشة ، وأخذ يجول بها فى الغرفة ، وقد لاح فى وجهه الجنون • كانت الغرفة صغيرة ، ولكنه كان يطوف من ركن الى آخر ، دون أن يدرك لماذا يفعل ذلك • لقد فقد عقله فى لحظة • وكان لا ينقطع عن النظر اليها ، عن النظر الى وجهها • وكنت أنا أركض وراءه • كنت خائفاً من المسدس خاصة : لقد نسيه فى يده اليمنى مصوباً الى رأسها •

ولكنه دفننى مرة بكوعه ، وركلنى مرة أخرى برجله • وقد أودت أن أنادى تريشاتوف ، ولكننى خفت أيضاً أن أحقق الجنون • واخيراً أزعجت الستارة ازاحة تامة على حين فجأة ، وتوسلت اليه أن يرقدها على السرير • فاقرب ووضعها على السرير ، لكنه تسمر أمامها وحدث الى عينها تحديقاً ثابتاً مدة دقيقة ، ثم اذا هو يميل عليها فجأة فيقبل شفيتها الشاحبتين مرتين • فأدركت أنه قد فقد عقله فقداً تاماً ثم اذا هو يرفع مسدسه ويهم أن يضربها به ولكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه ، فصوب المسدس الى وجهها ليطلق النار • فأمسكت ذراعه فوراً بكل ما أملك من قوة ، وناديت تريشاتوف • أتذكر أننا صارعناه كلانا ، ولكنه استطاع أن يخلص ذراعه وأن يطلق النار على نفسه • لقد كان يريد أن يقتلها ، ثم يقتل نفسه • لكنه ، وقد منعاه من قتلها هى ، صوب المسدس الى قلبه هو • ولقد استطعت مع ذلك أن أرفع ذراعه الى أعلى ، فاستقرت الرصاصه فى كتفه • وفى تلك اللحظة علت صرخة • انها تاتيانا بافلوفنا تدمم الغرفة • ولكن فرسيلوف كان قد رقد على الأرض مغشى عليه الى جانب لامبير •

الفصل الثالث عشر

١

خاتمة



على ذلك المشهد قرابة ستة اشهر • ان مياهها كثيرة
قد جرت تحت الجسور ، وأن أشياء كثيرة قد
أنبرت • وبدأت أنا حياة جديدة • وسوف أخلص
القارىء من حديثى أنا أيضا •

ان سؤالا قد شغل فكرى حينذاك وظل يشغله مدة طويلة : كيف
أمكن لفرسيلوف أن يرتبط بشخص مثل لامير ؟ وما الهدف الذى كان
يرمى اليه ؟ وقد انتهيت الى تفسير الأمور على النحو التالى : انه أثناء تلك
الفترة الفاجعة القصيرة ، أعنى اليوم الأخير واليوم الذى سبقه ، كان لا يرمى
الى أى هدف محدد ، وانما كان يعصف به ويستولى على عقله اعصار من
المواطف المتناقضة • لا أعتقد أنه أصيب بجنون حقيقى ، لا سيما وأنه
اليوم ليس مجنونا قط • ولكننى أؤمن بالمثل دون تردد • فما « المثل » ؟
لقد قرأت فى الآونة الأخيرة كتابا لطيب اختصاصى ، فعرفت أن « المثل »
درجة أولى من درجات اختلال عقلى خطير يمكن أن يؤدى الى نهاية
محزنة • ولقد أوضح فرسيلوف ، يوم حطم الأيقونة عند ماما ، أوضح بصدق
هائل ، آلية « ازدواج » ارادته وعواطفه • انتهى ألح على ذلك المشهد
بالمشهد الذى حدث فى بيت ماما ، وتحطيم الأيقونة ، ذلك كله انما حدث
بتأثير « المثل » حتما • ومع ذلك أظل أساءل : ألا يمتزج بفعل التحطيم
ذاك ، رمز شرير ما ؟ وأرادنى أجيب على هذا السؤال بنعم ، وأعتقد أن

نمة رمزا الى كره ما كان يساور تلك النسوة من آمال ، وما كن يؤمن به من حقوق ، وما كان يقوم فى أذهانهن من رلى . فبالانفاق مع « المثل » انما حطم الأيقونة . فكأنه كان يقول : « هكذا سيتحطم توقعكن » . نعم ، كان هناك « المثل » ، ولكن كانت هنالك نزوة أيضا . على كل حال ، ذلك تخمين منى .

انه رغم عبادته لكاترين نيقولايفنا كان قد ترسخ فى قرارة نفسه شك صادف وعميق فى مزاياها الأخلاقية . فحين رابط وراء الباب كان يتوقع أن يراها تذل نفسها أمام لامير . ولكن اذا كان يتوقع ذلك ، فهل كان يريد ؟ أعود فأقول : اننى أو من ايمانا جازما بأنه كان لا يريد شيئا ، بل كان لا يفكر البتة . كانت رغبته كلها هى أن يوجد هناك ، وأن يثبت بعد ذلك ، وأن يقول لها شيئا ما . . . وربما . . . ربما أن يهينها ، وربما أيضا أن يقتلها ! . . . لقد كان كل شئ فى تلك اللحظة جائزا وممكنا . ولكنه حين وصل مع لامير كان لا يعرف شيئا مما قد يحدث . يجب أن أضيف أن المسدس كان للامير ، وأن فرسيلوف جاء بنير سلاح . فلما رأى ما رأى من كبرياء كاترين وشممها ، ولما لم يستطع خاصة أن يحتمل حقارة لامير الذى كان يهددها ، اندفع الى الغرفة ، وعندئذ انما فقد عقله . هل كان يريد أن يطلق عليها الرصاص فى تلك اللحظة ؟ أنا أعتقد أنه كان لا يعرف من ذلك شيئا هو نفسه ، ولكن لا شك فى أنه كان سيطلق النار لولا أننا أمسكنا ذراعه .

ولم يكن الجرح الذى أصيب به قاتلا . . . فقد شفى ، ولكن بعد أنبقى فى السرير مدة طويلة ، عند ماما طبعا . نحن الآن ، أثناء كتابة هذه الكلمات ، فى فصل الربيع ، فى منتصف شهر أيار (مايو) . النهار رائع . ونوافذنا مفتوحة . ماما جالسة الى جانبه . وهو يلعب خديها وشمعها وينظر الى عينيها بحنان . ليس هو الآن الا نصف ما كان فرسيلوف من قبل . أصبح لا يترك ماما ، ولن يتركها أبدا . حتى لقد أوتى « موهبة

ذرف الدموع ، ، على حشد تعبير ماكارا ايفانوفتش الذى لا ينسى ، فى
فسته عن التاجر • ويخيل الى من جهة أخرى أن فرسيلوف سيعمر طويلا •
هو الآن معنا بسيط كل البساطة ، صادق كل الصدق ، كطفل ، ولكن
بدون أن يفقد الاعتدال والرصانة ، وبدون أن يفرض فى الكلام • لقد
احتفظ بذكائه كاملا ، واحتفظ بكل ما يتصف به طبعه الأخلاقى ، غير
أن كل ما كان لديه من مثل أعلى قد ازداد بروزا • يجب أن أقول جازما
اننى ما أحبته يوما كما أحبه الآن ، واننى يؤسفنى ألا أملك من فسحة
الوقت والمكان ما يمكننى من الاسهاب فى الكلام عنه • ومع ذلك سوف
أروى قصة حديثة (وهناك قصص أخرى من هذا النوع) : فى أثناء
الصوم الكبير كان قد شفى من جرحه ، فاذا هو يعلن فى الأسبوع
السادس أنه سيتناول القربان المقدس • لم يسبق له أن تناول القربان منذ
ثلاثين سنة أو أكثر فيما أظن • سعدت ماما بهذا سعادة كبيرة • وأصبحوا
فى البيت لا يحضرون من الطعام الا أطباقا بغير دسم ، ولكنها أطباق غالية
التمن فاخرة الصنف • وقد سمعته فى الفرقة المجاورة ، يومى الاثنين
والأحد ، يفنى أغنية « هاهو ذا العريس يأتى » ، متحمسا للحن والكلمات
جميعا • وقد اتفق له فى ذينك اليومين أن انطلق يتكلم فى الدين فقال
كلاما رائعا • غير أن كل شئ انقطع يوم الأربعاء • اذ اتابه حنق مفاجئ
أو « تناقض مضحك » كما قال ضاحكا • ان شيئا ما فى أفعال الكاهن
وحركاته وإشاراته قد بدا له غليظا • فلما عاد فى ذات يوم من الكنيسة
قال وهو يتسم ابتسامة لطيفة : « يا أصدقائى ، اننى أحب الله كثيرا ، لكن
هناك أشياء تضايقنى ، لذلك لست مستعدا • • » وفى مساء ذلك اليوم كان
طعام العشاء يضم شرائح لحم مقلى • ولكننى أعرف أن ماما تجلس الى
جانبه فى كثير من الأحيان حتى اليوم ، فتحدثه بصوت عذب وابتسامة
حلوة فى موضوعات مجردة جدا • انها الآن جريئة معه • لا أدرى كيف
حدث هذا • تجلس الى جانبه وتكلمه ، ويجرى الحديث فى أكثر الأحيان

بصوت خافت • انه يصغى اليها مبتسما ، ويلعب شعرها ، ويقبل يديها ،
وتسطع على وجهه أكبر سعادة • وقد تعثره في بعض الأحيان نوبات
تكاد تكون هسترية ، فيتناول صورتها الفوتوغرافية ، تلك التي قبلها في
ذلك المساء المشهود ، فينظر اليها دامج العينين ، ويقبلها ، ويتذكر ، ويدعونا
اليه جميعا • ولكنه في مثل هذه اللحظات لا يتكلم الا قليلا ! • • ويبدو
أنه نسي يقولايانا نسيانا تاما ، فهو لم يذكر اسمها مرة واحدة • أما عن
زواجه بماما ، فذلك أمر لم يكن حتى الآن محل بحث • وكانوا يريدون
أن يسافروا به في الصيف الى الخارج ، ولكن تاتيانا بافلوفنا ألحت على
ألا يفعلوا ، وهو نفسه لم يشأ على كل حال • فسوف يقضون الصيف في
الريف بمكان ما من مقاطعة بطرسبرج • يجب أن أذكر في هذه المناسبة
أن تاتيانا بافلوفنا هي التي تفق الآن على معيشتنا جميعا • ويجب أن أضيف
شيئا آخر هو أنني حزين أشد الحزن من أنني ، طوال هذه المذكرات ،
قد أبحث لنفسي أن أعامل هذه الانسانة بغير احترام ، وأن أنظر اليها من
على • ولكنني كتبت ما كتبه وأنا أتصور تصورا مسرفا في الدقة كيف
كانت حالتي في كل لحظة من اللحظات التي وصفتها • وبعد أن فرغت
من كتابة آخر سطر أحسست فجأة أنني بفضل هذا التذكر وهذا التسجيل
لذكرياتى قد ربحت نفسي تربية جديدة • صحيح أنني أنكر كثيرا ممسا
كتبت ، ولا سيما لهجة بعض الجمل أو الصفحات ، ولكنني لا أريد أن
أمحو ولا أن أصحح كلمة واحدة •

قلت انه أصبح لا يتكلم عن كاترين يقولايانا البتة • بل انى لأعتقد
أنه شفى شفاء تاما • عن كاترين يقولايانا أصبحنا وحدنا ، أنا وتاتيانا
بافلوفنا ، نتكلم في بعض الأحيان ، ونتكلم خفية • ان كاترين يقولايانا هي
الآن في الخارج • رأيته قبل سفرها ، وزرتها في بيتها عدة مرات ، ومن
الخارج بعثت لى حتى الآن رسالتين أجبت عنهما • لن أقول شيئا عن مضمون
الرسالتين ولا عن الموضوعات التي عالجتها حين تركتنا قبل سفرها : فهذه

قصة أخرى ، قصة « جديدة » كل الجدة ، لعلها لا تزال قائمة كلها في المستقبل . حتى مع تاتيانا بافلوفنا هناك موضوعات معينة لا أقاربها . ولكن كفى هذا . أريد أن أضيف فقط أن كاترين نيقولايفنا لم تتزوج ، وهي مسافرة الآن مع بلشتشيف . لقد مات أبوها ، فهي أغنى الأراميل . انها الآن بباريس . لقد تمت القطيعة بينها وبين بيورنيج بسرعة ، وكأنما تمت من تلقاء نفسها ، على نحو طبيعي جدا . وسأحكى هذا على كل حال .

ففى الصباح من يوم ذلك الحادث الرهيب ، استطاع المجدور ، أعنى ذلك الذى انتقل تريشاتوف وصديقه الى خدمته ، أن يبلغ بيورنيج بالمؤامرة التى تحاك . اليكم كيف حدث ذلك : كان لامير قد جمل المجدور يقرر الاشتراك فى المؤامرة ، وأطلعه بعد أن صارت الوثيقة فى حوزته ، على جميع تفاصيل المشروع وجميع ظروفه ، وأطلعه أخيرا على الخطوة الأخيرة ، أى الخطوة التى تخيلها فرسيلوف لخداع تاتيانا بافلوفنا . ولكن المجدور آثر فى اللحظة الحاسمة أن يخون لامير ، لأن المجدور كان أعقل هؤلاء الناس جميعا ، اذ تخيل فى هذه المشروعات كلها امكان حدوث جريمة ، ورأى خاصة أن الخطوة بعرفان بيورنيج وشكره وامتنانه أضمن من خطة خيالية يضعها رجل أهوج أخرق مثل لامير ورجل جعله الهوى شبه مجنون مثل فرسيلوف . ذلك كله علمته بعدئذ من تريشاتوف . يجب أن أذكر فى هذه المناسبة أننى أجهل ولا أفهم العلاقات التى كانت قائمة بين لامير والمجدور ، ولماذا كان لامير لا يستطيع الاستغناء عن المجدور . ولكن المسألة التى كانت تثير عجبى أكثر من سائر ما عداها هى التالية : ما كانت حاجة لامير الى فرسيلوف ، مع أنه بعد حصوله على الوثيقة كان يستطيع الاستغناء عن مساعدة فرسيلوف استغناء تاما ؟ ولقد أصبح الجواب واضحا الآن : كان لامير فى حاجة الى فرسيلوف أولا لأن فرسيلوف عالم بالظروف ، وثانيا لأنه يستطيع فى حالة الخطر أو فى حالة

وقوع مصيبة أن يلتقى على فرسيلوف جميع التبعات • ولما كان فرسيلوف
فى غير حاجة الى المال ، فقد رأى لاميير أن مشاركته مفيدة الى
أقصى حد •

ولكن بيورنج لم يصل فى اللحظة المطلوبة • وانما وصل بعد اطلاق
النار بساعة ، وكان بيت تاتيانا بافلوفنا قد تغير وجهه تغيراً كاملاً • فبعد
خمس دقائق من سقوط فرسيلوف على السجادة مضرجاً بدمائه ، نهض
لاميير ، وكنا نظنه ميتاً ، فأجال بصره فيما حوله ، فأدرك فى الحال كل
شئ • ومضى الى المطبخ بدون أن يقول كلمة • فارتدى معطفه واختفى
الى الأبد • وبقيت « الوثيقة » على المائدة • وقد سمعت أنه لم يصب حتى
بمرض ، ولم يعان الا شيئاً من أوجاع طفيفة • لقد جندلته الضربة ،
وأنزفت دمه ، ولكنها لم تنله بأذى •

وفى أثناء ذلك ركض تريشاتوف يستدعى الطبيب • ولكن فرسيلوف
أفاق من غيبوبته قبل وصول الطبيب ، وقبل أن يصحو فرسيلوف كانت
تاتيانا بافلوفنا قد استطاعت أن ترد كاترين نيقولايفنا الى الحياة وأن تعيدها
الى منزلها • وهكذا ••• حين دهم بيورنج بيت تاتيانا بافلوفنا لم يكن
هناك أحد الا أنا والطبيب وفرسيلوف الجريح وماما التى كانت لا تزال
مريضة ولكنها هرعت الى فرسيلوف كالمجنونة اذ أنبأها تريشاتوف ذاك
نفسه • نظر بيورنج مدهوشاً ؛ وما ان عرف أن كاترين نيقولايفنا قد مضت
حتى ذهب الى بيتها دون أن ينطق عندنا بكلمة واحدة •

كان مضطرباً ، اذ رأى رؤية واضحةً أن الفضيحة وذيوع النبأ
أصبحا أمرين لا يمكن تجنبهما • ومع ذلك لم تقع فضيحة كبرى ، وكل
ما حدث أن شائعات قد سرت بين الناس وتناقلتها الألسن • صحيح أن
طلقة المسدس قد استحالت اخفاء أمرها ، ولكن الجزء الأساسى من القصة
كلها ظلَّ شبه مجهول • ولم يقرر التحقيق الا أن رجلاً عاشقاً اسمه
« ف • • • » ، وهو متزوج ويكاد يبلغ الخمسين من العمر ، قد أطلق

النار على نفسه من مسدس فى نوبة جنون ، بينما كان يعلن غرامه لسيدة
جديرة بأعظم الاحترام ، لكنها لا تبادل له عواطفه . لم يعلم شئ أكثر من
هذا . وفى هذه الصورة انما انتقل الخبر الى الجرائد غامضاً ، بدون ذكر
الأسماء ، الا أحرفها الأولى . أعلم مثلاً أن لامبير لم يقلق أبداً . ولكن
بيورنج الذى كان يعرف الحقيقة خاف خوفاً شديداً . ولقد علم فجأة ،
بما يشبه المصادفة ، أن لقاءً تم قبل الكارثة بيومين بين كاترين نيقولايفنا
وفرسيلوف الذى يجبها . فأخفته ذلك حنقاً قوياً ، فأباح لنفسه بغير ترويض
ولا حذر أن يقول لكاترين نيقولايفنا انه لا يدهشه أن تقع لها أحداث
فظيعة كهذه . فلم تلبث كاترين نيقولايفنا أن صرفته فوراً ، بدون غضب ،
ولكن بدون تردد ؟ ان ما كانت تقدره من أن زواجها يمثل هذا الرجل
زواج يشتمل على حكمة وتعقل قد تبدد كما يتبدد البخار . ولعلها كانت
قد كشفت وعرفت حقيقته قبل ذلك بمدة طويلة . ولعلها أيضاً ، بعد الهزة
القوية التى أصابتها ، قد تغيرت بعض آرائها وبعض عواطفها بغتة . يجب
أن أضيف أن لامبير فرّ الى موسكو ، وقد علمت أنه قبض عليه هنالك فى
قضية أخرى . أما تريشاتوف فأننى منذ مدة طويلة ، بل منذ وقوع تلك
الأحداث تقريباً ، قد غاب عن بصرى فلم أراه رغم جميع الجهود التى
لا أزال أبذلها لأقع على آثاره . لقد اختفى بعد موت صديقه « الأبله
الطويل » الذى أطلق على رأسه الرصاص .

ذكرت موت الأمير المجوز يقولوا ايفانوفتش • ان هذا الشيخ الطيب اللطيف قد مات بعد الحادث بمدة قصيرة ، بعد نحو شهر ، فى الليل ، على سريريه ، من سكتة قلبية • ولم أكن قد رأيته منذ اليوم الذى قضاه فى بيتي • وقد روى عنه فى أثناء ذلك الشهر أن عقله صحا صحواً كبيراً ، وأنه صار امرأ جاداً كثير الجد ، فهو لا يخاف ، ولا ييكنى ، حتى انه لم يقل كلمة واحدة عن آنا آندريفنا طوال تلك المدة • وقد انصب حبه كله على ابنته • وقبل وفاته بأسبوع ، اقترحت عليه كاترين يقولايانا أن يستدعيني لأسليه وأمرئى عنه ، ولكنه قطب حاجبيه • اننى أذكر هذه الواقعة بدون أن أحاول تفسيرها وتعليلها • وكانت أطيانه مزدهرة ، وكان يملك عدا ذلك مبلغاً ضخماً من المال • وقد أمر فى وصيته بأن يوزع ثلث هذا المال تقريباً على أولاده بالعمودية وما أكثرهم ! ولكن الأمر الذى أدهش جميع الناس أشد الدهشة أن هذه الوصية لم تشر الى آنا آندريفنا ، وخلت حتى من ذكر اسمها خلواً تاماً • اليكم مع ذلك ما أعلمه علم اليقين : ان الشيخ ، قبل وفاته ببضعة أيام فقط ، استدعى ابنته وصديقيه بلشتشيف والأمير « ف • • • » ، فأمر كاترين يقولايانا بأن تقطع من هذا المال عند وفاته القرية مبلغ ستين ألف روبل تخص بها آنا آندريفنا • لقد عبر الشيخ عن ارادته هذه تعبيراً واضحاً مقتضياً دقيقاً ، دون أن يسبح لنفسه أى تعليق أو تمقيب • وبعد وفاته ، حين أضحي كل شئ ، واضحاً ، عهدت كاترين يقولايانا الى مصرف أعمالها بإبلاغ آنا آندريفنا أن فى وسعها أن تقبض هذه الستين ألف روبل متى شاءت • ولكن

آنا آندريفنا رفضت العرض بحفاء وبغير كلام زائد : رفضت قبض المبلغ رغم كل ما أكدَّ لها من أن هذه هى ارادة الأمير فعلاً . ولا يزال المبلغ موقوفا ينتظر أن تقضبه آنا آندريفنا، ولا تزال كاترين نيقولايفنا تأمل أن تغيرَ آنا آندريفنا رأيها . ولكن آنا آندريفنا لن تغير رأيها . فهذا ما أعلمه يقيناً ، لأننى اليوم من أقرب أصدقاء آنا آندريفنا اليها . وقد أثار رفضها ضجة ، وتحدث عنه الناس . وكان من شأن هذا أن خالتها فانارياتوفا التى سادتها منها فضيحتها مع الأمير فى البداية ، قد غيرت رأيها فيها بعد رفضها المال ، فأعربت لها عن احترامها جهاراً . ولا كذلك أخوها ، فقد شاجرهما بسبب هذا الرفض شجاراً شديداً . على أننى لا أستطيع أن أقول ، رغم كثرة ترددى على آنا آندريفنا ، هل العلاقة التى بنى وبينها علاقة حميمة وثيقة . عن الماضى نحن لا نتحدث اليوم أبداً . انها 'تسر' باستقبالى ، ولكن حديثها معى حديث مجرد . ولقد قالت لى فيما قالت انها مصممة على دخول الدبر حتماً . قالت لى هذا منذ مدة غير طويلة . ولكننى لا أصدق أن تفعل ، ولا أرى فى قولها هذا الا تعبيراً عن مرارة .

على أن المرارة الكبرى انما هى فى حديثى الآن عن أختى ليزا . ذلكم هو الشقاء الحقيقى ! ما أهون أنواع الاخفاق التى منيتُ بها اذا هى قيست بمصيرها الحزين ! أولاً : لم يشف الأمير سرجى بتروفتش ، ومات فى المستشفى قبل صدور الحكم . مات قبل الأمير نيقولا ايغانوفتش . وبقيت ليزا وحيدة مع جنينها . كانت لا تبكى . حتى لقد كانت تبدو هادئة . وصارت لينة دمثة عذبة طيبة . غير أن ما كان يزخر به قلبها فى الماضى من حرارة كان كأنه 'دفن' فى أعماق نفسها . كانت تساعد ماما بمذلة ، وتعنى بآندره بتروفتش المريض . ولكنها أصبحت صموتاً صمتاً رهيباً ، وأصبحت منطوية على ذاتها لا تريد أن تنظر الى شىء . ولا أن ترى أحداً ، فكان جميع الأمور عندها سواء ، وكأنها لا تكثرث بشىء من الأشياء . وقد هزلت هزالاً مخيفاً . كنت لا أجروُ أن أواسيها ، رغم أننى

كثيراً ما جئت إليها عاقداً نيتي على ذلك • فما ان ألقها حتى أجدني عاجزاً
عن مقاربتها ، وحتى تعوزني الكلمات اللازمة لمواجهة هذا الموضوع •
وامتد ذلك الى أن وقع حادث رهيب : زلت قدمها على السلم فسقطت ،
لا من أعلى السلم ، بل من ثلاث درجات فقط ، لكنها أجهضت واستمر
مرضها الشتاء كله تقريباً • وقد نهضت الآن ، ولكنها في أعقاب ضربة
كهنه الضربة لن تسترد صحتها الا بعد مدة طويلة • ولا تزال معنا شديدة
الصمت كثيرة الوجوم والتفكير ، ولكنها مع ماما عادت تتكلم قليلاً • وقد
طلعت علينا في هذه الأيام الأخيرة شمس ربيعية رائعة ، عالية رائقة ؛
ولا أزال أتذكر بيني وبين نفسي تلك الصبيحة المشمسة من أيام الحريف
الماضي حين تنزهنا معاً وقد امتلأ قلبانا كلانا بالفرح والأمل ، وأحب كل
منا الآخر حباً كثيراً ! يا حسرتاه ! ماذا وقع من بعد ؟ لست أتسكى •
فأنا قد يدأت حياة جديدة • ولكن هي ؟ ان مستقبلها لنز • ولا أستطيع
أن أراها الا ويمصر قلبي الألم •

استطعت مع ذلك منذ ثلاثة أسابيع أن أثير اهتمامها اذ حدثتها عن
فاسين • لقد أطلق سراحه أخيراً ، وأفرج عنه افرجاً نهائياً • وروى أن
هذا الرجل الزاخر برجاجة العقل وحصافة الرأي قد استطاع أن يقدم
أدق الايضاحات وأهم المعلومات ، فبرأ نفسه أمام أولئك الذين كان مصيره
رهناً برأيهم فيه • وقد تبين على كل حال أن المخطوطة التي أثارت ذلك
اللفظ كله لم تكن الا ترجمة عن الفرنسية لمواد كان يجمعها لنفسه وحده ،
على نية أن يشتم عليها في كتابة مقالة مفيدة لمجلة من المجلات في المستقبل •
وقد سافر الآن الى اقليم « • • • » ؛ أما زوج أمه ستيلكوف فلا يزال في
السجن بسبب قضيته الخاصة التي علمت أنها ما تفك تكبر وتوسع •
لقد أصغت ليذا الى حديثي هذا عن فاسين وهي تبسم ابتسامة غريبة ،
وقالت ان ذلك هو ما كان لابد أن يقع له • ولكن كان واضحاً أنها
'سرت بما رويته لها ، وأغلب الظن أن مرد سرورها الى أن المرحوم
الأمير سرجي بتروفتش لم يلحق تدخله ضرراً بفاسين ، ولم يصبه

بأذى • أما درجاشيف والآخرين ، فليس عندي ما أقوله عنهم هنا •
اتهمت • لعل بعض القراء يريدون أن أحدثهم مزيداً من الحديث
فأقول لهم ماذا صارت اليه « فكرتى » ، وما هى تلك الحياة الجديدة التى
بدأتها والتى أشرت اليها اشارة ملفعة بالسر ؟ فأقول ان هذه الحياة الجديدة
التي تفتتح أمامي هى بعينها « فكرتى » ، هى « فكرتى » السابقة نفسها ،
ولكن فى صورة مختلفة كل الاختلاف حتى ليكرها المرء ولا يعرفها •
ذلك كله لا يدخل فى نطاق هذه المذكرات لأنه شئ آخر • انتهت الحياة
القديمة ، والحياة الجديدة لم تزد على أن بدأت • ومع ذلك سأضيف
ما لا غنى عن اضافته • ان صديقتى المخلصة الحبيبة تاتيانا بافلوفنا تحضنى
كل يوم تقريباً على دخول الجامعة بأقصى سرعة حتماً ، وتقول : « فعتى
أتممت دراستك رايت ماذا يجب أن تفعل • أما الآن فأنتم دراستك » ، •
أعترف بأن هذا العرض يحملنى على التكبر ، لكنى أجهل القرار الذى
سأخذنه كل الجهل • وقد اعترضت عليها مع ذلك قائلاً انى الآن لا يجوز
لى أن أتابع دراستى ، اذ يجب على أن أعمل لأعول ماما وليزا • ولكنها
تعرض على ثروتها مؤكدة أنها تكفى لمدة دراستى كلها • وقد قررت
أخيراً أن ألتمس نصيحة أحد الناس • فبعد أن استعرضت من حولى وقع
اختيارى على هذا الرجل ، يقول سينوفتش ، معلمى السابق بموسكو ،
زوج ماريا ايفانوفنا ؛ لا لأمنى فى حاجة شديدة الى نصائح ، الا أن رغبة
قوية لا سبيل الى مغالبتها قد دفعتنى الى معرفة رأى هذا الرجل الأنانى ،
الغريب كل الغرابة عن الأحداث التى وصفتها ، ذى القلب الذى يتصف
بالبرود ، ولكنه ذكى ذكاء لا يمكن جحوده • فأرسلت اليه مخطوطتى ،
طالباً منه أن يبقى أمرها سراً مكتوماً ، لأننى لم أطلع عليها أحداً بعد ،
ولم أطلع عليها تاتيانا بافلوفنا خاصة • وقد عادت الى المخطوطة بعد
خمسة عشر يوماً ، مصحوبة برسالة طويلة • وهأنذا أسرد فيما يلى
مقطعات من تلك الرسالة ، لأننى أجد فيها رأياً عاماً له قيمة تعليلية • اليكم
هذه المقطعات :

« عزيزى آرКАДى ماكاروفتش الذى لا يُنسى ، انك لم تستطع فى يوم من الأيام أن تستعمل أوقات فراغك العارضة استعمالاً أنفع مما فعلت حين كتبت هذه المذكرات ! لقد حصلت لنفسك على ادراك واسع لخطاك الأولى العاصفة المحفوفة بالمخاطر فى درب الحياة • وانى لأعتقد جازماً بأن هذا الاستعراض قد أتاح لك فعلاً ، فى كثير من النقاط ، أن « تربي نفسك تربية جديدة » كما تقول أنت نفسك • لن أسمع لنفسى بأى نقد حقيقى ، رغم أن كل صفحة من هذه الصفحات تستدعى ملاحظات • من ذلك أن حرصك الشديد المئيد المصر على الاحتفاظ « بالوثيقة » طول تلك المدة شئ بارز الى أبعد حد • على أن هذه الملاحظة التى أبجتها لنفسى ليست الا واحدة من ألف • وانى لأقدر قدراً عظيماً كذلك أنك قررت أن تبوح لى - أنا وحدى فى أغلب الظن - بسرّ « فكرتك » ، على حد تعبيرك • ولكن حين تسألنى أن أعرب لك عن رأى فى هذه الفكرة ، فاننى أكون مضطراً الى الامتناع عن ذلك قطعاً • أولاً لأن الأعراب عن هذا الرأى يحتل مكاناً أكبر من أن تضمه رسالة • وثانياً لأننى غير متأهب للإجابة فما زلت فى حاجة الى هضم هذا كله • ولكنى أقول ان « فكرتك » تتميز بأصالتها ، على حين أن كثيراً من شباب الجيل الحالى ينقادون فى أغلب الأحيان لأفكار جاهزة لا تنبع من أنفسهم ، وعددها محدود جداً ، وكثيراً ما تكون خطيرة • ان « فكرتك » قد حمتك مثلاً ، خلال زمنٍ على الأقل ، من أفكار السادة درجاشيف وشركاه ، التى هى أقل أصالةً ولا شك • وأخيراً فاننى موافق كل الموافقة على رأى المحترمة

تأتيانا بافلوفنا التي عرفتها شخصياً ، ولكن لم يتح لى حتى الآن أن اقدرها
القدر الذي تستحقه . ان رأيها فى ادخالك الجامعة سيمود عليك بخير
كثير . فلا شك أن العلم والحياة ، خلال ثلاث سنين أو أربع ، سوف
يوسّعان مزيداً من التوسيع أفق فكرك وآمالك ، فاذا أردت بعد الجامعة
أن تعود الى « فكرتك » فلن يمنعك عن ذلك شئ .

« واسمح لى الآن ، رغم أنك لم تطلب منى هذا ، أن أعرض لك
بصراحة بعض آرائى أو انطباعاتى التى كوّنتها فى نفس قراءة هذه
المذكرات الصادقة جداً . نعم ، اننى أوافق أندره بتروفش على أن هناك
ما يدعو حقاً الى الخوف عليك وعلى شبابك « المعتزل » . ما أكثر أمثالك
من الشبان الذين تتعرض مواهبهم فصلاً لأن تنمو فى الاتجاه السئ :
فاما عبودية على طريقة مولتسالين ، واما رغبة خيثة فى الفوضى . وهذه
الرغبة فى الفوضى انما تنشأ - ربما فى أكثر الأحيان - عن ظمأ خفى الى
النظام ، « الجمال » (اننى أستعمل كلمتك) . ان الشباب طاهر نقى لمجرد
أنه شباب . ولعل تلك الاندفاعات المبكرة الى الجنون انما تشتمل على ذلك
الظمأ الى النظام وعلى ذلك البحث عن الحقيقة . فمن المذنب اذا كان
بعض الشباب فى عصرنا يرون هذه الحقيقة وهذا النظام فى نظريات تبلغ
من الحماسة والسخافة أن المرء يستغرب فعلاً أن يؤمنوا بها ! أحب أن أقول
فى هذه المناسبة ان المرء كان يمكن فى الماضى - فى عصر ليس بعيداً ، فى
عهد لا يبعد عنا أكثر من جيل واحد - ألا يأخذ به أمثال هؤلاء الشبان
ما يأخذ بهم الآن من شفقة ورحمة ، لأن أمثالهم فى ذلك كانوا ينتهون
فى جميع الأحيان تقريباً الى الانضمام الى الطبقة العليا من مجتمعنا المثقف
انضماماً ناجحاً ، وأن يصبحوا جزءاً من تلك الطبقة . فاذا شعروا مثلاً ،
فى بداية الطريق ، بما فى بيئتهم العائلية من فوضى وعبت واقتراد النبالة
وغياب التقاليد والأشكال الجميلة ، كان فى هذا خير لهم ، لأنهم بعد ذلك
يتوقون الى هذه الأمور كلها توفاً واعياً ، ويألفون بهذا نفسه أن يتقدها .

أما الآن فان الأمور تجري مجرى مختلفاً بعض الاختلاف ، لأنهم أصبحوا لا يعرفون الى من ينضمون !

« سأوضح رأيى بمقارنة أو قل بمشابهة • لو كنت روائياً روسياً وكانت لى موهبة ، لما اخترت أبطال روياتى الا من بين أفراد النبالة الروسية القديمة ، لأن هذه البيئة التى تضم أفراداً مثقفين هى البيئة الوحيدة التى يستطيع الكاتب أن يجد فيها النظام الجميل والاحساس الجميل اللذين لاغنى عنهما لرواية تريد أن تحدث فى القارىء شعوراً بالروعة • لا أقول هذا الكلام مازحاً ، رغم اننى لا أتمنى الى الطبقة النبيلة كما تعلم • لقد سبق أن أشار فى « تقاليد أسرة روسية » الى موضوعات الروايات التى حال الموت بينه وبين كتابتها • فهناك انما تقع فعلاً على كل ما بلغناه حتى الآن من جمال • هناك على الأقل نجد كل ما وصلنا اليه من توازن وكمال • واذا قلت هذا فليس معناه اننى أرى ذلك الجمال خالياً من العيوب ، أو أرى ذلك التوازن مستقراً استقراراً تاماً • غير أن ثمة أشكالاً ثابتة من الشرف والواجب لا تجدها مكتملة بل لا تجدها البتة فى أى مكان بروسيا خارج النبالة • اننى أتكلم كما يتكلم انسان هادى • يبحث عن الهدوء •

فاذا سألتنى عن ذلك الشرف هل هو أصيل ، وعن ذلك الواجب هل هو حق ، قلت لك ان هذه مسألة أخرى يمكن أن تدور حولها مساجلات لا نهاية لها • ولكن الشيء الهام فى نظرى هو أن تلك الأشكال مكتملة ، وأن ثمة نظاماً لم يفرض فرضاً وانما هو تابع من حياة تلك النبالة • ألا وان ما يهمنا أكثر من أى شيء آخر هو أن يكون لنا أخيراً نظام ، أياً كان هذا النظام ، على شرط أن يكون نظاماً لنا نحن ! ذلك هو الأمل ، وتلك هى الراحة ان صح التعبير : شيء مكتمل البناء أخيراً ، لا هذا التقويض الأبدى ، وهذه التشارات التى تتطاير فى كل مكان ، وهذه

النفائات وهذه القاذورات التى لا يخرج منها شيء منذ ما يقرب من مائتى سنة •

« لا تهمنى بالتعصب السلافى ، فانما أنا أتكلم الآن كلام رجل استبد به كره البشر ، وأصبح مثقل القلب حزنا ؛ اننا منذ بعض الوقت نشهد حركة تعارض ما أنبت على وصفه الآن كل المعارضة • فالآن أصبحت القذارة لا تصعد الى الطبقة العليا من المجتمع ، وانما يحدث تقيض هذا ، فنرى أجزاء بل كتلاّ تنفصل عن نموذج الجمال بتعجل فرح لتندمج فى أناس الفوضى والكره • ليست حالات فريدة معزولة تلك الحالات التى ترى فيها الآباء وأرباب الأسر العريقة المثقفة تسخر الآن من أشياء ربما كان أبناؤهم لا يزالون يرغبون فى الايمان بها • أكثر من ذلك أنهم لا يحرصون على أن يخفوا عن أولادهم فرحتهم الشرهة بأنهم ملوكوا الحق فى التخلي عن الشرف فجأة ، وهو حق يشعرون أنهم حصلوا عليه دفعة واحدة لا أدرى كيف ! لست أتكلم عن التقدمين الحقيقيين ، يا صديقى العزيز جداً آرКАДى ماكاروفتش ، وانما أتكلم عن تلك الجماهرة الكبيرة التى لا يحصى اليوم عددها ، والتى قيل فى حقها : « اقشر الروسى فترى الترى » • صدّق أن اللبراليين الحقيقيين ، أن الأصدقاء الكرماء المخلصين للانسانية ليس عددهم بيننا كبيراً الى الحد الذى توهمناه فجأة •

« ولكن هذا كله لا يزال تفلسفاً • فلنعد الى الروائى الذى تخيلناه • ان موقف صاحبنا الروائى هذا سيكون فى هذه الحالة موقفاً محدداً : انه لن يستطيع أن يكتب الا روايات من نوع الروايات التاريخية ، لأن الجمال النموذج لم يعد له وجود فى عصرنا هذا ، واذا كان لا يزال منه بقايا كما يغلب على اعتقاد الناس اليوم ، فان هذه البقايا لم تحتفظ بجمالها • ولاشك أن الكاتب سيستطيع فى الروايات التاريخية أيضاً أن يتصور طائفة من التفاصيل لا تزال تمتع النفس وتعزى القلب • حتى يمكنه أن يأسر لبّ القارىء أسراً يبلغ من القوة أن يحسب القارىء اللوحة التاريخية

واقعاً لا يزال قادراً على الحياة اليوم • ومثل هذه الرواية ، اذا كانت موهبة الكاتب عظيمة ، سوف تنتمى الى الأدب الروسى اقلّ مما تنتمى الى التاريخ • سوف تكون لوحة مكتملة الجمال الفنى تمثل السراب الروسى الذى وجد فعلاً الى اليوم الذى رُئى فيه أنه كان سراباً • ان حفيد أبطال اللوحة التى تمثل أسرة روسية متوسطة الثقافة خلال ثلاثة أجيال وترتبط بالتاريخ الروسى ، ان حفيد هؤلاء الأجداد لا يمكن تصويره فى نموذج المعاصر الا انساناً مبغضاً للبشر ، معتزلاً الناس ، صموتاً حزيناً • بل لابد كذلك أن يكون رجلاً متفرداً يستطيع القارىء أن يحكم عليه منذ النظر الأولى بأنه قد ابتعد عن الطريق الممهدة وأن ليس تحت قدميه أرض • وما هى الا فترة حتى يختفى هذا الحفيد المبغض للبشر هو أيضاً • وتأتى شخصيات جديدة ، لا تزال مجهولة ، ويأتى سراب جديد • ولكن أية شخصيات ؟ اذا لم تكن شخصيات جميلة ، لم يبق نمة أدب روسى ممكن • ولكن واحسرتاه ! هل الرواية وحدها ستكون مستحيلة حينذاك ؟

« لا أريد أن أوغل مزيداً من الايغال • ولنعد الى مخطوطتك • انظر مثلاً الى أسرتى السيد فرسيلوف (اسمع لى هذه المرة أن أكون صريحاً كل الصراحة) • لن أسهب فى الكلام عن آندره بتروفتش نفسه • انه رب أسرة على كل حال ، رغم كل شئ • هو نبيل من أسرة عريقة جداً وهو فى الوقت نفسه من أنصار كومون باريس • هو شاعر حق يحب روسيا ولكنه من جهة أخرى يجحدها • هو امرؤ لا دين له ، مستعد مع ذلك لأن يموت تقريباً فى سبيل شئ غير محدد يعجز عن تسميته ولكنه يؤمن به ايماناً مشبوباً على غرار طائفة من دعاة المدنية الأوروبية فى العهد البطربرجى من التاريخ الروسى • ولكن كفى هذا عنه • لننظر الى أسرته الحقيقية : عن ابنه لن أتكلم فما هو بمستحق هذا الشرف • ان الذين لهم أعين يعرفون سلفاً كيف ستكون نهاية هؤلاء الطاشين والى أين يقودون غيرهم • ولكن لننظر الى ابنته آنا آندريفنا • هذه فتاة ذات

شكينة ، أليس كذلك ؟ هذه شخصية لها أبعاد الأم ميتروفانيا ، دون أن أتنبأ لها بشيء من الاجرام طبعا ، والا كنت ظالما . قل لى الآن يا آرКАДى ماكاروفتش ان هذه الأسرة استثناء وشنود ، فأبتهج اعظم الابتهاج . ولكن الأمر ليس كذلك . الأصح أن نقول ان هناك كثرة من هذه الاسر الروسية التى لا يجحد المرء نبالتها والتى تتحول بقوة لا تقاوم الى اسر مصادفة وتختلط بأسر المصادفة هذه فى السديم الشامل والفوضى العامة . انك فى مخطوطتك ترسم نموذج أسرة من أسر المصادفة هذه . نعم يا آرКАДى ماكاروفتش ، انك « فرد من أفراد أسرة مصادفة » ، فى مقابل نماذج لا تزال حديثة لأبناء نبلاء عاشوا طفولة ومراهقة مختلفتين عن طفولتك ومراهقتك كل الاختلاف .

« أعترف لك بأننى لا أتمنى أن أكون روائيا يصوّر بطلاً هو فرد فى أسرة مصادفة !

« جهد لا ثمرة له ولا جمال فيه . ان تلك النماذج لا تزال من الحياة الجارية على كل حال ، فهى لذلك لا يمكن أن تكون مكتملة من الناحية الجمالية . كيف يستطيع الكاتب أن يتجنب هنا الأخطاء والمبالغات والاعفالات ؟ وسوف يكون على الكاتب أو القارىء ان يخمن ويسرف فى التخمين . ماذا يبقى لكاتب لا يريد أن يقتصر على الروايات التاريخية ... وانما تستبد به الرغبة فى الكتابة عما هو واقع حالى ؟ أن يخمن و ... أن يخطئ .

« غير أن « مذكرات » كالتى كتبها أنت يمكن فى رأى أن تكون مواد لعمل فنى يخلق فى المستقبل ، مواد للوحة ترسم فى المستقبل وتكون فوضى لكنها تصوّر عهداً مضى . نعم ، فيفضل التقهقر فى الزمان الى وراء ربما استطاع الفنان أن يجد أشكالاً جميلة لتمثيل السديم الماضى

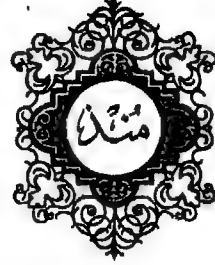
والفوضى الذى انقضى عهدا . فى ذلك الوقت ستكون الحاجة الى مذكرات
كمذكراتك . حسبها أنها صادقة : فهي رغم ما تتصف به من فوضى ،
تستعمل على عدد من عناصر الحقيقة سيتمكن المرء فى ضوءها أن يدرك
ما كان لابد أن يختبئ فى نفس مراقب يتمنى الى ذلك المصير المضطرب ،
وهذا بحث لا تغط قيمته ، ما دام المراقبون هم الذين تتألف منهم
الأجيال

بوبرک

۱۸۷۳

في هذه المرة سانشو مذكرات احد الناس ، ما هي
مذكراتي انا ، بل مذكرات شخص آخر ، ولا حاجة الى
اى تمهيد ،

مذكرات أحمد الناصر



يومين سألتني سيميون آرداليونوفتش في وقت
مناسب جدا :

- رحماك ايغان ايغانوفتش ، متى سيتفق لك مرةً ألا تكون
سكران ؟

سؤال غريب ! لن أغتصاظ بلا داع ، لأنني امرؤ خجول ، ولكن
هامهم أولاء يعدونني مجنوناً . في ذات مرة ، رسم أحد الرسامين صورة
لوجهي عرضاً . ثم اذا هو يقول « انك لأديب مع ذلك ، » ووافقت على
أن يعرض الصورة على الجمهور . فاليكم ما قرأته : « اذهبوا فانظروا
الى ذلك الشخص المريض الذي يوشك أن يهوى الى قاع الجنون ، »

هبنى مجنوناً . ولكن لماذا نشر هذا الكلام في الجرائد ؟ ان الجرائد
في حاجة الى موضوعات تبيلة ، في حاجة الى المثل الأعلى ، أما هنا ...

نمة طريقة للتلميح : فلهذا انما وجد الأسلوب ولكن لا ... ليس
'يسمح لك بالتلميح . اخففت اليوم روح النكتة واختفى الأسلوب
الجميل ، وأصبحت الشنائم 'تمد' رهاقة فكر ولطافة ذوق . ولكنني
لن أستاذ ، فما أنا أديب كأي أديب حتى أصدع رأسي . كتبت قصة ،

فلم ينشروها • وكتبت مقالة فرفضوها • وأرسلت مقالات الى جرائد مختلفة فلم يقبلوها ، وقالوا لى : « يعوزك الظرف » • سألتهم ساخراً :

— أى ظرف تعنون ؟ الظرف الأثينى ؟

لم يفهمونى • وأنا أترجم خاصة عن اللغة الفرنسية لأصحاب المكتبات • وأحرر اعلانات للتجار : « فرصة نادرة ! ... اشربوا الشاي الذى تنتجه مزارعنا الخاصة ... » • وان تأبئنى لصاحب المالى بطرس مانتشس لم يمرّ بغير صدى فى الأوساط العليا من المجتمع • وقد ألّفت ، تلبية لطلب أصحاب المكتبات ، كتاباً بعنوان : « كيف تحظى باعجاب النساء » • واتفق لى أثناء حياتى أن ألقى الى السوق ستة كتيبات من هذا النوع • وفى نيتى أن أجمع باقة من أقوال فولتير يضمها كتاب • لكننى أخشى أن يبدو هذا غير ذى مذاق لأهل زمانى • ان هذا العصر هو للهراوة لا لفولتير ، فليكسّر الناس بعضهم أفواه بعض ! تلکم هى مهنتى الأدبية كلها • هل عن عبث ترانى أغرق ادارات تحرير الجرائد برسائل لا أسمى أن أمهرها بتوقيعى ؟ اننى أقضى وقتى فى اغداق التنبيهات والنصائح • وأدلى على الطريق الواجب اتباعها • فى الأسبوع الماضى دبّجت الرسالة الأربعين من رسائل التى أبعثها الى صحيفة من الصحف منذ سنتين • ان طوابع البريد التى استعملتها قد كلفتنى حتى الآن أربعة روبلات • طبعى سىء • هذا هو الأمر •

أعتقد أن الرسام لم يرسم وجهى اهتماماً منه بالأدب ، ولكن بسبب تؤولين متناظرين يزدان بهما جيئنى • هذا حدث ، أليس كذلك ؟ ان الناس يتهافون اليوم على الأحداث ، لعدم وجود فكرة يهتمون بها • لشدما أحسن هذان التؤلؤلان الى الصورة ! لكنهما يحيان ! ذلكم ما يسمى بالواقعة •

أما عن الجنون فان عدداً كبيراً من الكتاب عندنا قد وصموا فى

السنة الماضية بالاختلال العقلى •• قيل عنهم : « موهبة أصيلة جداً •••
فانظروا ماذا كانت النتيجة ! ولقد كان ينبغي التنبؤ بهذا منذ مدة طويلة
على كل حال ••• » • ليس يخلو هذا الكلام من مكر ، حتى يمكننا أن
نصفق له من وجهة نظر الفن المحض • فيه يصبح الآخرون أذكى
مرتين • ولكن لأن كان سهلاً عندنا افتقاد أحد الناس عقله ، فليس هناك
مثال قيس العقل عليه •

أذكى الناس فى رأى هو ذلك الذى يصف نفسه بالغباء مرة
كل شهر • وما من أحد يقدر أن يفعل ذلك فى هذه الأيام ! فى الماضى
كان الغبى يدرك عند اللزوم مرة فى السنة على الأقل أنه ليس الاغبى •
أما الآن ، فلا ، لا ، كلا ، كلا ! لقد اختلط الحابل بالنابل حتى صار
الانسان الذكى لا يتميز عن الانسان الغبى • وكان هذا مقصوداً •

تحضرنى نكتة أصلها أسباني • حين بنى الفرنسيون فى بلادهم
أول ملجأ للمجانين منذ نصف قرن ، قيل يومئذ : « لقد حبسوا جميع
مجانينهم فى منزل خاص حتى يصفوا أنفسهم بأنهم هم عقلاء » • القول
صادق • لست تبرهن على أنك عاقل اذا أنت حبست قرينك فى
بيمارستان • « فلان أصبح مجنوناً ••• معنى هذا أننا تتمتع بجميع
قوانا العقلية » • لا ، أبداً ، ذلك لا يعنى هذا بعد •

على كل حال ، ليذهب هذا الكلام كله الى الشيطان ! ما بالى
أحدث هذه الجلبة كلها • ما لى ولهذا التذمر ! ما لى ولهذا البرطمة !
لقد أضجرت حتى طباختى • فى مساء أمس جاءنى صديق • قال لى :
« أسلوبك يفسد • صار مفروماً • أنت تفرم أسلوبك ، تهرمه هرماً ••
جمل عارضة ، ثم فى الجمل العارضة جملة أخرى عارضة ، ثم جملة
طارئة تضعها بين قوسين ، وتستأنف الفرم ••• » •

صديقى على حق • فى نفسى يحدث شىء غير عادى • طبعى أيضاً
يطراً عليه تغير ، ورأسى يصيبه صداع • أخذت أرى وأسمع أشياء

غريبة ... ما هي أصوات تماماً ... كأن أحدا يدندن على مقربة مني :
« بوبوك ، بوبوك ، بوبوك ! » .

ما « بوبوك » هذه ؟ يجب أن أحاول تسليّة نفسي .

خرجت لأستلي نفسي . فوفقت على جنازة . جنازة شخص يموت
الى بقراة بعيدة . موظف فى الدرجة السابعة . مات تاركاً زوجته
 وخمس بنات يجب تزويجهن . يا للنحس ! كان المتوفى يستطيع أن
يجنى رزقاً . أما الآن فيجب الاكتفاء بمعاش هزيل . يجب شد الحزام على
البطون . كان أفراد هذه الأسرة يستقبلوننى دائماً على مضض . على كل
حال ، ماكنت لأشهد الجنازة فى ذلك اليوم لولا المناسبة الطارئة . صحبت
الموكب الى المقبرة . بمعجرفة نحونى . كان ردنجوتى مفرطاً فى الاهتراء
حقاً . أظن أننى لم أذهب الى المقبرة منذ خمس وعشرين سنة . المكان
غير جذاب كثيراً .

الرائحة أولاً . لقد جئى الى المكان بنحو خمسة عشر ميّاً . أكفان
من درجات متفاوتة . بل ثمة نشان أحدهما نشن جنرال والآخر نشن
سيدة . عدد من الوجوه الحزينة ، غير قليل من الأسى المتصنع ، كثير من
فرح صريح . أضيف أنه لا داعى الى التشكى من هذا : يجب علينا أن
نحسب حساب الأرباح الصغيرة . ولكن الرائحة ! الرائحة ! ألا اننى
لا أحب أن أكون شحاذاً فى مقبرة .

تفرست فى وجوه الأموات متأنيباً ، غير منقاد لطبعتى الشديدة
التأثر . ثمة وجوه لطيفة ، وئمة وجوه لا يحلو النظر اليها . الابتسامات
عامة ليست جميلة ، ولا سيما لدى بعضهم . لا أحب هذا . يحدث
للمرء أن يراه فى منامه .

أثناء القداس خرجت من الكنيسة لأتشفق الهواء . كان النهار
أشهب ، لكنه جاف ، وهو بارد بعض البرودة طبعاً ، فنحن فى شهر

أكتوبر • قمت بجولة بين القبور • القبور طبقات • الطبقة الثالثة تكلف ثلاثين رويلاً : لائحة وغير باهظة الثمن • الطبقتان الأوليان لهما حق في الكنيسة وحوشها • ولكن ما أبهظ الثمن ! كان في ذلك اليوم ست جنازات من الطبقة الثالثة ، بينهم جنازة الجنرال وجنازة السيدة المذكورة !

ألقيت نظرة على القبور : شيء مقزز • ماء • وأى ماء ! ماء آسن أخضر • نعم • وفي كل لحظة يمتح الحفار الماء لفرغ القبر • خرجت • واذ لم يكن القداس قد انتهى ، جعلت أتجول خارج السور المصنوع من حديد مشبك • غير بعيد عن السور كانت هناك مضيفة • بعدها بقليل كان هناك مطعم • ليس سيئاً كل السوء ، ذلك المطعم • أكلت قطعة ولوازمها ! ... ولم يلبث المطعم أن امتلأ بالناس الذين شهدوا المأتم • لاحظت كثيراً من الانتعاش والنشاط • أكلت وشربت •

ثم ساعدت يديّ في جرجرة التابوت من الكنيسة الى القبر • لماذا يصبح الميت ثقيلاً هذا الثقل كله في التابوت ؟ يقال ان سبب ذلك هو قوة العطل ، وأن الجسم يفقد القدرة على التحكم بنفسه • أو يقال سحق آخر من هذا القليل • هذا الكلام يناقض الميكانيكا والعقل في آن واحد • أنا لا أحب لأمريء حصل ثقافة عامة في أكثر تقدير أن يقحم نفسه فيما لا علم له به ، وأن ينصب نفسه اخصائياً • وما أكثر أمثال هذه الحالة في بلادنا ! المدنيون يعشقون الاهتمام بالشئون العسكرية ، حتى ما تعلق منها بالاستراتيجية العليا ؟ والمهندسون بعشوق أن يهتموا بالفلسفة والاقتصاد السياسي •

لم أحضر « الصلاة » • وأنا امرؤ ذو كبرياء ، فإذا كانوا لا يطيقونني الا في حالات الضرورة القصوى ، فعلام أجز نفسي الى ولائهم ، حتى تلك التي يقيمونها بعد الجنازات ؟ لا أدري لماذا بقيت في المقبرة على كل حال • جلست على قبر ، وغرقت في أحلام شتى •

فكرت أولاً فى معرض موسكو • ثم انتقلت الى مشكلة « الاندهاش »
التي كانت موضوع تأملى • فاليكم ما خلصت اليه فى أمر « الاندهاش » :
« لا شك أن الاندهاش من كل شيء غباء وحماقة ، ولا شك أن
عدم الاندهاش من أى شيء أعظم أناقة » ، بل هو علامة رقى • ولكن
ليس من الجائز كثيراً أن يكون الأمر كذلك فى التحليل الأخير • وعندى
أن عدم الاندهاش من أى شيء أغبى كثيراً من الاندهاش لكل شيء •
بل أكثر من ذلك أن عدم الاندهاش من أى شيء يكاد يساوى عدم تقدير
شيء • والغبى لا يستطيع أن يقدر شيئاً » •

منذ بضعة أيام قال لى شخص أعرفه :

- نعم ، اننى أحرص على التقدير أكثر من حرصى على أى شيء •
الحاجة الى التقدير ! قلت بينى وبين نفسى : هه ! لسوف تعرف
هذه الحاجة الى التقدير اذا خطر ببالك أن تطبع شيئاً فى يوم
من الأيام !

عندئذ انقطعت سلسلة أفكارى • اننى لا أحب قراءة ما يكتب
على شهادات القبور • هذه الكتابات كلها متشابهة • رأيت على بلاطة قبر
غير بعيدة عنى سندويشة 'أكل نصفها • قلت لنفسى : « هذا غباء • ليست
السندويشة فى مكانها • » • كنستها الى الأرض ، لأنها ليست خبزاً وانما
هى سندويشة لا أكثر • ثم ان تفتيت خبز على التراب ليس بالانم
فيما أظن ، وانما الانم تفتيته على أرض غرفة • 'يستحسن أن أسأل
عن هذا الأمر •

لابد أننى مكثت زمناً طويلاً ، بل زمناً طويلاً جداً • أعنى أننى
اضطجعت على حجر كبير له شكل تابوت من مرمر • كيف حدث أننى
سمعت أشياء كثيرة على حين فجأة ؟ لم أتنبه الى ذلك فى أول الأمر كان
موقفى موقف الاستخفاف الكامل • سمعت أصواتاً جشاء ، كأنها صادرة

عن أفواه مكبومة بوسائد ، لكنها مع ذلك متميزة وقرية جداً . فتحت عينيَّ ، وجلست ، وأخذت أصغى بانتباه .

- صاحب المعالي ، حقاً ليس هذا بالممكن . أعلنت كبةً ، فألّفت الهويست ، فإذا أنت تلعب بالسبعة الديناري . كان ينبغي لك أن تقول من قبل ان معك الديناري .

- ولكن الاعتماد على الذاكرة في اللعب ليس بالشئ المسلى أيضاً .

- صاحب المعالي ، لا يمكن اللعب بغير ضمانات . لابد لنا من لاعب لا يلعب ؛ يجب منح توزيعه بغير مقابل .

- ولكن أننى لنا هنا لاعب لا يلعب !

يا لها من أحاديث في غير محلها ! لا أقل من أن يوصف هذا بأنه غريب وغير متوقع في آن واحد . الصوت رصين رزين . والصوت الثاني أميل الى التعاذب . ما كنت لأصدق لولا أن سمعت بأذني . ما معنى القمار في مثل هذا المكان ، ومن هو ذلك الجنرال ؟ أما أن الجلبة كانت صادرة عن القبور فذلك أمر لا مجال للشك فيه . ملت على شاهدة القبر لأقرأ : « هنا يرقد جثمان الجنرال ميجر بروفويادوف ، حامل أوسمة كذا وكذا ، هم ! » . « توفي في شهر أغسطس (آب) » . في السابعة والخمسين من العمر . ارقد في سلام ، أيها الرماد الغالي ، الى طلوع الفجر الفرح ! » .

عجيباً ! هو اذن جنرال حقاً ! أما القبر الآخر الذي كان يصدر عنه الصوت التعاذب ، فليس له بعد ضريح . لا نرى الا بلاطة موضوعة عليه ، فلا بد أن نزيله قادم جديد . ان الصوت يدل على أن صاحبه موظف في الدرجة السابعة .

قال صوت لم أسمعه من قبل ، على مسافة بضعة أمتار من مكان الجنرال ، تحت قبر يبدو جديداً :

- أوه ! أوه ! أوه ! أوه !

هو صوت رجل من عامة الشعب ، يحاول صاحبه أن يخفف
حدثه أدباً .

- أوه ! أوه ! أوه ! أوه !

فرع صوت عصبى فيه احتقار ، هو صوت سيدة من المجتمع
الراقى فيما يبدو ، زعق يقول :

- آ... ها هو ذا تأخذه الحازوقة مرةً أخرى ! ألا إنه لقصاص
شديد أن أكون بجانب هذا الدكانى !

- ليس بى حازوقة ، ولم أكل شيئاً . ذلك كله يأتى من تلقاء
نفسه طبعاً . ماذا يا سيدتى الجميلة ؟ ألا سبيل اذن الى تخليك عن
نزواتك ؟

- ما اضطجاعتك هنا ؟

- دسنى فى هذا المكان دساً . أولادى وامراتى هم الذين حشرونى
هنا . لم أجيء بارادتى . ذلك هو سر الموت ! لولا الموت ما كنت
لأرضى أن أرقد الى جانبك ولو أعطيت ذهب الأرض كله . وقد جئت
الى هذا المكان بعد دفع آخر ما كنت أملك من نقود . نحن أيضاً نملك
ما ندفعه نفقات لجنازة من الطبقة الثالثة .

- جمعت ذلك من سرقة أموال الناس ؟

- كيف أسرق وأنت لم تدفعى لى قرشاً واحداً منذ شهر كانون
الثانى ، مع أن لدكانى عليك ديناً !

- هه ! ما أشدّها بلاهة فى نظرى أن يطالب المرء هنا بديون له !
اذهب الى فوق ، وطالب بدينك بنت أخى التى ورثتى .

- كيف أطلب الآن ، وأين لى أن أذهب ؟ لقد اجتزنا الحفرة
كلانا ، ونحن أمام محكمة الرب متساويان فى خطايانا •
- يالها من لهجة عامية ! لا تسمع لنفسك بأن تكلمنى بعد الآن !
كذلك أجابته المتوفاة باستعلاء وتكبر • فانبهرى بصيت من
جديد :

- أوه ! أوه ! أوه ! أوه !
- انظر ، انظر ! أطاع الدكانى السيدة يا صاحب المعالى •
- لم لا يطيعها ؟
- ولكنك تعلم يا صاحب المعالى أن نظاماً جديداً يسود هنا •
- ما هو هذا النظام الجديد ؟
- نحن يا صاحب المعالى أموات ان صح التعبير •
ألا انه لمرء ! اذا كان هذا هو ما يحدث فى مثل هذا المكان ،
فلا داعى أن يتساءل المرء عما ذا يحدث فى الطابق الأعلى ! يالها من
أحاديث سخيفة ! ومع ذلك ظللت أصغى ، رغم أن غضبى بلغ ذروته •
هذا صوت ينبعث من مكان آخر فى المسافة بين الجنرال والسيدة
الثائرة أعصابها :

- أوه ! وددت لو أعيش زمناً أطول ! لا ، لا ، اتنى أود كثيراً
لو أحيا •••

- هل تسمع يا صاحب المعالى ؟ ها هو ذا يستأنف ! ••• يظل
مصرراً على الصمت بعناد شديد ثلاثة أيام ، ثم يعود يهتف فجأة : « وددت
لو أعيش ، أود لو أحيا » • وهو فوق ذلك يلح الحاحاً شديداً •
ها ها ها ها !

— خفة عقل !

— يعتريه هذا فجأة يا صاحب المعالي ، ويستولى عليه استيلاء تاماً •
انه هنا منذ شهر نيسان (أبريل) ، ثم اذا هو يصيح بغتة : « أود
أن أحيأ ! » •

قال صاحب المعالي :

— هذا مضجر أخيراً !

— مضجر يا صاحب المعالي • ما رأيك في أن نستأنف اغاظة
آفدوتيا اجناتيفنا ؟ ها ها ها !
— لا ، اعفنا من هذا ! لا أستطيع احتمال هذه المرأة السليطة
اللسان ، الفظيعة !

قالت المرأة السليطة باشمشراز :

— أنا أيضاً لا أستطيع احتمال أحد منكما ! انكما تنضحان ضجرآ ،
وتعجزان عن اجراء أى حديث رفيع • اياك أخاطب يا صاحب المعالي ،
أؤكد لك أنك لا تملك ما ييجيز لك اصطناع الكبرياء • أعرف عنك
قصة صغيرة ، أعرف كيف أن خادماً لوّث وجهك بمقشته ذات صباح ،
حين كنت مختبئاً تحت سرير عشيقتك •••
دمدم الجنراك يقول من بين أسنانه :
— امرأة قذرة •••

وعاد الدكانى يمول فقال :

— عزيزتى الشهمة آفدوتيا اجناتيفنا ، قولى لى : أنا أبتلى الآن
بالمحن الأولى من عذاب الآخرة ، أم هذا شئ آخر •••
— ا ••• عاد الى هوسه ! أوجست ذلك من الرائحة التى تعخرج
منه • هو ذا يستدير •

— لست أستدير يا عزيزتى ، وليس فى رائحتى أى شىء خاص ،
لأن جسمى لا يزال محفوظاً ، أما أنت يا جميلة فقد نثرت لحملك تناسلاً •
لذلك تفوح منك رائحة لا تطاق ، بصرف النظر عن المكان • وإذا
كنت لا أقول شيئاً ، فذلك أدب منى •

— آ ... الوقح ! هو الذى تفوح منه رائحة كريهة ، ثم يدعى
أنتى أنا الذى تفوح منى هذه الرائحة •

— أوه ! أوه ! أوه ! أوه ! ليت اليوم الأربعين يسرع مجيئه ،
فأسمع فوقى أصواتاً محزنة : أسمع انتخاب زوجتى وتساقط عبرات
أولادى •

— تتكلم عن البكاء ؟ هه ... لسوف يأكلون ثم ينصرفون •

— آه ... ليت أحداً على الأقل يصحو !

قال الصوت المتعذب :

آفدوتيا اجناتيفنا ، انتظري لحظة ، سوف يتكلم الجدد •

— هل بينهم شبان ؟

— نعم ، بينهم شبان يا آفدوتيا اجناتيفنا ؛ بل بينهم فتية •

— ها ... هذا فى أوانه •

سأل صاحب المعالي :

— لماذا لم يبدأوا حتى الآن ؟

— ... لم يفيقوا يا صاحب المعالي • أنت نفسك تعلم أنهم قد يصمتون
فى بعض الأحيان أسبوعاً كاملاً • من حسن الحظ أننا قد أثينا بأموالنا
جدد ، أسس الأول ، وأمس ، واليوم • ولولا ذلك لبقيت الدائرة حولنا ،
الى مسافة عشرين متراً ، أمواتاً من السنة الماضية •

- شيء شائق حقاً •

- فالיום يا صاحب المعالي 'دفن تاراسفتش' ، الموظف فى الدرجة الثالثة • أدركت ذلك من أصواتهم • وأنا أعرف ابن أخيه • لقد أنزل تابوت تاراسفتش منذ قليل •

- اين هو ؟

- على مسافة خمس خطوات منك يا صاحب المعالي ، يسرة • يكاد يكون عند قدميك • هذه فرصة لتعرف اليه يا صاحب المعالي •

- ماذا ؟ ليس علىّ أنا أن أخطو الخطوة الأولى •

- بل هو الذى سيبدأ • سيشرفه هذا كثيراً يا صاحب المعالي ؛
نق أتى ...

حشرج صوت آخر مرتاع على حين فجأة قائلاً :

- آه ! آه ... آه ! ماذا جرى لى ؟

- هذا قادم جديد يا صاحب المعالي ، قادم جديد • الحمد لله •
سرعان ما أفاق ! الصمت يدوم فى بعض الأحيان أسبوعاً •

هتفت آفدوتيا اجناتيفنا تقول :

- آه ... يبدو لى أنه شاب !

فتمتم الشاب يقول :

- حدث ... حدث الوفاة فى أعقاب اختلاط ، بقتة • قال لى
الدكتور شولتس أمس : عندك اختلاط ، وفجأة مت فى الصباح •
آه ! آه !

قال الجنرال باشا مرحباً ، وقد سرّ هذا الحادث الجديد :

- لا يملك الانسان أن يفعل شيئاً أيها الشاب • يجب علينا أن نسيطر

على أنفسنا ، وأن نغلب العقل في سلوكنا • أهلاً وسهلاً بك عندنا ، في وادى جوزافات • نحن ناس طيبون ، وسترى ذلك بنفسك ، فتعرف كيف تقدرنا • الجنرال ميجر فامبلى فاسيلفتش بروفيادوف ، فى خدمتك •

- آه ... لا ، لا ، لن آلف ما حدث أبداً ! ذهبت الى الدكتور شولتس ، أصابنى اختلاط : أصيب الصدر أولاً فصرت أسعل ، ثم أصابنى برد : الصدر وأنفلونزة ... وفجأة ... وقع ما لم يكن بالمتوقع أبداً ... أسوأ ما فى الأمر أنه لم يكن فى الحسبان إطلاقاً •

عاد الموظف الصغير يقول بصوت مشفق كأنما هو يريد أن يشجع الشاب المسكين :

- تقول ان الصدر هو الذى أصيب أولاً ...

- نعم ، الصدر • ونشأ بلغم • ثم انقطع البلغم فجأة ! • آه ... الصدر ... أصبحت لا أستطيع التنفس ! • ولعلك تعلم •

- أعلم ، أعلم ؛ ولكن اذا كان المرض فى الصدر ، فقد كان ينبغى أن تستشير الدكتور ايك ، بدلاً من الدكتور شولتس •

- لكننى كنت أذهب للذهاب الى الدكتور بوتكين ، وفجأة ... قال الجنرال :

- عجيب ! ان بوتكين يسلخ سلخاً ...

- لا ، انه لا يسلخ البتة • سمعت أنه يحسن التشخيص بعناية كبيرة ، ويتنبأ دائماً بما سيقع •

قال الموظف الصغير مصححاً :

- ملاحظة صاحب المعالي تتناول مسألة السعر •

- ما هذا الكلام ؟ ثلاثة روبلات فى أكثر تقدير ... وهو يحسن

الفحص ويعنى به أشد العناية ... ناهيك عن وصفاته ... لقد حرصت عليه حرصاً مطلقاً لأننى 'حدثت عنه ... قولوا لى اذن ياسادة : أذهب الى ايك أم الى بوتكين ؟

- ماذا ؟ الى من تريد أن تذهب ؟

سأله الجنرال هذا السؤال ، وانفجر ضاحكاً ، فكان جثمانه يهتز من الضحك متلذذاً ، واقتدى به الموظف الصغير •

وهتفت آفدوتيا اجناتيفنا تقول :

- عزيزى الشاب ، عزيزى الشاب الطيب ، كم أحبك ! ليتهم ، على الأقل ، يضعون بجانبى واحداً مثله !

عندئذ نفذ صبرى ! ماذا ؟ أهذا ما يسمى بالميت المصرى ؟ ولكن كان يجب على أن أصغى ، وألا أتسرع كثيراً فى استخلاص النتائج واصدار الآراء • تذكرت أننى قد رأيت هذا القبى فى تابوته منذ قليل • كانت هيئته هيئة صوص مرتاع ، وكان تعبير وجهه أبشع ما يمكن أن يكون التعبير فى وجه ! ومع ذلك انتظرت التهمة •

غير أن الفوضى التى قامت قد بلغت من الشدة أننى لا أتذكر الآن شيئاً • استيقظ عدد كبير من الأموات فى آن واحد : منهم موظف الدرجة السابعة الذى أسرع يشرح للجنرال مشروعا يتعلق بلجنة جديدة فى الوزارة ، ويحدثه عن ترقية مرتبة لكبار الموظفين ترتبط بذلك المشروع ، فأثار هذا اهتمام الجنرال كثيراً • أعترف أننى بهذا الاصغاء اطلعت على أمور كثيرة ، فصحبت أشد العجب لتلك الطرق العجيبة التى يسلكها أبناء الادارات الحكومية لتذيع فى العاصمة • ثم صحا مهندس نصف صحو ، وأخذ يجتر خلال مدة طويلة سخافات تبلغ من الحمافة أن أحداً لم يشأ أن يصغى اليه ، فاضطر أن يبقى مهملاً فى ركنه • ثم جاء دور السيدة

المروفة التى كانت ترقد فى الصباح على النعش ، فأخذت تتحرك فى
رسمها وتضطرب • وقد استغرب ليزياتنيكوف (اتضح ان اسم موظف
الدرجة السابعة ذى الصوت المتعذب ، المسجى بجانب الجنرال برفويادوف ،
كان اسمه ليزياتنيكوف) أن يستيقظ الجميع فى هذه المرة بهذه السرعة •
وانى لأعترف بأننى استغربت ذلك أنا نفسى • على أن بعضهم كان قد
دُفن أمس الأول ، فكذلك شأن تلك الفتاة الشابة التى تبلغ من العمر
سته عشر ربيعاً ، والتى كانت لا تنفك تضحك ••• بل قل لاتى تفهقه
تفهقه ساخرة ضارية غير لائقة •

رفع ليزياتنيكوف صوته يقول معلناً على حين فجأة بلهجة فيها تعجل
شديد :

— صاحب المعالى ، صحاح تاراسفتش ، موظف الدرجة الثالثة •

فقال تاراسفتش باحتقار :

— فماذا ؟

كان فى لهجته شىء من نزوة وتسلط فى آن واحد • أصحت
بسمعى منتبهاً ، لأننى قد سمعت فى الآونة الأخيرة عن تاراسفتش هذا
حكايات مشهية مذهلة معاً •

— هذا أنا يا صاحب المعالى ، أو قل •••

— ماذا تريد ؟

— لا شىء الا الاستفسار عن صحة معاليك • ان الجميع يشعرون هنا
فى البداية بشىء من التضايق لعدم التعود • ان الجنرال برفويادوف يود أن
يتشرف بالتعرف الى معاليك ، ويأمل أن •••

— لم أسمع بهذا الاسم •

— أرجوك أن تتذكر يا صاحب المعالى ، انه الجنرال برفويادوف ،

فاسيلي فاسيلفتش برفويادوف •

— أنت الجنرال برفويادوف ؟

— لا يا صاحب المعالي ، ما أنا الا ليزياتنيكوف ، موظف فى الدرجة السابعة ، فى خدمتك ؛ أما الجنرال برفويادوف ...

— كفى سخافات ! أرجوك أن تدعنى وشأنى !

قال الجنرال برفويادوف مقاطعاً من أجل أن يضع حداً لشراسة هذا النزيل الجديد المتكبر :

— دعه !

— انهم لم يفيقوا افاقة تامة يا صاحب المعالي • يجب ألا نغفل عن هذا الأمر • انهم لم يعودوا بعد • سوف يفيقون ، فينظرون الى الأمور عندئذ بأعين أخرى •

فكرر الجنرال قوله :

— دعه !

وفجأة هتف صوت بقرب آفدوتيا اجناتيفنا ، صوت حائق لم يسمع من قبل — صوت فنى من أسرة كريمة ، متهدج اللهجة مرتضى الثبرة كثير التقطع ، هتف يقول مخاطباً الجنرال :

— فاسيلى فاسيلفتش ! صاحب المعالي ! اننى أرقبك منذ ساعتين • وقد أودعت هذا المكان قبل ثلاثة أيام • هل تتذكرنى يا فاسيلى فاسيلفتش ؟ أنا كلنيافتش ، التقينا عند آل فولوكونسكى الذين كانوا يستقبلونك أنت أيضاً ، لا أدرى لماذا •

— كيف ؟ الكونت بطرس بتروفيتش ... هل يعقل أن تكون أنت ... فى مقبل العمر ... ما أشد أسفى ! ...

— أنا أيضاً آسف ... وان كان يستوى عندى الأمران • اننى أريد

أن أستفيد أكبر استفادة من كل ما يعرض لى • ثم انتى لست كوتنا بل
بارونا ، لست الا بارونا • نحن بارونات صغار لا أكثر ، أحفاد خدم •
وهذا كله لا يهمنى فى قليل ولا كثير على كل حال • ما أنا الا نجس من
أنجاس المجتمع الراقى المزيف ، يعد نفسه « خليعاً لطيفاً محبباً » • كان
أبى جنرالا ، وكانت أمى تُستقبل فى « أعلى مجتمع » • وقد قمت فى
السنة الماضية ، أنا واليهودى زيفل ، بطرح خمسين ألف ورويه من
الأوراق المالية المزورة فى التداول ، ثم وشيت بزميلى اليهودى ، ولكن
جوليت تارباتتية دو لوزجنان هى التى مضت بالمال الى بوردو • وتصور
أننى كنت قد تعاهدت على الزواج ••• مع شتيفالفسكيا ••• فتاة عمرها
سنة عشر عاماً الا ثلاثة أشهر ، ومهرها تسعون ألف روبل ! ••• يا آفدوتيا
اجناتنا هل تذكرين كيف أفسقتنى منذ خمسة عشر عاماً حين كنت غلاماً
فى السنة الرابعة عشرة من العمر ؟

- ها ! ••• هذا أنت اذن يا شيطان ! لقد أحسن الرب بارسالك
الى هذا •

- ظلمت جارك التاجر حين ظننت أنه أخرج رائحة كريهة •••
لقد سكنت أنا وأخذت أضحك • الرائحة صادرة عنى • وضعونى فى
تابوت مسمر •

- آه ! ••• يا للخبيث ! لكننى مسرورة مع ذلك • لن تصدقنى
إذا وصفت شدة افتقارنا الى الحياة والنشاط يا كلينافتش !

- بلى ! بلى ! أصدقك • وفى نيتى أن أهىء هنا شيئاً طريفاً •
صاحب المعالى ! لست أخطبك أنت يا برفويادوف ، بل أخطبك أنت
الآخر يا صاحب المعالى تاراسفتش ! ما بالك لا تجيب ؟ أنا كلينافتش الذى
قدتك فى الصوم الكبير الى عند الأمسة فورى ، هل تسمع ؟

- أسمع يا كلينافتش • وانى لسعت بك ، صدقنى •••

- لا أصدق من كلامك شيئاً • كل ما أريده أيها الشيخ اللطيف هو أن أثبتك • ولكتني لا أستطيع ذلك ولله الحمد • هل تعرفون ، يا سادة ، ما فعله هذا الجدة ؟ لقد مات منذ يومين أو ثلاثة ، مديناً بأربعمائة ألف روبل • وكان هذا المبلغ لأرامل ویتيمات ، وكان يتولى وحده - لا أدري لماذا - تصريف شئون هذه الثروة ، فلم يسأل أن يؤدي أى حساب خلال ثمانى سنين • اننى لأتصور كيف تستطيل وجوه أولئك الذين يدركون الآن حقيقة الرجل الذين وثقوا به • أليس صاحب خيال ترى ؟ كنت منذ سنة أدهش وأتساءل كيف يتاح لهذا الشيخ الذى يبلغ من العمر سبعين عاماً ، ويعانى من داء التقرس فى القدمين واليدين ، أن يملك من القوة ما يؤهله للاسترسال فى الدعارة والفسق ••• فهل عرفتم الآن السر ؟ تلكم الأرامل والیتيمات • كان ذلك الحيسال وحده يكفيه لشحذ قوته وانعاش حماسه ! ••• علمت بذلك منذ مدة ، فما ان علمته - والآنسة شارباتيه هى التى أعلمتني به - حتى هرعت اليه وأسديت له نصيحة صديق لصديقه ، قلت له : « تدفع خمسة وعشرين ألف روبل فى الحال ، والا تؤدي حساباً فى النقد » • ولكن لم يكن معه الا ثلاثة عشر ألف روبل • فلعل الموت قد وافاه اذن فى الوقت المناسب • هل تسمع ، يا جد ، يا جد ؟

- عزيزى كليتافتش ، أنا موافق على رأيك كل الموافقة ، ولم تكن بك حاجة الى الدخول فى هذه التفاصيل • ان الحياة زاخرة بالآلام وتمزقات كثيرة ، وليس فيها الا قليل من التسليلات ••• كنت أود لو أهدأ فى النهاية ، واننى لأمل ، فيما أرى ، أن أستمع من هذا المكأن كل •••

- أراهن أنه شمّ وجود كاتيش بيروستوفا !

- وجود من ؟ كاتيش ماذا ؟

كذلك هتف الشيخ سائلاً بصوت يرهشه الهوى •

- آ ••• آ ••• كاتيش ماذا ؟ انها هنا ، على مسافة خمس خطوات

منى الى اليسار ، وعلى مسافة عشر خطوات منك • هى هنا منذ أربعة أيام •
وليتك تعلم ، يا جد ، أية شيطانة صغيرة هى ! انها من أسرة كريمة ،
حسنة التهذيب ••• هى على الجملة شيطانة ، شيطانة الى أقصى حد !
لم أتح لأحد هناك أن يراها • أنا وحدى أعرفها • كاتيش ، أجيبينى !
فأجاب صوت صارخ رنان فيه شيء حاد كأنه ابرة ، هو صوت فتاة
صغيرة :

— هى ، هى ، هى !

تتمم الشيخ يسأل بصوت لاهث :

— هل هى شقة ••• را ••• ؟

— هى ، هى ، هى !

وتتمم الشيخ يقول أيضاً مختق الأنفاس :

— أحلم منذ مدة طويلة بشقراء صغيرة ••• فى الخامسة عشرة من

عمرها ••• وفى هذا الاطار بعينه •••

صاحت آفدوتيا اجناثنا تقول :

— يا للشذوذ !

قال كلينافتش بصوت حازم :

— يكفى هذا • أرى أن جملة الأمر حسنة • سندبر شئوننا هنا

على أحسن وجه ، وبخير ابطاء • فانما الشيء الأساسى أن نقضى بقية الوقت

فى متعة ومسرة • ولكن كم بقى لنا من وقت ؟ قل أنت يا ليزياتنيكوف ،

مادام هذا اسمك فيما سمعت •••

— اسمى ليزياتنيكوف ، سيميون افزئتش ليزياتنيكوف ، موظف فى

الدرجة السابعة ، سعيد جداً بأن أنفذ أوامرك •••

- لا يهمنى أن تكون سعيداً أو ألا تكون ، ولكن يبدو أنك هنا الشخص الوحيد الذى يعرف كل شيء . قل لى أولاً (كنت لا أزال دهشاً من الأمر منذ أسس) : كيف يمكن أن تتكلم ونحن فى هذا المكان ؟ ذلك أننا أموات ، ومع ذلك نتكلم ، ويبدو كأننا نتحرك ، لكننا لا نتكلم ولا نتحرك ، فما هذه المهزلة ؟

- هذا أمر ، اذا شئت يا بارون ، يستطيع أن يشرحه لك أفلاطون
يقولاً يفتش خيراً منى .

- من أفلاطون يقولاً يفتش هذا ؟ لننتقل الى الوقائع ، بغير بهرج
ولا زخرف !

- أفلاطون يقولاً يفتش هو فيلسوفنا الرسمى ، يؤمن بالمذهب
الطبيعى ، أستاذ كبير . نشر عدة كتب فلسفية ، ولكنه نائم منذ ثلاثة أشهر ،
فلا سبيل الى هزّه . ينطق مرة واحدة فى الأسبوع بوضع كلمات
لا تمت الى الأمر بصلة من الصلات .

- الى الوقائع ! الى الوقائع !

- هو يشرح ذلك بأننا ، فوق الأرض ، حين كنا أحياء ، كنا نرتكب
خطأ ، فنظن الموت ، تحت الأرض ، موتاً ، والحقيقة خلاف ذلك . فالجسم
هنا يحيا مرة أخرى ان صح التعبير ، لأن تنفّاً من الحياة تتجمع وتتركز ،
ولكنها تتجمع وتتركز فى الشعور فحسب . لا أدري كيف أعبرٌ لك .
فل ان شئت ان الحياة تستمر هنا بحكم ما يشبه أن يكون قانون العطالة .
وفى رأى فيلسوفنا أن كل شيء متجمع ومتركز فى الشعور ، وهو يظل
على هذه الحال شهرين أو ثلاثة أشهر وربما ستة أشهر فى بعض
الأحيان . على سبيل المثال ، هنا شخص كاد يتحلل جسمه تحللاً كاملاً ،
ومع ذلك نسمعه ، فى كل ستة أسابيع ، يدمدم فجأة بكلمة ، كلمة واحدة

صغيرة ، لا معنى لها طبعاً « بوبوك ، بوبوك ، بوبوك » • هذا دليل على أنه لا يزال فيه قيس خفى من حياة •

— سخف ! غباء ! ولكن قل لى : كيف أشم رائحة التبن وقد فقدت حاسة الشم ؟

— مرد ذلك ••• هىء هىء ••• هنا يسبح فيلسوفنا فى ضباب كيف • فيما يتعلق بالشم خاصة ، يرى فيلسوفنا أن التبن الذى تشمه هنا تبن روحى بمعنى من المعانى ••• هىء هىء ! ••• تبن يصدر عن الروح ، من أجل أن يتسع وقت المرء ، خلال هذين الشهرين أو هذه الأشهر الثلاثة ، أن يثوب الى نفسه ••• وفى رأى فيلسوفنا أن هذه آخر نعمة • ولكننى أرى مع ذلك يا بارون أن هذا الكلام هذيان صوفى غيبى يجب أن نغفره لمن كان فى مثل وضعه •••

— كفى •• الباقى معروف •• سخافات ! •• ان الشىء الثابت المحقق أن الحياة ستستمر شهرين أو ثلاثة ، ثم « بوبوك » • اقترح عليكم جميعاً أن تقضوا هذين الشهرين على نحو ممتع ما أمكن ذلك ، وأن تنظموا من أجل هذا على أسس جديدة • سيداتى سادتى ! اقترح عليكم أن تتخلوا منذ الآن عن كل حياء أو حشمة •

فرددت أصوات تقول مؤيدة :

— نعم ، نعم ، يجب أن تتخلى عن كل حياء أو حشمة !

والغريب أن أصواتاً جديدة قد اشتركت فى ترديد هذا الكلام ، فهى أصوات أشخاص أفاقوا اذن فى تلك اللحظة نفسها •

وهتفت أفدوتيا اجنائفنا تقول بحماسة :

— آه ••• لشدما أحب أن أخلص من الحفر !

— هل تسمعون ؟ ... ان آفدوتيا اجناتنا نفسها تريد أن تتخلص من الحفر !

— لا يا كلينافتش ، لا ، لا ، لقد كنت استحي هناك ، فى الماضى ، أما هنا فان رغبة رهيبية فى التخلص من هذا الحياء تضطرم فى نفسى وتنلظى •

قال المهندس :

— أفهم من كلامك أنك تقترح أن ننظم لأنفسنا هنا حياة قائمة على أسس جديدة ، أسس عقلية فى هذه المرة •

— لا يهمنى هذا ! بالنسبة ، يجب أن تنتظر كوداياروف الذى جىء به أسس • فمتى صحا شرح لكم كل شىء • وفى الغد سيجيئوننا بعالم من علماء الطبيعة ، وربما جاءونا بضابط ، واذا لم يخطئ ، تقديرى فسوف يجيئوننا بكتاب ينشر مقالات فى احدى الجرائد وسوف يجيئوننا معه بمدير الجريدة فيما أعتقد • على كل حال ، لا يهمنى أمر هؤلاء جميعاً ، فليأخذهم الشيطان ، وحسبنا أن نكون جماعتنا ، فيتنظم كل شىء من تلقاء نفسه بيننا • ولكننى أطلب قبل كل شىء بأن لا نكذب • على الأرض تستحيل الحياة بدون كذب ، فالحياة والكذب مترادفان : أما هنا فلن نكذب ، وذلك من أجل أن نضحك قليلاً • لا أقل من أن ينفعنا القبر فى شىء ! سوف يقص كل منا قصة حياته جهاراً بدون أقل تحفظ ! وسأكون أنا أول من يروى قصة حياته • اننى كما تعلمون من صنف الضواري • فوق الأرض ، كان كل شىء تحركه أسلاك عفنة • أف من الأسلاك • لنقص هذين الشهرين فى رحاب الحقيقة المكشوفة بغير حياء ولا خجل ! لنخلم الأثمة ، ولنظهر عراةً عرياً تاماً •

صاح الجميع يقولون بصوت واحد :

— عرياً تاماً ، عرياً تاماً !

- آه ... لشدما أحب أن أتعري تماماً !

كذلك قالت آفدوتيا اجناتنا بصوت مزمرجر *

- آ ... أرى أن الجو سيكون مرحاً هنا * فلا أريد أن أذهب الى
الدكتور ايك !

- أما أنا فأريد أن أحيأ أيضاً ، أود لو أعيش مدةً أطول *

وضحكت كاتيش ساخرة :

- هيء هيء هيء !

- الشيء الأساسي هو أن أحداً لا يستطيع أن يمنعنا من أن نفعل
ما عقدنا العزم عليه ؛ ان برفويادوف ، رغم أنه غاضب فيما أرى ، لن
يستطيع أن يبلغنى * هل أنت موافق يا جد ؟

- كل الموافقة ، وبأعظم سرور ، ولكن على شرط أن تكون كاتيش
هي البادئة بقص قصة حياتها *

قال الجنرال برفويادوف :

- أحتج ! أحتج أشد الاحتجاج *

فأسرع ذلك الوغد لبزياتنيكوف يحاول اقناع الجنرال متعجلاً "متعجلاً"
محموماً ، فقال له همساً وهو يخفض صوته :

- صاحب المعالي ، سيكون فى هذا نفع كبير لنا اذا نحن وافقنا *
هناك هذه الفتاة الصغيرة كما تعلم ... ثم هناك تلك القصص الصغيرة
كلها ...

- لنسلم بأن هناك الفتاة الصغيرة ... ولكن ...

- سيكون لنا نفع كبير ، يا صاحب المعالي ، نفع كبير ، أؤكد
لك ! ... فليبدأوا على الأقل ، من باب التجربة ...

- حتى فى القبر لا أنرك مرتاحاً ...

قال كلينافتش :

- يا جنرال ، أنت أولاً تلعب هنا بالورق ، ثم اننا لا يهمنا أمرك ،
ولا نكثر بك •

- أيها السيد العزيز ، أرجوك على الأقل ألا تنسى نفسك فتقول
ما ليس ينبى أن يقال ...

- هه ؟ ماذا ؟ انك لن تستطيع أن تتألى على كل حال ... ففى
وسمى أن أغيطك ما شاء لى هواى أن أغيطك • ثم ماذا يجديه هنا أن
يكون له لقب جنرال ؟ هناك كان جنرالاً أما هنا فليس الا جيفة !

- لا ، لست جيفة ... أنا هنا ...

- أنت هنا تتفسخ فى تابوتك ، ولن يبقى منك الا سنة أزرار
نحاسية •

أعولت الأصوات تصبح :

- مرحى كلينافتش ! ها ها ها ! ...

- لقد خدمت قيصرى ... ولى سيف ...

- سيفك لا ينفع الا فى تسفيد فئران ، ثم انك لم تستله فى يوم
من الأيام •

- لا قيمة لهذا ، فلقد كنت جزءاً من كل •

- كثيرون هنا كانوا جزءاً من كل •

- مرحى كلينافتش ، مرحى ! ها ها ها ! ...

قال المهندس :

٠ أنا لا أعرف ما السيف ٠

وصاح من بعيد صوت لا أعرفه لكنه بدا لى فى ذروة الحماسة :

٠ منهرب كالقثران أمام البروسيين ، وسيجعلوننا نظير فى
الهواء غباراً ٠

قال الجنرال بصوت خافت متلثم لا يكاد 'يسمع ولا 'يفهم :

٠ السيف شرف يا سيد ٠

ولكننى سمعته وفهمته ٠

وتعالت جلبة طويلة ٠ كان الجميع يصخبون ويصيحون ، فلا يستطيع
المرء أن يسمع الا عويل التمليل الهستري الذى يصدر عن آفدوتيا
اجناتنا معبراً عن نفاد صبرها :

٠ آه ٠٠ أسرعوا ٠٠ أسرعوا ٠٠ متى نبدأ أخيراً فى التخلص من
الحياء ! ٠٠٠

وقال الدكانى فجأة :

٠ أوه ! أوه ! أوه ! أوه الحق أن نفسى أخذت تواجه البراهين ٠٠٠
وفجأة عطست ٠ عطست على حين بفتة دون أن أريد ذلك ٠ ولكن
الأثر كان مذهلاً : أصبح كل شيء هادئاً ساكناً كما يكون فى مقبرة ٠
تبدد كل شيء ٠ أصبح الصمت صمت قبور حقاً ٠ لا أظن أنهم تخرجوا
من حضورى : فلقد قرروا ألا يشعروا من شيء بحياء ٠ لا ولا يمكن أن
أفترض أنهم خافوا أن أشئ بهم الى الشرطة ٠ فما مجيء الشرطة الى هذا
المكان وما عساها تفعل هنا ؟ لذلك ترانى أستتج ، على غير ارادة منى ،
أنه لا بد أن لهم سرّاً يجهله الأحياء ، وأنهم يحرصون أشد الحرص على
ألا يذيع هذا السر ٠

قلت لنفسى : « هيا يا أصدقائى ، سأجىء أزوركم مرة أخرى » •
وغادرت المقبرة •

لا ، لا أستطيع أن أسلم بهذا فى الواقع ، لا أستطيع أن أقبله !
ان بوبوك لا يخيفنى ولا يث الاضطراب والقلق فى نفسى (ذلك اذن
ما كان يريد أن يصل اليه « بوبوك ») •

دعارة فى مثل هذا المكان ! دعارة يسترسل فيها من 'تعقد عليهم أقصى
الآمال ! دعارة تقوم بها جث متحللة متفسخة تنه ! دعارة لا تعف حتى
فى أواخر لحظات الشعور والضمير ! لقد أتاحت لهم ، أتاحت لهم تلك
اللحظات الأخيرة ، و ... و ... لكن كيف يفعلون هذا فى مثل هذا
المكان خاصة ؟ لا ، لا ، اتنى لا أستطيع أن أقبل ذلك وأن أسلم به ...

وطفت على الصفوف الأخرى ، وأصغيت الى جهة من الجهات ،
ذلك أنه كان يجب على أن أصغى الى كل جهة من الجهات ، لا الى جهة
واحدة ، حتى أستطيع أن أقطع برأى وأن أقضى بحكم • أترانى ألقى
فى آخر المطاف ما يبعث على عزاء ؟

لكننى سأعود حتماً الى هؤلاء • لقد تعاهدوا على أن يرووا قصص
حياتهم ونوادير شتى • أف • لكننى سأعود ، سأعود حتماً ، فتلک أزمة
ضمير •

وسأحمل مقالتي الى جريدة « المواطن » • لقد نشرت فيها صورة
محرر • فمن الجائز أن ينشروا لى أنا أيضاً •

الطفل عند شروع
في عيد الميلاد
١٨٧٦

« الطفل عند المسيح في عيد الميلاد » ، ظهرت أول مرة
في كراسة كانون الثاني (يناير) ١٨٧٦ من «يوميّات
كاتب» (المجلد الثاني ، ٢) •

••• أحلم دائماً أن هذا حدث بمكان ما ، فى زمن غير محدّد ،
عشية عيد الميلاد تماماً ، فى مدينة كبيرة من المدن ، أثناء جو جليدى فظيع .
أحلم أن طفلاً لا يزال صغيراً جداً ، طفلاً عمره ست سنين ،
وربما أقل من ذلك ، قد استيقظ ذات صباح فى قبوٍ ينضج رطوبة • أنه
يرتدى نوعاً من قميص أو مثزل ، ويرتجف من شدة البرد ، وأنفاسه
تنتشر بخاراً أبيض ، وقد قبع هو فى ركن جالساً على صندوق ، وأخذ
يرسل هذ البخار عامداً يخادع به ضجره ، ويتسلى عن سأمه بالنظر اليه
كيف يطير • ولكنه جائع يتمنى لو يصيب شيئاً من طعام • لقد دنا فى هذا
اليوم عدة مرات من السرير الحقيقى الذى ترقد عليه أمه المريضة فوق
فراش من قش ، متوسدةً صرّة • ما الذى جاء بها الى هذا المكان ؟ أغلب
الظن أنها وافدة من مدينة أخرى مع ابنها الصغير ، وأنها قد وافاها المرض
بنتة • وقد اقتادت الشرطة أمس صاحبة القبو التى تؤجر غرفه ، وجلا
السكان عن جميع أركان القبو منفردين هنا وهناك ، فالיום عيد ، ولم يبق
فى القبو الا لئام خرقٍ أخذ السكر منه كل مأخذ ، لأنه ظل يشرب منذ
أربع وعشرين ساعة غير منتظر أن يحلّ يوم العيد •

وفى الطرف الآخر من الغرفة ثنّ عجوز صغيرة أقعدها مرض
الروماتزم ، ولا بد أن عمرها ثمانون سنة • لقد كانت فى أزمئة غير هذه
الأزمئة وأمكنة غير هذه الأمكنة « مريسة أطفال » ، ولكنها تموت الآن
وحيدة ، ثنّ وتتهد وتنهز الصبى الصغير • لذلك يخاف الصبى الآن أن
يدنو كثيراً من ذلك الركن •

ولقد استطاع أن يجد فى الدهليز ما يشربه ، ولكنه لم يتمكن من
الغور على أية كسرة خبز يأكلها ؟ وهذه هى المرة العاشرة ، على الأقل ،
التي يقترب فيها من أمه ليوقظها • وقد اعتراه أخيراً شيء من الخوف فى هذا
الظلام • لقد هبط الليل منذ مدة طويلة • ولكن لم يشعل أحد ضوءاً

حتى الآن . . . وحين جسَّ الصبي وجه أمه أدهشه أن الوجه ظل ساكناً لا يتحرك ، وأنه بارد كبرودة الجدار . قال يحدث نفسه : « البرد شديد حقاً هنا ، وارتاحت يده على كتف المريضة من تلقاء نفسها ، ثم أخذ ينفخ على أصابعه ليدفئها . ثم اذا هو ينبش السرير فجأة ليثر على كسكيتته ، ويخرج من القبو متلبساً طريقه فى الظلمة الحالكة بنير ضجة . ولقد كان يمكن أن ينصرف قبل ذلك بمدة طويلة لولا خوفه من أن يلتقى فى أعلى السلم بكلب ضخّم ظل ينبح أمام باب المنزل المجاور طوال اليوم . ولكن الكلب كان قد بارح مكانه ، ورأى الصبي نفسه فى الشارع فجأة .

رباه ! يا لها من مدينة ! انه لم يشهد فى حياته شيئاً كالذى يشهده الآن . هناك ، فى البلد الذى جاء منه ، يكون الظلام شديداً فى الليل ، فالشارع لا ينيّره الا مصباح واحد . والمنازل الخشبية الصغيرة مختفية وراء مصاريعها . ومتى هبط الليل لا يرى أحد فى الشوارع . فالتاس جميعاً يأوون الى بيوتهم . ولا يبقى فى الشوارع الا كلاب ، مئات من الكلاب ، ألوف من الكلاب ، أسراب كبيرة من الكلاب تظل تعوى وتببح طوال الليل . ولكن الجو دافئ جداً هناك ، وهناك كان يعطى طعاماً يأكله . . . أما هنا . . . يارب ! ليته يستطيع أن يأكل فقط . . . ثم ما أشد الجلبة والضجة هنا ! وما أسطع الضياء ! ما أكثر الناس ! وما أوفر الخيل والعربات ! . . . وهذا الجليد ! هذا الجليد !

وخرج بخار متجلد من خياشيم الأفراس المسرعة . ورنت حدوات حوافرها على بلاط الشارع تحت التلج الهش . وهؤلاء الناس كلهم ما أكثر ما يتصادمون ، و . . . رباه . . . ما أشد جوعه . . . ما أشد رغبته فى أن يأكل ولو لقمة من أى شيء . وما أشد الألم الذى يشعر به فى أصابعه فجأة ! وممرّ بقرب الصبي رجل من شرطة المدينة ، فسرعان ما أشاح وجهه عنه متظاهراً بأنه لم يلمحه .

هذا شارع آخر . أوه ! ما أعرضه ! هنا سيُبداس حتماً . ما أكثر

ما يصيح هؤلاء الناس كلهم ، وما أشد ما يسرعون فى سيرهم ! وما أكثر الضياء ! ما أسطع النور ! ثم ما هذا ؟ آآآ . زجاج نافذة واسعة . ووراء الزجاج غرفة ، وفى الغرفة شجرة عالية تبلغ السقف . انها شجرة صنوبر ، شجرة عيد الميلاد . ما أكثر ما تحمل من أنوار ، وأشربة مذهبة ، وتفاحات . وقد أحيطت بلعب صغيرة ، وأفراس صغيرة . وفى الغرفة أولاد يركضون : انهم يرتدون ثياب العيد . ما أنظفهم ! وهم يضحكون . هذه بنت أخذت تراقص صبيّاً صغيراً . ما ألطفها ! ما أحلاها ! حتى ان موسيقى تسمع من خلال الزجاج .

ينظر الصبى الصغير ويمعجب ويدمى . ثم هاهو ذا يضحك ، بينا هو يشعر بألم فى أصابع رجليه الصغيرة ، وبينما تحمر أصابع يديه احمراراً شديداً وتابى أن تنثنى وتوجعه اذا هو حركها . عندئذ تذكر الصبى فجأة أن أصابعه تؤلمه ، فأخذ يبكى ، وركض مبتعداً . ولكن ها هو ذا يرى زجاج نافذة أخرى ، ويرى غرفة أخرى فيها شجرة أيضاً . غير أنه يلمح فى هذه المرة موائد ، ويرى على الموائد أصنافاً من الحلوى ، أصنافاً كثيرة من الحلوى : أقراصاً باللوز ، أقراصاً حمراء وأقراصاً صفراء ؛ ويرى أربع سيدات غنيات قد جلسن يوزعن الحلوى . ويدخل ناس كثير فى أجمل الحلل ، آتين من الشارع .

اقترب الصبى خلسة ، وفتح الباب ، ودخل فجأة . آه . . . لكم أخذوا يسبون شاهرين أيديهم ! وأسرعت سيده تدنو منه فتدس فى يده قرشاً ثم تفتح له باب الشارع بنفسها . لشدما خاف ! وسرعان ما تخرج القرش على الدرجات فرنّ رنيناً واضحاً . لم يستطع الطفل أن ينشئ أصابعه الصغيرة المحمّرة ليقبض على القرش ! وأسرع يركض ماضياً فى سبيله قدماً دون أن يعرف الى أين يذهب . ان به حاجة الى البكاء من جديد ، ولكنه فى هذه المرة خائف . وأخذ يركض وهو ينفخ

على يديه • واستولى عليه قلق وفزع ، اذ أحس فجأة بأنه وحيد جداً •
وفيما كان يشد رعبه ، اذا هو ••• ما هذا أيضاً يا رب ؟ ••• هؤلاء
جماعة من الناس قد وقفوا مدهوشين • ان وراء زجاج نافذة من النوافذ
ثلاث دمي • ليست الدمى كبيرة • وقد ألبست فساتين حمراء وخضراء •
ولكنها تشبه أن تكون حبة ، تشبه أن تكون حبة تماماً ! هذا شيخ جالس
كأنه يعزف على كمان ، على كمان كبير • وهذان شيخان آخران يعزفان على
كمانين صغيرين ، صغيرين جداً ، ويرتجان رأسيهما الدقيقين على ايقاع
العزف • وتنظر الدمى بعضها الى بعض ، بينما تتحرك شفاهها وتتكلم •••
نعم ••• لكنها تتكلم حقاً ••• أليست كمن يتكلم فعلاً ؟ ولكن الزجاج
يحجب صوتها فلا يسمع كلامها •

ظن الصبي في أول الأمر أنها أشخاص أحياء • لكنه حين أدرك أنها
دمى انفجر يضحك فجأة • لم يسبق له أن رأى مثل هذه الدمى
في يوم من الأيام ، بل لم يكن يتصور أن في الامكان أن توجد أمثال
هذه الدمى • صحيح أنه كانت به حاجة الى البكاء • ولكن منظر هذه
الدمى يبعث على الضحك ، يبعث على الضحك جداً •

وبدا له بقتة أن أحداً أمسك قفاه • ان صيياً طويلاً شريراً كان
واقفاً الى جانبه ، فاذا به يضربه على رأسه ، ويخطف كسكيتته ، ثم يشبك
ساقه بساقه فيسقطه على الأرض • تدحرج الصبي الصغير • وأخذ الناس
يصيحون • واعتري الصبي رعب شديد ، فقام وولى هارباً بخطى عريضة
وهو لا يدري ماذا يفعل ، ودخل بوابة أحد المنازل فصار في فائه ، ووجد
كومة من خشب فأقمى وراءها وهو يقول لنفسه : « هنا ••• على الأقل •••
لن يكتشفوا مخبئي •• فالظلام في هذا المخبأ شديد » •

أقمى وطوى بعض جسمه على بعضه وهو لا يستطيع أن يتنفس من
شدة خوفه • ولكنه لم يلبث أن شعر براحة على حين فجأة • نعم على
حين فجأة • أصبحت يدها وقدماه لا توجعه ، وأحس بدفء ، بدفء •

شديد ، كأنه قريب من مدفأة • وارتعش بفتة • آه ••• لقد حرم من النوم مدة طويلة • ما أحلى أن ينام هنا !

قال الصبي الصغير يحدث نفسه : « سوف أمكث هنا لحظة ، ثم أمضي أرى الدمى مرة أخرى » ، وابتسم حين تصوّرها من جديد • لكنّها كانت حية !

وبدا له فجأة أنه يسمع صوت أمه تغنى له أغنية صغيرة وهى مائلة عليه •

— ماما ! انسى أنام ! آه ••• ما أحلى النوم هنا !

وفجأة سمع الصبي صوتاً رقيقاً يقول له فوقه :

— تعال انظر الى شجرة عيد الميلاد عندى يا بنى •

فتصوّر الصبي فى أول الأمر أن أمه هى التى تكلمه ، ولكن لا •• ما هى أمه • فمن ذا الذى ناداه اذن ذلك النداء ؟ لم يبصر الصبي شيئاً ، لكن أحداً قد مال عليه مع ذلك ، وضّمّه بذراعيه فى الظلام • وقد مدّ هو ذراعيه •• وما هو ذا يرى نفسه فجأة فى مكان آخر ••• يا للضياع الساطع ! أوه ،••• ما أروعها شجرة من أشجار عيد الميلاد ! لكنها ليست شجرة صنوبر • ومع ذلك لم ير فى حياته شجرات كهذه الشجرة • أين هو الآن ؟ كل شيء يشع ، كل شيء يتلألأ • وما أكثر الدمى الصغيرة التى تحيط به من كل جهة • ولكن لا ! ما هذه دمية ، بل صبية صفراء ، وصبايا صغيرات • ولكنهم يشعون ويتألقون • وهم يرقصون من حوله وقد تشابكت أيديهم ، وهم يطيطون ، وهم يقبّلونه ، وهم يحملونه ويأخذونه معهم فيطير هو أيضاً • واليكم ما يراه عندئذ : يرى أمه تنظر اليه ، وتبتسم له فرحة • فيصبح الصبي الصغير قائلاً لأمه :

— ماما ! ماما ! آه ••• ما أحلى هذا المكان وما أشهى !

وعاد يقبّل الأطفال ، واشتهى أن يروى لهم قصة الدمى التى رآها وراء زجاج النافذة ، أن يروى لهم هذه القصة بأقصى سرعة •

قال يسألهم وهو يضحك ويلطفهم :

— من أتم أيها الصبية الصغار ؟ من أتن أيها الصبايا الصغيرات ؟
فأجابوه :

— هذه شجرة عيد الميلاد عند يسوع المسيح • ان المسيح ينصب شجرة فى مثل هذا اليوم من كل سنة للأطفال الصغار الذين لم يكن لهم شجرة على الأرض •••

هكذا علم أن جميع هؤلاء الصبية الصغار والبنات الصغيرات كانوا أطفالاً مثله ، ولكن بعضهم ماتوا من البرد فى سلال تركوا فيها على أبواب قصور سان بطرسبرج ، وبعضهم ماتوا رضعاً فى دار حضانة بفنلندة ، وبعضهم ماتوا على أنداء أمهاتهم الناضبة ابان المجاعة التى عمت بلاد سمارة ، وبعضهم ماتوا مختنقين بالهواء المسموم فى حافلات الدرجة الثالثة من القطار • ولكنهم كلهم مجتمعون الآن هنا كالملائكة • انهم عند يسوع المسيح • وان يسوع المسيح هو الآن معهم يمد يديه ليباركهم وليبارك أمهاتهم أيضاً ••• ان الأمهات قد اتحن جانباً ، وأخذن يبكين • وكل واحدة منهن تعرف ابنها الصغير أو ابنتها الصغرى فتطير الى جانبه أو الى جانبها • والأولاد يقبّلون أمهاتهم ، ويمسحون دموعهن ، ويضرعون اليهن ألا يبكين ، لأنهن الآن سعداء •

فى فناء ذلك المنزل ، عثر البوابون فى الصباح على جثة طفل دخل الفناء مسرعاً وتجلّد وراء كومة من خشب • وأمكن العثور على أمه فى النهاية • كانت قد ماتت قبله •

والتقى الاثنان فى السماء عند الرب •

الفصل عشاري

۱۸۷۶

« الفلاح ماراي » ؛ ظهرت أول مرة في كراسة شهر
شباط (فبراير) ١٨٧٦ « يوميات كاتب » (الفصل
الثالث ، ٣ ، ٠

ولكننى أعتقد أن جميع أنواع هذا « الجهر بالرأى » تبث قراءتها على الملل والضجر . لذلك سوف أكتفى برواية حكاية ، بل ما هى بحكاية أيضاً ، وانما هى ذكرى لا أكثر ، ذكرى تحرقنى الرغبة فى بسطها هنا ، هذه اللحظة ، ختاماً لحديثنا عن الشعب . كنت فى التاسعة من عمري ولكن لا ان من الأفضل أن أبدأ بالعهد الذى كنت أدخل فيه التاسعة والعشرين .

فى يوم الاثنين من عيد الفصح كان الهواء مشبعاً بالرطوبة ، وكانت السماء صافية زرقاء ، وكانت الشمس قوية دافئة ، ولكن نفسى ظلت غارقة فى الظلمات . كنت أطوف وراء التكنات ، أعد أوتاد السياج الضخم الذى كان سوراً للسجن . ولكن لم تكن بى أية رغبة فى عد الأوتاد ، رغم أن هذا كان لى شاغلاً معتاداً مألوفاً . كان السجناء « فى راحة » بمناسبة اليوم الثانى من العيد . وكان كثير منهم قد مكروا مكراً شديداً ، ففى كل لحظة من اللحظات 'تبادل شتائم ولكلمات فى جميع الأركان . وكان آخرون يدندنون أغنيات بذئبة ، أو يلعبون بالورق تحت الحواجز . وكان السجناء الذين صرهم رفاقهم بضربهم على رؤوسهم لفرط ما أحدثوا من جلبة ، راقدين على سررهم تغطيتهم فرواتهم بانتظار أن يفيقوا من غيبوبتهم . وقد لمت نصال السكاكين مراراً حتى الآن . وكان ذلك كله ، خلال هذا اليومين من العيد ، يعتدبنى تعذيباً شديداً الى حد المرض . ثم اننى لم أحتمل فى حياتى أن أرى منظر افراط الشعب فى الشراب والطعام دون أن أشعر من ذلك باشمئزاز ، ولا سيما فى هذا المكان . وكانت المراقبة قد قلت أثناء تلك الأيام . كان المراقبون يمتنعون عن التيشيش بحثاً عن خمرة يكون السجناء قد أخفوها ، لادراكهم أن من الخير أن يرخوا الحبل على غاربه مرة فى السنة حتى لهؤلاء الأشرار ، والا ازداد الأمر سوءاً . وشعرت بالكره والبغض يشتعلان فى قلبى آخر الأمر . لقد صادفت سجيناً سياسياً بولندياً اسمه كى ، فرشقنى بنظرة شزاء ،

ملتصع العينين مرتجف الشفتين ، وقال لى بصوت خافت صارفاً بأسنانه :
« اننى أكره هؤلاء اللصوص » ، ثم مضى . رجعت الى الثكنة التى
بارحتها منذ ربع ساعة فى أكثر تقدير ، كالمجنون ، حين رأيت ستة فلاحين
ضخاما يهجمون دفعة واحدة على تترى سكران اسمه جازين ، ليردوه
الى الصواب ، وينهالون عليه بضرب وحشى لو أصاب جملاً لقتله . ولكنهم
كانوا يعلمون أنه يصعب أن يموت هذا الهرقل ، فكانوا يضربونه ضرباً
لا رحمة فيه . فلما عدت الآن الى الثكنة رأيت جازين مسجى على الحاجز
فى ركن بأخر الغرفة وكأنه جثة هامدة لا حياة فيها ، وقد عُطى بفروة ،
ورأيت جميع السجناء يمرون بقربه صامتين . انهم يأملون أن يستيقظ
فى الغد ، ولكنهم يقولون : « من الجائز مع ذلك أن يفطس » . عدت
الى مكاني ، ورقدت على ظهري ، واضعاً يديّ وراء رأسي ، مغمضاً
عينيّ . لقد كنت أحب أن أستلقي هذا الاستلقاء . فلا أحد يضايق من
ينام ، فأستطيع بذلك أن أسترسل فى أحلام اليقظة على ما أحب وأهوى .
ولكننى لم أسترسل هذه المرة فى الأحلام ؛ لقد كان قلبي يخفق خفقاناً
قوياً ، وكنت أشعر بغم شديد ، وكانت لا تفارق سمعى كلمات
...مكى : « اننى أكره هؤلاء اللصوص ! » . ولكن علام وصف
تلك المشاعر التى انتابتنى فى تلك اللحظة . انها ما زالت توافينى فى
الحلم ليلاً ، فلا أعرف أن هناك كوابيس أشدّ منها هولاً . لعلكم لاحظتم
أننى حتى هذا اليوم لم أكد أتكلم عن حياتى فى السجن . أما كتابى
« ذكريات من منزل الأموات » ، فقد نشرته منذ خمسة عشر عاماً على
أنه ذكريات شخص خيالى هو رجل قتل زوجته . وأضيف الى ذلك
أن كثيراً من الناس يعتقدون ويؤكدون حتى الآن أننى 'نفيت الى سيريا
لأننى قتلت زوجتى .

هبطت شيئاً فشيئاً الى نوع من الحذر ، وانقدت لسلسلة ذكرياتى .
اننى خلال السنين الأربع التى قضيتها فى السجن ، كنت أتذكر الأيام

الماضية بغير انقطاع ، حتى لكأننى عشت حياتى بهذه الذكريات مرتين •
قلما استحضرت هذه الذكريات عامداً • وانما كان يبدأ التذكر فى
أكثر الأحيان بأمر تافه من الأمور ، وربما بدأ بأمر لم أكن قد انتبهت
اليه ولا تلبثت عليه ، ثم اذا هو يتسع شيئاً فشيئاً فيصبح صورة واضحة ،
أو يندو احساساً قوياً كاملاً • فكنت أحلل تلك الاحساسات ، ثم أضيف
لمسات جديدة الى تلك المادة التى عشتها منذ زمن طويل ، بل كنت
كذلك أصحح فيها ، وأبدل منها بغير انقطاع • وكانت تلك هى لذتى
ومتعتى فى الأمر كله •

ففى تلك المرة تذكرت ، على حين فجأة ، ساعة من طفولتى
الصغيرة لا يقف عليها الادراك ، أيام كنت فى السنة التاسعة من عمري •
كنت أظن أننى قد نسيت تلك الساعة نسياناً تاماً • ولكن كان يسرنى
ويبهجنى ويمتحنى فى ذلك الحين أن أستعيد ذكريات طفولتى الأولى •
تذكرت شهر آب (أغسطس) الذى قضيته فى الريف • كان الجو فى
ذلك الشهر جافاً مضيئاً ، ولكنه كان بارداً بسبب الريح • كان الصيف
يشارف على نهايته • وسوف ينبغى أن أعود الى موسكو قريباً ، فأقضى
شتاءً كاملاً مضجراً فى تعلم اللغة الفرنسية • لذلك أحسست بانقباض
فى صدرى حين تصورت أننى سأغادر الريف • اجتزت اليبس الذى
تتكسد عنده مساحق القمح • ثم اجتزت وادياً وصعدت صوب حرجة
كثيفة اسمها لوسك تمتد وراء الوادى وتبلغ الغابة • وفيما كنت أوغل
فى الحرجة ، سمعت غير بعيد منى ، على مسافة ثلاثين خطوة من حافة
الحرجة ، فلاحاً يحترق وحيداً • وكنت أعلم أنه يحترق أرضاً وعرة
يلقى الحصان عثاء شديداً فى جرّ المحراث عليها ، لأننى كنت أسمع
الفلاح من حين الى حين يصرخ مهيباً بالحصان أن يبذل مزيداً من الجهد :
هوه ! هوه ! وكنت أعرف جميع فلاحينا تقريباً ، ولكننى لم أثبتن من
هذا الذى يحترق الآن • وكان لا يهمنى أن أعرف ذلك على كل حال ،
لأن العمل الذى كنت عاكفاً عليه كان يشغلنى عن سائر ما عداه • لقد

كنت مشغولاً أنا أيضاً : كنت أقطع لنفسى قضباناً من شجر البندق لأجلد بها الضفادع • ان قضبان شجر البندق جميلة جداً ، وهى أصلب وأمتن من قضبان شجر السندر • وكانت الخنافس والجعلان تشد انتباهى أيضاً ، لأننى كنت مولعاً بجمعها لكثرة أنواعها وألوانها • وكنت الى ذلك أحب الجراذين الصغيرة النشطة التى تضرب سمرتها الى حمرة وتزينها بفع صغيرة سود • ولكننى كنت أخاف الثعابين • وكان ما ألقاه من ثعابين أقل كثيراً مما ألقاه من جراذين على كل حال • ولا تقع عين المرء على كثير من الفطر هناك • فمن أجل أن تجنى فطراً يجب عليك أن تمضى الى جهة أشجار السندر • ولقد كنت أتهمياً للذهاب الى تلك الجهة • ما أحببت فى حياتى شيئاً كما أحببت الغابة بأنواع فطورها ونمارها البرية وحشراتنا وطيورها ، وقنافذها وسناجبها ، والرائحة الرطبة التى تفوح من أوراق أشجارها الساقطة المتعفنة • اننى وأنا أكتب هذه الأسطر الآن أشم كل شذى غابتنا هناك فى القرية • ان هذه الاحساسات ستبقى حية ما حيت •

فى وسط ذلك الصمت الشامل سمعت على حين فجأة هذا النداء واضحاً كل الوضوح : « الذئب ! » • فإذا أنا أصرخ وقد 'جنت رعباً ، وأهرول متجهاً الى حافة الغابة ، وأمضى 'قُدماً الى الفلاح الذى كان يحرق •

انه فلاحنا ماراى • لا أدري هل يسمى أحد بهذا الاسم • ولكن جميع الناس كانوا يدعونه ماراى • هو فلاح فى نحو الخمسين من عمره ، قوى البنية فارح الطول له لحية حمراء كثيفة وخطها الشيب • كنت أعرفه ، وان لم أكن قد كلمته تقريباً حتى ذلك اليوم • كان حين سمع صراخى قد أوقف حصانه • فلما وصلت اليه فتشبت باحدى يدي بالمحراث ، وأمسكت يدي الأخرى كمه ، أدرك مدى ما أنا فيه من

ذعر • وصحت أقول له لاهثاً :

- ذئب !

فرقع رأسه ونظر فيما حوله على غير ارادة منه ، وخيّل اليه خلال لحظة أنتى أوشك أن أكون ...

قال يسألنى :

- أين الذئب ؟

فتمتعت أجيبه :

- صاح أحد ... صاح أحد قائلاً : « الذئب ! » •

فدمدم يقول ليطمئننى :

- هياً هياً ! لا ذئب هنا • لقد خيل لك • ما مجيء الذئب الى هذا المكان ؟

ولكننى ظلمت أرتعد ارتعاداً شديداً ، وتمسكت بقميصه مزيداً من التمسك • وأظن أن شحوبى كان شديداً جداً • نظر الى ماراى وهو يتبسم ابتسامة قلقة • كان خائفاً على • وكان واضحاً أنه قلق أشد القلق من الحالة التى كنت فيها •

قال وهو يهز رأسه :

- ما أشد ما انتابك من خوف ! هياً • كفى يا صغيرى ! لا ، لا ، انك جسور حقاً •

ومدّ يده يلاطف خدى فجأة • وكرر قوله :

- هياً ! كفى ! كان يسوع المسيح معك • ارسم اشارة الصليب • لكننى لم أرسم اشارة الصليب • كانت شفتاى متقلصتين فى طرفيهما • وأظن أن هذا هو ما شده أكثر من أى شىء سواه • فقرب اصبعه الضخمة ذات الظفر الأسود ، المشحقة بالتراب ، ومسّ شفتى

المتشجنين مساً رقيقاً هادئاً • وقال لى وهو يتسهم ابتسامة طويلة تشبه
أن تكون ابتسامة أم لابنها :

— ما بالك ؟ ما هذا ؟ ماذا جرى لك ؟ هأت ذا ترى أن لبس ههنا
ذئب ! آه ... آه ...

أدركت أخيراً أن ليس ثمة ذئب ، وأن الصرخة التى سمعتها تنادى
« الذئب ! » ، انما كانت وهماً • وكانت الصرخة قد دوت مع ذلك واضحة
أشد الوضوح • غير أن هذه الصرخات (التى لا تتصل بالذئاب وحدها)
قد سبق أن سمعت مثلها مرة أو مرتين ، فكنت أعلم أنها نوع من أوهام
الحواس (وقد زالت عنى هذه الظاهرة بعد ذلك حين كبرت) •
قلت وأنا ألقى عليه نظرة استفهام خجلى :

— أنا ذاهب •

فأجابنى وهو لا يزال يتسهم تلك الابتسامة التى تشبه أن تكون
ابتسامة أم لابنها :

— هياً ، اذهب ، سأتابعك بنظري • لن أدع للذئب أن يهاجمك •
كان يسوع المسيح معك • اذهب •
ورسم على إشارة الصليب ، ثم رسمها على نفسه •

وانصرفت فكنت ألقى نظرة الى الخلف كلما سرت عشر خطوات •
وفىما كنت أبعد بقى ماراى واقفاً هو وحصانه ، متجهاً ببصره الى ناحيتى ،
يهزّ لى رأسه كلما التفت نحوه • يجب أن أعترف أننى كنت أشعر
بخجل من اظهارى ذلك الرعب كله ، ولكن هذا لا ينفى اننى ظللت
خائفاً خوفاً شديداً من الذئب الى أن صعدت الجانب الآخر من الوادى ،
وصرت قريباً من أول بيدر • وهناك زال خوفى ولم يبق منه أى أثر ؛
ورأيت كلبى لويو يندفع الى فجأة • فأحسست من حضور لويو بطمأنينة
كاملة وثقة تامة • والتفت نحو ماراى مرة أخيرة ، فلم أستطع عندئذ أن

أميز وجهه ، ولكننى أحسست أنه لا يزال الى تلك النظرة الرقيقة
نفسها ، وأنه يهزُّ لى رأسه مشجعاً • ولوحت له يدي ، فرأيت يده
ترتفع فى الهواء ملوَّحة لى ، ورأيتَه يستأنف عمله فى حرث الأرض •
وسمعتَه من بعيد يصيح مستحثاً حصانه :

— هوه ! هوه !

ورأيت الحصان يجرُّ العربى على الأرض الوعرة فى غير قليل من
العناء •

ذلك كله عاد الى ذاكرتى ، لا أدري لماذا ، ولكنه عاد بأدق التفاصيل
وأوضح الصور • ورأيتنى أفتح عينيَّ فجأةً وأجلس على الحاجز • فألاحظ
ان الابتسامة الهادئة الوداعة التى أبتتها هذه الذكريات على شفتى لا تزال
مرتسمة عليهما • ولبت دقيقة كاملة أستعرض صور تلك الذكريات •

بعد أن تركت ماراى ورجعت الى الدار لم أحدث أحداً بشيء عن
« المفامرة » التى وقعت لى • وهل كانت تلك مفامرة حقاً ؟ ثم لم ألبث
أن نسيت ماراى • وحين لقيته بعد ذلك فى مناسبات نادرة ، كنت لا أذكره
بحكاية الذئب ، بل كنت لا أخاطبه بشيء البتة ، ثم هأنذا بعد انقضاء
عشرين سنة على ذلك اللقاء ، أتمذكره وأنا فى سيرا بأدق التفاصيل
واوضح الصور • فلا بد أن ذلك اللقاء قد نُقش فى نفسى من تلقاء نفسه
دون أن أدرك أنا ذلك ، ودون أن أريده ، ثم اذا هو تستيقظ ذكره فى
خيالى حين احتجت اليها • تذكرت الابتسامة الرقيقة الحنون يغمرنى بحنانها
الفلاح المسكين الذى كان قنّاً من أقناننا • وتذكرت اشارات الصليب التى
رسمها فى ورع وتقوى ، وتذكرت كيف كان يهزُّ لى رأسه مشجعاً ،
وتذكرت ما قاله لى : « ما أشد الخوف الذى انتابك يا صغيرى ! » • وتذكرت
خاصةً تلك الاصبع الضخمة المتسخة بالتراب التى لامس بها طرف فمى
ملامسة رقيقة تكاد تشتمل على خجل • صحيح أن أى انسان ما كان ليفوته

أن يطمئن طفلاً • ولكن ذلك اللقاء في الحلاء قد اكتسب في نظري معنى خاصاً • لا أظن أنه كان سينظر الى نظرة تعبر عن حب يبلغ هذا المبلغ كله من النقاء ، لو أنني كنت ابنه وفلذة كبده ؟ ما الذي أجبره على هذا الحب كله ؟ لقد كان قنأ لنا ، وكنت أنا ابن مولاه • لا أحد كان سيعلم بأنه لاطفنى ولامس خدى ، ولا أحد كان سيكافئه على ذلك أبداً • فهل كان اذن يحب الأطفال الصغار هذا الحب كله ؟ ان لبعض الناس طبيعة كهذه • لقد حدث اللقاء في مكان منزل ، في البرية ؛ والله وحده رأى من علياء سمائه ما يزخر به قلب فلاح روسي بسيط جاهل متوحش لا يزال مستعبداً للأرض ولا يزال لا يلمح في الأفق فجر تحرره ، ما يزخر به قلبه من عاطفة انسانية عميقة متألفة ومن حنان يشبه أن يكون حنان امرأة •

قولوا لي : أليس هذا ما كان يعنيه كونستانتان آكساكوف حين تحدث عن التربية الرفيعة في شعبنا ؟

وأحسست فجأة ، وأنا أغادر سريري الحفير وألقى نظرة على ما حولى ، أن في وسمى بعد الآن أن أرى هؤلاء الأشياء رؤية جديدة كل الجدة ، ثم اذا بكل كره وكل غضب يزايلان نفسي ويمسحان منها بغتة بما يشبه السحر • ورحلت أنفوس في نظرات رفاق السجن • فأسأل نفسي : هذا الفلاح المخلوق شعر رأسه ، الساقط خلقه ، المتلى وجهه بالندبات ، الذي كان في سكره يعول بأغانٍ بذئثة ، ألا يمكن أن يكون ماراي ثانياً ؟ أين لي أن أعرف في الواقع ما بنفسه ؟ أعود فأقول اننى في ذلك المساء صادفت البولندى • • • • • كى ! مسكين هذا الرجل ! انه لم يتذكر فلاحاً اسمه ماراي ، فكان كل ما يستطيع أن يقوله عن هؤلاء الناس : « اننى أكره هؤلاء اللصوص ! » • نعم ، لابد أن البولنديين يقاسون أكثر مما نقاسى •

بجوز تجاوز عمرها مائة سنة

١٨٧٦

« في السنة الثالثة والرابعة من العمر » ، نشرت اول مرة
في عدد شهر آذار (مارس) ١٨٧٦ من « يوميات كاتب »
(الفصل الأول ، ٢) •

حدثتني سيدة فقالت :

« خرجت من منزلى فى نحو الظهر • كان علىّ أن أنجز أعمالاً كثيرة ، وكنت متأخرة تأخراً كبيراً • فاذا أنا ألقى على باب أحد المنازل امرأة عجوزاً ، طاعنةً فى السن كثيراً ، هرمةً هرمًا شديداً ، متوكئة على عصا • يستحيل على المرء أن يحزر ما سئنها • كانت جالسةً بقرب بوابة فناء المنزل ، على الدكة التى يجلس عليها البواب • كانت تستريح من عناء السير • وكنت أنا ذاهبة الى منزل آخر يبعد عن ذلك المكان بضعة خطوات • ودخلت المنزل الذى كنت ذاهبة اليه ، فلمّا خرجت منه رأيت العجوز جالسةً الآن على دكة بواب هذا المنزل الآخر • ونظرت الىّ ، قابست لها ، ودخلت متجراً كان علىّ أن أشتري منه حذاءين لابنتى صونيا • وبعد أربع دقائق أو خمس رأيت العجوز مرةً أخرى فى شارع نفسى ، جالسةً هذه المرة لا على دكة ، اذ لا دكة هناك ، بل على حجر بقرب الباب • فرأيتنى أقف أمامها رغم ارادتى ، قائلةً لنفسى : « لماذا تجلس هذا الجلوس أمام جميع المنازل ؟ » •

وسألتها :

— أأنت متعبة يا جدة ؟

— نعم يا ابنتى ، متعبة ، متعبة دائماً • قلت لنفسى : « الجوّ دافئ » ، والشمس ساطعة ، فسأمضى أتفدى عند أحفادى » •

- أنت ذاهبة للغداء اذن يا جدة ؟

- للغداء يا ابنتى ، للغداء •

- ولكنك لن تقطعى بهذا السير مسافة طويلة !

- بلى ! استريح ، ثم انهض ، فأمشى بضع خطوات ، ثم استريح مرة أخرى ، وهكذا دواليك •

نظرت اليها • بدا لى أمرها عجيباً • انها عجوز قصيرة ، نظيفة المظهر ، بالية الثياب • لعلها من البورجوازية الصغيرة • وجهها ذابل ، أصفر ، معروق ؟ شفتاها باهتان ، لا لون لهما • تشبه أن تكون مومياء • ولكن هذه المومياء تبسم ، والشمس تسطع لها كما تسطع لساثر الأحياء • قلت لها مبتسمة :

- لا بد أنك مسنة جداً يا جدة !

- مائة وأربع سنين يا ابنتى ، مائة وأربع سنين ، لا أكثر • وأنت ، الى أين تترك ذاهبة ؟

ألقت على هذا السؤال وهى تنظر الى ضاحكة ، ربما من فرحها بانها تحدث أحداً • ولكننى استغربت من عجوز تجاوزت المائة أن تسأل الى أين أنا ذاهبة ، حتى لكأن الأمر يهمها • قلت وأنا أضحك أيضاً :

- اشتريت لابنتى حذاءين يا جدة ، وأنا الآن عائدة بهما الى الدار •

- ما أصغرهما ! أرايت ما أصغرهما ؟ لا بد أن ابنتك صغيرة جداً • هل لك أولاد آخر ؟

وعادت تضحك وهى تسألنى بنظرها • ان عينها كابتان ، باهتان ، ولكن نوعاً من حرارة داخلية تنعشهما أحياناً •

قلت لها :

- هل تأخذين منى هذه الكويكات الخمسة يا جدة ؟ سوف تشتريين بها رغباً صغيراً •

- ماذا ؟ خمسة كويكات ؟ شكرآ • آخذها •

- خذنها بدون أن تستأني يا جدة •

أخذتها • كان واضحاً أنها ليست متسولة • هيئات أن تكون متسولة • لقد أخذت الكويكات الخمسة بكثير من اللباقة والكياسة ، لا كما تؤخذ صدقة ، بل كما تؤخذ هدية يقبلها من ' تهدي إليه لطفاً وطيبة • ولعلها كانت الى ذلك مسرورة مقتبطة : من ذا الذى يكلم العجوز المسكينة يوماً ؟ وهى الآن لا 'تكلم فحسب ، وانما 'يهتم بها ، و'يحب عليها ، ويشعر أحد نحوها بماطفة مودة •

قلت لها :

- استودعك الله يا جدة • أتمنى لك أن تصلى بصحة جيدة وعافية تامة •

- سأصل يا ابنتى ، سأصل ... سأصل • واذهبى أنت الى حفيدتك •

كذلك قالت لى العجوز ناسيةً أننى لما أصبح بعد جدة ، متخيلةً فى أغلب الظن أن جميع النساء جِّدات •

وانصرفت عنها • فلما التفت لأراها مرة أخرى ، كانت تنهض عن مكانها ببطء ومشقة ، ثم تسير بضع خطوات جائرةً نفسها جرأ ، ضاربة بمصاها الصغيرة الأرض • لعلها مستحتاج الى أن تستريح عشر مرات أخرى قبل أن تصل الى مسكن ذويها الذين ستفدى عندهم • الى أين عساها ذاهبة ؟ يا لها من عجوز صغيرة غريبة ! •

ذلكم ما روته لى السيدة •

روت لى السيدة هذه القصة فى ذات صباح • والحق أنها ليست قصة بل هى انطباع لا أكثر • وفى ساعة متأخرة من الليل ، بعد أن قرأت مقالة فى احدى المجلات ، وكنت قد نسيت ما روته لى السيدة ، تذكرت تلك المعجوز الهرمة ، فاذا أنا أكمل القصة فى خيالى ، فأرى المرأة التى تبلغ من العمر مائة وأربع سنين ، تصل الى ذويها للنداء ، واذا بما أتخيله يرسم أمامى لوحة صغيرة تبدو لى مستمدة من الواقع فعلاً •

ان أحفاد المعجوز ، وربما أولاد أحفادها - لكنها تسميهم جميعاً أحفادها - هم 'صناع يعيشون أسرة' واحدة فى قبو تحت الأرض ، أو يديرون دكان حلاقة • هم أناس فقراء ولكنهم توصلوا الى أن يعيشوا حياة لائقة • وصلت المعجوز اليهم فى نحو الساعة الثانية • وكانوا لا يتوقعون مجيئها ، لكنهم استقبلوها مسرورين بقدمها •

- آآآ هأت ذى أيضاً ، ماريا مكسيموفنا ! ادخلى ، ادخلى ، أهلاً وسهلاً بخادمة الرب !

دخلت المعجوز مبتسمة ، بعد أن رنّ جرس الباب مدة طويلة بصوت حاد طنان • ان حفيدتها امرأة الحلاق ، لا تزال فى شرح الشباب كزوجها الذى لم يتجاوز الخامسة والثلاثين ، وهو رجل رصين المظهر ، رغم خفة المهنة التى يعمل فيها • انه يرتدى رديجتاً يلتصع دسمه كالتماع

الدمع فى قرص من الحوى ، ربما بسبب ما يستعمله فى مهنته من دهن •
ما عسائ أقول ؟ اننى لم أرى فى حياتى حلاقاً نظيفاً • وكانت ياقة رديجوتة
كالملطوسة فى طحين •

وسرعان ماهرع الى جدة أهمهم ثلاثة أظفال صغار ، صبي وبتان •
ان العجائز اللواتى بلغن مثل هذا السن يتعاطفن والأطفال : فهن وهم
يتشابهون نفساً ، ويتشابهون فى كل شئ •

جلست العجوز • وكان عند رب البيت ضيف جاء لعمل من
الأعمال • انه فى نحو الأربعين من عمره • وهو بهم الآن ان ينصرف •
وكان عند الحلاق أيضاً ابن أخته : فتى فى السابعة عشرة يعمل فى مطبعة •
رسمت العجوز اشارة الصليب ، ونظرت الى الغريب • قالت :

— آه ... ما أشد ما أحس به من تعب ! وهذا ، من هذا ؟

فانبرى الغريب يقول مبتسماً :

— هذا أنا ، كيف يا ماريما مكسيموفنا ؟ أصبحت لا تعرفيننى ؟ منذ
سنتين كان علينا أن نذهب الى الغابة معاً لقطاف الفطر •

— آه ... أعرفك يا عفريت ! اننى أتذكر • ولكننى نسيت اسمك •
آه ... ما أشد ما أشعر به من اعياء !

قال الغريب مازحاً :

— ماذا يا ماريما مكسيموفنا ، أيتها الجدة المحترمة ؟ ... أرى
أنك أصبحت لا تكبرين •

فأجابته العجوز وهى تضحك :

— دعك من هذا الكلام ، دعك ! ...

كان سرورها بمزاحه واضحاً •

وأردف الرجل يقول :

- أنا يا ماريا مكسيموفنا رجل طيب •

- يحلو الحديث مع رجل طيب ! آه ... اننى لا أكاد أستطيع
التنفس ! أرى أنكم اشترىتم لسيريوجنكا معطفاً جديداً •

قالت ذلك وهى تومىء الى ابن الأخت •

فابتسم ابن الأخت كاشفاً عن كل أسنانه ، وأقبل على العجوز • انه
فتى قوى الجسم يفيض نشاطاً وهو يرتدى معطفاً رمادياً جديداً لا يزال
يزهو به ولا يرتديه بغير اكتراث : لابد من أسبوع آخر ، فاذا هو يعتاده
فيلبسه بعد ذلك دون أن يحفل به • أما الآن فهو لا يكف عن الاعجاب
بنفسه ، ولا يمل من النظر الى صورته فى المرآة ؛ وكل حركة من
حركاته تدل على أنه يقدر ذاته قدراً كبيراً •

قالت له زوجة الحلاق مدممة :

- تقدم • استدر !

وأردفت تقول مخاطبةً العجوز :

- انظرى ما صنعنا له يا مكسيموفنا ! لقد كلّفنا المعطف خمسة
روبلات دفناها كأنها كوبك واحد • قالوا لنا عند بروخوروتش : الرخيص
أغلى ، ذلك أن الرخيص ما تكاد تنقضى ثمانية أيام حتى يهترىء فنأسفوا
على ما دفعتم ثمناً له • أما هذا ، فلا يبلى ! انظرى الى قماشه ما أجوده !
استدر قليلاً • وما أحسن بطاته ! ما أمتها ! هلاً استدرت ! فانظرى
كيف يذهب المال يا مكسيموفنا • أصبحت جيونا خاوية • لا بأس !

- آه يا عزيزتى • صار كل شيء باهظ الثمن فى هذه الأيام •
جئت الأسعار جنوناً • الأفضل ألا تحدثينى عن هذا بشيء • فان الحديث
عنه يؤلمنى كثيراً •

كذلك عَقَّبَتْ مكسيموفنا على كلام زوجة الحلاق ، وكان فى كلامها عاطفة صادقة وتأثر واضح ، وكانت لا تزال تلهث لها نأاً شديداً حتى لكأنها تختنق •

قال رب الدار :

- دعونا من هذا ! كفى ! آن لنا أن نأكل • أرى انك متعبة جداً يا ماريّا مكسيموفنا !

- اه ••• نعم يا عزيزى الشهم ، متعبة ••• رأيت الجو دافئاً ، والشمس ساطعة •• فقلت لنفسى : « هلمى زوريهم ! علام تبقيين راقدة فى السرير ؟ » • آه ••• وفى الطريق صادفت سيدة شابة كانت تشتري لأولادها أحذية ، فقالت لى : « ما بك يا جدة ! أراك متعبة ! خذى هذه الكويكات الخمسة ، فتشتري بها رغيماً صغيراً ••• » • فأخذت الكويكات الخمسة فعلاً •••

قال رب الدار وقد اعتراه قلق واضح :

- ارتاحى قليلاً يا جدة • ما بالك تلهثين اليوم هذا اللهات الشديد ؟

- أخذتها حقاً ••• اشترىوا حلوى للأولاد ••• بالكويكات الخمسة •••

وتوقفت عن الكلام مرةً أخرى • وحاولت من جديد أن تتنفس • وصمت الجميع خلال خمس ثوان •

وقال رب الدار وهو يميل عليها :

- ماذا يا جدة ؟

ولكن الجدة لم تجب • وخيم الصمت خمس ثوان أخرى • شحج

لون المعجوز ، وانقلبت سحتها أكثر فأكثر ، ثبتت عينها ، وتجمدت
ابسامتها على شفيتها • انها تنظر ، ولكن المرء يحس أنها أصبحت
لا ترى •

انبرى الغريب يقول فجأة :

- يجب استدعاء الكاهن •

فدمدم رب الدار يقول :

- ولكن ... هل ألم يفت الأوان ؟

وهتفت امرأة الحلاق تنادى وقد اضطربت اضطراباً شديداً :

- يا جدة ! يا جدة !

ولكن الجدة ظلت جامدة وقد مال رأسها الى جانب • وكانت يدها
اليعنى الموضوعة على المائدة ممسكة بقطعة النقد ، الكوبكات الخمسة ،
وكانت اليد اليسرى لا تزال على كتف ميشا ، ابن حفيدتها ، وهو طفل
فى السادسة من عمره • كان الطفل واقفاً لا يتحرك ، ينظر الى جدة أمه
بمينين واسعتين مذهوشتين •

قال رب البيت وهو ينحنى لها ويرسم اشارة الصليب ، قال بصوت
رصين مهيب :

- فارقت •

وعقب الرجل الغريب مذهولاً وهو يطوف ببصره على الحضور :

- أمر عجيب • لاحظت فعلاً أنها كانت ما تنفك تميل ثم تميل •

ودمدمت ربة البيت مضطربة مرتاعة تقول :

- آه ... رباه ! ما العمل يا ماكاريتش ؟ هل يجب أن نحملها

الى هناك ؟

فسألها رب البيت :

— هناك ؟ أين ؟ لا بل سوف نديّر أمرنا هنا ! أليست جدتك ؟
يجب أن نبلغ عن وفاتها •

قال الرجل الغريب وهو يراوح في مكانه وتزداد عاطفته رقةً
وحناناً ، ويشد احمرار وجهه :

— مائة وأربع سنين !

وعقب رب البيت برصانة وهو يتناول كسكيتته ومعطفه :

— لقد أخذت تنسى الحياة في الآونة الأخيرة !

— منذ لحظة لا أكثر ، كانت لا تزال تضحك ! انظر ! انها لا تزال
قابضة على قطعة الخمسة كوكبات • قالت « اشترى الأولاد حلوى » ،
واحسرتاه على حياتنا !

وقاطعه رب الدار قائلاً :

— هيا بنا يا بطرس ستينانوفتش •

وخرج مع الرجل الغريب •

ليس 'يبكى على متوفاة كهذه • مائة وأربع سنين ! « ماتت امته
مطمئنةً بغير مرض » •

وأرسلت ربة الدار تدعو جاراتها ليساعدها • فسرعان ما هرعن
اليها وقد أحدث النبا في نفوسهن من المسرة أكثر مما أحدث فيها من
الألم • وطفقن يطلقن من صدورهن آهات وأوهات ! وكان طبيعياً أن
'يبدأ بغلي الماء في السماور قبل أن 'يفعل أى شئ آخر • واختبأ الأطفال
في ركن مدهوشين ، وجملوا ينظرون الى الميتة من بعيد • ان ميشا لن
ينسى — ما ظل حياً — أن العجوز ماتت وهى واضعة يدها على كتفه ؛ وحين

سيموت لن يكون أحد متذكراً أن الجدة المعجزة عاشت مائة وأربع سنين :
لماذا وكيف ؟ لا أحد يعرف • ولا قيمة لهذا على كل حال • ان ملايين
من الناس يموتون هكذا : يعيشون دون أن يفتن اليهم أحد ويموتون على
هذا النحو أيضاً • ثمة شيء واضح : هو أن الانسان ، حين يموت شخص
بلغ من العمر مائة سنة أو تزيد ، يشعر بنوع من الختان والهدوء والوقار
والعزاء • مائة سنة ان هذا الرقم لا يزال يحدث في نفس الانسان أثراً
غريباً عجيباً •

بارك الله حياة وممات الناس الطيبين السطاء !

العزبة
١٨٧٦

« العذبة » نشرت لأول مرة كتراسة كاملة من د يوميات
كاتب « د تشرين الثاني - نوفمبر ١٨٧٦ الفصل الأول
والثاني

حكاية خيالية

مقدمة المؤلف

أعذر الى قرائى عن أنى لا أقدم اليهم « اليوميات » فى صورتها المعتادة المألوفة هذه المرة ، وانما أقدم اليهم حكاية خيالية + صحيح أن هذه القصة قد شغلت شطراً كبيراً من الشهر ، ومع ذلك استميتهم عذراً وألتبس منهم العفو والتسامح +

وقد وصفت القصة بأنها خيالية رغم أنى أعدها واقعية قبل كل شئ . +
ولكن الخيال قائم فيها حقاً بحكم أنى أقدمها فى صورة قصة + فرأيت أن من المفيد أن أشير الى هذا منذ البداية +

الواقع أن ما أرويه الآن ليس حكاية ولا هو ذكريات + تخيلوا زوجاً ترقد على مائدته جثة امرأته التى انتحرت منذ بضع ساعات بالقاء نفسها من النافذة + انه يعانى انفعالاً عنيفاً شديداً ، ولما يستطع أن يشوب الى رشده وأن يسترد صوابه + فهو ينتقل من غرفة الى غرفة ، محاولاً أن يتصور ما حدث ، وأن يتخيل ما جرى ، وأن « يركّز أفكاره فى نقطة » + ثم ان هذا الرجل سوداوى المزاج فى أعماق نفسه ، لا ينفك يجتر أفكاراً ثابتة ، ولا يفتأ يناجى نفسه فى السر ، ويكلمها بغير انقطاع + انه اذن يتحدث الى نفسه ، فيقص عليها القصة ويحكى لها الحكاية ، ويحاول أن « يفسر الأمر لنفسه » جاهداً + ورغم ما يلوح فى قصته من

اتصال ظاهري وتسلسل طبيعي ، فانه يرتكب مخالفات منطقية ، ويقع في تناقضات عاطفية . انه يرى نفسه ويدونها في آن واحد ، كما أنه ينزلق الى تأويلات خاطئة ، والى ذلك يضاف شيء من غلظة في الفكر والقلب تمازجها مع هذا عاطفة عميقة . وقد استطاع شيئاً فشيئاً أن « يفسر الأمر لنفسه » ، وتوصل الى « تركيز أفكاره على نقطة » ، اذ ساقته سلسلة من الذكريات الى الحقيقة سوفاً لا سبيلاً الى مقاومته : فبث هذه الحقيقة حماسة وحمية في فكره وقلبه . فاذا لهجته نفسها تتغير في نهاية القصة اذا قيست بما اشتملت عليه البداية من فوضى وبلبل . لقد انكشفت الحقيقة واضحة جلية لهذا الشقي البائس ، انكشفت له هو على الأقل . . .

ذلكم هو الموضوع . والقصة تتابع عدة ساعات ، وتتخللها انقطاعات ووقفات ، وتمتورها صدمات : فالرجل تارة يتحدث الى نفسه ، وتارة بخطاب شخصاً لا يرى هو بمثابة قاض .

ولو استطاع مختزل أن يسمع ويسجل كل ما يقوله ، لجاءت القصة أشد وعورة وخشونة مما أرويه أنا . ولكن الحياة النفسية تبقى فيها تلى حالها فيما يغلب على ظني . ان هذا الافتراض الذي افترضته عن المختزل (على أساس أن المؤلف لا يتدخل الا بعد ذلك) هو ما جعلني أصف هذه القصة بأنها خيالية . على أن هذا الأسلوب لا يظهر في الفن هنا لأول مرة تماماً : لقد استعمله فكتور هوجو ، مثلاً ، في رائعته « اليوم الأخير من أيام رجل محكوم عليه بالموت » . ولئن لم يعتمد على مختزل ، فقد أجاز لنفسه أمراً أشد ايغلاً في البعد عن الواقع والنأي عن الاحتمال ، وذلك حين افترض أن رجلاً محكوماً عليه بالموت يمكن أن يسجل ما جرى لا في آخر يوم من أيامه فحسب ، بل في آخر ساعة ، بل في آخر دقيقة . فلو لم يسمح فكتور هوجو لنفسه بهذه البدعة الغريبة ، لما أتيج لهذا الأثر من آثاره أن يوجد ، وهو أقرب آثاره الى الواقع ، وأدناها من احتمال الحدوث .

الفصل الأول

من كنت ومن كانت

... هي ذى هنا الآن - فما زال الأمر حسناً . انتهى أجيء . فأنظر إليها في كل لحظة . ولكنها ستحمل غداً ، فأبقى وحيداً ، فما عسى أفعل ؟ هي الآن في الصالون ، مسجّاة على مائدة 'صنعت من ضمّ طاولتين احدهما الى الأخرى . ولكن تابوتها سيكون في الغد أبيض بياضاً تاماً ، وسيكون كفنها أبيض . على أن الأمر ليس هو هذا ... انتهى ما أنفك أذهب وأجيء . محاولاً أن أفسر المسألة لنفسى : ها قد انقضت ساعات ست وأنا أحاول أن أفسر المسألة لنفسى ، فلا أقبح في تركيز شتات أفكارى . الحق أنتى لا أزيد على أن أذهب وأجيء ، أن أذهب وأجيء اليكم كيف جرى الأمر ... سأسرد لكم الحوادث متسلسلةً منظّمة (لا بد من النظام !) آه ... رباة ... ما أنا بكاتب ... انكم تلاحظون ذلك ... ولكن لاخير . سأقص الأمر على نحو ما أفهمه . ذلك أن أقطع ما فى القضية فى نظرى هو أنتى فهمت كل شىء .

إذا كنتم تحرصون على أن تعرفوا ، أى إذا كنتم تحرصون على أن أبدأ بالبداية ، فاعلموا أنها انما جاءت الى لتقرض منى بعض المال برهن بعض الأشياء . كانت تريد أن تدفع أجر اعلان فى جريدة « الصوت » تذكر فيه أنها معلمة وأنها مستعدة للسفر معلمة ، أو للمجيء الى البيوت تعطى دروساً ، الخ ، الخ . ذلك فى بداية الأمر . فلم أميزها عن كثيرات

مثلها • كانت تأتي كما يأتي سائر الناس ، بل كانت تأتي ببساطة أكبر من بساطة سائر الناس • وقد لفتت انتباهي فيما بعد • كانت نحيفة القامة ، شقراء ، ربعة الطول • وكانت شديدة البطء والتهيب في مخاطبتي ، كما تكون امرأة خائفة • (أظن أن حالها هذه كانت حالها مع جميع الرجال الغرباء عنها ، وطبعي أنني لم أكن في نظرها إلا رجلاً كسائر الرجال ، أي لم أكن في نظرها مرابطاً يُقرض برهون ، بل رجلاً كأي رجل آخر) • كانت ما إن تأخذ المال حتى تدير ظهرها وتتصرف ، دون أن تقول شيئاً في أية مرة ان بين المقترضات من يناقشن ويلصحن ويساو من للحصول على مبلغ أكبر • أما هذه فلا • لقد كانت تقبل ما يُعطاه • يخيل لي أنني أهدر هدراً مضطرباً لا يفهم • الخلاصة ••• هناك تفاصيل لفتت انتباهي إليها في أول الأمر : القرطان الصغيران اللذان يزينان أذنيها وهما من فضة مطلية بذهب ، حليتها الصغيرة التافهة التي لا تساوي قرشاً ، وما إلى ذلك • كانت هي نفسها تعرف أن جواهرها هذه لا تساوي قروشاً • ولكنني كنت ألاحظ من النظر إلى وجهها أنها تعدّها أشياء ثمينة • ذلك أن هذه الجواهر هي كل ما بقي لها من أبيها وأمها ، كما عرفت هذا فيما بعد • مرة واحدة أبحثت لنفسى أن أتسم استهزاءً بهذه الأشياء • والحق أنني في العادة لا أبيع هذا لنفسى أبداً • أنني أعامل الزبائن معاملة رجل مهذب ، ولا أعبر عما أريد التعبير عنه إلا بكلمات قليلة ، أقولها بلهجة مؤدبة جافة ، « جافة ، جافة جافة » • غير أنها جاءتني ذات مرة بقايا (نعم بقايا) معطف قديم من فراء الأرنب - فلم أستطع أن أكظم ما قام في نفسي ، فقلت لها كلاماً فيه شيء من التندر • فما أسرع ما تخضب وجهها بحمرة شديدة ! وكانت عيناها زرقاوين نجلاوين حاليتين ، فما أسرع ما اتقدتا فكأن شرراً يخرج منهما ! ولم تقل كلمة واحدة بل لمت « خرقها » وخرجت • وعندئذ انما لاحظتها لأول مرة « ملاحظة خاصة » ، وفكرت فيها • نعم ، فكرت فيها تفكيراً

خاصاً أيضاً • أجل ، هذا ما حدث • اننى لا أزال أتذكر الاحساس الذى قام فى نفسى ، أو قولوا الاحساس الرئيسى الذى هو مركّب جميع الاحساسات الأخرى : انها فى ميعة الصبا فلا يقدّر المرء أن تكون سنّها أكثر من أربعة عشر عاماً • ومع ذلك كانت سنّها ستة عشر عاماً الا ثلاثة أشهر • على أن هذا ليس ما كنت أريد أن أقوله ، ليس هذا مركّب الاحساسات الذى قام فى نفسى • ولقد عادت فى الغد • وعلمت بعد ذلك أنها ذهبت الى دوبرونرانونف ، والى موزير ، حاملةً معطفها الخلق البالى ، ولكن هذين الرايين لا يقبلان الا الذهب وهنا ، فلم يحتملا نفسيهما حتى عناء اجابتهما • وكنت قبلت منها قبل ذلك حجراً قد 'يعدّ' من الأحجار الثمينة (وهو حجر لا قيمة له فى الواقع) ، فلما فكرت فيما فعلت دُهِشت من نفسى وتساءلت : كيف قبلت منها ذلك الحجر وهنا ، أنا الذى لا يقبل الا الذهب والفضة أيضاً ؟ تلکم ، فيما أذكر ، هى الفكرة الثانية التى قامت فى ذهنى تجاهها •

وفى هذه المرة ، أى يوم عودتهما من عند موزير ، جاءت تحمل الى " مشرب سيجارة " من خشب العنبر ، وهو شىء قد يحبه هواة ، ولكن ما عسانا نصنع به نحن الذين لا نقبل الا ذهباً ! ولما كان مجيئها الى تلك المرة غداة « العصيان » ، فقد استقبلتها استقبالاً شرساً • والشراسة عندى هى أن أكون خشناً • ومع ذلك لم يسعنى حين نقدتها روبلين الا أن أقول هذه العبارة بشىء من الحلق والغيط : « انما فعلت هذا اكراماً لك ••• ولو عرضت المشرب على موزير لرفضه » • وقد خاطبتها فى هذه الجملة بصيغة الجمع مبرزاً ذلك ابرازاً خاصاً ، قاصداً منه الى غرض معين « أتوبه » • كنت شريراً • فما أسرع ما تتخضب وجهها بحمرة شديدة ! أدركت أننى آلتها • فقلت لنفسى حين خرجت : « هل كان يجوز أن أدلّها من أجل روبلين ؟ » • ولم ألبث أن أجبت عن سؤالى بأننى أحسنت صنعاً ، فأخذت أضحك ، وأفرحنى الأمر كثيراً فى ذلك الحين • ولكن

ذلك لم يصدر عن عاطفة سيئة منى : فقد كنت أخفى فى رأسى نية • ذلكم
كان موقفى الثالث منها •

• • • ومنذ تلك اللحظة انما بدأ الأمر • • طبعى أننى سرعان ما جهدت
أن أعرف تفاصيل حياتها الخاصة • وأخذت انتظر مجيئها نافذ الصبر •
فلما جاءت كلمتها بأدب لم تألفه منى • اننى لا تعوزنى الثقافة ، ولا أجهل
آداب السلوك الراقى • لاحظت عندئذ أنها طيبة ، متواضعة ، عذبة •
ومن كان طيباً عذباً لم يملك قدرة كبيرة على المقاومة ، وإذا كان لا يستسلم
بسهولة ، فإنه لا يعرف كيف يتهرب من المحادثة أو يتملص منها • صحيح
أنه يجب بكلمات مفردة ، ولكنه يجب ، وكلما ازدادت عليه الحاحاً ،
ازداد لك اذعاناً • وعليك أنت انما يقع عبء منعه من الافلات اذا أنت
أحببت ذلك • على أنها لم تشرح لى شيئاً حينذاك • ومن قراءة جريدة
« الصوت » انما عرفت بعد ذلك كل شيء • ان الاعلانات الأخيرة تدل
على أن مواردها نضبت نضوباً تاماً • كانت الاعلانات الأولى أكثر طلاقة •
كانت تقول مثلاً : « معلمة ، مستعدة للسفر ، لتقديم عروض » : ثم صارت
تقول بعد برهة : « تعمل كل شيء ، تعلم ، تصحب الأولاد ، تراقب
أعمال المنزل ، تعنى بمريض ، تحسن الحياطة » ، الى آخر ما هنالك مما هو
معروف جداً • ولقد نشرت هذه الاعلانات مراراً الى أن ساءت حالها كثيراً ،
فكان الاعلان الأخير يقول : « لا تطلب راتباً ، تكفى بطعامها أجراً » •
ومع ذلك لم تعثر على عمل ! قررت أن أمتحنها مرةً أخيرة • فأخذت
عدد اليوم من جريدة « الصوت » ، وأريتها اعلاناً جاء فيه : « فتاة يتيمة ،
تبحث عن وظيفة معلمة أو مربية لأولاد صغار ، تفضل العمل عند أرملة
مسنة قليلاً • وتعنى بأعمال المنزل • • وقلت لها :

— انظرى • هذه نشرت الاعلان فى هذا الصباح وقد تجد عملاً
فى المساء • فى هذه الصورة انما يجب على المرء أن يقدم نفسه •
فتخضب وجهها بالخمرة من جديد ، واشتعلت عينها ، واستدارت ،

وخرجت فوراً • سر نى ذلك كثيراً • وكان رأيى فى تلك اللحظة قد استقر وترسخ على كل حال ، وكنت مطمئناً هادئ البال غير خائف : لا أحد سيقبل أن يرهن « مشرب السيجارة » ، حتى أن « مشرب السيجارة » نفسه لم يبق لها • ولم يخطئ • ظنى • فهامى ذى تأتى غداة غدٍ وقد لاح فى وجهها شقاء كبير ، واضطراب شديد • فقدّرت أن شيئاً ما قد حدث لها فى البيت • ولم يخطئ • تقديرى • سأحكى لكم بعد قليل ما حدث • أما الآن فإن همى منصرف الى تجميع ذكرياتى • لقد بلغت فى معاملتها غاية اللطف والكرامه ، فسرعان ما كبرت فى نظرها • تلکم هى الحطة التى رسمتها • وكان ذلك بسبب الأيقونة • (لقد عزمت أمرها أخيراً على أن تجىء بها لترهنها) • • آه • • اسمعوا ! اسمعوا ! الآن يبدأ الأمر • أما قبل ذلك فكنت أخلط بين الأشياء وأرتبك ارتباكاً شديداً • الآن أريد أن أتذكر كل شيء ، أريد أن أتذكر أيسر التفاصيل وأدقّ الجزئيات • اننى أحاول أن أجمع شتات أفكارى فى نقطة • ثم • • ثم لا أفلح فى ذلك ولا أظفر بطائل • هناك تلك الأمور الدقيقة اليسيرة ! آه • • • انها أمور دقيقة جداً ، يسيرة جداً • • •

كانت الأيقونة صورة للعدراء ، العذراء مع ابنها يسوع • هى أيقونة قديمة يغطيها غطاء من فضة مطلية بذهب • لاحظت أن هذه الأيقونة عزيزة على نفسها • وهى مع ذلك تجىء بالأيقونة لترهنها كاملة دون أن تنزع عنها المعدن الذى يغطيها • قلت لها : « الأفضل أن تنزع المعدن ، وأن تأخذى الأيقونة • ان الأيقونة شيء لطيف سريع العطب » ، قالت :

— هل يحظر عليك أن تفعل هذا ؟

— لا ، ليس الأمر أمر حظر • ولكن لعلك تدركين أنت نفسك أن • • •

- فانزع اذن ...

قلت بعد تفكير :

- لا • اعلمى اننى لن انزع المعدن • بل أضع الأيقونة كلها هناك ،
فى المشكاة ، مع سائر الأيقونات الموضوعة تحت السراج (كنت فى كل
صباح أشعل أحسن سراج عندى منذ أن أفتح المكتب) ، وخذى هذه
العشرة روبلات بلا حرج ولا كلفة •

- لست فى حاجة الى عشرة روبلات • أعطنى خمسة • وسوف
أسترد الأيقونة حتماً •

أضفت أقول بعد أن لاحظت أن عينيها أخذتا ترسلان شرراً
من جديد :

- لا تريدن العشرة روبلات ؟ ان الأيقونة تساوى هذا المبلغ •

فلزمت الصمت • ومددت اليها خمسة روبلات • وقلت :

- لا تحتقرى أحداً ... أنا أيضاً كنت فى عسر وضيق ، بل كنت
أسوأ حالاً • وإذا رأيته أزال الآن هذه المهنة ، فذلك لكثرة ما عانيت
فى حياتى من ألم وعذاب ...

فقاطعتنى تقول وهى تبسم ابتسامة ساخرة :

- فأنت تأثر لنفسك اذن من المجتمع ، أليس كذلك ؟

كانت ابتسامتها ساخرة ، ولكن هذه الابتسامة كانت تشتمل فى الحق
على غير قليل من حسن السريرة وسلامة الطوية ، وهى لا تزيد على أن
تشبهنى بسائر زملائى ، فلا يكاد يكون فى كلامها شيء يسوؤنى أو يجرح
شعورى أو يهين كرامتى • ولكننى قلت محدثاً نفسى : « ها ... هانت
ذى أنت ! لقد انكشف طبعك انكشافاً جديداً ! » •

- وقلت لها فجأة ، بلهجة نصفها مزاح ونصفها تعمية وسر :
- أنا جزء من ذلك الجزء من الكل ، الذى يريد أن يصنع شراً
فيصنع خيراً !
- فما ان سمعت هذا الكلام حتى نظرت الى مستطلعة مدهوشة ،
بكثير من روح الطفولة مع ذلك ، وقالت تسألنى :
- اسمع ... ما هذه الفكرة ؟ من أين أخذتها ؟ يجبل الى أننى
سمعتها قبل الآن فى مكان ما ...
- لا تجهدى نفسك فى التذكر + بهذه الكلمات انما زكى
مفستوفيليس نفسه لفاوست + هل قرأت قصة « فاوست » ؟
- لم أقرأها ... باتتباه كبير +
- أى أنك لم تقرئها البتة + يجب الاعتراف بهذا +
- ثم اننى مازلت ألح فى طرفى شفيتك تلك البسمة الساخرة +
فأرجوك ألا تحكمى علىّ بأننى من فساد الذوق بحيث أردت أن أفدّم
الك نفسى فى صورة مفستوفيليس + ان مرابطاً يقرض برهن ، يظل
مرابطاً يقرض برهن + ذلك أمر نعرفه +
- ما أغرب أمرك ... اننى ما أردت أن أقول لك هذا البتة ...
- كانت تريد أن تقول : ما كنت أتوقع أن أجده رجلاً مثقفاً ، ثم لم
تقله ، ولكن هذا لم يمننى من أن أحزر أنها أرادت أن تقوله + وسررت
منها أعظم السرور + وقلت :
- فى جميع الميادين يستطيع المرء أن يصنع خيراً + لا أقول هذا
لأمدح نفسى + فمن الواضح أننى لا أصنع شيئاً من خير ، وربما كنت
أصنع شراً ... ومع ذلك ...

قالت وهى ترمقنى بنظرة سريمة عميقة :

- لا شك أن المرء يستطيع أن يصنع خيراً فى أى ظرف ومن.
أى موقع •

ثم أسرع تردف قولها :

- هذا كلام حق : فى أى ظرف ومن أى موقع •

آه ... اننى أتذكر كل تلك اللحظات ، أتذكر كل تلك اللحظات !
ويهنئنى أن أضيف الى ذلك أن هذا الشباب ، هذا الشباب الغالى ،
إذا أراد أن يقول شيئاً فيه ذكاء وفيه اقتناع ، لا يعوزه أن يتخذ على الفور
هيئة صريحة جداً ، ساذجة جداً ، وأن تقول لك سمات وجهه :
« انظر الى قوة الذكاء وشدة العمق فيما أستطيع أن أقوله لك أنا ! » ،
وذلك لا من باب الغرور وحب الظهور كما يفعل اقراننا ، فان المرء يلاحظ
أن هذا الشباب متملق بما يقوله أشد التعلق ، وأنه يحبه أكبر الحب ،
وأنه يؤمن به أعظم الايمان ، وأنه يحترمه ويعتقد أنه مستعد لأن تحترمه
كما يحترمه • يالها من صراحة ! وبذلك انما يحقق النصر • ما كان
أجمل هذا كله فيها !

اننى أتذكر تذكرأ واضحاً • لم أنس أى شيء ! وحين خرجت
كنت قد عزمت أمرى واتخذت قرارى • ففى ذلك اليوم نفسه مضيت
أتقصي أخبارها ، فعرفت عنها كل ما لم أكن قد عرفته حتى ذلك الوقت ،
وعرفت خفايا قصتها الراحنة • كنت علمت خفايا حياتها الماضية قبل ذلك
من لوكيريا التى كانت خادماً عندهم وكنت قد رشوتها قبل بضعة أيام •
انها خفايا تبلغ من الهول أننى لا أفهم كيف أمكنها أن تظل تضحك كما
ضحكت أمس ، وأن تهتم بأقوال مفستوفيليس ، بينما هى تحيا فريسة
أهوال رهيبية • ولكنه سن الشباب أيضاً ! وقد فكّرت فيها عندئذ مزهواً
فرحاً ، لأننى رأيت فى ذلك علامة على عظمة نفسها وسمو روحها • حتى

على حافة الهاوية ، تتألق كلمة الشاعر جوته ! ان الشباب سمح كريم
دائماً ، حتى فى أخطائه • والحق أننى أقصدها هى ، أقصدها وحدها •
والعجيب فى الأمر أننى كنت أكلم نفسى عنها منذ ذلك الوقت وكأنها
صارَت « لى » ، وأننى أصبحت لا يراودنى شك فى قدرتى وسلطانى •
انكم تعرفون مدى المتعة التى ينوقها المرء حين لا يشك •
ولكن ما هذا الذى أفعله ؟ اذا سرت هذا السير ، فمتى أجمع شتات
أفكارى ؟ ألا فلأسرع ، فلأسرع • ليس هذا هو الأمر !

طلب الزوالج

الحفايا التي عرفتھا عنها سأوجزھا فی كلمات قليلة : لقد مات أبواھا منذ مدة طويلة - منذ ثلاث سنين - فبقيت وحيدةً عند عمّتين لها شريرتين، بل ان وصفھما بأنھما « شريرتان » ، لا يفھما حقھما من الذم . ان احدى ھاتين العمّتين أرملة مثقلة بأسرة فلھا ستة أولاد ؛ والثانية - وھي أقصر من الأولى قليلاً - عانس شرسة الطبع مشاكسة . ھما امرأتان سيّتان خيبتان كلتھما . ولقد كان أبو الفتاة موظفًا . كان كاتبًا فی دائرة من دوائر الدولة ، لا مورد الا راتبه . ان مستواي أنا أعلى من مستواه على كل حال : فأنا كاتبن متقاعد ، خدمت فی فوج مرموق من أفواج الجيش ، وأتمى الى أسرة نبيلة المحتد ، وأعيش حياة ليس فیھا عوز . أما أني أقرض بالربا ، فان العمّتين لن تعدما أن تنظرا الى هذا الأمر نظرة استحسان واعجاب . عاشت الفتاة خلال ثلاث سنين عبدةً لعمّتيھا ، ومع ذلك نجحت فی امتحاناتھا بفضل ما بذلت من جهد فی الدراسة رغم ضيق الوقت . نجحت فی امتحاناتھا ، رغم قيامھا بأعمال يومية قاسية فسوةً لا ترحم ، وهذا يدل على أنها تتصف بسمو عقلي وتفوق روحي لا سبيل الى الشك فیھما . ولماذا رغبت أنا فی أن أتزوج ؟ دعونا مما حدث لی أنا . سوف نرى ذلك فيما بعد . . . ولكن الأمر هو هذا . كانت الفتاة تعلم أولاد عمّتها القراءة ، وكانت ترّقع الملابس ، وصارت فی المدة الأخيرة لا تغسل الغسيل فحسب ، بل تغسل أرض الغرفة أيضاً ، رغم

ضعف صدرها • وشيئاً فشيئاً أخذت المعجوزان تضربانها وتقرعانها بسبب
أية لقمة تأكلها • ثم قررتا أن تبيعاها • آه • • • لن أدخل في تفاصيل هذا
الحما • وهى لم تقصص على كل شيء تفصيلاً الا فيما بعد • لقد كان رجل
سمين بقال ينظر اليها ويطلع فيها منذ سنة • وكان قد « قير » امرأتين
حتى ذلك الحين ، فهو يبحث الآن عن ثالثة • لذلك وضعها نصب عينيه ،
واتخذها هدفاً يريد الوصول اليه • كان يقول لنفسه : « انها مناسبة
مريحة ، فقد ولدت فقيرة ؟ واذا كنت أريد أن أتزوج ، فذلك من أجل
الأولاد ، • ذلك أنه كان له أولاد • وأخذ يستعجل الأمر • فباحث
العمتين • وكان فى نحو الخمسين من العمر • وكرهته الفتاة ونفرت منه
نفوراً رهيباً • فأخذت تنشر اعلانات فى جريدة « الصوت » • ثم انتهات
الى عميتها أن تمهلها مدة قصيرة يتاح لها فيها أن تفكر • فأمهلناها مدة
قصيرة ، مدة قصيرة لا يجوز أن تطول • كاتتا تقولان : « نحن نفسنا
لا نعرف ماذا نعمل من أجل أن نأكل ، فلسنا نطبق أن يشاركنا لقمتنا فم »
آخر • « جاء البقال الى دار المعجوزين حاملاً رطل حلوى ثمنه خمسون
كوبكاً • وكانت الفتاة معه • ناديت لوكيريا من المطبخ ، ورجوتها أن تذهب
الى الفتاة فتهمس فى أذنها اننى أنتظرها أمام الباب لأبلغها أمراً مستعجلاً
جداً • كنت راضياً عن نفسى كل الرضى مسروراً بها كل السرور • وكنت
مسروراً طوال النهار على كل حال •

وهناك ، عند الباب ، بحضور لوكيريا ، بينما كانت مدهوشة من
أننى استدعيتها ، ذكرت لها ما كنت أعدده سعادةً وشرفاً • • • ولابد أنها
لم تدهش عندئذ من الطريقة التى عمدت اليها ، ولا من قولى لها : « اننى
رجل مستقيم ، وقد فكّرت فى جميع ظروف القضية ، وقلّبت الأمر على
كل وجوهه • • والحق أننى لم أكذب حين وصفت لها نفسى بأننى رجل
مستقيم • ولكن لا قيمة لهذا • وانما يجب أن أذكر أن كلامى فى مخاطبتها
لم يكن مهذباً فحسب ، لم يكن كلام رجل مؤدب فحسب ، وانما كان

يشتمل على أصالة أيضاً . وهذا هو الأمر الأساسى . أهى جريمة أن أعترف ؟ اننى حريص على أن أحكم على نفسى ، وانى لأحكم عليها . فعلىّ اذن أن أقول ما لى وما علىّ . وهذا ما فعلته . ولقد أعدت تذكر ذلك فيما بعد ، فتلذذت كثيراً ، رغم أنه غباء . كانتفتها صراحة حينذاك ، دون أن تخرج ، بأننى أولاً لست صاحب مواهب ، واننى امرؤ أنانى سىء (أتذكر هذا اللفظ ، فلقد أعددتته وأنا فى طريقى الى بيتها ورضيت عنه) ، وان لى فى أغلب الظن جوانب سيئة كثيرة . قلت ذلك كله بنوع من الزهو . ولعلكم تصورون اللهجة التى قلته بها . لكننى بعد أن ذكرت سيئاتى بصدق ونبل ، لم أغفل طبعاً عن الانتقال الى تعداد حسناتى ، فقلت لها : « اننى أمتاز بكيت وكيت وكيت . . . » . رأيت أنها مرتاعة جداً . ولكننى لم أحاول أن أخفف أو أطفف شيئاً . بالعكس : فانى حين رأيت خوفها أخذت أقوى النغمة عامداً . قلت لها بغير تخرج اننى لن أبخل عليها بالطعام ، فستأكل عندى ما تشتهى ، أما الفسائين الجميلة وأما المسارح وأما حفلات الرقص ، فلا شىء منها البتة ، الآن على الأقل ، وانما قد أسمح بها فى المستقبل ، حين أكون قد بلغت هدفى . كانت هذه اللهجة القاسية تفتنى فتنة كبيرة . وأضفت أقول بغير الحاح كثير اننى اذا كنت قد اخترت هذه المهنة ، اذا كنت قد فتحت هذا المكتب ، فان ذلك يرجع الى ظرف معين . والحق أننى كان من حقى جداً أن أقول هذا الكلام : فالهدف الذى أشرت اليه قائم فى ذهنى ، والظرف الذى ذكرته قد وقع فصلاً . اسمعوا يا سادتى : ثقوا أننى كنت طوال حياتى أبغض صندوق الاقتراض بالرأى أكثر مما يبغضه سائر الناس . لكننى وان يكن مضحكاً وسخيفاً أن يستعمل المرء تعابير معيّنة أوكد لكم أننى « أنار لنفسى من المجتمع » . هذا صحيح . هذا هو الحق . وبذلك يكون تندرهما علىّ فى ذلك الصباح يعوزه الانصاف . حتى أنها كانت ستفجر ضاحكة كما ضحكت فى المرة الأولى لو عبرت عما يعمل فى نفسى بتلك الألفاظ ذاتها فقلت لها : « نعم اننى أتنقم لنفسى من المجتمع » . ولكن

بدا لى فجأة أننى أستطيع أن أكسب خيالها اذا أنا أشرت اشارة متخفية ،
وقلت جملة سرية معمّاة • ثم اننى كنت قد أصبحت فى تلك اللحظة
غير خائف من شيء : كنت أعلم أن البقال الضخم ينقّرُها أكثر مما أنقّرُها
أنا على كل حال ، وأن وجودى على بابها مادام الأمر كذلك أشبه بوجود
منفذ أو محرّر • كنت أدرك ذلك ادراكاً تاماً • آه ... ان الرجل يدرك
كل ما هو خسة ودناءة أكثر من ادراكه أى شيء آخر • ولكن هل كان
ذلك خسة ودناءة ؟ كيف يجروُ المرء أن يحكم على انسان ؟

ألم أكن أحبها حتى منذ ذلك الحين ؟

انتظروا يا سادة ، اننى لم أشر بطبيعة الحال أية اشارة الى اننى أحسن
اليها • اننى لم أكن عليها • أبداً • بالعكس ، بالعكس : قلت لها :
« أنا الذى سأكون مديناً لك بالشكر لا أنت • وأنت التى تلوقين عنقى
بجيبيلك لا أنا » • بل لقد قلت لها هذا كلمة كلمة • لم أستطع أن أسكت
عن قوله • ولعل ذلك كان منى حماقة ، لأن شيئاً من الاقتباس قد ألمّ
عندئذ بوجهها • ولكننى حققت ظفراً حاسماً وانتصاراً قاطعاً على
كل حال •

انتظروا • ما دمت قد حرّكت هذا الحما كلة ، فاسمحوا لى أن أذكر
لكم آخر حقارة صدرت عنى • فحينما كنت واقفاً هناك على العتبة ، كنت
أجتر هذا الكلام محدثاً نفسى : « انك فارغ الطول مونق القامة ، متقف ؛
ثم انك لست دميم الوجه على كل حال ، وليس فى هذا أى ادعاء أو تبجح
أو مباهاة » • ذلك ما كان يدور فى رأسى ويجول فى خاطرى • ولقد
وافقت على طلبى فى ذلك الوقت عند الباب فقالت : « نعم » • وافقت
طبعاً • ولكن ... يجب أن أضيف هذه الحقيقة : انها فكرت طويلاً
وملياً ، هناك عند الباب ، قبل أن تنطق بكلمة « نعم » تلك • حتى لقد
بلغت من طول التفكير أتى أخذت أنساط : « فماذا ؟ » لم أستطع أن
أسكت عن القاء هذا السؤال عليها بلهجة خاصة مصطنعة •

وقد بلغ وجهها من التعبير عن شدة الجدل أننى كان يمكن أن أقرأ فيه ما كان يدل عليه وينم عنه ! ولكننى شعرت مع ذلك بخيبة الأمل . قلت أحدث نفسى : « هل يمكن أن تتردد فى التخير بينى وبين صاحب الدكان ؟ » آه . . . عندئذ لم أفهم . لم أفهم شيئاً البتة . وأنا حتى الآن ما فهمت من الأمر شيئاً . أتذكر أن لوكيريا ركضت ورائى حين انصرفت ، واستوقفتنى فى الطريق وقالت لى : « جزاك الله خيراً يا سيدى على أنك أخذت آسنتنا الطيبة . ولكن لا تجرح شعورها فأنها ذات شسم وكبرياء » .

ذات شسم وكبرياء ؟ اننى أحب أولئك اللواتى يتصفن بالشسم والكبرياء . ان اللواتى يتصفن بالشسم والكبرياء يكنّ طيبات عامة حين . . . نعم حين لا يبقى لدى الرجل شك فيما صار له عليهن من نفوذ وسلطان . أهذا حق ؟ أوه ! يا للرجل ما أكبر دناؤه ، وما أشد خرافته ! هل كنت راضياً رضا كافياً ؟ هل كنت مغتبطاً اغتباطاً كافياً ؟ وحين أخذت تفكر أمام الباب طويلاً و ملياً لتقول لى « نعم » ، وكنت أنا مدهوشاً من ذلك ، ألا يجوز أن يكون تفكيرها وقتئذ هو ما يلى : « شقاء فوق شقاء ، أقلل يحسن أن أختار الرجل الأسوأ ، أى صاحب الدكان ، فسعى أن يسكر ذات يوم فيبلغ من فرط السكر أن يأخذ يكيل لى الضربات تلو الضربات الى أن أموت ؟ » . آه . . . ما رأيكم ؟ هل يجوز أن تكون هذه الفكرة هى التى دارت فى خلدنا حينذاك ؟

نعم ، واننى الى هذا اليوم لا أفهم ، لا أفهم من الأمر شيئاً . قلت منذ لحظة ان من الجائز أن تكون قد راودتها هذه الفكرة : أن تختار الأسوأ ، أى أن تختار البقال . . . ولكن أينما كان فى نظرها هو الأسوأ ، أنا أم البقال ؟ البقال أم الرايى الذى يستطيع أن يستشهد بالشاعر

جوته ؟ ذلكم سؤال آخر • أی سؤال ؟ هیه ، ماذا ؟ أما زلت لا تفهم ؟
انك لتتکلم عن السؤال بينما الجواب على مائدتك أمامك ! ولست أهتم بأمری
أنا على کل حال • ولكن ماذا حقاً ؟ هل اهتمامی منصرف الى نفسی أم هو
منصرف الى آخر ؟ ذلكم ما يستحيل علیّ أن أقطع فیه برأی جازم • ان
الأفضل أن أضطجع وأنام • اننی أحسن بصداع •

الزئيل والرجال وهو نفسى لا يصير من اللوسر شيئاً

لم أستطع أن أنام • وأين لى أن أنام ! كنت أشعر بمطرقة تسقط على جمجمتى ضرباً • أود لو أستطيع أن أعود هذا كله • أن آلف هذا الوحل كله • آه • • • الوحل ! يا للوحل الذى أخرجتها منه ! كان ينبغي لها أن تفهم ذلك • وأن تعرف كيف تقدر على حق قدره ! وكان يحلو لى أن استرسل فى بعض الأفكار • منها هذه الفكرة مثلاً : ان سنى واحد وثلاثون عاماً • ولا تتجاوز سنّها هى ستّ عشرة سنة • ما كان أعظم افتتاني بذلك ! ان هذا الاحساس بعدم التوازن والتكافؤ شىء لذيذ • لذيذ جداً •

وقد تمنيت مثلاً أن نحتفل بزفافنا • على الطريقة الانجليزية • • أى ألا يكون فى حفلة القران الا نحن والشاهدان اللذان لا بد منهما • واللذان يمكن أن نجعل لوكيرنا أحدهما • ثم نركب القطار فوراً • فنسافر ولو الى موسكو (وكان لى بموسكو عمل يجب أن أنجزه) • وتنزل أحد الفنادق فنمكث فيه أسبوعاً أو أسبوعين • ولكنها اعترضت على هذه الفكرة • ورفضتها • واضطرت أن أذهب الى العميتين أحبيهما وأعبر لهما عن احترامى بحجة أنهما الأسرة التى أخذت القناه من بين أحضانها • أذعنت لمشيئتهما • وأدّيت للعميتين واجب الاجلال والتبجيل • حتى لقد وهبت لهما تين المخلوقتين مائة روبل • وأضفت الى ذلك وعوداً بذلتها لهما •

وقد فعلت ذلك بدون أن أطلعها عليه طبعاً ، حتى لا يتأذى شعورها من هوان يیشها • وسرعان ما أبدت العمتان كثيراً من المودة والملاطفة • ونشب خلاف على جهاز العرس : لم يكن عندها ثياب ، ولكنها رفضت أن تشتري ثياباً • ثم أفلحت في أن أفهمها أنها لا يمكن أن تكتفى بالثياب البالية التي عندها ، وقلت لها اننى أنا الذى أتولى أمر جهازها ، وإلا فمن عسى يتولاه غيرى ! على أن الشيء المهم هو أمرى أنا ! لقد أسرعته أفضى إليها بأفكار شتى كانت قد دارت فى خاطرى ، على الأقل لتتظفر إليها بعين الاعتبار بمض النظر ، ولعلنى نجحت فى هذا وبلغت ما أردت • بل أكثر من ذلك أنها فى البداية ، رغم مقاومتها ، أصبحت تقبل على أقبال فيه حب ، وتستقبلنى حين عودتى فى المساء استقبلاً زاخراً بالحفاصة ، وتأخذ تهذر هذرهما البرى ، فنقص على حكاية طفولتها كاملة ، وسنى صباحا التى فضتها فى دار أبيها ، وما كانت تعرفه عن أبيها وأميها • لكننى كنت أعرف كيف أصب ماءً بارداً على هذه النشوة وهذا السكر • وتلك كانت فكرتى • كنت أرد على حماستها بصمت ، بصمت متسامح طبعاً •• فما أسرع ما لاحظت هذا التعارض ، وما أسرع ما نظرت الى نظرتها الى لغز مستقل • وعلى هذه الالغاز انما كنت أبني أنا حساباتى وأعقد آمالى ! بل لعلنى من أجل أن تحلّ هى هذا اللغز المستقل انما اندفعت الى فعل ما هو سخف واستحالة • عمدت فى أول الأمر الى القسوة • أدخلت القسوة الى بيتى نظاماً ثابتاً • وتمّ هذا من تلقاء نفسه بدون أى جهد • لم يكن ثمة سبيل غير هذا السبيل • ولقد تخيلت هذا النظام فى ظرف مستقل عن ارادتى ، فلا يدلى فيه • دعونا ! لماذا أقدم فى نفسى ؟ لقد كان ثمة نظام حقاً • ولكن اسمعونى : مادام الأمر أمر حكم على انسان ، فيجب ألا يتم الحكم عليه الا مبنياً على معرفة كاملة بالأمر ••• اصغوا الىّ •

من أين أبدأ ؟ ذلك أن البدء صعب جداً • متى أراد المرء أن يبرىء نفسه ، اصطدم بعقبات ولقى صعاباً • اليكم هذا المثال : ان الشباب يحترق

المال • فسرعان ما ألححت على المال ، وجعلت كل شيء رهناً به ، مبنياً عليه •
 وبلغت من شدة الإلحاح أنها غدت تصمت مزيداً من الصمت شيئاً بعد شيء •
 كانت تحملق وتصغى وتنظر وتسكت • وهذا مثال آخر : ان الشباب
 يحب المروءة والنخوة ، وكانت هي صاحبة مروءة ونخوة ، كانت متقدمة
 الحماسة شديدة الحمية ، ولكنها كانت ضئيلة الحظ من الصبر ، فما ان
 تعارضها حتى يستبد بها شعور الاحتقار • وكنت أنا أحب راحة الصدر
 وسعة الفكر ، وكنت أحب أن أعلمها هذه الراحة وهذه السعة ، أليس
 هذا حقاً ؟ سأختار لكم مثلاً مبتدلاً : ما عساني أقفل من أجل أن أشرح
 لطبع كطبعها مسألة الاقتراض بالربا على رهن ؟ لم أواجه المسألة رأساً
 بطبيعة الحال ، والا كنت كمن يستغفرها عن هذا العمل ، وانما أنا عمدت
 الى الزهو ، فتكلمت بما يشبه الصمت • اننى أستاذ بارع فى فن الكلام
 بغير كلام ، فن الكلام بالصمت • كنت طول حياتى أتكلم صامتاً ، وعشت
 فى داخل نفسى كل مأساة صمتى • آه ••• ما كان أشقائى ! انفض عني
 الجميع ، انفضوا عني وهجروني ، دون أن يعلم بذلك أحد فى يوم من
 الأيام • وما هي ذى الصيئة التى تبلغ من العمر ستة عشر عاماً تتخيل
 فجأة ، بعد أن سمعت عني كلاماً من أشخاص ليسوا شرفاء ، ها هي ذى
 تخيل أنها تعرف كل شيء ، انها على علم بكل شيء ، فى حين أن سرى
 ظل محبوباً فى قرارة نفسى ، نفس الرجل ! وظللت صامتاً ، صامتاً معها
 خاصة ، الى أن كان أمس • فاذا سألتهمونى لماذا صمت ، قلت لأننى متكبر
 صلف • لقد أردت منها أن تعرف كل شيء بنفسها ، دون أن أقوله أنا لها ،
 ولكن دون أن تعتمد أيضاً على نعمائم دنيئة ووشايات خسيصة ، أردت أن
 تحزر من أنا ، وما أنا ، وان تدرك ذلك حق ادراكه • حين استقبلتها فى
 بيتى أردت أن أحظى باعتبارها كاملاً • أردت أن تقف منى موقف
 الضارع المبتهل بسبب ما قليت من آلام ، وكنت أستحق منها هذا الموقف
 فعلاً • آه ••• لقد كنت شديد الكبرياء دائماً ، فاما أن أنال كل شيء واما

ألا أنال شيئاً • ولأنتى كرهت دائماً أنصاف الحلول فى أمور السعادة ،
ولأنتى أردت دائماً أن أبدو صلب العود قوى الارادة ، انما اضطرت فى
ذلك الأوان أن أعمد الى تلك الطريقة : • عليك أنت أن تحزرى وأن
تقدرى ا ، • ذلك أنتى - ويجب أن نسلّم بهذا - لو أخذت أشرح لها
الأمر وأقص عليها الحكاية ، وأخذت أتحايل وألتمس منها الاحترام ،
لكنت كمن يسألها صدقة •• ولكن •• ولكن •• ما لى ولهذا الكلام
كله ؟

هذا سخف ! سخف وألف سخف ! المهم أنتى شرحت لها فجأةً ،
بكلمتين ، من غير رحمة ، نعم من غير رحمة ، (يجب أن ألحّ على ذكر
هذا الخلو من الرحمة) ان المروءة عند الشباب شئ خلىق بالاعجاب ،
ولكنه لا يساوى قرشاً صغيراً • لماذا ؟ لأن اكتساب المروءة سهل أشد
السهولة ، لأن المروءة لا تنشأ عن أن المرء عاش ، لأن هذه الأمور هى
• أولى انطباعات الحياة ، ان صح التعبير • وانما ينبغى أن تنظر الى الانسان
وهو يضطرب فى جنبات الحياة ويعمل • ان هذه المروءة لا تكلف كثيراً •
وهى ان كلّفت المرء شيئاً فانما تكلفه أن يهب حياته ، وهو لا يحتاج من
أجل هذا الا الى شئ من فرط حرارة الدم وفيض القوة ، وهو ظامئ
الى الجمال أشد الظمأ دائماً ! لا ، ما هذه هى الشجاعة • حاول أن تختار
لنفسك مائرة صعبة ، مائرة لا تحدث جلبة كثيرة ، ولا يكون لها بريق
وتألّق ؛ مائرة ترافقها النسيمة والشمسة ، وتتطلب تضحية كبيرة ،
ولا تؤدى الى أى مجد ؛ مائرة تظهر فيها - أنت الرجل اللامع - بمظهر
الجلبان الحقير فى نظر جميع الناس ، مع أنك أشجع أهل الأرض طراً ،
حاول أن تحقق هذه المائرة فترى ألا تعدل عنها وتنكص على عقبيك ؟
أما أنا فانتى لم أزد طوال حياتى على أن أحمل ثقل أعمال كهذه الأعمال •
كانت فى أول الأمر تناقش ، بل تناقش كثيراً ! ثم قررت أن
تصمت ، وأن تصمت صمتاً تاماً • أصبحت تكفى بأن تحملق حين تسمع

كلامى ، تحملى حمله شديده وهى تنصت الى أقوالى انصافاً فيه اتباه
رهيب ! ... و ... مع ذلك ، لمحت فى وجهها ، على حين فجأة ،
ابتسامه تم عن أنها لا تصدق ، ابتسامه صامته ، ساخرة . وكانت تبسم
هذه الابتسامه حين أدخلتها بيتى .
صحيح أنها لم يكن لها أى مكان تذهب اليه ...

خطا وخطا اخرى

أينا نحن الاثنين بدأ حينذاك ؟

لا أحد • لا أنا ولا هى • لقد بدأ الأمر منذ الخطوة الأولى • قلت قبل الآن اننى أدخلتها بيتى على نية القسوة • ومع ذلك لم ألبث أن رفقت • كنت قد شرحت لها حين كما خطيبين لا أكثر ، أنها سيكون عليها أن تتولى تلقى الأشياء المرهونة وأن تؤدى مبالغ الاقراض ، ولم تعترض فى ذلك الحين (لاحظوا هذا) • وأكثر من ذلك أنها أكبّت على العمل بهمة ونشاط • يجب أن أذكر أن البيت والأثاث وكل شيء قد بقى كما كان فى الماضى • هو بيت يتألف من حجرتين : احدهما صالة كبيرة جعلت هى المكتب ؟ والثانية صالة واسعة هى الأخرى جعلناها غرفة نومنا المشتركة • وكان أثاث بيتى ليس فيه شيء من بريق ، حتى ان أثاث مسكن العمتين كان أحسن منه • وفى صالة المكتب انما توجد الايقونات مع السراج ، أى فى الصالة التى فيها صندوق الاقراض • وفى غرفة النوم توجد خزانتي ، وهى تضم عدداً من الكتب ، وحقيبة كنت أحمل مفاتيحها دائماً • ويوجد سرير وموائد وكراس • وكنت قد أبلغت خطيبتي أننا سنقف على طعامنا ، أى على طعامى وطعامها وطعام لوكيريا التى استخدمتها ، روبلاً واحداً فى اليوم ، لا أكثر من ذلك • فلم تعترض بشيء • ولكنى زدت المبلغ من تلقاء نفسى ثلاثين كوبكاً للانفاق على حاجات البيت • وكان هناك المسرح أيضاً • وكنت قد قلت لخطيبتي اننا لن نذهب الى المسرح

أبدأ • لكننى مع ذلك سمحت بأن نذهب الى المسرح مرة كل شهر ،
وتم ذلك على نحو لائق ، فكنا نحجز مقاعد فى مكان حسن من الصالة •
وكنا نذهب الى المسرح معاً • ذهبنا ثلاث مرات ، فشاهدنا مسرحية
« سباق السعادة » ومسرحية « الطيور المغردة » فيما أظن • (ولكن
ما قيمة هذا ؟ لست أهتم بهذا الأمر أى اهتمام) • كنا نذهب الى المسرح
صامتين ، ونعود منه صامتين • لماذا ؟ لماذا التزمنا جانب الصمت منذ أول
يوم ؟ على أننا لم ينشب بيننا أى شجار فى البداية •

لم تشاجر فى الآونة الأولى ، ومع ذلك خيم بيننا الصمت • وانى
لأذكر كيف كانت تختلس النظر الى من تجت ، فلما لاحظت ذلك
اشد صمتى • حقاً اننى أنا الذى ألححت على الصمت • لقد انفجرت هى
مرة أو مرتين ، فاندفعت الى تريد أن تعانقنى وتقبلنى ، ولكننى استقبلت
اندفاعها ببرودة وجفاف لأن هذه المظاهر أعراض مرضية هسرية ،
ولأننى كنت فى حاجة الى سعادة مضمونة مؤكدة يشفعها احترام من جانبها
وتبجيل • نعم ، وكنت على حق • وكان يعقب الانفجار يوم مليء
بالشجار •

أقصد • • • لم يكن ثمة تشاجر بمعنى التشاجر ، وانما كنا نصمت ،
وكان كل واحد منا يقف من الآخر موقفاً فيه وقاحة ما تنفك تزداد •
« تمرد وعصيان » ، ذلك ما كان يحدث • ولكنها لم تكن تحسن التصرف
فى الأمر والاحتياال عليه • نعم ، كان ذلك الوجه العذب يتخذ هيئة
تزداد تعجباً وشراسة شيئاً بعد شيء • حتى لقد أصبحت تنفر منى
وتكرهنى • هل تصدقون ؟ لقد أتيح لى أن ألاحظ هذا • وكانت تلك
النوبات تخرجها عن طورها ، لا شك فى ذلك • ولكن حين تخرج
فتاة من وحل كالوخل الذى كانت فيه ، وحين تتخلص من بؤس كالذى
الذى كانت تعانيه اذ كانت تفسل بلاط الأرض ، فهل يجوز لها أن تشكى
من فقرنا ؟ ولاحتلوا أن الأمر لم يكن فقراً بل كان اقتصاداً ، حتى لقد كنا

لا نضن^٣ على نفسنا بشيء من الترف اذا وجب الترف : مثال ذلك اننى كنت حريصاً على نظافة الملابس الداخلية • وحتى قبل الزواج كنت أعتقد دائماً أن نظافة الرجل ترضى المرأة • على أنها لم تكن تغضب من الفقر فى الواقع ، وانما كانت تغضب من هذا الذى تراه فى^٤ من الحرص على التوفير والاقتصاد فى أعقاب الشموع مثلاً • وكانت تقول لنفسها : لا بد أن لهذا أسبابه وعلة • انه رجل سىء الطبع • وامتنعت فجأة عن الذهاب الى المسرح • وازدادت شدة اللذع فى إبتسامتها الساخرة ••• وضاعفت الصمت من جهتى •

ألا يجب على^٥ أن أبرئ نفسى ؟ ان صندوق الاقراض ذاك هو الذى كان أخطر ما فى الأمر • اسمحوا لى : لقد كنت أعلم أن المرأة ، ولا سيما اذا كانت سُنّها ستة عشر عاماً ، لا تملك الا أن تطيع زوجها • ان النساء ليس لهن شخصية • تلك بديهيّة • ومازلت الى اليوم وحتى فى هذه اللحظة أَعِدّها بديهيّة !

لا قيمة ولا شأن لما هو الآن فى الصالة • ان الحقيقة هى الحقيقة ، وليس يستطيع حتى ستوارت هل أن يكون له فى الأمر حيلة ! فالمرأة التى تحب ، نعم ، المرأة التى تحب ، تعشق فيمن تحبه حتى عيوبه وسيئاته • وهو مع ذلك لا يطلب كل هذا التسامح من جانبها فى حق نقائصه • ذلك منها كرم وسماحة • ولكنه يدل على أنها ليست بذات شخصية • ان افتقاد الشخصية هو ما ضيّع النساء • أعود فأكرر أنه لا قيمة ولا شأن لما هو الآن فى الصالة ، أعنى الجثة المسجاة على المائدة • هل وجود هذه الجثة دليل على قوة الشخصية ؟ لا ، دعوكم من هذا الكلام !

اسمعوا • لقد كنت واثقاً بحبها حينذاك • ألم تكن نرتمى على^٦ لتعانقنى ؟ اذن كانت تحبني ، أو قولوا كانت تريد أن تحبني • نعم ، هذا هو التعبير الصحيح : كانت تريد أن تحب ، كانت تسعى الى أن تحب • والشئ الأساسى هو أنه لم يكن ثمة عيوب من تلك العيوب التى يجب

عليها ان تحاول تبريرها وتسويفها • لعلكم تقولون انى مراب اقترض برهن • والناس جميعاً يكررون هذا • ولكن ما شأن أن أكون مرابياً يقرض برهن ؟ لا شك فى أن هناك أسباباً قد تدفع أكرم انسان الى أن يصحح مرابياً يقرض على رهون • اسمعوا أيها القراء الأصدقاء : هناك أفكار بل هناك فكرة تبدو غبية غباء رهيباً حين يُنطق بها ، أى حين يسبر عنها بالفاظ ، حتى ليستحى صاحبها نفسه منها ، فهى تقع من النفس موقعاً سيئاً ، ويكون لها رنين ردىء يؤذى السمع • ومع ذلك تكون هى الحقيقة ، الحقيقة بسينها ! نعم ، لقد « كان من حقى » أن أخرج من المأزق بفتح مكتب اقراض • « لقد يذتمسونى يا معشر البشر ، أى طردتمونى بصمتكم الذى يفيض ازدراء » ، ورددتى على اندفاعى التى كانت تحملنى اليكم باساة لن أنساها فى يوم من الأيام أبداً • فكان من حقى اذن أن أحمى نفسى منكم بجدار ، أن أجمع ثلاثين ألف روبل ، ثم أمضى الى مكان بالقرم على الشاطئ الجنوبى أقضى فيه حياتى على تلال مزروعة بأشجار الكرمة أكون قد اشتريتها بالثلاثين ألف روبل ، فأحيا بعيداً عنكم ، ولكن دون أن أبغضكم ، واحتفظ بمثل الأعلى فى نفسى ، تصحبى زوجتى مع أولادى اذا رزقنى الله أولاداً ، وأحاول أن أساعد الفلاحين الذين يجاورونى ، • الحق أن من الأفضل أن اعترف لنفسى بكل هذا فى هذه اللحظة • والا فهل يتخيل المرء شيئاً أشد غباوة وحمافة من قصة كهذه القصة أرويا لها بصوت عال ؟ هذا هو السبب فى ذلك الصمت المتكبر الصلف • هذا هو السبب فى أننا كنا نجلس صامتين بغير كلام • ثم ما الذى كان يمكن أن نفهمه من الأمر ؟ ان سنّها ستة عشر عاماً ، فهى فى مطلع الصبا ••• نعم ، ما الذى كان يمكن أن نفهمه من تبريراتى ومن تباريحى وعذاباتى ؟ ان طبعها بسيط ساذج ، وانها جاهلة بالحياة ، وان رأسها فوق ذلك كله مترع بالأراء السهلة التى هى من خصائص الشباب ، وهى تنصف بما تنصف به « النفوس الجميلة » من عماوة •

ثم هي ترى صندوق الافراض بالربا ولا ترى سواء ! فأنتى لها أن تدرك !
(ولكن هل كنت مرايباً جشعاً لا يرحم ؟ ألم تر بنفسها أنتى لا أعتنى
كثيراً ؟) • آه • • يا للحقيقة ما أشدها هولاً فى هذا العالم ! الحقيقة
شئ رهيب ! ان تلك اللؤلؤة ، تلك الطفلة العذبة ، كانت طاغية مستبدة ،
كانت طاغية تسوم نفسى عذاباً لا يطاق • كانت لى جلاداً لا يرحم ! أظنون
أنتى كنت لا أحبها ؟ من يستطيع أن يزعم أنتى كنت لا أحبها ؟ يا لسخرية
القدر والطبيعة ! ان اللعنة تطارد حياة البشر ، حياة البشر عامة ، وحياتى
أنا خاصة • أنتى أدرك الآن أن هناك أمراً أخطأت فيه التقدير ! ان هناك
شيئاً لم يحدث كما كان ينبغى أن يحدث • لقد كان كل شئ واضحاً أشد
الوضوح ، كانت خطتى صافية صفاء النهار : « هو قاس ، صلف ،
لا تواسيه تعزيات غيره ، فيتألم ويتعذب صامتاً » • كذلك كان الأمر •
أنا لم أكذب ! لم أكذب ! كنت أقول لنفسى : « لسوف ترى بنفسها أنتى
أصدر عن سمو فى النفس ، وأنها لم تلاحظ ذلك • حتى اذا أدركت ،
قدرتى عشرة أضعاف قدرها لى الآن ، وارتمت على التراب ضامة ذراعيها
ضراعةً وابتهالاً » • تلکم كانت خطتى • ولكننى نسيت شيئاً ، أو غاب
عن بصرى شئ • هناك أمر غفلت عن تليته •

كفى ! كفى ! من أستغفر ، ومن أطلب العفو ؟ لقد انتهى كل
شئ • انتهى كل شئ • أيها الرجل الجسور ، كن متكبراً صلفاً ! لست
أنت المذنب !

لسوف أقول الحقيقة ؛ لست أخشى أن أقابل الحقيقة وجهاً لوجه :
انها • هي ، المذنبه • • • هي !

العزيمية

بدأت المشاجرات لأنها ارتأت فجأة أن تدفع للمقترضين ما تشاء هي ، وأن تقدر الأشياء المرهونة بمبالغ تفوق قيمتها كثيراً ، حتى لتعطى المقترض ضعفى قيمة الرهن ، وقررت أن تعاندنى فى هذا . ولقد خالفتها فى رأى . وعندئذ انما تدخلت حكاية امرأة الكابتن ...

فى ذات يوم جاءت امرأة عجوز هى زوجة كابتن ، جاءت ترهن حلية مى مدية أهداها اليها المرحوم لزوجها ... فهى كما ترون ذكرى . فقدمت اليها قرضاً قدره ثلاثون روبلاً . وقد أخذت المرأة ثمن بصوت شاك طالبةً اليها أن نحافظ على الحلية . وكنا سنحافظ عليها طبعاً ! ثم انقضت خمسة أيام فاذا بالمرأة العجوز تعود اليها لتستبدل الحلية المرهونة بسوار لا تساوى قيمته ثمانية روبلات . فرفضت ذلك طبعاً . ولا بد أنها لاحظت فى نظرة زوجتى شيئاً حينذاك ، فجاءت ذات يوم أثناء غيابى فقبلت زوجتى أن ترد اليها الحلية وأن تأخذ منها السوار .

فلما علمت بالأمر فى ذلك اليوم نفسه ، قلت بضع كلمات مقتضبة ، ولكننى قلت تلك الكلمات بلهجة حازمة من أجل أن أردّها الى الصواب . كانت جالسةً على السرير تنظر الى الأرض وتلامس السجادة بطرف حذاء قدمها اليمنى (وتلك حركة مألوفة فيها) ، وكانت شفتاها تتقلصان بإتسامة ساخرة سيئة . لم أرفع صوتى صائحاً فى تلك المناسبة ، وانما

نبتتها بهدوء الى أن المال « مالى أنا » ، وأن من حقى أن أنظر الى الحياة
نظرتى الخاصة ، وأنتى حين دعوتها الى بيتى لم أخف عنها شيئاً • فما ان
سمعت هذا الكلام حتى وثبت واقفةً على حين فجأة ، وأخذت ترتجف
وترتعد ، بل أخذت - مارأيكم ؟ - تضرب الأرض بقدميها غضباً وحنقاً •
وحش كاسر • نوبة عصبية ! وحش كاسر اعترته نوبة عصبية ! ذهلت •
لم أكن أتوقع غضبة كهذه الغضبة أبداً • ولكننى لم أفقد سيطرتى على
نفسى ، ولم أقم بأية حركة ، وانما أعلنت لها بذلك الصوت الهادىء نفسه
اننى أحظر عليها أن تشارك فى عملى منذ اليوم • فأنفجرت تضحك ،
وخرجت من المسكن •

الواقع أنها لم يكن من حقها أن تترك بيت الزوجية • ولقد اتفق
رأينا منذ الخطوبة على ألا تذهب الى أى مكان الا بصحبتى •
وعادت فى المساء • ولم أنطق بكلمة •

وخرجت فى الغد ، وخرجت فى غداة الغد • فأغلقت مكتبى ،
ومضيت الى بيت عمّتيها • كنت قد قطعت جميع علاقتى بهما منذ يوم
زواجنا : فلا هما تأتيان الىّ ، ولا أنا أذهب اليهما فعلمت هناك أنها لم
تجىء الى عمّتيها • وقد أصفت العمتان الىّ مستطلمتين ، بل لم يفتهما أن
تضحكا علىّ ، وقالتا لى : « مستحق ! » • ولم أكن أتوقع أن تستهزئا بى
وتتهكما علىّ • ولكننى رشوت احدهما - وهى العانس - بمائة روبل
دفعت لها منها خمسة وعشرين روبلاً على الحساب • فما انقضى يومان
حتى جاءتنى العمة العانس تقول لى : « ان لضابط من الضباط هو الليوتنان
ياقيموفتش الذى كان أحد رفاقك فى الجيش ضلعاً فى الأمر » • صعقتى
هذا الكلام صمغاً • ان ياقيموف هذا هو الرجل الذى ألحق بى الأذى
والضرر فى الجيش أكثر من أى شخص آخر • وقد تجاسر منذ شهر
فجاء الى مكتبى مرتين بحجة أنه يريد ايداع رهن واقتراض مال • وانى
لأنذكر أيضاً أنه أخذ يمازح زوجتى • فاقتربت منه وأمرته بالألتطاً

قدماء بيتى بعد الآن بحكم طبيعة العلاقات التى بيننا • ولكن لم تساورنى أية شبهة ولم يخامرني أى ظن ؟ وكل ما انصرف اليه ذهني أن الرجل سيء الخلق قليل الحياء • ولكن هاهي ذى العمة تنبئني الآن أنهما قد تواعدا ، وأن مدبرة هذه المكيدة امرأة كانت فى الماضى من صاحبات العمتين ، وهى أرملة اسمها جوليا ماسونوفنا كان زوجها كولونيلًا • وقالت لى العمة العانس : « إليها انما تذهب الآن زوجتك » •

لا داعي الى سرد التفاصيل • حسبى أن أذكر أنني ضيَّعت ثلاثمائة روبل ، ولكنني توصلت بعد يومين الى تدبير كل شيء على النحو الذى يكفل لى أن أكون فى الغرفة المجاورة للغرفة التى سيحتلها يانيموف بامرأتى لأول مرة ، فأتصت عليهما • وقبل أن يحين الموعد بيوم ، حدث بينى وبين زوجتى شجار قصير كان لابد أن يبدو لى بليغ الدلالة •

لقد رجعت الى البيت فى نحو المساء ، فجلست على حافة السرير ، ونظرت الى « ساخرة » بينما هى تضرب السجادة بنعل حذاءها • فإذا أنا يخطر ببالي على حين فجأة وقد وقع بصرى عليها أنها قد أصبحت فى هذا الشهر غير ما كانت ، حتى لقد أصبحت تقيض ذاتها • فهى الآن شديدة الخلق ، وشرسة الخلق كثيرة التعدى ، ولا أقول وقحة ، وانما أقول مضطربة زاحرة بروح التمرد • وكانت هى تحاول أن تستثير فى نفسها روح التمرد هذه • ومع ذلك كانت عنوبتها ورقتها ودمائتها تمنعها من الانقياد للتمرد • ان المرأة العذبة الرقيقة الدثة مهما تتجاوز الحدود فى انتقالها من الدماعة الى التمرد ، يظل يحس المرء أن طبيعتها ليست هى هذه الطبيعة ، وانما هى تكبر نفسها على العصيان اكراهاً ، ولا تغلغ أبداً فى التغلب على كل خفر وكل تحفظ • وهذا النوع من المزاي هو الذى يحثُّ الخصم ويقبل سلاحه أكثر من سائر المزاي ، لأنه يجعله هو نفسه متردداً فى تصديق ما تراه عيناه • ولا كذلك النفس الداعرة الفاجرة ، فانها تستطيع دائماً أن

تكون أكثر قصداً واعتدالاً ، وتعرف كيف توغل في الدنائة مستترةً
بمظهر الأدب والحشمة ، فتُضِلُّك بذلك عن نفسها وتخدعك •

كسرت امرأتى الجليد فجأةً فقالت تسألنى ملتمة العينين :

– هل صحيح أنك طردت من الجيش لأُمكنك خفت من الاقتتال
فى مبارزة ؟

– صحيح • رجيت أن أترك الجيش بطلب من الضباط ، رغم أننى
قدمت طلب تسريحى قبل ذلك •

– أطر دوك اذن بسبب جبنك ؟

– نعم ، عدُّوا ذلك منى جبناً • والواقع اننى لم أرفض المبارزة
جبناً ، وانما رفضتها لأننى لم أشأ أن أخضع لحكمهم الباغى المستبد ،
فأدعو الى المبارزة على اعتقادى بأننى لم تنلنى اهانة •

ولم أستطع أن أكظم غيظى فأردفت أقول لها :

– هل تعلمين أن مقاومة هذا الاستبداد الباغى ورفض ما يترتب
عليه من نتائج دليل على شجاعة أكبر كثيراً من شجاعة الاقتتال فى أية
مبارزة ؟

لم أستطع أن أسيطر على نفسى فأمسك عن اطلاق هذه الجملة ،
فكأننى أردت بذلك أن أبرر سلوكى • وهذا بعينه هو كل ما كانت تريده :
أعنى هذه المذلة الجديدة من جانبى • فاذا هى تضحك ضحكة كاسرة •
وأردفت تسأل :

– وهل صحيح أنك كنت بعد ثلاث سنين تتشرد فى شوارع
بطرسبرج ، وتستعطى الصدقات ، وتنام ليلك على موائد البلياردو •

– وكنت أنام أيضاً فى « سوق العلف » بمنزل فيازمسكى • هذا

صحيح : فبعد خروجي من الجيش عشت فترة طويلة من الخزي والمار ،
والفاقة والبؤس ، ولكن أخلاقى لم تسقط ، لأننى كنت أول من يأسف
لما يصدر عنى من أعمال • لقد كان بؤسى بؤس ارادة وعقل ، ولم يكن
لهذا البؤس من مصدر الا ما كنت فيه من حالة اليأس الشديد • ولكن
هذا أمر مضى وانقضى •••

— آ ••• طبعاً ! أنت الآن شخص مرموق ، أنت الآن من رجال
المال !

وكان ذلك اشارةً منها الى أننى مراب طبعاً • ولكننى استنطعت أن
أسيطر على نفسى وأن أتحكم بسلوكى • لقد رأيت أنها شديدة الرغبة
فى أن تحصل منى على إيضاحات يمكن أن تخفض قدرى وتهبط بقيمتى •
لذلك حاذرت أن أقول لها شيئاً • وواتانى الحظ فدقّ الجرس زبون
فمضيت الى الصالة للقاءه • وبعد ساعة ، بينما أخذت ترتدى ثيابها فجأة
لتخرج ، تسمرت أمامى وقالت لى :

— ذلك لا ينفى أنك لم تحدثنى بشيء من هذا كله قبل زواجنا •

فلم أجبها • وخرجت •

وفى الغد كنت لاطياً فى تلك الغرفة أتنصّت عليهما وأنتظر مصيرى
واضماً مسدسى فى جيبي • كانت هى جالسة بقرب الطاولة ، وكان يافيموف
يتفنج أمامها • فماذا حدث ؟ (ان ما أقوله هنا يشرّفى الى أقصى حد) •
لقد حدث ما كنت توقعته وافترضته دون أن أكون واعياً ذلك التوقع
وذلك الافتراض • لا أدرى هل أحسن التعبير ، فأجعلكم تفهمون ما أريد
أن أقول •

اليكم ما حدث • لقد ظللت أنصت ساعة كاملة ، فشهدت خلال هذه
الساعة مبارزة بين أنبل وأشرف امرأة وبين مخلوق حقير متصنع فاسق
خسيس النفس نذل • قلت أسائل نفسى مدهوشاً مذهولاً ! • كيف تعلمت

هذه المرأة الساذجة ، هذه المرأة العذبة ، هذه المرأة التي لا تتكلم الا قليلاً جداً ، كيف تعلمت هذا كله ؟ ان أبرع كاتب من كتاب المسرحيات الهزلية لا يستطيع أن يتفقق خياله عن مشهد فيه مثل هذه السخريات وهذا الضحك ، عن مشهد تعبت فيه الفضيلة أبدع العبث بالذيلة ، وتحتقرها أحسن الاحتقار . ما كان أحذقها في حديثها ، وحتى في أيسر ألفاظها ، وما كان أرهف ذكاءها في أجوبتها السريمة ، وما كان أصوب أحكامها في آرائها السديدة ! . وكانت في الوقت تدل على براعة بكر وسذاجة عذراء . كانت تضحك أشد الضحك من تصريحه بحبه ، ومن حركاته وإشاراته ، ومما يقدمه لها من عروض . لقد جاء الى هذا المكان وهو يتتوى أن يعمد الى هجوم مباغت ، وكان لا يتصور أن يصطدم بمقاومة ، فاذا بظنونه كلها تذهب بدداً . كان يمكن أن أقترض في أول الأمر أن ذلك لم يكن منها الا دلالاً هو دلال امرأة لا يعوزها الذكاء في فجورها ولا تنقصها الفكاهة في خلاعتها ، فهي تحب أن تبديهما وتظهرهما معترزةً بهما . ولكن لا . لقد كانت الحقيقة تسطع سطوع الشمس . فلا سبيل الى الشك فيها . كل ما في الأمر أنها من بغضها لي ، وهو بغض متصنع مرئيه الى الحلق والغيط ، قد أمكنها لقله خبرتها أن تدبر أمر هذا اللقاء . ولكن ما ان حان حين الانتقال الى الفعل حتى انفتحت عيناها على الفور . كانت تريد أن تهينني بجميع الوسائل ، ولكنها رغم أنها قررت أن تتدحرج في الوحل لم تحتمل رؤية مثل هذا الفساد . ثم هل يستطيع رجل مثل يافيموف أو أى شخص سخيّف تافه من نوعه أن يفتنها هي البريئة الطاهرة التي تسعى الى مثل أعلى ؟ بالعكس : ما كان لرجل مثله الا أن يثير فيها الضحك . كانت الحقيقة كلها تعصى وتمرد في نفسها ، وكان الغضب يجعلها ساخرة متهمكة . أعود فأقول ان هذا الشخص السخيّف المضحك قد شده من ذلك شدهاً شديداً ، وجلس في آخر الأمر كالحج الهيئة متجهّم الوجه لا يكاد يجيب عن أسئلتها ، حتى لقد بدأت أخشى أن يأخذ

بشتمها ارضاءً لحقده الدنيء • وأعود فأكرر مرةً أخرى أن رؤيتى هذا
المشهد بغير دهشة أمر يشترّفى ، لقد كنت كمن التقى بوجه يعرفه بعد أن
غاب عنه زمناً ، وتعمّد أن يجيئ الآن ليلقاه • لقد جئت وأنا لا أعرف
شيئاً ، ولا أحمل فى نفسى أى اتهام ، رغم تسلحى بمسدس فى جيبي •
تلكم هى الحقيقة • وهل كان يمكن أن أتخيل أن يكون الأمر غير ذلك ؟
لماذا كنت قد أحيتها ؟ لماذا كنت قد قدرت قيمتها ؟ لماذا كنت قد تزوجتها ؟
صحيح أننى كنت مقتنماً أشد الاقتناع بكرهها لى ، ولكننى كنت مقتنماً
كذلك ببراءتها وطهارتها •

هأنذا أنهى المشهد ، فأفتح الباب فجأة ، وأدخل عليهما • انتفض
يافيموف • وأمسكت يدها ودعوتها أن تخرج معى • وثاب الى يافيموف
رشده ، فانفجر يضحك على حين فجأة ضحكاً مجلجلاً متدفقاً ، وقال :

— آ ••• خذها ، خذها ، لا اعتراض لى على قداسة الواجبات
الزوجية •

وصاح يقول ورائى :

— واعلم أننى رهن اشارتك ، رغم أنه لا يسع رجلاً شريفاً أن
يبارزك دون أن يخفض قدره ، ويفقد حشمته ••• هذا اذا كان لك من
الشجاعة ما يدفعك الى طلب المبارزة •••

قلت لزوجتى وأنا أجبرها على التوقف لحظةً فى العتبة :

— سمعت ؟

نم لم أقل لها كلمة واحدة طوال الطريق الى أن بلغنا بيتنا • وكنت
قد قبضت على ذراعها ، فلم تبد أية مقاومة • حتى لقد كانت مشدوهة
مذهولة • غير أن ذلك لم يطل كثيراً ، فما ان وصلنا الى البيت ودخلنا حتى

جلست على كرسى ، وأخذت تحدجنى بنظرة ملحة • كانت شاحبة اللون
شحوباً رهيباً • ورغم أن شفيتها قد عادت اليهما ابتسامتهما الساخرة فوراً ،
فإن نظرتها كانت تتحدانى تحدياً يحمل معنى الانتصار ؛ وأظن أنها لبثت
عدة دقائق موقفةً بأننى سأقتلها برصاصة مسدس • ولكننى أخرجت
سلاحى من جيبي بهدوء ، ووضعت على المائدة • (لاحظوا أن هذا المسدس
مألوف لها ، وأننى لقمته منذ فتحت مكتبى ، اذ كنت قد قورت حين فتحت
هذا المكتب أن أستغنى عن كلب حراسة وعن خادم قوى الجسم شديد
البأس كما يفعل موزير • وكانت الطباخة عندى هى التى تفتح الباب
للزبائن • ولكن يستحيل على من يتعاطون مهنتنا ألا يتخذوا احتياطاتهم ،
فمن باب الاحتياط لكل طارئ ، انما اقتنيت هذا المسدس وجعلته ملقوماً
على الدوام • وقد اهتمت هى نفسها اهتماماً كبيراً بهذا المسدس فى الآونة
الأولى من دخولها بيتى ، وسألتنى عن أجزائه واستعماله ، حتى لقد أفتعتها
ذات يوم بأن تسدد الى الهدف وتطلق رصاصة • لاحظوا هذا كله) •
واستلقيت على سريرى دون أن أخلع الا نصف ثيابى ، ودون ان أتبته
الى ما كانت تعبر عنه هيئتها من دهشة • كانت الساعة هى الحادية عشرة
تقريباً • وظلت فى مكانها ساكنةً جامدة زهاء ساعة • ثم أطفأت الشمعة ،
واضطجعت على الديوان بدون أن تخلع ثيابها هى أيضاً ، متجهةً بوجهها
الى الحائط • تلك أول مرة لا نرقد فيها على سرير واحد • لاحظوا هذا
أيضاً •

ذكرى فظيمة

هنا مكان ذكرى فظيمة ***

استيقظت صباحاً فى نحو الساعة الثامنة فيما أظن ، وكانت الغرفة قد غمرها الضوء تقريباً . استيقظت دفعة واحدة ، واعياً كل الوعى صاحباً كل الصحو ، وفتحت عيني فجأة ، فرأيتها واقفة بقرب المائدة ، ممسكةً المسدس بين يديها . لم تَرَ أننى استيقظت وأنتى كنت أنظر إليها . ورأيتها قبل على بقةً والمسدس بيدها . فأغمضت عيني فوراً ، وتظاهرت بأننى نائم نوماً عميقاً .

وصلت الى سريري ، ومالت على . وكنت أسمع كل شئ . ورغم أن صمتاً كصمت الموت خيم ، فقد كنت أسمع هذا الصمت . وحدثت عندئذ حركة متشنجة جعلتني أفتح عيني مرة ثانية على حين فجأة . فنظرت محدقةً الى عيني بنظرة ثابتة ، بينما استقرت فوهة المسدس على صدفي . التقى بصرانا . ولكننا لم ننظر أحداً الى الآخر الا لحظة واحدة . وأجبرت نفسى على أن أعود الى الاغماض ، واستجمعت شتات فكري ، فعملت جاهداً على ألا أتحرك البتة ، وعلى ألا أعود الى فتح عيني مهما يحدث من أمر .

انه ليحدث فعلاً أن يكون امرؤ نائماً نوماً عميقاً ، فاذا هو يفتح عينيه فجأة ، أو حتى ينهض رأسه لحظةً وينظر حواليه ، ثم اذا هو

يهوى برأسه على المخدة بعد لحظة واحدة بدون شعور وينام من غير أن يتذكر شيئاً •

أتنى بعد أن التقى بصرى ببصرها وأحسست بفوهة المسدس على صدغى ، قد أغمضت عيني فجأة ، ولم أتحرك بعد ذلك البتة ، فكأنتى كنت نائماً نوماً عميقاً ، وكان فى إمكانها أن تفترض أننى كنت نائماً بالفعل وأتنى لم أبصر شيئاً ، ولا سيما أن اغماضى عيني بعد أن رأيت الأمر يكون شيئاً لا يعقل ان يحدث ، أو لا يحتمل أن يقع ...

نعم ، لا يُعقل أن يحدث ، لا يحتمل أن يقع • ولكنها مع ذلك استطاعت أن تحزر الحقيقة • خطرت هذه الفكرة فى ذهنى كالبرق • آه ... يا لزوجة الأفكار والاحساسات التى عصفت فى نفسى ابان لحظة واحدة ! ان علينا أن نمجّب أشد الاعجاب بهذه الكهرباء فى فكر الانسان • وأحسست فى تلك اللحظة أنها اذا حذرت الحقيقة وعرفت أتنى غير نائم ، فلا بد أن يكون رضى بالموت قد سمحها سحفاً ، ولعل يدها قد أخذت ترتجف • ولعل صدمة هذا الشعور الجديد الحارق قد حطمت ما كانت قد اتخذت من قرار • يقال ان الذين يقفون على ذروة عالية يحسون من تلقاء أنفسهم بانجذاب الى الهاوية • وأحسب أن كثيراً من حوادث الانتحار وجرائم القتل لم تقع الا لأن المسدس كان فى اليد • ثمة هوة هنا أيضاً ، ثمة انحدار مقداره خمس وأربعون درجة لا يملك المرء حين يحاذيه الا أن ينزلق الى تحت • ان نداءً لا يقاوم ولا يقالب يهيب بنا أن نضغط على الزناد • ولكن شعورها بأتنى رأيت كل شىء ، وأتنى أعلم كل شىء ، وأتنى أنتظر صامتاً أن تأتبنى منها الضربة القاتلة ، كان يمكن أن تعصمها من الانزلاق •

وطال الصمت • وأحسست على صدغى وعلى شعرى ببرودة ملمس الحديد • قد تسألوننى هل كنت آمل أملاً جازماً قاطعاً فى أن أنجو مرة أخرى • فاعلموا - والله على ما أقول شهيد - أتنى كنت قد فقدت

كل أمل ، أو لو يكن أمل يزيد على واحد من مائة • فلماذا ارتفضت ان أموت ؟ انى لأسألكم : ما عسى تكون قيمة الحياة فى نظرى بعد المسدس الذى صوّبه الىّ انسان أعبدته عبادة ؟ ثم اننى كنت أعرف معرفة لا يتسرب اليها الشك ان صراعاً قد نشب بيننا فى تلك اللحظة ، صراعاً هو مبارزة ضارية تنتهى بالحياة أو بالموت ، مبارزة من نوع المبارزة التى حضنتى عليها رفاقى فى الماضى ، ثم طردونى لاعراضى عنها جبناً • كنت أعلم ذلك ، وكانت هى تعلمه • هذا اذا صحّ أنها حذرت أننى لم أكن نائماً •

ومن الجائز ألا يكون شيء من هذا قد جرى ، من الجائز ألا أكون قد فكرت حينذاك فى ذلك كله ، ولكن أغلب الظن أن يكون هذا هو ما جرى ، لائى منذ ذلك الحين لم أنقطع عن التفكير فيه لحظة فى ساعة من حياتى •

ولكن قد تسألوننى أيضاً : • لماذا لم تمنعها من اقتراف جرم فظيع ؟ • فاعلموا أن هذا هو السؤال الذى ألقيته على نفسى ألف مرة فيما بعد حين كنت أتذكر تلك اللحظة فتسرى فى ظهري رعدة • لقد كانت نفسى ممثلة حينذاك بياس مظلم : كنت أنا نفسى هالكا ، فمن ذا الذى كان فى وسعى أن أنقذه ؟ ثم ما أدراكم ! هل كنت أحرص فعلاً على أن أنقذ أحداً فى تلك اللحظة ؟ من ذا يعلم ما الذى كنت أحسه ؟

ولكن شعورى كان مع ذلك يقطاً • ومرّت الثوانى ، وران صمت كصمت الموت • ولا تزال هى ماثلة علىّ • ثم اذا أنا أرتعش أملاً • فأفتح عينى • فأرى أنها كانت قد غادرت الغرفة • نهضت عن سريري وخرجت منتصراً غالباً ، بينما أصبحت هى منهزمة مغلوبة الى الأبد •

مضيت أجلس بقرب السماور • كان الشاي يشرب عندها دائماً فى الغرفة الأولى ، وكانت زوجتى هى التى تصبّه • جلست صامتاً ، وتناولت من يديها كأس الشاي • وألقيت عليها نظرة بعد خمس دقائق • كانت

شاحبة شحوباً رهيباً مخيفاً ، كان شحوبها الآن أشد من شحوبها بالأمس •
وكانت تنظر الى • فلما لاحظت نظرتي اليها اذا بشفتيها اللتين زال عنهما
لونهما تلم • بهما ابتسامة باهتة ، واذا بعينيها تعبران عن سؤال • قلت
لنفسى : « معنى هذا أنها لا تزال تشك وتتساءل : أيعلم أم لا يعلم •
أراى أم أنه ما راى ؟ » • أشحت نظري مصطنعاً قلة الاهتمام • حتى اذا
فرغنا من الشاي ، أغلقت المكتب ، ومضيت الى السوق فاشتريت سريراً
من حديد ، وحاجزاً • ورجعت الى البيت ، فوضعت السرير فى الصالة
وراء الحاجز • انه سرير لها ، ولكننى لم أقل لها عن ذلك كلمة واحدة •
فأدركت هى من وجود هذا السرير • أتتى رأيت كل شئ ، وعلمت كل
شئ • ما فى ذلك ريب • وفى تلك الليلة تركت المسدس على المائدة
كعادتى فى كل ليلة • ورقدت هى صامتة على سريرها الجديد : لقد انحل
الزواج • « وغلبت هى لكنها لم 'يففر لها » • وانتابها فى تلك الليلة
هذيان • وظهر فى الصباح أنها أصيبت بحمى حارة • فبقيت راقدة ستة
أسابيع •

الفصل الثاني

١

حلم خيلاء وصلف

أبلغتني لوكيريا منذ قليل أنها لن تبقى عندي ، وأنها ستمضي متى تمّ دفن مولانها • فركمت على ركبتيّ وصليت خمس دقائق • كنت أريد أن أصلى ساعة ، ولكنني لم أزد على أن أفكّر ثم أفكر مريض العقل مريض الرأس ؟ وما فائدة الصلاة والنفس غارقة كلها في الائم ؟ والشئ العجيب أنتى لم أشعر برغبة في النوم أيضاً • ان المرء حين يعانى حزناً كبيراً ، حين يكابد كرباً هائلاً بعد العنف الشديد في الانفجارات الأولى ، لا يشتهي الا أن ينام • يقال ان المحكوم عليهم بالاعدام ينامون نوماً عميقاً أشد العمق في ليلتهم الأخيرة • ولا بد أن يكون الأمر كذلك ، فهذا يوافق الطبيعة ، والا لما استطاعت قوى الانسان أن تصمد •••

اضطجعت على الديوان ، ولكنني لم أستطع أن أغمض عيني •

••• أثناء مرضها الذى دام ستة أسابيع كنا تتناوب القيام عليها نهاراً وليلاً أنا ولوكيريا وممرضة محترفة جئت بها من المستشفى • لم أحفل بالنفقات • حتى لقد كنت لا أنشد الا أن أنفق من أجلها • واستدعيت الدكتور شرودر ، ودفعت له أجراً قدره عشرة روبلات • وحين عاد اليها وعيها ، أصبحت لا أظهر لها الا من حين الى حين • ولكن ما حاجتي الى ذكر هذا كله ؟ وظلت خلال مدة النقاهة جالسة في غرفتي قرب مائدة صغيرة كنت قد اشتريتها لها مع السرير في تلك المرة ، وكانت تبقى جالسة

بهدهء لا تنطق بكلمة ... نعم ، كسا نصمت • هذا صحيح • بل قل انا
قد بدأنا بتبادل بعض الكلام ، ولكن أحاديثنا لا تتناول الا أموراً تافهة
مبتذلة • وكنت أتعهد طبعاً ألا أبتعد فى كلامى عن هذه الأمور المبتذلة •
وكنت ألاحظ أنها راضية عن هذا التحفظ • كنت أقول لنفسى : • انها
مهتزة أشد الاهتزاز ، مهتمة أكبر التهمد ، فيحسن أن أتبع لها الوقت
اللازم للنسيان واسترداد قوتها • • فعلى هذا النحو كنا نلتزم الصمت •
ولكننى كنت فى كل لحظة متأهباً لكل ما قد يطرأ • وكنت أقدر أن حالها
كحالى ، وكان يمصف بى شغف شديد رهيب بأن أنسامل : • 'ترى فى
أى شىء تفكر الآن ؟' •

سأقول لكم شيئاً آخر • لا يتصور أحد طبعاً مدى ما عانيت من ألم
حين كنت أننى وأتجنب أثناء مرضها • ولكننى كنت أتجنب بينى وبين
نفسى ، وأكظم أنينى فى صدرى ، وأخفى شكائى حتى عن لوكيريا •
وكنت لا أستطيع أن أتصور ، لا أستطيع أن افترض أنها قد تموت دون
أن تعلم شيئاً • وانى لأتذكر أننى حين زال عنها الخطر وارتدت اليها
العافية ، قد هدأت نفسى هدهء كاملاً بسرعة • وأكثر من ذلك أننى قررت
' أن أرجىء مسألة مستقبلنا ، ما استطعت ارجاءها ، وأن أدع الأمور على
حالتها الراهنة بانتظار أن تنجلي فى المستقبل الذى أوجو أن يبقى بعيداً •
نعم ، ان ما يحدث لى فى ذلك الحين كان شيئاً عجيئاً قريباً لا أجد كلمة
تصفه الا أن أقول اننى كنت ' أنتصر ' ، وكان شعورى بهذا الانتصار
يبدو لى كافياً كل الكفاية • هكذا انقضى الشتاء كله • آ • • كنت راضياً
مسروراً كما لم أكن راضياً ولا مسروراً فى أى يوم من أيام حياتى حتى
ذلك الحين • • • ودام رضى وسرورى الشتاء كله •

اسمعوا • لقد مرت فى حياتى بظرف أليم كان الى ذلك اليوم ،
أى الى يوم تلك المصيبة التى نزلت بزوجتى ، جائئاً على صدرى يخنقنى
خفقاً فى جميع الأيام ، وفى كل ساعة من ساعات اليوم ، ألا وهو -

باختصار - فقد انى سمعتى وطردى من الجيش • وكان ذلك الأمر ظلماً لى ،
ظلماً مليئاً بالظنيان والاستبداد ، وخالياً من الرأفة والرحمة • هناك حقيقة
يجب أن أذكرها ، هى أن رفاقى كانوا لا يحبونى بسبب طبعى الذى كان
صعب المراس ، وربما كان باعثاً على الضحك ، وان كان يحدث فى كثير
من الأحيان أن ما يبدو لامرئ من الناس رائماً سامياً ثميناً مجيداً داعياً
الى الفخر مشرفاً يمكن أن يحمل على الضحك والقهقهة عصبية بأسرها
من الرفاق ، لا تدرى لماذا ولا كيف !

المهم أننى أنا لم أكن محبوباً فى يوم من الأيام ، حتى فى المدرسة •
ما أحببى أحد فى أى مكان ولا أى زمان • لو كبريا أيضاً لا تستطيع أن
تجنبى • ولكن ما وقع لى فى الجيش ، على أنه يرتبط بما يحمله لى رفاقى
من عواطف الكره ، انما كان مرئده الى مصادفة صرف • ويهمنى كثيراً
أن أكرر أنه لا شئ يسئ الى المرء ولا شئ يفوق طاقة المرء على الاحتمال
كأن يضع ويهلك بمصادفة كان يمكن ألا يحدث ، أو بتضافر عدد من
الظروف تضافراً مشووماً ، وهى ظروف كان يمكن أن تتبدد كالدخان •
ذلك فى نظر الانسان الذكى اذلال لا يضارعه اذلال • واليكم تلك
المصادفة :

أثناء حضورى مسرحية من المسرحيات ، وفى فترة الاستراحة بين
فصلين من فصول المسرحية ، مضيت الى البوفيه لأصيب شيئاً من شراب •
فاذا بالضابط « آ • • • وف » ، وهو ضابط فى سلاح الفرسان ، يدخل الى
البوفيه بسرعة كسرعة الريح ، ويقول لرفيقين من رفاقه بصوت عالٍ على
مرأى ومسمع من الجمهور وأمام ضباط آخرين ، ان قائد فوجنا بيزومتسيف
قد أثار فضيحة فى دهايز المسرح ، وأنه ربما كان ثملاً قد « أخذ السكر
منه كل مأخذ » • ولم يتصل الحديث • وكان عدا ذلك خطأً • لأن الكاتبن
بيزومتسيف لم يكن سكراناً ، ولا كان الأمر الذى حدث خليقاً بأن 'يعد'
فضيحة • وجرى الحديث بين ضباط سلاح الفرسان على شئ آخر ،

ووقف الأمر عند هذا الحد • ولكن فوجنا كان فى الغد على علم بالقصة ، وسرعان ما راج أنه لم يكن فى البوفيه أحد من ضباط الفوج غيرى ، واننى لم أحتجّ على « آ • • • وف » حين قال ذلك الكلام الوقح عن الكابتن بيزومتسيف ، ولا اتجهتُ اليه بأى تقرير لأسكته • وفيم كان ينفج الاحتجاج أو التقرير ؟ إذا كان ضابط سلاح الفرسان حاقداً على بيزومتسيف لسبب من الأسباب ، فالقضية تكون قضية شخصية بين الرجلين فلا شأن لى بها ، ولا داعى الى تدخل فىها • ولكن ضباط فوجى لم يعدوا الأمر أمراً شخصياً ، واعتقدوا أن الاهانة قد لحقت بالفوج كله ؛ واذا لم يكن فى البوفيه أحد من ضباط الفوج غيرى حينذاك ، فاننى بسكوتى قد برهنت للجمهور والضباط الذين كانوا فى البوفيه أنه يمكن أن يضمّ فوجنا ضباطاً لا تثيرهم اهانة تلحق بشرفهم وتلحق بشرف فوجهم • وكان لا يمكن أن أسلمّ بهذا الرأى • وأبلغونى أننى مازلت أستطيع اصلاح الأمر ، اذا أنا ارتضيت ، رغم تأخرى ، أن أدعو الضابط « آ • • • وف » الى المباراة غسلاً للعار ، فلم أحبب ذلك ، وكنت محتداً فرفضت العرض بتكبر واستعلاء ، وسرعان ما قدمت استقالتى • تلکم هى القصة • لقد خرجت متغطرساً ، ولكنّ محطماً • وشاعت المصادفة بما يشبه العمد أن يكون زوج أختى ، الذى يقيم بموسكو ، قد بدّد ارتنا المتواضع وحصى من هذا الارث ، فاذا أنا أجد نفسى فى الشارع لا أملك قرشاً •

ولقد كان يمكن أن ألتبس وظيفة مدنية وأن أحصل عليها ، لكننى لم أرتض لنفسى هذا : فكيف يمكن أن أقبل وظيفة من الوظائف فى السكة الحديدية ، بعد أن كنت أرتدى بزة عسكرية للألاء متألقة • وأخذت أندهور : فمن دناءة الى دناءة ، ومن خزى الى خزى ، ومن اسفاف الى اسفاف ، اذ اخترت أن يكون شعارى هو : كلما ازددت سوءاً وشرأ ، كان ذلك أفضل وأحسن • قضيت على هذه الحال ثلاث سنين

ما أبشع ذكراها ! ثلاث سنين انجرفت فيها حتى الى منزل فيازمسكى .
ومنذ سنة ونصف سنة ، ماتت بموسكو امرأة عجوز غنية هى عرايتى ،
فاذا هى تورثنى فى وصيتها مبلغ ثلاثة الاف روبل . ففكرت فى امرى ،
واتخذت قرارى فيما يجب علىَّ أن أسلك من سبيل وأن أحترف من
مهنة . عزمت على أن أفتح مكتب اقراض برهون ، لا أستغفر احداً
ولا أطلب من أحد عفواً أو صفحاً . قلت لنفسى : بذلك أجنى مالاً ،
وأبنى أسرة ، فأبدأ حياة جديدة بعيدة عن ذكريات الماضى . تلکم كانت
مشاريعى . ولكن ذلك الماضى المشؤم وتلك السمعة التى ثلمت شرفى الى
الأبد كانا لا ينفكان يعذباني فى كل لحظة وفى كل دقيقة . وفى أثناء ذلك
تزوجت . فان سألتمونى هل كان ذلك مصادفة أم لا ، قلت اننى
لا أعرف . ولكننى كنت أعتقد حين أدخلتها الى بيتى اننى أدخل صديقة ،
فما كان أشد حاجتى الى صديقة ! وكان لا يفوت بصرى مع ذلك أن هذه
الصديقة كان ينبغى لى أن أهيتها وأن أعمل فيها بل أن أتصر عليها أيضاً .
فهل كان يمكننى أن أشرح الأمور دفعة واحدة ، لهذه المرأة الشابة
التي لا تتجاوز سنّها ستة عشر عاماً ، والتي تزخر نفسها بأفكار مستقرة
راسخة ؟ كيف كان يمكننى مثلاً ، لولا أن أسعفتنى المصادفة التى أدّت
الى الكارثة الرهيبة ، أعنى مصادفة المسدس ، أن أقنعها بأننى لست جباناً
وعديداً ، وأن اتهامى فى الجيش بالجبن كان ظلماً . ولكن الكارثة قد
أوضحت كل شيء . فحين تحملت ملابس المسدس لصدغى ، ثارت لكل
ماضى المشؤم . واذا لم يكن أحد قد عرف بذلك فقد عرفته « هى » ،
وكان هذا حسبى ، فقد كانت عندى كل شيء ، وكانت كل أمل مستقبلى
على نحو ما كنت أراه فى أحلامي ! ولو أردت أن أختار لهذا أحداً ، لما
اخترت غيرها ، فلم أكن فى حاجة الى أحد سواها ، وهى ذى قد عرفت
كل شيء ، أو عرفت على الأقل أنها أفرطت فى التسرع والتعجل حين
انضمت الى أعدائى . فلا يمكن أن أكون بعد الآن فى نظرها جباناً ، بل
إنسان غريب الأطوار فى أكثر تقدير ، وهذه فكرة لا يمكن أن تسوءنى

كثيراً بعد كل ما حدث : فليس عيباً أن يكون الرجل غريب الأطوار ، حتى ان هذه الصفة تعجب مزاج النساء فى بعض الأحيان + المخلصة أننى تعمدت أن أوجيء انتهاء الأمر الى آية خاتمة : فما حدث كان يكفينى ، كان يكفينى فى ذلك الأوان من أجل أن يهدأ خاطرى وتطمئن نفسى ، وكان الى ذلك يغذى أحلام يقظتى بصور كثيرة + ان أسوأ صفة مشؤمة من صفات طبعى هى أننى امرؤ حالم ، فكأنت لا تموزنى موضوعات تدور عليها أحلامى فى البقطة + أما هى فأظن أنها « كانت تنتظر » .

على هذه الحال انما انقضى الشتاء كله انتظاراً + وكنت أحب أن أتأملها خلصةً حين تجلس بقرب المائدة + كانت تعمل فى تطريز بعض الأغنية . وكانت فى بعض الأحيان تقرأ كتباً تأخذها من مكتبتى . فكان اختيارها كتباً من مكتبتى خليقاً هو أيضاً بأن يشهد لى بالفضل والتميز . وكانت لا تكاد تخرج أبداً + فكنت أصطحبها كل يوم عند الفسق بعد العشاء فى نزهة ، فتروض قليلاً ، ولكننا لا نبقى صامتين كل الصمت كما كنا فى الماضى + كنت أحاول أن أتصرف تصرف من ليس يصت ، فكأن تفاهماً تاماً قد قام بيننا + ولكننا ، كما سبق أن قلت ، كنا نحرص كلانا على ألا يطول بيننا الحديث . وكنت أفعل ذلك عامداً ، لاعتقادي بأن على أن أترك لها « فسحة من الوقت » . ولا شك أنه أمر غريب أننى لم يخطر ببالى مرة واحدة حتى نهاية الشتاء ، أننى ان كنت أحب أن أتأملها خلصة من حين الى حين ، لم أفاجئها تلقى على نظرة طوال تلك المدة ! وقد عزوت غضبها الطرف الى خجلها وحيائها + هذا الى أن هيئتها كانت زاخرة بمعانى المذلة والدماثة والعذوبة ، وكانت تبدو ضعيفة أشد الضعف واهنة أكبر الوهن منذ مرضها ! فكان الأفضل أن أنتظر ، وكنت أقول لنفسى : « لسوف ترجع اليك من تلقاء ذاتها يوماً » .

وقد اتفق لى فى ذلك الشتاء أن قمت ببعض الحسنات متعمداً . فألغيت دينين ، وأقرضت امرأة فقيرة بعض المال بدون رهن ، ولم أذكر

ذلك لزوجتي ، ولا فعلته لتعلم به ، ولكن المرأة جاءت تشكر لي صنيعى
وهي تكاد تهجو على ركبتيها تسبيراً عن امتنانها • فشاع الأمر • وبدأ لي أن
امراتى شعرت بسرور صادق حين علمت به •

ولكن الربيع كان يقبل ، وشارفنا على منتصف شهر نيسان (أبريل) ،
ونزعنا عن النوافذ مصاريعها المزدوجة ، وأخذت الشمس ترسل الى داخل
غرفتنا الصامتين أشعة دافئة قوية • ولكن غشاوة كانت لا تزال تثقل على
فكرى وتبث فيه الاضطراب • غشاوة قاتلة رهيبة ! فكيف حدث أن زالت
تلك الغشاوة فجأة ، فإذا أنا أرى كل شئ وأفهم كل شئ ؟ أكان ذلك
بمصادفة محضة ؟ أكان ذلك هو اليوم الذى حُدده القدر ؟ هل جاء شعاع من
شمس فأشعل فى فكرى المخبول تلك الفكرة ، وأثبت ذلك الاكتشاف ؟
لا ، لم يكن ذلك لا فكرة ولا اكتشافاً ، ولا بد أن شرياناً كان ساكناً
فتحرك ، أو أن وترأ كان جامداً فاهتز ، فإذا هو يضيء نفسه كلها على حين
فجأة ، وإذا هو يستثير كل خيالاتى الشيطانية • لقد انتفضت عندئذ
انتفاضة مباغتة ، مفاجئة ، لم تكن فى الحسبان أبداً • وقع الحادث فى
المساء ، الساعة الخامسة ، بعد العشاء •••

الغسالة التي سقطت

اليكم أولاً هاتين الكلمتين • كنت قد لاحظت لديها منذ شهر
اكتئاباً غريباً • لم يبق الأمر صمتاً بل صار اكتئاباً • ذلك أيضاً قد انكشف
لى فجأة • كانت جالسة تطرز مائلة على شغلها برأسها ، فلا ترى أنتى
أنظر إليها • فما كان أشد استغرابى ، على حين غرة ، حين رأيته مهزولة
ذلك الهزال كله ، نحيلة ذلك النحول كله ! كان وجهها شاحباً ، وكانت
شفتها باهتين لالون لهما • ذلك كله شدهنى بفتة الى أقصى حد ،
وكذلك ما يعبر عنه وجهها من أسى وحزن وكآبة • وكنت قد سمعت
ذلك السعال القصير الجاف يخرج من صدرها قبل الآن ، ولا سيما فى
الليل • فما ان رأيته هذه المرة على هذه الحال حتى مضيت الى الدكتور
شرودر فوراً دون أن أقول لها كلمة واحدة •

وجاء الدكتور شرودر فى الند • فدهشت هى من مجيئه دهشة
كبيرة ، فكانت نظراتها تتجه اليه تارة ، وتتجه الى تارة أخرى • وقالت
وهى تبسم ابتسامة لا يمكن تحديد معناها :

– ولكننى بخير •

لم يفحصها الدكتور شرودر طويلاً (ان لهؤلاء الأطباء أسلوباً فى
التعالى عليك أحياناً) ، واكتفى بأن قال لى فى الغرفة الأخرى ان هذا من
نقايا مرضها ، وانها لن يضرها أن تسافر فى الربيع الى البحر تستشق

هواه ، أو أن تمضى الى الريف فى أقل تقدير • أى انه لم يقل شيئاً ،
سوى أنها تعاني من فقر فى الدم ، أو شيء من هذا القليل •

وحين انصرف شرودر عادت تقول لى وقد لاح فى وجهها جد
شديد صارم :

— أنا بخير وعافية ، لست مريضة •

ولكنها حين قالت هذا الكلام اصطبغ وجهها بحمرة شديدة لعل
مردّها الى الحجل ، بل ان مردّها الى الحجل قطعاً ، فقد كان ذلك
واضحاً • آه • • • اتنى أدرك هذا الآن : كانت تشعر بخجل من اتنى لأزال
زوجها ، ، واتنى ما زلت أهتم بها اهتمام زوج حقيقى • ولكننى لم أفهم
من ذلك شيئاً حينذاك ، ونسبت احمرار وجهها الى شعورها بالمدلة
(آه من الفشاوة !) •

وهأنذا ، بعد انقضاء شهر على ذلك ، فى نحو الساعة الخامسة من
الأصيل ، فى يوم ساطعة شمس من أيام شهر نيسان (أبريل) ، كنت
جالساً فى مكتبى أجرى بعض الحسابات ، فاذا أنا أسمعها تدندن فى الغرفة
المجاورة ، أثناء عكوفها على تلحينها ، أغنية من الأغنيات بصوت رقيق
خافت • فكان من شأن هذا الشيء الجديد الذى لا عهد لى به منها أن هزنى
هزاً قوياً • نعم ، واتنى لم أفصح فى فهم هذا الأمر حتى هذا اليوم •
لم أكن قد سمعتها تغنى قبل ذلك ، اللهم الا فى الأيام الأولى من دخولها
ببى حين كنا لا نزال تشلى بتصويب المسدس واطلاق النار على هدف •
وكان صوتها فى ذلك الحين قوياً رخيماً ، وكان سليماً ومطرباً رغم ما يدل
عليه من ضعف الثقة بالنفس • أما الآن فان غناءها ضعيف أشد الضعف !
لن أقول انه غناء حداد (ولقد كانت الأغنية احدى الرومانسات) ،
غير أن من يسمعه يحس أن صوتها مهشم ، وكأنه لا يستطيع أن
يخرج من صدرها ، وكان الأغنية نفسها مريضة • كانت تغنى بصوت

خافت ، فما ان يرتفع صوتها فجأة حتى يتحطم ، وكان من شدة التحول والفقر أنه يتحطم تحطماً يمبراً عن الانتحاب ويثير الاشفاق • واعترتها نوبة سعال قصيرة ، ثم عادت تترنم بأغنيتها بصوت لا تكاد الأذن أن تسمعه من فرط خفوته ***

لسوف تضحكون تهكماً على احتياجي • ولكن لن يفهم أحد في يوم من الأيام لماذا استبدى انفعال شديد ا ان ما شعرت به لم يكن شفقة بعد • وانما كان ، في اللحظات الأولى على الأقل ، حيرة مفاجئة ، ودهشة رهبة ، دهشة رهبة عجيبة ، فيها ألم ، وفيها ما يشبه أن يكون حقداً ورغبة في الانتقام : « ماذا ؟ أنغنى بحضورى ؟ أنسيت اذن أننى هنا ؟ » •

بقيت في مكاني جامداً مضطرباً متحيراً ، ثم نهضت فجأة ، وخرجت كأننى ثبت الى رشدى • والحق أننى لا أعرف لماذا قمت ولا ماذا أنوى أن أعمل • ومّدت الى لوكيريا معطفى •

قلت أسأل لوكيريا بغير ارادة :

- أهى تغنى ؟

فلم تفهم لوكيريا ونظرت الى مرتبكة • وكان من حقها ألا تفهم ، فالواقع أنه ما كان لأحد أن يفهم ما بى • وأردفت أسأل لوكيريا :

- أهى تغنى أول مرة ؟

فأجابت لوكيريا بقولها :

- بل يتفق لها أن تغنى أثناء غيابك عن البيت •

لا يزال الباقي كله مائلاً في ذاكرتى • نزلت السلم ، وخرجت الى الشارع لأمضى الى أى مكان • سرت حتى زاوية الشارع ، وسرّحت طرفى • كان يمر ناس فيصدمونى ، فلا أحس بشيء • وناديت حوذاً ، وأردت أن يقودنى الى « جسر الشرطة » لا أدري لماذا • لكننى سرعان

ما عدلت عن هذه الفكرة ، فنقدت الحوذى عشرين كويكاً وأنا أقول له
منسماً إبتسامة بلها • :

— جزاء ازعاجك بغير فائدة •

ولكن قلبي ارتعش في تلك اللحظة بنوع من الحماسة •

رجعت الى البيت وأنا أغد الخطي • ان النعمات الحزينة من الأغنية
المحطمة قد ترجعت في نفسي على حين غرة • شعرت بأنفاسي تنقطع •
الغشاوة سقطت أخيراً عن عيني ، سقطت الغشاوة ! ما دامت قد غنت
بحضوري ، فمعنى ذلك أنها نسيت — الأمر واضح بقدر ما هو مريع •
أحس قلبي ذلك • ولكن الحماسة التي أشرفت في نفسي غلبت الروح •
يا لسخرية القدر ! هل كان في نفسي طوال ذلك الشتاء شيء غير تلك
الحماسة ، بل هل كان يمكن أن يوجد في نفسي طوال ذلك الشتاء شيء
غير تلك الحماسة ؟ فأين كنت أنا في ذلك الشتاء ؟ هل كنت مع نفسي ؟
صعدت السلم مسرعاً ، فلا أدري هل كان دخولي رزينا • كل ما أتذكره
هو أن الأرض كانت ترقص تحت قدمي ، وأنتي كنت أحس بنفسي
عائماً في نهر • دخلت الغرفة • كانت جالسة في مكانها وكانت تطرز
مائلة برأسها على شغلها • ولكنها قد انقطعت عن الغناء • ألقت على نظرة
سريعة خالية ، نظرة ليست نظرة ، وإنما هي تلك الحركة الآلية التي
ليس فيها اكتراث ، الحركة التي تجريها حين يدخل أحد الغرفة •

مضيت اليها قدماً ، وجلست بقربها على كرسى كالجئون •
فاذا هي تنظر الى فجأة مذعورة مرتاعة • تناولت يدها • ولا أتذكر
الآن ماذا قلت لها ، أو قولوا ماذا أردت أن أقول لها ، لأنني لم ألتح في
أن أرسل كلامي سليماً صحيحاً • وانجس صوتي ، وعقل لساني ،
فلم أعد أنطق بحرف • ثم انني كنت لا أدري ما غسانني أقول لها •
كنت أحتق احتشاقاً •

وفجأة تمتمت أقول لها ببلاهة :

— هلا تكلمنا .. قليلاً .. فولى لى شيئاً ..

نعم ، بهذه البلاهة خاطبتها ، ولكن هل كان يمكن أن أكون فى تلك اللحظة ذكياً ؟ فما ان نظرت الى وجهها لوجه حتى ارتعشت وترنحت من جديد ، واعتراها هلع شديد . ولكن « اندهاشاً قاسياً » لم يلبث أن ارتسم على وجهها . نعم ، كان ذلك اندهاشاً ، وكان قاسياً . نظرت الى وقد اتسعت حدقتاها . فسرعان ما صعقتنى تلك القسوة ، سرعان ما صعقتنى ذلك الاندهاش القاسى . كان ذلك الاندهاش كأنه يسألنى رغم صمتها : « أما زلت اذن تطلب حباً ؟ حباً ؟ » ، قرأت ذلك فى وجهها رغم أنها لم تقل شيئاً . فاذا كل شئ فى نفسى يهتز ، واذا أنا أهوى على قدميها . نعم ، تهالكت على قدميها . فنهضت بوثة واحدة ، ولكننى بقوة خارقة أمسكتها من ذراعيها .

ذلك أننى كنت أدرك ما أنا فيه من كرب ويأس ادراكاً كاملاً . آه ... نعم ، كنت أدركه ! ومع ذلك — هل تصدقون ؟ — كانت الحماسة تغلى فى قلبى غلياناً يبلغ من القوة والصرامة التى لا سبيل الى قمعها أننى اعتقدت بأن حبنى قد حان ، وأنى أموت . طفقت ألتئم قدميها سكرأ ونشوة وسعادة . نعم ، سعادة طافحة ، لا نهاية لها ، على علمى بأننى صرت الى يأس لا مخرج منه . وكنت أبكى ، وأتكلم دون أن أجد الى الكلام سيلاً . فاذا بالارتبايع والدمشة يحل محلها عندها قلق وتساؤل ، فتتظر الى وقد لاح فى وجهها استغراب ، وحتى توحش . كانت تريد أن تفهم شيئاً بأقصى سرعة ، وكانت تبسم . ولقد أشعرها بخزى رهيب أن رأتنى أقبل قدميها ، فسحبتهما ، ولكننى قبلت عندئذ الموضع الذى كانت فيه قدماهما من الأرض . فلما رأت هذا ضحكت شعوراً منها بالحجل والخزى (هل رأيتم أحداً يضحك شعوراً منه بالحجل والخزى ؟) . وأوشكت أن تضربها نوبة عصبية . رأيت ذلك . كانت

يدأها ترتجفان • ولم أحترس ، فظلمت أتممت قائلاً انى أحبها ، وانى
لن أكف عن حبها ؟ وأضفت أقول : « دعينى أقبل ثوبك هكذا
سأقضى حياتى كلها مصلياً لك ، ضارعاً اليك » نسيت الآن ما قلته
لها أيضاً • وانى لكذلك ، اذا هى تنفجر ناشجة منتحبة ، وتأخذ ترتعش •
هذه نوبة عصبية تنزيها • لقد روتها •

نقلتها الى السرير • فلما انتهت النوبة ، جلست على سريرها وقد
بان فى وجهها ارهاق شديد واعياء قوى ، وأمسكت يدى ، وأخذت
تتوسل الى أن أهدأ ، وتقول لى : « لا تعذب نفسك ، هدىء بالك ، »
ثم استأنفت بكاءها • لم أتركها طوال المساء • وظلمت أقول لها انى سأخذها
الى بولونى لنستحم فى مياه البحر ، وانى سأفعل هذا الآن ، على الفور ،
بعد خمسة عشر يوماً ؟ وانى قد سمعت فى صوتها بالأمس من التحول
والتكسر والتحطم ما يجعلنى أقصر أن أغلق المكتب ، وأيمسه الى
دوبرونرافوف ؟ واتما سنبدأ كل شىء بدءاً جديداً ، واتما سنسافر خاصةً
الى بولونى ، الى بولونى ! فكانت تصفنى الى كلامى ولا تكف عن
الارتياح ، وكان الجزع يجتاحها أكثر فأكثر • على أن أهم شىء فى
نظرى لم يكن هو هذا ، وانما كانت تستبدى من جديد رغبة عارمة
قوية ما تنفك تشدد وتعنف فلا سبيل الى مقاومتها ومغالبتها ، وهى أن
أرتعى على قدمى زوجتى مرةً أخرى ، وأن آخذ بتقبلها من جديد ،
وأن أألم الأرض التى وطئتها قدماها ، وأن أرجوها مردداً فى كل لحظة
« لا أألمس منك الا شيئاً واحداً .. لا تحيينى ، لا تلقى بالاً الى » ،
لا تكثرنى بى .. ولكن دعى لى أن أنظر اليك من الركن الذى أقع فيه ،
اجعلينى متاعاً لك ، عدينى شيئاً من أشيائك ، احسينى كلبك الصغير ! ،
وكانت تبكى • وأملت منها قولها بغير أن تريد ذلك :

– « كنت أقدر أن تتركنى على هذه الحال » •

قالت ذلك على غير ارادة منها ، ولعلها لم تسمع ما قالته • ولكن

هذا الذى قالته كان أخطر كلامها شأنًا ، وأشدّه شؤمًا ، وأكثره استغلافًا على الفهم طوال السهرة ، وكان أشبه بطعنة نفذت فى قلبى حين سمعته ! لقد أوضحت لى تلك الجملة كل شيء ، كل شيء ولكننى أثناء وجودها بقربى أمام عينيّ ، لم يكن فى وسعى أن أفقد الأمل ، حتى لقد كنت أستشقى غير مساعدة لا حدود لها . آه . . . كنت فى ذلك المساء أرهاقها تعبًا ، وكنت أدرك ذلك ، ولكننى لا أنفك أحلم بأن أصلح كل شيء على الفور ! وحين هبط الليل أخيرًا ، خارت قواها وانهارت انهيارًا . فأقمتها بأن تسام ، فسرعان ما نامت نومًا عميقًا . وكنت أتوقع أن تهذى ، فهذت فعلاً ، ولكن هذيانها كان خفيفًا . ولبثت الليل كله أقوم فى كل لحظة ، فاقرب منها ببابوجين دون أية ضجة ، لأنظر إليها ، وأتأمل وجهها . فكنت حين أرى هذا الكائن الصغير المريض ، الراقذ على ذلك المضجع هناك ، على ذلك السرير المصنوع من حديد الذى اشتريته لها بثلاثة روبلات ، لا يسعنى إلا أن أعقف يديّ أسفًا وحسرة . وكنت أجثو على ركبتى ، دون أن أجرو مع ذلك على أن أقبل قدمى النائمة (ولو فعلت لكان ذلك يخالف ارادتها ويسوؤها) . وكنت أحاول أن أصلّى لله ، ولكننى لا ألبث أن أنهض بوثبة . وكانت لوكيريا تنظر الىّ ، ولا تنفك تخرج من المطبخ . فمضيت إليها ذات مرة وطلبت منها أن تنام ، وقلت لها ان كل شيء « سيّدارك فى غد ومبتغير » .

وذلك ما كنت أومن بها إيمانًا أعمى ، إيمانًا مجنونًا . آه . . . كانت الحماسة تغمر قلبى ، تغرق قلبى ! كنت لا أنتظر إلا أن يجيء الغد . والأنكى من ذلك أننى كنت لا أتصور أن تنزل بنا مصيبة ، لأننى كنت لا أرى شيئًا يندر بذلك . لم أكن قد استرددت رشدى كاملاً ، رغم أن الغشاوة تمزقت . ومضى وقت طويل قبل أن أسترده رشدى كاملاً ، وقت طويل امتد الى هذا اليوم ، بل اننى حتى فى هذا اليوم لم أصحّ صحوًا تامًا . وأين لى أن أصحو صحوًا تامًا فى ذلك الحين ؟ ألم تكن

لا تزال حية ، هي أمامي وأنا أمامها ؟ « غداً تستيقظ ، فاحكي لها كل شيء ، وتكتشف كل شيء » . تلکم كانت خواطرى فى ذلك الوقت ، واضحة كل الوضوح ، بسيطة أشد البساطة ، ومن ثم كانت تتبع حماسى الغامرة الفياضة ، وكانت فكرة السفر الى بولونى خاصة توجع تلك الحماسة تأججا شديداً ، اذ كنت أتصور - لا أدري لماذا - أن بولونى كل شيء ، وأن فى بولونى مستقراً لكل شيء . « الى بولونى ، الى بولونى ! »

وعلى هذه الحال من الحرف والهديان ، انما كنت أنتظر طلوع الفجر .

فهمت كل الفهم

ما رأيكم في أن هذا انما وقع منذ بضعة أيام فحسب ، منذ خمسة أيام ليس غير ، في يوم الثلاثاء الماضى ؟ نعم نعم ، لو أنها انتظرت بعض الانتظار على الأقل ، لو أنها تريت قليلاً ، لو أنها تمهلت شيئاً من التمهّل ، اذن لاستطعت أن أبدّد جميع الظلمات . ألم تكن قد هدأت ؟ بلى . لقد أصبحت منذ الغد تصفى الى مبتسمة رغم حيرتها وارتباكها . ان ما كنت ألاحظه فيها طوال ذلك الوقت ، طوال تلك الأيام الخمسة ، انما هو الحيرة والارتباك خاصة ، أو هو الحجل والحياء . وكانت خائفة أيضاً ، كانت خائفة خوفاً كبيراً . لا أنكر هذا . لست معجوناً فأزعم النقيض . كان ذلك خوفاً . ولكن كيف كان يمكن ألا تخاف ؟ كنا قد عشنا غريبين أحدهما عن الآخر ، بعيدين أحدهما عن الآخر ، مدة طويلة ، وحدث كل ما حدث مبالغاً أشد المبالغة . . . ولكننى لم أكثر بمخاوفها : ان فجراً جديداً يطلع ! والحق أننى ارتكبت خطأ فاحشاً . ذلك حق لا يمكن أن أمارى فيه . لقد ارتكبت خطأ منذ استيقظنا فى الغد ، ذلك الصباح نفسه (يوم الثلاثاء) : أسرعت أعاملها كما تعامل صديقة . تعجلت . أسرفت فى التعجل . ولكن كان لابد لى من أن أعترف لها ، كان لا غنى لى عن هذا الاعتراف . لا أقلّ من الاعتراف ! وهكذا بحث لها بما أخفيته حتى عن نفسى . بما أخفيته عن نفسى طول حياتى . قلت لها فجأةً اننى خلال هذا الشتاء كله كنت واقعاً بحبها ؟ وكشفت لها عن

أن مكتب الاقتراض هذا ليس لوجوده من سبب الا ضعف ارادتي وقلة ذكائى ، وانه اسلوب ابتكرته لمعاينة نفسى والمباهاة بها فى الوقت نفسه . وذكرت لها أن ما 'وصفت' به من جبن لم يكن تجنياً على بل كان حقاً ، اذ لقد جئت فعلاً فى بوفيه المسرح ، لأننى رجل خائر العزيمه سىء الظن شديد المحاذرة ؛ وكان الجو الذى يحيط بى ، والبوفيه ، وكل ذلك ، قد ملأنى دهشة . ثم هذا الأمر أيضاً : كيف كان يمكن أن أخرج من هذه الورطة دون أن أبداً للناس سخيفاً مضحكاً ؟ ان خوفى لم يكن من المصارعة ، بل من أن أظهر للملأ سخيفاً مضحكاً . ثم اتى لم أشأ أن أوافق على المصارعة ، فأخذت أعذب جميع الناس ، فعذبتهامى أيضاً بسبب ذلك ، وتزوجتها بعدئذ من أجل أن أعذبها . الخلاصة أن أكثر كلامى لها كان كالهذيان . فأمسكت يدي ، وضربت الى أن أسكت ، قائلة : ' انك تبالع ، انك تعذب نفسك ، ' وطفقت تبكى من جديد ، وأوشكت أن تعثر بها نوبة عصبية أخرى ! وكانت لا تفك ترجونى أن أسكت وألا أثير هذه الذكريات .

ولكننى أغضيت عن ضراعاتها ولم أحفل بها ، وظللت أحدثها عن الربيع وبولونى قائلاً : هناك ستشرق الشمس . . . هناك ستألأ شمسنا الجديدة . وكنت لا أقول لها شيئاً غير هذا ! وأغلقت المكتب ، وعهدت بالعمل الى دو برنار فوف . واقترحت عليها فجأة أن نوزع كل شىء على الفقراء ، الا الثلاثة آلاف روبل التى ورثتها من عرايتى ، فهذا المبلغ نساقر الى بولونى ، ثم نرجع من بولونى لنبداً حياة عمل جديدة . على هذا اتفقنا ، لأنها لم تعرض بشىء ، لم تقل شيئاً ، واكتفت بالتبسم . وأظن أنها كانت تبسم كياسةً ولباقةً حتى لا تؤلمنى . وكنت أرى رؤية واضحة أنتى أتعبها . لا تظنوا أننى بلغت من الأنانية والحماقة حدأ يجعلنى لا ألاحظ ذلك . لقد رأيت هذا كله ، رأيت به بأدق التفاصيل . كنت

أرى وأعلم أكثر من أى انسان فى العالم • وكان يأبى كله مائلاً أمامى
تحت بصرى •

طفقت لا أحدثها الا عنها وعننى • وعن لوكريا • قلت لها اننى
بكيت • وعرفت كيف أحرف الحديث عن مجراه • حرصت على أن
لا أثير ذكرى بعض الأمور • حتى ان هبتها قد انتمشت مرة أو مرتين •
أذكر هذا ، أذكر هذا ! ما بالكم تزعمون أننى كنت أنظر فلا أرى
شيئاً ؟ ولو أن ذلك ، على الأقل لم يحدث ، لكان هذا ابهائاً • ألم
تقصص علىّ فى غداة الغد ، حين جرى الحديث على القراءة وعلى ما قرأته
أثناء هذا الشتاء ، ألم تقصص علىّ ، وهى تضحك لهذه الذكرى ، مشهد
« جبل بلاس » مع رئيس أساقفة غرناطة ؟ وما كان أروع ضحكها ! كان
كضحك طفلة صغيرة ، ذكرنى بضحكها أيام الخطوبة (مدة لحظة ،
لحظة واحدة) • آه ما كان أسعدنى ! ومع ذلك لم تدهشنى قصتها عن
رئيس الأساقفة • وقلت لنفسى : معنى هذا أنها استطاعت فى خلال هذا
الشتاء أن تسترد كثيراً من هدوء البال والطمأنينة والسعادة ، حتى أخذت
تسلى بقراءة أثر من عيون آثار الأدب • معنى ذلك أنها أخذت تألف
الوضع وتتلاءم مع الظروف ، وأنها أخذت تؤمن حتماً بأننى سوف أتركها
« على تلك الحال » • لقد قالت لى فى يوم الثلاثاء ذاك : « كنت أظن أنك
مستركنى على هذه الحال » • تلك فكرة تراود خاطر صبية صغيرة فى
العاشرة من العمر ! كانت تعتقد فعلاً - كانت تعتقد بذلك - بأن كل شيء
سيبقى على تلك الحال ••• أجلس أنا الى مائدتى ، وتجلس هى الى
مائتها ، ونبقى على هذه الحال الى سن الستين • ثم هأنذا أتدخل تدخل
زوج • والزوج يطلب أن تحبه زوجته • فذلكم كان سوء فهمى • وتلكم
كانت عماوتى !•••

وكان خطأ آخر هو أننى كنت أتأملها فى حماسة • كان ينبغي لى أن
أكبح زمام نفسى ، لأن حماسى أخافتها • ولكن ألم أكبح زمام نفسى

حين كنت أمتنع عن لثم قدميها ؟ وما من مرة هممت هياً
قلها نعم ما من مرة هممت أن أفعل ما يفعله زوج . حتى ان
ذلك لم يخطرلى على بال ؛ وكانت شفتاى لا تتحركان الا بالضراعة
والرجاء .

على أننى ما كنت لأستطيع أن أسكت سكوتاً تاماً فما أنطق بكلمة !
لذلك رأيتنى أعترف لها فجأة بكل المسرة التى أجنيها من حديثها ، وأعبر
عن مدى ما أكنه من احترام لها وأصفها بأنها تفوقنى أدباً وثقافة فلا وجه
للمقارنة بينى وبينها فى مضمار الأدب والثقافة . فاصطبغ وجهها بحمرة
شديدة ، وخجلت خجلاً قوياً ، وقالت انى أبالغ . وفقدت عندئذ سيطرتى
على نفسى ، فاذا أنا أرتكب حماقة كبرى ، فأصف لها ما شعرت به من
سورات الحماسة حين كنت واقفاً وراء الباب أتنصت على الهجوم الذى
شنته طهرها على ذلك الرجل السخيف المضحك ، وأصف لها ما ذقته من
لذة عاطفية حين كنت أسمع عباراتها اللاذعة ، وأشهد براءتها الساذجة .
فاذا هى يسرى فى جسمها كله ما يشبه أن يكون رعدة ، واذا هى تهم
أن تقول اننى أبالغ ، ولكن وجهها لم يلبث أن اكفهر واربد ، ثم أمرعت
تدفن رأسها فى يديها وتنفجر باكية فلم أستطع عندئذ أن أكبح
جماح نفسى ، فاذا أنا أركع من جديد ، وأهوى على قدميها ألتئمها ، واذا
بهذا كله ينتهى بنوبة عصية أخرى تعتربها كما اعتربتها نوبة عصية فى
المرّة الأولى . حدث ذلك فى العشية ، حتى اذا طلع الصباح

الصباح ؟ يا لى من مجنون ! ان ذلك الصباح هو هذا اليوم ،
هو اليوم الذى نحن فيه ، هو منذ برهة ، منذ برهة

اصفوا الى ، وتابعوا ما أقوله . منذ مدة وجيزة ، حين افترقنا عقب
تناول الشئى (حدث هذا بعد النوبة العصية التى اعتربتها أمس) ،
أدهشنى ما رأيته فيها من هدوء . تلكم كانت حالنا . وكنت من جهتى قد
قضيت الليل كله أرتعش وأرتجف تحت وطأة مشهد الأمس . ولكنها

اقتربت منى على حين فجأة ، وضمت ذراعيها احدهما الى الأخرى ابتهالاً (منذ قليل ، منذ قليل !) وأخذت تقول لى انها مجرمة وانها لا تجهل ذلك ، وان جريمته قد عذبها طوال الشتاء ولا تزال تعذبها الى الآن ... وانها تقدر شهادتى ومروءتى قدراً عظيماً ... وأضافت تقول : « لسوف أكون خليلتك الوفية ، وسوف أقدسك تقدساً » . فما ان سمعت هذا الكلام حتى امتنعت ، وهجعت أعانقها بذراعى كالجنون ! وقبلتها ، قبلت وجهها وشفتيها ، تقبل زوج زوجته ، لأول مرة منذ انفصالنا الطويل .

لماذا خرجت بعد قليل لأعيب عن البيت ساعتين ؟ خرجت لأنجز اجراءات جوازى^١ سفرنا الى الخارج . آه ... يا رب ! لو أتنى رجعت قبل خمس دقائق لا أكثر ... اذن لكان يمكن ألا يحدث ما حدث ! ولكن هأنذا أرجع الى البيت ، فأرى أمام بابنا حشداً كبيراً من الناس ، وأرى الأبصار كلها تشخص الى^٢ آه ... رباه !

وتقول لى لوكيريا (الآن لن أدع لوكيريا تنصرف بحال من الأحوال . انها تعرف كل شيء . بقيت عندنا الشتاء كله ، فسوف تقص على^٣ ما تعرف) ، تقول لى لوكيريا انها ، بعد خروجى من البيت بعشرين دقيقة فى أكثر تقدير ، دخلت على مولاتها فى غرفتنا فجأة لتسألها عن أمر من الأمور ، فلاحظت أن الأيقونة (أيقونة العذراء تلك نفسها) لم تكن فى مكانها ، وأن مولاتها كانت قد وضعت الأيقونة أمامها على المائدة ، وأن مولاتها كان يبدو عليها أنها صلت للأيقونة فى تلك اللحظة نفسها . قالت لى لوكيريا : سألتها : « ما بك يا سيدتى ؟ » ، فأجابتنى : « لا شيء يا لوكيريا ، اذهبنى لتسألك ، بل انتظرى يا لوكيريا » . وتهدمت منى وقبلتنى . سألتها : « هل أنت سعيدة يا سيدتى ؟ » فأجابتنى : « نعم يا لوكيريا » . قلت : « كان ينبغي لمولاي أن يطلب منك العفو منذ مدة طويلة ... الحمد لله على أنكما تصالحتما » . قالت : « طيب يا لوكيريا ،

اذهبي الآن لشأنك يا لوكيريا . • وابشمت مرة أخرى ، ولكن ابتسامتها كانت غريبة . • كانت من الغرابة بحيث ان لوكيريا رجعت بعد عشر دقائق لترى ماذا كانت تفعل . • كانت مكبسة على الحائط بقرب النافذة ، قد أسندت اليه احدى ذراعيها وأسندت الى الذراع رأسها . وبقيت على هذه الحال مستغرقة في أفكارها ، حتى لقد بلغت من شدة الاستغراق أنها لم تلاحظ أنني لبثت في الغرفة أنظر اليها . ورأيت في وجهها ما يشبه الابتسام ، ورأيتها تفكر ثم تبسم . نظرت اليها ملياً ، ثم استدرت في رفق وهدهوء ، وخرجت واجمة مفكرة ، فاذا أنا أسمعها تفتح النافذة فجأة . فرجعت لأقول لها : « الهواء بارد يا سيدتى ، فحذار أن يصيبك برد » ، لكننى رأيتها ترتقى حافة النافذة المفتوحة ، وتقف عليها منتصبه القامة ، مديرة ظهرها الى ، محتضنة الأيقونة بيديها . فهبط قلبى فرعاً وصرخت : « سيدتى ! سيدتى ! » ، فسمعت صوتى ، وتحركت لتلتفت نحوى ، ولكنها لم تلتفت ، بل ترجعت ، وشدت الأيقونة الى قلبها ، ملقية بنفسها من النافذة ! • •

أذكر أنني حين اجتزت بوابة الفناء كان جسمها لا يزال حاراً . وأهول ما فى الأمر أن جميع الناس كانوا ينظرون الى . • سمعت أول ما سمعت صرخات وصيحات ، ثم صمت المحتشدون كافةً وتحوا عن طريقى ليفسحوا لى ممراً . كانت راقدة هناك ، قابضة على الأيقونة . أذكر ، كما يذكر المرء رؤية فى ظلمات ، أنني تقدمت صامتاً ، وتأملتها ملياً . كان الجمهور قد ابتعد ، وكان يقال لى شىء ما . وكانت لوكيريا هناك ، لكننى لم أبصرها . يقال لى انها كلمتى . اننى لا أتذكر الا ذلك البائع الذى كان لا ينفك يصيح قائلاً لى : « خرج من فمها خيط نحيل

من دم ، خيط ، خيط من دم ! ، ، وكان يشير لى الى الدم هناك على
الحجر . وقد لمست الدم فطلبت به أصبعى (أذكر هذا) ، بينما كان
البائع لا يزال يصيح « خيط تحيله من دم ا ، ، فما كان منى الا أن زأرت
زئيراً شديداً فى أغلب الظن ، وشهرت قبضتى يدى ، وهويت عليه
آه يا للمحادث القاسى ، الأليم ! سوء فهم ! غلطة ! شىء لا يعقل
حدوثه ! شىء مستحيل !

بسبب خمس وثلاثين من النساء

أأكون واحداً؟ هل هذا كله 'يعقل' حدوثه؟ هل يمكن أن يقول أحد ان مثل هذا الأمر ممكن؟ لماذا ماتت هذه المرأة؟

صدقوا اننى أفهم الأمر • ولكن سبب موتها ••••• يظل سؤالاً قائماً •
لقد خافت من حبى • تساءلت جادةً : « أيجب أن أقبله أم لا ؟ » • فلما
لم تطلق احتمال هذا السؤال ، أثرت أن تموت • أنا أعرف ذلك ، أعرفه ،
فلا حاجة الى أن أصدّع رأسى • لقد تورطت فى وعود مسرفة ، وخشيت
ألا تستطيع الوفاء بها ••• الأمر واضح • تضافرت ظروف رهبة •
هذا كل شيء •

ذلك أنتى أفساد حقاً لماذا ماتت ؟ لا يملك المرء الا أن يعود الى
هذا السؤال • والسؤال قائم تحت جميعتها ينبض ويخفق • لقد كان
يمكننى أن أدعها على « تلك الحال » ، ما دامت هذه هى رغبتها •
ولكنها لم تصدقنى • وتلك هى حقيقة الأمر كله • لا ، لا ، اننى أكذب :
ما هذه هى حقيقة الأمر • بل حقيقة الأمر أنها كان سيجب عليها فى
المستقبل أن تحبى حباً صادقاً ، حباً كاملاً تاماً ، لا كالحب الذى كانت
ستهبه للبقال • ولكنها كما كانت أعف وأطهر من أن ترتضى هذا النوع
من العاطفة التى تلاثم بقالاً ، قد رفضت أن تنشئ وتخدعنى • لم تنشأ
أن تنشئ وتخدعنى بأن تهب لى نصف حب أو ربع حب فى حلة حب

كامل . كانت شريفة مسروقة في الشرف ، وكانت مستقيمة مغالية في الاستقامة . ذلك هو الأمر كله ! ألا ما كان أغباني حين أردت أن أعلمها رحابة الفكر ، هل تتذكرون ؟ فكرة غريبة عجيبة !

وهناك نقطة يهمني كثيراً أن تتضح لي : ترى هل كانت تعتبرني ؟ لا أدري أكانت تحقرني أم لا . ولكنني لا أعتقد مع ذلك أنها كانت تحقرني . شيء غريب ! لماذا لم يخطر على بالي في يوم من الأيام طوال الشتاء أنها ربما كانت تحقرني ؟ لقد بقيت إلى آخر لحظة ، إلى اللحظة التي نظرت إلى فيها « بدهشة قاسية » ، بقيت على يقين تام بنقيض ذلك . وحينذاك انما أدركت فجأة أنها تحقرني . فهمت ذلك مرة إلى الأبد . آه ! أي ضير ، أي ضير في أن تظل تحقرني طوال حياتها شريطة أن تبقى حية ، أن تبقى حية ؟ انني لا أفهم أن تكون قد ألفت نفسها من النافذة ! منذ قليل كانت تمشي ، وكانت تتكلم ! وكيف كان يمكنني أن يخطر ببالى ما عقدت نيّتها عليه ، ولو قبل خمس دقائق ؟ لقد ناديت لوكيريا . لن أدع لوكيريا ترحل ، لا ، لن أدعها ترحل بحال من الأحوال .

أواه ! كان لا يزال في إمكاننا أن نتفاهم . صحيح أننا كنا في أثناء هذا الشتاء قد فقدنا كثيراً تعود أحدهما على الآخر وألفته له ، ولكن ألم يكن في وسعنا أن نسترد ذلك التعود وتلك الألفة ؟ ان نفسي نبيلة سامية - وكذلك نفسها - فكان يمكن أن يكون هذا نفسه نقطة الاتصال والالتقاء ! لو تبادلنا بضع كلمات أخرى ، لو تريت يومين آخرين ، يومين لا أكثر ، لكان يمكن أن تفهم كل شيء .

أنكى ما في الأمر أن هذا كله نمرة المصادفة ، نمرة مصادفة عيياء ، قاسية ، وحشية ، غادرة . ياله من ظلم وجور ! خمس دقائق ، لا أكثر من ذلك ، خمس دقائق من تأخر ! لو أنني رجعت قبل خمس دقائق ، لانقضت اللحظة المشثومة كما ينقض حلم ، ولما خطر الأمر ببالها بعد ذلك في يوم من الأيام . كانت ستفهم في النهاية . وبدلاً من ذلك ، هاهي

ذى الغرف تقفر من جديد ، وهأنذا أبقي وحيداً مرة ثانية ؟ هل تسمعون
دقات الساعة ؟ ان الساعة لا يهمها الأمر انها لا تأسف لشيء ولا تتحسر
على شيء . آه . . . ألا يكون للانسان أحد فى هذا العالم . . . يا له
من حزن !

اننى أسير ذاهباً آيباً ، ولا أزيد على أن أذهب وأؤوب . أعلم
ما يدور فى أذهانكم ، أعلمه ، فلا حاجة بكم الى أن تقولوه : انه يبدو
لكم أمراً سخيلاً مضحكاً أن ترونى آسفا لمصادفة هذه الدقائق الخمس ؟
ولكن أسفى شيء يدركه الانسان بداهة . تذكروا أنها لم تترك حتى
ورقة تعلن فيها أنه لا ينبغي اتهم أحد بأنه سبب موتها ، كما يفعل ذلك
جميع من يتحرون . ألم يكن فى وسعها أن تقدّر أن من الممكن اطلاق
لو كيريا وازعاجها ، كأن يقال لها : « كنت وحيدة معها ، فلا بد أنك أنت
التي دفعتها . » على كل حال ، كان يمكن اعتقال بريئة لولا أن كان فى
فناء المنزل أربعة أشخاص رأوا من الخارج ومن نوافذ البيت كيف كانت
واقفة على النافذة محتضنة الأيقونة ، وكيف ألقت نفسها بنفسها الى تحت .
وانها لمصادفة على كل حال أن كان فى الفناء أشخاص رأوها . لا ، لا ،
ان ذلك كله هو ثمرة لحظة ، ثمرة لحظة من عدم الشعور بالمسئولية .
نزوة مباغتة ! لماذا كانت تصلى أمام الأيقونة ؟ ليس معنى هذا أنها كانت
تنوي الموت . لعل المدة التي قضتها مكبة على الحائط ، مسندة رأسها
الى يديها ، مبتسمة ، لم تطل أكثر من خمس عشرة دقيقة ، فإذا هى
تتخذ قرارها . انها فكرة برقت فى رأسها ، فاعتراها دوار ، ولم تستطع
أن تقاوم نداء الانتحار .

هو سوء فهم لا أكثر . كان لا يزال فى وسعها أن تعيش معي .
ولكن ماذا اذا كانت مصابة بفقر الدم ؟ ماذا اذا كان مرد الأمر الى الأنيما
وحدها ، الى نضوب قوة الحياة ليس غير ؟ يكون الشتاء قد أتعبها وأضناها ،
فإذا هى . . .

لقد تأخرتُ !!!

ما أشد ما يبدو جسمها ناعلاً في التابوت ! ما أشد ما يبدو أنفها رقيقاً ! وإن أهدابها تبدو أشبه بسهام . حين سقطت على الأرض لم تصب بجرح ولا كسر ! لم يظهر الا ذلك « الحيط النحيل من الدم » . ان الدم الذي نرف منها يملأ ملعقة قهوة في أكثر تقدير . كانت الإصابة داخلية . فكرة غريبة تخطر ببالى : لو أمكن ألا تدفن ؟ ذلك أنها اذا أخذت منى . فسوف . . لا ، لا . . انه يستحيل تقريباً أن تؤخذ منى . آه . . اننى أعلم حق العلم مع ذلك أنها لا بد أن تؤخذ . ما أنا بمجنون ، ولست أهذى . بالعكس : ما كان فكرى فى يوم من الأيام صاحباً كصحوه الآن . ولكن ما معنى أن اليت عاد مقفراً ليس فيه أحد ، ما معنى أنه لم يبق الا غرفتان ، وأننى قد عدت وحيداً مع الأشياء المرحونة ؟ كابوس ! كابوس ! هذا هو الكابوس !

ما قيمة قوانينكم عندي بعد الآن ؟ بل فى أى شيء تنفعنى عاداتكم وتقاليدكم وأدابكم وأخلاقكم وحياتكم ودولتكم ودينكم ؟ ما قيمة أن تحكم على محاكمكم ؟ ألا فلأجر للمثول أمام القضاة ، ولأستجوب ، فأقول اننى لا أقر شيئاً من ذلك كله . ولسوف يزأر القاضي عندئذ قائلاً لى : « امسك ، أيها الضابط ، فأصرخ أما قائلاً له : « من أين لك هذه السلطة التى تجبرنى على طاعتك ؟ لماذا قتلت مصادفة عمياء أعزَّ انسان على قلبى ؟ ما فائدة قوانينكم كلها . اننى أنسحب » . نعم ، لا يهمنى . سأعزل .

عماوة ! عماوة ! انها ميتة . انها لا تسمع ! ألا تدرين بأية جنة كان يمكن أن أحيطك ؟ كانت الجنة فى قلبى ، وكان يمكن أن أنقلها اليك فتحف بك . ولكن كان يمكن ألا تجيبنى ؟ قلنضرض هذا . كان يمكن أن تبقى الأمور على « تلك الحال » . ولكن كنت ستحكين لى ، كما يحكى صديق لصديقه ، شئونك الصغيرة ، وكنا سنبتهج ، وكنا سنبتسم

بينما ينظر كل منا فى عينى صاحبه فرحاً مرحاً • هكذا كان يمكن أن نعيش • واذا أحببت رجلاً آخر • ما كنت سأهتم أو أكره • كنت مستذهين معه • وكنت سبتسمين • وكنت أنا سأحوّل بصرى الى جهة أخرى من الشارع • • • آه • • • ما قيمة هذا كله • بشرط أن تفتح عينها من جديد مرة واحدة ! لحظة واحدة • لحظة وحيدة ! وتنظر الى • • • كما كانت تنظر الى • • • منذ قليل واقفة تحلف لتكونن • • • الى خلية وفيه • • • آه • • • ان فعلت أدركت كل شيء بنظرة واحدة !

يا للمقدر ! يا للطبيعة ! ان المرء وحيد على هذه الأرض • ذلكم هو الشقاء • ان المجنون الروسى الذى تحدثت عنه الأسطورة يهتف سائلاً : « هل هنا أحد حى ؟ » • وائى لأهتف أنا أيضاً • أنا الذى لست مجذوماً • فلا يجيبنى أحد • يقال ان الشمس تحيى الطبيعة • ان الشمس تطلع • انظروا اليها • • • أليست كأنها ميتة ؟ كل شيء ميت • ليس فى كل مكان الا أموات • الانسان وحيد • كل ما حوله صمت • تلکم هى الأرض ! • أيها البشر • أحبوا بعضكم بعضاً • • من الذى نطق بهذه الكلمات ؟ من أين يأتى هذا النداء ؟ من حمل هذه الرسالة ؟

ساعة الحائط تدق بغير احساس • دقاً رتيباً منفراً • هى الساعة الثانية من الفجر • حذاءها الصغيران تحت السرير • كأنهما ينتظران • أواه ! ما عسانى أصير حين يأخذونها غداً • قولوا : ما عسانى أصير !

حلم و جمل و فنون

۱۸۷۷

«حلم رجل مضحك» نشرت هذه القصة أول مرة في مجلّة
شهر نيسان (أبريل) ١٨٧٧ من «يوميات كاتب» (الفصل
الثاني)

الحياة عجيبه

أنا رجل مضحك • يقولون الآن انى مجنون • يكون هذا لقباً أعلى
لو أننى مازلت فى نظرهم مضحكاً • لكننى لن أزعج بعد الآن • فجميع
الناس لطاف فى معاملتى ، حتى حين يستهزئون بى ويتهكمون علىّ ،
بل هم ، حين يستهزئون بى ويتهكمون علىّ ، كأنهم أطف وأرق •
لولا أننى أشعر بحزن شديد حين أتأملهم ، لسرّنى أن أشاركهم
الضحك ، لا على نفسى ، بل حرصاً على أن أسرّهم • اننى أحزن حين
أرى أنهم لا يعرفون الحقيقة ، الحقيقة التى أعرفها أنا • ما أشق أن يكون
المرء هو الوحيد الذى يعرف • ولكنهم لن يفهموا • لا ، لن يفهموا •

فى الماضى كان يؤلنى كثيراً أن أبدو مضحكاً • وأنا لم أكن أبدو
مضحكاً ، بل كنت مضحكاً • لقد كنت طول حياتى مضحكاً ، وأنا أعلم
أننى وُلدت مضحكاً فى أكبر الظن • لعل سُنّى كانت سبع سنين حين
علمت أننى مضحك • ثم درست بعد ذلك فى المدرسة الثانوية ، وفى
الجامعة ، فكنت كلما أوغلت فى الدراسة مزيداً من الايغال علمت مزيداً
من العلم أننى مضحك • حتى لكأن علمى الجامعى كله لم يوجد
الا ليبرهن لى ويشرح لى أننى مضحك كلما ازددت تعمقاً له ، وتوغلاً
فيه • وكان شأن الحياة كشأن العلم فى هذا • فكنت ، سنةً بعد سنة ، أزداد
يقيناً بأننى أبدو شخصاً مضحكاً من جميع النواحي • لقد ضحك منى

واستهزأ بى جميع الناس فى كل مكان وكل زمان . ولكن ما من أحد منهم خطر بباله أنه اذا وجد فى هذا العالم انسان يعرف أكثر من سائر الناس أننى مضحك ، فهذا الانسان هو أنا . لذلك كنت أشعر بنوع من الأسف والحسرة حين أرى أن أحداً لا يخطر له هذا على بال . والذنب فى هذا ذنبى ، لأن خيالى منعتنى دائماً من الاعتراف بسرّى . وكانت هذه الخيلاء تزداد مع تقدمى فى السن ، فلو اتفق ان انسقت فى يوم من الأيام فاعترفت لأحد من الناس ايا كان ، اننى رجل مضحك لهشمت رأسى بطلقة من مسدس فى مساء ذلك اليوم نفسه . لطالما تعذبت أثناء المراهقة حين كنت أتصور أننى لن أستطيع أن أقوم ، واننى سأساق مرة على حين فجأة ، فأعترف بالأمر لرفاقى . ولكننى حين صرت شاباً هداً بالى واطمأنت نفسى لسبب أو لآخر ، رغم أنى كنت أزداد اقتناعاً بشذوذى الريب سنة بعد سنة ، وما ذلك الا لأننى مازلت الى هذا اليوم أجهل لماذا وكيف ! لعل مردد ذلك الى تلك الكآبة الواسعة التى استولت على نفسى فى أعقاب ظرف يفوقنى كثيراً ، ألا وهو اقتناعى ، الذى أصبح راسخاً مستقراً ، بأن كل شىء فى هذه الحياة الدنيا « ليس له شأن » . كنت أشبه فى ذلك منذ مدة طويلة جداً ، ولكننى اقتنعت به اقتناعاً كاملاً ، وأيقنت منه يقيناً تاماً على حين فجأة . أحسست بفتة أننى لن يهمنى ألا يوجد العالم أو ألا يوجد شىء فى أى مكان ، فلو حدث هذا لما اكرمت له ولا حفلت به . وأخذت أدرك وأحس أن لا شىء فى نظرى موجود فى حقيقة الأمر . كان قد لاح لى دائماً حتى ذلك الحين أن أشياء كثيرة قد وجدت قبلى . فأدركت فى تلك اللحظة أن لا شىء كان له وجود من قبل ، أو قل انه لم يكن ثمة الا مظاهر . واقتنعت شيئاً فشيئاً بأنه لن يوجد شىء أبداً . فأصبحت عندئذ لا أغتاط من الناس ولا أحنق عليهم ، وصرت أخسر الأمر لا أكاد ألاحظهم . وقد تجلت هذه الحالة النفسية فى ظروف من الحياة هى أتفه الظروف : فكان يتفق لى مثلاً وأنا سائر فى الشارع أن أصطدم بالناس ؛ ليس معنى هذا أننى أكون مستغرقاً فى فكرة

من الأفكار ، فقد أصبحت فى ذلك الحين لا أفكر فى الأشياء التى ينبغى أن أفكر فيها ، لأن الأمور جميعاً قد استوت فى نظرى ، فلست أحفل بشئ ، وتركت حتى الاهتمام بحل المشكلات التى تعرض لفكر المرء ، ولم أحل منها مشكلة واحدة ، بل لا يعلم الا الله هل عرضت لفكرى مشكلات أصلاً . فمن « قلة اكترائى » ، ذهبت المشكلات أدراج الرياح .

ولكن هأنذا أعلم الحقيقة . لقد انكشفت لى هذه الحقيقة فى شهر تشرين الثانى (نوفمبر) الماضى ، فى اليوم الثالث من ذلك الشهر على وجه الدقة ، فأصبحت مائلة فى ذاكرتى منذ ذلك الحين كل لحظة . حدث ذلك فى ليلة مظلمة ، فى ليلة كانت أحلك الليالى ظلاماً . كنت عائداً الى بيتى فى نحو الساعة الحادية عشرة . أذكر ذلك . وكنت أفكر فى أنه يستحيل على المرء أن يرى ليلة أحلك ظلاماً من هذه الليلة . وكان المطر قد انهمر طوال النهار ، وكان مطراً من أشد الأمطار برداً وكآبة ، بل كان مطراً فيه نوع من التهديد للبشر والعداء لهم أذكر ذلك . . . ثم اذا هو ينقطع عن الانهمار فجأة ، فى نحو الساعة الحادية عشرة ، واذا برطوبة شديدة ترتفع من الأرض ، رطوبة أشد وأبرد من الرطوبة التى كانت منتشرة أثناء انهمار المطر . كان نوع من بخار يفوح من جميع بلاط الشوارع ، ومن كل زقاق ، حين تسرع طرفك فى بعيد فترى الحارة من أولها الى آخرها . وبدا لى فجأة أن المرء يقل احساسه بالحزن والأسى اذا انطفأت مصابيح الغاز فى كل جهة من الجهات ، فالى هذا الحد كانت أضواء مصابيح الغاز تحزن القلب بالقائها الضوء على هذا كله . لم أكن قد تعشيت فى ذلك اليوم . وقد قضيت السهرة عند مهندس بصحة رقيقين له . فكنت أثناء السهرة صامتاً لا أتكلم ، فلا بد أننى أضجرتهم . وقد تحدثوا فى أمور مثيرة ثم اذا بالنضب يستولى عليهم . ولكنهم كانوا فى الحقيقة غير مكترئين - رأيت ذلك رؤية واضحة - وكانوا لا يتحمسون ذلك التحمس الا شكلاً بغير

مضمون • فإذا أنا أقول لهم فجأة : « يا سادة ، حقيقة الأمر أنكم غير مكترئين » ، فلم يفيضوا ، ولم يزيدوا على أن ضحكوا لسماع هذه الكلمات • وقد قلت لهم ذلك بلهجة لا تحمل أى معنى من معانى اللوم ، وما قلته لهم الا لأن الأمر كان يبدو لى غير مثير للاهتمام أو الاكتراث ، وقد لاحظوا قلة اكترائى ، فاعترتهم نوبة مرح ، وطفقوا يضحكون •

حين دارت فى رأسى تلك الفكرة عن ضوء مصابيح الغاز وأنا فى الشارع ، رفعت عينيّ نحو السماء • كانت قبة السماء كلها تمتد مظلمة ظلاماً رهيباً • ولكن المرء يستطيع أن يميّز فيها مزق السحاب تمييزاً واضحاً ، وأن يرى فى هذه السحاب بقعاً سوداً عميقة • وبينما كنت أنظر فى هذه السحاب اذ لمحت فى احدى تلك البقع نجمة صغيرة ، فأخذت أتأملها مجدداً • ذلك أن تلك النجمة قد أيقظت فى نفسى فكرة • قررت أن أتحر فى تلك الليلة نفسها • كنت قد عزمت على الانتحار منذ شهرين ، فاشترت ، رغم شدة فقرى ، مسدساً رائماً لقمته فى ذلك اليوم نفسه • وانقضى شهران والمسدس لا يزال نائماً فى الدرج • ولكننى بلغت من قلة الاكتراث بأى شىء أننى أصبحت أشتى أخيراً أن تأتى الدقيقة التى يبدو لى فيها الانتحار جديراً بالاكتراث • لماذا ؟ لا أدرى • وصرت كلما سرت عائداً الى بيتى فى الليل ، يخطر ببالى أن أطلق الرصاص على رأسى • وأخذت انتظر أن تجيء اللحظة الملائمة المناسبة • وها هى النجمة التى أراها فى السماء توحى الىّ بفكرة : أن أنفذ الليلة ما عزمت عليه ، • حتماً • • فإذا سألتنى لماذا أيقظت تلك النجمة الصغيرة هذه الفكرة فى نفسك ، لأجبتك بأننى لا أعرف ذلك معرفة تامة •

وفى تلك الأثناء ، بينما كنت أنظر فى السماء ، انما أمسكت تلك البنت الصغيرة كوعى • كان الشارع مقفراً فى تلك الساعة ، أو قل انه قد أخذ يقفر فلا يكاد يمر فيه أحد • كان هناك حودى يقفو على مقدمه •

ان البنت الصغيرة هى فى نحو الثامنة من العمر • كان رأسها مغطى
بمنديل ، وكانت ترتدى ثوباً رثاً ، وكان الماء يسيل عليها • ولكن بصرى
وقع خاصة على حذاءيها المتقوين اللذين يتسرب منهما الماء الى قدميها •
مازلت أتذكر هذه الواقعة الى الآن • لقد خطف هذان الحذاءان انتباهى
أكثر من أى شىء آخر • وأخذت البنت الصغيرة تشمدنى من كوعى
منادية مستنجدة • كانت لا تبكى • وكانت تنادىنى متقطعة الصوت ،
موعوعةً بكلمات تعجز عن النطق بها بسبب البرد الذى كان يجعلها
ترجف ارتجافاً شديداً • كانت تبدو مذعورة من شىء ما ، وتصيح
يائسة : « أمى ، أمى العزيزة ! » • التفت اليها ، ولكننى لم أقل لها كلمة
واحدة ، وتابعت سيرى • ركضت ورائى ، وشدتى من ذراعى ، بينما
كان يخرج من حلقها صوت أجش أبج هو ذلك الصوت الذى تسمعه
من الأطفال المذعورين واشياً بما اعتراهم من كرب ويأس • اننى أعرف
هذه اللهجة • وفهمت من وعوعتها ، رغم عدم اشتغالها على كلمات
ملفوظة ، أن أمها تحتضر فى مكان ما ، أو أن شيئاً من هذا القيل قد
حدث لها اللحظة ، فركضت تبحث عن اسمان أو شىء يفيث أمها •
ولكننى لم أتبعها • وأكثر من ذلك أتتى خطر ببالى فجأة أن أنهرها
وأطرداها • قلت لها فى أول الأمر ان عليها أن تستنجد بشرطى • ولكنها
سرعان ما ضمت يديها الصغيرتين احدهما الى الأخرى ضارعة مبتهلة ،
وانفجرت تبكى لاهثة ، وظلت تسير الى جانبي لا تتركنى ، فلم يسعنى
الا أن أشتتها قارعاً الأرض بقدمى • فلم تزدد على أن تصيح قائلة :
« سيدى ، سيدى ... » ، ثم تركننى فجأة لتقطع الشارع بسرعة
كالسهم ، ذلك أن رجلاً آخر ظهر على الرصيف المقابل ، فلا شك أنها
تركنى لتركض اليه •

صعدت السلم حتى بلغت مسكنى الذى يقع فى الطابق الرابع •
ان المسكن شقة مفروشة يقيم فيها مستأجرون مختلفون • وغرفتى فى

هذه الشقة صغيرة فقيرة ، ليس لها من نافذة الا نصف كوة . انانى ديوان مغطى بقماش مشمّع ، ومائدة عليها كتبى ، وكريسيان ، ومقعد قديم متقوض ، لكنه من طراز فولتير . جلست وأشعلت الشمعة واسترسلت فى التفكير . وكان فيجور يملأ الغرفة المجاورة فى الجهة الأخرى من الحاجز . ان هذا الفجور قائم منذ يومين . فالشخص الذى يعيش فى تلك الغرفة كابتن محال على التقاعد جاءه زوار أوغاد أوباش يبلغ عددهم زهاء عشرة ، وطفقوا يشربون مفرطين ، ويلعبون « الفرعون » بمجموعة قديمة عتيقة من ورق اللعب . وقد نشبت بينهم مشاجرة فى الليلة الماضية ، وعرفتُ أن اثنين منهم ظلا يتضاربان مدة طويلة . وكان يمكن أن تشكوهم المؤجرة ، ولكن الكابتن كان يرعها . ولم يكن فى البيت مستأجرون آخرون ، الا سيدة هزيلة نحيلة ضامرة هى أرملة ضابط من الضباط لها ثلاثة أطفال صغار ، فما ان ساقتهم المقادير الى هذا المسكن حتى مرضوا جميعاً . وكان الأولاد وأمهم يخافون الكابتن خوفاً يبلغ من الشدة أنهم يظلون يرتجفون ويصلون طوال الليل . حتى ان أصغر الأولاد قد اعتراه من ذلك ما يشبه أن يكون نوبة عصبية . وكنت أعلم أن هذا الكابتن يتحرش بالمارة على طول شارع نفسكى مستعظياً ايأهم صدقة . وما كان لأحد أن يعهد اليه بأى عمل لو سعى هو الى الحصول على العمل . ومع ذلك فان هذا الكابتن (ومن أجل أن أسوق هذه الواقعة انما أجيء على ذكره) لم يثر فى نفسى أى شعور بالنفور منه والكره له ، وقد انقضى على سكناه فى هذا البيت شهر كامل . صحيح أتى منذ اليوم الأول قد تحاشيت أن تقوم بينى وبينه صلة ، ولو قد جالسته لسمم صحبتى على كل حال . وانما أحب أن أذكر أتى كنت لا أكثرث ولا أبالى ، مهما تكن الجلبة التى يحدثها هو وصحبه صاحبة ، ومهما يكن عددهم كبيراً . وقد تعودت ألا أرقد طوال الليل ، وكنت فى حقيقة الأمر لا أسمعهم ، حتى لقد نسيت فى النهاية وجودهم . اننى

لا أستطيع أن أغمض عينيَّ قبل بزوغ الفجر ، وذلك منذ سنة . لذلك أقضى الليل جالساً في الكرسي أمام المائدة لا أفعل شيئاً ، (فأنا لا أقرأ الا في النهار) حتى أنتى لا أفكر في شيء ، وانما أدع لأفكارى أن تطوِّف متسرّدةً على ما يشاء لها هواها . وتذوب الشمعة الى آخرها . وقد جلست في هذه المرة الى المائدة صامتاً ، وتناولت المسدس ، ووضعتة قريباً من يدي . ومساءلت حين وضعته قريباً من يدي (أتذكر ذلك واضحاً) : « أهذا مؤكد محقق ؟ » وسرعان ما أجبت نفسي بأنه مؤكد محقق طبعاً ، أى بأننى سأنتحر لا محالة . كنت أعلم في تلك الليلة أنتى سأقتل نفسي يقيناً ، ولكننى كنت أَسْأَلُ عن المدة التى يجب أن أبقاها جالساً الى مائدتى أنتظر اللحظة الأخيرة . ذلك أنتى كنت لا أعرف تلك اللحظة على وجه اليقين . وما من شك عندى فى أنتى كنت سأنتحر تلك الليلة لولا أن لقيت فى الشارع تلك البنت الصغيرة .

رغم اننى صرت لا أكثر بشيء ، فقد بقيت امرأ حساساً ،
ولو حساساً بالألم مثلاً . فلو ضربنى أحد لتألمت . وقولوا مثل هذا
عن الألم النفسى . فاذا حدث لى شيء محزن جداً شعرت بحزن كالذى
كنت أشعر به من قبل ، كما أننى لمّا أفقد بعد كل اكترائى بكل ما فى
الحياة . فكذلك أحسست منذ قليل بشفقة : لقد كان فى وسعى أن أغيث
تلك البنت الصغيرة طبعاً . فما هو السبب فى أننى لم أغنها ؟ السبب هو
تلك الفكرة التى انبثقت فى ذهنى بينما كانت البنت تشدنى من كدى
منادية مستجدة ؟ وهناك سبب آخر هو سؤال ألقى نفسه على فجأة
ولم أستطع أن أجده جواباً . هو سؤال لا نفع فيه ولا فائدة منه
ولا طائل تحته ، ولكنه أحنقنى وأثار فى نفسى غيظاً شديداً . ولقد جاء
الغيظ من هذا التفكير المنطقى : اذا كنت قد قررت أن أبارح الحياة فى
هذه الليلة نفسها ، فإن كل شيء فى هذه الحياة يجب أن يمضى غير مثير
لاكترائى فى هذه الساعة أكثر من أى ساعة مضت . فلماذا أحسست
فجأة بأننى لست غير مكترث بشيء ، واننى أرئى لحال تلك البنت الصغيرة
وأشفق عليها ؟ أذكر أننى رثيت لحالها وأشفقت عليها اشفاقاً شديداً ،
حتى أننى أسيت لها أسى لا يليق البتة بحالى . اعترف لكم بأننى لا أفصح
فى تصوير الاحساس الذى اجتاح نفسى حينذاك . ولكن ذلك الاحساس
قد بقى فى نفسى لا يغادرها . فلما جلست الى مائدتى فى غرفتى كنت

فى حالة من الغيظ والحلق أشدّ من سابقتها • وأخذت الاستدلالات
 المنطقية تتعاقب فى فكرى ويتصل بعضها ببعض ؟ فكنت أقول لنفسى :
 « من الواضح أننى إنسان ، وأننى لست صفراً ، وما ظلمت إنساناً ، وما لم
 استحل صفراً ، فأننى أحيا ، ويمكن اذن أن أئنالم وأن أغناظ وأن أشعر
 بخزى من أفعالى • طيب • ولكن اذا انتحرت ، اذا انتحرت بعد ساعتين
 مثلاً ، ففيم يهمنى شأن تلك البنت الصغيرة ، وما فائدة ذلك الشعور
 بالخزى ، وسائر ما عداه ؟ سأكون قد استحلت الى صفر ، الى صفر
 مطلق • فهل ' يعقل ألا يكون لمعرفتى بأننى بعد قليل سأبارح الحياة
 مبارحة ' تامة ، ، وأن كل شئ مثلاً لن يكون له وجود فى هذا العالم ،
 هل ' يعقل ألا يكون لهذا أى تأثير لا فى شعورى بالشفقة على البنت
 الصغيرة ولا على شعورى بالخزى من الحفارة التى ارتكبتها ؟ ذلك أننى
 حين قرعت الأرض بقدمى ناهراً زاجراً انما أهنت البنت التيسية •
 وهذه الحفارة الحالية من الشعور الانسانى قد ارتكبتها • لا لأبرهن على
 أننى أوسيت لا أحس بالشفقة فحسب ، بل أيضاً لأن كل شئ سينتهى
 بعد ساعتين ، • قولوا لى بصراحة : هل تصدقون أننى لهذا السبب انما
 صرخت زاجراً ؟ اننى من جهتى أميل الى الاعتقاد بهذا • لقد كنت أنصور
 تصوراً واضحاً أشد الوضوح أن الحياة والعالم متوقفان علىّ وحدى ؟
 حتى ليتمكن أن أقول اننى كنت أنصور فى تلك اللحظة ان العالم لم ' يخلق
 الا لى وحدى : فيكفى أن أهشم رأسى برصاصة حتى لا يبقى للعالم
 وجود ، بالنسبة الىّ على الأقل • ناهيك عن أن من الممكن حقاً ألا يبقى
 للعالم وجود بالنسبة الى أى أحد بعدى ، وأن يزول العالم كله كزوال
 شبح متى زال ادراكى أنا ، لأنه ليس الا ادراكى له ، فمن الممكن أن
 يزول مادام العالم كله وجميع الناس قد لا يكونون الا أنا • أذكر اننى
 حين كنت جالساً الى مائدتى كنت استعرض هذه المسائل كلها واحدة بعد
 واحدة وأرى فيها آراء جديدة ، واكتشف لها وجوهاً جديدة وجوانب

جديدة • من ذلك مثلاً أن تصوراً غريباً قد عرض لفكرى فجأة • قلت
لنفسى : « هبنى عشت فى الماضى فى القمر أو فى المريخ ، وهبنى ارتكبت
هنالك عملاً من تلك الأعمال الشائنة البشعة الى أبعد حدود البشاعة ،
هبنى ارتكبت أحقر دناءة يتمثلها الخيال ، فصرت مجللاً بخزى وعار
رهيبين لا يتصور المرء مثلهما الا حين يصيبه فى نومه جائوم ثقیل ؛ وهبنى
اسقطت فجأة فاذا أنا أجد نفسى على الأرض لا فى القمر ، ولا أزال
شاعراً بما ارتكبت من أعمال مشينة بشعة حين كنت فى الكوكب الآخر ،
ولكننى موقن يقيناً قاطعاً باننى لن أعود الى ذلك الكوكب الآخر فى يوم
من الأيام مهما يحدث ، أفلا تستوى فى نظرى « جميع » الأمور فى
القمر حين آخذ أتأمله من على ظهر الأرض ؟ أشعر عندئذ بالجزى من
ذكرى الجريمة التى اقترفتها ؟ أسئلة لا طائل تحتها وليست فى محلها ،
لا سيما وأن المسدس موضوع على المائدة أمامى ، وأنتى أعرف بكل
جوانحى أن « الأمر » سينم انفاذه ؛ ولكنها أسئلة تنير فى جسمى حمى ،
وتبعث فى نفسى أقصى الاضطراب • فكان يستحيل على نوعاً من
الاستحالة أن أموت الآن ، اللهم الا أن أهتدى قبل ذلك الى حل
للمسألة • الخلاصة أن تلك البنت الصغيرة قد أنقذتنى من الانتحار • لأننى
بالاتقال من سؤال الى سؤال قد تجنبى طلقة المسدس • وفى أثناء ذلك
كان كل شىء فى غرفة الكابتن يسكن ويهدأ • فقد انقطعوا عن اللعب
بالورق ، وتهيشوا للنوم ، فلا يسمع المرء الا بضغ دمدومات من حين الى
حين ، والا بعض الشنائم يتساب بها صوت وسان • وحينذاك انما أخذنى
النوم فجأة ، وذلك أمر لم يسبق أن حدث لى فى يوم من الأيام قبل الآن ،
أمام المائدة فى المقعد • نمت دون أن أحس باننى نمت • والأحلام ، كما
لا يجهل أحد ذلك ، أمرها غريب كل الغرابة : فبعضها يعرض لك
بكل ما فيه من حدة رهيبية ، واضحاً مفصلاً دقيقاً كدقة المصوغات حين
تخرج من بين يدى الصائغ ؛ وفى بعضها تعجاز الفضاء ، وتخرق الزمان
دون أن يخطر لك ذلك على بال • فمن الواضح أن ما يثير الحلم ليس هو

العقل بل الرغبة ، ليس هو الرأس بل القلب • ومع ذلك ما كان أبرع عقلى
فى الأحلام أحياناً ! حتى انه ليقوم فيها بأعمال عجيبة يستعصى تفسيرها • من
ذلك مثلاً أن أخى ، وقد مات منذ خمس سنين ، يظهر لى فى الأحلام ،
ويشاركنى أعمالى ، فنعكف عليها مهتمين بهما أكبر الاهتمام مشغوفين بها
أشد الشغف ، ومع ذلك لا يغيب عن بالى مرة واحدة أثناء الحلم أن أخى
ميت وأنه مدفون • فكيف لا أحس بدهشة حين أراه جالساً بجانبى
يشاركنى عملى ، مع علمى بأنه ميت ؟ كيف يسهل على عقلى أن يقبل
هذا كله ؟ ولكن كفى ! فلأحدثكم الآن عن الحلم الذى رأيته • نعم ،
فى تلك الليلة انما رأيت ذلك الحلم ، حلم اليوم الثالث من شهر تشرين
الثانى (نوفمبر) •

بعض الناس يسخرون منى الآن قائلين ان ذلك ليس الا حلماً •
ولكن ألا يستوى أن يكون حلماً وألا يكون حلماً ، اذا كان هو الذى
بلغنى « الحقيقة » • فما دمت قد رأيت الحقيقة الى الأبد ، فان معنى ذلك
أننى رأيتها فعلاً ، فلا حقيقة سواها ، سواء أجادتنى فى الحلم أم انكشفت
لى فى الحياة الواقعية • فليس يضيرنى ألا يكون ذلك الا حلماً • ان
هذه الحياة التى تضعونها فى أعلى منزلة كنت أنا فى تلك الليلة مستعداً
لإنهائها بطلقة مسدس • أما حلمى ، أما حلمى ، فقد بلغنى رسالة
حياة جديدة ، رغبة ، متبئة ، قوية •

اسمعوا •

قلت اننى نمت دون أن أحس بأننى نمت ، وكأننى كنت لا أزال أفكر فى تلك الأمور نفسها • وفجأةً حلمت بأننى تناولت المسدس ، وسددته الى قلبى مع بقائى جالساً ؛ سددته الى قلبى لا الى رأسى ، وكنت رغم ذلك قد قررت أن أطلق رصاصة فى صدغى الأيسر • فبعد أن وضعت فوهة المسدس على صدرى ، انتظرت ثانية أو ثابيتين ، ثم اذا بالشمعة والمائدة والجدار تهتز وتترنح جميعاً فى آن واحد ، فأسرعت أطلق الرصاصة فى قلبى •

يحدث أحياناً فى الحلم أن ترى نفسك ساقطاً من مكان عال شديد العلو ، أو أن ترى أنك تُطعن أو تضرب • ولكنك لا تحس بألم أبداً ، اللهم الا أن تكون قد لكمت بيدك حديد السرير مثلاً ، فتحس عندئذ بألم فتستيقظ • وكذلك حدث لى فى هذا الحلم ؛ لم أشعر بأى ألم من اطلاق الرصاصة فى قلبى ، ولكن خيل الى اننى أحس بنوع من صدمة ، ثم زال كل شيء فجأةً ، ولبثت غارقاً فى ظلمات رهيبية ؛ وكأننى قد صرت أعمى وأخرس ثم هأنذا مسجى تحت شيء صلب ، قد امتددت مقلوباً ، لا أرى شيئاً ولا أستطيع أن آتى بأيسر حركة ، والناس من حولى تسير وتصرخ ، والكابتن 'يرعد ، والمؤجرة 'تعول • وهؤلاء نفر يداهمون غرفتى من جديد ، وينقلوننى مكشوفاً فى تابوت ، فأحس بالتابوت يترجع

تحتي ويهتز ، فأفكر في هذه الواقعة ، ويدهمشي لأول مرة أن أتصور
أنتي مت ، أنتي مت حقا . وصرت عالما بموتى كل العلم ، لا يساورني
فيه شك ولا ريب . انني لا أبصر ولا أتحرك . وان كنت أحس وأفكر .
على أنتي سرعان ما ألفت هذه الحال وفقاً لمنطق الاحلام ، وقبلت الواقع
بغير مناقشة ولا جدال .

وهاهم أولاء ينزلونني في الأرض ثم ينصرفون ، فأبقي وحيداً ، وحيداً
كل الوحدة ؛ ولا أستطيع أن أحرّك من أعضائي عضواً . انني قبل ذلك ،
أثناء سهري الليل ، حين كنت أطلق لحالي العنان فأتصور كيف ستكون
حالي في القبر ، كنت لا أربط بهذا التصور على وجه الاجمال الا الاحساس
بالرطوبة والبرد . لذلك أشعر الآن ببرد شديد جداً ، ولا سيما في أقصى
أصابع رجلي ، ولكنني لا أحس بشيء عدا هذا .

كنت مضجعاً . ومن غريب الأمر أنني كنت لا أنتظر شيئاً ،
فأنا مسلم دون اعتراض بأن على الميت ألا يتوقع حدوث شيء . ولكن
الرطوبة شديدة . لا أدري كم انقضى من الوقت . لعل ما انقضى من
الوقت ساعة ، أو لعله عدة أيام ، أو لعله أيام كثيرة . ثم اذا بقطرة كبيرة
من الماء تسقط فجأة من خلال غطاء التابوت على عيني اليسرى التي كانت
مغمضة ، ثم اذا بقطرة أخرى تسقط ، وهكذا دواليك ؛ في كل دقيقة
تسقط قطرة . فأحس بغيظ عميق يكوى قلبي ، ثم لا ألبث أن أشعر
فجأة بألم جسمي في قلبي . قلت لنفسى : « هذا جرحي ، هذه هي
الرصاصة التي أطلقتها في صدري . . . انها نارية في قلبي . . . » وكانت
قطرات الماء لا تزال تسقط دقيقة بعد دقيقة ، وتقع على عيني المغمضة رأساً .
فلم يسعني عندئذ الا أن أنادي ، ولكن ندائي لم يكن بصوت ، لأنني
جامد لا أتحرك ، وانما كان ندائي بكلامي كله ، ناديت الحكم الذي
يتصرف في كل ما كنت 'ألعبه بيده . قلت له أياً كنت أنت - هذا اذا
سلمنا بأنك كائن ، وبأنه يوجد أي شيء يمكن أن يعقل وجوده سوى

ما أنا العوبة بيده - ألا فلتسمح بألا يحدث هذا هنا ! اذا كنت تريد أن تتقم منى بسبب اتجارى الاحمق ، فتوقع فى هذه السخرية وهذا البقاء السخيف بعد الموت ، فان التعذيب الذى تنزله بى ، كائناً ما كان وبالغاً ما بلغ ، لن يساوى أبداً الاحتقار الصامت الذى سأحسه ، ولو استمر هذا التعذيب آلاف السنين ! » ♦

كذلك قلت ' ثم سكت ♦ وانقضت قرابة دقيقة فى صمت عميق ، حتى ان قطرة ماء قد سقطت ، ولكننى كنت أعلم ، كنت أعلم وأوقن يقيناً فويلاً راسخاً لا يتزعزع أن كل شيء لابد ان يتغير فى هذه اللحظة نفسها ولا ريب . وها هو ذا قبرى ينفتح فجأة ، أو قل لا أدري اهو قد فتح ام هو قد ذاب ، ولكننى أعلم أن كائناً غامضاً لا اعرفه قد أمسكنى ، ثم اذا نحن كلانا نظير فى الفضاء ♦ و'رداً الى بصرى على حين غرة ، وكان الليل عميقاً ما رأيت ظلاماً كظلامه الحالك قبل ذلك ابداً ، أبداً ♦ لم أسأل ذلك الذى كان ينقلنى . وانما انتظرت لاثناً بكبريائى منطقياً على خيالاتى ♦ كنت مقتنعاً بأننى غير خائف ، وكنت فى نشوة من حماسى لعدم خوفى . لا أذكر الآن كم طال طيراننا ، ولا أستطيع ان أتصوره : حدث ذلك كله كما يحدث دائماً فى الحلم حين يجتاز الحالم تخوم الزمان والمكان ، مخترقاً كل قوانين الوجود والعقل ، وحين لا تلبث الا على النقاط التى يرنو اليها قلبه ♦ أذكر أننى أبصرت فى الظلام نجمة صغيرة على حين فجأة ♦ فلم أستطع أن أمسك عن سؤال صاحبى الذى كان يطير بى : « أهذا كوكب سيرىوس » ، مع اننى كنت أتمنى كثيراً أن أمتنع عن القاء السؤال عليه ، فأجابنى بقوله : « بل هذا هو الكوكب نفسه الذى لمحت بين السحاب حين كنت عائداً الى بيتك » ♦ . كنت أعلم أن هذا الكائن الذى يطير بى له مظهر اسنان ♦ ومن غريب الأمر أننى لم أحب هذا الكائن ، حتى لقد كان يوقظ فى نفسى كرهاً عميقاً له ♦ لقد كنت أنتظر العدم المطلق ، ومن أجل أن أصل الى العدم

المطلق انما أنفذت رصاصه فى قلبى ، فما بالى أجد نفسى بين ذراعى
كائن ليس هو بالإنسان ختماً ، ولكنه « موجود » قطعاً . قلت لنفسى :
« فلا بد أن هناك حياة اخرة تلى القبر ا » ، قلت لنفسى ذلك مدفوعاً
بما فى الحلم من خفة غريبة وطيش عجيب ، ولكن هذا لا ينفى أنى
احتفظت فى قرارة قلبى بميزتى الأساسية ، فقلت لنفسى : « اذا كان
المقصود هو أن « أوجد » من جديد ، وأن تحينى ارادة لا مفرّ منها
حياةً أخرى ، فاننى لا أريد أن أكون مغلوباً ولا أريد أن أذلّ » . فقلت
لصاحبى فجأة أسأله دون أن أستطيع كظم هذا السؤال الذى يشتمل
على اعتراف كامل ، حتى لقد شعرت من هذا الجبن بآبرة تنقب قلبى نقياً :
« أنت تعلم أنى أخشاك وأهابك ، وهذا هو السبب فى أنك تحقرنى » .
فلم يجب ، ولكننى أحسست على الفور أنه لا يحقرنى ، وأنه لا يسخر
منى ، وحتى أنه لا يشفق علىّ ، وأن رحلتنا تمتد الى غاية مجهولة
سرية لا شأن لأحد بها غيرى ، ولا تتعلق الا بى . فازداد الرعب فى
قلبى . وانتقل سكوت صاحبى الىّ ، ونفذ فىّ حضوره الصامت مؤلماً بعض
الألم . كنا قد توغلنا فى ظلمات لا قرار لها ، وكانت الكواكب التى ألفتها
عينائى قد غابت عني منذ مدة طويلة . وكنت أعلم أن فى آخر السماء
نجوماً لن تصل أشعتها الى الأرض الا بعد ألوف السنين وملايين السنين .
فلعلنا قد قطعنا تلك الفضاءات كلها . كنت أتنظر شيئاً ما ، وكانت نفسى
زاخرة بحنين أليم يطعن القلب . وانى لكذلك اذا بعاطفة أعرفها كل
المعرفة ، عاطفة توقف الماضى ايقاظاً قوياً عميقاً ، تهز كيانى كله على حين
فجأة . لقد عدت أرى الشمس ! كنت أعرف أن هذه الشمس التى أراها
لا يمكن أن تكون شمسنا « نحن » التى ولدت أرضنا ، وكنت أعرف أننا
قد بعدنا عن شمسنا بعداً لا نهاية له ، ولكننى كنت أدرك بينى وبين
نفسى أنها شمس تماثل شمسنا معائلة مطلقة ، فهى منها بمثابة الصدى
أو هى لها نظير . فغمر نفسى حنان كبير بثّ فيها الحماسة : ان قوة الضياء

الذى خلقنى قد ترّجعت فى قلبى وأحيته ، وأحسست بعودة الحياة ، الحياة القديمة ، لأول مرة منذ أن نزلت الى القبر •
وهتفت أقول لصاحبى سائلاً :

— ولكن اذا كانت هذه هى الشمس ، اذا كانت هذه شمسنا نفسها ، فاين هى الأرض ؟

فأرانى صاحبى كوكباً يشبه زمردة براققة فى ظلام الليل • وكنا نتجه فى طيرانا الى ذلك الكوكب •

— ماذا ؟ هل أمثال هذه العودات ممكنة اذن فى هذا الكون ، وهل يمكن أن يكون هذا هو قانون الطبيعة ؟ واذا كانت هذه أرضاً ، فهل يمكن أن تكون هى أرضنا نفسها ••• أو أن تكون مثلها تماماً فى الشقاء والفقر ، وفيما نضمّره فى أنفسنا مع ذلك من حب لها وشغف بها الى الأبد ، هل يمكن أن تكون أرضاً تعرف كيف تحبب بها أبناءها ، حتى أجحدهم وأشدّهم عقوقاً ؟

كذلك هتفت أسأل صاحبى وأنا ارتعش بحب لا يقاوم ، متحمساً لهذه الأرض التى ولدت فيها ثم هجرتها • ومرت فى خاطرى بسرعة كسرعة البرق صورة البنت الصغيرة المهانة المعذبة • قال لى صاحبى :

— ستعرف كل شئ •

وكان فى كلماته ما يشبه أن يكون نبوة أسمى •

ولكننا كنا ندنو من الأرض دنواً سريعاً ، فكان حجمها يكبر فى نظرى ؟ فلما أخذت أُمَيِّز المحيط وحواشى أوروبا ، اذا بغيرة غريبة تشتعل فى قلبى ، غيرة نبيلة مقدسة • قلت لنفسى : « كيف يمكن أن يحدث هذا التكرار ؟ وما جدواه ؟ اننى أحب هذه الأرض التى غادرتها ، ولا يمكن أن أحب سواها ، هذه الأرض التى بقيت عليها لطخات من

دمى حين عمدت ، أنا الاین العقوق ، الى انهاء حبائى برصاصه أطلقتها
فى قلبى • وما كفت فى يوم من الأيام عن حب هذه الأرض قط ، حتى
فى تلك الليله التى ودعتها فيها ، بل لعلنى كنت أحبها عندئذ حباً أقوى
استناراً بالنفس وأشد تقطيعاً للقلب من حبى لها فى أى وقت مضى •
هل الالم موجود على هذه الأرض الجديدة ؟ لقد كنا هناك فى أرضنا
لا نستطيع أن نحب الا بآلم ، ولا نستطيع أن نحب الا من خلال الألم •
فنحن لا نحسن أن نحب الا هذا الحب ، ولا نعرف حباً آخر • فأننا أطلب
الألم لأستطيع أن أحب • ما أقوى سهوتى وما أشد ظمئى الى أن أعانق
تلك الأرض وحدها باكياً ، تلك الأرض التى أحببتها وهجرتها ، ولا أريد
أن أعيش فى أى أرض أخرى غيرها ، بل أرفض أن أعيش فى أى
أرض أخرى غيرها ! • • • • •

ولكن صاحبى كان قد تركنى • واذا أنا أجدنى فجأة على تلك
الأرض الأخرى قبل أن يخطر ببالى ذلك ، غارقاً فى الضياء الساطع من
يوم مشمس جميل كجمال الجنة • فخيّل الى أننى هبطت الى واحدة من
تلك الجزر الصغيرة التى يتألف منها على أرضنا أرخبيل اليونان ، أو هبطت
فى مكان آخر على خرائب قارة بجوار الأرخبيل • كان كل شئ فى تلك
الأمكنة شبيهاً بما عندنا شبيهاً تاماً • ومع ذلك كان كل شئ يشع منه نوع
من الجبور والجلد والرصانة والأبهة ، يقارب الروعة • وكانت مياه بحر
كالزمرد تنكسر تكسراً خفيفاً على الشاطئ • ، فتلاعبه ملاعبة فيها حب
ظاهر واضح يشبه أن يكون واعياً • وكانت تنتصب فى الفضاء أشجار
باسقة فارعة الأغصان تتألق بغزارة نسغها ووفرة أوراقها الصغيرة الكثيفة ؛
ولا شك أنها كانت تحينى بحفيفها الرقيق اللطيف ، وكأنها تتمتم لى
بكلمات حب • وكان المرج يزدهى بنبت دافئ عذب لذيد • وكانت
الطيور تشق الهواء أسراباً ، وتأتى الى بلا خوف فتحط على كنفى ويدي
وهى تصفق بأجنحتها الرائشة صقفاً فرحاً • وأخيراً رأيت سكان تلك

الأرض السعيدة جاءوا الى من تلقاء أنفسهم ، وأحاطوا بى ، وعانقونى
وقبلونى • أبناء الشمس ، أبناء شمسهم ... ألا ما كان أجملهم !
ما رأيت فى يوم من الأيام مثل هذا الجمال فى الانسان على أرضنا ! قد
تستطيع أن تلمح لدى الأطفال عندنا ، فى السنين الأولى من حياتهم ،
شيئاً يشبه أن يكون صورة باهتة ضعيفة لهذا الجمال الذى رأيته فى
سكان ذلك الكوكب من البشر • ان أعين هؤلاء السعداء تشع ببريق صاف
وضاء • وان وجوههم تشرق بالحكمة والوعى ، الوعى الذى بلغ كمال
هدوئه وتمام رصانه • ولكن هذه الوجوه تظل فرحة ، فان فرحاً كفرح
الأطفال يرن فى أقوال هؤلاء البشر وفى أصواتهم ! آ ... فهمت كل
شيء ، كل شيء ، من أول نظرة • هنا كانت الأرض قبل أن تدنسها
الخطيئة الأصلية : ان سكانها الذين لا يعرفون الشر يعيشون فى هذه
الجنة نفسها التى تتناقل الانسانية كلها أن أجدادنا الجنة قد عاشوا فيها ،
مع فرق واحد هو أن الأرض هنا جنة واحدة بعينها فى كل ركن من
أركانها وكل جهة من جهاتها • ازدحم حولى هؤلاء البشر الذين يضحكون
ضحكة جذلى ، وغمرونى بملاطفاتهم ، ومضوا بى الى منازلهم ، فكانوا
جميعاً يريدون أن يفتقدوا على الراحة اغداً ، وأن يسكبوها لى سكباً •
ولم يلقوا على أسئلة فكانهم كانوا يعرفون كل شيء ، وكأن نفوسهم
لا تهيش فيها الا رغبة واحدة : هى أن يمحو بأقصى سرعة ما كان
منقوشاً على وجهى من علائم العذاب والألم •

هأنتم أولاء ترون مرةً أخرى : أى ضير فى أن يكون الأمر حليماً ؟
ان حب هؤلاء الناس الأبرياء الرائعين قد أحدث فى نفسى أثراً باقياً
لا يفنى ، وانى لأحس أن جبههم لا يزال يغسل روحى بمياهه النقية من
هناك الى الأبد . ذلك أننى أنا قد عرفتهم ، وأحببتهم ، وتعذبت وتألّمت لهم
بعد ذلك ! سرعان ما أدركت منذ اللحظة الأولى أننى فى كثير من الأمور
لا أفهمهم : لم أفصح مثلاً فى أن أفهم ، أنا التقدّمى الروسى الحديث ،
أنا البطرسبرجى العفن ، ان من الممكن أن يكونوا ، هم العالمين بكل
ما يعلمون من أمور كثيرة ، جاهلين بعلما نحن . ولكننى لم ألبث أن
أيقنت أن علمهم علم كامل ، وأنه يستند وينطبق على ادراكات تختلف
عن ادراكاتنا كل الاختلاف ، وأن تطلعاتهم تختلف عن تطلعاتنا كل
الاختلاف أيضاً . انهم بلا رغبة ، وهم فى هدوء نفوسهم وسكيتتها ،
لا يتطلعون الى معرفة الحياة كتطلعاتنا نحن الى معرفتها ، ما داموا قد بلغوا
حالة الكمال . ولكن معرفتهم أعمق من علمنا وأسمى من علمنا ، لأن
علمنا نحن يحاول أن يشرح الحياة ، ويجهد أن يعرف الحياة ليعلم الناس
كيف يحيون . أما هم فليسوا فى حاجة الى علم ليعرفوا كيف يجب
عليهم أن يحيوا . ذلكم ما أدركته بدون أن أفصح فى فهم معرفتهم . لقد
أرونى أشجارهم فلم أستطع أن أفهم لماذا ينظرون اليها بحب يبلغ هذا
المبلغ كله من القوة ، وكيف يكلمونها كأنهم يخاطبون أشخاصاً مثلهم .

كانوا يكلمون الأشجار فعلاً : اعلّموا انى لا أعتقد أن الأمر مشتبّه على حين أقول انهم كانوا يكلمونها . نعم ، لقد اكتشفوا لغة الأشجار . وانى لوانق أن الأشجار كانت تفهم عنهم ما يقولون . تلك كانت نظرهم الى الطبيعة . ومع الحيوانات كانوا يعيشون فى سلام فلا يلحقون بالحيوان أى أذى ، ولا يصيونه بأى ضرر ؛ كانت الوحوش عزيزة على قلوبهم ، وبالحب انما روّضوها وأنسّوها . وقد أدرونى النجوم وحدثونى عنها ، فقالوا لى أشياء لم أستطع أن أفهمها ، ولكننى مقتنع بأنهم كان بينهم وبين نجوم السماء تواصل وتفاهم ، لا بالفكر والخيال ، بل بواسطة حية . نعم ، لم يفلح أولئك الناس فى أن يجعلونى أفهمهم . وكانوا يحبوننى بدون أن أفهمهم . ولكننى كنت أعلم فى مقابل ذلك أنهم هم أيضاً لم يفهمونى ، ولذلك لم أكد أحدثهم عن أرضنا . كنت أكتفى فى حضورهم بأن أقبل الأرض التى يعيشون عليها ، وكنت أنا نفسى أعشقهم عشقاً دون أن أنطق بكلمة . وقد أدركوا ذلك ، فتركوا لى أن أعشقهم ذلك العشق ، لا يشعرون من هيامى بهم وإخلاصى لهم بحرج أو عار ، لأنهم كانوا هم أنفسهم يزرعون حباً . وكانوا لا يتألّمون لى ، حتى حين أقبل أقدامهم بأنهم يستجيبون لحبى بحب قوى عميق يملأ عليهم قلوبهم . وكنت أتساءل فى بعض الأحيان مدهوشاً كيف أمكن طوال ذلك الوقت أن لا يسيثوا مرة واحدة الى انسان مثلى ، ولا أن يوقظوا فى نفسى شيئاً من عواطف الغيرة والحسد مرة واحدة أيضاً ؟ ساءلت نفسى مراراً كيف استطعت ، أنا الرجل المباهى الكذاب ، ألا أحدثهم فى يوم من الأيام عن معارف وعلوم كانت تخلو أذهانهم من أية فكرة عنها حتماً ؟ كيف لم تساورنى رغبة فى ادهاشهم ولو حباً بهم وعطفاً عليهم ؟ كانوا فرحين بمرحون ويطربون كالأطفال ، مطوّفين فى أرجاء أحراجهم الرائحة وغاباتهم ، صادحين بأغانيهم الجميلة . وكانوا يكتفون بطعام خفيف هو ثمار أشجارهم وعسل

غاياتهم ولبن نواجههم الوديدة • كانوا لا يحتاجون الا الى قليل من العمل
لتأمين طعامهم وكسائهم • وكانوا يتبادلون الحب ، وكان يولد لهم أولاد ،
ولكنى لم أر عندهم فى يوم من الأيام سوررات تلك اللذة « القاسية »
التي يتصف بها جميع سكان أرضنا تقريباً ، جميعهم وكل واحد منهم ،
والتي هى ينبوع جميع خطايا انسانيتنا تقريباً • كانوا يتهجون لمسلاد
الأطفال ابتهاجهم بضيق 'جد' وفدوا يشاركون فى عيد المسرات هذا •
لم تنشب بينهم مشاجرات قط ، ولا رأيت فيهم الغيرة أبداً ، حتى انهم
لا يعرفون معنى هذه الكلمة • كان الأولاد فيهم أولاداً للجميع ، لأنهم
كانوا أسرة واحدة • وكانوا لا يكادون يعرفون المرض ، رغم أنهم
يموتون ، ولكن الشيخ منهم يموت موتاً هادئاً فكأنه ينفو وينام وقد
أحاط به ذووه يباركونه ويسمون له ، وهم أنفسهم يسمون هذه البسمة
المضيئة حين 'يختضرون' • لم يتفق لى مرة واحدة أن رأيت لديهم عند
الموت لا حزناً ولا دموعاً ؟ وانما رأيت ازدياداً فى الحب يبلغ به حد
الوجد ، وهو وجد هادئ رصين فيه كمال وفيه تأمل • حتى ليقدر المرء
أنهم يظلون على صلة بموتاهم بعد رحيل هؤلاء الموتى ، وأن الموت لم
يقطع ما كان بينهم وبينهم من رابطة على الأرض • انهم لم يكادوا يفهمون
عنى حين سألتهم عن الحياة الأبدية • ولكن كان واضحاً أنهم - على غير
شعور منهم - كانوا يلفون من الثقة بالحياة الأبدية والاطمئنان لها أنهم
لا يلقون على أنفسهم هذا السؤال • ولم يكن لهم معابد ، وانما هم يحيون
فى تواصل دائم مع « الكل » العظيم • ولم تكن لهم ديانة ، ولكنهم كانوا
يعلمون أنهم حين يرتون من أفراح الأرض ، ويشرفون على اجتياز حدود
الطبيعة الأرضية ، فان الاتصال بين البشر - الأحياء منهم والأموات - وبين
« الكل » العظيم سيكون أوسع وأرحب ، فهم ينتظرون تلك اللحظة
مبتهجين ، بغير تعجل ولا حنين ، أو قل انهم كمن بلغوا تلك اللحظة منذ
الآن بنبوءات قلوبهم ، فلا يفوتهم أن يتناقلوا هذه النبوءات •

وهم فى المساء ، قبل أن يخلدوا الى النوم ، يحبون أن يستمعوا الى غناء جوقات كاملة ؛ والأغنيات التى يسمعونها تعبر عن جميع الاحساسات التى عمرت قلوبهم فى النهار الذى انقضى ، فهم بذلك يباركون ذلك النهار حين يودعونه • وانهم يحتفلون بالطبيعة ، بالأرض والبحر والغابات • ويحلو لكل منهم أن يؤلف لغيره أغنيات ، وأن يتقنى كل منهم بالآخر كالأطفال ؛ وأغانيهم بسيطة كل البساطة ، ولكنها لصدورها عن القلب تؤثر فى القلوب • ثم انهم لا يحبون أن يلاطف بعضهم بعضاً فى أغانيهم فحسب ، بل فى جميع ظروف الحياة فيما يبدو • ان نوعاً من حماسة ولهى شاملة متبادلة تجعل كلاً منهم ممتلئاً بالآخر معجباً به محباً له • لقد عجزت تقريباً عن فهم تلك الأناشيد التى تشيع فيها الأبهة ، وترقرق فيها معانى الانتصار • كنت أدرك ألفاظها ، ولكننى لا أستطيع أن أنفذ الى كل معناها • كان فكرى لا يستطيع أن يرقى الى هذا المعنى ان صح التعبير • ولكن قلبى كان يتشبع به شيئاً بعد شيء دون أن يتنبه الى ذلك • كنت أقول لهم فى كثير من الأحيان اننى قد سبق لى أن أحسست بهذا كله احساس تنبؤ ؛ وأن هذا الجبور وهذا الفرح قد انكشفا لى منذ أن كنت أعيش على أرضنا ، وذلك فى صورة حزن مترع بالحنين ، حزن يبلغ أحياناً حد الألم ؛ واننى قد تصورتهم جميعاً ، هم وما هم فيه من مجد ، فى أحلام قلبى وأحلام فكرى ؛ واننى كثيراً ما عجزت أثناء حياتى على أرضنا عن أن أتأمل غروب الشمس بدون أن أبكى ••• وان كرهى لسكان أرضنا كان يخالطه دائماً ألم خبىء • لماذا لم أستطع أن أبفضهم رغم أننى لم أحبهم ؟ لماذا لم أستطع أن أمتنع عن أن أسامحهم وأعفو عنهم ؟ لماذا ذلك الحزن فى حبى لهم ؟ لماذا كنت لا أحبهم بدون أن أكرهم ؟ فكانوا يصفون الى ، فأرى أنهم لا يستطيعون أن ينفذوا الى معنى كلمائى • ولكننى كنت لا آسف لقول ما أقول ، لأننى كنت أعلم أنهم يفهمون حزنى الذى يوقظه فى نفسى فراق من فارقتهم ! لا ، لا ،

حين كانوا يرمقوننى بنظرتهم الرقيقة المفعمة حباً ، وحين كنت أحس فى صحتهم بأن قلبى يصبح برئياً نقياً كبراءة ونقاوة قلوبهم ، كنت لا آسف على أننى لا أفهمهم • وكنت اذا بلغت هذا الاحساس بالامتلاء والكمال ، تقطع أنفاسى ، وأخذ أصلى لهم فى صمت •

آه ... لا شك فى أن جميع الناس سيضحكون الآن منى ، وسيقولون انه يستحيل على المرء أن يرى فى الحلم تفاصيل تبلغ من الدقة ما تبلغه التفاصيل التى أسجلها الآن ، واننى أثناء نومي ما رأيت ولا أحسست الا ما كان يبعثه فى قلبى هذيانى • أما التفاصيل فانما تخيلتها أما تخيلاً بعد أن استيقظت • وحين كنت أعترف أن كل شئ لعله جرى على هذا النحو أيضاً ، فيالله ما كان أشدَّ الضحك الذى كنت أثيره فيهم ، وما كان أشدَّ المرح الذى كنت ألقيههم اليه ! ••• اذا صدق رأيهم ، فان الأمر لا يعدو أننى كنت متأثراً باحساسات ذلك الحلم ، وأن هذا التأثير هو الذى بقى فى قلبى الجريح الدامى ؛ أما الصور والأشكال التى رأيتها فيه فقد كانت تبلغ من اتساق الكمال ، وقوة السحر ، وبراعة الجمال ، وصدق الحقيقة أننى حين استيقظت لم أملك القدرة على تجسيدها فى أقوالى الضعيفة الهزيلة ، فلم يسعها الا أن تمحى من فكرى ، فمن الجائز جداً والحالة هذه أننى اضطررت على غيّر شعور منى الى أن أعيد بناء تفاصيلها بعد ذلك ، مشوهاً لها بطبيعة الحال ، ولا سيما بسبب تلك الرغبة القوية المشبوبة فى أن أنقلها الى الآخرين بأقصى سرعة كيفما اتفق • ولكن لماذا لا أصدق أن ذلك كله قد وقع فعلاً ؟ نعم ، لعل ما رأيته كان أكثر سطوعاً وتألقاً وفرحاً مما وصفت ، ألف مرة • واعلموا أننى سأبوح لكم الآن بسر • لعل ما رأيته لم يكن حلاً • ذلك أنه قد حدث شئ ، شئ فيه حقيقة تبلغ من الهول والفظاعة أن الأمر لا يمكن أن يكون قد رثى فى حلم • لنسلم أن هذا الحلم منشؤه قلبى ، فهل كان فى امكان قلبى أن يلقى الضوء على حقيقة ما حدث لى بعد ذلك ، وهى حقيقة مريعة رهيبة • كيف كان يمكننى أن أتخيل

وحدى هذا الذى حدث ، أو أن أحلم به فى قلبى ؟ هل يُعقل أن يستطيع
قلبى الذى يشبه قلب طفل ، وأن يستطيع فكرى الباطل الذى تحركه
النزوة ، أن يرتفعا الى اكتشاف الحقيقة ؟ احكموا فى الأمر بأنفسكم •
لقد كتبت عنكم الأمر حتى الآن • ولكننى سأبوح لكم بالحقيقة كلها فى
هذه اللحظة : اننى ••• قد أفسدتهم جميعاً •

نعم ، نعم ، انتهيت الى افسادهم جميعاً ! كيف حدث ذلك ؟
لا أدري . ولكننى أحفظ ذكراه واضحة أشد الوضوح . ان حلمى الذى
قطع ألوف السنين يترك فى نفسى احساساً بشيء متصل غير منقطع .
ولكننى أعلم أنى أنا كنت سبب الخطيئة الأصلية . ومثل دودة خنزير
معدية ، أو مثل ذرة طاعون سارية تستطيع أن تنتشر الوباء فى مملكة
بأسرها ، كذلك أفسد حضورى بالعدوى أرضاً للمسرات والمباهج كانت
قبل بريئة طاهرة . تعلموا أن يكذبوا ، واستطابوا الكذب ، وعرفوا جمال
الكذب . لعل ذلك كله قد بدأ « بريئاً » كل البراءة ، لعله بدأ مزاحاً
أو غنجاً لا أكثر ، فكان نوعاً من لعب هدفه التسلية ، ولعله قد حدث بفعل
ذرة من الذرات حقاً ، ولكن ذرة الكذب هذه قد نفذت الى أعماق قلوبهم
فبدت لهم محببة . وبعد ذلك بقليل ظهرت اللذة ، وولدت اللذة الغيرة ،
وبعثت الغيرة على القسوة . آه . . . لا أعلم ! لم أعد أتذكر ! ولكننى
أعرف أن الدم لم يلبث أن انبجس لطلحة أولى ، فدهشوا ، وارتاعوا ،
وأخذوا يناون بعضهم عن بعض ، وأخذوا ينفصلون بعضهم عن بعض ،
وقامت فيهم أحلاف ، ولكن أحلافهم الآن تمادى أحلافاً أخرى . وأخذت
الملازمات والمآخذ والتقريعات تسمع . وعرفوا التحجل . وصار التحجل لهم
فضيلة . ونشأ لديهم الشعور بالشرف ، ورفع كل حلف رايته فوق رموس

أفرادهم • وأخذوا يستئون معاملة الحيوانات • فصارت الحيوانات تهرب منهم الى أعماق الغابة • وتناصبهم العداء • وبدأ عهد جديد يمجّد في الإنسان • الخصوصية • و « الفردية » و « الشخصية » ويعلم الناس أن يفرّقوا بين ما هو لى وما هو لك • وتنوعت اللغات • وتعلموا الألم • وأحبوا الألم • وناقوا الى الألم • وقالوا ان الحقيقة لا تُكتسب الا بالألم • وظهر فيهم العلم • وغدوا أشراراً • فأخذوا عندئذ يتكلمون عن الأخوة والاسامية • وأدركوا تلك المعانى • وأمسوا مجرمين • فابتدعوا عندئذ العدالة • وفرضوا على أنفسهم قوانين كاملة تصون العدالة • ومن أجل أن يكفلوا لهذه القوانين أن تُحترم • أوجدوا المقصلة • ولم يبق لهم مما فقدوه الا ذكرى غامضة • حتى انهم لم يشاءوا أن يصدقوا أنهم كانوا في الماضى بريئين سعداء • وصاروا يستهزئون بأن تكون سعادتهم الماضية ممكنة • وسموا تلك السعادة حلمًا • بل غدوا لا يستطيعون أن يتمثلوها في أشكال محسوسة • ولا أن يتصورها بأخيلة • ومن أغرب الأمور وأعجبها • أنهم مع ذلك • رغم فقدانهم ايمانهم بسعادتهم القديمة • ورغم أنهم سمّوها حكاية مربية • ظلّ توقّهم الى استعادة البراءة والسعادة يبلغ من القوة أنهم سجدوا أمام رغبات قلبهم • وألّّوها ذلك التوق • وشادوا معابد • ووجّهوا الصلوات الى فكرتهم • الى « رغبتهم » • وهم يعلمون أنها لا يمكن أن تتحقق أبدًا • ولكنهم لا يكفون عن عبادتها بالصلوات والدموع • ومع ذلك لو كان في الامكان أن يعودوا الى حالة البراءة والسعادة تلك التي فقدوها • وأتيح لهم أن يستشفوها فجأة • وسئلوا هل يريدون حقًا أن يعودوا اليها • فأغلب الظن أنهم كانوا سيرفضون • وقد أجابوا عن هذا بقولهم : « نحن كذابون • أشرار • ظالمون • ليكن • نحن نعرف ذلك • ونحن بسبب هذا نبكى وتألّم وتنزل في أنفسنا أنواعاً من التعذيب والعقاب لعلها أسوأ من أنواع التعذيب والعقاب التي سينزلها فينا الديان الرحيم الذي سيحاسبنا والذي لا نعرف حتى اسمه • ولكننا نملك العلم • وبالعلم

سنتهدى الى الحقيقة ، فتقبلها فى هذه المرة واعين • ان المعرفة شئ • يفوق
العقل ، وان وعى الحياة يفوق الحياة • العلم سيهب لنا الحكمة ، والحكمة
ستكشف لنا عن القوانين ، ومعركة قوانين السعادة هى فوق السعادة • •
ذلكم ما صاروا يقولونه • وبعد أقوال من هذا النوع كان كل واحد منهم
يعود الى حب نفسه حباً أشد أنانية لأنهم يستحيل عليهم أن يفعلوا غير
ذلك • هكذا بلغ كل فرد من الحرص على شخصيته أنه حاول أن يذل
شخصية الآخرين وأن يخفضها بجميع الوسائل • أصبحت المسألة فى نظره
مسألة وجود وبقاء • وظهرت العبودية • حتى لقد وجدت عبودية متطوعة
تطوعاً • فالضعفاء خضعوا للأقوياء عن طوعية ورضى ، بشرط أن يساعدهم
الأقوياء فى سحق من هم أضعف منهم • وجاء الى هؤلاء الناس رجال
عادلون صالحون ، فكذبوهم عن صلهم وكبريائهم ذارفين الدموع ، وعابوا
عليهم أنهم فقدوا القصد والاعتدال والانساق ، وأنهم ضيعوا الحجل والحفر
والحياة • فسخر الناس منهم ، ورجموهم بالحجارة • وانسكب دم القديسين
على رحبات المعابد • وظهر فى مقابل ذلك رجال آخرون تخيلوا أن يمدوا
الانسجام الى البشر ، فلا يكف الفرد عن أن يحب نفسه أكثر مما يحب
غيره ، ولكنه فى الوقت ذاته لا يكون أمام غيره عقبة وحاجزاً ، وبذلك
يشترك الأفراد جميعاً فى تأليف مجتمع يعيش فيه الناس كافة فى وفاق •
وأوقدت نيران حروب كثيرة لفرض هذا المبدأ • ولكن هذا لا ينفى أن
المقاتلين يؤمنون ايماناً قاطعاً بأن العلم والحكمة والشعور بالأمن الشخصى
ستجبر البشر أخيراً على أن ينقذ اتفاقهم على ارساء قواعد مجتمع يسوده
العقل ، وهم لذلك - أعنى « الحكماء » - يحاولون بانتظار أن تتحقق اقامة
ذلك المجتمع الكامل أن يتخلصوا من جميع أولئك الذين ليسوا علماء
ولا يفهمون فكرتهم ، حتى لا يكون هؤلاء عقبة تقف فى طريق انتصارهم •
ولكن عاطفة البقاء الشخصى ضعفت بسرعة ، فقام عهد المعتزين بأنفسهم ،
الزهويين بصفاتهم ، الحريصين على لذاتهم ، الذين يطلبون بوضوح كامل

أن يكون لهم كل شيء أو ألا يكون لهم أي شيء . ومن أجل أن يحصلوا
 على كل شيء ، وجب عليهم أن يلجئوا الى الوحشية ، فإذا لم تفلح الوحشية
 لجئوا الى الانتحار . ووجدت ديانات تدعو الى عبادة اللاوجود ، وتنادي
 بتدمير الانسان نفسه نشداناً للراحة الأبدية في أحضان العدم . وتعب
 هؤلاء البشر أخيراً من عمل محموم وجهد مسعور ، فحملت وجوههم
 آثار الألم ، ولذلك أخذوا ينادون بأن الألم جمال ، لأن الفكر لا يولد
 الا من الألم ، أو لأن الألم ثمن الفكر ؛ وأخذوا يمجدون الألم في
 أغانيهم . وصرت أتجول بينهم وأنا أعقف يديّ حيرة عليهم وأذرف
 العبرات حزناً لهم ، ولكن لعلني صرت أحبهم أكثر مما كنت أحبهم قبل
 ذلك ، أيام كانت وجوههم خالية من الألم ، وكانوا بريئين وكانوا على ذلك
 الجانب كله من الجمال . وعدت أحب الأرض التي دَسَّوها أكثر مما كنت
 أحبها أيام كانت جنة ، لا شيء الا لأن الألم ظهر فيها ! واأسفاه ! كنت
 قد أحببت العذاب والحزن دائماً ، ولكنني أحبتهما لنفسى ، لنفسى وحدها ،
 فكنت أبكي عليهم وأرثي لحالهم . وصرت أمدُّ اليهم ذراعيّ مكروباً
 يائساً ، أنهم نفسى وأدينها وألعنها وأحتقرها . قلت لهم اننى أنا الذى
 صنعت هذا الشر كله ، أنا وحدى ، واننى أنا الذى جلبت لهم الفساد
 والعدوى والكذب ! وتضرعت اليهم أن يصلبوني ، وعلمتهم كيف يصنع
 صليب . كنت لا أستطيع ، كنت لا أقوى على أن أقتل نفسى ، ولكنني
 أردت أن أحمل عنهم جميع آلامهم . كنت أتوق الى الألم . كنت أنطلع
 الى أن أسكب في هذا الألم حتى آخر قطرة من دمي . ولكنهم كانوا
 لا يزدون على أن بضحكوا مقهقين ، ولم يفتهم في النهاية أن يعدوني
 مجنوناً مجذوباً الى عالم النيب ، مجنوناً صوفياً . وأعلنوا لي أخيراً أنني
 أخذت أبدو خطراً ، وأنهم سيجبسونني في ملجأ للمجانين اذا أنا لم
 أسكت . فاجتاح نفسى عندئذ حزن بلغ من القوة أن قلبي انقبض انقباضاً
 شديداً وأحسست أنني أموت وحينذاك ، استيقظت من نومي .

كان الفجر قد بدأ يتنفس ، ولمّا يطلع النهار بعد ، ولكن الساعة تقارب السادسة . فتحت عينيّ فوجدتني جالساً على ذلك المقعد نفسه ، وكانت شمعتي قد ذابت الى آخرها ، وكان كل شيء نائماً فى غرفة جارى الكابتن . وكان الصمت مخيماً حولي رغم ندرة الصمت فى بيتنا .

ان أول شيء بدر منى هو أننى وثبت من مكانى وقد اعترتني دهشة شديدة أقصى الشدة . لم يسبق أن حدث لى أمر كهذا فى يوم من الأيام . ولا حدث لى (وهذه نقطة تفصيلية تافهة) أن غفوت جالساً على المقعد . وبينما أنا أهبّ واقفاً وأتوب الى رشدى ، اذا بالسندس الملقوم المهيأ لانطلاق الرصاصة منه يخطف بصرى ، ولكننى سرعان ما أقصيته عنى . آ . . . الحياة ! الآن الحياة ! ورفعت ذراعىّ أبتهل الى « الحقيقة » الأبدية ، بل لم أبتهل ، وانما أخذت أبكى وقد أخذت حميماً شديدة ، حميماً لا حدود لها ، ترفع وجودى كله ، وتسمو به . نعم ، يجب أن أحيأ وأن أبشر ! ونذرت نفسى فوراً لرسالة التبشير ، مدى الحياة طبعاً . سأمضى أبشر . أريد أبشر . . . بماذا ؟ « بالحقيقة » ، ما دمت قد رأيتها ، رأيتها بعينى رأسى ، رأيتها فى كل مجدها !

ومنذ ذلك الوقت انما رحت أبشر ! وما أكثر ما أحب أولئك الذين يضحكون منى ! لعلنى أحبهم أكثر مما أحب غيرهم . لماذا ؟ لا أدرى ، ولا أستطيع أن أجد لهذا تعليلاً أو تفسيراً . ولكن ليس لهذا من شأن . المهم أنهم يدعون الآن أننى أسير فى طريق خطأ ، أو يتساءلون عما سأصير اليه وقد سرت فى طريق خطأ . هذه حقيقة : لقد ضللت الطريق ، وسيزداد الأمر سوءاً . لا شك فى أننى سأغلط مراراً قبل أن اكتشف كيف يجب علىّ أن أبشر ، أن ما هى الأقوال وما هى الأقوال التى ينبغى أن تكون سبيلى الى التبشير ، لأن رسالة التبشير ليست بالامر السهل . هذا كله أراه أنا أراه رؤية واضحة وضوح النهار منذ الآن . ولكن اسمعوا : من ذا الذى لا يضل الطريق ؟ من ذا الذى لا يسير فى

طريق خطأ ؟ ومع ذلك يسير الجميع ويتجهون الى غاية واحدة بعينها ، من أحكم حكيم الى شر شرير . كل ما هنالك من فرق هو أنهم يسلكون الى هذه الغاية الواحدة سبلاً مختلفة . تلك حقيقة قديمة . ولكن اليكم على الأقل هذا الأمر الجديد : اننى لن أستطيع أن أخدع عن نفسى كثيراً ، لأننى رأيت الحقيقة . رأيت ، وصرت أعلم أن البشر يمكن أن يكونوا على جانب كبير من الجمال والسعادة دون أن يفقدوا القدرة على أن يحياوا على هذه الأرض . لا أريد ولا أستطيع أن أصدق أن الشر هو الظرف الطبيعي السوى العادى لأفراد البشر . ومع ذلك فانهم بسبب هذا الاعتقاد وحده انما يسخرون منى ويتهمون على . ولكن كيف يمكن أن لا يصدقنى الناس ؟ لقد رأيت الحقيقة . رأيتها رؤية ، ولم أتخيلها تخيلاً بالفكر . رأيتها رؤية ، وغمرتني « صورتها الحية » وملأت نفسى الى الأبد . رأيتها فى كمال مطلق يبلغ من التمام أننى لا أستطيع أن أصدق أنها لن توجد لدى البشر ! فكيف أضل الطريق والحال هذه ؟ وقد أتوه غير مرة ، وقد أنطق بأقوال غريبة ، ولكن ذلك لن يدوم مدة طويلة . ان الصورة الحية لما رأيته ستظل ماثلة فى نفسى على الدوام ، فتعرف كيف تقوم عوجى وتسدّد خطاى وتوجه سيرى . وانى امرؤ شجاع وان لى قوى نضرة ، فلأضيق مبشراً ولو ألف سنة . أرايتم ؟ لقد أردت أن أخفى عنكم فى أول الأمر أننى أفسدت الجميع . وكان هذا الكتمان منى خطأ أول . ولكن « الحقيقة » همست تقول لى اننى أكذب ، فصاننتى من الانزلاق ووجهت مسيرى . ماذا يجب أن نعمل لاقامة الجنة ؟ - لا أدرى ، لأننى لا أستطيع أن أعبر عن هذا بالفاظ . اننى منذ رأيت حلمى قد فقدت استعمال الكلام ، أو فقدت على الأقل استعمال الأقوال الأساسية التى لابد منها ولا غنى عنها . ولكن لن يهمنى هذا . لسوف أمضى ، ولسوف أقول كل شئ بشير كلال ، لأننى قد رأيت بعينى رأسى ، وان كنت لا أستطيع أن أصف ما رأيت . يقولون : « ما رآه هو حلم ، هو

كابوس ، هو هلوسة . . . هيه . . هيه . . ليس فى هذا الكلام كله
خطارة . وما أكثر اعتزازهم به مع ذلك ! حلم ؟ ما الحلم ؟ حياتنا كلها ،
أليست حلمًا ؟ بل اننى لأمضى الى أبعد من ذلك فأقول : ليس يهمنى
ألا تعود تلك الجنة بعد الآن أبدًا ، وليس يهمنى أنها لم تمتد موجودة
(وأنا أدرك ذلك) ، ولكننى سأمضى أبشراً بالجنة رغم كل شيء .
وما أبسط الأمر مع ذلك . ان من الممكن أن يعاد بناء كل شيء فى يوم
واحد ، فى « ساعة واحدة » . وانما المهم أن يحب الانسان قريته الانسان
كما يحب نفسه . ذلك هو الشيء الأساسى الذى هو كل شيء ولا حاجة
بنا الى شيء آخر سواء : فمتى وفرتموه عرفتم على الفور كيف تبنيون
الجنة . على أن هذه حقيقة قديمة ما أكثر ما قرأها الناس وكرروها
مليارات المرات ! ولكن اسمعوا : انها لم تفرس جذورها فى النفوس ،
انها لم ترسخ فى القلوب . لا يزال الناس يتصورون أن « وعى الحياة
أعلى من الحياة » وأن معرفة قوانين السعادة أعلى من السعادة . وهذا
بعينه ما يجب أن نكافحه . ولسوف أكافح . يكفى أن يريد كل الناس
حتى يتم بناء كل شيء .

أما تلك البنت الصغيرة ، فقد وجدتها . وسأمضى الى أمام .
سأمضى .

خطاب عن بوشكين
۱۸۸۰

نشر هذا «الخطاب عن بوشكين» أول مرة في كراسه شهر
آب (أغسطس) ١٨٨٠ «من يوميات كاتب» (الفصل الثاني)

خطاب القى فى ٨ حزيران - يونية
أمام « جمعية أصدقاء الأدب الروسى »

بوشكين ظاهرة من الظواهرات الخارقة ، ولعل النفس الروسية قد تجلت به تجلياً فريداً . كذلك قال جوجول (١) . وانى لأضيف الى قوله أن بوشكين كان كذلك ظاهرة نبوة . نعم ، ان ظهوره يكشف لنا نحن الروس عن شئ لا شك أن فيه نبوة . لقد ظهر بوشكين حين أخذنا نعى أنفسنا حقاً ، وحين ساهم هذا الوعى الذى كان فى مجتمعنا لا يزال بذرة بعد الاصلاح الذى قام به بطرس الأكبر ، حين أسهم بظهوره فى انارة طريقنا المظلمة ، وفى توجيه سيرنا . بهذا المعنى يكون بوشكين عرافاً ومرشداً . اننى أقسم حياة بوشكين الأدبية الى ثلاث مراحل . وليس ناقداً أدبياً من يتحدث فى هذه الساعة : اننى فى نظرتى الى أدب بوشكين الآن لا أريد الا أن أشرح فكرتى عن معنى النبوة الذى لبوشكين عندنا وعمماً أقصده بكلمة النبوة . ومع ذلك أحب أن ألفت الانتباه ، عابراً ، الى أن مراحل الانتاج عند بوشكين لا يبدو أن بينها حدوداً تفصل بعضها عن بعض فصلاً تاماً . ان بداية « أونيجين » مثلاً تنتمى فى رأى الى المرحلة الأولى ، ولكن « أونيجين » تنتهى فى المرحلة الثانية ، بينما كان بوشكين قد اهتدى الى اكتشاف مثله الأعلى على تراب الوطن ، وتشبع

(١) هذه كلمات جوجول نفسها . فى مقاله « بضع كلمات عن بوشكين » التى نشرت سنة ١٨٣٥ (فى زخارف عربية) وكان الشاعر الكبير لا يزال حياً . وفى مقالة أخرى عنوالها « ماجوهر الشعر الروسى » أشار جوجول الى « الترجع الخلاق » الذى انارته فى نفس بوشكين قراءة شعراء مختلف الامم ومختلف المصور . وهذا فكرة سيمود الها دوستويفسكى فى هذا المقال ويتحدث عنها .

بهذا المثل الأعلى مجدداً اياه تجديدًا كاملاً بكل ما تملكه نفسه المحبة
البصرة من قوة . وقد اصطلح الناس أيضاً على أن يقولوا ان بوشكين
فى المرحلة الأولى من مراحل ابداعه قلّد الشعراء الأوربيين من أمثال
بانى ، وآندره شينييه وغيرهما ، ولا سيما بايرون . نعم ، لا شك أن
شعراء أوروبا قد أثروا تأثيراً كبيراً فى تفتح عبقريته ، وقد احتفظوا بهذا
التأثير فيه الى الأبد . ولكن ذلك لا ينفى أن القصائد الأولى التى نظمها
بوشكين لم تكن تقليداً فحسب ، بل كانت تكشف منذ ذلك الحين عن تمتع
عبقرته بأكبر الاستقلال . انكم لن تقفوا يوماً ، فى أى تقليد أو محاكاة ،
على ما تجدونه من أصالة الألم وعمق الوعي فى قصيدة « النجر » مثلاً ،
وهى قصيدة أنسبها الى المرحلة الاولى من مراحل انتاجه ، ناهيك عن
ذلك التدفق العارم فى الابداع ، وهو تدفق ما كان ليتجلى على هذا النحو
لو كان الشاعر لا يزيد على أن يقلّد . ان نموذج آليكو ، بطل قصيدة
« النجر » لهو رسة أولى لتلك الفكرة القوية ، الروسية تماماً ، التى
ستجلى بعد ذلك فى رواية « أوجين أو نيجين » ، منسقة أعظم الانساق ،
منسجمة أكبر الانسجام ؛ وفى هذه الرواية نرى آليكو ذاك نفسه لا يبقى
صورة شبه خيالية ، بل يصبح له وجه يمكن لمسه وفهمه فملاً . لقد
اكتشف بوشكين فى آليكو ذلك المتشرد الشقى فى بلادنا ، ذلك الجواب
التاريخى الروسى ، الذى يشكل وجوده فى هذا المجتمع المنفصل عن
الشعب ظاهرة تاريخية ذات ضرورة قصوى . اكتشف بوشكين نموذج
آليكو وصوره . ومن نافل القول أن تشير الى أنه لم يكتشفه عند لورد
بايرون فحسب . ان هذا النموذج نموذج حقيقى ، وقد رآه بوشكين بدقة
لا يأتيا الباطل ، ووضوح مصوم من الزلل . وهو نموذج سيظل يوجد
دائماً ، وسيبقى على الأرض الروسية زمناً طويلاً . ان هؤلاء الجوّالين
الذين ليس لهم نارٌ بها يستدفنون ولا مكان اليه يأوون لا يزالون حتى
أيامنا هذه يجوبون ، ولا يبدو أنهم سيختفون قبل انقضاء وقت طويل .

واذا صاروا فى زماننا هذا لا يذهبون الى الغجر ملتجئين فى عاداتهم وتقاليدهم المتوحشة مثلاً عليا عامة شاملة ، ولا يذهبون اليهم ناشدين أن يرتاحوا فى أحضان الطبيعة من الحياة السخيفة المضطربة العكرة التى يعيشها الناس فى مجتمعنا الروسى المتقف ، فانهم يندفعون الآن الى الاشتراكية التى لم يكن لها وجود فى زمان آليكو ، ويأخذون على عاتقهم مهمة جديدة ، مؤمنين كما كان يؤمن آليكو بأنهم بهذه الوسيلة الوهمية سيصلون لا الى أهدافهم الخاصة وحدها ، بل الى أهداف البشر أجمعين . ذلك أن الجواب الروسى لا يرضى بأقل من سعادة البشر كافة ليهدأ باله وتطمئن نفسه : انه لا يمكن أن يقبل بأقل من هذا - ما ظل الأمر على صعيد النظرية طبعاً . اتنا فى الحالين ازاء ذلك الروسى نفسه ظهر فى فترتين مختلفتين . أعود فأقول ان هذا الرجل انما ظهر فى مجتمعنا المتقف المنفصل عن الشعب ، المنفصل عن القوى الشعبية ، فى بداية القرن الثانى الذى أعقب اصلاح بطرس الأكبر . لا شك أن عدداً كبيراً من المثقفين الروس ، سواء فى زمان بوشكين وفى زماننا ، كانوا يعملون ولا يزالون يعملون بهدوء وسكينة ، موظفين فى المحاكم وفى السكك الحديدية وفى البنوك . وان بينهم كذلك أناساً يحصلون على مالٍ بجميع الوسائل ، حتى ان بينهم من يهتمون بالعلوم ، ويقرءون محاضرات ، وذلك كله على نحو مطرد هادئ . وان . وانهم ليقبضون رواتب ، ويلعبون بالورق ، دون أن تراودهم أية نزوة تحض على الهروب الى مخيمات الغجر أو الى أماكن أخرى ألصق بزماننا . وان هناك عدداً كبيراً من الناس يصطفون لأنفسهم صفة اللبراليين ويضيفون الى هذه اللبرالية « مسحة اشتراكية أوروبية » ترفع الدمثة الروسية من شأنها قليلاً . ولكن المسألة مسألة وقت لا أكثر . فلبس يغير من حقيقة الأمر شيئاً ألا يكون فلان قد بدأ يحس القلق ، وأن يكون فلان الآخر قد اتسع وقته منذ الآن لأن يعضى الى الباب المغلق فينطح به رأسه . ان مصيراً واحداً ينتظرهما كليهما متى

حان الحين ، اذا هما لم يسيرا فى طريق السلامة ، الذى هو طريق المصالحة مع الشعب . وهب ان هذا المصير لن يشترك فيه جميع الناس ، فانه ليكفى أن تشترك فيه « نخبة » ، يكفى أن يظهر « عشر » الناس استيائهم واستنكارهم حتى يقوم السواد الأعظم بفضل ذلك ، فلا يهدأ له بال ولا يعرف الى الراحة سيلاً . صحيح أن أليكو لا يعرف بعد أن يعبر لنا على وجه الدقة عن موضوع حينه . ان ذلك كله لا يزال فيه أمراً مجرداً بعض التجريد . وهو لا يحسن الآن الا الى الطبيعة . انه لا يحسن الا الشكوى من المجتمع الراقى ، والبكاء على حقيقة ضائعة ، ولا يعرف أين يجد هذه الحقيقة ولا كيف ، ولا يفلح فى الاهتمام اليها . ان فيه شيئاً عن جان جاك روسو انه لا يقول لنا ما هذه الحقيقة ، ولا أين يمكن أن تظهر ، ولا كيف يمكن أن تظهر ، ولا يحدد لنا الزمان الذى ضاعت فيه . هو لا يذكر لنا شيئاً من ذلك . ولكن هذا لا ينفى أن ألمه صادق . ان الانسان غريب الأطوار نافذ الصبر ، لا ينتظر الآن أن يأتيه الخلاص وتأتيه السلامة الا من الأحداث الخارجية . ولا بد أن يكون الأمر كذلك . هو يقول : « لابد أن تكون الحقيقة موجودة فى مكان غير نفسى ، لابد أن تكون موجودة فى البلاد الأخرى ، عند الشعوب الأوروبية مثلاً ، تلك الشعوب التى لها بنيان تاريخى متين ، والتى تتصف فيها الحياة الاجتماعية والمدنية بأنها منظمة . . . انه لن يدرك أبداً أن الحقيقة قائمة فى ذاته قبل كل شئ . وأننى له أن يدرك ذلك بينما هو كف على أرضه عن أن يكون عين ذاته ؟ انه منذ قرن طويل قد فقد عادة العمل . انه غير ذى ثقافة . لقد شب كما تشب فتاة فى مدرسة داخلية ، بين جدران عالية وأسوار سامقة ، خاضعاً لالتزامات غريبة لا حصر لعددتها ، تتصل بارتباطه بهذه الطبقة أو تلك من الطبقات الأربع عشرة التى ينقسم اليها المجتمع المثقف فى روسيا . هو الآن زغبة متوقفة تتموج على ما تشاء لها الريح . وانه

ليحس بذلك ، وانه يتألم منه ، بل انه ليتألم منه تألماً حاداً جداً فى كثير من الأحيان . وما ذا يهمه بعد ذلك ، أن يكون ، بانتمائه الى اسرة نبيلة كما 'يحتمل هذا ، مالكاً لأقنان ، وأن يكون قد اساق مع نزوة تستبد بنفس نييل من نبلاء الريف ، فيسح لنفسه ذلك الاتقياد لغواية أناس « خارجين عن القانون » ، ويتبع جماعه من الفجر . وبصير صاحب دب يتفرج عليه المتفرجون ؟ وطبيعى أن تستطيع المرأة ، « المرأة المتوحشة » على حد تعبير الشاعر ، أقدر من سائر الأشياء على أن تهب له الأمل فى أن تشفيه من حنينه الأليم ، ولذلك نراه يرتضى على زمفيرا بايمان طائش لكنه مسبوب الهوى ، قائلاً لنفسه : « هنا يمكن أن تكون سعادتى » هنا فى أحضان الطبيعة بعيداً عن المجتمع بين هؤلاء الذين ليس لهم لا مدنية ولا قوانين ! ، ، وماذا يحدث ؟ انه منذ أول احتكاكك بعقائد هذه الطبيعة المتوحشة ، يعجز عن السيطرة على نفسه ، ويلطخ بالدم يديه . ان هذا الحالم الشقى ليس عاجزاً عن الانسجام الشامل فحسب ، بل هو عاجز حتى عن الانسجام والتوافق مع الفجر ، وهامهم أولاء يطردونه ، بلا رغبة فى الانتقام ، وبلا كره أو ضغينة ، وقد امتلأت نفوسهم جلالاً وحلماً ودمائة .

اتركنا ايها الرجل الصلف
نحن متوحشون ليس لنا قوانين
نحن لانعذب ولانعاقب

ذلك كله خيال طبعاً ، ولكن هذا « الرجل الصلف » انما هو انسان مستمد من الواقع وقد أحسن الشاعر رسمه . وان بوشكين هو أول من أدركه ، وذلك ما لا ينبغي لنا أن ننساه . وبحماسة عارمة وحشية سيمزق هذا الانسان نفسه ، وسيعاقب نفسه للإساءة التى ارتكبها ، أو هو - وذلك سيكاد يكون أسهل عليه أيضاً ، بعد أن تذكر أنه ينتمى الى واحدة من الطبقات الأربع عشرة - سيتوق طبعاً (لأن ذلك هو

ما حدث) الى قانون قاسٍ يفرض العقاب ، وسيحرّض على اقامة هذا القانون ، ولو لمعاقبة الاساءة التى ارتكبها هو . لا ، ان هذه القصيدة العبقريّة ليست تقليداً ومحاكاة ! اتنا نرى فيها منذ الآن بزوغ الجواب عن ذلك السؤال ، « السؤال المحتوم » الذى يلقيه الايمان وتلقيه الحقيقة الشعبية : « أبها الانسان الصلف أذلّ نفسك أولاً وحطّم خيالك . أذلّ نفسك أيها الانسان الضعيف المغرور . وعلى هذه الأرض التى ولدت فيها اتعب واجهد قبل كل شيء . »

ذلكم هو الجواب الذى يطابق الحقيقة ويطابق عقل الشعب .
« ليست الحقيقة فى خارجك ، بل هى فى داخلك . اهتد الى نفسك فى نفسك . أخضع نفسك لنفسك . املك نفسك بنفسك . فترى الحقيقة .
ليست هذه الحقيقة فى الأشياء ، ولا هى فى خارج ذاتك ، ولا هى فى أى مكان بعيد ، وانما هى قبل كل شيء فيما تحدّثه من تأثير فى نفسك .
فاذا تغلبت على نفسك ، اذا انتصرت على نفسك فوجدت السلام والطمأنينة أصبحت حراً حرية لم تتخيل أنك فى يوم من الأيام أنك ستملكها . سوف تقوم بعمل عظيم ، سوف تحرر الآخرين ، وسوف ترى السعادة ، لأن حياتك ستكون ملأى ، وستفهم عندئذ شعبك وحقيقته . ليست الحقيقة فى مكان آخر ، كما لم تكن عند الفجر ، وانما أنت أنت الذى لا تستحقها ولا تكون بها جديراً ، اذا كنت شريراً ومزهُوّاً ، واذا طالبت بما لك على الحياة من حقوق دون أن تؤدى ما للحياة عليك ، دون أن تعطى فى مقابل هذه الحقوق أىّ عطاء ، وحتى دون أن يخطر ببالك أن عليك أن تعطى شيئاً . »
ان هذا الجواب عن السؤال ، ان هذا الحل للمشكلة قد أشارت اليه قصيدة بوشكين اشارة قوية . ثم جاءت قصيدة « أوجين أونيجين » فعبّرت عنه تعبيراً أوضح . وهى قصيدة ليست خيالاً كقصيدة الفجر ، وانما هى واقع محسوس ملموس تجسّدت فيها الحياة الروسية الحقيقية تجسّداً فيه من القوة والكمال ما لم يشاهد مثله قبل بوشكين ، وربما بعده .

ان أونيجين يصل من بطرسبرج ، ولا بد حتماً أن تكون بطرسبرج
هى التى يصل منها ، ولا شك أن هذا لا غنى عنه للقصيدة : فما كان
لبوشكين أن يدع لأية سمة من واقع يبلغ هذا المبلغ من الكثافة أن تفوته
فى قص سيرة بطله . أعود فأقول مرة أخرى انه صاحبنا أليكو نفسه ،
ولا سيما حين يهتف وقد استبد به الحزن كما سنرى بعد قليل :

لماذا لم يشلنى الكساح
كما شل الخلف فى مولا ؟

ولكنه هنا ، فى مستهل القصيدة ، لا يزال مزهوا بعض الزهو
ولا يزال من أبناء المجتمع الراقى . ان الحياة التى عاشها أقصر من أن
يكون وقته قد اتسع لأن يتخلص تخلصاً تاماً من وهم الحياة . غير
أنه قد بدأ يزوره ويحاصره

شيطان نبيل هو شيطان فاجر مستتر على

وهو فى هذا الركن المزوى من الريف ، فى قلب وطنه ، لا يحس
طبعاً أنه فى داره . انه لا يدرى ما عساه فاعلاً هنا ، وانه ليشعر ، على
كونه فى مسكنه ، أنه فى هذا المسكن نزير ، أنه فيه ضيف . وبعد ذلك ،
حين سيطوَّف مكتئباً أسيان فى الأرض التى ولد فيها ، وفى الأرض
الأجنبية ، هو الرجل الذى لا شك فى أنه ذكى وأنه صادق ، سوف
يشعر ، حتى فى الخارج ، أنه غريب عن نفسه مزيداً من الغربة . هو
يحب أرضه التى ولد فيها حقاً ، ولكنه لا يؤمن بها . صحيح أنه سمع فى
تلك الأرض مثلاً علياً ، لكنه لا يصدق هذه المثل العليا . انه لا يؤمن
الابشء واحد : هو أن كل عمل يحاول الشروع فيه من أجل بلاده
التي ولد فيها ، مستحيل استحالة مطلقاً . أما الذين يؤمنون بإمكان
تحقيق هذا العمل والتهوض بهذه المهمة ، والذين كان عددهم فى ذلك
الزمان قليلاً كقلته فى هذا الزمان ، فهو ينظر اليهم بسخرية حزينة .
لعله لم يقتل لنسكى الا سأم ، من يدرى ؟ لعل نوعاً من السأم الذى

يولد الحنين الى مثل أعلى شامل هو الذى جعله يقتل لنسكى • أما تاتيانا فانها لا تشبهه : انها انسانة متينة ، قوية الاستناد الى الأرض • ان لها جوهرآ لا يملك أونيجين مثله ، وهى تبعاً لذلك أذكى منه • انها بنبل غرائزها وحده تحس أين هى الحقيقة ، وتدرك ما الحقيقة ... وذلك ما سيعبر عنه ختام القصيدة • ولعل بوشكين كان يحسن احساناً أكبر لو أنه جعل عنوان قصيدته « تاتيانا » بدلاً من أن يجعله « أونيجين » ، لأنها هى بطلة القصيدة بلا مرأ • نحن هنا ازاء نموذج ايجابى لا سلبى ، بل نحن هنا ازاء نموذج الجمال الايجابى بعينه ؟ ان الشاعر هنا يعجد المرأة الروسية ، ويهشها لأن تنطق بفكرة قصيدته فى المشهد الذى يصور اللقاء بين أونيجين وتاتيانا • ومنستطيع أن نذهب الى أبعد من ذلك فنقول ان نموذج الجمال هذا الذى يعترف به للمرأة الروسية ليس له فى أدبنا نظير يساويه ، اللهم الا أن نقول ان ليزا التى صورها تورجنيف فى روايته « عش سادة » ، ربما كانت له نظيراً • ولكن طريقة أونيجين فى النظر من أعلى جعلت أونيجين لا يتعرف تاتيانا حين رآها أول مرة فى ذلك الركن من الريف ، فبانت له صورة مسكينة للفتاة الطاهرة البريئة التى تتجمل أشد الحجل حين يراها هو أول مرة : انه لم يستطع أن يدرك لدى الفتاة المسكينة ما تشتمل عليه نفسها من كمال وتمام ، ولعلها عدّها « نطفة روح » ان صح التعبير • ماذا ؟ نطفة ؟ هى ، نطفة ؟ هى ، بعد الرسالة التى كتبتها الى أونيجين منذ قليل ؟ ألا أنه لهو الذى يمكن أن يوصف بأنه نطفة روح ، هو أونيجين ، اذا كان فى هذه القصيدة نطفة روح • هو أولاً ما كان فى وسعه أن يتعرفها بحال من الحال • أهو يعرف النفس الانسانية ؟ انه رجل يعيش فى عالم مجرد ، انه حالم قلق طول حياته • وبعد ذلك لم يتعرفها أكثر من هذا فى بطرسبرج ، رغم زعمه فى رسالته الى تاتيانا أنه اكتشف « جميع ما تتحلى به من ألوان الكمال » • ولكن هذه الكلمات ليست الا كلمات : لقد مرت تاتيانا بحياة أونيجين مرورآ ،

مرت بجانبه دون أن يعرفها وأن يقدرها حق قدرها • وتلكم هي مأساة روايتهما • آ • • • لو قد وصل من انجلترا الى تلك القرية في ذلك الأوان • حين رآها أول مرة • لو قد وصل رجل اسمه تشايلد هارولد • أو وصل بايرون نفسه • فلاحظ ما في تاتيانا من سحر خفى نفّاذ • فدلّ أونيجين عليه • وأشار له إليه • اذن لحطف هذا السحر ابتاهه حتماً • ولأذهله اذهالاً • لأن لدى شهداء « ألم المجتمع » هؤلاء عبودية روحية تبلغ مبلغاً كبيراً من الاصططاط ! ولكن هذا لم يحدث • وقد رأينا صاحبنا الباحث عن الانسجام الكلي الشامل • بعد أن يلقي عليها موعظته وبعد أن يتصرف تصرفاً شريفاً على وجه الاجمال • يمضي مصطحباً أله من المجتمع والدم الذي سفحته يدها بحماقته الشريرة • يمضي يطوّف في البلد الذي ولد فيه • ولكنه يطوّف في هذا البلد دون أن يرى منه شيئاً • ويهتف قائلاً في سبيل من اللعنات وهو يفيض صحة وعافية :

الا في ريعان الشباب ؟ والحياة قوية في نفسي
فماذا انتظر ؟ انه السام ثم السام !

وذلك ما كانت قد أدركته تاتيانا • وفي الأبيات الخالدة من هذه الرواية الشعرية يصوّر الشاعر بطلته تاتيانا وهي تزور منزل ذلك الرجل الذي لا يزال غريباً كل الغرابة ولا يزال لغزاً خفياً وسراً عجيباً في نظرها • ها هي ذى في مكتب أونيجين • تلقى نظرةً على كتبه وأشياءه وتحفه • وتحاول أن تنفذ الى نفس مالكها من خلالها • وأن تدرك السر وتحل اللغز من النظر اليها • وتتلبت « النطفة الروحية » أخيراً على فكرة وهي تبسّم ابتسامة غريبة مع احساسٍ بأنها حلّت اللغز • ودمدمت شفتاهما تقولان :

الا يمكن ان يكون نوعاً من محاكاة مضحكة ؟

نعم • كان لا يمكنها الا أن تنطق بهذا الكلام • لقد أدركت

الحقيقة • وبعد ذلك بمدة طويلة ، أنشاء لقائهما الجديد فى بطرسبرج ، كانت تعرفه منذئذ معرفة تامة • وبالمناسبة ، من ذا الذى زعم أن حياة البلاط ، حياة المجتمع الراقى ، قد أحدثت فى نفسها أثراً وبيلاً ، وأن صفتها كسيدة من سيدات المجتمع الراقى والآراء الجديدة التى فى ذهنها عن منزلتها ومكانتها كانت من أسباب الرفض الذى واجهت به أونيحين ؟ لا ، ان الأمر لم يكن كذلك • لا • انها لا تزال تانيا نفسها ، تانيا القروية كما كانت فى الماضى • انها لم تفسد • بالعكس • ان بذخ الحياة البطربرجية يرهقها ويضنيها ، وانها لتألم من ترف هذه الحياة ببطرسبرج • انها تكره مكانتها هذه كسيدة من سيدات المجتمع الراقى • ومن يحكم عليها غير هذا الحكم يكن جاهلاً بما أراد أن يقوله بوشكين • ها هى تكلم أونيحين فتقول له بلهجة جازمة :

لكنى وهبت نفسى لأخر
وسابقى وفيه له ال ابد

لقد نطقت بهذه الكلمات نطق امرأة روسية تماماً • وذلك هو تمجيدها • انها تعبر عن حقيقة القصيدة • لن أقول شيئاً عن اعتقاداتها الدينية ، لن أقول شيئاً عن الرأى الذى تراه فى رباط الزواج المقدس • لا • هذه نقطة لن أمسّها • ولكن ماذا ؟ هل لهذا رفضت أن تتزوجه ، مع أنها قالت له هى نفسها : « أحبك » ؟ هل لهذا ، من حيث أنها امرأة روسية (لا امرأة من الجنوب ، لا فرنسية ما) تعجز عن القيام بخطوة جريئة ، ولا تقوى على كسر القيد الذى يكبلها ، والتضحية بمفاتيح الأمجاد والثراء والمكانة العالية فى المجتمع الراقى والآراء السائدة عن الفضيلة ؟ لا ، ان المرأة الروسية جريئة • المرأة الروسية تتبع الرجل الذى تؤمن

به ، تتبعه بسالة وجسارة ، ولقد برهنت على ذلك • ولكنها • وهبت نفسها لآخر وستبقى وفية له الى الأبد • • فمن الذى ستبقى وفية له ؟ وباسم أية واجبات تبقى وفية له ؟ أمهى وفيّة لذلك الجنرال الذى لا تستطيع أن تحبه لأنها تحب أونيچين ، وانما هى تزوجه لا لثىء الا لأن أمها توسلت اليها أن تتزوجه « دامعة ضارعة » ، ولأن نفسها التى أهينت وُجِرت لم يكن فيها حينذاك شىء الا اليأس ، ولم يكن ثمة أى دليل على أن جديداً سيحدث ؟ نعم ، لهذا الجنرال انما ستكون وفية ، لزوجها ، للرجل الشريف الذى يحبها ويحترمها ويحجلها ويبدو فخوراً بها • لا قيمة للاحاحات أمها • انها هى التى وافقت لا غيرها : هى التى حلفت لتكوننّ له الزوجة الوفية • ليس أمراً هاماً أنها تزوجه بعد يأس • هو الآن زوجها • فلو خاتته لجللها العار والدنس ، ولقتلها قتلاً • ثم هل يستطيع الانسان أن يبنى سعادته على شقاء غيره ؟ ليست السعادة كل شىء فى مباحج الحب ، بل السعادة فى الانسجام الأعلى الذى يتحقق للروح والفكر • وأتئى للفكر أن يجد الراحة اذا كان يحاصره شبح عمل غير شريف ، عمل شرير ، عمل ليس انسانياً • أيجب عليها أن تهرب لا لثىء الا لأن الأمر أمر سعادتها ؟ أية سعادة يمكن أن يتمتع بها المرء اذا كانت قائمة على شقاء غيره ؟ تصوروا أنكم مكلفون أتم أنفسكم ببناء صرح المصائر الانسانية لهدف أخير هو أن تجعلوا جميع الناس سعداء ، وأن تهبوا لهم السلام والراحة آخر الأمر • وتخلوا عندئذ أيضاً أنكم فى سبيل تحقيق ذلك لا غنى لكم عن تعذيب انسان واحد ، واحد لا أكثر ، بل انسان ليس له قيمة كبيرة ، انسان يمكن أن يمد مضحكاً ، فليس هو رجلاً عبقرياً مثل شكسبير ، وانما هو شيخ طيب شريف لا أكثر له زوجة شابة يؤمن بحبها ايماناً أعمى ، زوجة لا يعرف قلبها ، ولكنه فخور بها مرتاح اليها واثق بها • تخلصوا أن هذا الرجل هو الذى يجب عليكم أن تهينوه وأن تخزوه وتلطخوا شرفه وأن تعذبوه •

تخلوا أن سعادتنا لا بد أن 'تبنى على دموع هذا الشيخ الذى لا حول له ولا قوة ولا يملك عن نفسه دفاعاً • فهل يقبلون أن تشيدوا ذلك الصرح بهذا الثمن ؟ وهل يمكنكم أن تسلموا ، ولو دقيقة واحدة ، أن أولئك الذين 'بنى لهم هذا الصرح يرضون هم أنفسهم أن يقبلوا منكم تلك السعادة اذا كانت قد شيدت على آلام مخلوق هو أهون المخلوقات شأنًا ، مخلوق عذب لهذه الغاية ظلمًا بغير شفقة ولا رحمة ؟ وهل تقدرون ، اذا أنتم قبلتم هذه السعادة ، أن تبقوا سعداء الى الأبد ؟ قولوا لى : هل كانت تاتيانا تستطيع أن تعقد عزمها على غير ما عقدته عليه ، وأن تتخذ قراراً غير القرار الذى اتخذته ، هى التى 'وهبت لها نفس تبلغ هذا المبلغ من النبل ، وأوتيت قلباً يبلغ هذا المبلغ من الرحمة ؟ لا ، لم يكن فى وسعها أن تفعل غير ما فعلت • هكذا يكون القرار الذى تتخذه نفس روسية تقية • « ألا فلأحرم وحدى من السعادة ، ألا فليكن شقائى أكبر من شقاء هذا الشيخ الى غير حدٍ ولا نهاية ، ألا فليجهل جميع الناس وهذا الشيخ نفسه تضعيتى ، ولا يقدروها حق قدرها الى الأبد ! اننى أؤثر ذلك على أن تقوم سعادتى على شقاء غيرى • اننى أرفض أن يكون شقاء غيرى ثمن سعادتى ! » • فى هذا تكمن المأساة ، وسوف تحدث المأساة ، سوف يفوت أوان تجاوز الحاجز • ذلكم هو السبب الذى جعل تاتيانا تطرد أونيجين • رب قائل يقول : « ولكن أونيجين شقى أيضاً • فهمى قد أنفقت واحداً وأهلكك آخر ! » • اسمحوا لى ! هذه مسألة ، ولعلها أخطر مسألة فى القصيدة • يجب أن أنير فى هذه المناسبة الى أن امتناع تاتيانا عن الذهاب مع أونيجين هو عندنا ، فى أدبنا على الأقل ، قصة فريدة جداً فى نوعها • لذلك أبحث لنفسى أن أقبض فى الكلام على هذا الموضوع افاضة طويلة • ان أغرب ما فى الأمر هو أن الحل الأخلاقى لهذه المسألة قد كان موضع شك فى كثير من الأحيان عندنا • فاليكم ما أراه فى الأمر من رأى • اننى أتصور أن تاتيانا ما كان لها أن تذهب مع أونيجين

ولو حدث أن أصبحت حرة طليقة ، أن مات عنها زوجها ، أن أصبحت
أرملة . أنحن فى حاجة حقاً الى أن نتعمق طبيعة هذا الزواج ؟ انها تعلم
حق العلم من هو أونيجين : هو جَوَّابُ أبدى حدث أن رأى ، على حين
فجأة ، المرأة التى سبق أن ازدراها ؟ رآها فى البذخ والترف الذى تنعم
به بيثة لا يقدر هو أن يبلنها . هنا جوهر القضية كلها . هذه البيثة هى
جوهر القضية كلها . ان تلك البنت الصغيرة التى أوشت فى الماضى أن
يحترقها احتقاراً ، تحظى اليوم بتسجيل المجتمع الراقى - هذا المجتمع
الذى له على رجل مثل أونيجين سطوة وسلطان ، رغم جميع ميول أونيجين
الى الشمول - ومن أجل هذا انما هرع اليها مبهوراً ! لقد هتف يقول :
« هذا مثلى الأعلى ، هذا خلاصى ، هذا ما يروى ظمئى ، ويشفى غليلى ،
ويروى حنينى ! لم أقدر أن أرى السعادة حين كانت فى متناول يدي ،
حين كانت قريبة كل القرب منى ! » . وكما يتوق أليكو الى زمفيرا ،
يتطلع أونيجين الى تاتيانا . أليست تعرفه تاتيانا وتقرأ ما فى نفسه قراءة
واضحة ؟ ألم تكشف سرّه ، وتفك لغزه منذ مدة طويلة ؟ انها لتعلم
الآن علم اليقين أنه لا يحب فى الواقع الا وهمه الجديد ، فهو لا يحبها
هى ، هى التى لا تزال كما كانت فى الماضى تاتيانا الهادئة . انها تعلم أنه
يعدّها شيئاً آخر غير ما هى . انها تعلم أنه لا يحبها هى ، وأنه ربما كان
لا يحب أحداً ، بل أنه قد يكون عاجزاً عن أن يحب أحداً رغم كل
ما يقاسيه من تبايرىح شديدة ! انه يحب وهمه الخاص ، وهو نفسه ليس
الا وهماً ! فلو تبعته لصحت من الفتنة وأفادت من السحر منذ الغد ،
ولسخرت مما اندفعت فيه وانقادت له من حماسة . ان أونيجين لا أرض
له ، لا تراب له . انه زغبة فى مهب الريح . أما هى فتختلف عن هذا
كل الاختلاف . انها حتى فى اليأس والألم اللذين يستبدان بهما حين
ترى تهدم حياتها ، يبقى لها شيء ثابت لا يتزعزع ، شيء متين راسخ تستند
اليه روحها ، وتعتمد عليه نفسها : وهو ذكريات طفولتها ، ذكريات البلد

الذى ولدت فيه ، ذكريات الركن الصغير من الريف ، الذى فيه بدأت حياتها الهادئة النقية • هو « الصليب وظل الأغصان على قبر مرضعتها المسكينة » • ان هذه الذكريات وهذه الصور الباقية من الماضى لهى أغلى فى نفسها من كل شئ • ان هذه الصور هى كل ما بقى لها ، وهى هى التى تنقذ روحها من يأس لا مخرج منه • وهذا وحده ليس قليلاً ، بل انه لكثير ، لأنه أساس راسخ ، فيه شئ لا يتزعزع ولا يتهدم • بهذا انما يتم اتصال الانسان بالوطن ، وارتباطه بالشعب ، وتعلقه بما يحمله ويقدسه • فما الذى يملكه أونيچين ، ومن هو ؟ انها لا تستطيع أن تتزوجه من باب الرأفة والشفقة ، ملهاةً يزجى بها وقته لا أكرر • انها لا تملك أن تبدد هذا الكنز من الشفقة المحبة ، من أجل أن تخلق له شبح سعادة ، لأنها تعلم حق العلم أنه سيستهزىء فى غد بهذه السعادة • لا • ان من النفوس نفوساً عميقة قوية لا تستطيع ، عامدةً واعية ، أن تسلم للعار شيئاً تحترمه وتقده ، ولو أوتيت عطقاً لا نهاية له ، ورأفة لا حدود لها • لا • ما كان فى وسع تاتيانا أن تتزوج أونيچين •

هكذا يتجلى بوشكين ، فى قصة « أونيچين » ، فى هذه القصيدة الخالدة التى لانضامى ، يتجلى كاتباً قومياً لم نعرف مثله قبله • لقد استطاع بنظرة ثاقبة تبلغ غاية الدقة والحدة أن يرى أعماق كيائنا ، وأن يبصر قرارة هذا المجتمع الذى ينزل عندنا منزلةً فوق طبقة الشعب • ان بوشكين ، بتصويره الجوّاب الروسى ، بتصويره المتشردّ فى هذا الزمان والمتشرد الذى وجد حتى الآن ، وبادراكه بحدس العبقرى طبيعة هذا المتشرد ومصيره التاريخى وما يكتسبه من شأن ضخم فى مصائر روسيا فى المستقبل ؟ وبوضعه نموذج الجمال الروسى الحق الى جانب ذلك المتشرد متمثلاً فى المرأة الروسية ، قد استطاع ، سابقاً جميع كتاب روسيا ، أن يعرض أمام أبصارنا فى سائر الآثار التى ألفها فى تلك المرحلة من مراحل حياته الأدبية ، سلسلة كاملة من النماذج الروسية الجميلة حقاً ،

التي اكتشفها في الشعب الروسي • وأبرز سمات هذا الجمال أن هذه النماذج حقيقة صادقة ، فهو جمال لا يمكن جحوده ، جمال محسوس ملموس ، فلا يستطيع المرء أن ينكر هذه النماذج ، لأنها قائمة أمام بصره كأنها مقدودة من صخر • أعود فأقول مرة أخرى انني لا أتكلم كلام ناقد من نقاد الأدب • لذلك سأتجنب أن أشرح رأيي فأصدر حكماً مفصلاً على ما تركه شاعرنا من آثار عبقرية • ان المرء ليستطيع مثلاً أن يؤلف كتاباً كاملاً عن نموذج الراهب العالم بالأخبار ، فيبين ما لهذا الوجه المهيّب عندنا من شأن كبير ودلالة غنية ، وهو الوجه الروسي الذي اكتشفه بوشكين على الأرض الروسية ، واستخرجه ، ونحت صورته ، ووضع أمام أبصارنا فأصبحنا نراه الى الأبد بجماله الروحي الهادي الفخيم شاهداً على ما للشعب من روح قوية قادرة على أن تستخرج من قرارة ذاتها وجوهاً لا سبيل الى جحود جمالها أيضاً • ان بوشكين قد استمد هذا الوجه من الواقع ، فهو وجه موجود ، لا يمكن انكاره ولا يستطيع أحد أن يزعم أنه مبتكر ابتكاراً ، وأنه ثمرة من ثمرات الخيال أو التصور عند شاعر • انكم لتأملونه أنتم أنفسكم وتسلمون به : نعم ، هو اذن موجود ، وان روح الشعب الذي خلقته لموجودة أيضاً • ويتبع ذلك أن ما تملكه هذه الروح من قوة حية نشيطة موجودة كذلك ، وكبيرة ورجبة • اننا لنحس في جميع أعمال بوشكين ايماناً بالطبع الروسي ، ايماناً بطاقته الروحية • واذا وجد الايمان فقد وجد الأمل أيضاً ، وهو أمل كبير في الانسان الروسي :

مؤملاً مجدداً وخيراً
ارلو أمامي خير خائف

كذلك قال الشاعر نفسه فى مناسبة أخرى ، ولكن هذه الكلمات يمكن أن تصدق على جميع آثاره القومية . وما من كاتب روسى ، لا قبله ولا بعده ، بقى فى يوم من الأيام متحداً بشعبه اتحاداً يبلغ هذا المبلغ من العمق ، ويصل الى هذه الدرجة من ارتباط الابن بأبيه وأمه . صحيح أن عندنا كتاباً كثيرين يعرفون الشعب ويتكلمون عنه بموهبة ومقدرة ومجبة . ولكن كل ما تستطيع أن تقوله عن هؤلاء الكتاب ، اذا أنت قستهم ببوشكين (عدا مستثنين اثنين بين أواخر مقلدى الشاعر) هو أنهم « سادة » يتكلمون عن الشعب . وحتى بين أقوام موهبة ، حتى لدى المستثنين الاثنين اللذين أملت إليهما ، نحس على حين فجأة بظهور شيء أعلى ، شيء ينحدر من طراز آخر من المعيشة والحياة ، شيء يشبه أن يكون رغبة لدى الكاتب فى رفع الشعب اليه ، ونفعه بتصوره . أما بوشكين فإنه يملك شيئاً لا أدرى ما هو ، شيئاً يقرّبه من الشعب « نهائياً » ، ويكتسب لديه نوعاً من طبيعة بسيطة ساذجة . انظروا فى أسطورة « الدب » ، اقرأوا كيف قتل فلاح « صاحب الماعلى الدب » ، أو تذكروا ذلك البيت من الشعر عن « العراب ايفان » ، افعلوا هذا فتدركوا ماذا أريد أن أقول .

ان جميع هذه الكنوز من الفن والحس التى خلفها لنا شاعرنا الكبير هى نوع من الهدى للفنانين الذين سيخلفونه ، للفنانين الذين سيحققون رسالتهم بعد الآن على هذا الدرب الذى شقه لهم . حقاً اننا نستطيع أن نقول : لولا أن وجد بوشكين ، لما وجدت المواهب التى أعقبته . أو قولوا على الأقل ان هذه المواهب ، مهما تكن عظمتها ، ما كان لها لولاه أن تظهر قوية هذه القوة التى نراها لها اليوم ، ولا واضحة هذا الوضوح الذى تتجلى به فى هذا الوقت . ولكن الأمر ليس أمر شعر فحسب ، ليس أمر عمل فنى فحسب : ان الشيء الذى كان يمكن ألا يتجلى تجلياً قوياً هذه القوة التى لا تقاوم، لولا أن وجد بوشكين

(وهذا ما رثى بعد ذلك لدى بعضهم ان لم يكن لديهم جميعاً) انما هو ايماننا باستقلالنا الروسى ، وهذا الأمل الذى أصبح اليوم واعياً كل الوعى ، أعنى أملنا فى شعبنا ، وايماننا بالرسالة التى سيكون علينا ذات يوم أن نحققها فى أمرة الشعوب الأوروبية . وان مأثرة بوشكين هذه توضح انضاحاً خاصاً اذا نحن نفذنا الآن الى ما سوف أسميه بالمرحلة الثالثة من حياته الفنية .

أكرر أن هذه المراحل ليس لها تخوم محدّدة تحديداً واضحاً . فبعض أعمال بوشكين ، حتى بين تلك التى تنتمى الى المرحلة الثالثة ، كان يمكن أن تظهر فى بداية حياة شاعرنا الفنية ، لأن بوشكين كان فى جميع الأوقات كاتباً حياً مكتملاً ان صح التعبير ، كاتباً حياً يشتمل منذ البداية على بذور جميع تطوره ، فهو لم يتلق هذه البذور من خارجه . فالعالم الخارجى لم يزد فى أكثر تقدير على أن حرك ما كان ثاوياً فى أعماق نفس الشاعر . ولكن هذا الكائن العضوى كان يتطور ، ونحن نستطيع أن نميّز مراحل هذا التطور ، فنرى فى كل مرحلة منها طابعها الخاص ، وسلك النمو من طور الى طور . وعلى هذا الأساس نستطيع أن ننسب الى المرحلة الثالثة من تطوره ، تلك السلسلة من الأعمال التى تتألق فيها الأفكار العالمية خاصة ، والتى تنشر أمام أبصارنا الصور الشعرية عند الشعوب الأخرى ، وتجسّد لنا عبقرية هذه الشعوب . ان عدداً من هذه الأعمال لم يظهر الا بعد موت بوشكين . وفى هذه المرحلة من حياته الفنية انما يمثل الشاعر شيئاً معجزاً ، شيئاً لا عهد بمثله من قبل ، شيئاً لم يلاحظ فى أى مكان الى أن جاء بوشكين . صحيح أن فى الآداب الأوربية عبقریات فنية تحل مرتبة أولى فى العظمة ، أمثال : شكسبير ، وسرفانتس ، وشيلر . ولكن أرونى عبقرية واحدة من تلك العبقریات الكبرى ملكت من القدرة على الترجيع العالمى ما ملكته عبقرية بوشكين . وهذه القدرة التى هى وقف على أمثا ، هى

بعينها ما يشارك فيه بوشكين شعبنا ، وهى ما تجعل منه شاعراً قومياً . ان أكبر الشعراء الأوربيين لم يستطيعوا فى يوم من الأيام أن يجسد أحدهم عبقرية شعب آخر ، ولو كانت عبقرية الشعب الذى يجاور شعبه ، وأن يفصح عن كل العمق الحقيقى فى روحه ، وعن كل الحنين الى تحقيق رسالته ، بمثل القوة التى برهن عليها بوشكين فى هذا كله . بل ان الشعراء الأوربيين حين كانوا يرجعون الى الشعوب الأخرى ، فانما كانوا فى أغلب الأحيان يفعلون ذلك لادخال هذه الشعوب فى شعبيهم ، وفهمها على طريقتهم . لو نظرت الى شكسبير نفسه لرأيت جميع الايطاليين تقريباً يشبهون فى آثاره الانجليز . ان بوشكين ينفرد بين سائر الشعراء العالمين بالقدرة على التجسد فى شعب آخر . انظروا الى مشاهد « فاوست » ، انظروا الى « الفارس البخيل » ، انظروا الى أغنية « المغامر الفقير » . انكم اذا أعدتم قراءة « دون خوان » ، لما كان فى وسعكم أن تعرفوا أن الانسان الذى كتب هذه القصيدة ليس اسبانياً ، الا أن تروا اسم بوشكين . ما أعمق وما أهول الصور فى هذه القصيدة : « المأدبة فى زمان الطاعون » ! ألا يحس المرء فى هذه الصور الحارقة عبقرية انجلترا ؟ ان هذه الأغنية العجيبة عن الطاعون ، التى يغنيها بطل القصيدة ، وهذه الأغنية التى تغنيها ميري وتقول فيها هذين البيتين :

من صلاتنا فى المكتبة الصاخبة
ترجعت الاصوات

لهما أغان انجليزية . انهما سأم الروح البريطانية ، وأسلوب العبقرية البريطانية فى البكاء ، واحساسها الأليم بما تتوقعه من مستقبل . وتذكروا تلك الأبيات الغريبة التى جاء فيها :

ان هذا ليكاد يكون نقلاً حرفياً للمصفحات الثلاث الأولى من كتاب غيبى صوفى غريب ، كتبه نثراً متشيعاً دينى انجليزى قديم ، ولكن أهو نقل فحسب ؟ انك من خلال الموسيقى الحزينة المنتحمة التى تسمعها فى هذه الأشعار لتحس روح البروتستانتية الشمالية نفسها ، روح مهرطق انجليزى غيبى صوفى سامان قد امتلأت نفسه احتقاراً ، وتحس ميوله الفاضلة البهيمية ، العارمة التى لا تقاوم وتحس أحلامه الغيبية الصوفية الجامحة المتطرفة . انك حين تقرأ هذه الأشعار ليخيل اليك أنك تسمع روح عصور « الإصلاح » ، فإذا أنت تدرك تلك الشعلة المحاربة ، شعلة البروتستانتية ، وهى فى فجرها ، وإذا أنت أخيراً تفهم التاريخ نفسه ، تفهمه لا بالفكر وحده ، وإنما تفهمه كما لو كنت أنت هناك ، كما لو كنت تمر بمعسكر أصحاب هذه الملة ، وتتلو معهم أناشيدهم ، وتشاركهم ذرف الدموع فى حماساتهم الصوفية ، وتشاطرهم ايمانهم بما هم به مؤمنون . وفى موازاة هذه الصوفية الدينية ، انظروا الآن الى تلك الأبيات الدينية الأخرى المستمدة من روح القرآن ، أعنى « اقتباسات من القرآن » . ألا تحسون حين تقرؤنها أن مسلماً هو الذى يتكلم ؟ ألا تحسون روح القرآن ؟ ألا ترون حسامه ؟ ألا تحسون تلك العظمة البريئة فى عقيدته ، وتلك القوة الهائلة الرهيبة فى تعاليمه ؟ وعودوا بنا الى العالم القديم . افرعوا قصيدة « ليلى مصر » . ألا ترون آلهة الأرض هؤلاء الذين يحكمون شعوبهم حكم آلهة ، ويزدرون عبقرية شعوبهم وأشواقها ، ولا يؤمنون بها ، والذين يصدق عليهم أنهم آلهة منزلون ،

أطاشت العزلة عقولهم واحتضروا من الضجر وهم يهددون حزنهم
بميول حيوانية عجيبة رهية ، وشبق كشبق الحشرات ، ولذة كلذة انثى
العنكبوت التى تلتهم ذكرها • انى لأقول غير هيباب : ما عرفت الانسانية
شاعراً يضارع بوشكين فى قدرته على الترجيع العالمى الشامل • وليس
الأمر أمر ترجيع فحسب ، وانما هو أيضاً ذلك العمق المدهش فى هذا
الترجيع ، وتلك القدرة التى تملكها روح بوشكين على أن تتقمص روح
شعوب أخرى تقمصاً يكاد يكون كاملاً فهو معجزة ، لأن هذه الظاهرة
لم تتجدد لدى أى شاعر فى العالم بأسره من أقصاه الى أقصاه • ان هذا
لم يحدث الا عند بوشكين • وبهذا المعنى يكون بوشكين - كما سبق أن
قلت - ظاهرة ليس لها سابقة ، وهو فى رأينا ظاهرة نبوة ! ذلك ...
ذلك لأن ما هو روسى أكثر من كل ما عداه فى بوشكين انما يتجلى فى
هذا ، أعنى العبقريّة القوميّة فى شعره ، أعنى روح شعبنا فى الصورة
التي ستصير اليها فى المستقبل ، أى روح مستقبلنا التى عرف كيف
يستخرجها من بين شوائب الحاضر ، وكيف يعبر عنها تعبيراً نبوياً حقاً •
وهل قوة روحنا القوميّة الا ميلها - من خلال الأهداف المحدودة التى
تستهدفها - الى العالمية الشاملة ، الى التكامل الانسانى ؟ ان بوشكين الذى
أصبح شاعراً قومياً ، ما ان اتصل بالشعب حتى أحسّ سلفاً بما لهذه
القوة الشعبية من دلالة واسعة • فهو من هذه الجهة قد أدرك المستقبل
وكان نبياً •

• ان فى وسعنا أن نتساءل فى الواقع : ما اصلاح بطرس بالنسبة
الىنا ، لا من جهة المستقبل فحسب ، بل من جهة ما كان ، من جهة
الماضى ، من جهة ما حدث ووقع ؟ ما ذا كانت دلالة هذا الاصلاح بالنسبة
الىنا ؟ ذلك أن هذا الاصلاح ، فى حقيقة الأمر ، لا يقتصر بالنسبة الىنا
على أننا استعزنا العادات والأخلاق والاختراعات الأوروبية فحسب •
يجب أن تعمق تعمقاً أشد ، فنرى كيف حدث هذا الاصلاح • من

الجانز جداً ألا يكون بطرس الأكبر نفسه قد خطرت بباله في أول الأمر الا هذه الفكرة ، فجهد في تطبيقها ، أى ألا يكون قد استهدف في البداية الا منافع مباشرة . ولكن ما يملكه بطرس الأكبر من رهاقة في الفكر توجهه في عمله لابد أنها دفعت به بعد ذلك ، أثناء مضى فكرته في تطورها ، الى أهداف بعيدة المدى لا شك في أنها أرحب من تلك المنافع المباشرة . فستطيع أن تقول ان الشعب الروسى قد قبل ذلك الاصلاح لا باسم المنفعة المباشرة وانما هو قبلها حتماً لأنه أحس سلفاً يهدف بعيد أعلى كثيراً من تلك المنفعة المباشرة . وأعود فأقول ان هذا الاحساس قد يكون لا شعورياً ، ولكن ذلك لا ينفى أنه كان قوياً وأنه كان راسخاً رسوخاً عميقاً في نفس الشعب الروسى . لقد كنا جميعاً في ذلك الأوان نميل الى إعادة بناء وحدة الحياة ، الى إعادة بناء وحدة النوع الانسانى . اتنا بالصدقة لا بالعداوة (كما قد يُظن) ، وبالمحبة كلها انما قبلنا في أنفسنا عبقریات الأمم الأجنبية ، وقبلناها جميعها ، دون أن نفرق بينها ونجعل بعضها فوق بعض طبقات مختلفة باختلاف الأجناس ، لأننا علمنا بالفطرة ومنذ أول خطوة تقريباً كيف نزيل التناقضات وكيف نعدر ونغفر ، وكيف نحقق المصالحة بين الاختلافات . وبذلك كنا نؤكد منذ ذلك الحين ما نملك من استمداد وميل لأن نبنياء الوحدة العالمية ، والوحدة الانسانية بين أسر الجنس الأرى الكبير كلها منذ أن انكشفت هذه الوحدة لأبصارنا . نعم ، ان دلالة الانسان الروسى هي أنه أوروبى وأنه عالمى ، ما فى ذلك ريب . فأن يكون المرء روسياً حقيقياً ، أن يكون روسياً كاملاً ، فذلك انما يعنى (احفظوا هذا) أنه أخو البشر جميعاً ، أنه مؤمن بالوحدة الانسانية اذا شتم هذا التعبير . ان كل ما ذهبنا اليه من دعوة الى السلافية ومن دعوة الى التشبه بالغرب ليس الا سوء تفاهم ، وان يكن ضرورياً من الناحية التاريخية . فالروسى الحقيقى يرى أن أوروبا ومصائر الجنس الأرى العظيم كله غالبية على نفسه كروسيا نفسها

ومصائر أرضه التى ولد عليها : ذلك أن مصيرنا انما هو العالمية الشاملة ،
التي لا تتحقق بالسيف ، بل بالأخوة ، بجهدنا الأخوى فى سبيل أن
نردّ البشر الى الأخوة . فلو تعمقتم تاريخنا الروسى الذى تلا اصلاح
بطرس الأكبر ، لوجدتم فيه منذ ذلك الحين أثراً من هذا التفكير وقرائن
تدل عليه ، أو قولوا ان شئتم أن تستبدلوا بكلمة التفكير كلمة أخرى ،
انكم واجدون فيه آثاراً وقرائن تدل على تلك الأحلام التى عبرت عنها
منذ قليل حين تحدثت عما هو مشترك بيننا وبين الشعوب الأوروبية ،
حتى فيما يتعلق بسياسة حكومتنا ؟ اذ ما الذى فعلته روسيا فى مضمار
السياسة خلال هذين القرنين ؟ أليس واضحاً أنها خدعت مصالح أوروبا
أكثر مما خدمت مصالحها الخاصة ؟ لا أظن أن مردّ ذلك الى جهل رجال
السياسة عندنا . لا . ان شعوب أوروبا لا تدرى كم هى عزيزة فى
قلوبنا ، غالية فى نفوسنا ! انى لعلى يقين بأن الروس فى المستقبل ، أعنى
الروس الذين سيخلفوننا سوف يدركون جميعاً - ولا أستثنى منهم
أحداً - أن انتماء الفرد الى الشعب الروسى ، أى أن يكون الفرد روسياً
حقيقياً ، انما معناه أن يقوم بمصالحة - هى فى هذه المرة مصالحة نهائية -
بين التناقضات الأوروبية ، وأن يبتنّ للحنين الى أوروبا كيف أن هذا
الحنين يمكن أن يرتوى من نفسنا الروسية التواقّة الى الشمول الانسانى
والى الوحدة بين البشر ؟ وأن يجعل جميع اخوتنا فى العالم ينضمون الينا
بالحب حتى لقد تكون روسيا هى التى تنطق بالقول الفصل فى الاتساق
الشامل والانسجام الكبير والاتفاق النهائى الأخوى بين جميع الشعوب
تحت لواء المسيح . انى لأعلم حق العلم أن كلمائى هذه لا بد أن تبدو
شديدة الحماسة كبيرة الغلو وأن تبدو أوهاماً يتعلق بها الخيال . لا ضير .
لست نادماً على أننى قلنتها . لقد كان يجب أن يقال ، فى هذا الأوان
خاصة ، فى هذه الساعة الجليلة عندنا ، هذه الساعة التى نحتفل فيها
بذكرى شاعرنا العظيم الذى جسّد هو نفسه هذه الفكرة وحقّقها فى

فنه • ثم انتهى لا أعلن هذا الرأي أول مرة • ان هذا الرأي ليس
بجديد • ولكن الشيء الخطير هو أن يظن بما أقول الضرور • فإذا
بمقترض يعترض : « ماذا ؟ أليكون هذا قدر وطننا الجلف البائس ؟
أنكون نحن الذين هيأنا القدر بين سائر الانسانية لأن نتطق بالقول
الجديد ؟ » • أى غرابة فى هذا ؟ أنا أتكلم عن مجد اقتصادى • عن
مجد السيف أو العلوم ؟ لا ! فانما أنا أتكلم عن الأخوة بين البشر •
فأقول ان القلب الروسى ربما كان هو المهيأ أكثر من سائر الشعوب
لأن يحقق الوحدة الشاملة الأخوية بين جميع البشر • وقد استقيت
علامات ذلك من تاريخنا • ورأيها فى نبأنا • وشهدتها فى عبقرية
بوشكين الفنية • لا يضيرنا أن أرضنا فقيرة بائسة • ان هذه الأرض
الفقيرة قد « طاف بها المسيح وباركها فى صورة فن من الأنسان » • فلماذا
تستبعدون أن تنطوى نفوسنا نحن على آخر كلمة قالها المسيح ؟ ألم يولد
هو نفسه فى مذود ؟ أعود فأقول : اننا على الأقل نستطيع منذ الآن أن
نطلع على العالم بشاعرنا بوشكين • وبالروح العالمية الشاملة التى عبر
عنها • وبعبيرته التى تتصف بأنها انسانية كاملة • لقد استطاع بوشكين
أن يضم فى نفسه العبقرية الأجنبية الأخرى كأنها من ذوى قرباه •
لقد برهن فى الفن • أو فى خلقه الفنى على الأقل • برهاناً لا مسيل
الى جحوده • على توى الروح الروسية الى العالمية الشاملة • وذلك وحده
دليل كبير • اذا كان رأينا وهما • فاننا نقع عند بوشكين على ما يصلح
أساساً وقاعدة لهذا الوهم يقوم عليها وطبداً راسخاً • لو أن بوشكين
عاش عمراً أطول • فلربما كشف عن جوانب خالدة رائمة من النفس
الروسية كان اخوتنا الأوروبيون سيفهمونها فتجذبهم اليها أكثر مما هم
منجذبون اليها الآن • لعله كان سيستطيع • لو عاش عمراً أطول • أن
يشرح لهم أشواقنا الحقيقية • ولعلمهم كانوا سيدركون عندئذ من نحن •
فيكفون عن النظر اليها بالريبة والاحتقار اللذين لا يزالان يظهر وهما

لنا • لو عاش بوشكين عمراً أطول ، فلربما قلَّ ما يقوم بيننا وبينهم الآن
من سوء التفاهم ، وما ينشب بيننا وبينهم من مشاجرات • ولكن الله أراد
غير ذلك • فمات بوشكين وهو في عنفوان تفتح قواه ، ولا شك أنه حمل
معه إلى قبره سرا كبيرا • فهذا السر هو ما يجب علينا منذ الآن أن
نحاول النفاذ إليه بعد غيابه عنا •

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المراجع - ٢-	٥
قصص	
١ بوبوك	٤٨٣
٢ الطفل عند يسوع في عيد الميلاد	٥١١
٣ الفلاح ماراي	٥١٩
٤ عجزو تجاوز عمرها مائة سنة	٥٢٩
٥ العذبة	٥٤١
٦ حلم رجل مضحك	٦٠٩
٧ خطاب عن بوشكين	٦٤٣

الأعمال الأدبية الكاملة

<u>المجلد الأول</u>	<u>المجلد الثامن</u>
الفقراء	الجريمة والعقاب - ١-
المثل	<u>المجلد التاسع</u>
قلب ضعيف	الجريمة والعقاب - ٢-
<u>المجلد الشافى</u>	<u>المجلد العاشر</u>
نيتوتشكانز فانوفنا	الأبلة - ١-
الليالي البيضاء	<u>المجلد الحادي عشر</u>
بروخار تشين	الأبلة - ٢-
الجارا	<u>المجلد الثاني عشر</u>
المهراج	النشيطين - ١-
السارق الشريف	<u>المجلد الثالث عشر</u>
البطل الصغير	النشيطين - ٢-
قصة في سبع رسائل	<u>المجلد الرابع عشر</u>
شجرة عيد الميلاد والزواج	الرامق - ١-
زوجة آخر، وزجىل تحت السير	<u>المجلد الخامس عشر</u>
<u>المجلد الثالث</u>	قصص
قريبة ستيبان تشيكوفووسكانها	<u>المجلد السادس عشر</u>
حلم العم	الاخوة كارامازوف - ١-
<u>المجلد الرابع</u>	<u>المجلد السابع عشر</u>
مذلولون مهانوف	الاخوة كارامازوف - ٢-
<u>المجلد الخامس</u>	<u>المجلد الثامن عشر</u>
ذكريات من منزل الأموات	الاخوة كارامازوف - ٣-
<u>المجلد السادس</u>	
في قبوي	
قصة اليمى	
ذكريات شتاء عن مشاعر صيف	
الشمساح	
<u>المجلد السابع</u>	
المقامر	
الزوج الأبدى	

دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدفع عن "الفقراء" والمذللين الميائنين" فاذا عالج مشكلات ماتمنك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشتربه ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وأدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

ألكسندر ف. سربرفيف